



مطبوعات المجمع

آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال
(٢٤)



مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ وَمِنْشُورُ وَلَايَةِ الْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ

تأليف

الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١)

تحقيق

عبد الرحمن بن حسن بن قاهر

وفق المنهج المعتمد من الشيخ العلامة

بكر بن عبد الله الجوزي

(رحمه الله تعالى)

المجلد الأول

دار عطاءات العلم

مُحَقَّقٌ لِطَبْعِ مَحْفُوظَةٍ

دَارُ عَطَاءِ آيَةِ الْعِلْمِ

✉ info@ataat.com.sa

☎ 00966 559222543

📧 @ataat11

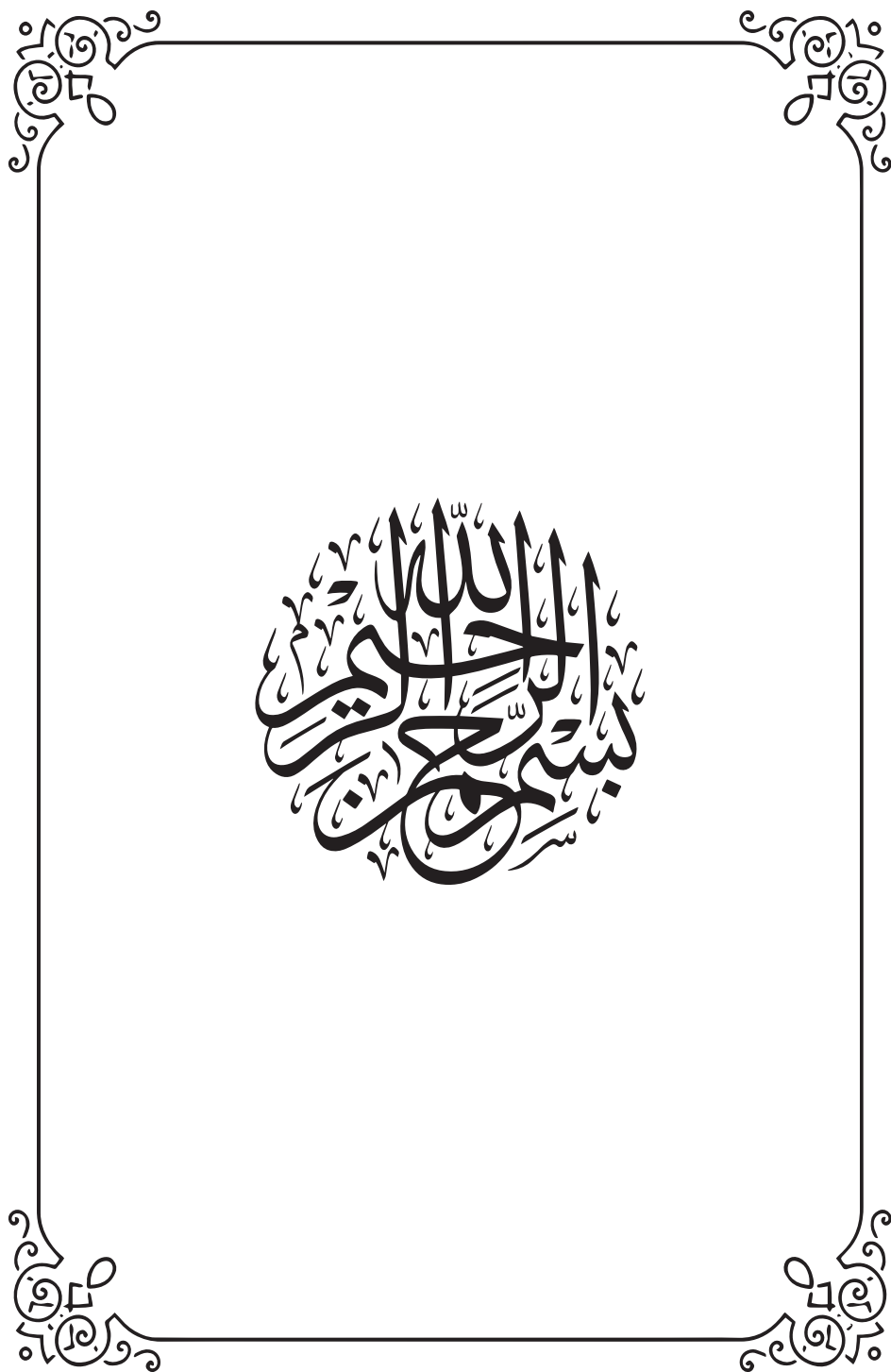
الطبعة الرابعة

١٤٤٥ هـ / ٢٠٢٣ م

رَاجِعْ هَذَا الْجَزَّءَ

مُحَمَّدًا أَجْمَلَ الْإِصْلَاحِي

سَلِيمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْعَمِيرِ



مقدمة الطبعة الثانية

أما بعد حمد الله أهل الشاء والمجد على سابغ فضله، فهذه أيديك الله بتوفيقه مقدمة للطبعة الثانية من مفتاح دار السعادة، ذكرتُ فيها ما تيسّر من الاستدراكات على عملي في الكتاب؛ ليضيفها من شاء إلى نسخته من الطبعة الأولى، قيدتها مما مرّ بي في مطالعاتي عفواً دون تتبع، وأنت عليمٌ بأن سبيل الزيادة في التعليق على النصوص لو قصد إليه المرء لم يته إلى غاية، ونسأل الله سداد الرأي وخير المنقلب.

- (ص: ٤٦ من مقدمة التحقيق) يضاف للسطر الأول: ومن كتابه في أقسام اللذات في مواضع كثيرة (ص: ٣٦٩-٣٨٣)، بتصرفٍ واختصارٍ حيناً، وبألفاظه وسياقه حيناً، وصرّح باسمه في موضع واحد (ص: ٤١٠)، ويقابلها في كتاب الرازي (ص: ٢١٤-٢٥١ نشرة ليدن).

- (ص: ٤٧ من مقدمة التحقيق) يضاف للحاشية (١): وقد وصل إليه عن طريق الشيخ أحمد بن عيسى رحمهما الله، وهو أول كتاب يصله منه، فتفاءل باسمه. انظر: الرسائل المتبادلة بينهما (٧٨، ٨٠، ٨٦، ٨٩، ٩٢).

- (ص: ٥٣ من مقدمة التحقيق) السطر الأخير: ثلاث. تصحّح إلى: ثلاثاً.
- (ص: ٧٥ من مقدمة التحقيق) يضاف: ومن نسخ المفتاح التي لم تصلنا: نسخة أوقفها يوسف بن عبد الهادي فيما أوقف من كتبه. انظر: فهرست كتبه الموقوفة (ق ٨/ و).

- (ص: ٧٨ من مقدمة التحقيق) يضاف: استخرج نصّ رسالة أبي القاسم عيسى بن علي في الرد على المنجمين التي أوردها ابن القيم د. سحبان

خليفات، ونشرها في مجلة مجمع اللغة الأردني، السنة ١١، العدد ٣٢، سنة ١٤٠٧، واعتمد فيها على مطبوعة مكتبة الأزهر.

- (ص: ٥٣) يضاف للحاشية (١): وكذلك في كتاب «الأصول والفروع» (١١١-١١٢).

- (ص: ٢٩٠) يضاف للحاشية (١): و«الأنس والعرس» للآبي (١٧٥).

- (ص: ٢٩٣) تصحّح الحاشية (١) من: «والحنائي في الفوائد» إلى: والنخشي في تخريج فوائد الحنائي.

- (ص: ٤١٠) تغيّر الحاشية (٣) إلى: (ص: ٢٦٣) باختلاف يسير، وكذا نقله شيخ الإسلام في مواضع، ولعله نقل بالمعنى أو من نسخة أخرى.

- (ص: ٤٤٤) يضاف للحاشية (٣): و«المجموع» (٢٦/١).

- (ص: ٤٤٨) تصحّح الحاشية (١) إلى: «الرد على المنطقيين»، وكتاب مختصر لم يصلنا. انظر: مقدمتي لـ «الانتصار لأهل الأثر» (٥، ١٤ - ٢٥).

- (ص: ٤٤٩) تضاف حاشية: الأبيات على ظهر النسخة الخطية الفريدة لكتاب «الرد على المنطقيين» باختلاف يسير.

- (ص: ٤٩١) يضاف للحاشية (٢): ونقله ابن عرفة في تفسيره (٥٦/٣) عن كتاب «الاقتصاد» للغزالي، ولم أجده فيه.

- (ص: ١٢٣٥) يضاف للحاشية (٣): وكتابه «تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن» (٢٩٠).

- (ص: ١٢٣٦) يضاف للحاشية (٢): والبيتان في ديوانه (٥٩ - تحقيق

عبد الله الهوني).

- (ص: ١٢٣٦) يضاف للحاشية (٤): ولابن الزرقالة رسالة «الشكازية» في الفلك، طبعت بأسبانيا. مجلة دراسات أندلسية (العدد ٧، ص: ٤٩).
- (ص: ١٢٣٨) تضاف حاشية: لأبي الصقر عبد العزيز بن عثمان القيصي- نقض على هذه الرسالة. انظر: «تمة صوان الحكمة» للبيهقي (٩٢).
- (ص: ١٤١٢) تضاف حاشية: انظر ذكر هاتين الطائفتين في: «المنقذ من الضلال» للغزالي (٧٩-٨١).
- (ص: ١٥٢١) يضاف للحاشية (٢): و«الصاحبي» لابن فارس (٦٢).
- (ص: ١٥٦٢) يضاف للحاشية (٤): و«مجموع الفتاوى» (٤١٨/٢٠).

وكتب

عبد الرحمن بن حسن قائد

الرياض

١٤٣٦ / ٦ / ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

باسمك اللهم نقدم كتاب «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة»، ونسألك تبارك اسمك أن تفتح القلوب للانتفاع به. وهذه فصولٌ قصارٌ بين يدي الكتاب تمهّد لقارئه الطريق إليه، وتلقي بمفاتيحه بين يديه، وهذا برنا مجها:

- توثيق نسبة الكتاب
- تحرير عنوان الكتاب
- تاريخ تأليف الكتاب
- موضوع الكتاب وتقسيمه
- موارد الكتاب
- الشناء على الكتاب
- وصف الأصول الخطية
- طباعات الكتاب ومختصراته
- منهج التحقيق
- نماذج من صور الأصول الخطية المعتمدة

توثيق نسبة الكتاب

هذا هو كتاب «مفتاح دار السعادة» للإمام ابن القيم، نسبة لا يخامرها ريب، ولا يزعجها توهم، بل تتناصر حججها وتداعى شواهدُها، وهي بمجموعها قاطعةُ الدلالة، شافيةٌ كافيةٌ لذي نُهيّة، وهاهي تجتاز بين يديك:

فأولها: ثبوت اسم الكتاب ونسبته إلى الإمام ابن القيم على صفحات عناوين النسخ الأصلية العتاق المدونة في عصر المصنف، وبعضها مقابل على نسخته التي بخطه، وأجلُّها بخط أحد الأئمة الحفاظ المتحرّرين، وهو إسماعيل بن محمد بن برّدس المتوفى سنة ٧٨٤، وستأتيك صورها.

وثانيها: إحالة المصنف في تواليفه الكبار المشهورة على كتابنا هذا، وذكره إياه باسمه، وما أحال إليه من المسائل موجودٌ فيه.

- قال في «الصواعق المرسلّة» (١٤٥٠): «وعلى هذا الأصل تنشأ مسألة التحسين والتقييح، وقد ذكرناها مستوفاةً في كتاب المفتاح، وذكرنا على صحتها فوق الخمسين دليلاً». وقد استوفى بحث هذه المسألة في كتابنا وحرّرها تحريراً بالغاً بما لا يوجد في سائر كتبه.

- وذكر مسألة التحسين والتقييح في «مدارج السالكين» (١ / ٩١)، ثم قال: «ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرةٌ فاسدة، وقد ذكرناها في كتابنا الكبير المسمى مفتاح دار السعادة ومطلب أهل العلم والإرادة، وبيننا فساد هذا الأصل من نحو ستين وجهًا، وهو كتابٌ بديعٌ في معناه».

- وذكرها مرةً أخرى في المدارج (٣ / ٤٩٠)، وقال: «وقد ذكرنا هذه المسألة مستوفاةً في كتاب مفتاح دار السعادة، وذكرنا هناك نحوًا من ستين

وجهاً تبطل قول من نفى القبح العقلي...».

- وذكرها في «إغاثة اللهفان» (٢ / ١٣٥)، وقال: «ومن قال: إن ذلك لا يعلم بالعقل ولا بالفطرة وإنما عرف بمجرد السمع فقوله باطلٌ قد بينا بطلانه في كتاب المفتاح من ستين وجهاً، وبيننا هناك دلالة القرآن والسنة والعقول والفطر على فساد هذا القول».

- وذكر في «شفاء العليل» (٣٨٢) قول الأشاعرة بنفي التحسين والتقييح العقليين، ثم قال: «ولعمر الله إنه لمن أبطل الأقوال وأشدّها منافاة للعقل والشرع ونفطرة الله التي فطر عليها خلقه، وقد بينا بطلانه من أكثر من خمسين وجهاً في كتاب المفتاح». وردّه عليهم ومناقشته لأدلتهم مبسوطاً في الكتاب.

- وبحث في «زاد المعاد» (٤ / ١٥٤) الأحاديث الواردة في العدوى، ثم قال: «وقد أشبعنا الكلام في هذه المسألة في كتاب المفتاح بأطول من هذا». والكلام في العدوى مشبعٌ في آخر الكتاب.

- وقال في «إغاثة اللهفان» (٢ / ١٢٥): «وأما المكذبون للرسول المنكرون للصانع فيقولون: هي النجوم، وقد أشبعنا الردّ على هؤلاء في كتابنا الكبير المسمى بالمفتاح». وهو كما قال، وردّه على المنجمين مشبعٌ مستفيض في الكتاب.

وثالثها: إحالة ابن القيم فيه على بعض مصنفاته الأخرى.

- فمن ذلك قوله (ص: ١١٠٢) في مسألة استيفاء القصاص: «وقد ذكرنا أدلة المسألة من الطرفين، وترجيح القول الراجح بالنص والأثر والمعقول في كتاب تهذيب السنن». والمسألة هناك كما قال.

- وقوله في سبب الإذكار والإيناث (ص: ١٢٥٩): «وقد أشبعنا الكلام فيها في كتاب الروح والنفس وأحوالها وشقاوتها وسعادتها ومقرها بعد الموت». وهو كتابه الكبير في الروح، غير كتاب «الروح» المطبوع، وانظر تعليقي على هذا في موضعه.

- وقوله في مبحث مشاهد العبد في المعصية (ص: ٨٠٨): «وقد ذكرنا في الفتوحات القدسية مشاهد الخلق في مواجهة الذنب». وهو من أوائل كتبه، ويحيل عليه في مصنفاته، ويقع في وهمي أنه مجموع كبير ضمّنه أبحاثاً متفرقة كتبها أيام مقامه بمكة ثم عاد فنشرها في كتبه.

- وقوله عن صنعة الكيمياء (ص: ٦٣٣): «وقد ذكرنا بطلانها وبيننا فسادها من أربعين وجهًا في رسالة مفردة»، وذكرها له تلميذه ابن رجب في ترجمته من «ذيل طبقات الحنابلة» (٥ / ١٧٦).

- وقوله (ص: ١٥٥) عند ذكر الحكمين الداوودي والسليمانى: «وقد ذكرت الحكمين الداوودي والسليمانى ووجههما، ومن صار من الأئمة إلى هذا ومن صار إلى هذا، وترجيح الحكم السليمانى من عدة وجوه وموافقه للقياس وقواعد الشرع في كتاب الاجتهاد والتقليد». وأشار إليه كذلك في «تهذيب السنن» (٦ / ٣٤١)، فهو على هذا من أوائل مؤلفاته.

- ومن ذلك وعده بتصنيف كتاب كبير في المحبة (ص: ١٢٧) بقوله: «ثم نتبعه إن شاء الله بعد الفراغ منه كتابًا في الكلام على المحبة وأقسامها وأحكامها وفوائدها وثمراتها وأسبابها وموانعها وما يقويها وما يضعفها، والاستدلال بسائر طرق الأدلة من النقل والعقل والفطرة والقياس والاعتبار والذوق والوجد على تعلقها بالإله الحق...». وانظر تعليقي على هذا

الموضع هناك.

- ومن هذا تمنيه (ص: ١٠٦٨) أفراد محاسن الشريعة بكتاب، وكذلك تمنى في «بدائع الفوائد» (٦٧٠).

ورابعها: ذكره لبعض أحواله التي ذكرها في كتبه الأخرى.

- فمن ذلك: حديثه عن مجاورته بمكة، وذكر أن هذا الكتاب مما فُتح به عليه هناك، قال (ص: ١٢٦): «إذ كان هذا من بعض النُّزُل والتحف التي فتح الله بها عليّ حين انقطاعي إليه عند بيته».

وقصّ (ص: ١٥٢٢) حادثة ضياع ابنه منه يوم التروية، ثم وجدانه. وحكى (ص: ٦٥٧) خبر مجلس حضره بمكة، وجرت فيه مسألة التفضيل بين النخل والعنب.

- ومن ذلك: إخباره (ص: ٧١٣) عن مرضه أيام مقامه بمكة، واستشفائه بزمزم؛ لعزة الأدوية والأطباء هناك في ذلك العهد، وقد أخبر بذلك في مواطن عدة من كتبه، كما بينته هناك.

وانظر لتلك المجاورة كتاب «ابن قيم الجوزية» (٥٧ - ٥٩) للشيخ بكر أبو زيد.

وخامسها: نقله عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية مواقف شاهدها بنفسه.

فمن ذلك: قوله (ص: ٧١٢): «وسمعت شيخنا أبا العباس ابن تيمية رحمه الله يقول، وقد عرض له بعض الألم، فقال له الطبيب: أضرب ما عليك الكلام في العلم والفكر فيه والتوجه والذكر! فقال: أستم ترعمون أن

النفس إذا قويت وفرحت وأوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض، فإنه عدوؤها، فإذا قويت عليه قهرته؟! فقال له الطيب: بلى، فقال: إذا اشتغلت نفسي بالتوجه والذكر والكلام في العلم، وظفرت بما يشكل عليها منه، فرحت به وقويت، فأوجب ذلك دفع العارض. هذا أو نحوه من الكلام»^(١).

وذكر (ص: ٨٤٤) الاستغفار للمسلمين والمسلمات بلفظٍ أورده، ثم قال: «وسمعت شيخنا يذكره، وذكر فيه فضلاً عظيماً لا أحفظه، وربما كان من جملة أوراده التي لا يخلُ بها، وسمعتة يقول: إن جعله بين السجدين جاز».

ونقل عنه في مواضع أخرى (ص: ٣٣٥، ٣٩٥، ٦٨٧، ٩٠٣، ٩٤٠، ١٤٨٣).
وسادسها: ذكر مترجميه للكتاب ضمن سياق تصانيفه.

فأولهم تلميذه ابن رجب في «ذيل طبقات الحنابلة» (٥ / ١٧٥) ووصفه بأنه مجلدٌ ضخيم، والصفدي في «الوافي» (٢ / ٢٧١)، وابن حجر في «الدرر الكامنة» (٤ / ٢٢)، وغيرهم^(٢).

وسابعها: نقل العلماء عنه، واستفادتهم منه، وعزوهم إليهم.
وهاك ما وقفتُ عليه من ذلك، مرتَّبين بحسب وفياتهم:

١ - برهان الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح (ت: ٨٠٣) في «مصائب الإنسان من مكاييد الشيطان» (٣٨) (٣).

(١) وذكر هذا الموقف كذلك في «روضة المحبين»، كما بينت هناك.

(٢) انظر: «ابن قيم الجوزية» للشيخ بكر أبو زيد (١ / ٣٠١).

(٣) أفادنيه الشيخ الدكتور سليمان العمير وفقه الله.

- ٢- الدّميري (ت: ٨٠٨) في «حياة الحيوان» (٣/ ٣٦).
- ٣- الدّلجي (ت: ٨٣٨) في «الفلاكة والمفلوكون»، ونصّ على النقل وسمى الكتاب في (٢٩)، ونقل دون عزو في (٢٣- ٢٨).
- ٤- الحافظ ابن حجر (ت: ٨٥٢) في «فتح الباري» (١١/ ٢٩٦).
- ٥- الإزنيقي^(١) (ت: ٨٨٥) في «مدينة العلوم»^(٢).

(١) محمد بن قطب الدين، كان تلميذًا لقاضي زاده المتوفى نحو سنة ٨٤٠، كما في «أبجد العلوم» (١/ ٥، ٢/ ٦). وترجمته في «شذرات الذهب» (٩/ ٥١٣)، و«الفوائد البهية» (١٨٥).

وإزنيق أو أزينيك، أو يزينيك كما ينطقها الترك، هي: نيقية nicaea، بلدة قديمة من أعمال القسطنطينية، كان بها مجمع النصارى الشهير، تقع على بحيرة تسمى باسمها شرقيّ بحر مرمرة. انظر: «رحلة ابن بطوطة» (٢/ ١٩٨)، و«معجم البلدان» (١/ ١٦٩)، و«بلدان الخلافة الشرقية» (١٩٠)، و«الأعلام» (٧/ ٥٠)، ودائرة المعارف الإسلامية (٢/ ٥١).

(٢) انظر: «أبجد العلوم» (٢/ ٣٦٨).

وهذا الكتاب هو أصل «مفتاح السعادة» لطاش كبري زاده، وعلى هذين و«كشف الظنون» بنى صديق حسن خان كتابه «أبجد العلوم». وذكره الكتاني في «التراتب الإدارية» (٢/ ١٨٩)، وتحرفت نسبته في مطبوعته، وذكر - على التوهم - أن مصنفه كان في المئة العاشرة. وتحرفت نسبته كذلك في مطبوعة كتابه «تاريخ المكتبات الإسلامية» (١٥٣)، فترجم محققاه لرجل غيره.

وله نسخٌ خطية في خدابخش والخزانة الملكية الحسنية وغيرها، وبعضها تنسبه لطاش كبري زاده. والغريب أن حاجي خليفة لم يذكره في «كشف الظنون»، على قرب الدار وعلاقته بموضوع كتابه، فأخشى أن يكون الكتابان - «مفتاح السعادة» و«مدينة العلوم» - إصدارتين لكتاب طاش كبري زاده، ويكون اسم الثاني ونسبته للإزنيقي خطأ قديمًا من أحد النساخ اغترّب به صديق حسن خان.

- ٦- الجلال السيوطي (ت: ٩١١) في «زهر الربى» (٣/ ١٤١).
- ٧- الصالحي الشامي (ت: ٩٤٢) في «سبل الهدى والرشاد» (٩/ ٣٥٦).
- ٨- طاش كبري زاده (ت: ٩٦٨) في «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» (١/ ٣١٤، ٣٣٩). وزعم أن ابن القيم أفرط في الطعن في علم أحكام النجوم.
- ٩- الملا علي القاري (ت: ١٠١٤) في «الأسرار المرفوعة» (٢٨٢)، نقل عن ابن القيم نصاً من «المفتاح» دون أن يسمي الكتاب.
- ١٠- حاجي خليفة (ت: ١٠٦٧) في «كشف الظنون» (١٢١٦).
- ١١- السفاريني (ت: ١١٨٨) في «غذاء الألباب» (١/ ٤١، ٤٢، ٧٦، ٧٩، ٢٤٧، ٢٥١، ٤٤٢، ٤٤٥، ١٠/ ٢، ٦٠، ١٢١، ١٢٢، ٤٤٤، ٥٩٥)، و«لوامع الأنوار البهية» (١/ ٦٢، ٢٨٦، ٣٣١، ٣٣٣، ٣٥٧، ٢/ ٢٥٦)، وغيرها.
- ١٢- مرتضى الزبيدي (ت: ١٢٠٥) في «إتحاف السادة المتقين»، وقد أكثر من النقل عن الكتاب، تارةً بالتصريح باسم الكتاب وابن القيم كما في (١/ ١٢٩، ٢٠٤)، وتاراتٍ بالتصريح بابن القيم فحسب كما في (١/ ١٠٠، ١٠٥، ١٣٥، ١٣٨، ...)، وتاراتٍ أخرى بدون تصريح كما في (١/ ١٣٧، ١٥٧، ١٥٨، ...).
- ١٣- سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (ت: ١٢٣٣) في «تيسير العزيز الحميد» (٦٦٠).

١٤ - أبو الثناء الألوسي (ت: ١٢٧٠)، ونقل عنه كثيرًا في «روح المعاني»، تارة بالتصريح كما في (١٧ / ١٠٥، ٢٣ / ٢٢٣، ٣٠ / ١٣١)، ومن مبحث الرد على المنجمين في مواضع كثيرة بلا تصريح.

١٥ - عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب (ت: ١٢٩٣) في «عيون الرسائل والأجوبة على المسائل» (٢ / ٩٥٣).

١٦ - صديق حسن خان (ت: ١٣٠٧) في «أبجد العلوم» (١ / ٩٧).

١٧ - نعمان الألوسي (ت: ١٣١٧) في «جلاء العينين» (٢٩٤).

١٨ - جمال الدين القاسمي (ت: ١٣٣٢) في «محاسن التأويل» (٣٣٧٨، ٤٢١٧، ٦١٧١، ٦٢٠٨، ٦٢٥٠).

١٩ - محمود شكري الألوسي (ت: ١٣٤٢). في «صب العذاب» (٢٤٢)، و«بلوغ الأرب» (٣ / ٣٠٨ - ٣١٢)، وغيرهما.

ثم كثر النقل واستفاض.

وثامنها: توافق كثير من مباحث الكتاب مع ما بحثه في كتبه الأخرى، واتحاد أسلوبه وقلمه.

فمن المباحث المتفقة: مسألة التحسين والتقييح، وقد رأيت إحالاته في كتبه على بحثها هنا، وتعليل أفعال الله تعالى، وحكمة إخراج آدم من الجنة، والخلاف في الجنة التي أُسكنها، ومشاهد العبد في المعصية، وعجائب خلق الإنسان وغيره، والمراد بالنجوم المقسم بها في القرآن، ومبحث العدو والطيرة، وتفضيل العسل على السكر، والمفاضلة بين العنب

والتمر، إلى آخر ذلك، وقد وصلتُها بكتب المصنف الأخرى في الحواشي.
ومن ذلك: ما يستشهد به من الشعر، فكثيرٌ من الأبيات يكثر إنشادها في
مصنفاته، وطائفةٌ منها يشبه أن تكون له.
أما أسلوبه ونظم كلامه، فهو هو المعهود المعروف منه في عامة كتبه،
وقد ألفناه واستأنسنا به في قراءة نص الكتاب.



تحرير عنوان الكتاب

سمّى المصنف كتابه في مقدمته - على شريعته المعهودة بالاحتفال بعناوين مصنفاته والتنوُّق فيها - اسمًا مسجوعًا، متخيّر الألفاظ، دالًّا على المراد دلالةً مجازية، فقال (ص: ١٢٦): «وسمّيته: مفتاح دار السَّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة».

وانفردت النسخة (ت) كعادة ناسخها في الإغراب، فوقع فيها: «ومنتهى» بدل «ومنشور»، وهو تصحيفٌ بيِّنٌ لا يبلغ المعنى الذي رامه المصنف، وما وقع في سائر الأصول محض الصواب.

وانفردت النسخة (ق)، فزادت: «أهل» قبل «العلم»، وأظنه من سبق قلم الناسخ، وقد كتبه على الجادة في صفحة العنوان.

والمنشور: ما يكتبه السلطان لأحدهم بالإقطاع أو الولاية أو الحماية أو ما يجري مجراها، ولا يحتاجُ لشرفه إلى ختم^(١).

فأراد المصنف أن كتابه كذلك في بلوغه بمن قرأه وتحقّق به ولاية العلم والإرادة، وجلسه على سرير الإمارة.

فالولاية على هذا بكسر الواو، لا بفتحها كما ذهب إليه العلامة الشيخ بكر أبو زيد في كتابه^(٢)، ولمذهبه وجهٌ بعيد.

(١) ويسمى: الفرمان. انظر: «التكملة» و«التاج» (نشر)، و«تكملة المعاجم» لدوزي (٨/ ٦١، ١٠ / ٢٢٢). وأطال القلقشندي (ت: ٨٢١) في «صبح الأعشى» (١٣ / ١٦٢ - ٢٠٠) القول في الآيين المتصل به لهذه.

(٢) «ابن قيم الجوزية» (٣٠٠).

أما ما تُقِلُّ عن الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع من أن الصواب: «ألوية»^(١)، فلا دليل عليه، وليس هو من الصواب في شيء^(٢).

و «المنشور» بهذا المعنى المجازي من الألفاظ التي يكثُر دورانها واستعمالها في كتب المصنف^(٣).

ووقعت تسمية الكتاب في «مدارج السالكين» (١ / ٩١): «مفتاح دار السعادة ومطلب أهل العلم والإرادة». هكذا في مطبوعته، وينبغي أن يُستَظهر بأصوله الخطية العتاق. فإن كان كذلك فهي تسميةٌ أخرى، أو وهمٌ ونسيان، والأمران محتملان كثيرا الوقوع، والأول أشبه. وما سماه به المصنف في مقدمة كتابه أولى بالاعتبار بلا ريب.

فالاسم العَلَمي إذن هو: «مفتاح دار السَّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة»، وكذا كتب على لوحة العنوان في النسخ (ق، ح، ن). ووقع في (ت، د، ي): «مفتاح دار السعادة» بالاختصار على شطره الأول.

ويُختَصَر عند الإحالة على الكتاب بما يكفي للدلالة عليه في سياقه، فتارةً يكتفى بصدوره معرِّفاً بـ «أل»: «المفتاح»^(٤).

(١) المصدر السابق (٣٠٢).

(٢) وسماه كذلك يوسف سركيس (ت: ١٣٥١) في «معجم المطبوعات العربية» (٢٢٥)، فلعله هو مصدر الشيخ ابن مانع.

(٣) انظر: «بدائع الفوائد» (١١٧٨)، و«عدة الصابرين» (١٠٩)، و«مدارج السالكين» (١ / ٤١، ١٨٥، ٢ / ٤٢٣، ٥١٢، ٣ / ٧٣)، و«الوابل الصيب» (١٥٥)، و«الفوائد» (٨٧، ١١٠)، و«حادي الأرواح» (١٤١، ١٤٥)، و«الكافية الشافية» (٩٢٦).

(٤) انظر: «الصواعق المرسلّة» (١٤٥٠)، و«زاد المعاد» (٤ / ١٥٤)، و«إغاثة اللهفان»

وتارةً يُقتصر على شطره الأول: «مفتاح دار السعادة»، وهو المشهور عند مترجميه في سياقهم لمصنفاته، وغيرهم.

أما اختصاره بإسقاط كلمة «دار»^(١)، ففيه إخلال، ويشتهر باسم كتاب ابن عربي: «مفتاح السعادة في معرفة المدخل إلى علم الإرادة»، و«مفتاح السعادة ومصباح السيادة» لطاش كبري زاده، و«مفتاح السعادة بشرح الزيادة» للمناوي، و«مفتاح السعادة في فضيلة الوضوء والعبادة» لابن الحبال الدمشقي، وغيرها.

ودار السعادة هي الجنة، كما هو ظاهر، ويورده المصنف كثيرًا في كتبه. وكتب ناسخ (ق) فوق العنوان: «يعني: دار الآخرة». وليس كما قال.



(٢/ ١٢٥، ١٣٥)، و«شفاء العليل» (٣٨٢)، و«سبل الهدى والرشاد» (٩/ ٣٥٦).

(١) انظر: «أبجد العلوم» (٢/ ٣٩٥).

تاريخ تأليف الكتاب

ليس في الأصول الخطية التي اعتمدنا عليها ما يشير إلى تاريخ تأليف الكتاب، لكن النظر فيما وصلنا من مصنفات ابن القيم رحمه الله يدل على أنه لم يتوفّر على التصنيف إلا بعد وفاة شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية وخروجه من سجن القلعة ثالث عشري ذي الحجة سنة ٧٢٨^(١).

ويشبه أن يكون توجّه بعد ذلك إلى مكة وجاور بها، وفيها صنّف «الفتوحات القدسية»، و«التحفة المكية»، وأظنهما مجموعين كما قدمت الإشارة لذلك، وأحال في «مفتاح دار السعادة» على الكتاب الأول، ثم «تهذيب السنن» سنة ٧٣٢، وأحال في «المفتاح» عليه، ثم «المفتاح»، فإنه صرّح في مقدمته (ص: ١٢٦) بأنه من بعض النُّزُل والتحف التي فتح الله بها عليه حين انقطاعه إليه عند بيته، ثم ابتداء «زاد المعاد» وأحال فيه على «المفتاح».

ويشبه كذلك أن يكون تصنيف «المفتاح» قبل «طريق الهجرتين»، ويدل لذلك إحالته في «طريق الهجرتين» (١٢٤) على كتابه الكبير في المحبة، وقد وعد في مقدمة «المفتاح» بتأليفه.

وحين حكى في «طريق الهجرتين» (٨٠٨) الخلاف في المفاضلة بين النخيل والعنب قال: «... وذكرت كل طائفة حججاً لقولها قد ذكرناها في غير هذا الموضع». وهي مذكورة في «المفتاح» (ص: ٦٥٦).

(١) «أعيان العصر» (٤ / ٣٦٨).

واستظهر شيخنا الجليل محمد أجمل الإصلاحي في مقدمة تحقيقه لـ «طريق الهجرتين» (٢٠) أنه مؤلف قبل سنة ٧٣٢، فعلى هذا يكون «المفتاح» مما كُتب قبل ذلك، لكن يشكل عليه أنه أحال في «المفتاح» على «تهذيب السنن»، فهو متأخر عنه^(١).

والحاصل أن كتاب «مفتاح دار السعادة» مما صنفه ابن القيم بمكة، وفيها صنف كتبه الأولى، وقد أحال عليه في كتبه الكبار: «زاد المعاد»، و«إغاثة اللهفان»، و«مدارج السالكين»، و«الصواعق المرسلّة»، وغيرها.

والقول في ترتيب تأليفه زمنياً يحتاج إلى استقراء تام لها، واستخراج الإشارات الهادية، والإحالات الكاشفة، ومقارنة مباحثها وطريقته في معالجتها، وهو جديرٌ بالعناية، فعسى أن يوفق لتحريره من شاء الله من عباده.



(١) يلاحظ أيضًا أن هذه الإحالات ليست قاطعة في مسألة التقدم والتأخر؛ لأنه قد يحيل عليه في إخراج جديد للكتاب أو في لحق يضيفه بغد ذلك. (علي العمران). وهو كما قال، وإنما هي قرائن وحسب.

موضوع الكتاب وتقسيمه

* افتتح المصنف الكتاب بمقدمة عن الحِكم والأسرار في إخراج آيينا آدم من الجنة وإسكانه دار الامتحان والابتلاء، وهو بحثٌ عالجه في غير موضع من كتبه، ولما كان ذلك لا يتم إلا على القول بأن تلك الجنة هي جنة الخلد التي وعد المتقون، ذكر الخلاف في الجنة التي أسكنها آدم، وأطال في سياق حجج الفريقين من غير انتصابٍ لنصرة أحد القولين؛ لأن المقصود حاصلٌ على كل تقدير، كما قال.

* ثم كتب فصولاً في التعليق على العهد الذي عهدَه الله إلى آدم وبنيه حين أهبطه بقوله سبحانه: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وقوله: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿ [طه: ١٢٣-١٢٦].

* ثم لما كان ذاك العهد لا يوصلُ إليه أبداً إلا من باب العلم والإرادة، فالإرادة بابُ الوصول إليه، والعلم مفتاحُ ذلك الباب المتوقف فتحه عليه، وكمال كلِّ إنسان إنما يتمُّ بهذين الأمرين = وَضَعَ الكتابُ مؤسساً على هاتين القاعدتين؛ للتعريف بشرف هذين الأصلين.

وبناءً على هاتين القاعدتين قسّم الكتاب إلى قسمين: القسم الأول: للعلم، والقسم الثاني: للإرادة.

والإرادة مصطلحٌ صوفي يتضمن معنى 'المحبة الباعثة على' العمل، وهي بدء طريق السالكين وأول منازل القاصدين إلى الله تعالى^(١)، وهي مركبٌ العبودية وأساس بنائها الذي لا تقوم إلا عليه، فأكمل الخلق عبوديةً ومحبةً أتمَّهم إرادة^(٢)، واشتقوا منها اسم: «المريد» للواحد، وأهلها هم أهل الإرادة، واستعماله شائعٌ كثير الوقوع في كتب ابن القيم وشيخه. ولما كان العلمُ إمام الإرادة ومقدِّمًا عليها ومرشدًا لها قدَّم الكلام عليه على الكلام عنها.

ونبَّه القارئ على هذا التقسيم وذكره به في مواضع من الكتاب.

- فقال (ص: ٦٠٨): «وأحسنُ ما أنفقت فيه الأنفاسُ التفكير في آيات الله وعجائب صنعه، والانتقال منها إلى تعلق القلب والهمة به دون شيء من مخلوقاته؛ فلذلك عقدنا هذا الكتاب على هذين الأصلين».

- وقال (ص: ٥٨٤) في حديثه عن حِكَم المخلوقات: «ونحن نذكر هنا فصولاً منشورةً من هذا الباب مختصرةً وإن تضمنت بعض التكرار وترك الترتيب في هذا المقام الذي هو من أهم فصول الكتاب، بل هو لبُّ هذا القسم الأول».

- وقال (ص: ٨٥٥): «وقد ذكرنا فصلًا مختصرًا في دلالة خلقه على وحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله وأسمائه الحسنی، وأردنا أن نختم به

(١) «الرسالة القشيرية» (٣٥٠، ٣٥١)، وقال: «فأما حقيقتها فهي نهوض القلب في طلب الحق سبحانه».

(٢) «طريق الهجرتين» (٤٨٠).

القسم الأول من الكتاب، ثم رأينا أن نتبعه فصلًا في دلالة دينه وشرعه على وحدانيته وعلمه وحكمته...».

- وذكر (ص: ٨١٩) من أوجه حُكْم وقوع العبد في الذنب: «أنه سبحانه يستجلب من عبده بذلك ما هو من أعظم أسباب السعادة له من استعاذته واستعانت به...، ومن أنواع الدعاء والتضرع والابتهال والإنابة والفاقة...، فيحصل للروح بذلك قربٌ خاص لم يكن يحصل بدون هذه الأسباب...»، ثم قال: «وأسرار هذا الوجه يضيئُ عنها القلب واللسان وعسى أن يجيئك في القسم الثاني من الكتاب ما تقرُّ به عينك إن شاء الله تعالى».

- وذكر (ص: ١٠٨٥) ظنَّ المتكلمين أن الطاعة تصدر عن خوفٍ غير مقرونٍ بمحبة، بناءً على أصلهم الباطل أن الله لا تتعلق المحبة بذاته وإنما بمخلوقاته مما في الجنة من النعيم، ثم قال: «وسنذكر في القسم الثاني إن شاء الله في هذا الكتاب بطلان هذا المذهب من أكثر من مئة وجه،... وسيرد عليك بسط الكلام في هذا عن قريب إن شاء الله».

- وذكر (ص: ١١٥٩) أن كمال العبد بمعرفة أسماء الله وصفاته وما ينبغي له، ومعرفة دينه وأمره، ثم قال: «وهذا هو الذي خلق له، بل وأريد منه، بل ولأجله خلقت السماوات والأرض، واتخذت الجنة والنار، كما سيأتي تقريره من أكثر من مئة وجه إن شاء الله».

- وذكر (ص: ٨١٣) خبر فرح الواجد راحلته بعد أن أيس منها، ثم قال: «وليس في أنواع الفرح أكمل ولا أعظم من هذا الفرح، كما سنوضح ذلك ونزيده تقريرًا عن قريب إن شاء الله».

- وقال (ص: ١٩): «وسيأتي إن شاء الله الكلام على هذا الحديث وذكر

سرّ هذا الفرح بتوبة العبد».

- وقال (ص: ١١٦١): «وسنبين إن شاء الله عن قريب بالبراهين الشافية أن النفس ليس لها نجاة ولا سعادة ولا كمال إلا بأن يكون الله وحده محبوبها ومعبودها...».

- وقال (ص: ١١٦٤): «وسنذكر إن شاء الله عن قريب معنى 'تعلق الإرادة به تعالى' وكونه مرادًا والعبد مريدٌ له».

- وقال (ص: ١١٦٦): «وكل حيٍّ شاعر لا صلاح له إلا بأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده وغاية مراده، وسيمرُّ بك إن شاء الله بسطُ القول في ذلك، وإقامة البراهين على هذا المطلوب الأعظم الذي هو غاية سعادة النفوس وأشرف مطالبها».

فهل تمّ بناء الكتاب على 'تينك القاعدتين؟ وهل أتى الكلام على القسم الثاني المتعلّق بالإرادة وما ورد في تلك الإحالات؟

أما القسم الأول، وهو ما يتعلّق بالعلم، فإنه افتتح القول فيه بعد المقدمة، فساق أكثر من مئة وخمسين وجهًا في بيان فضله وشرفه، ووجوه ذلك، وآثاره، ودلائله، فأمّتع وأطرب، وأتى بكلّ بديع.

ثم ما زال يستطرد من موضوع إلى موضوع حتى طال عليه الأمر، وصار الكتاب مجلدًا ضخماً^(١)، ولمّا يبدأ بعد في القسم الثاني الذي ذكره في

(١) قال ابن رجب في سياق ذكر مصنفات ابن القيم: «ومفتاح دار السعادة مجلد ضخّم». «ذيل طبقات الحنابلة» (٥/١٧٥). وقال الصفدي في «أعيان العصر» (٤/٣٦٩): «مجلد كبير».

المقدمة وأحال عليه في تلك المواضع، فكفَّ قلمه بعد أن أرخى له الطَّوْل، واختار أن يجعل الكتاب خالصًا للقسم الأول، وهو العلم وما يتصلُّ به، فحتم الكتاب بقوله: «وليكن هذا آخر الكتاب...»!

وكأنه رأى أن يدع موضوع القسم الثاني لكتابٍ آخر قائم برأسه، فعاد إلى مقدمة الكتاب فألحق بها - عند موضع ذكر بناء الكتاب على تينك القاعدتين - قوله: «ثم نتبعه إن شاء الله بعد الفراغ منه كتابًا في الكلام على المحبة وأقسامها وأحكامها وفوائدها وثمراتها وأسبابها وموانعها وما يقويها وما يضعفها، والاستدلال بسائر طرق الأدلة من النقل والعقل والفطرة والقياس والاعتبار والذوق والوجد على تعلُّقها بالإله الحق الذي لا إله غيره، بل لا ينبغي أن تكون إلا له ومن أجله، والرد على من أنكر ذلك وتبيين فساد قوله عقلًا ونقلًا وفطرةً وقياسًا وذوقًا ووجدًا».

ولعل ذلك الكتاب هو «المورد الصافي والظُلُّ الصافي»، أو «قرة عيون المحبين وروضة العارفين»، كما بينتُ في تعليقي هناك.

فانظر الآن كيف وقع له ذاك الاستطراد الطويل الغريب!

* افتتح القسم الأول المتعلق بالعلم وشرفه بذكر الوجوه الدالة على ذلك، وحين انتهى إلى الوجه الثالث والخمسين بعد المئة، وهو ما ثبت عن بعض السلف أنه قال: «تفكَّر ساعة خيرٌ من عبادة ستين سنة»، استطرد إلى الكلام في التفكير ومتعلِّقه ومجاريه، ثم استرسل في فصولٍ كثيرة في بيان عجيب خلق الله وباهر صنعه وتدبيره في خلقه!

فهذا موضوعٌ مستقلٌّ كان الأليقُ إفراده بتصنيفٍ خاص، ولا بن القيم به عنايةً واحتفالاً في كتبه، خاصة «شفاء العليل»، و«أيمان القرآن»، فلو جمعت

مادته من هذه الكتب الثلاثة وغيرها ورثت لجاءت كتاباً لطيفاً.

ومما يتصل بذلك: الكلام في حكمة الله في أمره ونهيه والمحاسن المودعة في شريعته، وخواص العباد يشهدون ذلك أعظم من شهودهم حكمة الخلق، وقد استطرّد ببيان الكثير منها، وتمنى أفرادها بالتصنيف، وقال (ص: ١٠٦٨): «لعل الله أن يساعد بمصنّف في ذلك».

* ولم يزل يتكلم في بدائع الخلق حتى وصل إلى الحكمة في ستر الآجال عن العباد، فاستطرّد بذكر خلاف الناس في الحكمة وتعليل أفعال الرب تعالى، وما تشهده كل فرقة في المعصية، وكتب فصلاً بديعة في مشاهد الخلق في مواجهة الذنب.

وهو بابٌ جليل أحسن ابن القيم رحمه الله استفتاحه في كتبه، كما بينت في التعليق هناك (ص: ٨٠٨)، ولو أفرد بالتصنيف لكان أهل ذلك وأحقّ به. فهذا هو الموضوع الثاني.

* ثم عاد إلى القول في حكمة الله تعالى، فكتب فصلاً في حكمته سبحانه في ابتلاء عباده وصفوته، ثم فصلاً في الحكمة من دينه وشريعته، واستطرّد بالاستدلال والاحتجاج على حاجة الناس للشرعية وموافقتها للفطر والعقول، فساق فصلاً في بعض الحكم لمباني الدين وشرائعه، ولما كان ذلك يفتقر لإثبات أن في ذوات تلك الأحكام صفاتٍ وجودية أوجبت حُسن المأمور به وقُبْح المنهي عنه، وإلا لزم منه لوازم باطلة = استطرّد في بحث مسألة التحسين والتقبيح العقليين وذبولها، وأفاض فيها بذكر أقوال الفرق واستدلال أصحابها ومسالكتهم وما أورد على أدلة كل فريق من الاعتراضات، ثم جلس مجلس الحكومة ليقضي بالحق بينهم، فقرر مذهب

أهل السنة في هذا الباب أحسن تقرير.

فهذا الموضوع الثالث من موضوعات الاستطراء، وهو أشمل موضع بحث فيه ابن القيم مسألة الحسن والقبح العقليين، وما زال يحيل عليه في كتبه كلما ورد ذكر المسألة كما مرَّ بك في فصل نسبة الكتاب.

* ثم لما كان من قول بعض فرق الصابئة المنكري النبوات في التحسين والتقبيح العقليين: «إنه لما كانت الموجودات في العالم السفلي مركبة على تأثير الكواكب والروحانيات التي هي مدبرات الكواكب، وكان في اتصالاتها نظراً سعيداً ونحساً = وجب أن يكون في آثارها حسنٌ وقبحٌ في الأخلاق والخلق والأفعال، والعقول الإنسانية متساوية في النوع، فوجب أن يدركها كل عقل سليم،... فنحن لا نحتاج إلى من يعرفنا حُسن الأشياء وقبحها وخيرها وشرها ونفعها وضررها» = استطرد ابن القيم بالردِّ والإبطال لعلم أحكام النجوم الذي يدعي تأثير الكواكب وتديرها لأحوال العالم، وأطال في ذلك، وأتى على بنيانهم من القواعد^(١).

وهذا الموضوع الرابع لا نظير له في كتب ابن القيم رحمه الله، وهو مبحثٌ عظيمٌ الفائدة جليل النفع. وحقه أن يستقلَّ بمصنّفٍ يُعَنُونُ بإبطال التنجيم، على غرار رسالته «إبطال الكيمياء».

* ثم لما تصدَّى لمناقشة احتجاجات الرازي لعلم أحكام النجوم، وكان منها الاحتجاج ببعض حكايات إصابة المنجمين في أحكامهم، أجاب بأنها

(١) وقال (ص: ١٣٩٠): «وهذا هو السبب الذي سُقنا الكلام لأجله معهم لما حكينا قولهم: إنه لما كانت الموجودات في العالم السفلي...».

ليست بأكثر من الحكايات المنقولة عن أصحاب زجر الطير والعيافة ونحوها من علوم الجاهلية، واستطرد في الكلام عليها وعلى العدوى والشؤم، وما حكى عن العرب فيها من قصص وأشعار، وتفسير ما ورد في الكتاب والسنة بشأنها، ومذاهب الأئمة والسلف في الباب.

وهذا خامس الموضوعات، وهو بحثٌ طريفٌ فيه فقهٌ وتاريخٌ وأدب، وهو كما ترى مستقلٌّ بنفسه.

وبعد أن فرغ منه ابن القيم ختم الكتاب بقوله: «وليكن هذا آخر الكتاب...».

فهذه مواقعُ أقدام ذلك الاستطراد الطويل، وتلك هي موضوعاته، وقد كان الأليقُ بصناعة التأليف إفرادها بتصانيفٍ مستقلةٍ خاصة، والإحالة عليها إن كانت ناجزة، كما فعل حين جرى ذكر صنعة «الكيمياء» في سياق حديثه عن حكمة خلق الذهب والفضة وعزتهما (ص: ٦٣٣)، فإنه بيّن بطلانها بكلام موجز، ثم قال: «وقد ذكرنا بطلانها وبيّنا فسادها من أربعين وجهًا في رسالة مفردة»، ألا تراه لو استطرد فذكر تلك الوجوه كما استطرد في المواضع الأخرى، لزادت الموضوعاتُ الخمسة موضوعًا سادسًا؟!

أو العزم على إفرادها بالتصنيف، كما صنع (ص: ٥٨٨) حين مرّ به دليل التمانع في آيتي الأنبياء والمؤمنون، فإنه أشار إليه بإيجاز، ثم قال: «وسنفرد إن شاء الله كتابًا مستقلًّا لأدلة التوحيد».

وكما صنع (ص: ٧١١) حين فاضل بين العسل والسكر، ثم قال: «وسنفرد إن شاء الله مقالةً نبين فيها فضل العسل على السكر، من طرق عديدة لا تُمنع وبراهين كثيرة لا تُدفع».

فلو صنع بياقي الموضوعات صنيعة هذا لأمكنه أن يأتي على القسم الثاني، وهو الكلام في إرادة الله ومحبه، دون أن يطغى طول الكتاب فيصرفه عن إكماله، وكان سيتم بذلك مستوفياً لغرضه، محققاً لعنوانه.

وقد حمل هذا الاستطراذ المصنف على أن يختم كتابه بطريقة غير مألوفة في كتبه، إذ جعلها أشبه بالفهرست لمضامينه، فقال: «وليكن هذا آخر الكتاب، وقد جُلِبَت إليك فيه نفائس في مثلها يتنافس المتنافسون، وجُلِيت عليك فيه عرائس إلى مثلهنّ بأذر الخاطبون.

فإن شئت أقتبست منه معرفة العلم وفضله، وشدة الحاجة إليه، وشرفه وشرف أهله، وعظم موقعه في الدارين.

وإن شئت أقتبست منه معرفة إثبات الصانع بطرق واضحات جليات تلج القلوب بغير استئذان، ومعرفة حكمته في خلقه وأمره.

وإن شئت أقتبست منه معرفة قدر الشريعة، وشدة الحاجة إليها، ومعرفة جلالتها وحكمتها.

وإن شئت أقتبست منه معرفة النبوة وشدة الحاجة إليها، بل ضرورة الوجود إليها، وأنه يستحيل من أحكم الحاكمين أن يُخلّي العالم عنها.

وإن شئت أقتبست منه معرفة ما فطر الله عليه العقول من تحسين الحسن وتقبيح القبيح، وأن ذلك أمرٌ عقليٌّ فطري، بالأدلة والبراهين التي أشتمل عليها هذا الكتاب ولا توجد في غيره.

وإن شئت أقتبست منه معرفة الردّ على المنجمين القائلين بالأحكام بأبلغ طرق الردّ عليهم من نفس صناعتهم وعلمهم، وإلزامهم بالإلزامات المُفحمة التي لا جواب لهم عنها، وإبداء تناقضهم في صناعتهم،

وفضائحهم وكذبهم على الخلق والأمر.

وإن شئت أقتبست منه معرفة الطيرة والفأل والزجر، والفرق بين صحيح ذلك وباطله، ومعرفة مراتب هذه في الشريعة والقدر.

وإن شئت أقتبست منه أصولاً نافعة جامعة مما تكمل به النفس البشرية وتنال بها سعادتها في معاشها ومعادها.

إلى غير ذلك من الفوائد التي ما كان منها صواباً فمن الله وحده هو المأن به، وما كان منها خطأً فمن مؤلفه ومن الشيطان، والله بريء منه ورسوله...».

كما حمل ذلك الحاج خليفة على أن يقول عن الكتاب: «وهو كتاب كبير الحجم، وليس بمرتب، بل فيه فوائد مرسله يقتبس من مجموعها: معرفة العلم وفضله، ومعرفة إثبات الصانع، ومعرفة قدر الشريعة، ومعرفة النبوة، وشدة الحاجة إلى هذه المذكورات، ومعرفة الرد على المنجمين، ومعرفة الطيرة والفأل والزجر، ومعرفة أصول نافعة جامعة فيما تكمل به النفس البشرية... إلى غير ذلك من الفوائد»^(١).

ولعله لذلك أيضاً وصفه نعمان الألوسي (ت: ١٣١٧) بقوله: «وكتاب مفتاح دار السعادة مجلدٌ ضخْمٌ غريب الأسلوب»^(٢).



(١) «كشف الظنون» (١٧٦١).

(٢) «جلاء العينين» (٢٩٤).

موارد الكتاب

لابن القيم رحمه الله شغفٌ عظيمٌ بالكتب وولوع، يقول صاحبه ابن كثير، وتلميذه ابن رجب: «اقتنى من الكتب ما لا يتهيا لغيره تحصيلُ عُشره من كتب السلف والخلف»^(١).

وقال الصفدي: «ما جمع أحدٌ من الكتب ما جمع؛ لأن عمره أنفقه في تحصيل ذلك،... وكان عنده من كل شيء في غير ما فنٌ ولا مذهبٍ بكلِّ كتابٍ نسخٌ عديدة...»^(٢).

وأثر تلك المكتبة الواسعة في تواليفه واضحٌ مبين.

ومن شواهد عنايته بتحصيل الأصول المتقنة العريضة، في كتابنا:

- نقل بعضهم نصًّا عن كتاب «الحيوان» لأرسطو، فقال ابن القيم: «وأما ما حكوه عن أرسطو فنقلٌ محرّف، ونحن نذكر نصّه في الكتاب المذكور، فإن لنا به نسخةٌ مصححة قد اعتني بها...» ثم ذكره^(٣).

- ونقل مقابسةً طويلة من كتاب «المقابسات» لأبي حيان التوحيدي، من نسخة «بخطٍ رزق الله المنجم، وكان من زعمائهم»^(٤) أي: زعماء المنجمين.

(١) «البداية والنهاية» (١٨ / ٥٢٤). وانظر: «ذيل طبقات الحنابلة» (٥ / ١٧٤).

(٢) «أعيان العصر» (٤ / ٣٦٨).

(٣) (ص: ١٢٥٦).

(٤) (ص: ١٣١٤).

وانظر سعة اطلاعه حين يقول في معرض رده على احتجاج الرازي لصناعة التنجيم: «ومن العجب قوله [أي: الرازي]: لو كان هذا العلم فاسدًا لاستحال إطباق أهل المشرق والمغرب من أول بناء العالم إلى آخره عليه! وليس في الفرية أبلغ من هذا ولا في البهتان، أترى هذا الرجل ما وقف على تأليف لأحد من أهل المشرق والمغرب في إبطال هذا العلم والرد على أهله؟! فقد رأينا نحن وغيرنا ما يزيد على مئة مصنف في الرد على أهله وإبطال أقوالهم، وهذه كتبهم بأيدي الناس، وكثير منها للفلاسفة الذين يعظمهم هؤلاء ويرون أنهم خلاصة العالم، كالفارابي وابن سينا وأبي البركات الأوحى وغيرهم، وقد حكينا كلامهم، وأما الردود في ضمن الكتب حين يُردُّ على أهل المقالات فأكثر من أن تذكر، ولعلها أن تزيد على عدة الألف، تجد في كل كتاب منها الرد على هؤلاء وإبطال مذهبهم...»^(١).

ومن شواهد سعة اطلاعه: أنه قرَّر شبهة وردت في «المختصر» لابن الحاجب، ثم قال: «هذا وجه تقرير هذه الشبهة، وإن كان كثير من شراح المختصر لم يفهموا تقريرها على هذا الوجه...»^(٢).

وموارده في هذا الكتاب على أقسام أربعة:

القسم الأول: ما صرَّح فيه باسم الكتاب ومصنفه.

وهاهي مرتبة على حروف المعجم:

— «آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم، صرَّح باسم الكتاب في

(١) (ص: ١٤٦٣).

(٢) (ص: ٩٥٩). وللمختصر ما ينيف على السبعين شرحًا.

- (ص: ١٤٥٢)، ونقل منه في موضع آخر مكتفياً باسم المصنف، كما سيأتي.
- «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالي، صرّح به في (ص: ٤٠٩)، ونقل عنه في مواضع أخرى بدون تصريح، كما سيأتي.
- «الأربعة» (المقالات الأربع) لبطليموس (ص: ١٣١١).
- «أسرار النجوم» المعروف بـ (المذاكرات) لأبي سعيد شاذان المنجم (ص: ١٢٢٥).
- «أسرار النجوم» لأبي معشر المنجم (ص: ١٢٢١).
- «أقسام اللذات» للرازي (ص: ٤١٠).
- «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي (ص: ١٢٠٦).
- «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (ص: ٤٧٠).
- «تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة (ص: ١٥٥٣، ١٥٧٦).
- «ترتيب العلم» لثابت بن قرة (ص: ١٣١٣).
- تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) (ص: ٥٤، ٥٦).
- تفسير الراغب الأصبهاني (ص: ٥٤). ونقل عنه في موضع آخر دون تصريح، كما سيأتي.
- تفسير الرمانى (ص: ٥٣).
- تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز) (ص: ٥٢).
- تفسير الماوردي (النكت والعيون) (ص: ٨٣، ٥٥، ١٣٦١).

- تفسير أبي مسلم الأصبهاني (ص: ٥٢).
- تفسير ابن المنذر (ص: ١٣٧٥).
- تفسير المنذر بن سعيد البلوطي (ص: ٢٨، ٥٢).
- «تفسير الموطأ» لابن مزين (ص: ٨٢، ٣٨٩).
- «التفهيم إلى صناعة التنجيم» للبيروني (ص: ١٢٣٤، ١٢٣٥).
- «التمهيد» لابن عبد البر، صرّح باسم الكتاب في (ص: ١٥١٨)، ونقل منه في مواضع أخرى مكتفياً باسم المصنف، كما سيأتي.
- «الجامع» للترمذي صرّح باسم الكتاب في (ص: ٦٩، ٧٣، ٦٢٠)، ونقل منه في مواضع أخرى مكتفياً باسم المصنف، كما سيأتي.
- «الجامع» لابن وهب، صرّح باسم الكتاب في (ص: ١٤٩١، ١٥٢٧)، ونقل منه في مواضع أخرى مكتفياً باسم المصنف، كما سيأتي.
- «الجلس والآنيس» للمعافى بن زكريا الجريري (ص: ٤٧٢).
- «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصفهاني (ص: ٣٤٨).
- «الحيوان» لأرسطو (ص: ١٢٥٦، ١٢٦٠).
- «الرد على المنطقيين» لابن تيمية (ص: ٤٤٨).
- رسالة أبي القاسم علي بن عيسى في إبطال التنجيم (ص: ١٢٣٦).
- رسالة لابن الهيثم في أقسام الخلل الواقع في آلات الرصد (ص: ١١٨٨).
- «السماع الطبيعي» لأرسطاطاليس (ص: ١٣٠١، ١٣١٢).
- «السنن» لابن ماجه (ص: ٢١٣، ١٤١٩، ١٤٨٤).

- «السنن» لأبي داود، صرّح باسم الكتاب في (ص: ١٥٤٤)، ونقل منه في مواضع أخرى مكتفياً باسم المصنف، كما سيأتي.
- «السنة» لعبد الله بن الإمام أحمد (ص: ٢٩٢).
- «الشفاء» لابن سينا (ص: ١١٨٢، ١٣١٣).
- صحيح البخاري (ص: ٤٦، ٤٨، ٢٠٢، ٤٠٢، ٧٣٦، ١٣٨١، ١٤٩٢، ١٤٩٣، ١٥٠٩، ١٥٣٤، ١٥٤٠، ١٥٤١، ١٥٧٤).
- صحيح ابن حبان (ص: ٣٤٦، ٤٥١)، وسمّاه (ص: ٤٠٤): «صحيح أبي حاتم».
- صحيح مسلم (ص: ٣٨، ٤٧، ١٦٦، ١٩٤، ٢٠١، ٣٠٠، ٣٦٣، ٣٩٩، ٤٢٨، ٥٠٠، ٧٣٤، ٨٩٦، ١٠٧٩، ١٤٨٥، ١٥٠٨، ١٥٠٩، ١٥١١، ١٥٣٣، ١٥٣٥، ١٥٤٠، ١٥٦٠).
- «العلل» لعبد الله بن الإمام أحمد (ص: ٤٨٣).
- «العلل» للخلال (ص: ٤٦٥).
- «العلم» للخلال (ص: ٣٣٢).
- «غريب الحديث» لأبي عبيد، صرّح باسم الكتاب في (ص: ١٤٨٦)، ونقل منه في مواضع آخر مكتفياً باسم المصنف، كما سيأتي.
- «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٨٣).
- «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي، صرّح باسم الكتاب في (ص: ٣٢٦)، ونقل منه في مواضع أخرى مكتفياً باسم المصنف، كما سيأتي.

- «الفوائد» لتمام، صرّح باسم الكتاب في (ص: ٤٦٦)، ونقل منه في موضع آخر مكتفياً باسم المصنف، كما سيأتي.
- «القلب والإبدال» لابن السكيت (ص: ١٥٧٢).
- «الكامل» للمبرد (ص: ١٢٠١).
- كتاب في معرفة الثوابت (صور الكواكب الثمانية والأربعين) لعبد الرحمن بن عمر الصوفي (ص: ١٢٢٩).
- «المجالسة» للدينوري (ص: ١٧٢).
- «المجمل» لكوشيار بن باشهري الديلمي (ص: ١٢٣١).
- «محاسن الشريعة» للقفال، ذكره (ص: ٩٦٤)، ونقل منه في مواضع أخرى دون تصريح، كما سيأتي.
- مسائل إسحاق بن منصور الكوسج (ص: ٥١٠).
- مسائل حرب (ص: ٣٤٣، ٥٠٣).
- «المستدرک» للحاكم (ص: ١٩٤)، وسمّاه (ص: ١٩٦): «صحيح الحاكم».
- مسند الإمام أحمد (ص: ٧٣، ٢٠٣، ٢٩١، ٥٢١، ٥٨١، ١٥٢٦، ١٥٤٤).
- مسند أبي يعلى الموصلي (ص: ٤٤١).
- مصنف لأبي سعيد السيرافي في الرد على المنطق (ص: ٤٤٦).
- مصنف للمندر بن سعيد البلوطي في مسألة الجنة التي أسكنها آدم (ص: ٥٢).

- «المعارف» لابن قتيبة (ص: ٥١).
- «المعتبر» لأبي البركات بن ملكا (ص: ١٢٨٩).
- «المعجم» لأبي نعيم، (لعله معجم شيوخه) (ص: ٣٣٧).
- «المفاضلة بين الزرع والنخل» للجاحظ (ص: ٦٥٦).
- «المقابسات» لأبي حيان التوحيدى (ص: ١٣١٤).
- «مناقب الشافعي» للحاكم (ص: ١٤٤٠).
- «مناقب الشافعي» للرازي (ص: ١٤٤٠).
- «الملل والنحل» (الفصل) لابن حزم (ص: ٥٣).
- «الموطأ» لمالك، صرّح باسمه في (ص: ١٥١٠، ١٥٨٨)، ونقل منه في موضع آخر مكتفياً باسم المصنف، كما سيأتي.
- «النجاة» لابن سينا (ص: ١١٨٢).
- القسم الثاني: ما صرّح فيه باسم المصنّف دون تسمية كتابه.
وسأوردها مرتبةً على المصنّفين، مع تسمية كتبهم:
- الترمذي. (ص: ١٦٨، ١٨٤، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٦، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠، ٢١١، ٢١٣، ٢٩٣، ٤٠٣، ٤٢١، ٥٦٦، ٥٧٥، ٦٦١، ٧٨٩). من كتابه «الجامع».
- تمّام. (ص: ٤٢٢). من كتابه «الفوائد».
- ابن أبي حاتم. (ص: ١٤٤٦). من كتابه «آداب الشافعي ومناقبه».

- ابن جرير الطبري. (ص: ٤٥٧، ١٣٩٦) من تفسيره «جامع البيان»، وفي (ص: ١٤٨٧) من كتابه «تهذيب الآثار».
- ابن جني. (ص: ١٥٧٢). من كتابه «التنبيه على شرح مشكلات الحماسة».
- ابن الجوزي. (ص: ١٣٦٧، ١٣٦٨، ١٣٦٩، ١٣٧١). من تفسيره «زاد المسير».
- الجوهرى. (ص: ١٤٨٧). من كتابه «الصحاح».
- الجويني. (ص: ٢٨٨). من كتابه «البرهان».
- الخطابي. (ص: ١٥٥٣). من «معالم السنن» أو «أعلام الحديث».
- الخطيب البغدادي. (ص: ١٨٥، ٣٤٩) من كتابه «الفيء والمفقه»، وفي (ص: ٤٦٣، ٤٦٤) من كتابه «شرف أصحاب الحديث».
- أبو داود. (ص: ١٧٠، ٩٠٦، ١٥٣١). من كتابه «السنن».
- الزجاج. (ص: ٢٤٤، ٢٥٣، ٢٥٤، ٤٨٦). من كتابه «معاني القرآن».
- الزمخشري. (ص: ٤٠). من كتابه «الكشاف».
- ابن الصلاح. (ص: ٣٥٧). ولم يتبين لي موضع النقل من كته.
- ابن عبد البر. (ص: ٤٨٣، ٥٠٢، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠) من «جامع بيان العلم وفضله»، وفي (ص: ١٥٢٤، ١٥٢٦، ١٥٤٥، ١٥٤٦، ١٥٦٠، ١٥٨٤، ١٥٨٨) من «التمهيد».
- ابن عبد الحكم. (ص: ١٤٨٩). من كتابه «سيرة عمر بن عبد العزيز».

- عبد الملك بن حبيب. (ص: ١٥٦٣). من كتابه «تفسير غريب الموطأ».

- أبو عبيد. (ص: ١٥٨٥). من كتابه «غريب الحديث».

- أبو عبيدة. (ص: ١٤٧٨). من كتابه «مجاز القرآن»، ويحتمل أن يكون منقولاً بواسطة.

- ابن عدي. (ص: ١٨٦، ١٩٥، ٢١٢، ٤٦٣، ٤٦٦). من كتابه «الكامل».

- ابن عطية. (ص: ٤٨٥، ٥٨١، ١٣٦٧، ١٣٦٨، ١٣٦٩، ١٣٧٠). من تفسيره «المحرر الوجيز».

- الغزالي. (ص: ١٤٢١). من كتابه «تهافت الفلاسفة».

- الفارابي. (ص: ١١٩٥، ١٤٣١). من رسالته «ما يصح وما لا يصح من أحكام النجوم».

- الفراء. (ص: ٣٠٨، ١٤٧٨). من كتابه «معاني القرآن»، ويحتمل أن يكون منقولاً بواسطة.

- أبو القاسم الزجاجي. (ص: ١٤٧٥). والنص في كتابه «تفسير رسالة أدب الكتاب».

- ابن قتيبة. (ص: ٤٧٨) من كتابه «عيون الأخبار»، وفي (ص: ١٥٠٧، ١٥٦٥) من كتاب آخر أحسبه «فضل العرب والتنبيه على علومها»، وقد طبع عن نسخة فيها طمسٌ كثير.

- مالك بن أنس. (ص: ١٤٩٢). من كتابه «الموطأ».

- محمد بن عبد الواحد المقدسي الضياء. (ص: ٧٢٥)، ولعل المقصود كتابه «النهى عن سب الأصحاب وما ورد فيه من الذم والعقاب».
- المدائني. (ص: ١٤٦٩، ١٥٠١، ١٥٠٣، ١٥٠٧، ١٥٤٢)، ويشبه أن يكون النقل من كتابه «القيافة والفأل والزجر»، ولم يعثر عليه بعد.
- مسدد بن مسرهد. (ص: ١٥١١). والنقل من كتابه «المسند».
- النسائي. (ص: ٩١٧). من كتابه «السنن».
- الواحدي. (ص: ٣٥٦). من تفسيره «الوسيط» أو «البيسط».
- ابن وهب. (ص: ١٥١٠، ١٥١٨، ١٥٣٤). من كتابه «الجامع».
- القسم الثالث: ما صرّح فيه باسم الكتاب دون تسمية مصنفه.
وسأوردها مرتبةً على حروف المعجم مع تسمية مصنفها:
- «شرح مقالات بطليموس الأربع» (ص: ١٣١٢). وقد شرح كتابه غير واحد كما بينتُ هناك.
- «الصحيح» (للجوهرى) (ص: ٤٣٨).
- الصحيحان (للبخاري ومسلم) (ص: ٤٥، ٤٦، ١٤٨، ١٦١، ١٦٢، ١٦٦، ١٦٧، ٢٤٦، ٧٣٦، ٧٣٧، ١٤٨٢، ١٤٨٣، ١٤٩٠، ١٥٠٨، ١٥٠٩، ١٥١١، ١٥١٦، ١٥٣٤، ١٥٤٠، ١٥٤١، ١٥٦٠).
- «الكشاف» (للزمخشري) (ص: ٤٨٧).
- «المختصر» (لابن الحاجب) (ص: ٩٥٩).
- «المسند» (لأحمد) (ص: ٥٢١، ١٥٤٢).

- «الموطأ» (لمالك) (ص: ٤٨، ٤٧٨، ٦٣٨، ١٤٩٣).

ويلحق بهذا:

- السنن (ص: ٤٦، ٢٣٠).

- الصحيح (ص: ٢٠٠، ٢٣٠، ٤٢٨، ٥٧٦، ٦٩٢، ١١٧٠، ١٤٩٣، ١٥٤٣،

١٥٤٨).

- كتب الحيوان (ص: ٧١٦، ١٤٣٦).

- كتب الطب (ص: ٦٦٤).

القسم الرابع: ما لم يصرّح فيه باسم الكتاب أو مصنّفه.

وسأسوق ما وقفت عليه من ذلك مرتبًا حسب وفيات مصنفيها:

* عمرو بن بحر الجاحظ (ت: ٢٥٥):

ونقل من كتاب «الدلائل والاعتبار» المنسوب إليه ^(١)، وكاد أن

(١) وهو كتابٌ متنازع النسبة. ولا ريب أن للجاحظ كتابًا في هذا الباب، ذكره في جريدة مصنفاته النديم في «الفهرست» (٢١١)، وياقوت في «إرشاد الأريب» (٢١١٩)، وسمياه: «التفكر والاعتبار»، لكن بعض المعاصرين ذهب إلى أن ما بين أيدينا اليوم ليس به، وأنه منحولٌ على أبي عثمان لا يشبه أسلوبه، ومن أولئك: حسن السندوبي في «أدب الجاحظ» (٤٤، ١٥٣)، ومحمود أبو رية في رسائل الرافعي إليه (١٤٧، ٢٠٨). والمثبتون له المصححون لنسبته أجلُّ، فأولهم: الإمام المحقق المجتهد محمد بن إبراهيم الوزير (ت: ٨٤٠)، فقد وقف عليه وأطراه وسماه: «العبر والاعتبار»، في «العواصم والقواصم» (٤ / ٣٣، ٣٧)، و«إيثار الحق على الخلق» (١٦٩). وثانيهم: العلامة الشوكاني (ت: ١٢٥٠) في «فتح القدير» (٥ / ٥٦٧)، =

وأثنى عليه كذلك، ومن الكتاب نسخٌ خطية في مكتبات اليمن، وللزيدية هناك عنايةٌ بتراث المعتزلة وتهمُّمٌ، وكثيرٌ منه طبع عن أصول احتفظت بها خزانهم. وثالثهم: إمام الأدب لعصره مصطفى صادق الرافعي، وحسبك به خبرةً بطرائق الكلام وأنساب بيان الجاحظ، فقد كتب لأبي ربه حين طبع الكتاب بحلب سنة ١٩٢٨ يوصيه به: «طبع للجاحظ كتابٌ جديد اسمه كتاب الدلائل والاعتبار، فلا يفتك هذا الكتاب، وهو من أهم كتب الجاحظ، بل لعله أهمها في الرأي والفكر؛ لأنه أغار فيه على آراء الفلاسفة القدماء في حكمة المخلوقات وجاء بها في عبارة سريّة، رحم الله هذا الرجل وزمنه وأهل زمنه». «الرسائل» (١٤٧). ولم يقنع بذلك صاحبه، فكتب إليه سنة ١٩٣١ يسأله رأيه في نسبة الكتاب، فأجابه الرافعي: «لا يمكن إثبات كتاب لمؤلف كالجاحظ زورٌ على غيره وزورٌ غيره عليه إلا بمقابلة الكتاب بأسلوبه في دقائقه وتفصيله، والراجع أن كتاب دلائل الاعتبار له لولا بعض عبارات ضعيفة تعترض في أثنائه». «الرسائل» (٢٠٨).

طبع الكتاب بمصر قديمًا سنة ١٩١٤ بالمطبعة الأميرية ملحقًا بكتاب التاج المنسوب للجاحظ، ولم يشتهر، ثم نشره الشيخ محمد راغب الطباخ في مطبعته العلمية بحلب سنة ١٩٢٨ بعنوان: «الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير»، فاشتهر وذاع، وسقطت مقدمته من النسخة التي اعتمد عليها، ووقف المستشرق الألماني كرنكو على نسخة متأخرة للكتاب في المتحف البريطاني فنشر مقدمتها في «مجلة المجمع العلمي العربي» بدمشق (٩/ ٥٥٨ - ٥٦١).

وتناهبه النساخ والمؤلفون، ونُسِبَ نسبًا شتى:

* فنُسِبَ إلى جعفر الصادق رضي الله عنه، وأنه أملاه على المفضل بن عمر الجعفي، وانفرد الشيعة بهذه النسبة، وأقدم من نسب الكتاب منهم: النجاشي (ت: ٤٥٠) في رجاله (١١١٢)، وسماء: كتاب الفكر والحث على الاعتبار، ثم ابن طاووس علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسيني أبو القاسم (ت: ٦٦٤) في كتابيه: «كشف المحجة» (ص: ٩) و«الأمان من أخطار الأسفار والأزمان» (ص: ٩١)، وسماء في الأول: كتاب المفضل بن عمر الذي أملاه مولانا الصادق عليه السلام فيما خلق الله

جل جلاله من الآثار، وسماه في الثاني: معرفة وجوه الحكمة في إنشاء العالم السفلي وإظهار أسرارہ. وأثنى عليه كثيرًا.

ومن البين أنه لم يكن له اسمٌ علمي عندهم، ولذا اختلفت عباراتهم عند ذكره. وانظر: «الذريعة» (٤/ ٤٨٢، ٦/ ٤٩، ١٣/ ١٥٤، ١٦/ ٣٠٠، ١٨/ ١٥٢).

وأدرجه المجلسي (ت: ١١١١) بتمامه في «بحار الأنوار» (٣/ ٥٧ - ١٥١)، وفرّقه في مواضع كثيرة من كتابه وعلّق عليه وشرح ألفاظه، وشرحه غير واحد منهم.

واشتهر عند متأخريهم باسم «توحيد المفضل»، وبه طبع قديمًا في إيران والهند، وحديثًا في مؤسسة الوفاء ببيروت (الطبعة الثانية: ١٤٠٦) وهي التي اعتمدت، ونسخه الخطية في الأزهرية وبرنستون ومشهد وغيرها. انظر: «تاريخ الأدب العربي» (١/ ٢٦٠، ٢٦١)، و«تاريخ التراث العربي» (١/ ٢٧٠، ٢٧٩).

والمفضل غالٍ مضطرب الرواية فاسد المذهب عند متقدمي مؤرخي الشيعة، مقبولٌ عند متأخريهم، كما قال المامقاني في «تنقيح المقال» (٣/ ٢٤٠): إن ما كان يعدُّ غلوًا عند قدماء الشيعة تعدُّه الشيعة الآن من ضروريات مذهب التشيع!! وقد وُضِعَ عليه وزيد شيءٌ كثيرٌ باعتراف محققهم. وانظر لمصادر ترجمته: «الفائق في رواة وأصحاب الإمام الصادق» (٣/ ٢٩١). وأهمها وأقدمها: «اختيار معرفة الرجال» للطوسي (٢/ ٦١٢)، و«رجال النجاشي» (١١١٢).

ودلائل الوضع على هذه النسبة لائحة ظاهرة، وما هو من طريقة جعفر الصادق وأهل عصره بسبيل، وتحامق القوم فجعلوا في أوله قصة ركيكة لسبب إملائه، وألحقوا بآخره مادة رافضية تباين الكتاب روحًا وأسلوبًا، وبنى معاصروهم عليه علالي وقصورًا.

وقد عُرِضَ الكتاب على الشيخ محمد بن إبراهيم سنة ١٣٧٧، فأجاب بأن في نسبه إلى جعفر الصادق شكًا، وأن في آخره غلوًا في أهل البيت، وما فيه من الحق فكتب المحققين من الأئمة المقتدئ بهم كابن القيم وغيره تغني عنه. «الفتاوى والرسائل» (١٣/ ١٢٤).

* ونسب إلى أبي حامد الغزالي، مع إضافات قليلة، وطبع طبعات عديدة بعنوانات

يستوعبه في الفصول التي عقدها للتفكر في عجائب الخلق (ص: ٥٨٦ - ٨٠٦)، وله بين تضاعيفها تعليقاتٌ واستطرادات.

* ابن قتيبة (ت: ٢٧٦):

مختلفة، منها: «الحكمة في مخلوقات الله»، و«أسرار الحكمة في المخلوقات»، وأورده الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه «مؤلفات الغزالي» (٢٥٧) في القسم المشكوك في نسبه، ولم يبين سبب الشك. وقد ذكر السبكي في «الطبقات» (٦/ ٢٢٧)، والزبيدي في «الإنحاف» (١/ ٤٢) وغيرهما من تصانيف أبي حامد: «عجائب صنع الله»، فهل أرادوا هذا؟ وهل يحتمل أن تصح نسبه إليه ويكون قد أغار فيه على كتاب الجاحظ؟

* ونسب إلى جبريل بن نوح الأنباري، وهي نسبةٌ مشككة، ففي مقدمة النسخ المنسوبة للجاحظ: «وقد ألف مثل كتابنا هذا جماعة من الحكماء المتقدمين، فما أوضحوا معانيه، ولا بينوا المشكل منه، فمنهم: جبريل بن نوح الأنباري؛ لأنه صدر كتابه بغير خطبة ولا مقدمة، ورتبه ترتيب الفلاسفة، وصدره بكلام مغلق، ونظمه نظماً غير متسق...». ولا ريب أن النسخة التي وقف عليها ابن القيم كانت منسوبة إليه، فقد قال (ص: ٦٣٢): «قرأت بخط الفاضل جبريل بن نوح الأنباري...»، ثم نقل نصاً منه. ولم أجد لجبريل هذا ترجمة. وفي خزانة أيا صوفيا (٤٨٣٦) نسخة من الكتاب منسوبة إليه، وفيها أنه صنفه أيام المتوكل، انظر: «تاريخ الأدب العربي» (١٢٨/٣). فهل هي بخط جبريل؟ وهل هو صاحب الكتاب الأصلي والجاحظ أو غيره ناقلون عنه؟

* وللحارث المحاسبي (ت: ٢٤٣) كتاب في هذا الباب بعنوان: «التفكر والاعتبار»، ذكره النديم في «الفهرست» (٢٣٦)، وأبدى السندوبي في «أدب الجاحظ» (١٥٣) احتمال أن يكون هو أصل كتابنا هذا. ولم يعثر عليه بعد. وأياً ما كان، فليس من غرضنا ههنا تحرير نسبة الكتاب، وحسبنا أنه مصدرٌ متقدمٌ معروفٌ قبل زمن ابن القيم اعتمد عليه وأفاد منه.

ونقل من كتابه «عيون الأخبار» (ص: ٤٧٧-٤٨٣).

* أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠):

ونقل من كتابه «تهذيب الآثار» (ص: ١٤٨٦، ١٤٨٨، ١٥٣٧-١٥٣٩).

* أبو بكر ابن دريد (ت: ٣٢١):

ونقل من كتابه «الاشتقاق» (ص: ١٥٢١).

* القفال الشاشي (ت: ٣٦٥):

ونقل من كتابه «محاسن الشريعة» (ص: ٨٦٠)، وذكره (ص: ٩٦٤) وأثنى عليه.

* الشريف المرتضى (ت: ٤٣٦):

ونقل من رسالته في الرد على المنجمين (ص: ١١٩١)، ولعله نقل عنها بواسطة.

* أبو الحسين القشيري (ت: ٤٦٥):

ونقل من كتابه «الرسالة القشيرية» (ص: ٤٣٥-٤٣٨، ٤٥٤).

* الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢):

ونقل من تفسيره (ص: ٢٢).

* أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥):

ونقل من كتبه:

- «إحياء علوم الدين»، فانتفع بكتاب العلم عند البحث في وجوه فضل

العلم، مع تعليقاتٍ طوال ونقول من مصادر أخرى، واستوعب كتاب التفكير عند الكلام في التفكير وفضله ومجاريه وعجائب خلق الإنسان وغيره (ص: ٥١٥-٥٨٣) (١).

- «المستصفى» (ص: ٩٧٤-٩٧٨، ٩٧٩-٩٨٢).

- «تهافت الفلاسفة» (ص: ١٤١٤، ١٤١٦، ١٤١٨).

* الزمخشري (ت: ٥٣٨).

ونقل من كتابه «الكشاف» (ص: ٤٤).

* الشهرستاني (ت: ٥٤٨):

ونقل من كتابه «نهاية الأقدام» (ص: ٩٧٢-٩٧٤، ٩٧٨، ٩٨٣-٩٨٨، ٩٩٠، ٩٩١).

* ابن الجوزي (ت: ٥٩٧):

ونقل من كتابه:

- «المدھش» (ص: ٨٣٠).

- «زاد المسير» (ص: ١٣٦٠).

* فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦):

ونقل من كتابه «السر المكتوم» (ص: ١١٧٩، ١٢٦٩، ١٢٨٢، وغيرها)،

(١) وأتى الزبيدي في شرحه، فنقل كثيرًا عن المصنف دون تصريح! وصرّح به في بعض المواضع.

وأشار إلى تصنيف الرازي له (ص: ١٣٦٥).

* العز بن عبد السلام (ت: ٦٦٠):

ونقل من كتابه «قواعد الأحكام» (ص: ٩٠٠).

* أبو العباس ابن تيمية (ت: ٧٢٨):

ونقل من كتبه:

- «الجواب الصحيح» (ص: ١١٥٧).

- «شرح حديث أبي ذر» (ص: ١١٣٨).

- فتيا في الجنة التي أسكنها آدم (ص: ٧٧).

ومن المواضيع التي لا أرتاب في أنها منقولة عن مصدر آخر، لكن لم أهتم إليه: سردُ الحوادث التي ظهر فيها كذبُ المنجمين، فإنها من جنس نشر العماد الكاتب والقاضي الفاضل وأضرابهما.

ولا ريب أن التصريح بالعزو عند النقل من شُكر العلم، وهو المتعين، وخلافه ليس عرفاً مقبولاً بحال، بل ما زال أهل العلم - ومنهم المصنف في مواضيع من كتبه - ينصُّون على فضل إضافة الفائدة لقائلها ونسبتها إلى صاحبها، ويتمثلونه في كتبهم، وينكرون على من حاد عن محجَّته، فلعل له عذراً في ترك الإفصاح عن النقل في هذه المواضيع.



الثناء على الكتاب

أثنى على الكتاب غير واحد من أهل العلم ، وهو كما قالوا، وسأسوق بعض عباراتهم ثم أتبعها بعبارات أخرى للمصنف.

قال صديق حسن خان (ت: ١٣٠٧): «وهو كتاب نفيس عزيز المقاصد، من الله تعالى به عليّ وأحسن إلي»^(١).

وقال أيضًا: «وهو كتاب لا يوجد نظيره في الإسلام»^(٢).

وكتب نعمان الألوسي (ت: ١٣١٧) على ظهر نسخته من الكتاب، وقد أوقفها على ذريته: «وهو كتاب جليل، ليس له في بابه مثيل».

وأثنى المصنف على كتابه، فقال في «مدارج السالكين» (١ / ٩١): «وهو كتاب بديع في معناه».

وأثنى في الكتاب على بعض مباحثه^(٣)، ومن ذلك قوله: «وحسبك بهذا الفصل وعظيم منفعته من هذا الكتاب».

وقوله: «فتدبر هذا الفصل، فإنه من الكنوز في هذا الكتاب، وهو حقيق بأن تثني عليه الخناصر».

(١) «أبجد العلوم» (١ / ٩٧).

(٢) «يقظة أولي الاعتبار» (٢٢٤).

(٣) (ص: ٨٧، ١٢٧، ٢٨٥، ٧٢٧، ٧٨٣، ٧٩٨، ٩٥٢، ٩٥٧، ١١٣٥، ١١٣٩، ١١٤٥، ١٦٠١، ١٦٠٢).

وقوله: «فهذه مجامع طرق العالم في هذا المقام أَلقيت إليك مختصرةً بذكر قواعدها وأدلتها، وترجيح الصواب منها، وإبطال الباطل، ولعلك لا تجد هذا التفصيل والكلام على هذه المذاهب وأصولها في كتابٍ من كتب القوم».

ومن ذلك ما وقع في خاتمة الكتاب في الأصول الخطية (د، ق، ت، ص)، وهي أصولٌ عتيقةٌ بعضها منقولٌ من نسخة المصنف وبعضها مقابلٌ عليها، ونظم الكلام يشبه أسلوب ابن القيم، ونصها: «نجز الكتاب المسمى بمفتاح دار السعادة، وهو كتابٌ نفيس، لا يملُّه الجليس، وفيه من بدائع الفوائد وفرائد القلائد ما لا يوجد ذلك في سواه، وفيه من البحوث ما يستقصي كلَّ علم إلى منتهاه، واسمه مطابقٌ لمسمَّاه، ولفظه موافقٌ لمعناه؛ فإن فيه من الإفادة ما يحدو إلى دار السعادة»^(١).



(١) انظر لتوجيه ثناء المصنف على كتبه وإشاداته بتحريراته ومباحثه مقدمة تحقيق أخي الشيخ علي العمران لـ «بدائع الفوائد» (٣٢، ٣٣).

وصف الأصول الخطية

تحتفظ خزائن المخطوطات ودور الكتب - فيما تيسر الوقوف عليه - بثلاثة عشر أصلاً خطياً لكتاب «مفتاح دار السعادة»، انتخبت منها خمسة هي أصحُّها وأعلاها، واستأنستُ بسادسٍ نُسخ سنة ٧٨٦، بالإضافة لأصلٍ من القرن التاسع لأحد مختصرات الكتاب، وسأتي على وصف معتمدي منها، ثم أشير لباقي الأصول، وما نُسبَ في بعض الفهارس ضلّة.

* أما الأصول المعتمدة، فهي:

١ - نسخة مكتبة داماد إبراهيم باشا (د):

وهي نسخة تامة نفيسة، كتبها الإمام الحافظ إسماعيل بن محمد بن برّدس البعلي^(١) سنة ٧٦٦، بعد وفاة المصنف بخمس عشرة سنة، بخطه المضبوط المجوّد.

وأصلها محفوظٌ بمكتبة داماد إبراهيم باشا، ضمن المكتبة السلিমانيّة بتركيا، برقم (٤١٣).

(١) أبو الفداء، عماد الدين، ولد سنة ٧٢٠، وسمع من طائفة، وعني بالحديث، ورحل في طلبه إلى دمشق، وقرأ بنفسه، وكتب الكثير، نظم «النهاية في غريب الحديث» و«طبقات الحفاظ» للذهبي، وغيرها، وتخرّج به جماعة، وكان أحد الحفاظ المكثرين المصنفين، حسن الخلق، كثير الديانة، توفي في العشر الأواخر من شوال سنة ٧٨٤. انظر: «الرد الوافر» (١٦١)، و«السحب الوابلة» (١/ ٢٨٧) وفي حاشيته مصادر ترجمته.

وعدد أوراقها ٣٢٥ ورقة، في الصفحة ٢٣ سطرًا، وفي السطر نحو من ١٧ كلمة.

وقد لقيت هذه النسخة ضروبًا من العناية، فأول ذلك ضبط ابن بردسٍ نصّها بالشكل، وعنايته بعلامات الإهمال، فيضع فوق الحرف المهمل علامة كقلامة الظفر المضجعة، لا يكاد يخلُ بذلك، ثم مقابلته لها على الأصل وإن لم ينص على ذلك، لكن التصحيحات المثبتة في طرر النسخة المختومة بـ «صح» (ق ٣/ ب، أ، ٤/ أ، ٦/ أ، ٨/ أ، ١٠/ أ، ١٢/ ب، ١٤/ أ، ١٧/ ب، ...)، والحق واستدراك السقط (ق ٢/ ب، ٣/ ب، ٥/ أ، ١٠/ أ، ...)، ولا تكاد تخلو منهما ورقة = يدلّان على المقابلة.

وما طغى فيه القلم أو الحبر أعاد كتابته في الطرة مجودًا، وفوقه كلمة «بيان»، وربما ختمه بـ «صح» (ق ٣٠/ ب، ٣٩/ أ، ٥١/ ب، ٧٥/ أ، ٨٠/ ب، ...).

ويميز الفصول ونحوها، فيكتبها بخط كبير محبّر.

وختم النسخة بقوله: «نجز الكتاب المسمى بمفتاح دار السعادة، وهو كتاب نفيس، لا يملهُ الجليس، وفيه من بدائع الفوائد وفرائد القلائد ما لا يوجد ذلك في سواه، وفيه من البحوث ما يستقصي كلّ علم إلى متنها، واسمه مطابق لمسمّاه، ولفظه موافق لمعناه؛ فإن فيه من الإفادة ما يحدو إلى دار السعادة. وذلك على يد أفقر خلق الله إليه، المتوكل في جميع أحواله عليه، والمعترف بالخطأ والزلل، والمسيء في القول والعمل: إسماعيل بن محمد بن بردس، عفا الله عنه، وكان تمام ذلك في التاسع عشر من شهر شعبان المكرم عام ستة وستين وسبع مئة من الهجرة النبوية، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

ولم يذكر الأصل الذي نقل عنه، ولا يبعد أن يكون أصل المصنف،
لقرب العهد والدار.

ولعسر خط المصنف وتعليقه وتركه الإعجام إذا أسرع في الكتابة، كما
تراه فيما وصلنا بخطه من مسودة كتابه «طريق الهجرتين»، اشتبهت كثيرٌ من
المواضع على نساخ الكتاب، فرسموها رسمًا كما رأوها في الأصل، وأبقوها
محتملةً لأكثر من قراءة، وأمثلهم طريقةً في ذلك ابنُ بردس، وفي مواضع
ليست بالقليلة اجتهدوا في القراءة فكتبوها محرفةً عن جادة الصواب.

ولذا وجدنا ابن بردس يبدي في مواضع كثيرة من الطرر احتمالاتٍ
أخرى للقراءة، مبدوءة بـ «لعله»، كما في (ق ٢١ / أ، ٣٧ / أ، ٤٣ / ب، ٧٣ /
أ، ٨٦ / أ، ...).

وفي مراتٍ قليلة (ق ٧٥ / ب، ٧٨ / ب، ١٩٥ / ب) رأيتُه يشير إلى قراءة
نسخة أخرى، ويرمز لها بـ «خ».

وربما نقل تعليقًا من طرة الأصل، فيما أقدر، كما في (ق ١٢٤ / أ).

وجاء بعده عثمان بن علي بن حميد، ولم أعثر على ترجمته، فقرأ
النسخة بقلعة بعلبك، بلد ابن بردس، وقابلها (أو ثلثها الأخير على أقل
تقدير) على أصل آخر، واستدرك بعض ما سقط منها وأثبت في الطرر بخطَّ
مهمل من النقط، وأبدى احتمالاتٍ أخرى للقراءة، وصدَّرها كسلفه بـ
«لعله».

وقد انتفعتُ بهذه القراءات في تحقيق نص الكتاب، وأثبتُ منها في
الحواشي ما رأيته محتملاً للصواب.

وفي النسخة بياضٌ يسيرٌ في موضعين (ق ٣/ ب، ٣٢٣/ أ).

ومن طريقة ابن بردس التي رأيت: تسهيل الهمز في غالب أمره، وتحقيقها أحياناً، وكذا الأصلان (ق) و(ت)، والأشبه أن المصنف لم يكن مطرداً في التسهيل أو التحقيق وإن كان الأول هو الأغلب عليه، ولذا وجدنا الأصول تتفق على أحدهما حيناً وتختلف حيناً آخر.

ومن طريف ما وقع من ذلك كلمة «الجزئية»، فإن المصنف يرسمها بالتسهيل: «الجزوية»، وكثيرٌ من المتقدمين يرسمها كذلك، فجود رسمها ابن بردس في نسخته، ولم يظن لها نسخاً الأصول الأخرى فرسموها رسماً مشتبهاً، وتحرفت عند الناشرين على ألوان: «الحرورية» و«الحزورية» و«الحرونة»!

ومن ذلك: رسم «الأسئلة»: «الأسولة». إلى آخره.

ومن طريقته أيضاً: كتابة الأبيات مفردة في وسط السطر غير متصلة بما يليها، ويختم أحياناً البيت بدائرة، وكثيرٌ من النساخ يخلُ بذلك.

وربما فاته البيت بعد البيت مما يدرجه المصنف في مثاني كلامه، فلم يصنع بها صنيعه ذاك، وكذا باقي الأصول، وكُتبت في المطبوعات نشرًا^(١).

(١) قال العلامة عبد القادر بن بدران في «المدخل» (٤٨٤) وهو يذكر ما يلزم المتفقه معرفته: «وقد يذكر الفقهاء كثيراً من الشروط والواجبات... منظومة... فإذا كان المريد لحفظها جاهلاً بفني العروض والقوافي حفظها مختلة الوزن غير مستقيمة، وربما كان بحيث لا يفرق بين المنظوم والمنثور، ولا سيما إذا كان الناسخ جاهلاً فكتب النظم ككتابه للنثر، فهناك يفوت المقصود، ويُعد ذلك من الجهل».

وقد حظيت النسخة بتعليقات أكثر من قارئ.

فأولهم قارئ لم يذكر اسمه، له تعليقاتٌ منتشرةٌ في صفحات النسخة بقلم فارسيٍّ دقيق جدًّا، في الطُّرر وبين السطور. وهي على' أضرب:

فمنها: شرحٌ لبعض الغريب، كما في (ق ٣٦ / ب) يشرح لفظة «صفد»، قال: «الصفد، بالتحريك، العطاء. جوهرى».

ومنها: توضيحٌ للضمائر ونحوها، كما في (ق ٦٨ / ب) علّق على' قول المصنف: «وإذا فقدهما» بقوله: «أي: العلم والعقل».

ومنها: نقولٌ من كتب التفسير والحديث وغيرها، كما في (ق ٧٢ / أ، ٩٥ / ب، ١١٥ / ب، ١٢٥ / ب، ١٢٧ / أ، ...).

ففي (ق ٣٨ / ب) علّق على' قول المصنف عن النجوم: «إنها رجومٌ للشياطين»، فنقل عن الضحاك أن الكواكب التي تُرى لا يُرجم بها، وإنما يُرجم بالتي لا يراها الناس، ثم نقل عن أبي علي: أن الكواكب أنفسها لا يُرجم بها؛ لأنها ثابتة، وإنما ينفصل عنها شهابٌ يحرق.... وهكذا في (ق ٤٠ / ب) نقلٌ طويلٌ من كتاب «آكام المرجان» للشبلي.

وهو يكتُب بخطّه الفارسي الدقيق بمدادٍ أحمر عناوين جانبية مختصرة لبعض الفوائد والمسائل (ق ٥ / ب، ٢٧ / ب، ٣٨ / ب، ٤٥ / ب، ٤٨ / ب، ٥١ / ب، ٦٥ / أ، ...).

ويضع خطًّا بالقلم نفسه فوق بدايات المقاطع والوجوه ونحوها، وفي بعض المواضع يضع فواصل بين الجمل، وربما وضع في آخر البيت نقاطًا ثلاث كالآثافي.

وعَلَّقَ قارئ ثانٍ في طرة (ق ٤٤ / أ) حين نقل المصنف سنة وفاة
سعيد بن المسيب حاشيةً في الأقوال المذكورة في سنة وفاته.

وعَلَّقَ ثالثٌ في (ق ١٤١ / أ) بما شاهده من حال الخفاش ليلاً، وأكله
الثمار. وهو تعليقٌ طريف، وقد نقلته في موضعه.

وكتب العنوان على لوحة الكتاب: «كتاب مفتاح دار السعادة، تأليف
الشيخ الإمام العالم العلامة شيخ الإسلام بركة الأنام قدوة السلف طراز
الخلف أحد أركان التفسير البحر الغزير، أبي عبد الله محمد بن الشيخ
الصالح الزاهد أبي بكر بن أيوب، المعروف بابن قيم الجوزية، رحمه الله
تعالى» ورضي عنه وجعل الجنة مثواه، آمين».

وتحت كتبه أحدهم: «الحمد لله وحده، رحم الله مصنفه، لقد أجاد،
فجزاه الله عن الإسلام خيراً، لقد صنف كتاباً ما سبقه إليه أحدٌ قبله، ولا
يدركه أحدٌ بعده».

وأسفل منه عن يساره كتب: «مرحوم طاش كوبري زاده». وتحت كلمة
لم أقرأها. ولا أدري أهذا خطُّه أم لا؟

وعن يمينه قيد مطالعةٍ للكتاب بخطٍّ مزخرف سنة ٨٨٠.

وعن يساره أسفل الصفحة قيدٌ آخر، أوله: «نظر فيه داعياً لمالكه ومثيلاً
على مصنفه...».

وفوقه قيد مطالعةٍ آخر.

وفي يسار الصفحة في أعلاها ثلاثة تملكاتٍ للنسخة.

وفي أسفلها من جهة اليمين ختمٌ قديمٌ لم أستطع قراءة نصه.

أما ختم مكتبة داماد إبراهيم باشا، ففي مواضع من طرر النسخة (ق: ٣/أ، ١١/أ، ٢١/أ، ٣١/أ، ٤١/أ،...)، وفي (ق ١٥٩/أ، ٢٥٧/أ) ختم آخر للمكتبة أكبر حجمًا، وظهر لي من كلماته: «... الصدر الأفخم إبراهيم باشا يسر الله له... الوزير لحضرة السلطان الغازي أحمد خان خلدت خلافته...».

أما خاتمة النسخة، فتحت خاتمة ابن بردس: «طالعه وانتخب منه إسماعيل الزرعي، عفا الله عنه وعن مالكة والمسلمين، آمين». وكتب في (ق ٢٨/ب) قيد مطالعة باسمه.

وتحتة: «قرأه العبد الفقير إلى رحمة ربه القدير: عثمان بن علي بن حميد عفا الله عنه، وكتب بتاريخ رابع عشر شهر صفر... في مقام الخليل إبراهيم عليه أفضل الصلاة والسلام، بقلعة بعلبك المنصورة، وهو يسأل الله عز وجل ويتوسل بمحمد ﷺ^(١) أن يأخذ حقه ممن ظلمه قريب غير بعيد، إنه على ما يشاء قدير، وهو نعم المولى ونعم النصير».

ثم بعدها ثلاث صفحات كتب فيها دعاء الفرج والدعاء عند الكرب وعند الهم والحزن وغيرها.

وفي آخر الصفحة الثالثة قيد مطالعة نصّه: «طالع في هذا الكتاب المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن محمد بن محمد الحلبي عفا الله عنه وعن جميع المسلمين».

(١) ليس هذا التوسل المشروع في أصحّ قولي العلماء.

٢- نسخة مكتبة الأوقاف العراقية (ق) (١):

وهي نسخةٌ جليظةٌ تامة، كتبت سنة ٨٤١، بعد أن كتب المصنف كتابه بنحو مئة سنة، وقوبلت على نسخته التي بخطه، ثم طوفت في البلدان ليستقر بها النوى في بلاد الرافدين، وتحفظ بها مكتبة الأوقاف العامة ببغداد برقم (٥٩٩٤).

وناسخها هو أحمد بن محمد بن أحمد بن إسماعيل الصعيدي المكي الحنبلي، ولد بمكة قبل سنة ٨١٠، ونشأ بها، ثم نزل دمشق، وتفقّه هناك وتزوج، ونظم الشعر، ومات بها وهو شاب في الطاعون سنة ٨٤١، وهي السنة التي نسخ فيها الكتاب (٢).

وخطه نسخي واضح، يضبط أحياناً بعض الكلمات، ويغلظ خطه في مواضع ويدق في أخرى بحسب القلم الذي يكتب به.

تقع في ٢٥٠ ورقة، وفي الصفحة ٢٧ سطرًا، في السطر نحو ٢٠ كلمة. وفي خاتمتها: «نجز الكتاب المسمى بمفتاح دار السعادة، وهو كتاب نفيس، لا يملّه الجليس، وفيه من بدائع الفوائد وفرائد القلائد ما لا يوجد ذلك في سواه، وفيه من البحوث ما يستقصي كلّ علم إلى متنهاه، واسمه مطابق لمسمّاه، ولفظه موافق لمعناه؛ فإن فيه من الإفادة ما يحدو إلى دار السعادة. وذلك على يد أفقر خلق الله إليه، المتوكل في جميع أحواله عليه،

(١) صورها من العراق قبيل غزوه الأخ الكريم د. ماهر الفحل جزاه الله خيرًا.

(٢) ترجمته في «الضوء اللامع» (٢/ ٧١)، و«السحب الوابلة» (١/ ٢٢٠)، وفي حاشية الثاني مصادر أخرى.

والمعترف بالخطأ والزلل، والمسيء في القول والعمل: أحمد بن محمد بالصعيد يُعرف، المكي، الحنبلي، عفا الله عنه، وكان تمام ذلك في الثاني والعشرين من شهر الله المحرم شهر رجب المكرم عام أحد وأربعين وثمان مئة من الهجرة النبوية، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

وفي طرة الخاتمة بخط غير معجم: «بلغ مقابلة بحسب الطاقة، والله الحمد والمنة». ثم تحته بخط أوضح معجم الحروف: «بلغ مقابلةً وتصحيحًا على نسخة بخط مؤلفه بحسب الجهد والطاقة».

والظاهر أن كليهما خط الناسخ، قابل النسخة أول مرة على أصلها الذي انتسخها منه، ثم وقف على نسخة المصنف فقابل الكتاب بها مرة أخرى^(١).

وآثار المقابلة بادية على صفحات النسخة، فالتصحیحات المختومة بـ (صح)، واللحق واستدراك السقط، لا تكاد تخلو منها ورقة.

ومن ذلك: أنه في (ق: ٣/ ب) وجد بياضاً في موضع من الأصل الذي ينقل منه، فقدّر أنه بضع كلمات، فترك له فراغاً بقدر ذلك، وكتب في الطرة: «بياض»، ثم حين قابل نسخته بنسخة المصنف إذا الساقط أكثر مما قدر، فاستدركه في موضعه بخط دقيق وأكمل الباقي في الطرة.

(١) وربما تكون المقابلة من غيره، إذا نظرنا إلى أنه انتهى منه في آخر رجب، ومات في رمضان أو ذي القعدة؛ لأن الطاعون بدأ في الشام في شهر رجب واشتد في رمضان، فمقابلته مرة، ثم يحصل على نسخة المؤلف ويقابله أخرى، كل ذلك في نحو شهرين أو ثلاثة قد يُستبعد، والله أعلم. (علي العمران).

وكان يعتني بكتابة بلاغات المقابلة في الطرر، كما في (ق: ٤ / أ، ٦ / ب، ١٤ / ب، ١٥ / ب، ٢٥ / أ، ٢٨ / أ، ٢٩ / أ، ٣٦ / أ)، ثم انقطع عن كتابتها حتى (ق: ١٦٧ / ب)، فهل قابل ما بين ذلك في جلسة واحدة؟، ثم لم يكتبها بعد إلا مرتين (ق: ٢٠٠ / ب، ٢٤١).

ومن مظاهر عنايته: أنه يعيد ما لم يجود كتابته في المتن بحذائه في الطرة، وفوقه كلمة «بيان»، كما في (ق: ٤ / ب، ١٨ / ب، ٣١ / أ، ٣٤ / ب، ٣٧ / ب) وهكذا إلى آخر الكتاب.

وما يخطئ فيه يضرب عليه ضرباً رقيقاً.

ويجتهد في رسم الكلمات المشككة كما وقعت في الأصل الذي ينقل عنه، فلا تتحرر قراءتها، ويبقى الرسم محتملاً لقراءات أخرى، كما صنع ابن بردس، إلا أن الثاني أدق في الرسم وأكثر اجتهاداً. ويجتهد أحياناً فيقرؤها على خلاف الصواب.

وانتقل نظره في مواضع قليلة، فسقطت عليه بعض الجمل، وفاته استدراكها في المقابلة.

ويستشكل أحياناً بعض الكلمات، فيكتبها في الطرة بحذاء موضعها، وفوقها: «كذا».

ومن عوائده: أنه يضع خطأً فوق بدايات الفصول ونحوها مما يريد تنبيه القارئ إليه^(١)، كما أنه يكتب تلك الكلمات بخط أغلظ، ويكتب بخط دقيق

(١) وضع الخط فوق ما يراد تنبيه القارئ إليه هو ما جرى عليه عمل أهل العلم ونساخت الكتب والمصاحف، أما وضعها تحته فمن محدثات المستشرقين.

في الطرة: «فصل» أمام مواضعها في الكتاب.

وربما نبّه أحياناً على بعض المواضع المهمة، كما في فعل في (ق):
٢٢/ ب) حين كتب في الطرة بحذاء ذكر المصنف لاسم الكتاب: «قف
على تسمية الكتاب».

ومن عنايته: كتابته للكلمة الأولى من الورقة في ذيل الورقة التي قبلها
تحت آخر سطر فيها، لئلا يضطرب ترتيب الأوراق، وهو ما يسميه النساخ
بالتعقيبات^(١).

ويشبه أن تكون هذه النسخة منقولة من نسخة ابن بردس (د)، ثم قوبلت
على نسخة المصنف، فانظر كيف كتب الناسخ الخاتمة الأخيرة التي كتبها
ابن بردس لنسخة (د) بحروفها، وإنما وضع اسمه موضع اسمه وتاريخ
نسخه موضع تاريخه، ولم يقع ذلك في نسختي (ت) و(ي)، أما الخاتمة
التي فيها الثناء على الكتاب فالأقرب أنها من أصل المصنف كما تقدم، ثم
تأمل اشتراكهما في التصحيح والاستدراك لكثير من اللحق في مواضعه،
وتأمل تأثر ناسخ (ق) بقراءات ابن بردس لكثير من الكلمات المشكلة،
بخلاف ناسخ (ت)، وأضف إلى ذلك تقدم تاريخ نسخة (د)، وتقارب
داريهما.

وعلى النسخة تملكات عديدة:

فأقدمها على الصفحة الأولى تحت عنوان الكتاب: «في نوبة الفقير
أحمد خورسجي (كذا) أرنوط (لعلها: أرنوط) سنة ١١٩١».

(١) انظر: «المخطوط العربي» لعبد الستار الحلوجي (١٦٧).

وتحتة تملك آخر لم يذكر تاريخه: «في نوبة مالكة السيد الحاج حافظ محمد صادق... (كلمة لم أقرأها)، بثغر دمياط، عفي عنه وغفر له ولوالديه».

وعلى يسار الصفحة نصٌ مضروبٌ عليه ضرباً شديداً، لعله رهنٌ ضرب عليه بعد أن افتكّه صاحبه، كما يقع أحياناً.

ثم رحلت النسخة إلى بغداد العراق، لتدخل بيت الآلوسيين^(١)، فنرى أول دخولها سنة ١٢٦٠ في التملك التالي أسفل الصفحة الأولى: «آل إلى نوبة أفقر العباد إليه عز شأنه: آلوسي^(٢) زاده شهاب الدين السيد محمود المفتي ببغداد^(٣) (ثلاث كلمات لم أتبينهن) عفي عنهما، وذلك بالشري الشرعي في ٢٧ جمادى سنة ١٢٦٠». وتحتة خاتمه: «السيد محمود».

ثم انتقلت بالإرث إلى ابنه نعمان^(٤)، فكتب بجوار تملك أبيه، بعد ٢٢

(١) انظر لهذا البيت: «تاريخ الأسر العلمية في بغداد» للراوي (١٨١ - ٢٣٦).

(٢) كذا مضبوطة موجودة في الأصل بمدة على الألف في جميع مواضع ذكرها في هذه التقييدات. وهو المشهور المعروف. انظر: «الأعلام» (١ / ٢٥)، و«محمود شكري الآلوسي وآراؤه اللغوية» لمحمد بهجة الأثري.

(٣) وهو الآلوسي الكبير، شهاب الدين محمود بن عبد الله، العلامة المفسر، تقلد الإفتاء ببغداد سنة ١٢٤٨، ثم عزل، (ت: ١٢٧٠). انظر: «الأعلام» (٧ / ١٧٦)، وفي حاشيته مصادر ترجمته. وقد أفاد من «المفتاح» في كتبه، كما مر في مبحث نسبة الكتاب.

(٤) أبو البركات، خير الدين، باحث فقيه، من أعلام هذه الأسرة (ت: ١٣١٧). انظر ترجمته في «الأعلام» (٨ / ٤٢). وأشهر كتبه: «جلاء العينين في محاكمة

سنة: «ثم وصل إلى ولده الفقير إليه عزَّ شأنه السيد نعمان خير الدين غفر
لهما، سنة ١٢٨٢». وتحت خاتمه: «خير الدين السيد نعمان».

وكان نعمان قد كتب تملكه للنسخة في آخرها بعد وفاة والده بسنة
واحدة: «للفقير إليه سبحانه وتعالى السيد نعمان بن المبرور^(١) السيد محمود
أفندي المفتي ببغداد، ابن المرحوم السيد عبد الله أفندي مدرس الأعظمية،
الشهير بالوسي زاده، عُفِّر لهم، سنة ١٢٧١». ثم ختم المكتبة النعمانية.

ثم أوقفها نعمان على ذريته، فكتب على ظهر غلافها الخارجي: «هذا
الكتاب موقوفٌ على ذريتي حسب الكتب الموقوفة الحاكم بصحة وقفها
حاكم من قضات^(٢) المسلمين، المختومة بختمه، وهو كتابٌ جليل ليس له
في بابه مثيل. الفقير السيد نعمان غفر له».

وختم المكتبة النعمانية مبثوثٌ في مواضع من النسخة، على صفحة
العنوان، و(ق: ١١٦ / ب، ١٢٢ / ب، ١٥١ / ب)، وفي خاتمتها. ونصُّه:
«وقف المكتبة النعمانية في المدرسة المرجانية ببغداد»^(٣).

الأحمدين» ابن تيمية وابن حجر الهيتمي، وقد أفاد من «المفتاح» في كتبه، كما
سلف.

(١) ووصفه بذلك في إجازته لولده (٢٨).

(٢) كذا كتب التاء مفتوحة.

(٣) وتقع المدرسة عند مدخل سوق الشورجة بشارع الرشيد ببغداد، بناها أمين الدين
مرجان سنة ٧٥١، ودرَّس بها أبو الثناء الألووسي ونعمان الألووسي وغيرهما من آل
الألوسيين وسواهم، وأقيم موضعها اليوم جامع مرجان، وبقيت من آثارها بقية.
وضمت المكتبة النعمانية إلى مكتبة الأوقاف العامة ببغداد سنة ١٣٤٧.

وللآلوسي الكبير شهاب الدين تعليقٌ في (ق: ١١٥ / ب) بخطه
الفارسي الأنيق، عن الجراد وأنه نثره حوت، وقد نقلته في موضعه. كما كتب
في الطرر بعض العناوين لمهم المسائل، كما في (ق: ١١٦ / ب، ١٥٢ /
ب).

أما نعمان، فله تعليقاتٌ موجزة، أثبتنا المهمَّ منها في مواضعها، ومما لم
نثبته لظهوره تعليقه على قول المصنف في (ق ١٤٤ / ب): «وهذا اختيار
شيخنا» بقوله: «هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية قدس سره»،
وأشبهه هذا.

وكتب في طررها عناوين مختصرة للمباحث، وله عنايةٌ بما يتعلق
بالشيعة، فمن ذلك كتب في (ق ٦٨ / أ) عنوانًا في الطرة: «في تكذيب من
يقول باختفاء المهدي»، وفي (ق ٢٤٦ / أ) تعليقٌ عن تشاؤم الرافضة
بالعطسة الواحدة، وقد أثبتناه في موضعه.

وهو يكتب كلمة «شعر» أحيانًا أمام ما يورده المصنف من الشعر، ويعيد
كتابة «فصل» في الطرة حيث وردت بخطٌ كبير محبّر.

ولأحد القراء تعليقاتٌ على بعض المواضع، منها قوله عند فصل:
حاجة الناس إلى الشريعة (ق ١٣٧ / ب): «هذا ابتداء النصف الثاني من
الكتاب»، وسيأتي التعليق على هذا في وصف النسخة (ح). ومنها تعريفه
بالرازي والآمدي عند ذكر المصنف لهما في (ق ١٤٧ / ب). وله عناوين
مختصرة لبعض المباحث (ق ١٥١ / أ، ١٥٧ / ب، ١٦٠ / أ، ١٦١ / أ).

ورسّمت في أواخر النسخة (ق ٢٠٠ / ب، ٢٠٧ / ب، ٢٠٨ / ب،
٢١٥ / ب) نجمةً خماسية في طرر بعض المواضع، تنبيهًا، ولم يتبين لي

صاحبها، ويغلب على ظني حدوثها.

وكتب عنوان الكتاب في هذه النسخة على الصفحة الأولى: «كتاب مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة». وتحت: «تأليف الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته بمنه وكرمه. آمين». وفوق كلمة «دار السعادة» بالقلم نفسه: يعني دار الآخرة.

وفي وسط الصفحة كتب نعمان الألوسي: «قال المؤلف عليه الرحمة في فصل التأمل في الفلك الدوار من كتابه هذا: والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آيات الله، ولو ذهبنا نتبع ذلك لنفد الزمان ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام، ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك جملة، وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس التفكير في آيات الله وعجائب صنعه، والانتقال منها إلى تعلق القلب والهمة به دون شيء من مخلوقاته، فلذلك عقدنا هذه الكتاب على هذين الأصلين، إذ هما أفضل ما يكتسبه العبد في هذه الدار».

وعن نسخة منقولة من هذه النسخة، عليها علامة المقابلة بخط محمود شكري الألوسي (ت: ١٣٤٢)^(١)، ونسخة أخرى من تركيا، طبع الكتاب في مصر طبعته الأولى سنة ١٣٢٣ بمطبعة السعادة.

٣- نسخة مكتبة أحمد الثالث (ت):

وهي نسخة تامة، مكتوبة سنة ٨٨٩، بخط نسخي واضح قليل الضبط،

(١) وهي نسخة المكتبة القادرية الآتي ذكرها.

وتقع في ٣٠٩ أوراق، في الصفحة ٢٥ سطرًا، وفي السطر نحو ٢٠ كلمة.
وأصلها محفوظٌ بمكتبة أحمد الثالث، ضمن متحف طوبقبو سراي
بتركيا، برقم (١/ ١٣٧٢. أ. ٥١٤١).

وناسخها: أحمد بن محمد المنذري، ولم أجده له ترجمة.
وفي نهايتها: «تم الكتاب المسمى بمفتاح دار السعادة، وهو كتابٌ
نفيس لا يمله المجلس (إلى آخر النص الوارد في النسختين السابقتين)، على
يد كاتبه أضعف عباد الله وأحوجهم إلى عفوه ومغفرته: أحمد بن محمد
المنذري^(١) غفر الله له ولوالديه ولمن دعا له بالتوبة والمغفرة... بتاريخ
الثالث من شهر جمادى الأولى سنة تسع وثمانين وثمان مئة أحسن الله
عاقبتها بمحمد وآله وصحبه وسلم^(٢)، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى
آله وأزواجه الطيبين الطاهرين رضوان الله عليهم أجمعين».

وفي هذه النسخة صوابٌ كثير، وتحريفٌ غير قليل وسقط، وأتت على
الصواب في مواضع قليلة عزَّ فيها الصواب في سائر النسخ، وتفردت
باستدراك بعض السقط في مواضع، وتقع للناسخ تحريفاتٌ طريفةٌ ينفردُ بها
قيَّدتُ بعضها في الحواشي، ولا ريب أنها منسوخةٌ عن أصلٍ مختلف عن
النسختين السالفتين (د) و(ق).

وفي طررها تصحيحاتٌ مختومة بـ (صح)، واستدراكٌ للسقط، بما يدلُّ

(١) كتبت في الأصل بنقطة واحدة، والناسخ يهمل النقط أحيانًا.

(٢) كذا في الأصل، وهو توسلٌ غير مشروع، وإضافة «وسلم» في آخر الجملة ذهولٌ
طريف.

على' مقابلتها وإن لم ينصَّ على' المقابلة.

فمن مواضع التصحيح: (ق ٤ / أ، ٦ / ب، ٢١ / ب، ٢٨ / أ، ٣٣ / أ، ٣٤ / أ، ٤٢ / ب، ...).

ومن مواضع اللحق واستدراك السقط: (ق ٦ / أ، ١٢ / أ، ١٩ / أ، ٤٥ / ب، ٤٩ / ب، ...).

ومن شأن الناسخ أنه يضرب على' ما أخطأ فيه بخط واحد، فيظهر المضروب عليه بجلاء، وربما علّق في الطرة بإبداء احتمال آخر للقراءة، فيقول: «لعله كذا»، كما في (ق ٧٤ / أ، ١٧٤ / ب، ١٧٧ / ب)، ولعله من الأصل الذي ينقل عنه.

ويضبط أحياناً بعض الكلمات على' غير هدى'، فمن ذلك في (ق ٦ / أ): «وهو أنه أمرٌ فيها بمعصية ربه»، كذا ضبط الفعل، وهو خطأ، وصوابه: «أمرٌ» لما لم يسمَّ فاعله. وفي (ق ١٦ / أ): «كانوا بجبال المسرة المشرفة...»، فلم ينعج بإضافة الميم حتى شدّد الراء!، وإنما هي «الشرة».

وهو يرسم بعض الكلمات على' طريقة المتقدمين (سفين = سفیان).

وكعادة بعض النساخ يقحم كلمة «شعر» قبل ما يسوقه المصنف من الشعر.

ويميّز الفصول والأوجه وأمثالها بخط أكبر، وربما وضع فوقها خطأ أحياناً، وهو يكتبها في معظم أحواله بالحمرة، فلذا لم تظهر جيداً في التصوير في بعض المواضع.

وأقحمت ورقتان طيارتان في الكتاب من غيره، فذهبت ببعض النص

عند التصوير (ق ١٧٩ / أ، ب).

وكتب العنوان على لوحة الكتاب داخل مستطيل: «كتاب مفتاح دار السعادة للشيخ العالم العلامة الإمام الرباني والعالم... شمس الدين محمد أبي عبد الله الشهير بابن قيم الجوزية».

وفي أعلى الصفحة كتب فهرس المكتبة: تصوف. وإلى يسار المستطيل ختم المكتبة وتوقيع قيمها. وليس على النسخة تملكات أو تقييدات.

٤ - نسخة حائل (ح):

وهي نسخة متأخرة، وناقصة، تمثل نصف الكتاب تقريباً، وتقع في ٢٠٧ أوراق، في الصفحة ٢٥ سطراً، في السطر نحو ١٤ كلمة. بخط نسخي واضح.

وأصلها من مكتبة الشيخ علي بن يعقوب، وهي من محفوظات مكتبة المعهد العلمي بحائل، برقم (٤٥). وقد آلت أخيراً إلى دارة الملك عبد العزيز بالرياض.

وتاريخ نسخها: يوم الأربعاء لثلاث مضين من محرم سنة ١٣٢١.

وناسخها هو عبد العزيز بن عثمان بن ركان.

ويبدو أنه نسخ الكتاب لغيره، فقد كتب في خاتمة النسخة بعد اسمه: «غفر الله ولوالديه ومشايخه ومن استكتبه وطالع فيه».

وقد قوبلت بنسخة أخرى سوى الأصل الذي انتُسخَ منه، وآثار ذلك

ظاهرة في استدراك السقط والتصحيحات المنتشرة على طررها المختومة بـ (صح)، وفي الإشارات إلى قراءات النسخة الأخرى التي رمز لها بـ (خ)، وفي بلاغات المقابلة كما في طرة (ق ٧٤ / أ).

وكتب في طرة خاتمتها: «بلغ مقابلة على أصله، فصَحَّ، اللهم إلا ما زاغ عنه البصر أو طغى القلم فيه».

والظاهر أن أصلها قد جالت فيه يد الإصلاح والتغيير والاقتراح في كثير من المواضع، وهو بلا ريب غير أصل النسخ (د، ق، ت)، ويشترك معها غالباً في التحريف الناشئ عن اشتباه الرسم، ويزيد عليها تحريفاً وسقطاً.

وهذه النسخة تتفق كثيراً مع النسخة النجدية (ن) في الخطأ والصواب، والغالب أنهما يرجعان إلى أصل واحد.

وربما أبدى الناسخ في بعض الأحيان احتمالاً لقراءة أخرى في الطرة ويصدر ذلك بقوله: «لعله»، أصاب في بعضها، وأخطأ في أكثرها، ونبهت عليها في مواضعها.

وما لم يحرر كتابته في المتن وضع فوقه حرف (ن)، وأعادته في الحاشية محرراً وفوقه كلمة: «بيان» أو حرف (ن).

وربما علق في طرة النسخة بنقل متعلق بالبحث، أو باستدراك على المصنف، أو بالتنبيه على احتمال وقوع سقط، في مواضع قليلة، وقد أشرت إلى ذلك في حواشي الكتاب.

وهو يكتب الفصول وبدايات المقاطع بحرف أغلظ ويميزها بخط فوقها. ونادراً ما يضع عناوين في الطرر لمهم المسائل والأقوال.

وفي آخر النسخة: «تَمَّ، ويتلوه إن شاء الله في الجزء الثاني: فصل حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية...».

فإن كان أراد بالجزء الثاني ما بقي من الكتاب فذاك، وهي تجزئةٌ حادثةٌ لم تقع في الأصول العتيقة، وإن كان توهم أن الباقي هو القسم الثاني الذي أشار إليه المصنف في المقدمة فقد علمت أنه ليس كذلك.

وكتب على الورقة الأولى عنوان الكتاب على هيئة هرم مقلوب: «كتاب مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تأليف الشيخ الإمام العالم العلامة محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية».

وعلى يساره: «رفع الله منزلته في غرف الجنان العلية، آمين يارب العالمين».

وعلى يمينه: «وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

٥ - النسخة النجدية (ن):

وهي ناقصة كسابقتها، وتنتهي بنهايتها، إلا أنها أقدم منها نسخًا. وأصلها من المكتبة العامة بشقراء، والآن بمكتبة الملك فهد بالرياض برقم (١٩٥ / ٨٦).

وتقع في ٢٦٠ ورقة، في الصفحة ١٨ سطرًا، وفي السطر نحو ١٢ كلمة. بخط نسخي مقروء.

وفي صدر صفحة العنوان: «الجزء الأول من كتاب مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تصنيف الشيخ الإمام العالم العلامة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ الصالح أبي بكر المعروف بـ

الجوزية، رضي الله عنه وأرضاه وجعل الفردوس مثواه، آمين».

وحوالي ذلك كتب الناسخ: «وهذا الكتاب في ملك الفقير إلى ربه، عبده وابن عبده، ومن لا غناء له عنه طرفة عين: حمد بن علي بن سلوم الغنامي غفر الله له ولوالديه (كذا قرأتها) منهم المسلمين (كذا!) وإخوتنا ومشايخنا وكل من عمل بالتوحيد وجاهد من أشرك بالله. كتبه بيدي الفانية، وأرجو من الله النجاة، إنه جواد كريم رؤوف رحيم وبالإجابة جدير، وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً، سنة ١١٦١». كذا قرأت التاريخ، وفيه اشتباه.

وحوله كتب بعض أسامي مصنفات ابن القيم. ومنها: «مفتاح دار السعادة في جزئين»، وقد سلف القول في هذه التجزئة.

وفي يسار الصفحة نص وقفية لم يتضح اسم مؤلفها.

والنسخة مقابلة، وعلى طررها بلاغات المقابلة، وتصحيحات واستدراكات للسقط، وإشارات لقراءات نسخة أخرى رمز لها بـ (خ).

وفي طرة الخاتمة: «بلغ مقابلة حسب الطاقة ٦ ذي الحجة سنة ١٢٩٦».

وفي آخرها: «يتلوه إن شاء الله في الجزء الثاني: فصل حاجة الناس على الشريعة ضرورة...».

وهي أصح من النسخة (ح)، وإن كانت تتفق معها كثيراً كما تقدم، والتحريف والسقط فيهما غير قليل.

٦- نسخة مكتبة أيا صوفيا (ي):

وهي نسخةٌ خزانئية، كتبت سنة ٧٨٦، في ٣٢٨ ورقة، بخطٍ نسخيٍّ جميل، لكنه كثير التحريف.

وأصلها في مكتبة أيا صوفيا بتركيا، برقم (٢٠٨٥).

وأسفل صفحة العنوان: «قد وقف هذه النسخة الجليلة سلطاننا الأعظم والخابان المعظم...: السلطان بن السلطان الغازي محمود خان وقفًا صحيحًا شرعيًا لمن طالع واسترشد،... حرّره الفقير أحمد شيخ زاده المفتش بأوقاف الحرمين الشريفين...».

ولم يذكر اسم ناسخها، وأشك في تاريخ النسخ المذكور في خاتمة النسخة، ولعله منقولٌ من الأصل الذي نقلت عنه.

وليس عليها ما يدل على مقابلتها بأصلها أو بغيره، سوى تصحيحات متناثرة في طررها، ولعلها استدركت أثناء النسخ، أو لعلها كذلك في الأصل المنقول عنه.

ولذلك لم أثبت قراءاتها وفروقاتها في حواشي التحقيق، وعدتُ إليها في المواضع المشككة وانقلبتُ وما تنديتُ منها بشيء.

٧- نسخة المختصر (ص):

واسم الكتاب، كما كتب على لوحة العنوان: «غاية المرام والإرادة المختار من مفتاح دار السعادة تأليف الإمام محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى».

اختاره أحمد بن علوي بن حمزة الحنبلي^(١)، سنة ٨١٨.

وقال في مقدمته: «قال العبد المفتقر إلى رحمة ربه العلي أحمد بن علوي الحنبلي: الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين».

أطال الله في السعادة بقاءك، وكفاني الأسواء فيك، وجعلني منها فداءك، إني طالعتُ الكتاب المسمى بمفتاح دار السعادة للبحر الغزير محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية، جلبب الله ثراه برضوانه، وأسكنه فسيح جنانه، وهو كتابٌ نفيس لا يملهُ الجليس، وفيه من بدائع الفوائد وفرائد القلائد ما لا توجد في سواه، [و] من البحوث ما يستقصي كل علم إلى منتهاه، واسمه مطابقٌ لمسمّاه، ولفظه مطابقٌ لمعناه.

فأحببت أن أجمع من فوائده، وألتقط من فرائده، فكتبت منه في هذه الأوراق ما عُدَّ بَ وراق، وسميته: غاية المرام والإرادة المختار من مفتاح دار السعادة».

وعمله اختيارٌ وانتخاب، وإنما أسميته اختصارًا تجوزًا.

والنسخة التي بين يدي منقولةٌ عن نسخة المؤلف، كتبها محمود بن محمد بن إبراهيم الحنبلي سنة ٨٧١.

(١) لم أجد له ترجمة. ومقدمته تدل على فضله واشتغاله، ومما وصلنا بخطه نسخة من كتاب «العاقبة» لعبد الحق الإشبيلي، في المكتبة الأزهرية، منسوخة سنة ٨١٥. وأخرى من «عجالة المحتاج» لابن الملّقن، بالمكتبة المركزية (محمود الثاني) بنيقوسيا. وقصيدة في مدح ابن تيمية، بالمكتبة المركزية بجامعة أم القرى.

من محفوظات مكتبة برنستون برقم (٦٤٤).

وكتب في خاتمتها: «تم الكتاب بحمد الله وعونه وحسن توفيقه، وهو كتابٌ نفيس لا يمله الجليس (إلى آخر النص المتقدم)، على يد كاتبه أضعف عباد الله وأحوجهم إلى رحمة ربه العلي محمود بن محمد بن إبراهيم الحنبلي، غفر الله له ولوالديه ولمن قرأه أو كتبه أو نظر فيه ودعا لهم بالرحمة والمغفرة ولجميع المسلمين، ووافق الفراغ من كتابته في سابع شهر ربيع الأول سنة إحدى وسبعين وثمان مئة أحسن الله عاقبتها في خير، ونُسخ من نسخة بخط مصنفه رحمه الله تعالى مؤرخة في ثاني عشر من شهر رجب الفرد سنة ثمان عشرة وثمان مئة، وهو أحمد بن علوي بن حمزة الحنبلي، كذا وجد رحمه الله».

وفي طررها تعليقات قليلة لم أتبين صاحبها، فمن ذلك في (ق ٨٦/ب) عند كلام ابن القيم عن بطلان حديث «لو أحسن أحدكم الظن في حجر لنفعه»، كتب في الطرة: «مهمّة. لو اعتقد أحدكم في حجر لنفعه، كلام لا أصل له، مع أنني سمعت ذلك من بعض شيوخنا، كالرملي عن الشيخ زكريا، وأنه كان يقول: الاعتقاد صبغة، والانتقاد حرمان. وظاهر كلام المصنف أن ذلك كلام باطل. فتأمل».

وهي نسخة جيدة، قليلة التحريف، سوى المواضع المشككة في الرسم، كسائر الأصول الأخرى.

وقد استعنتُ بها في النصف الثاني من الكتاب حيث انتهت النسختان (ح) و(ن).

* أما الأصول التي لم أعتمد عليها، فهي^(١):

١- نسخة مكتبة أحمد الثالث، ضمن متحف طوبقبو سراي، برقم (٥٤٤)، في ٢٠٠ ورقة، كتبت سنة ١٢١٠ (٢).

٢- نسخة المكتبة المحمودية، في مجلد واحد، بخط نسخي، في ٤٥٠ ورقة، بلا تاريخ نسخ، ومخرومة من آخرها، ومقاسها (٢٢ × ٣١) (٣).

٣- نسخة المكتبة القادرية بالموصل، برقم (١٤٢٧ / ١)، وتقع في ١٨٧ ورقة، كتبت سنة ١٣٠٣، بخط محمد بن علي بن الملا الحنفي البغدادي.

وهي منقولة عن نسخة مكتبة الأوقاف السابقة، وعليها خط محمود شكري الآلوسي (ت: ١٣٤٢)، وعنهما طبع الكتاب طبعته الأولى بمطبعة السعادة.

٤- نسخة المكتبة الخالدية بالقدس، برقم [٢٩ (١)].

٥- نسخة مكتبة الرياض، وهي الآن في مكتبة الملك فهد الوطنية، برقم (٨٦ / ٤٠٧)، في ٢٢٠ ورقة، كتبها الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، سنة ١٣١٠. وهي

(١) استفدت بيانات النسختين (٣، ٤) من الثب الذي صنعه أخي الشيخ الباحثة محمد عزيز شمس لمؤلفات ابن القيم، ولم يطبع بعد. وفي «خزانة التراث» الصادرة عن مركز الملك فيصل إشارة إلى نسخة للكتاب في المكتبة الأزهرية برقم (٤٨٩)، وإنما هي مطبوعة السعادة، كما في فهرس المكتبة (٣ / ٧٤٣).

(٢) «معجم المخطوطات الموجودة في مكتبات استانبول وآناتولي» (١١٠٢).

(٣) «فهرس المحمودية» (٧٥).

تمثل نصف الكتاب، كالنسختين (ح) و(ن).

٦- نسخة دارة الملك عبد العزيز، بالرياض، برقم (المنيع / ٢) في ١٣٦ ورقة، منسوخة سنة ١٣١١، بيد زيد بن عبد الله الناصر، الجزء الأول منه، ينتهي بقوله: «ولكن الله يطلع من شاء من خلقه على من شاء منه، فاعتصم بالله ثم بهذا الأصل»، كالنسخة السابقة.

٧- نسخة دارة الملك عبد العزيز، بالرياض، برقم (السلمان / ١) في ١٧٧ ورقة، منسوخة سنة ١٣١٢، بيد عبد الله بن عبد الرحمن بن سلمان، الجزء الأول منه، ينتهي كنهاية النسخ السابقة.

* أما ما نُسِب في بعض الفهارس ضلّة، فهو:

١- نسخة مكتبة الأوقاف العامة، ببغداد، برقم (٧٠٥٤)، وأصلها من المكتبة النعمانية. وكتب الناسخ عنوانها هكذا: «كتاب سفر السعادة للإمام... العلامة ابن قيم الجوزية تغمده الله برحمته أمين».

وكتب أحدهم على غلافها الخارجي: «مفتاح دار السعادة للعلامة ابن القيم رحمه الله تعالى، وهو في بابه فريد».

وإنما هي نسخة متأخرة لكتاب «سفر السعادة» للفيروزابادي.

وكتب نعمان الألوسي أسفل صفحة العنوان: «اللفقير نعمان مفتي زاده الألوسي البغدادي ٢٥ جمادى سنة ١٢٩٩»، وفوقه بخط يشبه خطّه: «الظاهر أنه لصاحب القاموس». وتحت ختم المكتبة النعمانية.

٢- نسخة مكتبة أحمد الثالث، ضمن متحف طوبقبو سراي بتركيا، برقم (٢ / ١٣٧٢. أ. ٥١٤١).

والموجود بهذا الرقم في المكتبة إنما هو كتاب «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» لطاش كبري زاده، وقد تأكدنا من ذلك مرتين، مع أن المفهرس وصفها بأنها مكتوبة سنة ٧٧٥، وأنها تقع في ٢٧٥ ورقة، وتبدأ بقوله: «فصل: وفي هذه الآلات مآرب أخرى...».

فيشبه أن تكون هذه القطعة أعطيت رقمًا جديدًا لم نهتد إليه.



طبغات الكتاب ومختصراته

* طبغات الكتاب:

طبع الكتاب أول مرة بمطبعة السعادة في القاهرة سنة ١٣٢٣، عن نسختين خطيتين: بعث بالأولى من العراق الشيخ محمود شكري الألوسي، وعليها علامة المقابلة بخطه، وهي نسخة المكتبة القادرية بالموصل المكتوبة سنة ١٣٠٣ المنقولة عن نسخة مكتبة الأوقاف، والثانية من دار السعادة العلية (إصطنبول) ولم يذكر تاريخ نسخها ومن أي مكتباتها.

وفي هذه الطبعة تحريفٌ كثير وسقطٌ في مواضع عديدة.

ثم توالى طبغات الكتاب معتمدة على تلك الطبعة وما نُشر عنها بعجزها وبجرها، دون معارضته على أصوله الخطية العتيقة، ومقابلة نقوله على مصادرها، وتقويم ما تحرّف من نصوصه، وخدمته على النهج العلمي في نشر النصوص.

ومن تلك الطبغات:

- طبعة مكتبة محمد علي صبيح.
- طبعة مكتبة الأزهر، تصحيح محمود ربيع.
- طبعة مكتبة الرياض الحديثة.
- طبعة دار الجيل، تحقيق عصام الحرساني وحسان عبد المنان.
- طبعة المكتبة العصرية، تحقيق الداني بن منير آل زهوي.
- طبعة دار الحديث.

- طبعة دار الكتاب العربي، بتحقيق محمد الإسكندراني.

- طبعة دار ابن حزم.

- طبعة دار الكتب العلمية.

- طبعة دار الفكر.

وكان من آخر طبعات الكتاب طبعتان:

الأولى: طبعة دار ابن عفان، بتحقيق علي حسن الحلبي، واعتمد على طبعة السعادة أو ما نُشر عنها، فجاءت كهي في التحريف والسقط، وأضاف إليها تحريفات جديدة وأغلاطاً في الضبط وتعليقات ليست من العلم في شيء، ولا أثر في عمله لما زعم أنه رجع إليه من النسخ الخطية على تأخر زمانها.

الثانية: طبعة دار ابن خزيمة، بتحقيق عامر علي ياسين، واعتمد كذلك على المطبوعة، وقابل نصفها تقريباً على قطعة خطية متأخرة من النسخ النجدية، واجتهد في التعليق على القضايا الطبية ونحوها بما استجد من علوم العصر، وحاول إصلاح ما استشكله من عبارات الكتاب، لكنه أسرف في التغيير والزيادة، وبقي السقط والتحريف على حاله في مواضع كثيرة.

ولم تعتن الطبعتان بتوثيق النقول ومقابلتها، وتخريج النصوص سوى الأحاديث المرفوعة.

وقد أفردتهما بكلمة ضربت فيها بعض المثل لما أوجزت هنا^(١).

(١) نشرت في «ملتقى أهل الحديث» و«الألوكة» على شبكة الانترنت.

* مختصرات الكتاب ومختاراته :

- غاية المرام والإفادة المختار من مفتاح دار السعادة ، اختاره أحمد بن علوي بن حمزة الحنبلي سنة ٨١٨ ، وسبق وصف نسخته الخطية.

- تنقيح الإفادة المنتقى من مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة لابن قيم الجوزية، بقلم سليم بن عيد الهلالي، مكتبة الصحابة، سنة ١٤١٤.

- تأملات ابن القيم في الأنفس والآفاق من كتاب مفتاح دار السعادة لابن القيم، لأنس عبد الحميد القوز ، دار الهدى للنشر والتوزيع، سنة ١٤١٣.

- مزيل الإلباس عن معاني حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في تصنيف الناس من شروح ابن القيم، ضبط وتخريج وتعليق خالد أبو صالح، دار المعراج الدولية للنشر، سنة ١٤١٥.

- العلم فضله وشرفه من درر كلام ابن قيم الجوزية، نسقه وضبط نصه وعلق عليه علي بن حسن الحلبي الأثري. سنة ١٤١٦. وهو مأخوذ من نشرته للمفتاح بلا تغيير.



منهج التحقيق

قرأت النصّ على مُكث، وعارضته بالأصول الخطية التي وصفت، وأثبت ما اتفقت عليه، وانتخبتُ عند اختلافها ما ظننته الصواب منها، وأثبتُ في الحاشية المحتمل من القراءات الأخرى.

أما أخطاء النساخ وأوهامهم وتحريفاتهم فاطرحتُها، حاشا ما رأيته قد أثبت منها في طبعات الكتاب السابقة، فأشرتُ إليه في الحاشية ونهتُ على تحريفه، لئلا يغترّ به أحد، فمن أحبّ أن يقف على بعض تحريفات تلك الطبعات فليتبّع هذه المواضع.

وقد قدمتُ إليك وصف الأصول، واستغلق بعض المواضع على النساخ لسرعة خط المصنف وتعليقه وقلة احتفاله بالإعجام إذا أسرع في الكتابة^(١)، فرسموا أكثرها رسماً^(٢)، واجتهد بعضهم فقرأ بعضها على غير الصواب؛ فما اجتمعت الأصول فيه على ما غلب على ظني أنه من خطأ

(١) انظر نموذجاً له فيما وصلنا من مسودته لكتاب «طريق الهجرتين» (ص: ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢ - مقدمة التحقيق).

(٢) وفي مثل هذا لا يسوغ أن أكتب بالحروف ما وقع في الأصل، فإن فعلتُ فقد أضللت القارئ، وأضعتُ مراد الناسخ؛ لأنه إنما قصد إلى رسم خط الأصل كما رآه لعجزه عن قراءته، ولو استطاع لكتبه بحروف صحاح، فالرسم محتمل لأكثر من قراءة، ولا يغني في هذا إلا تصوير الكلمة ضوئياً، كما فعل عبد السلام هارون وغيره في بعض تحقیقاتهم، ولو كان الاعتماد على نسخة واحدة لكان تجسّم هذا متعيّناً، لكنها سبعُ نقال، فاكثفیت بوصف الكلمة في الحاشية بعدم التحرير.

النساخ تجاسرتُ فأصلحته في المتن وأشرتُ إلى ما في الأصول في الحاشية، وما احتمل من الصواب وجهًا وثمَّ ما هو أقومُّ منه أبقيته في المتن على حاله وبيّنتُ في الحاشية ما أراه أدنى إلى الصواب، فقد عرضتُ لك في الحالين - كما ترى - ما وقع في الأصول الخطية، لتنظر لنفسك.

وانتفعتُ غاية الانتفاع بمقابلة النصوص التي نقلها المصنف على مصادرها، فكشفتُ عن وجه الصواب في مواضع كثيرة، وخلصتُ النص من غوائل التحريف، وأثبتُّ المهم من قراءاتها عند الاختلاف، ورمزتُ لبعضها برموز إن طال النقل، كما فعلتُ بكتاب «الدلائل والاعتبار»، و«توحيد المفضل»، و«المقابسات»، وغيرها.

وعالجتُ قراءة كثيرٍ من مشكل التراكيب والألفاظ والمصطلحات وغيرها بالمعهود من كلام المصنف في كتبه، وبكشف المظانِّ وغيرها من كتب أهل العلم.

واستعنتُ بطبعة الكتاب الأولى الصادرة عن مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٣، ورمزتُ لها بالحرف (ط)، إذ كانت معتمدةً على نسخة المكتبة القادرية (التي تقدم وصفها) ونسخة تركية أخرى لم يفصحوا عن مصدرها، وأحسب أن من قام على طبعها أعمل قلم التصحيح فيها.

وأشرتُ إشاراتٍ مختصرةً إلى ترجمة بعض الأعلام الذين قدَّرتُ أن في ترجمتهم إعانةً للقارئ على فهم النصِّ والإحاطة به، وهكذا صنعتُ في التعريف بالمواضع والبلدان.

وخرَّجتُ الأحاديث المرفوعة والآثار والأقوال والأشعار ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا، ولم أتكلف الحكم على أسانيد الأخبار غير المرفوعة إلا ما

كان فيه مصلحةٌ راجحة.

وشرحتُ مِنْ غريب الألفاظ والتراكيب والمصطلحات والأساليب ما رأيته مفتقراً إلى بيان، وأرجو أن لا أكون أثقلتُ في ذلك وأملت.

ووثقتُ النقول التي صرَّح المصنف بنقلها، واجتهدتُ في الوقوف على ما لم يصرح به، وقابلتُ جميع أولئك بأصوله، كما سلف.

ووصلتُ مسائل الكتاب وبحوثه بكتب المصنف وشيخ الإسلام ابن تيمية، وعزوتُ جملةً كثيرةً منها إلى مواضعها في مصنفات أهل العلم وتواليهم، وبعضها عزيز المنال.

وصنعتُ للكتاب فهرس كاشفة تيسر الانتفاع به وتجمع نثار فوائده، وقد أعانني بصنع بعض الفهارس اللفظية الأخوان الفاضلان: نبيل بن نصار السندي وخالد بن محمد جاب الله.

وقد بذلتُ الوسع، وتحريتُ الصواب، واجتهدتُ ولم أُلْ، إلا أن ابن آدم إلى الضعف ما هو، وأنا طامعٌ في رحمة الله وجميل عفوه، هو أهل التقوى وأهل المغفرة.

وكتب

عبد الرحمن بن حسن بن قائد

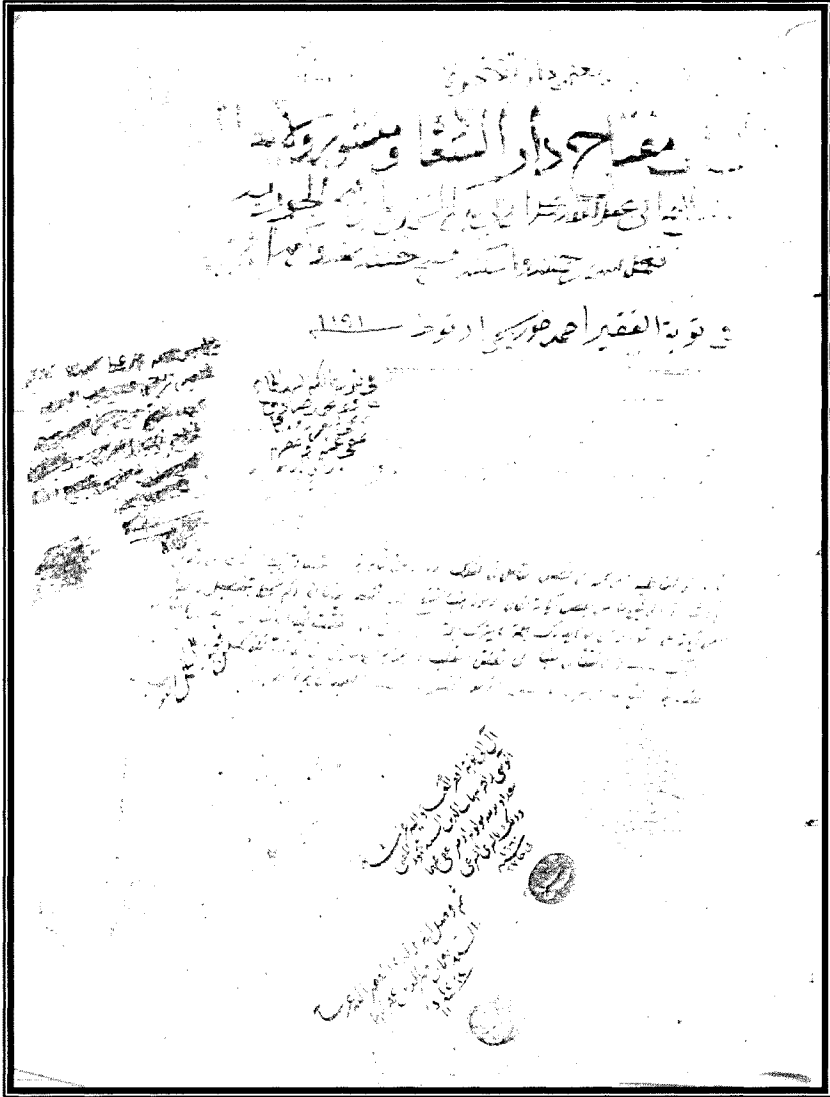
نماذج من صور الأصول الخطية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الحمد لله الذي تهتد لعباده المصطفى إلى منقذاته سبيلا، وأوضح لهم طرق الهداية ويحل
 إشفاق الرسول عليها ذليلا، واتخذهم عبدا له خافوا له بالعبودية ولم يحذوا من دونه
 وكلاهما وكنت في قلوبهم الأمان وأبدتهم من روج منه لما رضوا بانه رباً وبالاسلام ديناً والمجد
 زمتوا له الحمد الذي قام به أئمة الغيبرات من يكون نبيان سنن المرسلين كنبلا
 واختص هذه الامة بانه لا يزال فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من طاعهم حتى ياتي
 امره ولو اجتمع الثقلان على حربهم قتيلا يدعون من قبل إلى الهدى ويصبرون منهم على الذي
 ويضعون سوزانه اهل العمى ويحبون من جاء به الموفى فهم احسن الناس هديا، وافهمهم
 قتيلا فكم من قتيلا بليل قد احيوه، ومن حال جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه،
 ومن متبع في من الله يشهد الحق قد ربه جهادا في الله واشتاعا من كنهه وسبانا لمحج
 على الالهين وسنانه وطلا للذلي الذي به وييل رضوانه وجنانه فحازوا في الله من خرج
 نفي به القوي برضائه المستقيم الذين عقدوا الوية المدعوة واطلقوا اعنة الغيبة
 وحالفوا الكتاب واختلفوا في الكتاب وانفقوا على مازقة الكتاب وسدوه وراة ظهورهم
 وارضوا غيرة منه بديلا اجسمه وهو المجد على كل ما قدره وقضاه واستغفبه
 استغفانه من علم انه لا يث له غيره ولا اله له متوادة واستغفبه سبل الذين اع
 عليهم من اخناره لقبول الحق وارضاه واشكره والشكر قليل لما لم يدع عطاءه
 واستغفبه من الذنوب التي تحول بين القلب وهداه واعود بالله من تنقيت ونيات
 على استغفانه عبيد فارتلوا به بذنوبه وخطاياهم واعتم به من الاهواء المزدية والذم
 المضلة فاحاب من اميج به بعضا وحجاء تزيلا واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك
 له شهادة اشهد بها مع الفاضل واعطها عن الجاحدين واخذرها عند الله عدة ليوم
 الدين واشهد ان الحلال ما حله والحرام ما حره والدين ما شرعه وان الساعة آتية
 لا ريب فيها وان الله يبعث من القبور واشهد ان محمدا عبده المصطفى ونبيه المرسل
 وزمونه الصادق المصدوق الذي لا ينطق الله في ان هو الا دحي نوحى ارسله رحمة للعالمين

خالصاً له جميعاً وإن عيذاً من شرورنا فتننا ومن سيئات أعمالنا وإن يوفقنا لما يحب
ويرضاؤه أنه قد يشب بمحب

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله أجمعين وتبلغ تسليماً كبيراً
بِحَجَرِ الْكَاتِبِ المسمى بمفتاح دار السعادة
وهو كتاب نفيس لأئمة الجليل وفيه من ذائع الغوايد وقضايا القلايد
مالا يوجد في غيره سواء وفيه من الجوف ما يستغنى كل علم إلى شفاؤه وأسمه مطابق
لسماءه ولفظه مطابق لمعناه فإن فيه من الافادة ما يحدو إلى دار السعادة
وذلك على يد أفترظق آيو اليه المتوكل في جميع أحواله عليه السلام والعتر
بالخطأ والزلل والمشي في القول والعمل اسجل محمد بن محمد بن محمد بن محمد
وكان تمام ذلك في التاسع عشر من شهر شعبان المبارك عام سنة وسنين سبع مائة
من الهجرة النبوية وحسبنا الله ونعم الوكيل ^{طالع} محمد بن محمد بن محمد بن محمد ^{طالع} محمد بن محمد بن محمد بن محمد

قوله العبد الفقير إلى رحمة ربه الفدري عثمان بن محمد
عفا الله عنه وكنى بأربع وعشرين مائة
في مقام الحكيل له من علمه أفضل الصلاة والسلام فاعلموا بعلومه
وهو نال الله عز وجل ونوشك محمد صلى الله عليه وسلم وأخذ حقه
من منزله من غير بعد له على ما شافوه وهو لعالم بالعلم والعم
الضيق



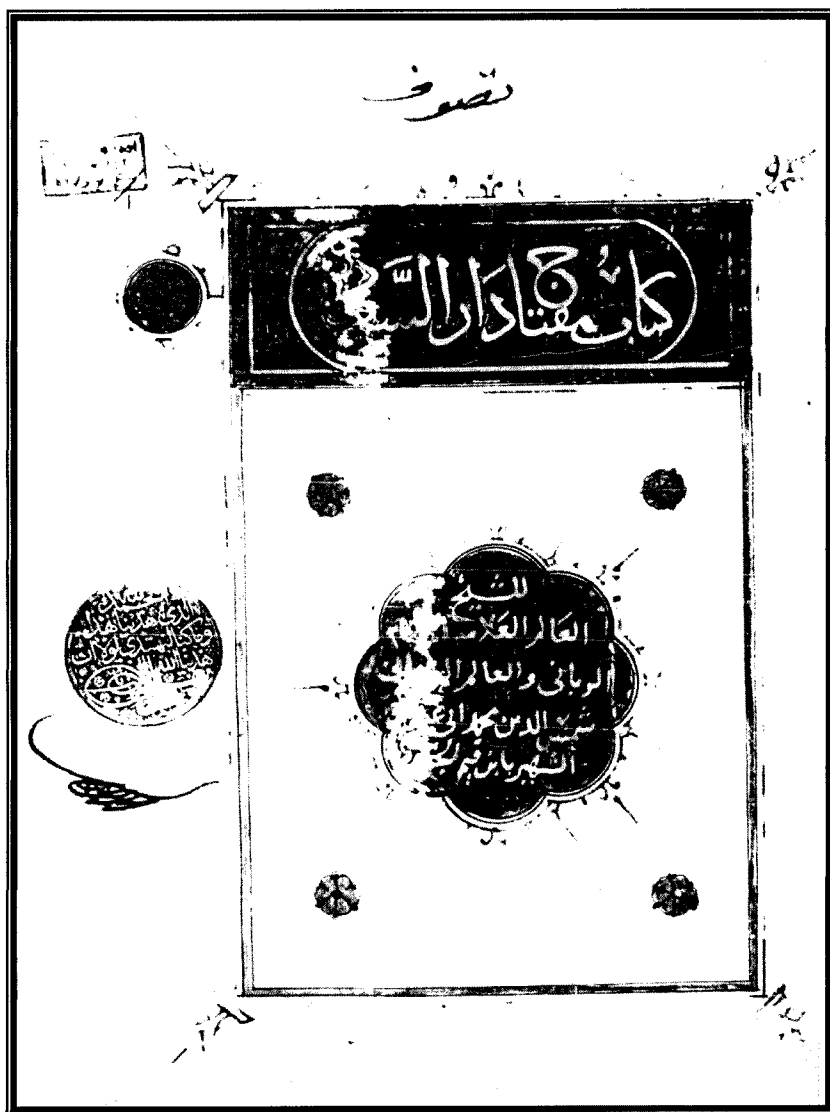
الصفحة العنوان من نسخة (ق)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي سهل لنا هذه المسئلة الى مرضاه سبيلنا واجتنبهم
طريق الهداية وجعل اتباع الرسول عليهما السلام والالتزام بعقيدتهما في الدنيا والآخرة
والاعتقاد بامنه وبنه وحكما وكسبا في قلوبهم الايمان وايدى بهم بروح منه على ارضنا
ربنا بالاسلام ديننا ونحو رسولا والمحمد الذي اقام في ارضنا الفطرة التي
بيان سنن السنين كقيلنا واختص هذه الامة بانه لا راي فيها طاعة ولا
الحق الاضطرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى باقي امه ولو اخرج النفاق على وجههم
قبيلنا يدعون من ضل الى الهدى وصيرون منهم على الاذى ويصرون من يرون
اهل الحق ويحيون بكاتبه الوفي وهم احسن الناس هديا واقومهم قبلا وقصر
من منتهى لا يلبس مداحيه ومن ضل جاهل لا يعطى رايه ويشركه قد هداه
ومن منتهى في دين الله وشهد الحق قد وضع جهاد في ايمه واستقام مرضاته
وسبنا شجرة على العالمين وسبناهم وطبنا للزلفى لديره وشيل رضى الله وحاشا
لحاوي في ايمه من خرج عن دينه القوم وصراط المستقيم الذين عند الله
البدعة واطلوا عنه الفتنة وخالفوا الكتاب ونهوا في الكتاب والتفوا
شكوا في الكتاب وسبوا ورأوا ظهورهم وارضاوا عنه منه بدلا
وهو المحمود على كل ما قدره وقضاه واستعجبه استعجانه من يعامله لا ريب
غيره ولا اله الا هو واستشهد به سبيل الدين انهم عليه من اختياره القبول التي
وارتضاه واشكروا الشكر قليل بالمعنى عطاياه واستعجزه من الدين التي
تحويل القلب وهذا واعوذنا به من شر نفسي وسبنا على استعادة عبد قاي
الى ربه بدونه وخطاياه والصم به من الامور الادبية والبدع الضالة فاخاد من
اصح به معصما ونجاة نبلا واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة
اشهد بها مع الشاهدين والخلع من الواحد من واخرها عند الله عند الله الذي
واشهد ان الخلا ما حلاله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه والاساعة انبه لا
رب فيها وان الله يبعث من في القبور واشهد ان محمد اعباء المصطفى بيته الرضي
ودسوله الصادق المصدق الذي لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى نوحا واصله

الحق

الصفحة الأولى من نسخة (ق)



صفحة العنوان لنسخة (ت)

بسم الله الرحمن الرحيم و بسم الله

الحمد لله الذي سهل لعباده المؤمنين الى مرضاته سبيلا . واوضح لهم طريق
الهداية وجعل شراع الرسل علمياتهم للناس . واخذهم عبادة الدافدة والد بالعبادة
ولم يجدوا من دونه وكلا . وكنت في قلوبهم الايمان واندسهم بروح مسند
لما رزقوا بالهداية وبالايمان . دسا وبجد رسول الله . والحمد لله الذي اقام في ارضه
العبادة من يكون بمان من المرسدين كفتلا . واحسن هذه الامة بانه لا يزال
طاعة على الحق لا يصرفهم من حدهم ولا من حالهم حتى ياتي امره ولو اخرج
العباد على حريتهم فسلوا بدعوا من صل الى الهدي ومصروف منهم على الاذى
وسمروا بغير الله اهل العبي ويحبون كتابه المولى بهم احسن الناس هدى
وامومه . فتلا . فكم من قتل لا يلبس قد احسود ومن صال جاهل لا يعلم طريق رشده
قد هدوه . ومن بدع في دين الله فتهب الحق قد روه بها داني الله واتقوا مرضاه
دسا . كجدي على العالمين وبنيتهم وطلبوا للدين له به ونيل مرضاته وجا مسند
بحار بواني الله من خرج عن دينه الغوسم وصراطه المستقيم الذين عهدوا الوفاء
البدعة واطلقوا اعنة الشهة وحالوا الكتاب واحلفوا في الكتاب وسدوه ورا
ظهرهم وارتضوا غير مسند ليل . احصوا وهو المحمود على كل ما يدرك وقصا
واسبعينه استغاثه من علم انه لا رب له غيره . ولا اله له سواه واستهد به سبل
الذين العوا الله عليهم بمن اخطاه لقول الحق وارتضاه واستكره والشكر كغيب
بالهداية من عطايه . واستغفره من الذنوب التي تحول بين القلب وهداه واعود
بانه من شرفني وسياة على استغاثه عبيد فارتا الى ربه بدعونه وحطاه د
واحصم به من الاصول المردية والبدع المصلحة لما حاب من اصح بدعنا
والجما نزلنا واستهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة استهد بها مع
الشاهدين والحمد لله عن الجاهدين وادخرها عند الله عده لمود الدين واستهد
ان الحلال ما حله والخرام ما حرمه والدين ما شرعه وان الساعية استهد لا
رب فيها وان الله سمع من في النور واستهد ان يجد اعين المصطفى ونبيه
المرفقي ورسوله الصادق المصدق الذي لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى

وفيه من يدع النوايد ويزايد التلايد ما لا يوجد في سواه وفيه من البهوت ما لا يستقصي
 كل علم الى مثناه واسمه مطابق لمساها ولنظم مطابق لمعناه فان فيه من الافادة ما يجدوا
 الى دار السعادة على يد كاتبه اصغف عباده الله واهوجهم الى عنوه ومغفرته
 احمد محمد المكدري عنده ولوالديه وللمسلمين دعاء له بالقوة والمغفرة
 بناجج الثالث من شهر جمادى الاولى سنة تسع وثمانين وثمان مائة احسن الله عاقبتكم محمد والوه عليه
 وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وازواجه الطيبين الطاهرين وصوان الله عليهم اجمعين

الصفحة الأخيرة من نسخة (ت)



صفحة العنوان لنسخة (ح)

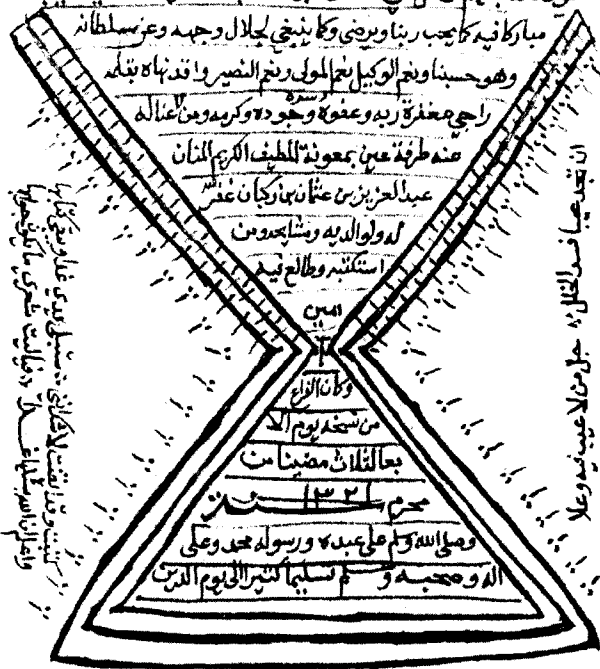
الحمد لله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي سهل لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلا و أوضح لهم طريق الهداية وجعل اتباع الرسول عليها دليلا و اتخذهم عبدا له فاقروا له بالعبيزة و لم تغدوا من دونه كيلا و كتب في قلوبهم الايمان و ايدى بهم بروح لما رضى الله ربا و بالاسلام ديناً و محمد رسولا و الحمد لله الذي اقام في ارضه الفترت من يكون ببيان سنن المرسلين كيلا و اختص هذه الامة بان لا يزال فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم و لا من خالفهم حتى ياتي امره و لو اجتمع الثقلان على حرهم فيبلا يدعون من خذل الى الهدى و يصرون منهم على الاذى و يصرون بنور الله اهل الحق و يحجون بكناه الموحى فهم احسن الناس هدى يا اقومهم فيلاتكم من قبيل لا يلبس قداحه و من خذل جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدى و من مبتدع في دين الله يشبه الحق قد روج جهادا في الله و ابتغاء مرضاته و بما اتى به على العالمين و بيناته و طلبا للزلف لدية و نيل رضوانه و جنانته و حاربوا في الله من خرج عن دينه القوم و صراطه المستقيم الذين عقدوا الوية البدعة و اطلقوا عنه الفتنة و خالفوا الكتاب و اختلفوا في الكتاب و اتفقوا على منارته الكتاب و بذوة و راء ظهورهم و ارتضوا غيره منه بدلا و اسما و هو الجور على كل ما قدره و رضاه و استغنىه استغناء عبد لا رب له غيره و لا اله الا هو و استهدى به سبيل الذين انعم عليهم عن اختاره لقبول الحق و ارتضاه و اشكره و الشكر كفيلا بالمزيد من عطايا و استغفره من الذنوب التي تحول بين القلب و هداة و اعوذ به من شر نفسي و سيئات علي استعاذة عبد فار الى ربه من ذنوبه و خطايا و اعتم به من الاهوى المرديه و البع المعلقة فما خاب من اصبح به معتما و حجة نزيلا و شهد ان لا اله الا الله و حده لا شريك له شهادة اشهد بها مع الشاهدين و اتجملها عن الجاحدين و ادخرها عند الله عدة ليوم الدين و اشهد ان لا محال ما حلته و الحرام ما حرمة الدين ما شرعه و ان الساعة آتية

لا ريب

ان تعرف المعنى الذي كان شعر هذا مثلون يدعى شعر الاخيرة بعد ذلك
او المعنى الذي فصله الله به في القدر المخصوص والتشكيل المخصوص
ومعرفة القدر الذي بينهما من التفاوت وسببه لما يمكن ذلك اتصالا
وقس على هذا جميع المخلوقات بين المال والخيال والاشجار ومقارير
الكواكب وهيئتها واذا كان لا سبيل الى علم البشر به ولكن يطلع
الله من شاء من خلقه على ما شاء منه فاعنضم بهذا الاصل
ويتلو ان شاء الله في الجزء الثاني فصل حاجة الناس الى الشريعة ضرورية
فوق حاجتهم الى كل شيء والحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا

بلغ مقابلة على الصلح
فصح اللهم الامان
عنه الصراط
القديم



ان تجد عيا فسر القائل
حل من لا عيب فيه وعلا

الصفحة الأخيرة من نسخة (ح)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وما نوفي إلا بأمره العظيم
 الحمد لله الذي سبّل لعباده المتقين إلى رضائه سبيلا وأوضح لهم طرق
 الهداية وجعل الرسل عليهم دليلا واحداً لهم عبادة قافراً له
 بالعبودية ولم يتخذوا من دونه وكبلاً وجعل في قلوبهم الأمان
 وأيدهم بروح منه لما رضوا بأمره وبالأسلام ديناً والحمد لله
 والحمد لله الذي أقام في زمرة الفتن من يكون ببيان سنن
 المرسلين كفيلاً واخص هذه الأمة بالانزال فيها طائفة
 على الحق لا يضلهم من خذلهم ولا من جالهم حتى يأتي أمره ولا يفتروا
 الشفاعة على أحد منهم قبيل ما يدعون من ضل إلى الهدى ويصرون
 منهم على الأذى ويصرون بنو الأهل العي ويحيون بكتاب
 الله الموتي فهم أحسن الناس هدىً وأقومهم حسلاً فكلمه
 قسراً لا يلبس قد أجمع ومن ضال جاهل لا يعلم طريق الهدى
 قد هدى ومن مبتدع في دين الله يشرب الحق قد صرح جهاداً
 في الله وأبناؤه ورضائه وبياناً للحجج على العالمين وبينائاً
 وطبائراً للزعم الديري ونيل رضوانه وحنانه وحاربه في الله من
 خرج عن دينه القوم وصدر لهم المستقيم الذين عقدوا الوية الدعوة
 وأطلقوا أعضة وألقوا الكتاب وأضلوا في الكتاب والفقهاء

ابن باع

كتب

المفتي

مفارقة

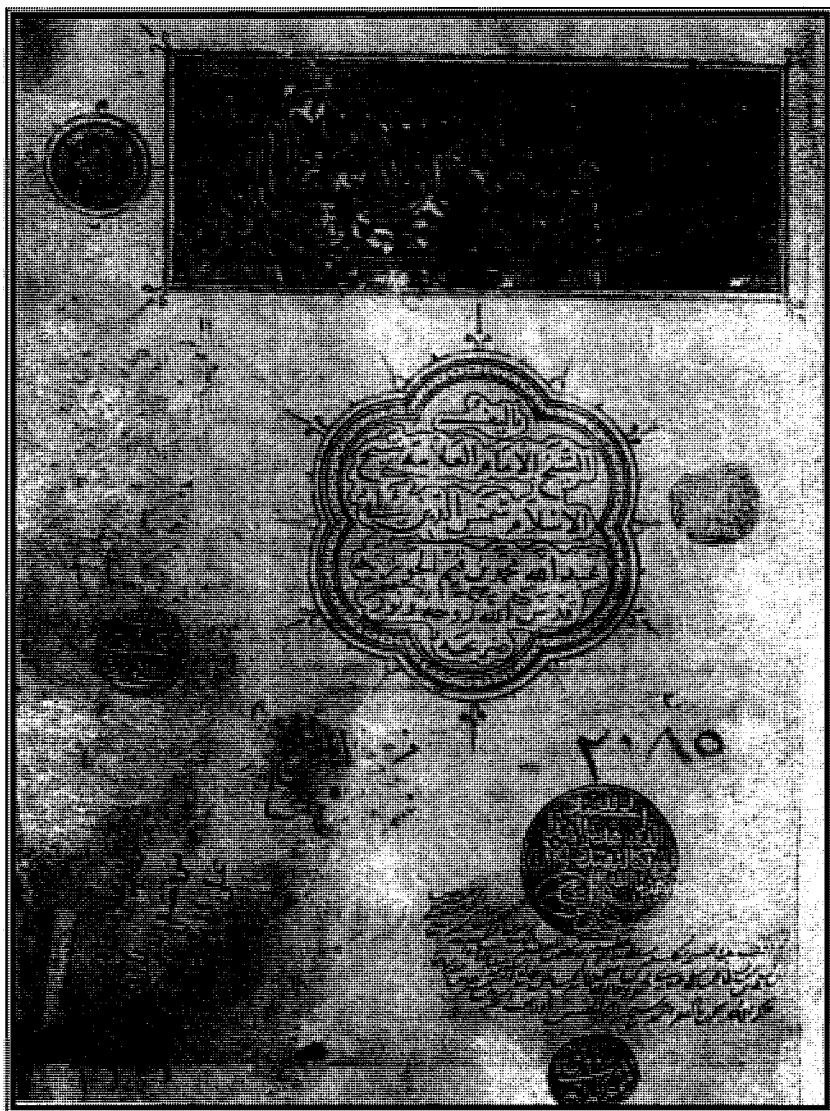
<

الصفحة الأولى من نسخة (ن)

ان شرف المعنى الذي كان شعره من افلاز به شعر اخر بدو شعره
الذي قد ليس به في القدر المخصوص من التكميل المخصوص وهو في القدر من التكميل
من التكميل من سبيلنا العكس فلان اصله قد من كل هذا جميع الخلق في سبيلنا
الذي لا يبال بالاشياء من مقامير الكواكب وهما ما كان لا سبيلنا في سبيلنا
يطلع اسرارها من خلقه على ما شاء فنهضنا عنهم من الاصل والله اعلم وحاصل
على حجره والى حجره علم ينور ما شاء الله من حجره في فصول حاجته ان شاء الله
فوق حاجته من كل شيء في حجره وحده وصار الله على حجره وحده وحده
ثم الكتاب من سبيلنا في سبيلنا
ولا حرج ولا فاقة اليه
العلم العظيم

بلغ مقابلة حسب
١٢٩٤
١٢٩٤
١٢٩٤

الصفحة الأخيرة من نسخة (ن)



صفحة العنوان لنسخة (ي)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِهِ نَسْتَعِينُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى
 الْعَبْدِ الْمَقْنُونِ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ الْعَلِيِّ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الْحَنْبَلِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى
 الْمُرْسَدَ فِي الْعَالَمِينَ وَالْمُتَقَبِّلَ لِلْمُنِينَ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِ مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ
 وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ أَطَالَ اللَّهُ فِي السَّعَادَةِ بِتَعَالَى وَكَفَى الْأَسْوَاقَ
 وَجَعَلَنِي مِنْهَا فَدَلَّ عَلَى طَالَمَتِ الْكَاتِلِ بِتَضَاعُ دَارِ الْأَعَادَةِ لِلْجَدِّ الْغَوِي
 فَمِنْ مَنْ لَا يَكُونُ الشَّهَادَةُ بَيْنَ قِيَمِ الْحَوَرِ يَلْبِسُ اللَّهُ ثَوْبًا بِرُضْوَانِهِ وَأَتَانَهُ
 فَسَجَّ حَنَانَهُ وَمُؤَكِّمَاتِ نَفْسٍ لَا يَلْهَى الْخَالِصَ وَبِهِ مِنْ بَدَائِعِ النُّوَابِلِ
 وَفَرَادِ الْقَدَائِدِ لَا تَوْجِدُ فِي سِوَاهُ مِنَ الْحَيَاتِ مَا يَشْتَقِي كُلُّ عَالَمٍ إِلَى
 مَشْنَاهُ وَأَسْمَى بِطَائِقِ لِسَانِهِ وَلِنُظْمِ بَطَائِقِ لُغَانِهِ فَأَجَبْتُ أَنْ أَجْعَلَ
 مِنْ نَوَائِدِهِ وَالنُّقْطِ مِنْ نَوَائِدِهِ فَكَلِمَتُ مِنْهُ فِي مِلَّةِ الْأَوْرَاقِ بِحَدِّ
 وَرَاقٍ وَسَمِيَّتُهُ غَايَةِ الْمَرَامِ وَالْإِرَادَةِ الْمُتَمَتِّعِينَ مِنْهَا دَارِ السَّعَادَةِ
 وَبِأَنَّهُ تَعَالَى تَسْتَعِينُ فَيَوْمُكَ الْمَوْلَى وَالْمُعِينُ الْمُرْسَدُ الَّذِي سَهَّلَ لِي
 الْمُنِينَ إِلَى مَوْضَاعِهِ سَبِيلًا وَأَوْضَحَ لِي طُوقَ الْهَدَايَةِ وَجَعَلَ تَابِعَ الْأَرْوَاحِ
 عِنْدَهَا دَلِيلًا وَأَتَقَدَّمَ عِبْدًا لَهُ فَاتَهُ وَالِدٌ بِالْيُودِيَةِ وَلَمْ يَتَّخِذْ رَأْيَ دُونِهِ وَكَرَّ
 وَكَلَّمَ فِي قُلُوبِهِمْ الْأَيَّامَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ لِمَرْضَايَا اللَّهِ رَبَّاهُ بِأَكْبَارِ السَّلَامِ دُونَ
 وَفِيهِمْ رُحْلًا وَالْمُرْسَدُ الَّذِي أَقَامَ فِي أَرْضِهِ الْقَدَرَاتِ مِنْ يَكُونُ بَيَانُ تَعَالَى
 الْمُسْتَلِينَ كَيْفَالِإِذَا اخْتَصَرْتَهُ الْأَمَةَ مَانَهُ لَا يَزَالُ فِيهَا طَائِفَةٌ عَلَى الْحَقِّ لَا
 يَضُومُهُمْ مِنْ خَذَلِهِمْ وَلَا مِنْ خَالَفَتِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُهُ وَلَوْ أَجْمَعَ التَّنَازُلَ عَلَى خُضُوعِهِ
 لَا يَدْعُونَ مِنْ صَلَاةٍ إِلَى الْبَدْرِ وَرَفَعُوا مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى وَيَسْعَدُ

سئلته
 في كتابه
 في باب الجليل وفيه من بدائع النوايد وفراير النوايد ما
 يوجد في سواه ومن أمثوت ما يقتضي كاشفه إلى غيبه وسره
 مطابق لماه ولفظه مطابق لمعناه كان فيه من الكمال ما يجد
 إلى الاستعانة على تركه انه أضيق عباد الله وأجودهم إلى حمده
 العلي خورشيد المجلد غفر له ولو لم يكن له من كونه أو كونه
 فيه ودعاهم بأوجهه والفتنة والحجبه الشان وواقع الفرائض
 في سابع نيرة لا والله أحد من شيعته ما أحز الله تعالى في
 دمه من نعمة غفره مصنفه الله ما يؤمنه في ما شرفه في حياته
 سنة ثمانية وأربعين وهو العبد المذنب عن الحسن الخليلي عبد الله

كتاب الحاتم البردي
 كان خاتم النبي صلى الله عليه وسلم الذي في كتبه كيفية حاتم مذكور
 في باب الحاتم لله وحده لا شريك له وفي ظاهر ما توجب بيت بيت
 في مصور لم

— الجزء الأول منه كتاب —

﴿ مفتاح دار السعادة — ومنشور ولاية العلم والارادة ﴾

تأليف

الامام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الشهير بابن
قيم الجوزية قدس الله روحه الزكية

قال صاحب كشف الظنون (مفتاح دار السعادة) للشيخ شمس
الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي المتوفي
سنة ٧٥١ هـ كتاب كبير الحجم فيه فوائد مرسلّة يقتبس من مجموعها
معرفة العلم وفضله ومعرفة إثبات الصانع ومعرفة قدر الشريعة ومعرفة
النبوة ومعرفة الرد على المنجمين ومعرفة الطيرة والفسال والزجر
ومعرفة أصول نافعة جامعة بما تكمل به النفوس البشرية الى غير
ذلك من الفوائد

صحح هذا الاصل على نسختين أولاهما وردت لنا من صاحب
الفضيلة علامة العراق على الاطلاق آلوسى زاده السيد محمود شكرى
افدى حفظه الله تعالى وعليها علامة المقابلة بخطه. وثانيهما أحضرناها
من دار السعادة العالية

الطبعة الأولى

(على نفقة احمد ناجي الجمالي ومحمد أمين الخانجي وأخيه)

سنة ١٣٢٣ هجرية

« طبعت بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر » لصاحبها محمد اسماعيل

صورة صفحة العنوان للطبعة الأولى (ط)

نفس صناعتهم وعلمهم والزامهم بالالزامات المنفعة التي لاجواب لهم عنها وإبداء تناقضهم في صناعتهم وقضائهم وكذبهم على الخلق والامر وإن شئت اقتبست منه معرفة الطيرة والقأل والزجر والفرق بين صحيح ذلك وباطله ومعرفة مراتب هذه في الشريعة والبقدر وإن شئت اقتبست منه أصولاً نافعة جامعة مما تكمل به النفس البشرية وتعالج بها سعادتها في معاشها ومعادها إلى غير ذلك من الفوائد التي ما كان منها سواها فمن الله وحده هو المان به وما كان منها من خطأ فمن مؤلفه ومن الشيطان والله برئ منه ورسوله والله سبحانه المستول والمرغوب إليه المأمول أن يجعله خالصاً لوجهه وأن يعيننا من شروء أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه انه قريب مجيب والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً

—————

(كان في آخر الأصل مائة)

نجز الكتاب المسمى بفتح السعادة وهو كتاب نفيس لا يمل الجليس وفيه من بدائع الفوائد وفرائد القلائد ما لا يوجد ذلك لسواه وفيه من البحوث ما يستقصى كل علم إلى منتهاه واسمه مطابق لمناهج ونظمه موافق لمناهج فان فيه من الافادة ما يحدد إلى دار السعادة وذلك على يد أقر خلق الله المتوكل في جميع أحواله المعترف بالخطأ والزلل والمسيء في القول والعمل أحمد بن محمد بالصعيدى
المكي الحنبلى عفا الله عنه وكان تمام ذلك في ٢٢ رجب
سنة ١٨٤١ وحسبنا الله ونعم الوكيل

وكان تمام طبعه والله الحمد أولاً وآخرأ في مطبعة السعادة بمصر آخر شهر صفر الحظي
لسنة ١٣٢٥ هجرية وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

صورة الصفحة الأخيرة للطبعة الأولى (ط)



مطبوعات المجمع

آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال
(٢٤)



مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ وَمِنْشُورُ وَلَايَةِ الْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ

تأليف

الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية

(٦٩١ - ٧٥١)

تحقيق

عبد الرحمن بن حسن بن قاهر

وفق المنهج المعتمد من الشيخ العلامة

بكر بن عبد الله الجوزي

(رحمته الله تعالى)

المجلد الأول

دار عطاءات العلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي سَهَّلَ لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلا، وأوضح لهم طريق الهداية وجعل أتباع الرسول عليها دليلا، واتَّخذهم عبيداً^(١) له فأقروا له بالعبودية ولم يتَّخذوا من دونه وكيلا، وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، لمَّا رضوا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ رسولا.

والحمد لله الذي أقام في أزمنة الفترات من يكون بيان سُنن المرسلين كفيلا، واختصَّ هذه الأمة بأنه لا تزال فيها طائفةٌ على الحق لا يضُرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمره ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلا.

يَدْعُونَ من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويبصِّرون بنور الله أهل العمى، ويُحيون بكتابه الموتى؛ فهم أحسنُّ الناس هديا وأقومهم قبيلا.

فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيوه، ومن ضالٍّ جاهلٍ لا يعلم طريق رُشده قد هدَّوه، ومن مبتدعٍ في دين الله بشُّبِّ الحقِّ قد رَمَوْه؛ جهادا في الله، وابتغاء مرضاته، وبيانا لحُججه على العالمين وبيئاته، وطلبًا للزلفى لديه ونيل رضوانه وجناته، فحاربوا^(٢) في الله من خرج عن دينه القويم، وصراطه المستقيم، الذين عَقَدُوا أُلوية البدعة، وأطلقوا أعنة الفتنة، وخالفوا الكتاب،

(١) (ت): «عبادا».

(٢) (ت): «يحاربوا». وفي (ح، ن): «وحاربوا».

واختلفوا في الكتاب، واتفقوا على مفارقة الكتاب^(١)، ونبذوه وراء ظهورهم، وارتضوا غيره منه بديلا.

أحمدُ وهو المحمودُ على كلِّ ما قدره وقضاه، وأستعينه أستعانة من يعلمُ أنه لا ربَّ له غيره^(٢) ولا إله له سواه، وأشهد به سبيلَ الذين أنعمَ عليهم ممن أختاره لقبول الحقِّ وارتضاه، وأشكره والشُّكرُ كفيْلٌ بالمزيد من عطاياه، وأستغفره من الذُّنوب التي تحوّل بين القلب وهُداه، وأعوذُ به من شرِّ نفسي وسيئات عملي أستعانة عبدٍ فارًّا إلى ربِّه بذنوبه^(٣) وخطاياه، وأعتصمُ به من الأهواء المُرديّة والبدع المضلّة، فما خاب من أصبح به معتصمًا وبِحِمّاه نزيلا.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً أشهدُ بها مع الشاهدين، وأتحمّلها عن الجاحدين، وأدّخرها عند الله عِدّةً ليوم الدّين.

وأشهدُ أن الحلال ما حلّله^(٤)، والحرام ما حرّمه، والدين ما شرّعه، وأن السّاعة آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأن الله يبعثُ من في القبور.

وأشهدُ أن محمّدًا عبده المصطفى، ونبيّه المرتضى، ورسوله الصّادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيُّ يوحى، أرسله رحمةً للعالمين، ومَحَجّةً للسّالّكين، وحُجّةً على العباد أجمعين، أرسله على حين فترةٍ من الرسل، فهدى به إلى أقوم الطُّرق وأوضح السُّبل، وافترض على

(١) انظر: «الرد على الزنادقة والجهمية» للإمام أحمد (٦).

(٢) (ح، ن): «وأستغيثه استغاثة عبد لا رب له غيره».

(٣) (ن): «من ذنوبه».

(٤) (ح): «أحلّه».

العباد طاعته وتعظيمه، وتوقيره وتبجيله، والقيام بحقوقه، وسدَّ إليه جميع الطرق فلم يَفْتَحْ لأحدٍ إلا من طريقه، فَشَرَحَ له صدره، وَرَفَعَ له ذِكْرَه، وَوَضَعَ عنه وَزْرَه، وجعل الدُّلَّةَ والصَّغارَ على من خالف أمره، هدى به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وبصَّر به من العمى، وأرشد به من الغي، وفتح به أعينًا عميًا، وأذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلْفًا.

فلم يزل ﷺ قائمًا بأمر الله لا يردُّه عنه رادٌّ، داعيًا إلى الله لا يصدُّه عنه صائدٌ، إلى أن أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألفت به (١) القلوب بعد شتاتها، وسارت دعوته مسير الشمس (٢) في الأقطار، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار.

فلما أكمل الله به الدين، وأتمَّ به النعمة على عباده المؤمنين، أَسْتَأْثَرَ به، وَنَقَلَ إلى الرفيق الأعلى من كرامته، والمحلَّ الأرفع الأسنى من أعلى جنَّاته، ففارق الأمة وقد تركها على المحجَّة البيضاء، التي لا يزيغُ عنها إلا من كان من الهالكين.

فصل في الله عليه وعلى آله الطَّيِّبين الطَّاهرين، صلاة دائمة بدوام السَّمَاوَاتِ والأرضين، مقيمة عليهم أبدًا لا ترومُ أنتقالًا عنهم ولا تحويلا.

أمَّا بعد؛ فإنَّ الله سبحانه لما أهبط آدمَ أبا البشر – عليه السلام – من الجنة؛ لِمَا له في ذلك من الحِكم التي تعجزُ العقولُ عن معرفتها، والألسنُ عن صفتها (٣)، فكان إهباطه منها عَيْنَ كماله، ليعود إليها على أحسن أحواله؛

(١) «به» ساقطة من (ت، ق).

(٢) (ت، ق): «سير الشمس».

(٣) بسط المصنف القول في هذه الحكم في «شفاء العليل» (٦٦١ - ٦٧٧).

فأراد سبحانه أن يُذيقَه وولده من تعب الدنيا وغمومها وهمومها وأوصابها ما يَعْظُمُ به عندهم مقدارُ دخولهم إليها في الدار الآخرة؛ فإنَّ الضدَّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضدِّ، ولو تربَّوا في دار النعيم لم يعرفوا قَدْرَها.

* وأيضًا؛ فإنه سبحانه أراد أمرهم ونهيهم، وابتلاءهم واختبارهم، وليست الجنة دارَ تكليف؛ فأهبطهم إلى الأرض، وعَرَّضهم بذلك لأفضل الثواب^(١) الذي لم يكن لئنال بدون الأمر والنهي.

* وأيضًا؛ فإنه سبحانه أراد أن يتخذ منهم أنبياء ورسلاً، وأولياء وشهداء، يحبُّهم ويحبُّونه، فخلَّى بينهم وبين أعدائه، وامتنحهم بهم، فلمَّا أثروه وبذلوا نفوسهم وأموالهم في مرضاته ومحابَّه نالوا من محبَّته ورضوانه والقُرب منه ما لم يكن لئنال بدون ذلك أصلًا؛ فدرجَةُ الرسالة والنبوَّة والشَّهادة والحبُّ فيه والبغض فيه وموالاته أوليائه ومعاداة أعدائه عنده من أفضل الدَّرجات، ولم يكن يُنال هذا^(٢) إلا على الوجه الذي قَدَّرَه وقضاه مِنْ إهباطه إلى الأرض وجعلٍ معيشة أولاده فيها.

* وأيضًا؛ فإنه سبحانه له الأسماءُ الحسنَى؛ فمن أسمائه: الغفور، الرحيم، العَفُو، الحليم، الخافض، الرافع، المُعِزُّ، المُذِلُّ، المُخَيِّب، المميت، الوارث، الصَّبور^(٣)؛ ولا بدَّ من ظهور أثر هذه الأسماء؛ فاقترضت

(١) (ح): «وعوضهم بذلك أفضل الثواب».

(٢) (ت): «ولم تكن تنال هذه».

(٣) ورد هذا الاسم في حديث أبي هريرة الطويل في أسماء الله، الذي أخرجه الترمذي (٣٥٠٧) وغيره.

والصواب الذي عليه جماعةٌ من الحفاظ: أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرجٌ =

حَكَمْتُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُنْزَلَ آدَمَ وَذَرِيَّتَهُ دَارًا يَظْهَرُ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَثَرُ أَسْمَائِهِ الْحَسَنَى،
يَغْفَرُ فِيهَا لِمَنْ يَشَاءُ، وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَخْفِضُ مَنْ يَشَاءُ، وَيَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ،
وَيُعِزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَنْتَقِمُ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَيُعْطِي وَيُمْنَعُ، وَيَقْبِضُ
وَيَبْسِطُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ ظُهُورِ أَثَرِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

* وَأَيْضًا؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، وَالْمَلِكُ هُوَ الَّذِي يَأْمُرُ
وَيَنْهَى، وَيُثَبِّتُ وَيُعَاقِبُ، وَيُهَيِّئُ وَيُكْرِمُ، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، فَاقْتَضَى مُلْكُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ
أَنْزَلَ آدَمَ وَذَرِيَّتَهُ دَارًا تَجْرِي عَلَيْهِمْ فِيهَا أَحْكَامُ الْمَلِكِ، ثُمَّ يَنْقُلُهُمْ إِلَى دَارٍ يُرْتَمُّ
عَلَيْهِمْ فِيهَا ذَلِكَ.

* وَأَيْضًا؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ لَهُمْ إِلَى دَارٍ يَكُونُ إِيْمَانُهُمْ فِيهَا بِالْغَيْبِ،
وَالْإِيْمَانُ بِالْغَيْبِ هُوَ الْإِيْمَانُ النَّافِعُ^(١)، وَأَمَّا الْإِيْمَانُ بِالشَّهَادَةِ فَكُلُّ أَحَدٍ يَوْمُنُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِلَّا إِيْمَانُهَا فِي الدُّنْيَا؛ فَلَوْ خُلِقُوا فِي دَارِ النِّعَمِ
لَمْ يَنَالُوا دَرَجَةَ الْإِيْمَانِ بِالْغَيْبِ، وَاللَّذَّةُ وَالْكَرَامَةُ الْحَاصِلَةُ بِذَلِكَ لَا تَحْصُلُ
بِدُونِهِ، بَلْ كَانَ الْحَاصِلُ لَهُمْ فِي دَارِ النِّعَمِ لَذَّةٌ وَكَرَامَةٌ غَيْرُ هَذِهِ.

* وَأَيْضًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضُهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ،
وَالْأَرْضُ فِيهَا الطَّيْبُ وَالْخَبِيثُ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ، وَالْكَرِيمُ وَاللَّئِيمُ؛ فَعَلِمَ

= من كلام بعض السلف. وذهب بعضهم إلى صحة رفعه.

انظر: «صحيح ابن حبان» (٨٠٨)، و«مستدرک الحاكم» (١٦/١)، و«الأسماء
والصفات» للبيهقي (٣٣/١)، وجزء أبي نعيم الأصبهاني في طرق هذا الحديث،
و«مجموع الفتاوى» (٦/٣٧٩، ٨/٩٦، ٢٢/٤٨٢)، و«تفسير ابن كثير» (٤/١٥١٧)،
و«فتح الباري» (١١/٢١٥)، و«الأمالى المطلقة» (٢٢٧ - ٢٤٥).

كما ورد الاسم في حديث آخر أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٤٧٥)، ولا يصحُّ.

(١) «والإيمان بالغيب» ساقط من (ح، ن).

سبحانه أن في ظهره من لا يصلح لمساكنته في داره، فأنزله إلى دارٍ أستخرج فيها الطيب والخبيث من صلبه، ثم ميّزهم سبحانه بدارين؛ فجعل الطيبين أهل جواره ومساكنته في داره، وجعل الخبيثين أهل دار الشقاء دار الخبثاء.

قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

فلما علم سبحانه أن في ذريته من ليس بأهل^(١) لمجاورته، أنزلهم داراً أستخرج منها أولئك وألحقهم بالدار التي هم لها أهل؛ حكمة بالغه، ومشية نافذة، ذلك تقدير العزيز العليم.

* وأيضاً؛ فإنه سبحانه لما قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، أجابهم بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ثم أظهر سبحانه علمه لعباده ولملائكته، بما جعله في الأرض من خواص خلقه ورسله وأنبيائه وأوليائه، ومن يتقرب إليه ويبدل نفسه في محبته ومرضاته مع مجاهدة شهوته وهواه، فيترك محبوباته تقرباً إلى^(٢)، ويترك شهواته ابتغاء مرضاتي، ويبدل دمه ونفسه في محبتي، وأخصه بعلم لا تعلمونه، يسبح بحمدي آناء الليل وأطراف النهار، ويعبدني مع معارضات^(٣) الهوى والشهوة

(١) (ح): «أهلاً».

(٢) كذا في الأصول. وهو التفات.

(٣) (ت): «معارضات».

والنفس والعدو، إذ تعبدونني أنتم من غير مُعارضٍ يعارضُكم، ولا شهوةٍ تعتریکم، ولا عدوًّا أسلَّطه^(١) علیکم، بل عبادتکم لی بمنزلة النفس لأحدہم.

* وأيضًا؛ فإنني أريدُ أن أظهرَ ما خفي علیکم من شأنِ عدوِّي ومحاربتہ لی، وتكبُّره عن أمري، وسعيه في خلاف مرضاتي.

وهذا وهذا كانا كامينين مستترين في أبي البشر وأبي الجن، فأنزلهم إلى دارٍ ظَهرَ فيها^(٢) ما كان الله سبحانه منفردًا بعلمه لا يعلمه سواه، وظهرت حكمته وتمَّ أمره، وبدا للملائكة من علمه ما لم يكونوا يعلمون.

* وأيضًا؛ فإنه سبحانه لما كان يحبُّ الصَّابرين، ويحبُّ المحسنين، ويحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفًا كأنهم بنيانٌ مرصوص، ويحبُّ التوايين، ويحبُّ المتطهِّرين، ويحبُّ الشاكرين، وكانت محبته أعلى أنواع الكرامات = أقتضت حكمته أن أسكنَ آدمَ وبنیه دارًا يأتون فيها بهذه الصفات التي ينالون بها أعلى الكرامات من محبته؛ فكان إنزالهم إلى الأرض من أعظم النعم عليهم، والله يختصُّ برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

* وأيضًا؛ فإنه سبحانه أراد أن يتَّخذ من آدمَ ذريةً يواليهم ويودُّهم، ويحبُّهم ويحبُّونه؛ فمحبُّتهم له هي غايةُ كمالهم ونهايةُ شرفهم، ولم تكن لتتحقَّق^(٣) هذه المرتبة السَّنية إلا بموافقة رضاه واتباع أمره، وترك إرادات النفس وشهواتها التي يكرهها محبوبهم؛ فأنزلهم دارًا أمرهم فيها ونهاهم؛ فقاموا بأمره ونهيه؛ فنالوا درجة محبتهم له؛ فأنا لهم درجة حبِّ إياهم، وهذا

(١) (ن): «سلطته».

(٢) (ق): «فأنزلهم دارا أظهر فيها».

(٣) (ق): «ولم يمكن تحقيق».

من تمام حكمته وكمال رحمته، وهو البرُّ الرحيم.

* وأيضًا؛ فإنه سبحانه لما خلق خلقه أطوارًا وأصنافًا، وسبق في حكمه^(١) تفضيله آدم وبنيه على كثير من مخلوقاته = جعل عبوديته أفضل درجاتهم، أعني العبودية الاختيارية التي يأتون بها طوعًا واختيارًا، لا كرها واضطرارًا.

وقد ثبت أن الله سبحانه أرسل جبريلَ إلى النبي ﷺ يخبره بين أن يكون مَلِكًا نبيًّا أو عبدًا نبيًّا، فنظر إلى جبريل كالمستشير له، فأشار إليه أن تواضع، فقال: «بل أكونُ عبدًا نبيًّا»^(٢)؛ فذكره سبحانه باسم عبوديته في أشرف مقاماته: في مقام الإسراء، ومقام الدعوة، ومقام التحدي.

فقال في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، ولم يقل: «برسوله»، ولا: «نبيه»؛ إشارة إلى أنه نال هذا المقام الأعظم بكمال عبوديته لربه.

وقال في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

(١) (ت): «حكمته».

(٢) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦٧١٠) - ومن طريقه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٣٨/٥)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي ﷺ» (٦١١) من حديث ابن عباس بإسناد منقطع.

وانظر: «النكت الظراف» (٢٣٢/٥).

وروي نحوه من حديث أبي هريرة.

أخرجه أحمد (٢٣١/٢)، وأبو يعلى (٦١٠٥)، والبخاري (١٥٥/٣) - كشف الأستار. وصححه ابن حبان (٦٣٦٥).

وقال في مقام التحدي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي «الصحيحين» في حديث الشفاعة، وتراجع الأنبياء فيها، وقول المسيح ﷺ: «أذهبوا إلى محمد؛ عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»^(١)، فدل ذلك على أنه نال ذلك المقام الأعظم^(٢) بكمال عبوديته لله، وكمال مغفرة الله له.

وإذا كانت العبودية عند الله بهذه المنزلة، اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته دارًا ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله، وتقربهم إليه بمحابه، وترك مألوفاتهم من أجله؛ فكان ذلك من تمام نعمته عليهم وإحسانه إليهم.

* وأيضًا؛ فإنه سبحانه أراد أن يعرف عباده الذين أنعم عليهم تمام نعمته عليهم، ويعرفهم قدرها؛ ليكونوا أعظم محبة له، وأكثر شكرًا، وأعظم التذاذًا بما أعطاهم من النعيم؛ فأراهم سبحانه فعله بأعدائه، وما أعد لهم من العذاب وأنواع الآلام، وأشهدهم تخليصهم من ذلك، وتخصيصهم بأعلى أنواع النعيم؛ ليزداد سرورهم، وتكمل غبطتهم، ويعظم فرحهم، وتتم لذتهم، وكان ذلك من إتمام الإنعام عليهم ومحبتهم.

ولم يكن بد في ذلك من إنزالهم إلى الأرض وامتحانهم واختبارهم، وتوفيق من شاء منهم رحمة منه وفضلًا، وخذلان من شاء حكمة منه وعدلًا، وهو العليم الحكيم.

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٧٦)، و«صحيح مسلم» (١٩٣) من حديث أنس.

(٢) (ت، ن): «العظيم».

ولا ريب أن المؤمنَ إذا رأى عدوَّه وعدوَّ محبوبه - الذي هو أحبُّ الأشياء إليه - في أنواع العذاب والآلام، وهو يتقلَّب في أنواع النعيم واللذة = ازدادَ بذلك سروره، وعظمتَ لذته وكملتَ نعمته.

* وأيضًا؛ فإنه سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته، وهي الغايةُ المطلوبة منهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ومعلومٌ أن كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل في دار النعيم والبقاء، إنما يحصل في دار المحنة والابتلاء، وأما دار البقاء فدار لذَّةٍ ونعيم، لا دار ابتلاءٍ وامتحانٍ وتكليف.

* وأيضًا؛ فإنه سبحانه اقتضت حكمته خلقَ آدم وذريَّته في تركيبٍ^(١) مستلزم لداعي الشهوة والغضب، وداعي العقل والعلم؛ فإنه سبحانه خلق فيه العقل^(٢) والشهوة ونصَّبَهما داعيَّين لمقتضياتهما^(٣)؛ ليتِمَّ مراده، ويظهر لعباده عزَّته في حكمته^(٤) وجبروته، ورحمته وبرِّه، ولطفه في سلطانه وملكوته.

فاقتضت حكمته ورحمته أن أذاقَ أباهم وبِئَلْ مخالفتَه، وعَرَّفَه ما تجني عواقبُ إجابة الشهوة والهوى؛ ليكونَ أعظمَ حذرًا فيها^(٥) وأشدَّ هروبًا.

(١) (ق): «من تركيب».

(٢) من قوله: «وأيضًا فإنه سبحانه» إلى هنا بياض في (د).

(٣) (ق): «بمقتضياتهما».

(٤) (ت): «عزته وحكمته».

(٥) أي: الإجابة. (ت): «فيهما» أي: الهوى والشهوة.

وهذا كحال رجلٍ سائرٍ على طريقٍ قد كَمَنَتِ الأعداءُ في جَنَبَاتِهِ، وخلفه وأمامه، وهو لا يشعرُ بها^(١)، فإذا أصيبَ منها مرةً بمصيبةٍ أَسْتَعَدَّ في سيره، وأخذَ أَهْبَةَ عَدُوِّهِ، وأَعَدَّ له ما يدفعُه به. ولولا أَنه ذاق أَلَمَ إغارةِ عَدُوِّهِ عليه وتبَيَّته له لما سمحت نفسه بالاستعداد والحذر وأخذ العُدَّةَ.

فَمِنْ تمامِ نعمةِ الله على آدمَ وذريَّتِهِ أَن أَرَاهُمْ ما فَعَلَ العَدُوُّ بِهِمْ وبأَبِيهِمْ فاستَعَدُّوا له وأَخَذُوا أَهْبَتَهُ.

فإن قيل: كان من الممكن أن لا يسلط عليهم العدو.

قيل: قد تقدَّم أَنه سبحانه خلق آدمَ وذريَّتَهُ على بِنْيَةٍ وتركيبٍ مستلزمٍ لمخالطتهم لعدوِّهم وابتلائهم به، ولو شاء لخلَقَهُم كالملائكة الذين هم عقولٌ بلا شهوات^(٢)، فلم يكن لعدوِّهم طريقٌ إليهم، ولكن لو خُلِقُوا هكذا لكانوا خلْقًا آخَرَ غَيْرِ بني آدمَ؛ فَإِنَّ بني آدمَ قد رُكِّبُوا على العقل والشَّهوة.

* وأيضًا؛ فإنه لما كانت محبةُ الله وحده هي غاية كمال العبد وسعادته التي لا كمال له ولا سعادة بدونها أصلًا، وكانت المحبةُ الصَّادقةُ إنما تتحقَّقُ^(٣) بإيثار المحبوب على غيره من محبوبات النفوس، واحتمال أعظم المشاقِّ في طاعته ومرضاته، فهذا تتحقَّقُ المحبةُ ويُعَلَمُ ثبوتُها في القلب = أَقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ سبحانه إخراجَهُم إلى هذه الدَّارِ المحفوفة بالشهوات ومحابِّ النفوس، التي بإيثار المحبوب^(٤) الحقُّ عليها والإعراض عنها

(١) «بها» ليست في (ق).

(٢) (ح): «شهوة».

(٣) التاء الأولى مضبوطة بالضم في (ق) في الموضعين.

(٤) (ت): «النفوس». وساقطة من (د، ق).

يتحقَّق حبُّهم له وإيثارهم إِيَّاه على غيره.

وكذلك بتحمُّل^(١) المشاقِّ الشديدة، وركوب الأخطار، واحتمال المَلَامَةِ، والصبر على دواعي الغيِّ والضلال، ومجاهدتها^(٢) = يقوى سلطانُ المحبة، وتثبت^(٣) شجرتها في القلب، وتَعْظُم^(٤) ثمرتها على الجوارح؛ فإنَّ المحبة الثابتة اللازمة على كثرة الموانع والعوارض والصَّوارف هي المحبة الحقيقية النافعة، وأمَّا المحبة المشروطة بالعافية والنعيم واللذة وحصول مراد المحبِّ من محبوبه فليست محبة صادقة، ولا ثبات لها عند المعارضات والموانع؛ فإنَّ المعلق على الشرط عدم عند عدمه، ومن وَدَّكَ لأمرٍ ولَّى عند أنقضائه.

وفرق بين من يعبدُ الله على السَّراء والرخاء والعافية فقط، وبين من يعبدُه على السَّراء والضَّراء، والشدة والرخاء، والعافية والبلاء.

* وأيضًا؛ فإنَّ الله سبحانه له الحمدُ المطلقُ الكاملُ الذي لا نهاية بعده، فكان ظهورُ الأسباب التي يُحمدُ عليها من مقتضى كونه محمودًا، وهي من لوازم حمده تعالى، وهي نوعان: فضلٌ، وعدلٌ؛ إذ هو سبحانه المحمودُ على هذا وعلى هذا، فلا بدَّ من ظهور أسباب العدل واقتضائها لمسمياتها، ليتربَّ عليها^(٥) كمالُ الحمد الذي هو أهله.

(١) (د): «تحمّل». (ت): «ولذلك تتحمّل». (ح، ن): «ولذلك يتحمّل».

(٢) (ح، ن): «وبمجاهدتها».

(٣) (ن): «وتثبت».

(٤) (د، ق، ن، ح): «وتطعم».

(٥) (ح): «المرتب عليها».

فكما أنه سبحانه محمودٌ على إحسانه وبرّه، وفضله وثوابه، فهو محمودٌ على عدله وانتقامه وعقابه، إذ مَصْدَرُ^(١) ذلك كلّهُ عن عزّته وحكمته.

ولهذا ينبّه سبحانه وتعالى على هذا كثيرًا، كما في سورة الشعراء، حيث يذكر في آخر كل قصّة من قصص الرسل وأمهم: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ [الشعراء: ٨ - ٩]؛ فأخبر سبحانه أنّ ذلك صادرٌ عن عزّته المتضمّنة كمال قدرته، وحكمته المتضمّنة كمال علمه ووضعه الأشياء مواضعها اللائقة بها^(٢). فما وَضَعَ نعمته وإنجاءه^(٣) لرسله ولأتباعهم، ونقمته وإهلاكه لأعدائهم، إلا في محلّها اللائق بها؛ لكمال عزّته وحكمته.

ولهذا قال سبحانه عقب إخباره عن قضائه بين أهل السعادة والشقاوة، ومصير كلّ منهم إلى ديارهم التي لا يلبث بهم غيرُها، ولا تقتضي حكمته سواها: ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

* وأيضًا؛ فإنه سبحانه اقتضت حكمته وحمده أن فاوت بين عباده أعظم تفاوتٍ وأبينّه؛ ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمته وفضله، ويعرف أنه قد حُبِّي بالإنعام، وخُصَّ دون غيره بالإكرام.

(١) (ق): «إذ يصدر».

(٢) كذا في الأصول. وهو سهوٌ من المصنف؛ فليس في الآية ذكرٌ للحكمة، وإنما هي الرحمة. وتنبّه لذلك في «شفاء العليل» (٥٦٢)، و«مدارج السالكين» (٤٩٢/٣)، فقال: «فصدور هذا الإهلاك عن عزّته وذلك الإنجاء عن رحمته».

(٣) في الأصول: «ونجاته». كأن المصنف رسمها: «وإنجائه». والإهلاك يقابله: الإنجاء. وانظر: «المدارج» (الموضع السابق).

ولو تساوا جميعهم في النعمة والعافية لم يعرف صاحبُ النعمة قدرها، ولم يبدل شكرها إذ لا يرى أحداً إلا في مثل حاله.

ومن أقوى أسباب الشكر وأعظمها أستخراجاً له من العبد: أن يرى غيره في ضدِّ حاله الذي هو عليها من الكمال والفلاح.

وفي الأثر المشهور: أن الله سبحانه لما رأى آدم - عليه السلام - ذريته، وتفاوت مراتبهم^(١)، قال: يا رب! هلاً سويت بين عبادك. قال: «إني أحبُّ أن أشكر»^(٢).

فاقتضت محبته سبحانه لأن يُشكر خَلَق الأسباب التي يكونُ شكرُ الشَّاكرين عندها أعظمَ وأكمل، وهذا هو عينُ الحكمة الصَّادرة عن صفة الحمد.

(١) (ح، ن): «فرأى تباينهم وتفاوت مراتبهم».

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (١٣٥/٥)، والطبري في «التفسير» (٢٣٨/١٣)، والفريابي في «القدر» (٥١، ٥٢)، وابن منده في «الرد على الجهمية» (٣٠)، وابن عبد البر في «المهيد» (٩١/١٨)، وغيرهم من طرقٍ يصحُّ بها عن أبي ابن كعبٍ موقوفاً في سياقٍ طويل. وصححه الحاكم في «المستدرک» (٣٢٣/٢) ولم يتعقبه الذهبي، وخرَّجه الضياء في «المختارة» (٣٦٤/٣).

وانظر: «الروح» للمصنف (٤٣٥، ٤٤٥).

وروي نحوه من حديث أبي هريرة عند ابن أبي حاتم في «التفسير»، ولا يصحُّ. انظر: «تفسير ابن كثير» (١٥٠٨/٤).

وروي من مرسل الحسن البصري عند عبد الرزاق في «المصنف» (٤٢٤/١٠)، وابن أبي شيبة (٥٠٨/١٣)، وابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٦٥) من طرق.

* وأيضًا؛ فإنه سبحانه لا شيء أحبَّ إليه من العبدِ مَنْ تذلُّله بين يديه،
وخضوعه وافتقاره، وانكساره وتضرُّعه إليه.

ومعلوم أنَّ هذا المطلوب من العبد إنما يتمُّ بأسبابه التي يتوقَّف عليها،
وحصولُ هذه الأسباب في دار النعيم المطلق والعافية الكاملة ممتنع؛ إذ هو
مستلزمٌ للجمع بين الضدَّين.

* وأيضًا؛ فإنه سبحانه له الخلقُ والأمر، والأمرُ هو شرُّه وأمرُّه ودينه
الذي بعث به رسَله، وأنزل به كتبه، وليست الجنةُ دار تكليفٍ تجري عليهم
فيها أحكامُ التكليف ولوازمُها، وإنما هي دارُ نعيمٍ ولذَّة؛ فاقتضت حكمته
سبحانه إخراج آدم^(١) وذريَّته إلى دارٍ تجري عليهم [فيها]^(٢) أحكامُ دينه
وأمره؛ ليظهرَ فيهم مقتضى الأمر ولوازمه؛ فإنَّ الله سبحانه كما أنَّ أفعاله
وخلقه من لوازم كمال أسمائه الحسنَى وصفاته العلى، فكذلك أمره وشرُّه
وما يترتبُ عليه من الثواب والعقاب.

وقد أرشد سبحانه إلى هذا المعنى في غير موضعٍ من كتابه، فقال
تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، أي: مهملاً معطلاً لا يؤمُّرُ
ولا يُنهى، ولا يثابُّ ولا يعاقب.

وهذا يدلُّ على أنَّ هذا منافٍ لكمال حكمته، وأنَّ ربوبيته وعزَّته وحكمته
تأبى ذلك، ولهذا أخرج الكلامَ مخرجَ الإنكار على من زعم ذلك، وهو يدلُّ
على أنَّ حُسْنه مستقرٌّ في الفطر والعقول، وقُبْح تركه سدَى معطلاً مستقرٌّ في

(١) (ت، ق): «استخراج آدم».

(٢) ليست في الأصول. والسياق يقتضيها.

الفطر، فكيف يُنسبُ إلى الربِّ ما قبَّحه مستقرُّ في فطركم وعقولكم؟!!

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿المؤمنون: ١١٥ - ١١٦﴾؛ نَزَّهَ نفسه سبحانه عن هذا الحُشْبَانِ^(١) الباطل المضادَّ لموجب أسمائه وصفاته، وأنه لا يليقُ بجلاله نسبته إليه.

ونظائرُ هذا في القرآن كثيرة.

* وأيضًا؛ فإنه سبحانه يحبُّ من عباده أمورًا يتوقَّفُ حصولُها منهم على حصول الأسباب المقتضية لها، ولا تحصلُ إلا في دار الابتلاء والامتحان؛ فإنه سبحانه يحبُّ الصابرين، ويحبُّ الشاكرين، ويحبُّ الذين يقاتلون في سبيله صفًا، ويحبُّ التَّوابين، ويحبُّ المتطهِّرين، ولا ريبَ أنَّ حصول هذه المحبوبات بدون أسبابها ممتنع، كامتناع حصول الملزوم بدون لازمه، والله سبحانه أفرحُ بتوبة عبده حين يتوبُ إليه من الفاقد لراحته التي عليها طعامه وشرابه في أرضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ إذا وجدها.

كما ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «لَلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بتوبة عبده المؤمن من رجلٍ في أرضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام، فاستيقظ وقد ذهبَتْ، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أَرْجِعْ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقِظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللَّهُ

(١) بكسر الحاء في (ق). والوجهان جائزان. وفي (ح، ن): «الحساب». وفي هامش (ح) إشارة إلى أن في نسخة: «الحسبان».

أشدُّ فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته»^(١).

وهذا غاية ما يكون من الفرح وأعظمه، ومع هذا فالله سبحانه أشدُّ فرحًا بتوبة العبد المؤمن من فرح هذا براحلته^(٢).

وسياتي - إن شاء الله - الكلام على هذا الحديث^(٣)، وذكر سرِّ هذا الفرح بتوبة العبد^(٤).

والمقصود أنَّ هذا الفرح المذكور إنما يكون بعد التوبة من الذنب، فالتوبة والذنب لازمان لهذا الفرح، ولا يوجد الملزوم بدون لازمه، وإذا كان هذا الفرح المذكور إنما يحصل بالتوبة المستلزمة للذنب، فحصوله في دار النعيم التي لا ذنب فيها ولا مخالفة ممتنع.

ولما كان هذا الفرح أحبَّ إلى الربِّ سبحانه من عدمه اقتضت محبته له خلق الأسباب المفضية إليه؛ ليرتَّب عليها المسبَّب الذي هو محبوب له.

* وأيضًا؛ فإن الله سبحانه جعل الجنة دار جزاء وثواب، وقسم منازلها بين أهلها على قدر أعمالهم، وعلى هذا خلقها سبحانه؛ لما له في ذلك من الحكمة التي اقتضتها أسماؤه وصفاته؛ فإنَّ الجنة درجات بعضها فوق

(١) «صحيح البخاري» (٦٣٠٨)، و«صحيح مسلم» (٢٧٤٤) من حديث ابن مسعود. والدُّويَّة: الأرض القفر الخالية. والمهلكة (بفتح اللام وكسرهما): موضع خوف الهلاك.

(٢) من قوله: «وهذا غاية» إلى هنا ليس في (ح، ن).

(٣) لم يقع ذلك في باقي الكتاب، وانظر ما سياتي (ص: ٨١٣)، وراجع ما كتبناه في المقدمة.

(٤) (ت): «الفرح بهذا العبد».

بعض، وبين الدرجتين كما بين السماء والأرض؛ كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْجَنَّةَ مِثْلُ دَرَجَةٍ، بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(١).

وحكمةُ الربِّ سبحانه مقتضيةٌ لعمارة هذه الدَّرَجَاتِ كُلِّهَا، وإنما تُعْمَرُ ويقعُ التفاوتُ فيها بحسب الأعمال، كما قال غيرُ واحدٍ من السلف: «ينجون من النار بعفو الله ومغفرته، ويدخلون الجنة بفضلِهِ ونعمته»^(٢)، ويتقاسمون المنازلَ بأعمالهم»^(٣).

وعلى هذا حملَ غيرُ واحدٍ ما جاء من إثبات دخول الجنة بالأعمال، كقوله تعالى: ﴿وَبَلَدِكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْفِئْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

قالوا: وأما نفْيُ دخولها بالأعمال كما في قوله ﷺ: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا»^(٤)، فالمرادُ به نفْيُ أصل الدخول.

(١) «صحيح البخاري» (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) (ق): «ونعمته ومغفرته».

(٣) أخرجه هناد في «الزهد» (٤٠٤/١) عن ابن مسعود موقوفاً بإسنادٍ ضعيف.

وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٤٦/٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧٤/٤٧) عن عون بن عبد الله.

وروي مرفوعاً من حديث أنس بن مالك عند ابن أبي الدنيا بإسنادٍ ضعيف، ساقه ابن كثير في «النهاية» (١٠١/٢٠) ثم قال: «وهذا حديث غريب».

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة.

وأحسنُ من هذا أن يقال: الباءُ المقتضيةُ للدخولَ غيرُ الباءِ التي نُفِيَّ معها الدخولُ؛ فالمقتضيةُ هي باءُ السببيةِ الدالةُ على أن الأعمالَ سببٌ للدخولِ مقتضيةٌ له كاقضاءِ سائرِ الأسبابِ لمُسَبِّباتِها^(١)، والباءُ التي نُفِيَّ بها الدخولُ هي باءُ المُعَاوَضَةِ والمُقَابَلَةِ التي في نحو قولهم: أَشْتَرَيْتُ هَذَا بِهَذَا^(٢).

فأخبرَ النبي ﷺ أَنَّ دَخُولَ الْجَنَّةِ لَيْسَ فِي مُقَابِلِ عَمَلٍ أَحَدٍ، وَأَنَّهُ لَوْ لَا تَعَمَّدَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَعَبَدَهُ بِرَحْمَتِهِ لَمَا أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، فَلَيْسَ عَمَلُ الْعَبْدِ - وَإِنْ تَنَاهَى - مُوجِبًا بِمَجَرَّدِهِ لِدَخُولِ الْجَنَّةِ، وَلَا عَوَضًا لَهَا، فَإِنَّ أَعْمَالَهُ وَإِنْ وَقَعَتْ مِنْهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ فَهِيَ لَا تَقَاوِمُ نِعْمَةَ اللَّهِ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَلَا تُعَادِلُهَا، بَلْ لَوْ حَاسَبَهُ لَوَقَعَتْ أَعْمَالُهُ كُلُّهَا فِي مُقَابِلَةِ الْبَسِيرِ مِنْ نِعَمِهِ، وَتَبْقَى بَقِيَّةُ النِّعَمِ مُقْتَضِيَةً لَشُكْرِهَا، فَلَوْ عَذَّبَهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَعَذَّبَهُ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُ، وَلَوْ رَحِمَهُ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُ مِنْ عَمَلِهِ؛ كَمَا فِي «السَّنَنِ» مِنْ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَحْذِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ وَغَيْرِهِمَا مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ»^(٣).

(١) (ت): «سائر الأسباب المسبب إليها».

(٢) انظر تقرير هذا المعنى في «جامع الرسائل» (١/١٤٣)، و«مجموع الفتاوى» (١/٢١٧، ٨/٧٠)، و«مدارج السالكين» (١/١٠٦)، و«حادي الأرواح» (١٧٧)، و«الكافية الشافية» (١٠٣٤)، وما سيأتي من الكتاب (ص: ١٠٩١).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وأحمد (١٨٥/٥، ١٨٩)، وغيرهم.

وصححه ابن حبان (٧٢٧)، والمصنف في «شفاء العليل» (١١٣).

وقال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٤٢٢): «وفي هذا الحديث =

والمقصودُ أنَّ حكمته سبحانه اقتضت خلق الجنة درجاتٍ بعضها فوق بعض، وعمارتهَا بآدم وذريته، وإنزالهم فيها بحسب أعمالهم. ولازمُ هذا إنزالهم إلى دار العمل والمجاهدة.

* وأيضاً^(١)؛ فإنه سبحانه خلق آدم وذريته ليستخلفهم في الأرض، كما أخبر سبحانه في كتابه بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال: ﴿وَيَسْتَخْلَفُكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فأراد سبحانه أن ينقله وذريته من هذا الاستخلاف إلى توريثه جنة الخلد، وعلم سبحانه بسابق علمه أنه لضعفه وقصور نظره قد يختار العاجل الخسيس على الآجل النفيس؛ فإنَّ النفس مُولَعَةٌ بحبِّ العاجلة وإيثارها على الآخرة، وهذا من لوازم كونه خُلِقَ من عَجَلٍ وَخُلِقَ عَجُولاً^(٢).

= نظر؛ ووهب بن خالد ليس بذاك المشهور بالعلم، وقد يحمل على أنه لو أراد تعذيبهم لقدَّر لهم ما يعذبهم عليه، فيكون غير ظالمٍ لهم حيثئذ.
وفيما قال ابن رجب رحمه الله نظر؛ فإنَّ وهب بن خالد - على ثقته - لم ينفرد بالحديث، فقد أخرجه الفريابي في «القدر» (١٩٠، ١٩١) - ومن طريقه الآجري في «الشريعة» (٣٧٣، ٤٢٤) -، وابن بطة في «الإبانة» (١٥٨٨ - القدر) من وجهٍ آخر لا بأس به.

ثم إنَّ ما ذكره من التوجيه ليس بجيد. وانظر لتحقيق معنى الحديث، وغلط الطوائف في فهمه: «شفاء العليل» (٣٤٣)، و«طريق الهجرتين» (٦٢١)، و«عدة الصابرين» (٢٦٦)، وما سيأتي من الكتاب (ص: ١١٣٢).

(١) انظر: «تفسير الراغب الأصبهاني» (ق ٤٠/أ).

(٢) (ق): «من لوازم قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، وقوله: وخلق الإنسان». والإشارة =

فَعَلِمَ سَبْحَانَهُ مَا فِي طَبِيعَتِهِ مِنَ الضَّعْفِ وَالسَّخَوَرِ، فَاقْتَضَتْ حَكْمَتُهُ أَنْ
أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ لِيَعْرِفَ النِّعِمَ الَّذِي أُعِدَّ لَهُ عِيَانًا؛ فَيَكُونُ إِلَيْهِ أَشْوَقَ^(١)، وَعَلَيْهِ
أَحْرَصَ، وَلَهُ أَشَدَّ طَلِبًا؛ فَإِنَّ مَحَبَّةَ الشَّيْءِ وَطَلِبَهُ وَالشَّوْقَ إِلَيْهِ مِنْ لَوَازِمِ
تَصَوُّرِهِ، فَمَنْ بَاشَرَ طَيِّبَ شَيْءٍ وَلَذَّتهُ وَتَذَوَّقَ بِهِ^(٢) لَمْ يَكِدْ يَصْبِرُ عَنْهُ؛ وَهَذَا
لَأَنَّ النَّفْسَ ذَوَاقَةٌ تَوَاقِفُ، فَإِذَا ذَاقَتْ تَاقَتْ، وَلِهَذَا إِذَا ذَاقَ الْعَبْدُ طَعْمَ الْإِيمَانِ
وَخَالَطَ^(٣) بِشَاشَتِهِ قَلْبَهُ رَسَخَ فِيهِ حُبُّهُ، وَلَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهِ شَيْئًا أَبَدًا.

وَفِي «الصَّحِيحِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمَرْفُوعُ: «إِنَّ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ يَسْأَلُ الْمَلَائِكَةَ، يَقُولُ: مَا يَسْأَلُنِي عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: يَسْأَلُونَكَ
الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟
فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا لَكَانُوا أَشَدَّ لَهَا طَلِبًا»^(٤).

فَاقْتَضَتْ حَكْمَتُهُ أَنْ أَرَاهَا أَبَاهُمْ وَأَسْكَنَهُ إِيَّاهَا، ثُمَّ قَصَّ عَلَى بَنِيهِ قِصَّتَهُ
فَصَارُوا كَأَنَّهُمْ مُشَاهِدُونَ لَهَا حَاضِرُونَ^(٥) مَعَ آبِيهِمْ، فَاسْتَجَابَ مِنْ خُلُقٍ لَهَا
وُخِّلِقَتْ لَهُ، وَسَارَعَ إِلَيْهَا، وَلَمْ يَثْنِ عَنْهَا الْعَاجِلَةُ، بَلْ يَعُدُّ نَفْسَهُ كَأَنَّهُ فِيهَا ثُمَّ
سَبَّاهُ الْعَدُوُّ، فِيرَاهَا وَطَنَهُ الْأَوَّلَ وَقَدْ أُخْرِجَ مِنْهُ، فَهُوَ دَائِمُ الْحَنِينِ إِلَى وَطَنِهِ،

= إِلَى الْآيَتَيْنِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ: ٣٧، وَالْإِسْرَاءِ: ١١، إِلَّا أَنْ صَوَّابُ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ: ﴿وَكَانَ
الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾.

(١) (ت): «أشوف».

(٢) كَذَا فِي الْأَصُولِ. عَدَى الْفِعْلُ بِالْبَاءِ.

(٣) (ق): «وخالط»، وَفِي (ح، ن): «وخالط بشاشة».

(٤) «صحيح البخاري» (٦٤٠٨)، و«صحيح مسلم» (٢٦٨٩).

(٥) (ق، ت): «مشاهدين لها حاضرين».

لا يقرُّ قراره حتى يرى نفسه فيه^(١)، كما قيل^(٢):

نَقَلَ فُؤادَكَ حَيْثُ شَتَّ مِنَ الْهَوَىٰ مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَىٰ وَحَيْنُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلِ
وَلِي مِنْ آيَاتٍ تُلَمُّ بِهَذَا الْمَعْنَىٰ:

وَحَيَّ عَلَىٰ جَنَّاتٍ عَدَنِ فَإِنَّهَا مَنَازِلُكَ الْأَوَّلَىٰ وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ
وَلَكِنَّا سَبِيَّ الْعَدُوِّ فَهَلْ تُرَىٰ نَعُودُ إِلَىٰ أَوْطَانِنَا وَنُسَلِّمُ^(٣)

* فسرُّ هذه الوجوه أنه سبحانه وتعالى سبق في حكمه وحكمته أن الغايات المطلوبة لا تُنال إلا بأسبابها التي جعلها الله أسبابًا مفضيةً إليها، ومن تلك الغايات أعلى أنواع النعيم وأفضلها وأجلُّها، فلا تُنال إلا بأسباب نصَّبها مفضيةً إليها.

وإذا كانت الغايات التي هي دون ذلك لا تُنال إلا بأسبابها — مع ضعفها وانقطاعها —، كتحصيل المأكول والمشروب والملبوس والولد والمال والجاه في الدنيا؛ فكيف يُتَوَهَّم حصولُ أعلى الغايات وأشرف المقامات بلا سببٍ يفضي إليه؟!

ولم يكن^(٤) تحصيلُ تلك الأسباب إلا في دار المجاهدة والحرث^(٥)؛

(١) (ق، ت): «فيها».

(٢) البيتان لأبي تمام في ديوانه (٢٥٣/٤)، و«أخباره» للصولي (٢٠٥) وغيرهما.

(٣) القصيدة بتمامها في «طريق الهجرتين» (١٠٨ - ١١٥). والمصنف كثير الاستشهاد بالبيتين في كتبه.

(٤) كذا في الأصول بتقدير الخبر: ممكنًا. ولعلها: يمكن.

(٥) (د، ق): «والحرب». وهي قراءة محتملة، والمثبت أشبه.

فكان إسكان آدم وذريته هذه الدار التي ينالون فيها الأسباب الموصلة إلى أعلى المقامات من تمام إنعامه عليهم.

* وسِرُّها أيضًا: أنه سبحانه جعل الرسالة والنبوة، والخُلَّة والتكليم، والولاية والعبودية، من أشرف مقامات^(١) خلقه ونهايات كمالهم؛ فأنزلهم دارًا أخرجَ منهم الأنبياء، وبعث فيها الرسل، واتَّخذَ منهم من اتَّخذَ خليلاً، وكَلَّمَ موسى تكليماً، واتَّخذَ منهم أولياء وشهداء، وعبيداً وخاصَّة، يحبُّهم ويحبُّونه، وكان إنزالُهم إلى الأرض من تمام الإنعام والإحسان.

* وسِرُّها أيضًا: أنه أظهر لخلقهِ من آثار أسمائه وصفاته وجَرَيان أحكامها عليهم ما اقتضته حكمته ورحمته وعلمه.

* وسِرُّها أيضًا: أنه تعرَّف إلى خلقه بأفعاله وأسمائه وصفاته، وما أحدثه في أوليائه وأعدائه، مِن كرامته وإنعامه على الأولياء، وإهانته وإشiquائه^(٢) للأعداء، ومِن إجابته دعواتهم، وقضائه حوائجهم، وتفريج كرباتهم، وكشف بلائهم، وتصريفهم تحت أقداره كيف يشاء، وتقليبهم في أنواع الخير والشر؛ فكان في ذلك أعظم دليل لهم على أنه ربُّهم ومليكَهم، وأنه الله الذي لا إله إلا هو، وأنه العليمُ الحكيم، السميع البصير، وأنه الإلهُ الحقُّ وكلُّ ما سواه باطل.

فتظاهرت أدلة ربوبيته وتوحيده في الأرض، وتنوّعت، وقامت من كلِّ جانب؛ فعرفه الموفِّقون من عباده، وأقرُّوا بتوحيده إيماناً وإذعاناً، وجحدَه

(١) (ح، ن): «أشرف مقامات». بدون «من».

(٢) (د، ق، ت): «وانتقامه».

المخذولون من خليقته، وأشركوا به ظلمًا وكفرًا، فهلك من هلك عن بينةٍ وحيٍّ من حيٍّ عن بينةٍ، والله سميعٌ عليم.

ومن تأمل آياته المشهودة والمسموعة في الأرض، ورأى آثارها، علِمَ تمامَ حكمته في إسكانِ آدمَ وذريته في هذه الدارِ إلى أجلٍ معلومٍ؛ فالله سبحانه إنما خلق الجنةَ لآدمَ وذريته، وجعل الملائكةَ فيها خَدَمًا لهم، ولكن أقتضت حكمته أنْ خلقَ لهم دارًا يتزوّدون منها إلى الدارِ التي خُلِقَتْ لهم، وأنهم لا ينالونها إلا بالزَّاد، كما قال تعالى في هذه الدار: ﴿وَتَحْمِلُ أُنْفُسَ كُفْرًا إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِلَيْفِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]، فهذا شأنُ الانتقال في الدنيا من بلدٍ إلى بلد، فكيف الانتقالُ من الدنيا إلى دارِ القرار؟! وقال تعالى: ﴿وَتَكْرَدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ النَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

فباع المغبونون منازلهم منها بأبخس الحظِّ وأنقص الثمن، وباع الموفَّقون نفوسهم وأموالهم من الله، وجعلوها ثمنًا للجنة؛ فربحت تجارتهم، ونالوا الفوز العظيم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَبَدٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١].

فهو سبحانه ما أخرج آدمَ منها إلا وهو يريدُ أن يعيده إليها أكملَ إعادة^(١)، كما قيل على لسان القدر^(٢): يا آدم! لا تجزع من قلبي لك: أخرج

(١) (ت): «يعيده إليها فلذلك خلقها ليعيده إليها على أكمل إعادة».

(٢) أي: لسان الحال. كما عبّر به المصنف في «مدارج السالكين» (١/٣٢٦).

وانظر: «بدائع الفوائد» (١١٩٨)، و«الفوائد» (٥١)، و«عدة الصابرين» (١٠٩)، وما =

منها، فلك خلقتها، فإني أنا الغني عنها وعن كل شيء، وأنا الجواد الكريم، وأنا لا أمتنع فيها؛ فإني أطعم ولا أطعم، وأنا الغني الحميد، ولكن أنزل إلى دار البذر، فإذا بذرت فاستوى الزرع على سوقه وصار حصيداً، فحينئذ فعال فاستوفه^(١) أحوج ما أنت إليه، الحبة^(٢) بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، فإني أعلم بمصلحتك منك، وأنا العليم الحكيم.

فإن قيل: ما ذكرتموه من هذه الوجوه وأمثالها إنما يتم إذا قلتم^(٣): إن الجنة التي أسكنها آدم وأهبط منها جنّة الخلد التي أعدت للمتقين المؤمنين يوم القيامة، وحينئذ يظهر سرُّ إهباطه^(٤) وإخراجه منها. ولكن قد قالت طائفة - منهم أبو مسلم^(٥)، ومنذر بن سعيد البلوطي^(٦)، وغيرهما -: إنها

= سيأتي من الكتاب (ص: ٨٣٠).

وهو أسلوب معروف في تصوير المعاني، واستعمال العلماء له لا يكاد يأتي عليه الحصر. انظر: درء التعارض (١٠/ ٢٠٠)، ومجموع الفتاوى (١٢/ ٤٠٥).

(١) (ت): «فأسوقه».

(٢) (ت): «الحسنة».

(٣) (ق): «قيل».

(٤) (ح): «إهباط آدم».

(٥) محمد بن بحر الأصهباني المعتزلي (ت: ٣٢٢)، له تفسير كبير، لم يصلنا. انظر: معجم الأدباء (٦/ ٢٤٣٦)، و«الوافي بالوفيات» (٢/ ٢٤٤).

(٦) قاضي الجماعة بقرطبة (ت: ٣٥٥)، ترجمته في «السير» (١٦/ ١٧٣)، ومصادرها في حاشيته. وكتابه في التفسير لم يعثر عليه بعد. وذكر ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ١٧٦) أن له مصنفًا مفردًا في هذه المسألة، ولعله من مصادر المصنف.

وقد كان متهماً بالاعتزال كما ذكر ابن حزم في «طوق الحمامة» (٤٥)، منحرفاً إلى مذهب أهل الكلام كما ذكر ابن الفريسي في «تاريخ علماء الأندلس» (٢/ ١٤٤). ولا =

إنما كانت جنةً في الأرض في موضعٍ عالٍ منها، لا أنها جنةُ المأوى التي أعدّها الله لعباده المؤمنين يوم القيامة.

وذكر منذر بن سعيد هذا القول في «تفسيره» عن جماعة، فقال: «وأما قوله لأدم: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾:

فقال طائفة: أسكن الله تعالى آدم ﷺ جنة الخلد التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة.

وقال آخرون: هي جنةٌ غيرها جعلها الله له، وأسكنه إياها، ليست جنة الخلد».

قال: «وهذا قولٌ تكثرُ الدلائلُ الشاهدة له، والموجبةُ للقول به؛ لأنَّ الجنةَ التي تُدْخَلُ بعد القيامة هي من حَيِّزِ الآخرة^(١)، وفي اليوم الآخر تُدْخَلُ؛ ولم يأتِ بعد، وقد وصفها الله لنا في كتابه بصفاتها، ومحالٌ أن يصفَ الله شيئاً بصفةٍ ثم يكون ذلك الشيءُ بغير تلك الصفة التي وصفها به، والقول بهذا دافعٌ لما أخبر الله به».

قالوا: وجدنا الله تبارك وتعالى وصف الجنة التي أعدَّت للمتقين بعد قيام القيامة بدار المُقامة، ولم يُقِم آدم فيها.

= أراه كذلك، ولا أحسب التهمة لحقته إلا من قبل قوله بهذه المسألة ونظائرها مما وافق اجتهاده فيه مقالاتٍ أشتهرت عن المعتزلة وليست من أصولهم، وقد ذُكر أن له تصانيف في الرد على أهل الأهواء والبدع، كما في «مطمح الأنفس» (٢٣٨)، و«نفع الطيب» (٣٧٢ / ١)، ومنها فتوى في الرد على القول بخلق القرآن، نشرها عبد الرحمن الهياوي ملحقةً بترجمته التي صنعها له (ص: ١٤٥).

(١) (ق، ت): «خير الآخرة».

ووصفها بأنها جنة الخلد، ولم يخلد آدم فيها.
ووصفها بأنها دار جزاء، ولم يقل: إنها دار ابتلاء، وقد أبتلي آدم فيها
بالمعصية والفتنة.

ووصفها بأنها ليس فيها حزن، وأن الداخلين إليها يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وقد حزن فيها آدم.

ووجدناه سمّاها: ﴿دَارُ السَّلَامِ﴾، ولم يسلم فيها آدم من الآفات التي
تكون في الدنيا.

وسمّاها: ﴿دَارُ الْفَكَارِ﴾، ولم يستقرّ فيها آدم.

وقال فيمن يدخلها: ﴿وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرِجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، وقد أُخرج
منها آدم بمعصيته.

وقال: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر: ٤٨]، وقد نذ^(١) آدم فيها
هارباً فأراً عند إصابته المعصية، وطفق يخصف ورق الجنة على نفسه، وهذا
النصب بعينه الذي نفاه الله عنها.

وأخبر أنه لا يُسمع فيها لغو ولا تأثيم، وقد أثم فيها آدم، وأسمع فيها ما
هو أكبر من اللغو، وهو أنه أمر فيها بمعصية ربه.

وأخبر أنه لا يُسمع فيها لغو ولا كذاب^(٢)، وقد أسمع فيها إبليس
الكذب، وغره وقاسمه عليه أيضاً بعد أن أسمعته إياه.

(١) مضبوطة في (د، ق). نذ البعير: شرد وذهب على وجهه.

(٢) (ح): «كذاب». وفي (ق): «كذب».

وقد شرب آدم من شرابها الذي سمّاه في كتابه: ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]، أي: مُطَهَّرًا من جميع الآفات المذمومة، وآدم لم يطهر من تلك الآفات. وسمّاها الله تعالى: ﴿مَقْعَدٌ صِدْقٍ﴾، وقد كَذَبَ إبليسُ فيها آدمَ، ومقعدُ الصّدق لا كذبَ فيه.

وعِلِّيُّونَ لم يكن فيها استحالةٌ قطُّ ولا تبديل، ولا يكونُ بإجماع المصلّين، والجنة في أعلى عليين.

والله تعالى 'فإنما قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ولم يقل: إني جاعلٌ^(١) في جنة المأوى، فقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، والملائكة أتقى الله من أن تقول ما لا تعلم، وهم القائلون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، وفي هذا دلالة على أن الله قد كان أعلمهم أن بني آدم سيفسدون في الأرض، وإلا فكيف كانوا يقولون ما لا يعلمون، والله تعالى يقول - وقوله الحق -: ﴿لَا يَسْقُونَهُ إِلَّا لِقَوْلِ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، والملائكة لا تقول ولا تعمل إلا بما تؤمر به لا غير، قال الله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠].

والله تعالى 'أخبرنا أن إبليس قال لآدم: ﴿هَلْ أَدْرُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى﴾ [طه: ١٢٠]، فإن كان الله أسكن آدمَ جنة الخلد والمُلْك الذي لا يبلى، فكيف لم يردّ عليه نصيحته ويكذّبه في قوله، فيقول: وكيف تدلّني على شيء أنا فيه وقد أعطيته واحتزته^(٢)!

(١) (ت، د، ن): «جاعله».

(٢) مهملة في (د، ق). وساقطة من (ت). والمثبت من (ح، ن).

بل كيف لم يَحْثُ الترابَ في وجهه ويسبّه؟! لأنَّ إبليس ليس كان يكون بهذا الكلام مُغْوِيًا له، إنما كان يكون زارياً عليه^(١)؛ لأنه إنما وعده على معصية ربه بما كان فيه لا زائداً عنه، ومثل هذا لا يخاطبُ به إلا المَجانين الذين لا يعقلون؛ لأنَّ العَوَضَ الذي وعده به بمعصية ربه قد كان أحرزه، وهو الخلدُ والمُلْكُ الذي لا يبلى.

ولم يخبر الله آدمَ إذ أسكنه الجنة أنه فيها من الخالدين، ولو كان فيها من الخالدين لما رَكَنَ إلى قول إبليس، ولا قَبِلَ نصيحته، ولكنه لما كان في غير دار خلودٍ عَرَّه بما أطمعه فيه من الخُلْد، فقبِل منه، ولو أخبر الله آدمَ أنه في دار الخُلْد ثم شكَّ في خبر ربه لسمَّاه كافراً، ولما سمَّاه عاصياً؛ لأن من شكَّ في خبر الله فهو كافر، ومن فعَل غيرَ ما أمره الله به وهو معتقِدٌ للتصديق لخبر ربه فهو عاصٍ، وإنما سَمَّى الله آدمَ عاصياً ولم يسمَّه كافراً.

قالوا: فإن كان آدمُ أُسْكِنَ جنة الخلد، وهي دارُ القدس التي لا يدخلها إلا طاهرٌ مقدَّس؛ فكيف توَصَّل إليها إبليسُ الرجسُ النجسُ الملعونُ المذمومُ المدحور حتى فتنَ فيها آدم؟!

وإبليسُ فاسقٌ قد فسق عن أمر ربه، وليست جنةُ الخلد دارَ الفاسقين، ولا يدخلها فاسقٌ بئسَ، إنما هي دارُ المتقين، وإبليس غيرُ تقيٍّ، فبعد أن قيل له: أهبط^(٢) منها فما يكونُ لك أن تتكَبَّرَ فيها، أُنْفَسِحَ له^(٣) أن يرقى إلى جنة المأوى فوق السماء السابعة بعد السخط والإبعاد له بالعُتُو والاستكبار؟!

(١) أي: عائباً محقرًا له، مستخفًّا به.

(٢) كذا في الأصول، على سبيل الاستشهاد، لا التلاوة.

(٣) (ق): «انفسح له».

هذا مضادٌ لقوله تعالى: ﴿فَاهِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، فإن كانت مخاطبته آدمَ بما خاطبه به وقاسمه عليه ليس تكبرًا فليس تعقُّلُ العربُ التي نزل القرآن بلسانها ما التكبر!

ولعل من ضَعُفَت رويته وقَصُرَ بحثه^(١) أن يقول: إنَّ إبليسَ لم يَصِل إليها، ولكنَّ وسوسته وصلت!

فهذا قولٌ يُشبهُ قائله، ويُشاكِلُ مُعتقده، وقولُ الله تعالى 'حكمٌ بيننا وبينه، وقوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ يردُّ ما قال؛ لأنَّ المقاسمةَ ليست وسوسة، ولكنها مخاطبةٌ ومشافهة، ولا تكونُ إلا من اثنين، شاهدين^(٢) غير غائبين، ولا أحدهما.

ومما يدلُّ على أنَّ وسوسته كانت مخاطبةً قولُ الله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَذَكَّرُ أَلَمْ أَذْكُرْ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ الآية، فأخبر أنه قال له، ودلَّ ذلك على أنه إنما وسَّسَ إليه مخاطبةً، لا أنه أوقع ذلك في نفسه^(٣) بلا مقابلة، فمن ادَّعى على الظاهر تأويلًا ولم يُقم عليه دليلًا لم يجب قبولُ قوله.

وعلى أنَّ الوسوسة قد تكونُ كلامًا مسموعًا أو صوتًا قال رؤية^(٤):

* وَسَّوَسَ يَدْعُو مُخْلِصًا رَبَّ الْفَلَقِ *

(١) (ت، ن، ح): «وقصر به بحثه».

(٢) (ق): «وشاهدين».

(٣) (ت، ح، ن): «بنفسه».

(٤) ديوانه (١٠٨).

وقال الأعشى^(١):

تَسْمَعُ لِلْحَلِيِّ وَسَوَاسًا إِذَا انصَرَفَتْ كما أَسْتَعَانَ بِرِيحِ عِشْرِقٍ رَجُلٌ
قالوا: وفي قول إبليس لهما: ﴿مَا نَهَنُكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٠] دليل على مشاهدته لهما وللشجرة.

ولما كان آدم خارجاً من الجنة وغير ساكن فيها قال الله: ﴿أَلَمْ أُنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ولم يقل: «عن هذه الشجرة»، كما قال له إبليس؛ لأن آدم لم يكن حينئذ في الجنة ولا مشاهداً للشجرة.

مع قوله عز وجل: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]؛ فقد أخبر سبحانه خبراً محكماً غير مشتبهِ أنه لا يصعد إليه إلا كلمٌ طيبٌ وعملٌ صالح، وهذا مما قدّمنا ذكره، أنه لا يُلجُّ المقدّس المطهّر إلا مقدّسٌ مطهّرٌ طيبٌ، ومعاد الله أن تكون وسوسة إبليس مقدّسةً أو طاهرةً أو خيراً، بل هي شرٌّ كلّها، وظلمةٌ وخبثٌ ورجس. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وكما أن أعمال الكافرين لا تُلجُّ القدّس الطاهر ولا تصل إليه؛ لأنها خبيثةٌ غير طيبة، كذلك لا تصل - ولم تصل - وسوسة إبليس، ولا ولجت القدّس؛ قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينَ﴾ [المطففين: ٧].

(١) ديوانه (٥٥)، من معلقته. والوسواس: صوت جرس الحلي. والعشريق: نبت له ورق، إذا يبس أطارته الريح، فأسمعت له زجلاً (صوتاً).

وقد رُوي عن النبي ﷺ أَنَّ آدَمَ نَامَ فِي جَنَّتِهِ^(١)، وَجَنَّةُ الْخُلْدِ لَا نَوْمَ فِيهَا بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ^(٢)؛ لِأَنَّ النُّوْمَ وَفَاةٌ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ^(٣)، وَالْوَفَاةُ تَقْلُبُ حَالًا، وَدَارُ السَّلَامِ مُسَلِّمَةٌ مِنْ تَقْلُبِ الْأَحْوَالِ، وَالنَّائِمُ مَيِّتٌ أَوْ كَالْمَيِّتِ.

قَالُوا: وَقَدْ رُوي عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِأُمِّ حَارِثَةَ لَمَّا قَالَتْ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ حَارِثَةَ قُتِلَ مَعَكَ، فَإِنْ كَانَ صَارَ إِلَى الْجَنَّةِ صَبَرْتُ وَاحْتَسَبْتُ، وَإِنْ كَانَ صَارَ إِلَى مَا سِوَى ذَلِكَ رَأَيْتَ مَا أَفْعَلُ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ جَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ؟!، إِنَّمَا هِيَ جَنَّاتٌ كَثِيرَةٌ»^(٤).

فَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّ لِلَّهِ جَنَّاتٍ كَثِيرَةً؛ فَلَعَلَّ آدَمَ أَسْكَنَهُ اللَّهُ جَنَّةً مِنْ جَنَاتِهِ لَيْسَتْ هِيَ جَنَّةُ الْخُلْدِ.

(١) لَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ مَرْفُوعًا.

وورد موقوفًا على بعض أصحاب النبي ﷺ، رواه السدي في تفسيره، ومن طريقه الطبري (١/٥١٣)، وابن منده في «التوحيد» (١/٢١٨)، والبيهقي في «الأسماء والصفات»، وغيرهم.

وفي تفسير السدي نظر، وقد استعظم الإمام أحمد صنيعة في سياق أسانيده، ثم إن في راويه عنه أسباط بن نصر ضعفًا. انظر: «الضعفاء» للعقيلي (١/٨٨)، ومنتخب «الإرشاد» للخليلي (٣٩٨). ولم يعبأ بذلك ابن منده، فقال: «هذا إسنادٌ ثابت». وانظر تعليق الشيخ أحمد شاکر على «تفسير الطبري» (١/١٥٦-١٦٠).

وورد مقطوعًا من قول مجاهد، ومحمد بن إسحاق، والسدي، عند الطبري في «التفسير» (١/٥١٤، ٧/٥١٥)، و«التاريخ» (١/١٠٤).

(٢) (ق، ح، ن): «من المسلمين».

(٣) يشير إلى قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الآية: ٤٢].

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٠٩، ٣٩٨٢) من حديث أنس.

قالوا^(١): وقد جاء في بعض الأخبار أنَّ جنة آدم كانت بأرض الهند^(٢).

قالوا: وهذا وإن كان لا يصحَّحه رواة الأخبار ونقله الآثار، فالذي تقبله الأبواب ويشهد له ظاهر الكتاب أنَّ جنة آدم ليست جنة الخلد ولا دار البقاء، وكيف يجوز أن يكون الله أسكن آدم جنة الخلد ليكون فيها من الخالدين، وهو القائل للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؟!!

وكيف أخبر الملائكة أنه يريد أن يجعل في الأرض خليفة، ثم يُسكنه دار الخلود، ودار الخلود لا يدخلها إلا من يخلد فيها، كما سُميت بدار الخلود؟!^(٣)

فقد سمّاها الله بالأسماء التي تقدّم ذكرنا لها^(٤) تسمية مطلقة لا خصوص فيها، فإذا قيل للجنة: «دار الخلد» لم يَجْزُ أن يُنْقَضَ مسمّى هذا الاسم بحال.

(١) في (ت، ن) ههنا زيادة: «وقد جاء في الأخبار أنها ليست جنة الخلد». والسياق يأبأها.

(٢) لم أقف على شيء منها. لكن وردت آثار عن جماعة من الصحابة والتابعين في أن الهند هي الموضع الذي أُهبط آدم إليه من الأرض، ولعلها من أخبار أهل الكتاب. انظر: «مستدرك الحاكم» (٥٤٢/٢)، و«مصنف عبد الرزاق» (٩٣/٥)، (١١٦)، و«تاريخ الطبري» (١٢١/١)، و«الدر المنثور» (٥٥/١).

وروي في ذلك شيء مرفوع، لكنه لم يثبت. انظر: «تاريخ دمشق» (٤٣٧/٧)، و«كنز العمال» (٣٥٨/٢)، و«السلسلة الضعيفة» (٤٠٣).

(٣) كذا قرأتُ الجملة الأخيرة. ويحتمل أن تكون متعلّقة بما بعدها.

(٤) وهي: «دار الخلود» و«دار السلام» و«دار القرار» و«مقعد صدق».

فهذا بعض ما أحتج به القائلون بهذا المذهب.

وعلى هذا، فإسكان آدم وذريته في هذه الجنة لا ينافي كونهم في دار الابتلاء والامتحان، وحيثئذ فكانت^(١) تلك الوجوه والفوائد التي ذكرتموها ممكنة الحصول في الجنة.

فالجواب أن يقال: هذا فيه قولان للناس، ونحن نذكر القولين، واحتجاج الفريقين، ونبين ثبوت الوجوه التي ذكرناها وأمثالها على كلا القولين.

ونذكر أولاً قول من قال: إنها جنة الخلد التي وعدّها الله المتقين، وما احتجوا به، وما نقضوا به حجج من قال: إنها غيرها، ثم نتبعه مقالة الآخرين وما احتجوا به، وما أجابوا به عن حجج منازعيهم، من غير انتصاب لنصرة أحد القولين وإبطال الآخر؛ إذ ليس غرضنا ذلك، وإنما الغرض ذكر بعض الحكم والمصالح المقتضية لإخراج آدم من الجنة، وإسكانه في الأرض في دار الابتلاء والامتحان.

وكان الغرض بذلك الردّ على من زعم أن حكمة الله سبحانه تأبى إدخال آدم الجنة وتعريضه للذنب الذي أُخرج منها به، وأنه أي فائدة في ذلك، والردّ على من أبطل أن يكون له في ذلك حكمة، وإنما هو صادر عن محض المشيئة التي لا حكمة وراءها.

ولما كان المقصود حاصلًا على كل تقدير - سواء كانت جنة الخلد أو غيرها - بنينا الكلام على التقديرين، ورأينا أن الردّ على هؤلاء بدبوس

(١) (ق، ن): «كانت».

الشَّلَاق^(١) لا يحصلُ غرضًا^(٢) ولا يزيلُ مرضًا، فسلكنَا هذا السَّبِيلَ ليكون قولهم مردودًا على كُلِّ قولٍ من أقوال الأئمة^(٣)، والله المستعان، وعليه التَّكْلَان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فنقول: أما ما ذكرتموه من كون الجنة التي أُهبطَ منها آدمُ ليست جنة الخلد، وإنما هي جنةٌ غيرها، فهذا مما قد اختلف فيه الناس^(٤)، والأشهر عند الخاصَّة والعامة الذي لا يخطرُ بقلوبهم سواه أنها جنة الخلد التي أُعدَّت للمتقين، وقد نصَّ غيرُ واحدٍ من السَّلف على ذلك.

(١) سيأتي تفسيره (ص: ١٠٣٥).

(٢) (ق): «يحصل غرضًا»، بالإثبات. والصواب المثبت.

(٣) (ق): «الأئمة».

(٤) انظر: «حادي الأرواح» (٤٥ - ٩٠)، و«البداية والنهاية» (١/ ١٧٥ - ١٨٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٥٥٨)، و«تأويلات أهل السنة» للماتريدي (١/ ١٠٦)، و«حقائق التأويل» للشريف الرضي (٢٤٦)، و«أعلام النبوة» للماوردي (٥٤)، و«مفاتيح الأسرار» للشهرستاني (١/ ٢٨٢، ٢٨٧)، و«البيان» للطوسي (١/ ١٣٥، ١٥٦، ٣٦٧/ ٤)، و«تفسير القرطبي» (١/ ٣٠٢)، و«البحر المحيط» (١/ ١٥٦)، و«روح المعاني» (١/ ٢٣٤)، و«التحرير والتنوير» (١/ ٤٣٠)، و«تفسير المنار» (١/ ٢٧٧)، و«محاسن التأويل» (٢/ ١١١)، و«إكمال المعلم» (٦/ ٣٠٦، ٨/ ١٣٨)، و«فتح الباري» (١١/ ٥٢٠)، و«التيجان» لابن هشام (١٨)، و«شمس العلوم» لنشوان (٦٨٥٩)، و«البدء والتاريخ» (٢/ ٨٤)، و«اللمعة البيضاء» للتبريزي (٤٢٢)، وفي حاشية الأخير مواضع المسألة في كتب الشيعة. وانظر المصادر الآتية في التعليقات. وهو خلافٌ ينبغي فصله والخروجُ منه، كما قال ابن كثير، وإن لم تكن المسألة من أصول العلم.

واحتجَّ من نصر هذا بما رواه مسلمٌ في «صحيحه»^(١) من حديث أبي مالك الأشجعيّ، عن أبي حازم، عن أبي هريرة. وأبي مالك عن ربّعيّ بن جرّاش، عن حذيفة، قالاً: قال رسول الله ﷺ: «يجمعُ الله عز وجل الناس، فيقومُ المؤمنون حتى تُزَلَفَ لهم الجنة، فيأتون آدمَ عليه السلام، فيقولون: يا أبانا أَسْتَفْتِحْ لَنَا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئةُ أبيكم آدم؟...» وذكر الحديث.

قالوا: فهذا يدلُّ على أن الجنة التي أُخْرِجَ منها آدمُ هي بعينها التي يُطلبُ منه أن يستفتحها لهم.

قالوا: ويدلُّ عليه أن الله سبحانه قال: ﴿يَتَّخِذُ مَكَانَهُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ إلى قوله: ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، فهذا يدلُّ على أن هبوطهم^(٢) كان من الجنة إلى الأرض، من وجهين: أحدهما: من لفظ قوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾، فإنَّ الهبوطَ نزولٌ من علٍّ إلى سُفْلٍ^(٣).

والثاني: قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ عقيب قوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾، فدلَّ على أنهم لم يكونوا أولاً في الأرض.

وأيضاً؛ فإنه سبحانه وصف الجنة التي أَسْكَنَهَا آدمُ بصفاتٍ لا تكونُ في الجنة الدنيوية، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ

(١) (١٩٥).

(٢) (ق): «هبوطه».

(٣) (ق، ن): «سفل». (ح): «أسفل».

فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴿ طه: ١١٨ - ١١٩ ﴾، وهذا لا يكونُ في الدنيا أصلاً، ولو كان الرجلُ في أطيب منازلها فلا بدَّ أن يَعْرِضَ له الجوعُ والظَّمْأُ والعُزْيُ^(١) والضَّحْيُ للشمس.

وأيضاً؛ فإنها لو كانت الجنةُ في الدنيا لَعَلِمَ آدمُ كذبَ إبليس في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾؛ فَإِنَّ آدمَ كان يعلمُ أَنَّ الدنيا منقضيةٌ فانية، وَأَنَّ مُلْكَهَا يَبْلَى.

وأيضاً؛ فَإِنَّ قِصَّةَ آدمَ في «البقرة» ظاهرةٌ جداً في أَنَّ الجنةَ التي أُخْرِجَ منها فوق السَّمَاءِ؛ فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِئَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٥﴾ وَقُلْنَا يَتَّادِمُ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿البقرة: ٣٤ - ٣٧﴾، فهذا إهباطُ آدمَ وحواءَ وإبليسَ من الجنة، ولهذا أتى فيه بضمير الجمع^(٢).

وقيل: إنه خطابٌ لهم^(٣) وللحيَّة. وهذا يحتاجُ إلى نقلٍ ثابت؛ إذ لا ذكر للحيَّة في شيءٍ من قِصَّةِ آدمَ وإبليس.

وقيل: خطابٌ لآدمَ وحواءَ، وأتى فيه بلفظ الجمع؛ كقوله تعالى:

(١) (ق): «والتعري».

(٢) (د، ت): «بصيغة الجمع».

(٣) (ت): «لآدمَ وحواء».

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

وقيل: لآدم وحواء وذريتهما.

وهذه الأقوال ضعيفةٌ غير الأولى؛ لأنها بين قولٍ لا دليل عليه، وبين ما يدلُّ ظاهرُ الخطاب على خلافه؛ فثبت أنَّ إبليس داخلٌ في هذا الخطاب، وأنه من المُهَبَّطِينَ من الجنة.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وهذا الإهباطُ الثاني لا بدَّ أن يكون غيرَ الأوَّل، وهو إهباطٌ من السماء إلى الأرض؛ وحيثُ قد فتكون الجنة التي أُهبطوا منها أوَّلًا فوق السماء، وهي جنةُ الخلد.

وقد ذهبت طائفةٌ — منهم الزمخشريُّ — إلى أنَّ قوله: ﴿أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ خطابٌ لآدم وحواء خاصَّة، وعبرَ عنهما بالجمع لاستتباعهما ذريَّاتهما^(١).

قال: «والدليل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾».

قال: «ويدلُّ على ذلك قوله: ﴿فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨ - ٣٩]، وما هو إلا حكمٌ يعمُّ الناسَ كلَّهم، ومعنى ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

(١) (ح، ن): «ذريتهما».

عَدُوٌّ ﴿ ما عليه الناسُ من التعادي والتباغض وتضليل بعضهم لبعض ﴾^(١).

وهذا الذي اختاره أضعفُ الأقوال في الآية؛ فإنَّ العداوةَ التي ذكرها الله في كتابه^(٢) إنما هي بين آدم وإبليس وذريتهما، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦]^(٣)، وأما آدمُ وزوجهُ فإنَّ الله سبحانه أخبر في كتابه أنه خلقها منه لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١]، فهو سبحانه جعل المودةَ بين الرجل وزوجه، وجعل العداوةَ بين آدم وإبليس وذريتهما.

ويدلُّ عليه - أيضًا - عَوْدُ الضَّمِيرِ إِلَيْهِمْ بلفظ الجمع، وقد تقدَّم ذكرُ آدم وزوجه وإبليس في قوله: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾، فهؤلاء ثلاثة: آدم، وزوجه، وإبليس؛ فلماذا يعودُ الضميرُ على بعض المذكور^(٤) مع منافرتِه لطريق الكلام، ولا يعودُ على جميع المذكور مع أنه وَجْهُ الكلام؟!

فإن قيل: فما تصنعون بقوله في سورة طه: ﴿ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾، وهذا خطابٌ لآدم وحواء، وقد أخبر بعداوة بعضهم بعضًا؟

(١) «الكشاف» (١/١٢٨).

(٢) «في كتابه» من (ت) فقط.

(٣) في (ق) هنا زيادة: «ولا عدو» ولا معنى لها.

(٤) (ت): «المذكورين». وضرب على الياء والنون في (د).

قيل: إما أن يكون الضميرُ في قوله: ﴿أَهْبِطَا﴾ راجعاً إلى آدمَ وزوجِهِ، أو يكون راجعاً إلى آدم وإبليس، ولم يذكر الزوجةَ لأنها تَبَعَ له. وعلى الثاني؛ فالعداوةُ المذكورةُ للمخاطبين بالإهباط، وهما آدم وإبليس.

وعلى الأول؛ تكون الآيةُ قد اشتملت على أمرين: أحدهما: أمرُه لآدمَ وزوجِهِ بالهبوط.

والثاني: جعلُ العداوةِ بين آدمَ وزوجِهِ وإبليس. ولا بدَّ أن يكون إبليس داخلاً في حكم هذه العداوة قطعاً، كما قال تعالى له (١): ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]، وقال لذريته: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وتأمل كيف اتفقت المواضعُ التي فيها العداوةُ على ضمير الجمع دون التثنية، وأما ذكرُ الإهباط فتارةً يأتي بلفظ ضمير الجمع، وتارةً بلفظ التثنية، وتارةً يأتي بلفظ الأفراد لإبليس وحده، كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ۝١٢﴾ قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، فهذا الإهباطُ لإبليس وحده، والضميرُ في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ قيل: إنه عائدٌ إلى الجنة. وقيل: عائدٌ إلى السماء. وحيث أتى (٢) بصيغة الجمع، كان لآدمَ وزوجِهِ وإبليس؛ إذ مدارُ القصة عليهم.

(١) أي: لآدم. وسقطت «له» من (ق).

(٢) أي: الضمير في ذكر الإهباط.

وحيثُ أتى بلفظ التثنية، فإمّا أن يكون لآدمَ وزوجَه - إذ هما اللذان
باشرا الأكلَ من الشجرة وأقدا على المعصية -، وإمّا أن يكون لآدمَ وإبليس
- إذ هما أبوا الثقلين -، فذكر حالهما وما آل إليه أمرهما؛ ليكون عظةً وعبرةً
لأولادهما. والقولان محكيّان في ذلك.

وحيثُ أتى بلفظ الإفراد، فهو لإبليس وحده.

وأيضًا؛ فالذي يوضح أنّ الضمير في قوله: ﴿أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ لآدمَ
وإبليس: أنّ الله سبحانه لمّا ذكر المعصية أفردَ بها آدمَ دون زوجَه، فقال:
﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَى﴾ (١١١) ثُمَّ أَجْبَنَهُ رَبُّهُ، فَثَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١١٢) قَالَ أَهْبِطَا
مِنْهَا جَمِيعًا﴾، وهذا يدلُّ على أنّ المخاطَبَ بالإهباط هو آدمُ ومن زَيْنَ له
المعصية، ودخلت الزوجة تبعًا.

وهذا لأنّ المقصودَ إخبارَ الله تعالى لعباده المكلفين من الجنّ والإنس
بما جرى على أبيهما من شُوم المعصية ومخالفة الأمر؛ لئلا يقتدوا بهما في
ذلك؛ فذكرُ أبوي الثقلين أبلغ في حصول هذا المعنى من ذكر أبوي الإنس
فقط.

وقد أخبرَ الله سبحانه عن الزوجة أنها أكلت مع آدم، وأخبر أنه أهبطه
وأخرجه (١) من الجنة بتلك الأكلة؛ فعلم أنّ هذا اقتضاء حكم الزوجة، وأنها
صارت إلى ما صار إليه آدم؛ فكان تجريدُ العناية إلى ذكر حال الأبوين
اللذين هما أصلُ الذرية أولى من تجريدها إلى ذكر أبي الإنس وأمّهم، والله
أعلم.

(١) (ح): «أهبطها وأخرجها».

وبالجملة؛ فقولُه: ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ ظاهرٌ في الجمع، فلا يسوغُ حملُه على الاثنين في قوله: ﴿أَهْبِطَا﴾.

قالوا: وأمّا قولكم: إنه كيف وسوسَ لهما بعد إهباطه من الجنة؟ ومحالٌ أن يصعدَ إليها بعد قوله تعالى له: ﴿أَهْبِطْ مِنْهَا﴾.

فجوابُه من وجوه (١):

أحدها: أنه أُخْرِجَ منها ومُنِعَ من دخولها على وجه السُّكنى والكرامة واتخاذها داراً، فمن أين لكم أنه مُنِعَ من دخولها على وجه الابتلاء والامتحان لآدمَ وزوجِه؟! ويكونُ هذا دخولاً عارضاً كما يدخل الشرطُ دارَ من أمرِوا بابتلائه ومحتته، وإن لم يكونوا أهلاً لسكنى تلك الدار.

الثاني: أنه كان يدنو من السماء فيكلّمُهما ولا يدخلُ عليهما دارَهما.

الثالث: أنه لعله قام على الباب فناداهما وقاسمَهما ولم يَلِج الجنة.

الرابع: أنه قد رُوي أنه أراد الدخولَ عليهما، فمنعته الخزنة، فدخل في فم الحية حتى دخلت به عليهما، ولا يشعرُ الخزنةُ بذلك (٢).

قالوا: ومما يدلُّ على أنها جنّة الخلد بعينها أنها جاءت مُعرّفةً بلام التعريف في جميع المواضع، كقوله: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، ولا جنّة يعهدُها المخاطبون ويعرفونها إلا جنّة الخلد التي وَعَدَ الرحمنُ عباده

(١) هذا جواب الزمخشري في «الكشاف» (١/١٢٨).

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير» (١/٢٢٧) عن ابن عباس وابن مسعود من وجهٍ لا يثبت. وانظر تعليق الطبري على ما تضمنته هذه الرواية في (١/٥٣٢).

بالغيب، فقد صار هذا الاسم عَلَمًا عليها بالغلبة، وإن كان في أصل
الوضع^(١) عبارة عن البستان ذي الثمار والفواكه، وهذا كالمدينة لـ «طيبة»
والنجم لـ «الثريا»، ونظائرها.

فحيثُ ورد اللفظُ معرّفًا بالألف واللام أنصرف إلى الجنة المعهودة
المعلومة في قلوب المؤمنين، وأما إن أريد به جنةٌ غيرها فإنها تجيء منكرة،
كقوله: ﴿جَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَبٍ﴾ [الكهف: ٣٢]، أو مقيدةً بالإضافة، كقوله: ﴿وَلَوْلَا
إِذْ خَلَتَ جَنَّاتُكَ﴾ [الكهف: ٣٩]، أو مقيدةً من السياق بما يدلُّ على أنها جنةٌ في
الأرض، كقوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم:
١٧] الآيات؛ فهذا السياق والتقييد يدلُّ على أنها بستانٌ في الأرض.

قالوا: وأيضًا؛ فإنه قد اتفق أهلُ السنة والجماعة على أن الجنة والنار
مخلوقتان، وقد تواترت الأحاديثُ عن النبي ﷺ بذلك، كما في
«الصحيحين» عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا
مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ
الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ
اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال:
«أَخْتَصِمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا ضَعْفَاءُ النَّاسِ
وَسَقَطُهُمْ؟ وَقَالَتِ النَّارُ: مَا لِي لَا يَدْخُلُنِي إِلَّا الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ؟ فَقَالَ

(١) (ت): «في نفس الأمر».

(٢) «صحيح البخاري» (١٣٧٩)، و«صحيح مسلم» (٢٨٦٦).

للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء، وقال للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشياء» الحديث^(١).

وفي «السنن» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال: أذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها. قال: فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها...» الحديث^(٢).

وفي «الصحيحين»^(٣) في حديث الإسراء: «ثُمَّ رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فَإِذَا وَرْقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْقُيُولِ، وَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجْرٍ، وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، وَنَهْرَانِ بَاطِنَانِ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا جَبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا النَّهْرَانِ الظَّاهِرَانِ فَالنَّيْلُ وَالْفَرَاتُ، وَأَمَّا الْبَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الْجَنَّةِ».

وفيه أيضًا: «ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا جَنَابُذُ اللَّوْلُو^(٤)، وَإِذَا تَرَابُهَا الْمَسْكُ^(٥)».

وفي «صحيح البخاري»^(٦) عن أنس عن النبي ﷺ قال: «بينا أنا أسيرُ في الجنة إذا أنا بنهرٍ حافتاه قِبابُ الدَّرِّ الْمُجَوَّفِ، قال: قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثرُ الذي أعطاك ربُّك. فضرب المَلَكُ بيده فإذا طينه

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٥٠)، و«صحيح مسلم» (٢٨٤٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠)، والنسائي (٣٧٧٢)، وصححه الترمذي، وابن حبان (٧٣٩٤)، والحاكم (٢٦/١) ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) «البخاري» (٣٢٠٧)، و«مسلم» (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة.

(٤) جمع جُنْبُذَةٍ. وهي القَبَّة. «النهاية» (٣٠٥/١).

(٥) «البخاري» (٣٤٩)، و«مسلم» (١٦٣) من حديث أبي ذر.

(٦) (٦٥٨١).

مِسْكٌ أَذْفَرُ».

وفي «صحيح مسلم»^(١) في حديث صلاة الكسوف أَنَّ النبي ﷺ جعل يتقدَّم ويتأخَّرُ في الصلاة، ثم أقبل على أصحابه، فقال: «إِنَّهُ عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقُرِبَتْ مِنِّي الْجَنَّةُ حَتَّى لَوْ تَنَاوَلْتُ مِنْهَا قِطْفًا لَأَخَذْتُهُ، فَلَوْ أَخَذْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيََتِ الدُّنْيَا».

وفي «صحيح مسلم»^(٢) عن ابن مسعودٍ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]: أَنَّ «أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضِرَ، لَهَا قَنَادِيلُ مَعْلَقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ أَطْلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: أَيُّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا؟...! الحديث.

وفي الصحيح^(٣) من حديث ابن عباس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَمَّا أَصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأَحَدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضِرَ تَرِدُ أَنْهَارَ

(١) (٩٠١، ٩٠٤، ٩٠٧) بنحوه. وورد الحديث في (ت، ق) مختصراً.

(٢) (١٨٨٧). والظاهر أنه من كلام النبي ﷺ، ولم يصرح بذلك ابن مسعود لظهور العلم به وأن الوهم لا يذهب إلى سواه، ثم لشدة احتياطه وتحريه في رفع الحديث. انظر: «شرح مسلم» للنسوي (٧/ ٣٤)، و«تهذيب سنن أبي داود» للمصنف (٧/ ١٤٠)، و«المغني عن حمل الأسفار» للعراقي (٢/ ٢٥٥).

وقال المزي في «تحفة الأشراف» (٧/ ١٤٥): «موقوف».

(٣) (ت): «الصحيحين». ولم أقف على الحديث فيها. وقد استدركه الحاكم كما سيأتي. فلعل المصنف أراد صحة الحديث فحسب.

الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهبٍ معلقة في ظلّ العرش، فلما وجدوا طيبَ مأكلهم ومشربهم ومَقِيلهم، قالوا: من يُبَلِّغُ عَنَّا إِخْوَانَنَا أَنَّا فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ؛ لئلا يزهّدوا في الجهاد، ولا يَنكُلوْا عن الحرب؟ فقال الله: أنا أبَلِّغُهم عنكم؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا﴾ الآية (١).

وفي «الموطأ» (٢) من حديث كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَغْلُقُ فِي الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجَعَ اللَّهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ».

وفي «البخاري» (٣) أن إبراهيم ابن رسول الله ﷺ لما توفّي قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لَهُ مُرْضَعًا فِي الْجَنَّةِ».

وفي «صحيح البخاري» (٤) عن عمران بن حصين، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَطْلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَأَطْلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ».

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٢٠)، وأحمد (٢٦٦/١)، وغيرهما.

وصححه الحاكم (٨٨/٢) على شرط مسلم ولم يتعقبه الذهبي، وخرّجه الضياء في «المختارة» (٣٤٩/١٠). وحديث ابن مسعود السابق يشهد له.

(٢) (٣٢٨/١)، ومن طريقه أحمد (٤٥٥/٣)، والنسائي (٢٠٧٢)، وغيرهما بإسناد صحيح. وصححه ابن حبان (٤٦٥٧).

وانظر: «تفسير ابن كثير» (٨٠٨/٢، ٣٤١٤/٧).

(٣) (١٣٨٢).

(٤) (٣٢٤١).

والآثارُ في هذا الباب أكثر من أن تُذكَر^(١).

وأما القول بأنَّ الجنة والنار لم تخلقا بعد، فهو قول أهل البدع من ضلال المعتزلة ومن قال بقولهم^(٢)، وهم الذين يقولون: إنّ الجنة التي أُهبطَ منها آدم إنما كانت جنةً بشريّ^(٣) الأرض. وهذه الأحاديثُ وأمثالها تردُّ قولهم.

قالوا: وأما احتجاجكم بسائر الوجوه التي ذكرتموها في الجنة، وأنها منتفية في الجنة التي أُسكنها آدم، من اللغو والكذب، والنصب والعري، وغير ذلك؛ فهذا كله حقٌّ، لا نكره نحن ولا أحدٌ من أهل الإسلام؛ ولكن هذا إنما هو إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة، كما يدلُّ عليه سياقُ الكلام، وهذا لا ينفي أن يكون فيها بين آدم وإبليس ما حكاه الله عز وجل من الامتحان والابتلاء، ثم^(٤) يصيرُ الأمرُ عند دخول المؤمنين إليها إلى ما أخبر الله عز وجل به؛ فلا تنافي بين الأمرين.

قالوا: وأما قولكم: إنّ الجنة دارُ جزاءٍ وثواب، وليست دار تكليف، وقد كلف الله سبحانه آدم فيها بالنهي عن الشجرة.
فجوابه من وجهين:

(١) انظر: «حادي الأرواح» (٣٣ - ٤٥)، و«التيجان» لابن هشام (٢٠)، و«نظم المتناثر» للكتاني (٢٣٢).

(٢) انظر: «أوائل المقالات» للمفيد (١٢٤، ٢٢٠)، و«حقائق التأويل» للشريف الرضي (٢٤٥)، و«الفصل» (٤ / ١٤١)، و«الانتصار» للعمراني (٦٥٩).

(٣) مهملة في (د). وفي (ت، ق): «تسير في».

(٤) (ت): «حتى».

أحدهما: أنها إنما يمتنع أن تكون دار تكليف إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة، فحينئذ ينقطع التكليف، وأما امتناع وقوع التكليف فيها في دار الدنيا فلا دليل عليه.

الثاني: أن التكليف فيها لم يكن بالأعمال التي يكلف بها الناس في الدنيا، من الصيام والصلاة والجهاد ونحوها، وإنما كان حَجْرًا عليه في شجرة من جملة أشجارها^(١)، وهذا لا يمتنع وقوعه في جنة الخلد، كما أن كل أحد محجور عليه أن يقرب أهل غيره فيها.

فإن أردتم بأن الجنة ليست دار تكليف امتناع وقوع مثل هذا فيها في وقت من الأوقات فلا دليل لكم عليه، وإن أردتم أن غالب التكليف التي تكون في الدنيا منتفية فيها فهو حق ولكن لا يدل على مطلوبكم.

قالوا: وهذا كما أنه موجب الأدلة، فهو قول^(٢) سلف الأمة، فلا نعرف^(٣) بقولكم قائلًا من أئمة العلم، ولا يعرج عليه، ولا يلتفت إليه.

وقال الأولون: الجواب عما ذكرتم من وجهين؛ مجمل ومفصل:

أما المجمل: فإنكم لم تأتوا على قولكم بدليل يتعين المصير إليه، لا من قرآن، ولا من سنة، ولا من أثر ثابت عن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا التابعين، لا مسندًا ولا مقطوعًا.

ونحن نوجدكم من قال بقولنا:

(١) (ت): «من بعض جملة أشجارها».

(٢) في الأصول: «وقول»، والمثبت أشبه بالسياق.

(٣) (ق، د، ح، ن): «يعرف».

هذا أحد أئمة الإسلام سفيان بن عيينة، قال في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ قال: «يعني في الأرض»^(١).

وهذا عبد الله بن مسلم بن قتيبة، قال في «معارفه»^(٢) - بعد أن ذكر خلق الله لآدم وزوجه -: «إِنَّ الله سبحانه أخرجهم من مشرق جنة عدن إلى الأرض التي منها أُخِذَ».

وهذا أبيّ قد حكى الحسنُ عنه أَنَّ آدم لما أَحْتَضَرَ أَشْتَهَى قِطْفًا مِنْ قِطْفِ الْجَنَّةِ، فَانْطَلَقَ بَنُوهُ لِيَطْلُبُوهُ لَهُ، فَلَقِيَتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، فَقَالُوا: أَيْنَ تَرِيدُونَ يَا بَنِي آدَمَ؟ قَالُوا: إِنَّ أَبَانَا أَشْتَهَى قِطْفًا مِنْ قِطْفِ الْجَنَّةِ، فَقَالُوا لَهُمْ: ارْجِعُوا فَقَدْ كُفِّتُمُوهُ، فَاثْنَوْا إِلَيْهِ، فَقَبِضُوا رُوحَهُ، وَغَسَّلُوهُ، وَحَنَطُوهُ، وَكَفَّنُوهُ، وَصَلَّيْ عَلَيْهِ جَبْرِيلُ وَبَنُوهُ خَلْفَ الْمَلَائِكَةِ، وَدَفَنُوهُ، وَقَالُوا: هَذِهِ سَتَّكُمْ فِي مَوْتَاكُمْ^(٣).

(١) ذكره في «حادي الأرواح» (٥٢)، ولم أقف عليه مسندًا.

(٢) (١٤)، إلا أن هذا ليس قول ابن قتيبة، وإنما هو من فصلٍ طويلٍ نقله من التوراة، صرح بذلك في فاتحة كلامه وخاتمة؛ فلا تصحُّ نسبته إليه. وانظر: (سفر التكوين: الإصحاح الثاني: ٨ - ٢٢).

(٣) أخرجه الطيالسي (٥٥١)، وعبد الله بن أحمد في زوائد «المسند» (١٣٦/٥)، وابن المنذر في «الأوسط» (٣٧٠/٥)، وغيرهم.

وفي إسناده اختلافٌ كثير، في رفعه ووقفه، ووصله وانقطاعه.

وصححه مرفوعًا للحاكم (١/٣٤٤، ٢/٥٤٥) ولم يتعقبه الذهبي، وخرَّجه الضياء في «المختارة» (١٢٥١).

وقال ابن كثير في «التفسير» (٣/١٤١٥): «الموقوف أصحُّ إسنادًا»، وقال في (٥/٢٢٩٨): «وفي رفعه نظر».

وهذا أبو صالح قد نقل عن ابن عباس في قوله: ﴿أَهْبِطُوا مِنْهَا﴾، قال: «هو كما يقال: هَبَطَ فلانٌ في أرض كذا وكذا»^(١).

وهذا وهب بن منبه يذكر أن آدم خُلِقَ في الأرض، وفيها سَكَنَ، وفيها نُصِبَ له الفردوس، وأنه كان بَعْدَنَ، وأن سَيِّحُونَ وَجَيْحُونَ والفرات أنقسمت من النهر الذي كان في وسط الجنة، وهو الذي كان يسقيها^(٢).

وهذا منذر بن سعيد البلوطي، اختاره في «تفسيره»، ونصره بما حكيناه عنه، وحكاه في غير التفسير^(٣) عن أبي حنيفة رضي الله عنه ومن قال بقوله، والذين ردُّوا عليه مقالته لم يُنكِروا نسبته إلى أبي حنيفة، وإنما ناقضوه بكونه خالف أبا حنيفة فيما خالفه فيه، فلم قال بقوله في هذه المسألة!؟

وهذا أبو مسلم الأصبهانيُّ صاحبُ «التفسير» وغيره، أحدُ الفضلاء المشهورين، قال بهذا وانتصر له واحتجَّ عليه بما هو معروف في كتابه.

وهذا أبو محمَّد عبد الحق بن عطية ذكر القولين في «تفسيره»^(٤) في قصَّة آدم في البقرة.

= وانظر: «التهذيب» (١/٢٣٢).

وانظر تخريجه موسَّعاً في «المرسل الخفي» لشيخنا الشريف العوني (٢/٦٠٣ - ٦٢٩)، وخلص إلى صحَّته مرفوعاً.

(١) «تفسير غريب القرآن» لابن قتيبة (٤٦).

(٢) لم أقف عليه. ونقل وهب عن كتب بني إسرائيل معلوم. وانظر ما تقدم قبل قليل في التعليق على كلام ابن قتيبة.

(٣) ذكر ابن كثير في «البداية» (١/١٧٦) أن له مصنفاً مفرداً في هذه المسألة.

(٤) (١/٢٤٩ - ٢٥٠).

وهذا أبو محمّد ابن حزم ذكر القولين في كتاب «الملل والنحل» له^(١)، فقال: «وكان المنذر بن سعيد القاضي يذهب إلى أن الجنة والنار مخلوقتان^(٢)، إلا أنه كان يقول: إنها ليست هي التي كان فيها آدم وامرأته». وممن حكى القولين أيضًا: أبو عيسى الرّمّاني^(٣) في «تفسيره»، واختار أنها جنة الخلد.

ثم قال: «والمذهب الذي اخترناه: قول الحسن، وعمرو، وواصل^(٤)، وأكثر أصحابنا، وهو قول أبي عليّ، وشيخنا أبي بكر، وعليه أهل التفسير».

(١) (١٤٢/٤ - ١٤٣). وقد أورد حجج المنذر بن سعيد وناقشها، وختم البحث بقوله: «فصح أنها لم تكن في الأرض البتة».

(٢) كذا نقل عنه ابن حزم. وحكى عنه ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٢٥) أنه يقول بأن الجنة لم تخلق بعد، وكذلك النار. وابن حزم أبصر به وأعرف، وفي نقله عنه دلائل الضبط، وأخشى أن يكون ابن عطية بنى إحدى المسألتين على الأخرى، وليس بينهما تلازم، كما سيبينه المصنف فيما يأتي (ص: ٦٨).

(٣) كذا وقعت كنيته في الأصول، و«حادي الأرواح» (١٩)، وعنهما في «البداية والنهاية» (١/ ١٧٦).

وهو أبو الحسن الرّمّاني علي بن عيسى (ت: ٣٨٤) النحوي المعتزلي. ترجمته في «إنباه الرواة» (٢/ ٢٩٤)، و«السير» (١٦/ ٥٣٣).

وقد عُثِرَ على أجزاء من تفسيره، ولم تطبع بعد. وشيخه أبو بكر هو ابن الإخشيد، وأبو علي هو الجبائي، وهو كثير النقل عنهما.

(٤) في الأصول: «وعمر بن واصل»، تحريف. عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء. وانظر: «التيان» للطوسي (١/ ١٥٦).

وممن ذكر القولين: أبو القاسم الراغب^(١) في «تفسيره»^(٢)، فقال: «واختلف في الجنة التي أُسْكِنَهَا آدَمُ، فقال بعض المتكلمين: كان بستاناً جعله الله تعالى له امتحاناً، ولم يكن جنة المأوى».

ثمَّ قال: «ومن قال: لم تكن جنة الخلد»^(٣)؛ لأنه لا تكليف في الجنة، وآدَمُ كان مكلفاً».

قال: «وقد قيل في جوابه: إنما»^(٤) لا تكون دار تكليف^(٥) في الآخرة، ولا يمتنع أن تكون في وقت دار تكليف دون وقت، كما أن الإنسان يكون في وقت مكلفاً دون وقت».

وممن ذكر الخلاف في المسألة: أبو عبد الله ابن الخطيب الرازي في «تفسيره»^(٦)، فذكر هذين القولين، وقولاً ثالثاً — وهو التوقف —، قال: «لإمكان الجميع وعدم الوصول إلى القطع»، كما سيأتي حكاية كلامه.

ومن المفسرين من لم يذكر غير هذا القول، وهو أنها لم تكن جنة الخلد، إنما كانت حيث شاء الله من الأرض.

قالوا: وكانت تطلع فيها الشمس والقمر، وكان إبليس فيها ثم أُخرج.

(١) الأصبهاني، المتكلم (ت: ٤٢٥ تقريباً). انظر: «السير» (١٨ / ١٢٠).

(٢) (ق ٤٠ / أ).

(٣) (ت، ق): «المأوى».

(٤) (ق، ح): «إنها».

(٥) (ن، د، ق، ح): «التكليف».

(٦) (٣ / ٤ - ٤).

قال^(١): ولو كانت جنة الخلد لما أُخْرِجَ منها.

وممن ذكر القولين - أيضًا -: أبو الحسن الماوردي، فقال في «تفسيره»^(٢):

«واخْتَلَفَ في الجنة التي أُسْكِنَها»^(٣) على قولين:

أحدهما: أنها جنة الخلد.

الثاني: أنها جنة أعدَّها الله لهما، وجعلها دارَ ابتلاء، وليست جنة الخلد التي جعلها الله دارَ جزاء.

ومن قال بهذا اختلفوا فيه على قولين:

أحدهما: أنها في السماء؛ لأنه أهبطهما منها. وهذا قول الحسن.

الثاني: أنها في الأرض؛ لأنه أمتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نُهيَا عنها دون غيرها من الثمار. وهذا قول ابن بحر^(٤).

(١) كذا في الأصول.

(٢) (١/١٠٤، ٢/٢٠٨، ٣/٢٠٩). وسقط من مطبوعته ذكر الخلاف الثاني.

والماورديُّ يحكي في كتابه كثيرًا أقوال المعتزلة دون تعقُّب، ويوافقهم في بعضها، ومن هنا اتهمه ابن الصلاح بالاعتزال، وحذَّر من تفسيره، وتبعه الذهبي، ودافع عنه ابن حجر بأن المسائل التي وافق اجتهدَّه فيها مقالاتِ المعتزلة معروفةٌ معدودة، ولا ينبغي أن يطلق عليه بها اسم الاعتزال.

انظر: «طبقات الشافعية» لابن الصلاح (٢/٦٣٨)، و«الميزان» (٣/١٥٥)، و«لسان الميزان» (٤/٢٦٠)، و«إرشاد الأريب» (١٩٥٥).

(٣) (ت، ح): «أُسْكِنَها».

(٤) في الأصول، ومعظم نسخ «البداية والنهاية» (١/١٧٧): «ابن يحيى». وفي نسخة من «البداية والنهاية»: «ابن جبير». وكله تحريف. ووقع على الصواب في «حادي =

وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسُّجود لآدم. والله أعلم بصواب ذلك». هذا كلامه.

وقال أبْنُ الخطيب في «تفسيره»^(١): «أختلفوا في أنَّ الجنة المذكورة في هذه الآية: هل كانت في الأرض أو في السماء؟ وبتقدير أنها كانت في السماء، فهل هي الجنة التي هي دارُ الثواب وجنةُ الخلد أو جنةُ أخرى؟

فقال أبو القاسم البلخي^(٢) وأبو مسلم الأصبهاني: هذه الجنة في الأرض. وحملوا الإهباطَ على الانتقال من بقعةٍ إلى بقعةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾.

القول الثاني - وهو قولُ الجُبَّائي -: أنَّ تلك الأرض كانت في السماء السابعة.

قال: «والدليلُ عليه قوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾. ثُمَّ إِنَّ الإهباطَ الأول كان من السماء السابعة إلى السماء الأولى، والإهباطُ الثاني كان من السماء إلى الأرض».

قال: «والقولُ الثالث - وهو قول جمهور أصحابنا -: أنَّ هذه الجنة هي

= الأرواح» (٤٨).

وهو أبو مسلم الأصبهاني، محمد بن بحر (تقدمت ترجمته)، مشهورٌ بهذه النسبة، ويذكره بها كثيرًا الماورديُّ في تفسيره (انظر: ٢/ ٢٠٤، ٤٥٠، ٨٣/ ٤، ٢١٣، وغيرها)، وابنُ الجوزي في «زاد المسير»، والقرطبي، وغيرهم.

(١) (٣/ ٣).

(٢) عبد الله بن أحمد بن محمود (ت: ٣١٩)، من متكلمي المعتزلة البغداديين، وله تصانيف. انظر: «طبقات المعتزلة» (٨٨)، و«السير» (١٤/ ٣١٣).

دارُ الثواب. والدليلُ عليه: أنَّ الألفَ واللامَ في لفظ «الجنة» لا يفيدُ العموم؛ لأنَّ سُكْنَى آدَمَ جميعَ الجنانِ^(١) مُحال، فلا بدَّ من صرفها إلى المعهود السابق، والجنةُ التي هي المعهودةُ المعلومة بين المسلمين هي دارُ الثواب؛ فوجِبَ صرفُ اللَّفْظِ إليها.

قال: «والقولُ الرابع: أنَّ الكلَّ ممكن، والأدلةُ النقليةُ ضعيفةٌ ومتعارضة؛ فوجِبَ التوقُّفُ وتركُ القطع».

قالوا: ونحن لا نقلُّدُ هؤلاء، ولا نعتدُّ على ما حُكِيَ عنهم، والحجةُ الصحيحةُ حَكْمُ بين المتنازعين.

قالوا: وقد ذكرنا من الأدلة على هذا القول ما فيه كفاية.

أمَّا الجوابُ المفصَّل: فنحن نتكلَّم على ما ذكرتم من الحُجَج؛ لينكشفَ وجه الصَّواب، فنقولُ وبالله التوفيق:

أما استدلَّالُكم بحديث أبي هريرة وحذيفة حين يقولُ الناس لآدم: «أستفتح لنا الجنة، فيقول: وهل أخرجكم منها إلا خطيئةُ أبيكم؟»^(٢)؛ فهذا الحديث لا يدلُّ على أنَّ الجنةَ التي طلبوا منه أن يستفتحها لهم هي التي أخرجَ منها بعينها؛ فإنَّ الجنةَ أَسْمُ جنس، فكلُّ بستانٍ^(٣) يُسمَّى جنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَهْبَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ﴾^(٤) أو تَكُونَ لَكَ

(١) (د، ح، ن): «سكنى جميع الجنان».

(٢) أخرجه مسلم (١٩٥).

(٣) (ت، ن، ح): «لكل بستان».

جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٌ ﴿[الإسراء: ٩٠ - ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴿[البقرة: ٢٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِّنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴿إلى قوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴿[الكهف: ٣٢ - ٣٩].

فالجنةُ أَسْمُ جنس؛ فهُم لَمَّا طلبوا من آدم أن يستفتحَ لهم جنةَ الخلد أخبرهم بأنه لا يَحْسُنُ منه أن يُقَدِّم على ذلك وقد أخرجَ نفسه وذريته من الجنة التي أسكنه الله إياها بذنبه وخطيئته.

هذا الذي دلَّ عليه الحديث.

وأما كونُ الجنة التي أُخْرِجَ منها هي بعينها التي طلبوا منه أن يستفتحها لهم؛ فلا يدلُّ الحديثُ عليه بشيءٍ من وجوه الدَّلالات الثلاث^(١)، ولو دلَّ عليه لوجبَ المصيرُ إلى مدلول الحديث، وامتنع القولُ بمخالفته، وهل مدارنا إلا على فهم مقتضى كلام الصادق المصدوق صلواتُ الله وسلامه عليه؟!

قالوا: وأما استدلالكم بالهبوط، وأنه نزولٌ من علوٍ إلى سُفلٍ، فجوابه من وجهين:

أحدهما: أنَّ الهبوط قد أَسْتَعْمِلَ في النُّقْلة من أرضٍ إلى أرضٍ، كما يقال: «هَبَطَ فلانٌ بلدًا كذا وكذا»، وقال تعالى: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا

(١) المطابقة، والتضمن، والالتزام. و«الثلاث» ليست في (ت).

سَأَلْتُهُ ﴿[البقرة: ٦١]، وهذا كثيرٌ في نظم العرب ونثرها، قال:

أَنْ تَهْبِطَ بَيْنَ بِلَادَ قَوْمٍ مِ يَزْعُمُونَ مِنَ الطَّلَاحِ^(١)

وقد روى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «هو كما يقال: هَبَطَ فلانٌ أَرْضَ كذا وكذا»^(٢).

الثاني: أَنَّا لا ننازعكم في أَنَّ الهبوط حقيقةٌ ما ذكرتموه، ولكن من أين يلزمُ أن تكون الجنة التي منها الهبوطُ فوق السماوات؟! فإذا كانت في أعلى الأرض أما يصحُّ أن يقال: هَبَطَ منها، كما يهبطُ الحجرُ من أعلى الجبل إلى أسفله، ونحوه؟!

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦، والأعراف: ٢٤] فهذا يدلُّ على أَنَّ الأرض التي أُهبطوا إليها لهم فيها مستقرٌّ ومتاعٌ إلى حِينٍ، ولا يدلُّ على أَنهم لم يكونوا في جنةٍ عاليةٍ أعلى من الأرض التي أُهبطوا إليها تخالفُ تلك الأرض في صفاتها وأشجارها ونعيمها وطيبها؛ فَإِنَّ الله سبحانه فاوَتْ بين بقاع الأرض أعظمَ تفاوتٍ وأبينه، وهذا مشهودٌ بالحسِّ.

فَمِنْ أَيْنَ لَكُمْ أَنَّ تِلْكَ لَمْ تَكُنْ جَنَّةً تَمَيَّزَتْ عَنْ سَائِرِ بَقَاعِ الْأَرْضِ بِمَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِيهَا، ثُمَّ أُهْبِطُوا مِنْهَا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي هِيَ مَحَلُّ التَّعَبِ وَالنَّصَبِ

(١) أنشدَه القاسم بن معن قاضي الكوفة، في «معاني القرآن» للفرّاء (١/١٣٦)، و«خزانة الأدب» (٨/٤٢١). ودون نسبة في «الخصائص» (١/٣٨٩)، و«شرح المفصل» (٧/٩)، وغيرهما.

(٢) تقدم قريباً.

والابتلاء والامتحان؟!

وهذا بعينه هو الجواب عن استدلالكم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ إلى آخر ما ذكرتموه^(١). مع^(٢) أَنَّ هذا حكمٌ معلقٌ بشرط، والشرط لم يحصل؛ فإنه سبحانه إنما قال ذلك عقيب قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾؛ فقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ هو صيغةٌ وعدٍ مرتبطةٌ بما قبلها، والمعنى: إن أجتنبت الشجرة التي نهيتك عنها، ولم تقربها، كان لك هذا الوعد. والحكم المعلق بالشرط عدمٌ عند عدم الشرط؛ فلما أكل من الشجرة زال استحقاقه لهذا الوعد.

قالوا: وأما قولكم: إنه لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠] إلى آخره؛ فدعوى لا دليل عليها؛ لأنه لا دليل لكم على أَنَّ الله سبحانه كان قد أعلم آدم حين خلقه أَنَّ الدنيا منقضيةٌ فانية، وأنَّ مُلكها يبلى ويزول.

وعلى تقدير أن يكون آدم حينئذٍ قد أعلم ذلك، فقول إبليس: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ لا يدلُّ على أنه أراد بالخلد ما لا يتناهى، فإنَّ الخلد في لغة العرب هو اللَّبث الطويل، كقولهم: قَيْدٌ مُخَلَّدٌ، وحبسٌ مُخَلَّدٌ، وقد قال تعالى لعاد^(٣): ﴿أَتَنْبِئُونَ بِكُلِّ رِيْعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ (١٨)

(١) (ص: ٣٨).

(٢) (د، ق): «من». تحريف.

(٣) (ت، د): «لثمود»، وهو خطأ. وفي (ق): «لثمود»، وصُحِّحت في الطُّرَّة. وفي (ن): «لثمود»، وصُحِّحت في الطُّرَّة إلى: «لقوم ثمود»!

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿الشعراء: ١٢٨ - ١٢٩﴾؛ وكذلك قوله: ﴿وَمُلْكٌ لَا يَبْلَى﴾ يراؤ به المُلْكُ الطويلُ الثابت.

وأيضًا؛ فلا وجه للاعتذار^(١) عن قول إبليس مع تحقق كذبه، ومُقاسمته آدمَ وحواءَ على الكذب، والله سبحانه قد أخبر أنه قاسمهما ودَلَّاهما بغرور، وهذا يدلُّ على أنهما أغترَّا بقوله، فغرَّهما بأن أطمعهما في خُلْد الأبد والمُلْك الذي لا يبلى.

وبالجملة؛ فالاستدلالُ بهذا على كون الجنة التي أُسْكِنَهَا آدمُ هي جنة الخُلْد التي وُعِدَها المتقون غيرُ بَيِّن.

ثمَّ نقول: لو كانت الجنةُ هي جنة الخُلْد التي لا يزولُ مُلْكُها لكانت جميعُ أشجارها شجرَ الخُلْد؛ فلم يكن لتلك الشجرة اختصاصٌ^(٢) من بين سائر الشجر بكونها شجرة الخُلْد، وكان آدمُ يَسْخَرُ من إبليس؛ إذ قد عَلِمَ أَنَّ الجنةَ دارُ الخُلْد.

فإن قلت: لعلَّ آدمَ لم يعلم حينئذٍ ذلك، فغرَّه الخبيثُ وخدَّعه بأنَّ هذه الشجرة وحدها هي شجرة الخُلْد = قلنا: فاقنعوا منَّا بهذا الجواب بعينه عن قولكم: «لو كانت الجنةُ في الدنيا لعلَّ آدمَ كذبَ إبليس في ذلك»؛ فإنَّ قوله كان خداعًا وغرورًا محضًا على كلِّ تقدير. فانقلبَ دليلُكم حجةً عليكم، وبالله التوفيق.

قالوا: وأما قولكم: «إنَّ قصةَ آدمَ في البقرة ظاهرةٌ جدًّا في أنَّ جنةَ آدمَ

(١) (ح، ن): «للاعتبار».

(٢) (ح): «واختصاصها».

كانت فوق السماء»؛ فنحن نطالبكم بهذا الظهور، ولا سبيل لكم إلى إثباته.

قولكم^(١): «إنه كرّر فيه ذكر الهبوط مرتين، ولا بدّ أن يفيد الثاني غير ما أفاد الأول، فيكون الهبوط الأول من الجنة، والثاني من السماء» = فهذا فيه خلاف بين أهل التفسير:

فقال طائفة هذا القول الذي ذكرتموه.

وقالت طائفة - منهم النقّاش^(٢) وغيره -: إنّ الهبوط الثاني إنما هو من الجنة إلى السماء، والهبوط الأول إلى الأرض، وهو آخر الهبوطين في الوقوع وإن كان أولهما في الذكر.

وقالت طائفة: أتى به على جهة التخليط والتأكيد، كما تقول للرجل: أخرج، أخرج.

وهذه الأقوال ضعيفة.

فأمّا القول الأول، فيظهر ضعفه من وجوه:

أحدها: أنه مجرد دعوى لا دليل عليها من اللفظ ولا من خبر يجب المصير إليه، وما كان هذا سبيله لا يُحمّل القرآن عليه.

الثاني: أن الله سبحانه قد أهبط إبليس لما أمتنع من السجود لآدم إهباطاً كونياً قدرياً لا سبيل إلى التخلف عنه، فقال تعالى: ﴿فَأَهَيَّطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ

(١) أي: وأما قولكم. وفي (ت): «بقولكم».

(٢) محمد بن الحسن الموصلي، أبو بكر (ت: ٣٥١)، له: «شفاء الصدور» تفسير مشهور، والنقل عنه مستفيض، ولم يطبع بعد، والمصنف ينقل هنا عن «المحرر الوجيز» (١/١٦٢).

تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ [الأعراف: ١٣]، وقال في موضع آخر: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ [الحجر: ٣٤ - ٣٥]، وفي موضع آخر: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْخُورًا لَّمَّا يَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

وسواءً كان الضميرُ في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ راجعاً إلى السماء، أو إلى الجنة، فهذا صريحٌ في إهباطه وطرده ولعنته وإدحاره. والمَدْخُور: المَبْعُود^(١). وعلى هذا، فلو كانت الجنة فوق السماوات لكان قد صَعِدَ إليها بعد إهباط الله له. وهذا وإن كان ممكناً فهو في غاية البعد عن حكمة الله^(٢)، ولا يقتضيه خبره^(٣)؛ فلا ينبغي أن يصار إليه.

وأما الوجوه الأربعة التي ذكرتموها من صعوده للوسوسة؛ فهي - مع أمر الله تعالى له بالهبوط مطلقاً وطرده ولعنته ودُحوره - لا دليل عليها، لا من اللفظ، ولا من الخبر الذي يجبُ المصيرُ إليه، وما هي إلا احتمالاتٌ مجرّدة، وتقديراتٌ لا دليل عليها.

الثالث: أن سياق قصة إهباط الله تعالى لإبليس ظاهرة^(٤) في أنه إهباطٌ إلى الأرض، من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه نبّه على حكمة إهباطه بما قام به من التكبر المقتضي

(١) كذا في الأصول. وانظر: «طريق الهجرتين» (٣٩٣) والتعليق عليه.

(٢) (ن، ح): «عن حكمه».

(٣) (ت): «خبر غيره».

(٤) كذا في الأصول. والوجه: «ظاهر»؛ لأن الكلام عن السياق.

غاية ذُّلَّهُ وطرده ومعاملته بنقيض قصده، وهو إهباطه من فوق السماوات إلى
قرار الأرض، ولا تقتضي الحكمة أن يكون فوق السماء مع كِبَرِهِ^(١) ومنافاة
حاله لحال الملائكة الأكرمين.

الثاني: أنه قال: ﴿فَأَخْرَجَ مِنْهَا فِرْعَانَ رَجِيمًا ۖ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾،
وكونه رجيماً ملعوناً ينفي أن يكون في السماء بين^(٢) المقرَّبين المطهَّرين.

الثالث: أنه قال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾، وملكوت السماوات لا
يَعْلُوهُ الْمَذْمُومُ الْمَدْحُورُ أبداً.

وأما القول الثاني؛ فهو القول الأول بعينه، مع زيادة ما لا يدلُّ عليه
السِّيَاق بحال، من تقديم ما هو مؤخَّرٌ في الواقع، وتأخير ما هو مقدَّمٌ فيه؛
فِيرْدُ بما رُدَّ به القول الذي قبله.

وأما القول الثالث، وهو أنه للتأكيد؛ فإن أريدَ التأكيدُ اللفظيُّ المجرَّدُ
فهذا لا يقعُ في القرآن، وإن أريدَ به أنه مستلزمٌ للتغليظ والتأكيد مع ما يشتملُ
عليه من الفائدة فصحيح.

فالصوابُ أن يقال: أعيدَ الإهباطُ مرةً ثانيةً لأنه علَّقَ عليه حكماً غير
المعلَّقَ على الإهباط الأول؛ فإنه علَّقَ على الأولِ عداوةَ بعضهم بعضاً،
فقال: ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، وهذه جملةٌ حاليَّةٌ، وهي أَسْمِيَّةٌ
بالضمير وحده عند الأكثرين، والمعنى: «أهبطوا مُتَعَادِينَ»، وعلَّقَ على
الهبوط الثاني حكمن آخرين:

(١) (ت): «التكبر».

(٢) (ت): «مع».

أحدهما: هبوطهم جميعاً^(١).

والثاني: قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فكأنه قيل: أهبطوا بهذا الشرط، مأخوذاً عليكم هذا العهد، وهو أنه مهما جاءكم مني هدى فمن اتبعه منكم فلا خوف عليه ولا حزن يلحقه.

ففي الإهباط الأول إيذاناً بالعقوبة ومقابلتهم على الجريمة، وفي الإهباط الثاني روح التسلية والاستبشار بحسن عاقبة هذا الهبوط لمن تبع هداي، ومصيره إلى الأمن والسرور المضاد للخوف والحزن.

فكسّرهم بالإهباط الأول، وجبر من اتبع هدايه بالإهباط الثاني، على عادته سبحانه ولطفه بعباده وأهل طاعته، كما كسّر آدم بالإخراج من الجنة، وجبره بالكلمات التي تلقاها منه، فتاب عليه وهداه.

ومن تدبّر حكمته سبحانه، ولطفه وبرّه بعباده وأحبابه^(٢)، في كسره لهم ثم جبره بعد الانكسار، كما يكسر العبد بالذنب ويذلّه به ثم يجبره بتوبته عليه ومغفرته له، وكما يكسره بأنواع المصائب والمحن ثم يجبره بالعافية والنعمة = أنفتح له باب عظيم من أبواب معرفته ومحبه^(٣)، وعلم أنه أرحم

(١) (ح): «هبوطهما جميعاً».

(٢) (ق): «وأحبابه وأهل طاعته».

(٣) انظر هذا المعنى الجليل في «زاد المعاد» (٣/ ٢٢١، ٤٧٧)، و«الوابل الصيب» (٩،

١٠)، و«مدارج السالكين» (١/ ١٨٧، ٢٩٩)، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ١٨٩)، و«حادي

الأرواح» (٧٦٥)، وسيأتي مبسوطاً (ص: ٨٨، ٨١٩، ٨٢٢).

بعباده من الوالدة بولدها، وأن ذلك الكسر هو نفس رحمته به وبرّه ولطفه، وهو أعلم بمصلحة عبده منه، ولكنَّ العبدَ لضعف بصيرته ومعرفته بأسماء ربه وصفاته لا يكادُ يشعرُ بذلك، ولا يُنالُ رضا المحبوب وقربُه والابتهاجُ والفرحُ بالدُّنوّ منه والزلْفى لديه إلا على جسرٍ من الدُّل والمسكنة، وعلى هذا قام أمرُ المحبة، فلا سبيل إلى الوصول إلى المحبوب إلا بذلك، كما قيل (١):

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَى لِتَحْظِيَ بِقُرْبِهِ فكم عِزَّةٌ قد نالها العبدُ بالدُّل
إذا كان من تهوى عزيزاً ولم تكن ذليلاً له فاقَرَّ السَّلامَ على الوصلِ

وقال آخر:

أخْضَعُ وَذَلُّ لِمَنْ تَحَبُّ فليس في شرع الهوى أنْفٌ يُشَالُ وَيُعَقَّدُ (٢)

وقال آخر:

وما فَرَحْتُ بالوصلِ نفسٌ عزيزةٌ وما العِزُّ إلا ذُلُّها وانكسارُها (٣)

قالوا: وإذا عُلِمَ أنَّ إبليسَ أُهبطَ من دار العِزِّ عقبَ امتناعه وإبائه من

(١) البيتان للحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، من شيوخ البخاري، وله ديوان شعر (ت: ٢٦٠) في «معجم أصحاب الصدي» (٨٤). والأول لعلية بنت المهدي في أشعار أولاد الخلفاء من «الأوراق» للصولي (٧٥)، ودون نسبة في «المذاكرة في ألقاب الشعراء» (١٦٨)، و«الواضح المبين» (١٠٥).

(٢) قاله أبو تراب هبة الله بن السريجي، على البديهة، في «بدائع البدائه» (٩).

(٣) يشبه نظم المصنف، ولم يذكره في الفصل الذي عقده لهذا المعنى في «روضة المحبين» (٣٢٨). وانظر: «طريق الهجرتين» (١٠٩).

السجود لآدم، ثبتَ أَنَّ وسوستَه له ولزوجه كانت في غير المحلِّ الذي أُهبطَ منه، والله أعلم.

قالوا: وأما قولكم: «إن الجنة إنما جاءت معرفَّةً باللام، وهي تنصرفُ إلى الجنة التي لا يعهدُ بنو آدم سواها»؛ فلا ريب أنها جاءت كذلك، ولكنَّ العهدَ وقع في خطاب الله تعالى آدمَ لسكنائها بقوله: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، فهي كانت معهودَةً عند آدم، ثم أخبرنا سبحانه عنها معرفَّةً لها بلام التعريف، فانصرف المعرَّفُ بها^(١) إلى تلك الجنة المعهودة في الذَّهن، وهي التي سكنها آدمُ ثم أُخرج^(٢)، فمن أين في هذا ما يدلُّ على محلِّها وموضعها بنفي أو إثبات؟!

وأما مجيءُ جنة الخُلد معرفَّةً باللام؛ فلأنها الجنة التي أخبرت بها الرسلُ لأممهم، ووَعَدَها الرحمنُ عباده بالغيب، فحيث ذُكرتْ أنصرف الذَّهنُ إليها دون غيرها؛ لأنها قد صارت معلومةً في القلوب مستقرَّةً فيها، ولا ينصرفُ الذَّهنُ إلى غيرها، ولا يتوجَّه الخطابُ إلى سواها.

وقد جاءت الجنة في القرآن معرفَّةً باللام، والمرادُ بها بستانٌ في بقعة من الأرض؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧]، فهذا لا ينصرفُ الذَّهنُ فيها لا إلى جنة الخُلد ولا إلى جنة آدم بحال.

قالوا: وأما قولكم: إنه قد اتَّفَق أهلُ السنة والجماعة على أَنَّ الجنةَ

(١) (ح): «المعروف بها». (ق): «المعرف لها».

(٢) (ن): «أخرج منها».

والنار مخلوقتان، وأنه لم ينزع في ذلك إلا بعض أهل البدع والضلال، واستدل لكم على وجود الجنة الآن = فحق لا نازعكم فيه، وعندنا من الأدلة على وجودها أضعاف ما ذكرتم، ولكن أي تلازم بين أن تكون جنة الخلد مخلوقة وبين أن تكون هي جنة آدم بعينها؟!

فكانكم تزعمون أن كل من قال: إن جنة آدم هي جنة في الأرض، فلا بد له أن يقول: إن الجنة والنار لم يُخلقا بعد. وهذا غلط منكم، منشؤه من توهمكم أن كل من قال بأن الجنة لم تُخلق بعد فإنه يقول: إن جنة آدم هي في الأرض، وكذلك بالعكس، أن كل من قال: إن جنة آدم في الأرض فيقول: إن الجنة لم تُخلق بعد^(١).

فأما الأول فلا ريب فيه، وأما الثاني فوهم، لا تلازم بينهما، لا في المذهب ولا في الدليل بحال؛ فأنتم نصبت دليلكم مع طائفة نحن وأنتم متفقون على إنكار قولهم وردّه وإبطاله، ولكن لا يلزم من هذا بطلان هذا القول الثالث. وهذا واضح.

قالوا: وأما قولكم: إن جميع ما نفاه الله سبحانه عن الجنة من اللغو والكذب وسائر الآفات التي وجد بعضها من إبليس عدو الله، فهذا إنما يكون بعد القيامة إذا دخلها المؤمنون، كما يدل عليه السياق.

فجوابه من وجهين:

أحدهما: أن ظاهر الخبر يقتضي نفيه مطلقاً؛ لقوله تعالى^(٢): ﴿لَا لَغْوٌ

(١) «بعد» ليست في (ح، ن).

(٢) (ق): «قوله تعالى». في الموضعين.

فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِ ﴿[الطور: ٢٣]، ولقوله تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١]، فهذا نفْي عام لا يجوز تخصيصه إلا بمخصّص بين، والله سبحانه قد حكم بأنها دارُ الخلد حكماً مطلقاً، فلا يدخلها إلا خالدٌ فيها، فتخصيصكم هذه التسمية بما بعد القيامة خلافُ الظاهر.

الثاني: أن ما ذكرتم إنما يصارُ إليه إذا قام الدليل السالم عن المعارض المقاوم أنها جنةُ الخلد بعينها، وحينئذ يتعيّن المصيرُ إلى ما ذكرتم. فأما إذا لم يَقُمْ دليلٌ سالمٌ على ذلك، ولم تُجْمَعْ الأَمَّةُ عليه، فلا يسوغُ مخالفةُ ما دلّت عليه النصوص البيّنة^(١) بغير موجب، والله أعلم.

قالوا: ومما يدلُّ على أنها ليست جنةُ الخلد التي وعدّها المتّقون أن الله سبحانه لما خلق آدم أعلمه أن لعمره أجلاً ينتهي إليه، وأنه لم يخلقه للبقاء.

ويدلُّ على هذا ما رواه الترمذي في «جامعه»^(٢) قال: حدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا صفوان بن عيسى: حدثنا الحارث بن عبد الرحمن بن أبي ذباب، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه

(١) (ت): «المبيّنة».

(٢) (٣٣٦٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢١٨)، وغيرهما.

وصححه ابن حبان (٦١٦٧)، وأخرجه شيخه ابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ١٦٠) ولم يُعلِّه، وصححه الحاكم (١/ ٦٤) ولم يتعقبه الذهبي. وانظر: «علل الدارقطني» (١٤٧/٨).

والأشبه أنه خطأ، والصواب: عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن عبد الله بن سلام موقوفاً. وإلى ذلك ذهب النسائي وأحمد في «العلل» (٣/ ٣٧٢) رواية عبد الله.

إلا أن موضع الشاهد مرويٌّ من وجوه أخرى، كما سيأتي.

قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس، فقال: الحمد لله، [فحمد الله] ^(١) بإذنه، فقال له ربه: يرحمك الله يا آدم، أذهب إلى أولئك الملائكة، إلى ملائمتهم جلوس، فقل: السلام عليكم. فقالوا: وعليك السلام. ثم رجع إلى ربه، فقال: إن هذه تحيتك وتحية بنيك بينهم.

فقال الله له - ويداه مقبوضتان - : اختر أيتهما شئت. فقال: اخترت يمين ربِّي - وكلتا يدي ربي يمينٌ مباركة -، ثم بسطها، فإذا فيها آدم وذريته، قال: أي رب، ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فإذا كلُّ إنسانٍ مكتوبٌ عمره بين عينيه، فإذا رجلٌ أضوؤهم - أو: من أضوئهم -، قال: يا رب، من هذا؟ قال: هذا أبناك داود، وقد كتبتُ له عمر أربعين سنة. قال: يا رب، زد في عمره. قال: ذاك الذي كتبتُ له. قال: أي رب، فإني قد جعلتُ له من عمري ستين سنة. قال: أنت وذاك.

قال: ثم أسكن الجنة ما شاء الله، ثم أهبط منها، وكان آدم يُعدُّ لنفسه، فأتاه ملك الموت، فقال له آدم: قد عجلت، أليس قد كتبت لي ألف سنة؟! قال: بلى، ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة. فجحد فجحدت ذريته، ونسي فنسيت ذريته.

قال: فمن يومئذ أمر بالكتاب والشهود.

هذا حديث حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه، ورؤي من غير وجهٍ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ^(٢).

(١) ساقطة من الأصول. واستدركتها من «جامع الترمذي». وهي لازمة.

(٢) من أحسنها ما أخرجه الترمذي (٣٠٧٦)، وابن سعد في «الطبقات» (٢٧/١) وغيرهما من حديث هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن =

قالوا: فهذا صريحٌ في أنَّ آدمَ لم يكن مخلوقًا في دار الخلد التي لا يموتُ من دخلها، وإنما خُلِقَ في دار الفناء التي جعل اللهُ لها ولأهلها أَجَلًا معلومًا، وفيها أُسْكِنَ.

فإن قيل: فإذا كان آدمُ قد عَلِمَ أنَّ له عمرًا ينتهي إليه، وأنه ليس من الخالدين، فكيف لم يكذب إبليسَ ويعلمَ بطلانَ قوله حيثُ قال له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾، بل جَوَّزَ ذلك وأكلَ من الشجرة طمعًا في الخلد؟!

فالجوابُ^(١) ما تقدَّم من الوجهين: إمَّا أن يكون المرادُ بالخلد المُكْتَبُ الطَّوِيلُ، لا أَبَدَ الأَبَدِ^(٢)، أو يكون عدوُّه إبليسُ لما قاسمه وزوجَه وغرَّهما وأطمعهما بدوامهما في الجنة نسي ما قُدِّرَ له من عمره.

قالوا: والمعوَّلُ عليه في ذلك قوله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وهذا الخليفةُ هو آدمُ باتفاق الناس، ولما عَجَبَتِ الملائكةُ من ذلك وقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ عَرَّفَهُم سبحانه أنَّ هذا الخليفةَ الذي هو جاعله في الأرض ليس حاله كما توهمتم من الفساد، بل أعلمه من علمي ما لا تعلمونه، فأظهرَ فضلَه وشرفَه بأنَّ علَّمَه الأسماءَ كُلَّها، ثمَّ عرضهم على

= أبي هريرة رضي الله عنه.

وصححه الترمذي، والحاكم (٣٢٥ / ٢) ولم يتعقبه الذهبي.

(١) (ت): «فالمختار».

(٢) (ح): «الأباد».

الملائكة، فلم يعرفوها وقالوا: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

وهذا يدلُّ على أن هذا الخليفة الذي سبق به إخبارُ الربِّ تعالى لملائكته، وأظهرَ تعالى فضلَه وشرفَه وعِلْمَه بما لم تعلمه الملائكة، هو خليفةٌ مجعولٌ في الأرض لا فوق السماء.

فإن قيل: قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ إنما هو بمعنى: سأجعلُه في الأرض، فهي مآلُه ومصيره. وهذا لا ينافي أن يكون في جنة الخلد فوق السَّماء أوَّلًا، ثم يصير إلى الأرض للخلافة التي جعلها الله له. واسمُ الفاعل هنا بمعنى الاستقبال، ولهذا أنصبَ عنه المفعول.

فالجواب: أن الله سبحانه أعلم ملائكته بأنه يخلقه لخلافة الأرض، لا لسكنى جنة الخلود، وخبرُه الصدق، وقوله الحقُّ، وقد علمت الملائكة أنه هو آدم، فلو كان قد أسكنه دارَ الخلود فوق السماء لم يظهر للملائكة وقوعُ المُخْبَرِ، ولم يحتاجوا إلى أن يبيِّن لهم فضلَه وشرفَه وعِلْمَه المتضمَّن ردَّ قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؛ فإنهم إنما سألوا هذا السؤال في حقِّ الخليفة المجعول في الأرض، فأما من هو في دار الخلد فوق السماء فلم تتوهم الملائكة منه سفكُ الدِّماء والفساد في الأرض، ولا كان إظهارُ فضلَه وشرفَه وعِلْمَه^(١) - وهو فوق السماء - برادًّا لقولهم وجوابًا لسؤالهم، بل الذي يحصلُ به جوابهم وضدُّ ما توهموه إظهارُ تلك الفضائل

(١) في (ح، ن) هنا زيادة: «ظاهر في أنه في أول الأمر جعله خليفة في الأرض». وستأتي في موضعها الصحيح بعد قليل.

والعلوم منه وهو في محلّ خلافته التي خُلِقَ لها وتوهّمت الملائكة أنه لا يحصل منه هناك إلا ضدها من الفساد وسفك الدماء. وهذا واضح لمن تأمله.

وأما أَسْمُ الفاعل وهو ﴿جَاعِلٌ﴾ وإن كان بمعنى الاستقبال، فلأنّ هذا إخبارٌ عمّا سيفعله الربُّ تعالى في المستقبل مِنْ جَعْلِهِ الخليفة في الأرض، وقد^(١) صدّق وعده، ووقع ما أخبر به، وهذا ظاهرٌ في أنه من أوّل الأمر جعله خليفةً في الأرض.

وأما جعله في السماء أولاً ثم جعله خليفةً في الأرض ثانيًا، وإن كان مما لا ينافي الاستخلاف المذكور، فهو مما لا يقتضيه اللفظُ بوجه، بل يقتضي ظاهره خلافه، فلا يصارُ إليه إلا بدليل يُوجِبُ المصيرَ إليه؛ وحوله ندندن.

قالوا: وأيضا؛ فمن المعلوم الذي لا يخالف فيه مسلمٌ أنّ الله سبحانه خلق آدم من تراب، وهو ترابُ هذه الأرض بلا ريب.

كما روى الترمذي في «جامعه»^(٢) من حديث عوف، عن قَسَامة بن زهير، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله تبارك وتعالى خلقَ آدمَ من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قَدَرِ الأرض، فجاء منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسَّهْلُ والحَزْنُ، والخبيث والطَّيِّب». قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيح». وقد رواه الإمام أحمد في «مسنده» من طريق عدة.

(١) (ح، ن): «وبه».

(٢) (٢٩٥٥)، وأبو داود (٤٦٩٣)، وأحمد (٤٠٠/٤)، وغيرهم.

وصححه ابن حبان (٦١٦٠، ٦١٨١)، والحاكم (٢/٢٦١ - ٢٦٢) ولم يتعقبه الذهبي.

وقد أخبر سبحانه أنه خلقه من تراب، وأخبر أنه خلقه من سُلالةٍ من طين، وأخبر أنه خلقه من صلصالٍ من حمًا مسنون.

والصلصال، قيل فيه: هو الطِّينُ اليابسُ الذي له صلصلةٌ ما لم يُطْبَخْ، فإذا طُبِخَ فهو فَخَّار. وقيل فيه: هو المتغيَّرُ الرائحة، من قولهم: صَلَّ، إذا أنتن.

والحمًا: الطِّينُ الأسود المتغيَّر.

والمَسْنُون، قيل: المصبوب، من: سَنَنْتُ الماء، إذا صبيته. وقيل: الْمُتَنُّ^(١)، من قولهم: سَنَنْتُ الْحَجَرَ عَلَى الْحَجَرِ، إذا حككته، فإذا سال بينهما شيءٌ فهو سَنِينٌ، ولا يكون إلا متنتًا.

وهذه كلها أطوارٌ للتراب الذي هو مبدؤه الأول^(٢).

كما أخبر عن خلقِ الذرِّية من نطفة، ثم من علقه، ثم من مضغة^(٣)، وهذه أحوالُ النطفة التي هي مبدأ الذرِّية.

ولم يُخْبَرْ سبحانه أنه رفعه من الأرض إلى فوق السموات، لا قبل التَّخْلِيْق ولا بعده، وإنما أخبر عن إسجاد الملائكة له، وعن إدخاله الجنة، وما جرى له مع إبليس بعد خلقه، فأخبر سبحانه بالأمور الثلاثة في نَسَقٍ واحد، مرتبطًا بعضها ببعض.

قالوا: فأين الدليلُ الدَّالُّ على إصعاد مادَّته، وإصعاده بعد خلقه إلى فوق

(١) مهملة في (د، ق، ت، ن). (ح): «المتن المسن».

(٢) انظر: «تفصيل الشَّائِن» للراغب (٧٢).

(٣) (د، ح، ت، ن): «من نطفة ومن علقه ومن مضغة».

السموات؟ هذا مما لا دليل لكم عليه أصلاً، ولا هو لازمٌ من لوازم ما أخبر الله به.

قالوا: ومن المعلوم أن ما فوق السموات ليس بمكانٍ للطَّين الأرضي، المتغيَّر الرائحة، الذي قد أنْتَن من تغيُّره، وإنما محلُّ هذا الأرض التي هي محلُّ المتغيَّرات والفسادات^(١)، وأما ما كان فوق الأفلاك فلا يلحقه تغيُّرٌ ولا نَتْنٌ، ولا فسادٌ ولا أَسْتَحالة.

قالوا: وهذا أمرٌ لا يرتابُ فيه العقلاء.

قالوا: وقد قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، فأخبر سبحانه أن هذا العطاء في جنة الخلد غير مقطوع، وما أُعطيَه آدمُ فقد أنقطع؛ فلم تكن تلك جنة الخلد.

قالوا: وأيضاً؛ فلا نزاع في أن الله تعالى خلق آدمَ في الأرض كما تقدَّم، ولم يذكر في قصَّته أنه نقله إلى السماء، ولو كان تعالى قد نقله إلى السماء لكان هذا أولى بالذِّكر؛ لأنه من أعظم أنواع النعم عليه، وأكبر^(٢) أسباب تفضيله وتشريفه، وأبلغ في بيان آيات قدرته وربوبيته وحكمته، وأبلغ في بيان المقصود من عاقبة المعصية، وهو الإهباطُ من السماء التي نُقِلَ إليها، كما ذكر ذلك في حقِّ إبليس.

فحيث لم يجئ في القرآن ولا في السنة حرفٌ واحدٌ أنه نقله إلى السماء

(١) (ت) «والفسادات».

(٢) (ح، ن): «وأكثر».

ورفعه إليها بعد خلقه في الأرض، عُلِمَ أَنَّ الجنةَ التي أُدْخِلَهَا لم تكن هي جنة الخُلد التي فوق السماوات.

قالوا: وأيضًا؛ فإنه سبحانه أخبر في كتابه أنه لم يخلق عباده عبثًا ولا سُدًى، وأنكر على من زعم ذلك؛ فدلَّ على أن هذا منافٍ للحكمة^(١)، ولو كانت جنة آدم هي جنة الخُلد لكانوا قد خُلِقوا في دارٍ لا يُؤْمرون فيها ولا يُنْهَوْنَ، وهذا باطلٌ بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، قال الشافعي وغيره: معطلًا لا يؤمر ولا يُنهى^(٢)، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْتُمَا خَلَقْنَاهُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فهو تعالى لم يخلقهم عبثًا، ولا تركهم سُدًى، وجنة الخُلد لا تكليف فيها.

قالوا: وأيضًا؛ فإنه خلقها جزاءً للعاملين، بقوله تعالى: ﴿نَعَمْ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨]، وجزاءً للمتقين، بقوله: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، ودار الثواب، بقوله: ﴿ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، فلم يكن لِيُسَكِّنَهَا إِلَّا مَنْ خَلَقَهَا لهم من العاملين، ومن المتقين، ومن تبعهم من ذُرِّيَّاتهم، وغيرهم من الحُور والولدان.

وبالجملة؛ فحكَّمته تعالى أقتضت أنها لا تُنَالُ إلا بعد الابتلاء والامتحان، والصَّبر والجهد، وأنواع الطَّاعات، وإذا كان هذا مقتضى حكمته فإنه سبحانه لا يفعل إلا ما هو مطابقٌ لها.

(١) (ح، ن): «لحكمته».

(٢) انظر: «الرسالة» (٢٥)، و«إبطال الاستحسان» (٩/ ٦٨ - الأم)، و«تفسير الطبري» (٨٣/ ٢٤).

قالوا: فإذا جُمِعَ ما أخبر الله عزَّ وجلَّ به، مِن أنه خلقه من الأرض، وجعله خليفةً في الأرض، وأنَّ إبليسَ وسوسَ له في مكانه الذي أسكنه فيه بعد أن أهبط إبليسَ من السماء، وأنه أخبر ملائكته أنه جاعلٌ في الأرض خليفة، وأنَّ دارَ الخُلدِ لا لغو فيها ولا تأثيم، وأنَّ من دخلها لا يخرجُ منها أبداً، وأنَّ من دخلها يَنعَمُ لا ييأس^(١)، وأنه لا يخاف ولا يحزن، وأنَّ الله سبحانه حرَّمها على الكافرين، وعدوُّ الله إبليسُ أكفرُ الكافرين، فمحالٌ أن يدخلها أصلاً، لا دخولَ عبورٍ ولا دخولَ قرار، وأنها دارُ نعيمٍ لا دارُ ابتلاءٍ وامتحان، إلى غير ذلك مما ذكرناه من منافاة أوصاف جنة الخُلدِ للجنة التي أُسْكِنَها آدم.

إذا جُمِعَ ذلك بعضه إلى بعض، ونُظِرَ فيه بعين الإنصاف والتَّجرُّد عن نصرة المقالات، تبيَّن الصَّوابُ من ذلك، والله المستعان.

قال الآخرون^(٢): «بل الجنة التي أُسْكِنَها آدمُ عند سلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والجماعة هي جنة الخُلد، ومن قال: إنها كانت جنةً في الأرض بأرض الهند، أو بأرض جُدَّة، أو غير ذلك، فهو من المتفلسفة والملحدين والمعتزلة، أو من إخوانهم المتكلِّمين المبتدعين؛ فإنَّ هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة والمعتزلة، والكتاب^(٣) يردُّ هذا القول، وسلفُ الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول.

(١) كذا في الأصول. بحذف حرف العطف.

(٢) هذا جواب ابن تيمية في المسألة. انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٤٧ - ٣٤٩). وقد صحَّح في «النبوات» (٧٠٥ - ٧١٠) القول بأن جنة آدم لم تكن في السماء، وإنما كانت في مكان عالٍ من الأرض، واحتجَّ له. ولم يتيين لي أيُّ القولين استقر عليه.

(٣) في «الفتاوى»: «والكتاب والسنة».

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٣٤﴾ ﴿٣٥﴾ وَقُلْنَا يَتَّخِذُمْ أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٦﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٧﴾ [البقرة: ٣٤ - ٣٦]؛ فقد أخبر سبحانه أنه أمرهم بالهبوط، وأن بعضهم لبعض عدو، ثم قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

وهذا يبين أنهم لم يكونوا في الأرض، وإنما أُهبطوا إلى الأرض، فإنهم لو كانوا في الأرض وانتقلوا منها إلى أرض أخرى، كما أنتقل قوم موسى من أرض إلى أرض، كان مستقرهم ومتاعهم إلى حين في الأرض قبل الهبوط، كما هو بعده. وهذا باطل.

قالوا: «وقد قال تعالى في سورة الأعراف لما قال إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾؛ فقلوه: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ يبين اختصاص الجنة التي في السماء بهذا الحكم، بخلاف جنة الأرض، فإن إبليس كان غير ممنوع من التكبر فيها.

والضمير في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ عائد إلى معلوم، وإن كان غير مذكور في اللفظ؛ لأن العلم به أغنى عن ذكره.

قالوا: «وهذا بخلاف قوله: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]؛ فإنه لم يذكر هنا^(١) ما أُهبطوا منه، وإنما ذكر ما أُهبطوا إليه،

(١) في «الفتاوى»: «هناك».

بخلاف إهباط إبليس، فإنه ذكر مبدأ هبوطه وهو الجنة، والهبوط يكون من علو إلى سُفل، وبنو إسرائيل كانوا بجبال الشَّراة^(١) المُشْرِفة على المِصر

(١) (د، ق، ت): «السراة» بالمهملة. و«السراة»: جبالٌ متصلةٌ من أقصى اليمن إلى الشام، كما يقول الهمداني في «صفة جزيرة العرب» (٩٩). وانظر: «الروض المعطار» (٨٢١)، و«معجم البلدان» (٢٠٥/٣). والمراد هنا أطرافها من جهة الشام، حيث كان بنو إسرائيل. قال المقرئ: «وقد ذكر أن موسى عليه السلام سار ببني إسرائيل بعد موت أخيه هارون إلى أرض أولاد العيص، وهي التي تعرف بجبال الشراة (في المطبوعة بالمهملة) جنب بلد الشوبك». والشوبك تقع جنوب الأردن، شمال غرب معان. انظر: «المواعظ والاعتبار» (١٨٦/١)، و«جمهرة أنساب العرب» لابن حزم (٥١١).

وقد أصطلح على جعل ما كان من جبال السراة في جنوب الجزيرة بالمهملة، وما كان في شمالها بالمعجمة، وتذكر مواضع منها في بعض المصادر في مواد مختلفة بالمعجمة وبالمهملة، لتقارب ما بين الحرفين، وكلها أجزاء من تلك الجبال الممتدة، وذكرها من صنّف فيما اتفق لفظه واختلف مسماه من الأماكن، كالحازمي وغيره.

وها هنا مذهب آخر غريب المنزع في موضع سكنى بني إسرائيل، أفتزعه الدكتور كمال صليبي (وهو مؤرخٌ ماروني) بكتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب» الذي أحدث صخبًا كبيرًا في الأوساط العلمية (ولم تقبل الكثير من دور النشر الأجنبية إصدار الأصل الألماني منه أو ترجمته الإنجليزية)، ذهب فيه إلى أن البيئة التاريخية للتوراة وأحداثها لم تكن في فلسطين، بل في غرب الجزيرة العربية بمحاذاة البحر الأحمر، في بلاد السراة بين الطائف ومشارف اليمن، واعتمد على المقابلة اللغوية بين أسماء الأماكن المضبوطة في التوراة بالحرف العبري وأسماء أماكن تاريخية أو حالية في جنوب الحجاز أو بلاد عسير. وتابعه زياد منى في كتابه «جغرافية التوراة». وردّ عليه علامة الجزيرة حمد الجاسر وغيره. وانظر: مذكرات كمال صليبي «طائر على سديانة»، و«مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة» (العدد: ٩٩). وتحرفت العبارة في «الفتاوى» إلى: «حيال السراة».

الذي يهبطون إليه، ومَن هبط من جبلٍ إلى وادٍ قيل له: أهبط^(١)».

قالوا: «وأيضًا، فبنو إسرائيل كانوا يسرون ويرحلون، والذي يسيرُ ويرحل إذا جاء بلدةٌ يقال: نزل فيها؛ لأنَّ من عادته أن يركبَ في مسيره، فإذا وصلَ نزل عن دوابه.

ويقال: نزل العدوُّ بأرض كذا، ونزل القفل^(٢)، ونحوه.

ولفظُ النزول كلفظ الهبوط، فلا يستعملُ «نزل» و«هبط» إلا إذا كان من علٍّ إلى سفْل.

وقال تعالى عقب قوله: ﴿أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ أَحِينٍ﴾: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾؛ فهذا دليلٌ على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في مكانٍ فيه يحيون وفيه يموتون ومنه يُخْرَجُونَ، وإنما صاروا إليه بعد الإهباط؛ فلو كانوا في الأرض أولاً لكانوا في مكانٍ فيه يحيون، وفيه يموتون، ومنه يُخْرَجُونَ^(٣)، والقرآن صريحٌ في أنهم إنما صاروا إليه بعد الإهباط.

قالوا: «ولو لم يكن في هذا إلا قصةُ آدم وموسى لكانت كافية^(٤)؛ فإنَّ موسى عليه السلام إنما لام آدم عليه السلام لما حصل له ولذريته بالخروج

(١) (ن): «هبط».

(٢) القفل: الرجوع من السفر. ورجلٌ قافلٌ من قومٍ قُفِّلَ. والقفلُ اسم الجمع. «اللسان» (قفل).

(٣) من قوله: «وإنما صاروا...» إلى هنا ساقط من (ق، ح)، لانتقال النظر.

(٤) أخرجها البخاري (٣٤٠٩)، ومسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة.

من الجنة من النكد والمشقة، فلو كانت بستاناً في الأرض لكان غيره من بساتين الأرض يُعوّض عنه، وموسى أعظمُ قدرًا من أن يلومه على أن أخرج نفسه وذريته من بستانٍ في الأرض».

قالوا: «وكذلك قولُ آدم يوم القيامة لَمَّا يرغبُ إليه الناسُ أن يستفتح لهم باب الجنة، فيقول: «وهل أخرجكم منها إلا خطيئةُ أبيكم؟»؛ فإنَّ ظهورَ هذا في كونها جنة الخلد، وأنه اعتذر لهم بأنه لا يحسنُ منه أن يستفتحها وقد أخرجَ منها بخطيئته، من أظهر الأدلة».

قال الأولون: أما قولكم: «إنَّ من قال: إنها جنة في الأرض، فهو من المتفلسفة والملحدِين والمعتزلة، أو من إخوانهم»، فقد أوجدناكم^(١) من قال بهذا، وليس من أحدٍ من هؤلاء.

ومشاركة أهل الباطل للمُحِقِّ في المسألة لا يدلُّ على بطلانها، ولا تكونُ إضافتها لهم^(٢) موجهةً لبطلانها ما لم يختصَّ بها^(٣).

فإن أردتم أنه لم يقل بذلك إلا هؤلاء، فليس كذلك، وإن أردتم أنَّ هؤلاء من جملة القائلين بهذا، لم يُفدكم شيئاً.

قالوا: وأمَّا قولكم: «وسلفُ الأمة وأئمتُّها متفقون على بطلان هذا القول»، فنحن نطالبكم بنقلٍ صحيح عن واحدٍ من الصحابة ومن بعدهم من أئمة السلف، فضلاً عن اتفاقهم.

(١) (ت): «أخبرناكم».

(٢) (ق، ت): «إليهم».

(٣) أي: أهل الباطل.

قالوا: ولا يوجد عن صاحب ولا تابع ولا تابع تابع^(١) خبرٌ يصحُّ موصولاً ولا شاذاً ولا مشهوراً أنَّ النبي ﷺ قال: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَسْكَنَ آدَمَ جَنَّةَ الْخُلْدِ التي هي دارُ المتقين يومَ المعاد.

قالوا: وهذا القاضي منذرٌ بن سعيد قد حكى عن غير واحدٍ من السلف أنها ليست جنةُ الخلد، فقال: ونحن نُوجدكم أنَّ أبا حنيفةً فقيهَ العراق ومن قال بقوله قد قالوا: إِنَّ جنةَ آدم التي خلقها الله ليست جنةُ الخلد، وليسوا عند أحدٍ من العالمين^(٢) من الشاذين، بل من رؤساء المخالفين، وهذه الدواوينُ مشحونةٌ من علومهم.

وقد ذكرنا قول أبْن عيينة.

وقد ذكر أبْن مُزَيْن^(٣) في «تفسيره» قال: «سألتُ أبْن نافع^(٤) عن

(١) (د، ق، ح، ت): «تابع التابع».

(٢) (ح، ت، ن): «العلماء».

(٣) يحيى بن إبراهيم بن مزين، الفقيه، الطليطلي الأندلسي (ت: ٢٦٠)، كان حافظاً لموطأ الإمام مالك، فقيهاً فيه، وصنّف عليه كتباً، منها: «تفسير الموطأ»، وهو المراد هنا، والنقل عنه كثيرٌ في كتب المالكية، تارةً بإفراد لفظة «التفسير»، وتارةً بإضافتها إلى «الموطأ». وسيأتي النقل من كتابه (ص: ٣٨٩). ولا أدري أوقف عليها المصنف أم نقل عنها بواسطة؟ وإن كان النقل الذي هنا يشبه أن يكون عن المنذر بن سعيد. ترجمته في: «تاريخ علماء الأندلس» (٢/ ١٨١)، و«ترتيب المدارك» (٤/ ٢٣٨)، وغيرهما.

(٤) عبد الله بن نافع الزبيري، الفقيه، صاحب مالك (ت: ٢١٦). ترجمته في: «ترتيب المدارك» (٣/ ١٤٥)، و«السير» (١٠/ ٣٧٤).

ويبعد أن يكون المقصود عبد الله بن نافع الصائغ؛ فإنَّ أبْن مزين يصغُرُ عن لقائه. =

الجنة: أمخلوقة؟ فقال: السُّكوت عن هذا أفضل».

قالوا: فلو كان عند ابن نافع أنَّ الجنة التي أَسْكِنها آدم هي جنة الخلد لم يشكَّ أنها مخلوقة، ولم يتوقَّف في ذلك.

وقال ابن قتيبة في كتابه «غريب القرآن»^(١) في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا﴾: «قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية أبي صالح: هو كما يقال: هَبَطَ فلان أرض كذا وكذا». ولم يذكر في كتابه غيره.

فأين إجماع سلف الأمة وأئمتها؟!

قالوا: وأما احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ عقب قوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾؛ فهذا لا يدلُّ على أنهم كانوا في جنة الخلد؛ فإنَّ أحدَ الأقوال في المسألة أنها كانت جنة في السماء غير جنة الخلد، كما حكاه الماورديُّ في «تفسيره»، وقد تقدم.

وأيضاً؛ فإنَّ قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ يدلُّ على أنَّ لهم مستقراً إلى حين في الأرض المنقطعة عن الجنة ولا بد؛ فإنَّ الجنة أيضاً لها أرض، قال الله تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]، فدلَّ على أنَّ قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أنَّ المراد به الأرض الخالية من تلك

= وكثيراً ما تختلط رواية الاثنين عند الفقهاء، كما يقول القاضي عياض في مقدمة «ترتيب المدارك» (١/ ١٧).

(١) (٤٦).

الجنة، لا كُلُّ ما يسمَّى أرضًا. وكان مستقرُّهم الأول في أرض الجنة، ثم صاروا في أرض الابتلاء والامتحان، ثم يصيرُ مستقرُّ المؤمنين يوم الجزاء أرض الجنة أيضًا؛ فلا تدلُّ الآية على أنَّ جنة آدم هي جنة الخلد.

قالوا: وهذا هو الجوابُ بعينه عن استدلالكم بقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾؛ فإنَّ المرادَ به الأرض التي أُهبطوا إليها وجُعِلَتْ مسكنًا لهم بدل الجنة، وهذا تفسيرُ المستقرِّ المذكور في «البقرة» مع تضمُّنه ذِكْرُ^(١) الإخراج منها.

قالوا: وأما قوله تعالى لإبليس: ﴿فَاهْطِ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، وقولكم: إنَّ هذا إنما هو في الجنة التي في السماء، وإلا فجنة الأرض لم يُمنع إبليس من التكبر فيها = فهو دليلٌ لنا في المسألة؛ فإنَّ جنة الخلد لا سبيل لإبليس إلى دخولها والتكبر فيها أصلًا، وقد أخبر تعالى أنه وسوس لأدم وزوجه، وكذَّبهما، وغرَّهما، وخانهما، وتكبر عليهما، وحسدهما، وهما حيثنَّ في الجنة، فدلَّ على أنها لم تكن جنة الخلد، ومحالٌّ أن يصعد إليها بعد إهباطه وإخراجه منها.

قالوا: والضمير في قوله: ﴿فَاهْطِ مِنْهَا﴾ إمَّا أن يكون عائداً إلى السماء، كما هو أحد القولين، وعلى هذا فيكونُ سبحانه قد أهبطه من السماء عقب امتناعه من السجود، وأخبر أنه ليس له أن يتكبر فيها، ثم تكبر وكذب وخان في الجنة؛ فدلَّ على أنها ليست في السماء.

أو يكونُ عائداً إلى الجنة، على القول الآخر، ولا يلزمُ من هذا القول أن

(١) (ت): «ذلك».

تكون الجنة التي كاد فيها آدمُ وغرّه وقاسمه كاذبًا هي تلك التي أهيط منها، بل القرآن يدلُّ على أنها غيرها، كما ذكرناه.

فعلى التقديرين، لا تدلُّ الآيةُ على أنَّ الجنةَ التي جرى لآدمَ مع إبليس ما جرى فيها هي جنةُ الخلد.

قالوا: وأمّا قولكم: إنَّ بني إسرائيل كانوا بجبال الشَّراة المُشرِّفة على الأرض التي يهبطون إليها، وهم كانوا يسيرون ويرحلون، فلذلك قيل لهم: ﴿أَهْبِطُوا﴾ = فهذا حقٌّ لا ننازعكم فيه، وهو بعينه جوابٌ لنا؛ فإنَّ الهبوط يدلُّ على أنَّ تلك الجنةَ كانت أعلى من الأرض التي أهبطوا إليها، وأمّا كونها جنةُ الخلد فلا.

قالوا: والفرق بين قوله: ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا﴾ وقوله: ﴿أَهْبِطُوا مِنْهَا﴾ بأنَّ الأول متضمَّنٌ لنهاية الهبوط وغايته، و﴿أَهْبِطُوا مِنْهَا﴾ متضمَّنٌ لمبدئه وأوله = لا تأثير له فيما نحن فيه؛ فإنَّ «هَبَطَ من كذا إلى كذا» يتضمنُ معنى الانتقال من مكانٍ عالٍ إلى مكانٍ سافل، فأیُّ تأثيرٍ لابتداء الغاية ونهايتها في تعيين محلِّ الهبوط بأنه جنةُ الخلد؟!

قالوا: وأمّا قصة موسى ولومه لآدمَ على إخراجهِ من الجنة، فلا يدلُّ على أنها جنةُ الخلد.

وقولكم: «لا يُظنُّ بموسى أنه يلومُ آدمَ على إخراجهِ نفسه وذريته من بستانٍ في الأرض» تشنيعٌ لا يفيد شيئاً؛ أفترى كان ذلك بستانًا مثل آحاد هذه البساتين المقطوعة الممنوعة، التي هي عُرضةُ الآفات، والتعب والنَّصب، والظَّمأ والضُّحج^(١)، والسَّقْي والتلقيح، وسائر وجوه النَّصب الذي يلحقُ

(١) ضحا الرجل، يَضْحَى، ضُحْيًا: إذا أصابه حرُّ الشمس. «اللسان» (ضحا).

هذه البساتين؟!؟

ولا ريب أنَّ موسى عليه الصلاة والسلام أعلم وأجلُّ من أن يُلوم آدم على خروجه وإخراج بنيه من بستانٍ هذا شأنه، ولكن من قال بهذا؟!؟

وإنما كانت جنة لا تلحقها آفة، ولا تنقطع ثمارها، ولا تغور أنهارها، ولا يجوع ساكنها ولا يظمئ، ولا يضحى للشمس ولا يعرى، ولا يمسه فيها التعب والنصب والشقاء، ومثل هذه الجنة يحسن لوم الإنسان على التسبب في خروجه منها.

قالوا: وأما اعتذار آدم ﷺ يوم القيامة لأهل الموقف بأنَّ خطيئته هي التي أخرجتهم^(١) من الجنة، فلا يحسن أن يستفتحها لهم؛ فهذا لا يستلزم أن تكون هي بعينها التي أخرج منها، بل إذا كانت غيرها كان أبلغ في الاعتذار؛ فإنه إذا كان الخروج من غير جنة الخلد حصل بسبب الخطيئة، فكيف يليق استفتاح جنة الخلد والشفاعة فيها وقد خرج من غيرها بخطيئة؟!؟

فهذا موقف نظر الفريقين، ونهاية أقدام الطائفتين، فمن كان عنده^(٢) فضل علم في هذه المسألة فليجذبه، فهذا وقت الحاجة إليه، ومن علم منتهى خطوته، ومقدار بضاعته، فليكيل الأمر إلى عالمه، ولا يرضى لنفسه بالتقصير^(٣) والإضرار عليه، وليكن من أهل التلؤلؤ الذين هم نظارة الحرب،

(١) كذا في الأصول. وفي (ط): «أخرجته».

(٢) (ق): «له».

(٣) (ق): «بالتقصير». وفي (ت): «بالتقصير والإضرار بالتقصير عليه».

إذا لم يكن من أهل الكَرِّ والفرِّ والطَّعن والضَّرب، فقد تلاقت الفحول،
وتطاعنت الأقران، وضاق بهم المجال في حلبة هذا الميدان.

إذا تلاقى الفحول في لَجَبٍ فكيف حال البعوض في الوَسَطِ^(١)

فهذه معاقدُ حجج الطائفتين مُجتازةٌ ببابك، وإليك تُساق، وهذه بضائعُ
تَجَّار العلماء ينادى عليها في سوق الكساد، لا في سوق التَّفَاق، فمن لم
يكن لديه شيءٌ من أسباب البيان والتبصرة، فلا يَعْدَم مَنْ قد أَسْتَفْرَغَ وَسْعَهُ
وبذل جهده منه التصويب أو المعذرة، ولا يرضى لنفسه بشرَّ الخُطَّتين،
وأبخس الحظَّين: جهل الحقِّ وأسبابه، ومعاذة أهله وطُلابه.

وإذا عَظُمَ المطلوب، وأَعُوْزَكَ الرفيقُ الناصحُ العليم، فترَحَّلْ^(٢) بهمتك
من بين الأموات، وعليك بمعلم إبراهيم؛ فقد ذكرنا في هذه المسألة من
النقول والأدلة والنكت البديعة ما لعلَّه لا يوجد في شيء من كتب
المصنِّفين، ولا يعرف قدره إلا من كان من الفضلاء المُنْصِفِينَ.

ومن الله سبحانه الاستمداد، وعليه التوكُّل وإليه الاستناد، فإنه لا يخيبُ
من توكَّل عليه، ولا يضيعُ من لاذَّ به وفوَّض أمره إليه، وهو حسبنا ونعم
الوكيل.

فصل

ولمَّا أهبط الله آدمَ من الجنة، وعَرَّضَهُ وذريته لأنواع المحن والبلاء؛

(١) البيت في «الحيوان» (٩٠ / ٧)، و«عيون الأخبار» (١٢٨ / ٢)، و«التمثيل والمحاضرة»
(٣٣٣) لبعض المولدين. وفي جميعها: «الفيول وازدحمت».

(٢) (ق، د): «فارحل».

أعطاهم أفضل مما منعهم، وهو عهده الذي عهد إليه وإلى بنيه، وأخبر أنه من تمسك به منهم صار إلى رضوانه ودار كرامته.

قال تعالى عقب إخراجه منها: ﴿قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وفي الآية الأخرى قال: ﴿أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَابِتْنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيكَ ﴿[طه: ١٢٣ - ١٢٦].

فلما كسره سبحانه بإهباطه من الجنة جبره وذريته بهذا العهد الذي عهد إليه، فقال تعالى: ﴿فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، وهذه هي «إن» الشرطية المؤكدة بـ «ما» الدالة على استغراق الزمان، والمعنى: أي وقت وأي حين أتاكم مني هدى.

وجعل جواب هذا الشرط جملة أخرى شرطية، وهي قوله: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾، كما تقول: إن زرتني فمن بشرني بقدومك فهو حُرٌّ.

وجواب الشرط يكون جملة تامة:

* إِمَّا خَيْرًا مَحْضًا، كقولك: إن زرتني أكرمك، أو خيرًا مقرونًا بالشرط كهذا، أو مؤكدًا بالقسم، أو بـ «إن» واللام، كقوله تعالى: ﴿وَلِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

* وَإِمَّا طَلَبًا، كقول النبي ﷺ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا أَسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»^(١)، وقوله: «وَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا»^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

وأكثر ما يأتي هذا النوع مع «إذا» التي تفيده^(٣) تحقيق وقوع الشرط؛ لِسِرِّ^(٤)، وهو إفادته تحقيق الطلب عند تحقق الشرط، أي: فمتى تحقق الشرط فالطلب متحقق، فأتى بـ «إذا» الدالة على تحقق^(٥) الشرط، فعلم تحقق الطلب عندها.

وقد يأتي مع «إن» قليلاً، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس: ٤١].

* وَإِمَّا جملة إنشائية، كقوله لعبده الكافر: إن أسلمت فأنت حرٌّ، ولامرأته: إن فعلت كذا فأنت طالق، فهذا إنشاء للعتق والطلاق عند وجود الشرط - على رأي -، أو إنشاء له حال التعليق، ويتأخر نفوذه إلى حين وجود

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٩٣/١) من حديث ابن عباس.

قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وانظر: «الضعفاء للعقيلي (٣/٥٣، ١٧٨، ٣٩٨، ٤/٤٢٦)، و«جامع العلوم والحكم» (٣٤٥)، و«نور الاقتباس» (٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٦٦)، ومسلم (١٧٤٢) من حديث ابن أبي أوفى.

(٣) (ح): «تقيد». (ت): «بقيد».

(٤) «لسر» ليست في (ق، ت).

(٥) (ق): «تحقيق».

الشرط - على رأي آخر - . وعلى التقديرين، فجواب الشرط جملة إنشائية.
والمقصود أن جواب الشرط في الآية المذكورة جملة شرطية، وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَبْعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وهذا الشرط يقتضي ارتباط الجملة الأولى بالثانية ارتباط العلة بالمعلول، والسبب بالمسبب، فيكون الشرط الذي هو ملزوم علةً ومقتضيًا للجزاء الذي هو لازم.

فإن كان بينهما تلازم من الطرفين كان وجود كل منهما بدون وجود الآخر^(١) ممتنعًا، كدخول الجنة بالإسلام، وارتفاع الخوف والحزن والضلال والشقاء مع متابعة الهدى.

وهذه عامة^(٢) شروط القرآن والسنة؛ فإنها أسبابٌ وعِلَلٌ، والحكمُ ينتفي بالتفاء علةً.

وإن كان التلازم بينهما من أحد الطرفين كان الشرط ملزومًا خاصًا والجزاء لازمًا عامًا، فمتى تحقق الشرط الملزوم الخاص تحقق الجزء اللازم العام، ولا يلزم العكس، كما يقال: إن كان هذا إنسانًا فهو حيوان، وإن كان البيع صحيحًا فالملك ثابت.

وهذا غالب ما يأتي في قياس الدلالة^(٣)، حيث يكون الشرط دليلًا على

(١) (ت، ن، ق): «بدون دخول الآخر». (ح): «بدون الآخر».

(٢) (ت): «هي غاية».

(٣) وهو أحد أقسام القياس الثلاثة باعتبار العلة. والمراد به: ما كان الجامع فيه بين الفرع والأصل هو لازم العلة، أو أثرها، أو حكمها. انظر: «اللمع» (٢٨٨).

الجزاء، فيلزم من وجوده وجودُ الجزاء؛ لأنَّ الجزاء لازمٌ، ووجودُ الملزوم يستلزم وجودَ اللازم، ولا يلزم من عدمه عدمُ الجزاء.

وإن وقعَ هذا الشرطُ بين علةٍ ومعلول؛ فإن كان الحكمُ معللاً بعللٍ صحَّ ذلك، وجاز أن يكون الجزاء أعمَّ من الشرط، كقولك: إن كان هذا مرتدًّا فهو حلالُ الدَّم؛ فإنَّ حِلَّ الدَّم أعمُّ من حِلِّه بالردة، إلا أن يقال: «إنَّ حكمَ العلة المعيّنة ينتفي بانتفائها، وإن ثبتَ الحكمُ بعلَّةٍ أخرى فهو حكمٌ آخر، وأمَّا حكمُ العلة المعيّنة فمحالٌ أن يبقى»^(١) مع زوالها، وحينئذٍ فيعودُ التلازمُ من الطرفين، ويلزمُ من وجود كلِّ واحدٍ من الشرط والجزاء وجودُ الآخر، ومن عدمه عدمه.

وتمامُ تحقيق هذا في مسألة تعليل الحكم الواحد بعلتين؛ وللناس فيه نزاعٌ مشهور، وفصلُ الخطاب فيها: أنَّ الحكمَ الواحدَ إن كان واحداً بالنوع، كحِلِّ الدَّم، وثبوت الملك، ونقض الطَّهارة؛ جاز تعليله بالعلل المختلفة. وإن كان واحداً بالعين، كحِلِّ الدَّم بالردة، وثبوت الملك بالبيع أو الميراث، ونحو ذلك؛ لم يجزُ تعليله بعلتين مختلفتين. وبهذا التفصيل يزول الاشتباه في هذه المسألة، والله أعلم.

ومن تأمل أدلة الطائفتين وجدَّ كلَّ ما احتجَّ به من رأىٍ لتعليل الحكم بعللٍ مختلفةٍ إنما يدلُّ على تعليل الواحد بالنوع بها، وكلُّ من نفى تعليل الحكم بعلتين إنما يتمُّ دليُّه على نفي تعليل الواحد بالعين بهما؛ فالقولان عند التحقيق يرجعان إلى شيء واحد^(٢).

(١) (ت): «تبقى». وفي (ق): «ينفي»، وهو تحريف.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦٧/٢٠)، و«جامع المسائل» (٩٠/٦).

والمقصودُ أنَّ الله سبحانه جعل أتباعَ هداة وعَهْدَه الذي عَهْدَه إلى آدم سبيًا ومقتضيًا لعدم الخوف والحزن، والضلال والشقاء، وهذا الجزاءُ ثابتٌ بثبوت الشرط، مُنتَفٍ بانتفائه، كما تقدَّم بيانه.

ونفي الخوف والحزن عن متَّبِ الهدى نفيٌ لجميع أنواع الشرور؛ فإنَّ المكروه الذي ينزلُ بالعبد متى عَلِمَ بحصوله فهو خائفٌ منه أن يقع به، وإذا وقع به فهو حزينٌ على ما أصابه منه، فهو دائماً في خوفٍ وحزن، فكلُّ (١) خائفٍ حزينٌ، وكلُّ حزينٍ خائفٌ، وكلُّ من الخوف والحزن يكونُ على فوت (٢) المحبوب وحصول المكروه.

فالأقسامُ أربعة: خوفٌ من فَوْتِ المحبوب وحصول المكروه، وحزنٌ على فَوْتِ المحبوب وحصول المكروه (٣)، وهذا جماعُ الشرِّ كلِّه.

فنفي الله سبحانه ذلك عن متَّبِ هداة الذي أنزله على السنة رسله، وأتى في نفي الخوف بالاسم الدالُّ على نفي الثبوت واللزوم (٤)، فإنَّ أهل الجنة لا بدَّ لهم من الخوف في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم القيامة حيث يقول آدمٌ وغيره من الأنبياء: «نفسى، نفسى»؛ فأخبر سبحانه أنهم وإن خافوا فلا خوفٌ عليهم، أي: لا يلحقهم الخوف الذي خافوا منه.

وأتى في نفي الحزن بالفعل المضارع الدالُّ على نفي التجدد

(١) (ت، ق): «وكل».

(٢) في الأصول: «فعل». وهو تحريف. وسيأتي على الصواب.

(٣) قوله: «وحزن على فوت المحبوب وحصول المكروه» من (ت).

(٤) في قوله عزَّ شأنه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٣٨].

والحدوث^(١)، أي: لا يلحقهم حزنٌ ولا يحدث لهم إذا تذكروا ما سلف منهم، بل هم في سرورٍ دائم لا يعرض لهم حزنٌ على ما فات.

وأما الخوف؛ فلما كان تعلُّقه بالمستقبل دون الماضي نفى لحوقه لهم جملةً، أي: الذي خافوا منه لا ينالهم ولا يلثم بهم. والله أعلم.

فالحزين إنما يحزن في المستقبل على ما مضى، والخائف إنما يخاف في الحال مما يستقبل، فلا خوفٌ عليهم^(٢)، أي: لا يلحقهم ما خافوا منه، ولا يعرض لهم حزنٌ على ما فات.

وقال في الآية الأخرى: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾، فنفى عن متبِع هداه أمرين: الضلال، والشقاء.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة»، ثم قرأ: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾^(٣).

والآية نفَت مسمى الضلال والشقاء عن متبِع الهدى مطلقاً، فاقترضت

(١) في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨].

(٢) (ت، ن): «فقال لا خوف عليهم».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (١٠/٤٦٧، ١٣/٣٧١)، وعبد الرزاق (٣/٣٨٢)، والطبري (١٨/٣٨٩)، وغيرهم من طرق يصحُّ بها.

وصححه الحاكم (٢/٣٨١) ولم يتعقبه الذهبي.

وروي مرفوعاً عند الطبراني في «الأوسط» (٥٤٦٦)، و«الكبير» (١٢/٤٨)، ولا يصح.

الآية أنه لا يضلُّ في الدنيا ولا يشقى فيها، ولا يضلُّ في الآخرة ولا يشقى فيها؛ فإنَّ المراتبَ أربعة: هدى وسعادة^(١) في الدنيا، وهدى وسعادة^(٢) في الآخرة.

لكنَّ أبَنَ عباسٍ رضي الله عنهما ذَكَرَ في كُلِّ دارٍ^(٣) أظهرَ مرتبتيها؛ فذكرَ الضلالَ في الدنيا إذ هو أظهرُ لنا وأقربُ من ذكرِ الضلالِ في الآخرة، وذكرَ الشَّقاءَ في الآخرة إذ هو أظهرُ عند الناس من الضلالِ فيها، بل كثيرٌ من الناس لا يحصلُ في ذهنه حقيقةُ الضلالِ في الآخرة. وأيضًا؛ فضلالُ الدنيا أصلُ ضلالِ الآخرة، وشقاءُ الآخرة مستلزمٌ للضلالِ فيها.

فنبَّهَ بكلِّ مرتبةٍ على الأخرى؛ فنبَّهَ بنفي ضلالِ الدنيا على نفي ضلالِ الآخرة؛ فإنَّ العبدَ يموتُ على ما عاش عليه، ويُبْعَثُ على ما مات عليه؛ قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾^(١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدَكُنْتُ بَصِيرًا^(١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ أَنتَ أَأَيُّتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِيكَ ﴿طه: ١٢٤-١٢٦﴾.

وقال في الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]، فأخبر أنَّ من كان في هذه الدار ضالًّا فهو في الآخرة أضلُّ.

(١) (ح، ن): «وشقاوة». وفي طرة (د): «لعله: وضلال».

(٢) (ق، د، ح، ن): «وشقاوة». والمثبت في الموضعين هو الأشبهُ بالسياق، ومقابل الهدى: الضلال، ومقابل السعادة: الشقاء.

(٣) (ح، ن): «من كل دار».

وأما نفي شقاء الدنيا، فقد يقال: إنه لما أنتفى عنه الضلال فيها^(١)، وحصل له الهدى، والهدى فيه من برد اليقين، وطمأنينة القلب، وذوق طعم الإيمان، ووجد^(٢) حلاوته، وفرحة القلب به، وسروره، والتنعم به، ومصير القلب حياً بالإيمان، مستنيراً به، قوياً به، قد نال به غذاءه ودواءه، وشفاءه وحياته، ونوره وقوته، ولذته ونعيمه = ما هو أجل أنواع النعيم^(٣)، وأطيب الطيبات، وأعظم اللذات.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فهذا خبر أصدق الصادقين، ومخبره عند أهله عين اليقين، بل حق اليقين؛ فلا بد لكل من عمل صالحاً وهو مؤمن^(٤) أن يُحييه الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله.

ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة الطيبة، حيث يظنونها التنعم بأنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح، أو لذة الرياسة والمال وقهر الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات؛ ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين

(١) لم يُذكر جواب «لما»؛ لدلالة الكلام عليه. كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِوَيْهٍ وَأَجْمَعُوا﴾ [يوسف: ١٥]، وبعضهم يجعل قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ هو الجواب، والواو زائدة. ويقابله هنا قوله: «وحصل له الهدى».

(٢) (ق): «فوجد». وليست في (ت). وانظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٢٤ - تحقيق د. عبد الحميد مدكور).

(٣) السياق: والهدى فيه من برد اليقين... ما هو أجل أنواع النعيم.

(٤) «وهو مؤمن» ساقطة من (ت، ق).

البهائم، بل قد يكونُ حظُّ كثيرٍ من البهائم منها أكثر من حظِّ الإنسان؛ فمن لم يكن عنده لذةٌ إلا اللذةُ التي تشاركه فيها السَّبَاعُ والدوابُّ والأنعامُ فذلك ممن يُنادى من مكانٍ بعيد^(١).

ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمرٍ إذا خالط بشاشته القلوبَ سَلا عن الأبناء والنساء، والأوطان والأموال، والإخوان والمساكن، ورضي بتركها كلُّها والخروج منها رأسًا، وعَرَّضَ نفسه لأنواع المكاره والمشاق، وهو متحملٌ لهذا^(٢)، منشِرحُ الصدر به، يطيبُ له قتلُ أبنه وأبيه وصاحبته وأخيه، لا تأخذه في ذلك لومةٌ لائم.

حتى إنَّ أحدهم^(٣) ليتلقَّى الرمحَ بصدرة وهو يقول: «فزتُ وربَّ الكعبة».

ويستطيل الآخر^(٤) حياته حتى يلقي قوته من يده، ويقول: «إنها لحياةٌ طويلةٌ إن صبرتُ حتى أكلها»، ثم يتقدَّم إلى الموت فَرِحًا مسرورًا.

ويقول الآخر^(٥) - مع فقره -: «لو علم الملوكُ وأبناء الملوك ما نحن

(١) قال الفراء في «معاني القرآن» (٣/ ٢٠): «تقول للرجل الذي لا يفهم قولك: أنت تُنادى من مكانٍ بعيد. وتقول للفهم: إنك لتأخذ الشيء من قريب».

وانظر: «معاني القرآن» للنحاس (٦/ ٢٨١).

(٢) غير محررة في (د، ت). (ق): «مستحل بهذا». (ن): «متحمل بهذا».

(٣) هو حرام بن ملحان رضي الله عنه. أخرجه البخاري (٤٠٩٢)، ومسلم (٦٧٧).

(٤) هو عمير بن الحمام رضي الله عنه. أخرج خبره مسلم (١٩٠١).

(٥) هو إبراهيم بن أدهم. أخرج قوله أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٧٠)، والبيهقي في «الزهد» (٨٠)، وغيرهما.

عليه لجالدوننا عليه بالسُّيوف».

ويقول الآخر^(١): «إنه لتمرُّ بالقلب أوقاتٌ يرقصُ فيها طربًا».

وقال بعضُ العارفين^(٢): «إنه لتمرُّ بي أوقاتٌ، أقولُ فيها: إن كان أهلُ الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيشٍ طيبٍ»^(٣).

ومن تأمل قول النبي ﷺ لَمَّا نهاهم عن الوصال، فقالوا: إنك تُواصل فقال: «إني لستُ كهيتكم، إني أظُلُّ عند ربي يطعمني ويسقيني»^(٤)؛ عَلِمَ أَنَّ هذا طعامُ الأرواح وشرابها، وما يفيضُ عليها من أنواع البهجة واللذة والسرور والنعيم الذي رسولُ الله ﷺ في الذروة العليا منه، وغيره إذا تعلَّق بغباره رأى مُلْكَ الدُّنيا ونعيمَها بالنسبة إليه هباءً منثورًا، بل باطلاً وغرورًا.

وغلِط من قال: إنه كان يأكلُ ويشربُ طعامًا وشرابًا يغتذي به بدنه؛ لوجوه^(٥):

أحدها: أنه قال: «أظُلُّ عند ربي يطعمني ويسقيني»، ولو كان أكلًا وشرابًا لم يكن وصالًا ولا صومًا.

(١) هو أبو سليمان الداراني. في «البداية والنهاية» (١٤/١٥٢). وانظر: «تاريخ دمشق» (١٤٧/٣٤).

(٢) هو أبو سليمان الداراني. نسبه إليه ابن كثير في الموضع السابق.

(٣) وفي (ح): «إنهم لفي النعيم». وفي (ن): «لفي أنعم عيش».

(٤) أخرجه البخاري (١٩٦٥)، ومسلم (١١٠٣) من حديث أبي هريرة.

(٥) انظر: «جامع المسائل» (١/١٢٢)، و«مدارج السالكين» (٣/٨٨)، و«زاد المعاد»

(٢/٣٢، ٤/٩٤)، و«إيمان القرآن» (٥٧٩)، و«الداء والدواء» (٤٦٠)، و«شرح مسلم»

للنووي (٤/٢٢٠)، و«فتح الباري» (٤/٢٠٧)، و«لطائف المعارف» (٣٤٤).

الثاني: أن النبي ﷺ أخبرهم أنهم ليسوا كهيتته في الوصال، فإنهم إذا واصلوا تضرّروا بذلك، وأمّا هو ﷺ فإنه إذا واصل لا يتضرّر بالوصال. فلو كان يأكل ويشرب لكان الجواب: «وأنا أيضًا لا أواصل، بل أكلُ وأشربُ كما تأكلون وتشربون»، فلمّا قرّره على قولهم: إنك تواصل، ولم ينكره عليهم، دلّ على أنه كان مواصلاً، وأنه لم يكن يأكل أكلاً وشرباً يُفطرُ الصّائم.

الثالث: أنه لو كان أكلاً وشرباً يُفطرُ الصّائم لم يصحّ الجواب بالفارق بينهم وبينه، فإنه حينئذ يكون ﷺ هو وهم مشتركون^(١) في عدم الوصال، فكيف يصحّ الجواب بقوله: «لست كهيتكم»؟!

وهذا أمرٌ يعلمه غالبُ الناس، أن القلب متى حصل له ما يُفرّحه ويسرّه من نيل مطلوبه، ووصال حبيبه، أو ما يغمّه ويسوؤه ويحزنه، شُغل عن الطعام والشراب، حتى إنّ كثيراً من العشاق تمرّ به الأيام لا يأكل شيئاً، ولا تطلبُ نفسه أكلاً.

وقد أفصح القائل في هذا المعنى:

لها أحاديثٌ من ذكراك تشغلها عن الشرابِ وتلهيها عن الزادِ
لها بوجهك نورٌ تستضيء به ومن حديثك في أعقابها حادي
إذا أشتكت من كلالِ السيرِ أو عدها رَوْحَ القُدومِ فتحيا عند ميعادِ^(٢)

(١) كذا في الأصول، بالرفع. والجدادة النصب.

(٢) الأول والثاني: لإدريس بن أبي حفصة، يذكّر إبلاً، في «ديوان المعاني» (١/ ١٩١)، و«الأنوار» (١/ ٤٠٠)، و«الحماسة البصرية» (١/ ١٥٧)، و«زهر الآداب» (١/ ٥٠٧). والثالث: أنشده الغزالي في «رسالة الطير» (٧٢- مقالات فلسفية نشرها لويس شيخو)، وأنشده إسماعيل بن إبراهيم المعري في «ذيل مرآة الزمان» لليونيني (٣/ ٤٣).

والمقصودُ أنَّ الهدى مستلزمٌ لسعادة الدنيا، وطيب الحياة، والنعيم العاجل، وهو أمرٌ يشهدُ به الحسُّ والوجد، وأما سعادة الآخرة فغيبٌ يُعلمُ بالإيمان، فذكرها ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما لكونها أهمَّ، وهي الغاية المطلوبة، وضلالُ الدنيا أظهر، وبالنجاة منه ينجو من كلِّ شرٍّ، وهو أصلُ ضلال الآخرة وشقائها، فلذلك ذكره وحده. والله أعلم.

فصل

وهذان الأصلان^(١) - أعني: الضلال والشقاء - يذكرهما سبحانه كثيرًا في كلامه، ويخبرُ أنهما حظُّ أعدائه، ويذكرُ ضدَّهما - وهما: الهدى والفلاح - كثيرًا، ويخبرُ أنهما حظُّ أوليائه.

أما الأول؛ فكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧]، فالضلالُ الضلال، والسُّعُرُ هو الشقاء والعذاب، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

وأما الثاني؛ فكقوله تعالى في أول «البقرة» - وقد ذكر المؤمنين وصفاتهم -: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وكذلك في أول «لقمان»، وقال في «الأنعام»: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَتَمُّونَ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾.

ولما كانت سورة أمِّ القرآن أعظم سورة في القرآن، وأفرَضَها قراءةً على الأمة، وأجمعها لكلِّ ما يحتاجُ إليه العبد، وأعمَّها نفعًا = ذكر فيها الأمرين:

(١) (ت، د، ق): «الضلالان».

فأمرنا أن نقول: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فذكر الهداية والنعمة، وهما الهدى والفلاح.

ثم قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فذكر المغضوب عليهم وهم أهل الشقاء، والضالين وهم أهل الضلال، وكل من الطائفتين له الضلال والشقاء، لكن ذكر الوصفين معاً لتكون الدلالة على كل منهما بصريح لفظه.

وأيضاً؛ فإنه ذكر ما هو أظهر الوصفين في كل طائفة، فإن الغضب على اليهود أظهر؛ لعنادهم الحق بعد معرفته، والضلال في النصارى أظهر؛ لغلبة الجهل فيهم، وقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «اليهود مغضوبون عليهم، والنصارى ضالون»^(١).

فصل

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ هو خطاب لمن أهبطه^(٢) من الجنة بقوله: ﴿أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، ثم قال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾.

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥٣، ٢٩٥٤)، وأحمد (٣٧٨/٤)، وغيرهما.

قال الترمذي: «حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب». وصححه ابن حبان (٦٢٤٦، ٧٢٠٦، ٧٣٦٥).

وروي من وجه آخر أصح من هذا الوجه.

انظر: «مسند الطيالسي» (٣٧٢/٢)، و«بيان الوهم والإيهام» (٤/٥١، ٦٦٨)، و«تفسير ابن كثير» (١/١٦٤)، و«فتح الباري» (٨/١٥٩).

(٢) (ح، ن): «أهبط».

وكلا الخطابين لأبوي الثقلين.

وهو دليل على أن الجن مأمورون منهون، داخلون تحت شرائع الأنبياء، وهذا مما لا خلاف فيه بين الأمة، وأن نبينا ﷺ بعث إليهم كما بعث إلى الإنس، كما لا خلاف بينها أن مسيئهم مستحق للعقاب. وإنما اختلف^(١) علماء الإسلام في المسلم منهم: هل يدخل الجنة^(٢)؟

فالجهمور على أن محسنهم في الجنة، كما أن مسيئهم في النار. وقيل: بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم، وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس، وإنما هي لآدم^(٣) وصالحي ذريته خاصة. وحكي هذا القول عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى^(٤).

واحتج الأولون بوجوه:

أحدها: هذه الآية؛ فإنه سبحانه أخبر أن من أتبع هداه فلا يخاف ولا

(١) (ق، ت): «اختلفت».

(٢) انظر: «العظمة» لأبي الشيخ (١٦٩٦/٥)، و«مجموع الفتاوى» (٢٣٣/٤)، ٣٠٦/١١، ٨٦/١٣، و«النبوات» (١٠١٠)، و«الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (١٨٧)، و«إيضاح الدلالة في عموم الرسالة» (٣٨/١٩) - مجموع الفتاوى، و«طريق الهجرتين» (٩١٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/١٧)، و«تفسير ابن كثير» (٣٢٠٩/٧)، و«أكام المرجان» للشبلي (٦٧)، و«فتح الباري» (٢٤٦/٦)، و«عمدة القاري» (١٨٤/١٥)، و«الأشباه والنظائر» للسيوطي (٥٠٥/١)، و«الفروع» (٦٠٣/١)، و«المبدع» (٥٨/٢)، و«أضواء البيان» (٤٠١/٧)، و«دفع إيهام الاضطراب» (٢٨٤).

(٣) (ن، د، ق): «لبنى آدم». وهو خطأ.

(٤) انظر: «غمز عيون البصائر» (٤١٥، ٤٠٦/٣).

يحزن، ولا يضل ولا يشقى، وهذا مستلزم لكمال النعيم.

ولا يقال: إِنَّ الآية إنما تدلُّ على نفي العذاب فقط، ولا خلاف أنَّ مؤمنهم لا يعاقبون؛ لأنَّا نقول: لو لم تدلَّ الآية إلا على أمرٍ عديمٍ فقط لم يكن مدحاً لمؤمني الإنس، ولما كان فيها إلا مجرد أمرٍ عديمٍ، وهو عدمُ الخوف والحزن.

ومعلومٌ أنَّ سياق الآية ومقصودها إنما أريد به أنَّ من أتبع هدى الله الذي أنزله حصل له غايةُ النعيم، واندفع عنه غايةُ الشقاء، وعبرَ عن هذا المعنى المطلوب بنفي الأمور المذكورة؛ لاقتضاء الحال لذلك، فإنه لما أُهبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل، فأخبره سبحانه أنه مُعطيه وذريته عهداً من أتبعه منهم أنتفى عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء، ومعلومٌ أنه لا ينتفي^(١) ذلك كله إلا بدخول دار النعيم^(٢)، ولكنَّ المقام بذكر التصريح بنفي غاية^(٣) المكروهات أولى.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۖ﴾^(١) قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ^(٢) يَنْقُومُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].

(١) (ن): «ينبغي».

(٢) (ح، ن): «إلا في دار النعيم».

(٣) (ح، ن): «غلبة».

فأخبر سبحانه عن نذيرهم - إخبار مقرر له ^(١) -: أن من أجاب داعيه غفر له وأجاره من العذاب.

ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلًا بقوله: ﴿وَيُخْرِكُم مِّنْ عَذَابِ آلِيمٍ﴾، بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار، فكل من غفر له فلا بد له من دخول الجنة.

الثالث: قوله تعالى في الحور العين: ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦، ٧٤]؛ فهذا يدل على أن مؤمني الجن والإنس يدخلون الجنة، وأنه لم يسبق من أحد منهم طمأنينة لأحد من الحور، فدل على أن مؤمنهم يتأتى منهم طمأنينة الحور العين بعد الدخول، كما يتأتى من الإنس، ولو كانوا ممن لا يدخل الجنة لما حسن الإخبار عنهم بذلك ^(٢).

الرابع: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ^(٣) وبشير الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشبهًا ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴿ [البقرة: ٢٤-٢٥].

والجن منهم مؤمن ومنهم كافر، كما قال صالحوهم: ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤]، فكما دخل كافرهم في الآية الثانية ^(٣)

(١) (ح): «مقرر له». (ت): «إخبار بقوله».

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢٣/٦٥)، و«حادي الأرواح» (٤٨٤).

(٣) وهي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]. والأولى هي =

وَجَبَّ أَنْ يَدْخَلَ مُؤْمِنُهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُولَى^(١).

الخامس: قوله عن صالحهم: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤]، والرَّشْدُ هو الهدى والفلاح، وهو الذي يهدي إليه القرآن، ومن لم يدخل الجنة لم يَنْلُ غاية الرشد، بل لم يحصل له من الرشد إلا مجردُ العدم.

السادس: قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [الحديد: ٢١]، ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسوله؛ فيدخل في المبشرين، ويستحقُّ البشارة.

السابع: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، عَمَّ سبحانه بالدعوة، وخصَّ بالهداية المُفضية إليها، فمن هداه إليها فهو ممن دعاه إليها؛ فمن أهتدى من الجن فهو من المدعوين إليها.

الثامن: قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْجَنِّ قَدْ أَسْتَكْبَرْتُمْ مِّنَ الْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مُثَوِّكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يُمَارُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَرِّوْكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ

= قوله قبلها: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤].

(١) سقط من (ح، ن) قوله: «فكما دخل كافرهم» إلى آخر الآية في الوجه الخامس.

رَبِّكَ مُهْلِكَ الْقَرَىٰ يُظْلِمُ وَأَهْلُهَا غَفْلُونَ ﴿١٣﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا ﴿١﴾
[الأنعام: ١٢٨ - ١٣٢]، وهذا عامٌّ في الجنِّ والإنس، فأخبر^(١) تعالى أن لكلهم درجاتٍ من عمله، فاقترض أن يكون لمُحْسِنِهِمْ درجاتٌ من عمله كما لمُحْسِنِ الْإِنْسِ.

التاسع: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١٣﴾ أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾
[الأحقاف: ١٣ - ١٤] (٢).

ووجه التمسك بالآية من وجوه ثلاثة:

أحدها: عموم الاسم الموصول فيها.

الثاني: ترتيبه الجزاء المذكور على الصلة^(٣)؛ ليدل على أنه مُسْتَحَقٌّ بها، وهو قول: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ مع الاستقامة، والحكم يعمُ بعموم علته؛ فإذا كان دخول الجنة مرتباً على الإقرار بالله وربوبيته مع الاستقامة على أمره، فمن أتى بذلك^(٤) استحقَّ الجزاء.

(١) (ق): «فأخبرهم».

(٢) (ح): «التاسع: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَحْزَنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾»، وفي الآية الأخرى: ﴿أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾».

(٣) صلة الموصول. وانظر: «بدائع الفوائد» (٤١٨)، و«طريق المهجرتين» (٧٩٧). وفي (ن، ح): «على المسألة». وهو خطأ. ويحتمل أن تقرأ: «العلة»، بدلالة ما بعدها.

(٤) (د، ن، ق): «ذلك».

الثالث: أنه قال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴿، فدلَّ على أن كل من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة.

وقد تقدّم في أول الآيات قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَتَّبِعْ هُداًى فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، وأنه متناولٌ للفرّيقين، ودلّت هذه الآية على أن من لا خوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة.

العاشر: أنه إذا دخل مسيئهم النار بعدل الله، فدخلوا محسنهم الجنة بفضل الله ورحمته أولى؛ فإن رحمته سبقت غضبه، والفضل أغلب من العدل.

ولهذا لا يُدخِل النار إلا مَنْ عَمِلَ أَعْمَالَ أَهْلِ النَّارِ، وأما الجنة فيُدخِلها من لم يعمل خيراً قط^(١)، بل ينشئ لها أقواماً يُسكنهم إياها من غير عملٍ عملوه، ويرفع فيها درجات العبد من غير سعي منه، بل بما يصل إليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقته وأعمال البرّ التي يُهدونها إليه^(٢)، بخلاف النار^(٣) فإنه لا يُعَذَّب فيها بغير عملٍ أصلاً.

وقد ثبت بنص القرآن وإجماع الأمة أن مسيء الجنّ في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون، فمحسنهم في الجنة بفضل الله وبما كانوا يعملون.

لكن قيل: إنهم يكونون في ربض الجنة، يراهم أهل الجنة ولا يرونهم،

(١) انظر: «التوحيد» لابن خزيمة (٢/ ٧٣٢).

(٢) انظر: «التقريب لعلوم ابن القيم» (١٧٢).

(٣) (ن، ح): «أهل النار». وهو خطأ.

كما كانوا في الدنيا يرون بني آدم من حيث لا يرونهم^(١). ومثل هذا لا يُعَلِّمُ إلا بتوقيفٍ تنقطعُ الحجَّةُ عنده، فإن ثبتت حجَّةٌ يجبُ اتِّباعُها وإلا فهو مما يحكى ليُعَلِّمَ، وصحته موقوفةٌ على الدليل، والله أعلم.

فصل

ومتابعةُ هدى الله التي رتب عليها^(٢) هذه الأمور هي:

* تصديق خبره من غير اعتراض شبهةٍ تقدح في تصديقه.

* وامتنال أمره من غير اعتراض شهوةٍ تمنع امتثاله.

وعلى هذين الأصلين مدارُ الإيمان، وهما: تصديق الخبر، وطاعة الأمر^(٣).

(١) يروى عن بعض السف. انظر: «طريق الهجرتين» (٩١١)، و«فتح الباري» (٢٤٧/٦)، و«عمدة القاري» (١٨٤/١٥).

وذكر ابن تيمية في «الفتاوى» (٨٦/١٣) أنه ورد به حديث رواه الطبراني في «المعجم الصغير»، وقال: «يحتاج إلى النظر في إسناد». قلت: لم أجده فيه، ولا في سائر مصنفات الطبراني المطبوعة.

وأخرج ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٩٨/٦٣)، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» (١٠١٧)، و«السير» (٨/١٧) عن أنس مرفوعاً: أن مؤمني الجن يكونون على الأعراف، وليس في الجنة مع أمة محمد ﷺ، وأن الأعراف حائط الجنة تجري فيه الأنهار.... قال الذهبي: هذا حديث منكرٌ جداً.

(٢) (ح، ن): «الذي رتب عليها».

(٣) انظر: «الصارم المسلول» (٩٦٧)، و«الإيمان الكبير» (٥٩/٧)، ١٤٢ - مجموع الفتاوى، و«قاعدة في المحبة» (١٥٥)، و«إيمان القرآن» (٦٢)، و«الصلاة وحكم تاركها» (٥٨).

ويتبعهما أمران آخران، وهما:

* نفى شبهات الباطل الواردة عليه، المانعة من كمال التصديق^(١)، وأن لا يَخْمَشَ بها وجه تصديقه.

* ودفع شهوات الغيِّ الواردة عليه، المانعة من كمال الامتثال.
فهنا أربعة أمور:

أحدها: تصديق الخبر.

الثاني: بذل الاجتهاد في ردِّ الشبهات التي تُوحِيها شياطينُ الجنِّ والإِنس في معارضته.

الثالث: طاعةُ الأمر.

الرابع: مجاهدةُ النفس في دفع الشهوات التي تحولُ بين العبد وبين كمال الطاعة.

وهذان الأمران - أعني: الشُّبُهات، والشَّهَوَات - أصلُ فساد العبد وشقائه في معاشه ومعاذه^(٢)، كما أنَّ الأصلين الأوَّلين - وهما: تصديق الخبر، وطاعةُ الأمر - أصلُ سعادته وفلاحه في معاشه ومعاذه.
وذلك أنَّ العبدَ له قوَّتَان:

* قوَّةُ الإدراك والنظر، وما يتبعُها من العلم والمعرفة والكلام.

* وقوَّةُ الإرادة والحبِّ وما يتبعُها من النِّيَّة والعزم^(٣) والعمل. فالشبهةُ

(١) (ح): «الامتثال». (ن): «الامتثال الخبر». وكلاهما خطأ.

(٢) انظر: «إغاثة اللهفان» (١٦٥/٢)، و«الصواعق المرسلة» (٥١٠).

(٣) (ح): «والعلم». تحريف.

تؤثر^(١) فسادًا في القوة العلمية النظرية ما لم يُداوِها بدفعها، والشهوة تؤثر فسادًا في القوة الإرادية العملية ما لم يُداوِها بإخراجها.

قال الله تعالى في حق نبيه يذكر ما من به عليه من نزاهته وطهارته مما يلحق غيره من ذلك: ﴿وَالنَّجْوَى إِذَا هُوَ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ١- ٢]؛ ف ﴿مَا ضَلَّ﴾ دليل على كمال علمه ومعرفته، وأنه على الحق المبين، ﴿وَمَا غَوَى﴾ دليل على كمال رشده وأنه أبر العالمين؛ فهو الكامل في علمه وفي عمله.

وقد وصف ﷺ بذلك خلفاء من بعده وأمر باتباعهم على سبيلهم^(٢)، فقال: «عليكم بسبتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» رواه الترمذي وغيره^(٣)؛ فالراشد ضد الغاوي، والمهدي ضد الضال.

وقد قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: ٦٩]، فذكر تعالى

(١) (ت): «تورث».

(٢) (ح): «سبيلهم».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٤)، وأحمد (١٢٦/٤)، وغيرهم من حديث العرياض بن سارية.

وصححه الترمذي، وابن حبان (٥)، والحاكم (٩٥/١) ولم يتعقبه الذهبي، والبخاري، وأبو نعيم، والضياء المقدسي، وابن تيمية، وغيرهم. انظر: التعليق على «ذم الكلام» للهرابي (٣/ ١٢٥ - ١٤٨ طبعة الغرباء).

الأصلين، وهما داء الأولين والآخرين^(١):

أحدهما: الاستمتاع بالخلاق، وهو النصيب من الدنيا، والاستمتاع به متضمنٌ لنيل الشهوات المانعة من متابعة الأمر، بخلاف المؤمن فإنه وإن نال من الدنيا وشهواتها فإنه لا يستمتع بنصيبه كله، ولا يُذْهِبُ طيباته في حياته الدنيا، بل ينال منها ما ينال ليتقوى به على التزود لمعاده.

والثاني: الخوض بالشبهات الباطلة، وهو قوله: ﴿وَحُضِّمْتُ كَالَّذِي خَاضُوا﴾، وهذا شأن النفوس الباطلة التي لم تُخْلَقْ لِلْآخِرَةِ، لا تزال ساعيةً في نيل شهواتها، فإذا نالتها فإنما هي في خوضٍ بالباطل^(٢) الذي لا يُجْدِي عليها إلا الضرر العاجل والآجل.

ومن تمام حكمة الله تعالى أنه يبتلي هذه النفوس بالشقاء والتعب في تحصيل مراداتها وشهواتها، فلا تنفرغ للخوض بالباطل إلا قليلاً، ولو تفرغت هذه النفوس الباطلية^(٣) لكانت أئمةً تدعو إلى النار، وهذا حال من

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٢٥)، و«الاستقامة» (١/٤٥٤)، و«إعلام الموقعين» (١/١٣٦)، و«الصواعق المرسلّة» (١٢١٠)، و«رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (١٨)، و«الكلام على مسألة السماع» (١٧٣).

(٢) (ح): «في الباطل».

(٣) المتبعة للشهوات، نسبةً إلى البطالة، أو الباطل، على غير قياس.

وقد وردت هذه النسبة الغريبة في مواضع من كتب المصنف. انظر: «تهذيب السنن» (٣/٨١)، و«بدائع الفوائد» (٨٤٦)، و«الكلام على مسألة السماع» (٢٢١)، وما سيأتي (ص: ٥٢٨).

كما وردت في كلام بعض أهل عصره بالدلالة نفسها. انظر: «الوافي» للصفدي (١٣/٣٣٤) فيما نقله عن ابن تيمية، و«النصيحة الذهبية» (المنسوبة للذهبي) (٨٦).

تفرَّغ منها كما هو مشاهدٌ بالعيان.

وسواءٌ كان المعنى: «وخضتم كالحزب الذي خاضوا»، أو: «كالفرق الذي خاضوا»؛ فإنَّ «الذي» يكونُ للواحد والجمع، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٣٣) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿[الزمر: ٣٣ - ٣٤]، لكن لا يجري على جمع تصحيح، فلا يجيء: «المسلمون الذي جاؤوا»، وإنما يجيء غالبًا في أسم الجمع، كالحزب، والفرق، أو حيث لا يُذكرُ الموصوفُ وإن كان جمعًا، كقول الشاعر^(١):

وإنَّ الذي حانت بفلج^(٢) دماؤهم همُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدٍ
أو حيثُ يرادُّ الجنسُ دون الواحد والعدد، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ﴾ ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، ونظيره الآية التي نحن فيها، وهي قوله: ﴿وَحُضِّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾.

= أو كان المعنى على القول الآخر: «وخضتم خوضًا كالخوض الذي

(١) أشهب بن ربيعة، في «الكتاب» (١/١٨٧)، و«المقتضب» (٤/١٤٦)، و«اللائي» (١/٣٥)، وغيرها.

ويروى في بعض المصادر: «وإنَّ الألى» كما في «البيان والتبيين» (٤/٥٥)، وفي بعضها: «وإنَّ التي» كما في «الخزانة» (٦/٢٩)، وعلى هاتين الروايتين فلا شاهد فيه. (٢) وإد في طريق البصرة إلى مكة. «معجم ما استعجم» (٣/١٢٠٧). وهو المسمى اليوم بوادي الباطن، وتقع فيه مدينة «حفر الباطن» شمال شرق المملكة العربية السعودية. «المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية» للجاسر (٣/١٣١٥).

خاضوا»؛ فيكونُ صفةً لمصدرٍ محذوف، كقولك: أضرب كالذي صَرَبَ، وأحسِن كالذي أحسَن، ونظائره. وعلى هذا فيكونُ العائدُ منصوبًا محذوفًا، وحذفه في مثل ذلك قياسٌ مطَّرد^(١).

وعلى القولين، فقد ذمَّهم سبحانه على الخوض بالباطل واتباع الشهوات، وأخبر أنَّ من كانت هذه حالته فقد حَبِطَ عمله في الدنيا والآخرة، وهو من الخاسرين.

ونظيرُ هذا قولُ أهل النار لأهل الجنة، وقد سألوهم: كيف دخلوها: ﴿قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾^(٤٣) وَلَوْ نَكُنْ نَظْعُمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُضَ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿[المدثر: ٤٣ - ٤٦]﴾، فذكروا الأصليين: الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين، وإيثار الشهوات وما يستلزمه^(٢) من ترك الصَّلوات وإطعام ذوي الحاجات. فهذا الأصلان هما ما هما. والله وليُّ التوفيق.

فصل

والقلبُ السليمُ الذي لا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله به^(٣) هو القلبُ الذي قد سلِمَ من هذا وهذا؛ فهو القلبُ الذي قد سلِمَ لربِّه، وسلِمَ لأمره، ولم تبق فيه منازعةٌ لأمره، ولا معارضةٌ لخبره، فهو سليمٌ مما سوى

(١) انظر: «الدر المصون» (٨٣/٦)، و«التيان» للعكبري (٦٥٠)، و«شرح المفصل» (١٥٦/٣).

(٢) (ت): «تستلزمه».

(٣) (ن، ح): «والقلب السليم الذي ينجو من عذاب الله».

الله وأمره، لا يريدُ إلا الله، ولا يفعلُ إلا ما أمره الله، فالله وحده غايته، وأمره وشرعه وسيلته وطريقته، لا تعترضه شبهة^(١) تحولُ بينه وبين تصديق خبره، لكن^(٢) لا تمرُّ عليه إلا وهي مُجتازة، تعلمُ أنه لا قرار لها فيه، ولا شهوة تحولُ بينه وبين متابعة رضاه.

ومتى كان القلبُ كذلك فهو سليمٌ من الشرك، وسليمٌ من البدع، وسليمٌ من الغيِّ، وسليمٌ من الباطل، وكلُّ الأقوال التي قيلت في تفسيره فذلك ينتظمها^(٣).

وحقيقته أنه القلبُ الذي قد سلَّم لعبودية ربِّه حبًّا وخوفًا ورجاءً؛ ففنيَ بحبه^(٤) عن حبِّ ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وسلَّم لأمره ولرسوله تصديقًا وطاعة، كما تقدَّم، واستسلم لقضائه وقدره فلم يتهممه ولم يُنازعْه ولم يتسخط لأقداره.

فأسلمَ لربِّه انقيادًا وخضوعًا، وذُلًّا وعبودية، وسلَّم جميعَ أحكامه^(٥)

(١) (ن، ح): «شبه».

(٢) كذا في الأصول. أي: «وقد تعترضه شبهة، لكن لا تمر... على الاستدراك، وهو بابُ «لكن». فإن كانت للإضراب - وقد تأتي له، انظر: «رصف المباني» (١٩٢) - فالمعنى ظاهر.

(٣) (ح، ن): «يتضمنها». وانظر: «طريق الهجرتين» (٧٥)، و«مدارج السالكين» (٦٨/٢)، ٣/١٢٢، (٤٨٧)، و«الروح» (٦٠٥)، و«إغاثة اللفهان» (٧/١)، و«بدائع الفوائد» (٦٠٠).

(٤) (ح، ن): «فهو غني».

(٥) (ح، ن): «أحواله».

وأقواله وأعماله وأذواقه ومواجهه ظاهراً وباطناً من^(١) مشكاة رسوله، وعرض ما جاء من سواها عليها، فما وافقها قبله، وما خالفها رده، وما لم يتبين له فيه موافقة ولا مخالفة وقف أمره وأرجأه إلى أن يتبين له، وسالم أولياءه وحزبه المفلحين الذائبين عن دينه وسنة نبيه، القائمين بها، وعادى أعداءه المخالفين لكتابه وسنة نبيه، الخارجين عنهما، الداعين إلى خلافهما^(٢).

فصل

وهذه المتابعة هي التلاوة التي أثنى الله على أهلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩]، وفي قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]، والمعنى: يتبعون كتاب الله حق اتباعه، وقال تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرٌ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١ - ٩٢].

فحقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنى؛ فتلاوة اللفظ جزء مسمى التلاوة المطلقة، وحقيقة اللفظ إنما هي الاتباع، يقال: أتل أثر فلان، وتلوت أثره وقفوته وقصصته بمعنى تبعته خلفه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَحُجَّتْهَا﴾ [الشمس: ١] - ٢، أي: تبعها في الطلوع بعد غيبتها، ويقال: جاء القوم يتلو بعضهم بعضاً، أي: يتبع.

(١) كذا في الأصول. كأنه ضمن «سلم» معنى «أخذ» ونحوه.

(٢) (ح، ن): «المخالفين لسنة نبيه... عنها... خلافها».

ويسمى تالي الكلام: تاليًا؛ لأنه يُتبع بعض الحروف بعضًا، لا يُخرَجُها جملةً واحدة، بل يُتبع بعضها بعضًا مرتبةً، كلما أنقضى حرفٌ أو كلمةٌ أتبعه بحرفٍ آخر وكلمةٍ أخرى.

وهذه التلاوة وسيلةٌ وطريق، والمقصودُ التلاوةُ الحقيقية، وهي تلاوةُ المعنى واتِّباعه^(١)؛ تصديقًا بخبره، واثمارًا بأمره، وانتهاءً عن نهيه، واثتمامًا به، حيثُ ما قادك أنقَدَت معه.

فتلاوةُ القرآن تتناولُ تلاوةَ لفظه ومعناه، وتلاوةُ المعنى أشرفُ من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلُها هم أهلُ القرآن الذين لهم الشناء في الدنيا والآخرة، فإنهم أهلُ متابعةٍ وتلاوةٍ حقًّا.

فصل

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾^(٢).

لمَّا أخبر سبحانه عن حال من أتبع هداه في معاشه ومعاذه أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه، فقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، أي: عن الذكر الذي أنزلته^(٣).

فالذكرُ هنا مصدرٌ مضافٌ إلى الفاعل، كـ «قيامي» و«قراءتي»، لا إلى

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦٧/٧، ١٧٦/١٠، ١٥/٧٠، ٣٩٠)، و«شرح العمدة» (٨٨ - الصلاة).

(٢) وما مضى من (ص: ٨٨) إلى هنا كله متعلِّقٌ بالآية التي قبلها.

(٣) (ح، ن): «أنزله».

المفعول^(١). وليس المعنى: «ومن أعرض عن أن يذكرني»، بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر سنذكره.

وأحسن من هذا الوجه أن يقال: الذَّكْرُ هنا مضافٌ إضافة الأسماء، لا إضافة المصادر إلى معمولاتها، والمعنى: «ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه»؛ فإنَّ القرآن يسمَّى ذكراً، قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨] وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَزِيْزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنَادِرُ مِنْ أَتْبَعِ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ [يس: ١١].

وعلى هذا، فإضافته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يُقصدُ بها إضافة العامل إلى معموله. ونظيره في إضافة اسم الفاعل: «غافر الذَّنْبِ»، وقابل التَّوْبِ، شديد العقاب»، فإنَّ هذه الإضافات لم يُقصدَ بها قصدُ الفعل المتجدد، وإنما قُصدَ بها قصدُ الوصف الثابت اللازم؛ ولذلك جرت أوصافاً على أعرف المعارف، وهو اسمُ الله تعالى، في قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ⑥ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ [غافر: ٢-٣].

(١) انظر تقرير هذا الوجه - والوجه الآتي الذي هو أحسن منه - في: «درء التعارض» (١/١٦٧)، و«مجموع الفتاوى» (١٣/٣٣٤)، و«منهاج السنة» (٢/١٥٥)، و«الصواعق المرسله» (٨٤٥، ١٥٢٦)، و«الوابل الصيب» (١٠٦)، و«جلاء الأفهام» (٦٢٠)، و«الفوائد» (٢٤٦).

فصل

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَهُمْ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا﴾ فسرها غير واحد من السلف بعذاب القبر، وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر (١).

ولهذا قال: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدَكُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَنَّا فَتَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى، أي: تترك في العذاب، كما تركت العمل بآياتنا. فذكر عذاب البرزخ، وعذاب دار البوار.

ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾، فهذا في البرزخ، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، فهذا في القيامة الكبرى.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فقول الملائكة: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ المراد به عذاب البرزخ، الذي أوله يوم القبض والموت.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، فهذه الإذاقة هي في البرزخ، وأولها حين الوفاة؛ فإنه معطوف على قوله: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٨/٣٩٢)، و«الدر المنثور» (٥/٦٠٧).

وَأَذْبَرَهُمْ ﴿١﴾، وهو من المَقُول المحذوف قوله^(١) لدلالة الكلام عليه،
كنظائره، وكلاهما واقع وقت الوفاة.

وفي «الصحيح»^(٢) عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله تعالى:
﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾
[إبراهيم: ٢٧]، قال: «نزلت في عذاب القبر»^(٣).

والأحاديث في عذاب القبر تكادُ تبلغ حدَّ التواتر^(٤).

والمقصودُ أنَّ الله سبحانه أخبر أنَّ من أعرض عن ذكره، وهو الهدى
الذي من أتبعه لا يضلُّ ولا يشقى، فإنَّ له معيشةً ضنكًا، وتكفل لمن حفظ
عهده أن يُحْيِيَهُ حياةً طيبةً ويجزيه أجره في الآخرة، فقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ
صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ
بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

فأخبر سبحانه عن فلاح من تمسك بعهده علمًا وعملاً، في العاجلة
بالحياة الطيبة، وفي الآخرة بأحسن الجزاء، وهذا بعكس من له المعيشة
الضنك في الدنيا والبرزخ، ونسيانه في العذاب بالآخرة.

(١) (ق، د): «القول المحذوف مقوله». (ت): «القول المحذوف فقوله له لاله».
وكلاهما خطأ.

(٢) (ق): «الصحيحين». «صحيح البخاري» (١٣٦٩)، و«صحيح مسلم» (٢٨٧١).

(٣) وانظر للآيات الدالة على عذاب القبر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٦٦)، و«عدة
الصابرين» (٣٦٠)، و«الروح» (٢٧١-٢٧٣).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٨٥)، و«الروح» (٢٢٨)، و«نظم المتناثر» للكتاني
(١٢٥).

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦-٣٧)، فأخبر سبحانه أن ابتلاءه بقرينه^(١) من الشياطين وضلاله به إنما كان بسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذي أنزله على رسوله، فكان عقوبة هذا الإعراض أن يُقَيَّضَ له شيطانًا يقارنُه، فيصدُّه عن سبيل ربِّه وطريق فلاحه، وهو يحسب أنه مهتدٍ، حتى إذا وافى ربَّه يوم القيامة مع قرينه، وعاینَ هلاكه وإفلاسه، قال: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْقُصَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

وكلُّ من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكرُ الله، فلا بدَّ أن يقول هذا يوم القيامة.

فإن قيل: فهل لهذا عذرٌ في ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾؟

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله من الضُّلال الذين منشأ ضلالهم الإعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول ﷺ، ولو ظنَّ أنه مهتدٍ، فإنه مفرطٌ بإعراضه عن أتباع داعي الهدى، فإذا ضلَّ فإنما أُتِيَ من تفريطه وإعراضه. وهذا بخلاف من كان ضلاله^(٢) لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول إليها، فذاك له حكمٌ آخر، والوعيدُ في القرآن إنما يتناول الأول، وأما الثاني فإنَّ الله لا يعذبُ أحدًا إلا بعد إقامة الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا

(١) (ح، ن): «أن من ابتلاه بقرينه».

(٢) (ح، ن): «من كان على ضلالة».

يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴿ [النساء: ١٦٥].

وقال تعالى في أهل النار: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّكَ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَ نَكَأًائِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿ [الزمر: ٥٦-٥٩].

وهذا كثير في القرآن (١).

فصل

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٢) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿ اختلف فيه: هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر؟ (٢).
والذين قالوا: هو من عمى البصيرة، إنما حملهم على ذلك قوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مریم: ٣٨]، وقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ

(١) انظر لمبحث العذر بالجهل في مسائل الاعتقاد عند المصنف: «طريق الهجرتين» (٩٠١)، و«الروح» (٢٩٤، ٣٧٤، ٤٥٤)، و«إعلام الموقعين» (١١٩/٢)، و«مدارج السالكين» (٩/١، ٣/٤٨٩)، وفهرس العقيدة آخر الكتاب.
(٢) انظر: «بصائر ذوي التمييز» (٣٠١/٤)، و«المفردات» للراغب (٥٨٨)، و«البرهان» للزركشي (١٧٠/٤)، وما سيأتي (ص: ٣٠٧).

يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ ﴿ [الفرقان: ٢٢]، وقوله: ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ آلِ قَافٍ ﴾ [التكاثر: ٦-٧]. ونظائر هذا مما يُثبِت لهم الرؤية في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقوله: ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور: ١٣-١٤]، وقوله: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَافِعُوهَا ﴾ [الكهف: ٥٣].

والذين رجَّحوا أنه من عمى البصر، قالوا: السَّيَاقُ لا يدلُّ إلا عليه؛ لقوله (١): ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾، وهو لم يكن بصيرًا في كفره قطُّ، بل قد تبَيَّن له حينئذٍ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحقِّ، فكيف يقول: وقد كنتُ بصيرًا؟! وكيف يجابُ بقوله: ﴿ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْنَمَا فَتِيبْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِئُهَا ﴾!

بل هذا الجوابُ فيه تنبيهٌ على أنه من عمى البصر، وأنه جُوزِي من جنس عمله؛ فإنه لما أعرِض عن الذِّكْر الذي بعث الله به رسوله، وعَمِيَتْ عنه بصيرته، أعمى الله بصره يوم القيامة، وتركه في العذاب، كما ترك الذِّكْر في الدنيا، فجازاه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة، وعلى تركه ذكره تركه في العذاب.

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يُنْشِئُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقد

(١) (ح، ن): «كقوله».

قيل في هذه الآية أيضًا: إنهم عمي وبكم وصم عن الهدى، كما قيل في قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾، قالوا: لأنهم يتكلمون يومئذ، ويسمعون، ويبصرون.

ومن نصر أنه العمي والبكم والصم المضاد للبصر والسمع والنطق، قال بعضهم: هو عمي وصم وبكم مقيد لا مطلق، فهم عمي عن رؤية ما يسرهم وسماعه. وهذا قد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لا يرون شيئاً يسرهم»^(١).

وقال آخرون: هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة، يخرجون من الدنيا كذلك، وإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك، ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد. وهذا مروى عن الحسن.

وقال آخرون: هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقرروا فيها، سلبوا الأسماع والأبصار والنطق، حين يقول لهم الرب تبارك وتعالى: ﴿أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ [المؤمنون: ١٠٨]؛ فحينئذ ينقطع الرجاء، وتبكم^(٢) عقولهم، فيصيرون بأجمعهم عميًا بكما صمًا؛ لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون، ولا يُسمعُ منهم بعدها إلا الزفير والشهيق. وهذا منقول عن مقاتل^(٣).

والذين قالوا: المراد به العمي عن الحجة، إنما مرادهم أنهم لا حجة

(١) أخرجه الطبري (١٧/ ٥٦٠).

(٢) على المجاز. وفي (ق): «تبلم». أي: تسكت.

(٣) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٢٧٣، ٣/ ٥١٩)، و«الكشف والبيان» (٦/ ١٣٦)، و«زاد المسير» (٥/ ٩٠).

لهم، ولم يريدوا أَنْ لهم حجةٌ هم عُميٌّ عنها، بل هم عُميٌّ عن الهدى كما كانوا في الدنيا؛ فَإِنَّ العبدَ يَمُوتُ على ما عاش عليه، وَيُبعَثُ على ما مات عليه.

وبهذا يظهر أَنَّ الصواب هو القول الآخر، وأنه عمى البصر؛ فَإِنَّ الكافر يعلمُ الحقَّ يومَ القيامةِ عياناً، ويُقرُّ بما كان يجحدُه في الدنيا، فليس هو أعمى عن الحقِّ يومئذٍ^(١).

وفصل الخطاب: أَنَّ الحشر هو الضمُّ والجمع.

ويرادُ به تارةً الحشرُ إلى موقف القيامة؛ كقول^(٢) النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ مُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ حِفَاةَ عِراءَ غُرْلًا»^(٣)، وكقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

ويرادُ به الضمُّ والجمعُ إلى دار المستقرِّ؛ فحشرُ المتقين: جمعُهم وضمُّهم إلى الجنة، وحشرُ الكافرين: جمعُهم وضمُّهم إلى النار.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾^(٤) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ [الصافات: ٢٢ - ٢٣]، فهذا الحشر هو بعد حشرهم إلى

(١) (ح، ن): «حينئذ».

(٢) (ح، ن): «لقول». وهو خطأ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس.

الموقف، وهو حشرهم وضئهم إلى النار؛ لأنه قد أخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ (٢٠) هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِيبُكَ ﴿[الصفات: ٢٠ - ٢١]، ثم قال تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾، وهذا (١) الحشر الثاني.

وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول - من القبور إلى الموقف - والحشر الثاني: يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون (٢)، وعند الحشر الثاني: يُحْشَرُونَ على وجوههم عُمياً وبُكماً وضئاً (٣).

فلكل موقفٍ حالٌ يليقُ به ويقتضيه عدلُ الربِّ تبارك وتعالى وحكمته، فالقرآن يُصَدِّقُ بعضُه بعضاً، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فصل

والمقصودُ أن الله سبحانه وتعالى لما اقتضت حكمته ورحمته إخراج آدم وذريته من الجنة أعاضهم أفضلَ منها، وهو ما أعطاهم من عَهْدِهِ الذي جعله سبباً مُوَصِّلاً لهم إليه، وطريقاً واضحاً يبين الدلالة عليه، من تمسَّك به فاز واهتدى، ومن أعرض عنه شَقِيَ وغوى.

ولما كان هذا العهد الكريم، والصِّراط المستقيم، والنبأ العظيم، لا

(١) (ح): «وهو».

(٢) كذا في الأصول، وهو مستقيم. وفي (ط): «وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف، والحشر الثاني من الموقف إلى النار، فعند الحشر الأول يسمعون ويبصرون...»، من تصرف الناشر، لم يفهم السياق.

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٧/٥٥٩).

يوصلُ إليه أبداً إلا من باب العلم والإرادة؛ فالإرادةُ بابُ الوصولِ إليه،
والعلمُ مفتاحُ ذلك الباب المتوقَّف فتحه عليه، وكمالُ كلِّ إنسانٍ إنما يتمُّ
بهذين النوعين: همَّةٌ ترقِّيه، وعلمٌ يبصِّره^(١) ويهديه = فإنَّ مراتبَ السعادةِ
والفلاحِ إنما تفوَّت العبدُ من هاتين الجهتين، أو من إحداهما:

* إمَّا أن لا يكون له علمٌ بها، فلا يتحرَّكُ في طلبها.

* أو يكون عالماً بها ولا تنهضُ همَّتهُ إليها.

فلا يزالُ في حضيض طبعه محبوساً، وقلْبُه عن كماله الذي خُلِقَ له
مصدوداً منكوساً، قد أسامَ نفسه مع الأنعام راعياً مع الهَمَلِ، واستطابَ
لُقيَمات الراحة والبطالة، واستلَانَ فراشَ العجز والكسل، لا كمن رُفِعَ له^(٢)
عَلَمٌ فشمَّرَ إليه، وُبُورِكَ له في تفرُّده في طريق طلبه فلزمه واستقام عليه، قد
أَبَتْ غَلَبَاتُ شوقه^(٣) إلا الهجرة إلى الله ورسوله، ومَقَّتْ نفسه الرفقاء إلا
أَبْنَ سَبِيلٍ يرافقه في سبيله.

ولما كان كمالُ الإرادة بحسب كمال مرادها، وشرفُ العلم تابعٌ لشرف
معلومه، كانت نهايةُ سعادة العبد التي لا سعادة له بدونها ولا حياة له إلا بها
أن تكون إرادته متعلقةً بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت، وعَزَمَاتُ همَّته
مسافرةً إلى حضرة الحيِّ الذي لا يموت. ولا سبيل له إلى هذا المطلب

(١) (ت): «يوصله».

(٢) (ق): «دفع له». وفي (ت): «وقع له».

(٣) الغَلَبَات: جمع غلبة. مولدة. قال محمد بن داود في «الزهرة» (٢٤٥) من أبيات:

أَبَتْ غَلَبَاتُ الشَّوْقِ إِلَّا تَقَرُّبًا إِلَيْكَ وَنَأْيُ الْعَذْلِ إِلَّا تَجَنُّبًا

وتحرّفت العبارة في (ق، ت).

الأسنى والحظّ الأوفى إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليته وحببيه، الذي بعثه لذلك داعيًا، وأقامه على هذا الطريق هاديًا، وجعله واسطةً بينه وبين الأنام، وداعيًا لهم بإذنه إلى دار السّلام، وأبى سبحانه أن يفتح لأحدٍ منهم إلا على يديه، أو يقبل من أحدٍ منهم سعيًا إلا أن يكون مبتدئًا منه ومنتهيًا إليه، فالطرقُ كلّها إلا طريقَه ﷺ مسدودة، والقلوبُ بأسرها إلا قلوبُ أتباعه المنقادة إليه عن الله محبوسةً مصدودة.

فحقُّ على من كان في سعادة نفسه ساعيًا، وكان قلبه حيًّا عن الله واعيًا، أن يجعل على هذين الأصلين مدارَ أقواله وأعماله، وأن يُصَيِّرَهما آخِيَّتَهُ (١) التي إليها مفرُّه في حياته ومآله.

فلا جرَمَ كان وضعُ هذا الكتاب مؤسَّسًا على هاتين القاعدتين، ومقصوده التعريف بشرف هذين الأصلين، وسمَّيته: «مفتاح دار السّعادة ومنشور (٢) ولاية العلم (٣) والإرادة»؛ إذ كان هذا من بعض النُّزُلِ (٤) والتَّخَفِ التي فتح الله بها عليّ حين أنقطاعي إليه عند بيته، وإلقائي نفسي ببابه مسكينًا ذليلاً، وتعرُّضي لنفحاته في بيته وحوله بكرةً وأصيلًا، فما خاب من أنزل به حوائجَه، وعلّق به آماله، وأصبح ببابه مقيمًا وبِحِمَاهِ نزيلًا.

(١) (ق): «أجنده». والآخية: عودٌ يعرض في الحائط، ويُذَفَنُ طرفاه فيه، ويصير وسطه كالعروة، تُشدُّ إليه الدابة. وفي الحديث: «مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس في آخِيَّتِهِ، يجول ثم يرجع إلى آخِيَّتِهِ، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع إلى الإيمان». «النهاية» (١/ ٢٩)، و«صحيح ابن حبان» (٦١٦).

(٢) (ت): «ومنتهى».

(٣) (ق): «ولاية أهل العلم».

(٤) وهو ما يهيئ للنزول من الضيافة. «اللسان» (نزل).

ولما كان العلمُ إمام الإرادة، ومقدِّمًا عليها، ومفصِّلًا لها، ومرشدًا إليها، قدَّمنا الكلام عليه على الكلام على المحبة.

ثم نُنبِّهه - إن شاء الله - بعد الفراغ منه كتابًا في الكلام على المحبة، وأقسامها، وأحكامها، وفوائدها، وثمراتها، وأسبابها، وموانعها، وما يقوِّيها، وما يُضعِفُها، والاستدلال بسائر طرق الأدلَّة من النقل والعقل والفطرة والقياس والاعتبار والدُّوق والوَجْد على تعلُّقها بالإله الحقِّ الذي لا إله غيره، بل لا ينبغي أن تكونَ إلالة، ومِنْ أجله، والردُّ على من أنكر ذلك، وتبيين فساد قوله عقلاً ونقلاً، وفطرةً وقياسًا، وذوقًا ووَجْدًا^(١).

فهذا مضمونُ هذه التحفة، وهذه عرائسُ معانيها الآن تُجلى عليك، وخُودُ أبكارها البديعة الجمال تَرْفُلُ في حُلِيِّها وهي تُزَفُّ إليك، فإما «شمسُ منازلها بسعد الأُسعد»^(٢)، وإما «خُودُ تُزَفُّ إلى ضيرٍ مُقَعَّد»^(٣)، فاختر لنفسك إحدى الخُطَّتين، وأنزلها فيما شئتَ من المنزلتين، ولا بدَّ لكلِّ

(١) وهو كتابه الكبير في المحبة، واسمه: «المورد الصافي والظلُّ الضافي»، ولعله هو «قرة عيون المحبين وروضة العارفين»، أما الصغير فهو «روضة المحبين». انظر: «طريق الهجرتين» (١٢٤)، و«مدارج السالكين» (١/٩٢، ٢/٥٤، ٣/١٩)، و«ابن القيم» للشيخ بكر أبو زيد (٢٥٣، ٣٠٥). وقد بحث المصنف مسائل المحبة كذلك في كتابيه: «الفتوحات القدسية»، و«التحفة المكية»، كما أشار إلى ذلك في «بدائع الفوائد» (٩٥، ٨٤٥، ٨٤٦).

(٢) وهو أحمدُ السُّعود من المنازل. ويقال له: سعد السُّعود. وهو أشهر.

(٣) الخُود: الفتاة الشابة الحسنة الخُلُق. وهذا مثلٌ يكثرُ دورانه في كتب المصنف، وهو شطر بيتٍ للحسين بن الحجاج (ت: ٣٩١) سفيه الأدباء، في «المتخل» (٥١٦)، و«التمثيل والمحاضرة» (١١٨)، و«اليتيمة» (٣/٦٠). ولم أجده في «درة التاج»، و«تلطيف المزاج».

نعمة من حاسد، ولكلِّ حقٍّ من جاحِدٍ ومعاند.

هذا، وإنَّ ما أُودِعَ من المعاني والنفائس رهنٌ عند متأمِّله ومُطالِعِه، له غُثمُه وعلى مؤلِّفه غُرْمُه، وله ثمرُته ومنفعُته ولصاحبه كَدُّه^(١) ومشقَّتُه، مع تعرُّضه لمطاعن الطاعنين، ولاعتراض المنافسين^(٢)، وعَرَضُه بضاعته المزجاة وعقله المكدود على عقول العالمين^(٣)، وإلقائه نفسه وعرضه بين مخالب الحاسدين، وأنياب البغاة المعتدين.

فلك أيها القارىء صَفْوُه ولمؤلِّفه كدرُه، وهو الذي تجشَّم غِراسَه وتعبَه ولك ثمرُه، وها هو قد استَهْدَفَ لسهام الرّاشقين، واستَعَذَرَ إلى الله من الزلزل والخطأ، ثم^(٤) إلى عباده المؤمنين.

اللهم، فعياداً بك ممَّن قَصَرَ في العلم والدِّين باعُه، وطالت في الجهل وأذى عبادك ذراعُه، فهو لجهله يرى الإحسان إساءةً والسنة بدعةً والعرفَ نكراً، ولظلمه يجزي بالحسنة سيئةً كاملةً وبالسيئة الواحدة عشرًا.

قد اتَّخَذَ بَطَرَ الحقِّ وغمط^(٥) الناس سُلماً إلى ما يحبه من الباطل ويرضاه، ولا يعرف من المعروف ولا ينكر من المنكر إلا ما وافق إرادته أو خالف هواه^(٦).

(١) مضبوطة في (ق). وفي (ن، ح): «كدره».

(٢) (ق): «المناقشين». (د): «المنافسين». (ن، ح): «المتنافسين».

(٣) (ح، ن): «وهذه بضاعته المزجاة وعقله المكدود يعرض على عقول العالمين».

(٤) «ثم» ليست في (ت، د، ق).

(٥) (ق، ت): «وغمض». (د): «وغمص».

(٦) (ق): «حالف» بالمهملة. تحريف. وفي العبارة لفٌّ ونشْرٌ مرتَّبٌ؛ فالمعروف ما وافق إرادته، والمنكر ما خالف هواه.

يستطيلُ على أولياء الرسول وحزبه بأصغريه^(١)، ويجالسُ أهل الغيِّ والجهالة ويزاحمهم بركبتيه.

قد أرتوى من ماء آجنٍ وتضلَّع، واستشرفَ إلى مراتب ورثة الأنبياء وتطلَّع، يركضُ في ميدان جهله مع الجاهلين، ويبرزُ عليهم في الجهالة فيظنُّ أنه من السابقين، وهو عند الله ورسوله والمؤمنين عن تلك الورثة النبوية بمعزل، وإذا نزل الورثة منازلهم منها فمزلته منها أقصى وأبعد منزل.

نزلوا بمكة في قبائل هاشمٍ ونزلت بالبيداء أبعدَ منزل^(٢)
وعيادًا بك ممَّن جعل الملامة بضاعته، والعذل نصيحته، فهو دائماً يُبدي في الملامة ويُعيد، ويكرِّر على العذل فلا يفيد ولا يستفيد.

بل عيادًا بك من عدوٍّ في صورة ناصح، ووليٍّ في مسلاخ بعيدٍ كاشح، يجعلُ عداوته وأذاه حذرًا^(٣) وإشفاقًا، وتنفيذه وتخليده إسعافًا وإرفاقًا!

وإذا كانت العينُ لا تكادُ إلا على هؤلاء تفتَح، والميزانُ بهم يخفُّ ولا يَرَجَح، فما أحرى اللبيبَ بأن لا يُعيرَهم من قلبه^(٤) جزءًا من الالتفات، ويسافر في طريق مقصده بينهم سفره إلى الأحياء بين الأموات.

(١) قلبه ولسانه.

(٢) البيت - باختلاف يسير - لعمر بن أبي ربيعة في «ديوانه» (٣٢٠). وأنشده عبيدُ الله بن إسحاق بن سلام في «أمالي القالي» (٢٠٢/١). ودون نسبة في «طبقات الفقهاء» للشيرازي (١٠٣)، و«العاقبة» لعبد الحق (١٧٧).

(٣) (د، ت، ن): «حذار».

(٤) (ت): «قلبه».

وما أحسنَ ما قال القائل^(١):

وفي الجهلِ قبل الموتِ موتٌ لأهله وأجسامُهم قبل القبورِ قبورٌ
وأرواحُهم في وحشةٍ من جُسومِهم وليس لهم حتى النُّشورِ نُشورٌ
اللهمَّ فلك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك
المستغاث، وعليك التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك، وأنت حسبنا ونعم
الوكيل.

فلنشرع الآن في المقصود بحول الله وقوته، فنقول:

(١) ينسب لعلِّي رضي الله عنه في «أنوار العقول من أشعار وصي الرسول» لقطب الدين البيهقي (ت: ٥٧٦) (١٩٢). وأنشدهما الماوردي في «أدب الدنيا والدين» (٣٧) لبعض أهل عصره، وهو أشبه، ونُسب إليه في «سر السرور» للنيسابوري - كما في «إرشاد الأريب» (١٩٦٥) -. ول بعض أهل البصرة في «تفسير القرطبي» (٧/ ٧٨). ودون نسبة في «نتائج الفكر» (٣٤). وورد صدر البيت الثاني في هذه المصادر برواية مختلفة.

الأصل الأول

في العلم وفضله وشرفه، وبيان غُمووم الحاجة إليه، وتوقفُ كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاذه عليه

قال الله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

استشهد سبحانه بأولي العلم على أجل مشهودٍ عليه، وهو توحيده، فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾. وهذا يدلُّ على فضل العلم وأهله من وجوه:
أحدها: استشهدهم دون غيرهم من البشر.
والثاني: اقترانُ شهادتهم بشهادته.
والثالث: اقترانها بشهادة ملائكته.

والرابع: أنَّ في ضمن هذا تزكيتهم وتعديْلهم؛ فإنَّ الله لا يستشهدُ من خلقه إلاَّ العُدول، ومنه الأثرُ المعروفُ^(١) عن النبي ﷺ: «يَحْمَلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولُهُ؛ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ»^(٢).

وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبه: رأيتُ رجلاً قدَّم رجلاً إلى

(١) (ت): «المنقول».

(٢) سياأتي تخريجه مفصَّلاً (ص: ٤٦٣) حيثُ أفرد له المصنّف فصلاً.

إسماعيل بن إسحاق القاضي، فادّعى عليه دعوى، فسأل المدّعى عليه،
فأنكر، فقال للمدّعي: ألك بيّنة؟ قال: نعم، فلان وفلان. قال: أمّا فلان فمِن
شهودي^(١)، وأمّا فلان فليس من شهودي. قال: فيعرفه القاضي؟ قال: نعم.
قال: بماذا؟ قال: أعرفه بكتب^(٢) الحديث. قال: فكيف تعرفه في كتبه
الحديث؟ قال: ما علمتُ إلا خيراً. قال: فإنّ النبي ﷺ قال: «يحملُ هذا
العلمَ من كلّ خلفٍ عدوله»؛ فمن عدّله رسولُ الله ﷺ أولى ممّن عدّلته
أنت. فقال: فقمْ فهاتِه، فقد قبلتُ شهادته^(٣).

وسيّأتي - إن شاء الله - الكلامُ على هذا الحديث في موضعه.

الخامس: أنه وصّفهم بكونهم أولي العلم، وهذا يدلُّ على اختصاصهم
به، وأنهم أهلُه وأصحابُه، ليس بمستعارٍ لهم.

السادس: أنه سبحانه استشهد بنفسه - وهو أجلُّ شاهد -، ثمَّ بخيار
خلقه - وهم ملائكته والعلماء من عباده -، ويكفي بهذا فضلاً وشرفاً.

السابع: أنه استشهد بهم على أجلِّ مشهودٍ به وأعظمِهِ وأكبرِهِ، وهو
شهادةُ أن لا إله إلا هو. والعظيمُ القدرُ إنما يستشهدُ على الأمر العظيم أكابرَ
الخلق وساداتهم.

(١) كان القضاة (منذ أواخر القرن الثاني) يتخذون لهم شهوداً ثبتت عدالتهم عندهم،
فيقبلون شهاداتهم دون غيرهم، وقد ولي الشهادة جماعة من أكابر العلماء.

(٢) (ت): «يكتب». والحرف الأول مهمل في (د).

(٣) أخرجه الخطيبُ البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (٥٧). واقرأ خبراً آخر في
«الطالع السعيد» للأدفوي (٦٩٦، ٦٩٧).

الثامن: أنه سبحانه جعل شهادتهم حجةً على المنكرين^(١)، فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده.

التاسع: أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته^(٢)؛ وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته، فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم، وأنطقهم بهذه الشهادة، فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقاً وتعليماً، وهم الشاهدون بها له إقراراً واعترافاً وتصديقاً وإيماناً.

العاشر: أنه سبحانه جعلهم مؤدّين لحقه عند عباده بهذه الشهادة، فإذا أدّوها فقد أدّوا الحقّ المشهود به؛ فثبت الحقّ المشهود به؛ فوجب على الخلق الإقرار به، وكان في ذلك غاية سعادتهم في معاشهم ومعادهم. وكل من ناله هدى بشهادتهم، وأقرّ بهذا الحقّ بسبب شهادتهم، فلهم مثل أجره. وهذا فضل عظيم لا يُدرِك قدره إلا الله. وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره أيضاً.

فهذه عشرة أوجه في هذه الآية.

الوجه الحادي عشر في تفضيل العلم وأهله: أنه سبحانه نفى التسوية بين أهله وبين غيرهم، كما نفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَحَبُّ النَّارِ وَأَحَبُّ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]، وهذا يدل على غاية فضلهم وشرفهم.

(١) (ح، ن): «المتكبرين».

(٢) (ح): «على شهادته».

الوجه الثاني عشر: أنه سبحانه جعل أهل الجهل بمنزلة العُميان الذين لا يبصرون، فقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَتُولُوا بِالْأَنْبِيَاءِ﴾ [الرعد: ١٩]، فما نَمَّ إِلَّا عالمٌ أو أعمى، وقد وصف سبحانه أهل الجهل بأنهم صَمٌّ بُكْمٌ عُمَىٰ في غير موضع من كتابه^(١).

الوجه الثالث عشر: أنه سبحانه أخبر عن أولي العلم بأنهم يرون ما أنزل إليه من ربه حقًا، وجعل هذا ثناءً عليهم واستشهادًا بهم، فقال تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبأ: ٦].

الوجه الرابع عشر: أنه سبحانه أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم، وجعل ذلك كالشهادة منهم، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْلُؤُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وأهل الذكر هم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء.

الوجه الخامس عشر: أنه شهد لأهل العلم شهادة في ضمنها الاستشهاد بهم على صحة ما أنزل على رسوله، فقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤].

الوجه السادس عشر: أنه سبحانه سلّى نبيه بإيمان أهل العلم به، وأمره أن لا يعبأ بالجاهلين شيئًا، فقال تعالى: ﴿وَقَرَأْنَا أَنْتَا فَرَّقْتَهُ لِنَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ نَازِلًا قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ

(١) سورة «البقرة» [الآية: ١٨، ١٧١].

لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٨﴾ [الإسراء: ١٠٦-١٠٨]، وهذا شرفٌ عظيمٌ لأهل العلم، وتحتة^(١) أنَّ أهله العالمون^(٢) قد عرفوه وآمنوا به وصدَّقوا، فسواء آمن به غيرهم أو لا.

الوجه السابع عشر: أنه سبحانه مدح أهل العلم، وأثنى عليهم، وشرفهم بأن جعل كتابه آياتٍ بيناتٍ في صدورهم، وهذه خاصَّةٌ ومنقبةٌ لهم دون غيرهم، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿١٧﴾ وَمَا كُنْتَ نَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذَا لَازَمْتَ أَبْطُلُوكَ ﴿١٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُورِ الْذِّكْرِ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٧ - ٤٩].

وسواء كان المعنى: أن القرآن مستقرٌّ في صدور الذين أوتوا العلم، ثابتٌ فيها، محفوظٌ فيها، وهو في نفسه آياتٌ بينات، فيكون قد أخبر عنه بخبرين:

أحدهما: أنه آياتٌ بينات.

الثاني: أنه محفوظٌ مستقرٌّ ثابتٌ في صدور الذين أوتوا العلم.

أو كان المعنى: أنه آياتٌ بيناتٌ في صدورهم، أي: كونه آياتٍ بيناتٍ معلومٌ لهم، ثابتٌ في صدورهم.

والقولان متلازمان، ليسا بمختلفين. وعلى التقديرين فهو مدحٌ لهم

(١) الحرف الأول مهمل في (د). (ق): «وبحثه». (ت): «ومحبته».

(٢) كذا في الأصول، بالرفع. والجادة النصب.

وثناءً عليهم في ضمنه الاستشهادُ بهم. فتأملهُ.

الوجه الثامن عشر: أنه سبحانه أمر نبيه أن يسأله مزيدَ العلم، فقال تعالى: ﴿فَنَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، وكفى بهذا شرفاً للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيدَ منه.

الوجه التاسع عشر: أنه سبحانه أخبر عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصّة، فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرَفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وقد أخبر سبحانه في كتابه برفعة الدرجات ^(١) في أربعة مواضع ^(٢):
أحدها: هذا.

والثاني: قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

والثالث: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

(١) (ت، ح): «برفع الدرجات».

(٢) سياطي موضع خامس يذكره المصنف في الوجه الثالث والعشرين.

والرابع: قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ﴾ [النساء: ٩٥ - ٩٦].

فهذه أربعة مواضع، في ثلاثة منها: الرِّفْعَةُ بالدرجات لأهل الإيمان الذي هو العلم النافع والعمل الصالح، والرابع: الرِّفْعَةُ بالجهاد؛ فعادت رِفْعَةُ الدرجات كلها إلى العلم والجهاد اللذين بهما قوامُ الدين.

الوجه العشرون: أنه سبحانه أستشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار، فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُسْأَلُنِي عَنْ سَاعَتِي كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۝﴾ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبِئْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَيْنَا يَوْمَ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿[الروم: ٥٥ - ٥٦].

الوجه الحادي والعشرون^(١): أنه سبحانه أخبر أنهم أهل خشيته، بل خصَّهم من بين الناس بذلك، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ﴾ [فاطر: ٢٨]، وهذا حصرٌ لخشيته في أولي العلم.

وقال تعالى: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝﴾ [البينة: ٨]، وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء؛ فدلَّ على أن هذا الجزاء المذكور للعلماء بمجموع النِّصَّين^(٢).

(١) انظر: «الذخيرة» للقرافي (١/ ٤١).

(٢) (ت): «مجموع النصين». وهي قراءة جيدة.

وقال أبْن مسعود رضي الله عنه: «كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاعتزاز بالله جهلاً»^(١).

الوجه الثاني والعشرون: أنه سبحانه أخبر عن أمثاله التي يضربها لعباده - يدلُّهم على صحة ما أخبر به - أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ هم المتفنون بها، المختصون بعلمها، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وفي القرآن بضعة وأربعون مثلاً^(٢).

وكان بعضُ السلف إذا مرَّ بمثلٍ لا يفهمه^(٣) يكي ويقول: لستُ من العالمين^(٤).

الوجه الثالث والعشرون: أنه سبحانه ذكر مناظرة إبراهيم لأبيه وقومه،

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٩١ / ١٣)، والطبراني في «الكبير» (١٨٩ / ٩)، والبيهقي في «الشعب» (٣٤ / ٣)، وغيرهم بإسناد منقطع؛ القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود لم يسمع من جدِّه، وبذا أعلمه الهيثمي في «المجمع» (٢١٠ / ٥).

(٢) وقد أفردھا المصنف بتأليف مستقل ذكره له عامة مترجميه. انظر: «ابن القيم» للشيخ بكر (٢٢١). وفي مقدمة «الكافية الشافية» (٤١ - ٤٧) جملة منها. وفي «إعلام الموقعين» (١٥٠ / ١ - ١٩٠) بحثٌ حافلٌ حولها، وجرَّده بعض علماء نجد وطبعه منفرداً.

(٣) (ق): «يعرفه».

(٤) أخرج نحوه ابن أبي حاتم في «التفسير» - كما في «تفسير ابن كثير» (٢٦٩٧ / ٦) -، وأبو نعيم في «الحلية» (٩٥ / ٥) عن عمرو بن مرة.

وَعَلَبَتْهُ لَهُم بِالْحُجَّةِ، وَأَخْبَرَ عَنْ تَفْضِيلِهِ بِذَلِكَ، وَرَفَعَهُ دَرَجَتَهُ بِعِلْمِ الْحُجَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى عَقِيبَ مَنَازِلِهِ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿وَلَيْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٣).

قال زيد بن أسلم رضي الله عنه: «نرفع درجات من نشاء بعلم الحجة» (١).

الوجه الرابع والعشرون: أنه سبحانه أخبر أنه خلق الخلق، ووضع بيته الحرام، والشهر الحرام، والهدى، والقلائد (٢)؛ ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، فقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]؛ فدل على أن علم العباد بربهم وصفاته وعبادته وحده هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر.

الوجه الخامس والعشرون: أن الله سبحانه أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم، وأخبر أنه خير مما يجمع الناس، فقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وفُسر فضل الله بالإيمان،

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٦٣/١)، و«العلل» (٢/ ١٩٠ - رواية عبد الله)، وابن وهب في تفسير القرآن من «الجامع» (٢٧٤)، وغيرهما من طريق مالك عن زيد بن أسلم، قال: «بالعلم».

وانظر: «المدخل إلى السنن» للبيهقي (١/ ٣٠٤)، و«جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢١٨). ولم أجد باللفظ الذي ذكره المصنف.

(٢) يشير لآية المائدة: ٩٧.

ورحمته بالقرآن، والإيمان والقرآن هما العلم النافع والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق، وهما أفضل علم وأفضل عمل.

الوجه السادس والعشرون: أنه سبحانه شهد لمن آتاه العلم بأنه قد آتاه خيراً كثيراً، فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

قال ابن قتيبة والجمهور: الحكمة إصابة الحق والعمل به^(١). وهي العلم النافع والعمل الصالح.

الوجه السابع والعشرون: أنه سبحانه عدّد نعمة وفضله على رسوله، وجعل من أجلها أن آتاه الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم، فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

الوجه الثامن والعشرون: أنه سبحانه ذكّر عباده المؤمنين بهذه النعمة، وأمرهم بشكرها، وأن يذكروها على إسدائها إليهم، فقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١ - ١٥٢].

(١) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (٢٢٧)، و«زاد المسير» (٣٢٤ / ١)، و«الكشاف» (٣١٦ / ١)، و«التوقيف» للمناوي (٢٩١)، و«المفردات» للراغب (٢٤٩) وتحرف في مطبوعته: «إصابة الحق بالعلم والفعل» إلى: «بالعلم والعقل»، وورد على الصواب فيما نقله اليوسي في «زهر الأكم» (٢٦ / ١).

الوجه التاسع والعشرون: أنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل في الأرض خليفة، قالوا له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، إلى آخر قصة آدم وأمر الملائكة بالسجود له، وإبائه^(١) إبليس، ولعنه، وإخراجه^(٢) من السماء.

وبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه:

أحدها: أنه سبحانه ردَّ على الملائكة لما سأله: كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه؟ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقائقها ما لا يعلمونه، وهو العليم الحكيم، فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه، ورسله، وأنبيائه، وصالحي عباده، والشهداء، والصّديقين، والعلماء، وطبقات أهل الإيمان = من هو خير من الملائكة، وظهر من إبليس من هو شر العالمين.

فأخرج سبحانه هذا وهذا، والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا، ولا بما في خلق آدم وإسكانه الأرض من الحكيم الباهرة.

الثاني: أنه سبحانه لما أراد إظهار تفضيل آدم وتمييزه فضله^(٣) وميزه

(١) (ن): «فإبائه». (ح): «فأبى».

(٢) (ت، ح، ن): «واخرجه».

(٣) (ق، ح، ن): «وفضله». وهو خطأ.

عليهم بالعلم، فعلمه الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال: ﴿أَنِتُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

جاء في التفسير أنهم قالوا: لن يخلق ربنا خلقاً هو أكرم عليه منّا^(١)، فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقرّوا بالعجز وجَهِل ما لم يعلموه، فقالوا: ﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، فحينئذٍ أظهر لهم فضل آدم بما خصّه به من العلم، فقال: ﴿يَتَكَادُمُ أُنْيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾، فلما أنبأهم بأسمائهم أقرّوا له بالفضل.

الثالث: أنه سبحانه لما عرّفهم^(٢) فضل آدم بالعلم، وعجزهم عن معرفة ما علمه، قال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَغْلُمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنُتُونَ﴾، فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم، وأنه أحاط علماً بظواهرهم وباطنهم، وبغيب السموات والأرض، فتعرّف إليهم بصفة العلم، وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم، وعجزهم عمّا آتاه آدم من العلم، وكفى بهذا شرفاً للعلم.

الرابع: أنه سبحانه جعل في آدم من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات، وأراد سبحانه [أن] يُظهر لملائكته فضله وشرفه، فأظهر لهم أحسن ما فيه، وهو علمه، فدلّ على أن العلم أشرف ما في الإنسان، وأن فضله وشرفه إنما هو بالعلم.

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (١/٤٦٣)، و«التاريخ» (١/١٠٠) عن قتادة والحسن

والربيع بن أنس، وحكاه قتادة عن ابن عباس.

(٢) (د، ق، ح): «لما أن عرفهم».

ونظيرُ هذا ما فعله نبيُّه يوسف عليه السلام، لمَّا أراد إظهارَ فضله وشرِّفه على أهل زمانه كلَّهم، أظهرَ للملِك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجزَ عنه علماء التعبير، فحيثُ قدِّمه ومكَّنه وسلَّم إليه خزائن الأرض، وكان قبل ذلك قد حبَّسه، على ما رآه من حُسْن وجهه وجمال صورته، ولمَّا ظهر له حُسْنُ صورة علمه، وجمال معرفته، أطلقه من الحبس، ومكَّنه (١) في الأرض؛ فدلَّ على أنَّ صورة العلم عند بني آدم أبهى وأحسنُّ من الصورة الجسِّيَّة (٢)، ولو كانت أجمل صورة.

وهذا وجهٌ مستقلٌّ في تفضيل العلم، مضافٌ إلى ما تقدَّم، فتمَّ به ثلاثون وجهًا.

الوجه الحادي والثلاثون: أنه سبحانه ذمَّ أهل الجهل في مواضع كثيرة من كتابه:

فقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقال: ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، فلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالأنعام، حتى جعلهم أضلَّ سبيلًا منهم.

(١) (ت): «مكن له».

(٢) (ت): «الصورة الحسنة».

(٣) في تسعة مواضع: الأنعام: ٣٧، الأعراف: ١٣١، الأنفال: ٣٤، يونس: ٥٥، القصص: ١٣، ٥٧، الزمر: ٤٩، الدخان: ٣٩، الطور: ٤٧.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، أخبر أن الجُهَّال شرُّ الدَّوَابِّ عنده، على اختلاف أصنافها، من الحمير، والسِّباع، والكلاب، والحشرات، وسائر الدَّوَابِّ؛ فالجُهَّال شرُّ منهم. وليس على دين الرسل أضرُّ من الجُهَّال، بل هم أعداؤهم على الحقيقة.

وقال تعالى لنبِيِّه - وقد أعاده -: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال كليُّمهُ موسى: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧].

وقال لأول رسله نوح: ﴿إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

فهذه حالُ الجاهلين عنده، والأول حالُ أهل العلم عنده.

وأخبر سبحانه عن عقوبته لأعدائه أنه منعهم علمَ كتابه ومعرفته وفقَّهه؛

فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا

مَسْتُورًا ٥٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٥ - ٤٦].

وأمر سبحانه نبِيَّه بالإعراض عنهم، فقال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

[الأعراف: ١٩٩].

وأثنى على عباده بالإعراض عنهم ومُتَارَكَتِهِمْ، كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا

نَبْنَعِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا

سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وكلُّ هذا يدلُّ على قُبْح الجهل عنده، وبُغْضه للجهل وأهله، وكذلك هو

عند الناس، فإنَّ كلَّ أحدٍ يتبرأ منه وإن كان فيه.

الوجه الثاني والثلاثون: أن العلم حياة ونور، والجهل موت وظلمة، والشر كله سببه عدم الحياة والنور، والخير كله سببه النور والحياة؛ فإن النور يكشف عن حقائق الأشياء، ويبين مراتبها، والحياة هي المصححة لصفات الكمال، الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال.

وكل ما تصرف من الحياة فهو خير كله؛ كالحياة الذي سببه كمال حياة القلب، وتصوره حقيقة القبح ونفرته منه، وضده الوقاحة والفحش، وسببه موت القلب وعدم نفرته من القبيح. وكالحياة الذي هو المطر الذي به حياة كل شيء.

قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، كان ميتًا بالجهل^(١) فأحياه بالعلم، وجعل له من الإيمان نورًا يمشي به في الناس.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٨) إِنَّا لَا نَعْلَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بُقْدَرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨ - ٢٩].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

(١) (ح، ن): «بالجهل قلبه».

وقال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ فأخبر أنه روحٌ تحصلُ به الحياة، ونورٌ تحصلُ به الإضاءة والإشراق؛ فجمع بين الأصلين: الحياة، والنور.

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

وقال تعالى: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّخُرْجِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۚ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۚ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۖ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ۚ وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءً عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]؛ فضرب سبحانه مثلاً لنوره الذي قَدَفَه في قلب المؤمن، كما قال أبيُّ بن كعب رضي الله عنه:

«مثلُ نوره في قلب عبده المؤمن»^(١)، وهو نورُ القرآن والإيمان الذي أعطاه إياه، كما قال في آخر الآية: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ يعني: نورَ الإيمان على نور القرآن، كما قال بعضُ السلف: «يكادُ المؤمنُ ينطقُ بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر، فإذا سمعَ فيها بالأثر كان نورًا على نور»^(٢).

وقد جمعَ اللهُ سبحانه بين ذكر هذين النورين - وهما: الكتابُ، والإيمان - في غير موضعٍ من كتابه، كقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكِ الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، ففضلُ اللهِ: الإيمان، ورحمته: القرآن.

وقال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].
وقد تقدَّمت هذه الآيات.

وقال في آية النور: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾، وهو نورُ القرآن على نور الإيمان^(٣). وفي حديث النُّوَّاس بن سَمْعَانَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ

(١) لم أفد عليه مسندًا. ونقله ابن تيمية في «الجواب الصحيح» (٣/ ١٤٥، ٣٦٨، ٣٢٢/ ٤)، والقرطبي في تفسيره (١٢/ ٢٦٠)، وغيرهما.
وانظر: «الوابل الصيب» (١١٩) والتعليق عليه.

(٢) ورد بمعناه عن ابن عباس عند الطبري في «التفسير» (١٩/ ١٨٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٢٠١) من رواية علي بن أبي طلحة عنه.

(٣) (ق): «وهو نور الإيمان على نور القرآن».

ضرب مثلاً، صراطاً مستقيماً، وعلى كَنَفِي الصَّراط^(١) سُوران لهما أبوابٌ مفتحة، وعلى الأبواب سُتور، وداعٍ يدعو على الصَّراط، وداعٍ يدعو فوقه، ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، والأبواب التي على كَنَفِي الصَّراط حدودُ الله، فلا يقعُ أحدٌ في حدود الله حتى يكشفَ السُّتر، والذي يدعو من فوقه واعظُ ربِّه.

رواه الترمذي - وهذا لفظه -، والإمام أحمد ولفظه: «... والدَّاعي على رأس الصَّراط كتابُ الله، والداعي فوق الصَّراط واعظُ الله في قلب كلِّ مؤمن»^(٢).

فذكرَ الأصلين؛ وهما: داعي القرآن، وداعي الإيمان.
وقال حذيفة: «حدثنا رسولُ الله ﷺ أَنَّ الأمانة نزلت في جَذْرِ قلوب الرِّجال، ثمَّ نزل القرآن، فعَلِمُوا من الإيمان، ثمَّ عَلِمُوا من القرآن»^(٣).
وفي «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن

(١) الكنف: الجانب والناحية. «النهاية» (كنف). وفي (ت) وبعض مصادر الحديث: «كَنَفِي» بالتاء، وهي بمعنى المثبت.

(٢) أخرجه أحمد (٤/١٨٢، ١٨٣)، والترمذي (٢٩٥٨)، والنسائي في «التفسير» من «الكبرى» (١١١٦٩)، وغيرهم من طرق.

قال الترمذي - كما في «تحفة الأشراف» (٩/٦١) -: «حسن غريب»، وقال ابن كثير في «التفسير» (١/١٦١): «هذا إسناد حسن صحيح»، وقال الحاكم (١/٧٣) عن أحد طرقه: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولا أعرف له علة، ولم يخرجاه». ولم يتعقبه الذهبي.

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٩٦)، ومسلم (١٤٣).

النبي ﷺ: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة، طعمها طيبٌ وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، طعمها طيبٌ ولا ریح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ریحها طيبٌ وطعمها مرٌّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، طعمها مرٌّ ولا ریح لها» (١).

فجعل الناس أربعة أقسام:

الأول: أهل الإيمان والقرآن؛ وهم خيارُ الناس.

والثاني: أهل الإيمان الذين لا يقرؤون القرآن؛ وهم دونهم.

فهؤلاء هم السعداء.

والأشقياء قسمان:

أحدهما: من أوتي قرآنًا بلا إيمان، فهو منافق.

والثاني: من لا أوتي قرآنًا ولا إيمانًا.

والمقصود: أن القرآن والإيمان هما نورٌ يجعله الله في قلب من يشاء من

عباده، وأنهما أصلُ كلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة، وعلمُهما أجلُّ العلوم (٢)

وأفضلُها، بل لا علمَ في الحقيقة ينفعُ صاحبه إلا علمُهما، والله يهدي من

يشاء إلى صراطٍ مستقيم.

الوجه الثالث والثلاثون: أن الله سبحانه جعلَ صيدَ الكلب الجاهل ميتةً

يحرمُ أكلُها، وأباحَ صيدَ الكلب المَعْلَم.

(١) «صحيح البخاري» (٥٠٢٠)، و«صحيح مسلم» (٧٩٧).

(٢) (د، ق): «أصل العلوم».

وهذا أيضًا من شرف العلم: أنه لا يباح إلا صيد الكلب العالم، وأما الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده؛ فدلّ على شرف العلم وفضله، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَنْقُؤا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤]، ولولا مزية العلم والتعليم وشرفهما كان صيد الكلب المعلم والجاهل سواءً.

الوجه الرابع والثلاثون: أن الله سبحانه أخبرنا عن صفيه وكليمه الذي كتب له التوراة بيده وكلمه منه إليه، أنه رحل إلى رجل عالم يتعلّم منه، ويزداد علمًا إلى علمه، وقال لفتاه: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾^(١)؛ حرصًا منه على لقاء هذا العالم، وعلى التعلّم منه، فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلّم مع معلّمه، وقال له: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾^(٢)، فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعتة، وأنه لا يتبعه إلا بإذنه^(٣)، وقال: ﴿عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾، فلم يجيء مُسْتَمْعِنًا ولا متعنّتًا، وإنما جاء متعلّمًا مستزيدًا علمًا إلى علمه.

وكفى بهذا فضلًا وشرفًا للعلم؛ فإنّ نبيّ الله وكليمه سافر ورحل حتى لقي النّصّب من سفره في تعلّم ثلاث مسائل من رجل عالم، ولمّا سمع به لم يقرّر له قرارٌ حتى لقيه وطلب منه متابعتة وتعليمه.

(١) كما في سورة الكهف: ٦٠.

(٢) سورة الكهف: ٦٦.

(٣) (ح، ن): «بإذنه وأمره».

وفي قصتهما عبرٌ وآياتٌ وحِكَمٌ ليس هذا موضع ذكرها (١).

الوجه الخامس والثلاثون: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وندبَ تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين - وهو تعلُّم -، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم - وهو التعليم -.

وقد اختلف في الآية (٢):

ف قيل: المعنى: أن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلُّهم للتفقه والتعلُّم، بل ينبغي أن ينفر من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ، تتفقه تلك الطائفةُ ثم ترجع لتعلِّم القاعدين؛ فيكون النفيرُ على هذا نفيرَ تعلُّم، والطائفةُ تقالُ على الواحد فما زاد.

قالوا: فهو دليلٌ على قبول خبر الواحد.

وعلى هذا حملها الشافعيُّ وجماعة (٣).

وقالت طائفةٌ أخرى: المعنى: وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلُّهم، بل ينبغي أن تنفرَ طائفةٌ للجهاد، وفرقةٌ تقعدُ تتفقه في الدين، فإذا جاءت الطائفةُ التي نفرت فقَّهتها القاعدةُ وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام.

(١) انظر لها فصلًا ماتعًا في «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (٤٨٣ - ٤٨٥).

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٥٢)، و«بدائع الفوائد» (١٦٣٦).

(٣) انظر: «الفيقيه والمتفقه» (١/ ٢٧٩)، و«الواضح» لابن عقيل (٤/ ٣٦٧)، و«الفصول» للجصاص (٣/ ٧٥، ٩٤، ١٤٧).

والمقول عن الشافعي الاستدلال بالآية على قبول خبر الواحد، مع اعتبار النفير على بابه نفيرَ جهاد. انظر: «المجموع» (٤/ ٣٠٥)، و«فتح الباري» (١٣/ ٢٤٤)، و«الرسالة» (٩٨٨)، و«الأم» (٥/ ٣٦٨، ٣٨٤).

وعلى هذا، فيكون قوله: ﴿لَيْسَ فَعَهُوْا﴾ و﴿لَا يُذِرُوا﴾ للفرقة التي نفرت منها طائفة.

وهذا قول الأكثرين^(١).

وعلى هذا، فالنفي نفي جهاد - على أصله -؛ فإنه حيث أَسْتَعْمِلَ إنما يُفْهَمُ منه الجهاد، قال الله تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٤١]، وقال النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»^(٢)، وهذا هو المعروف من هذه اللفظة.

وعلى القولين، فهو ترغيب في التفقه في الدين، وتعلمه، وتعليمه؛ وأن ذلك^(٣) يعدل الجهاد، بل ربما يكون أفضل منه، كما سيأتي تقريره في الوجه الثامن والمئة إن شاء الله تعالى.

الوجه السادس والثلاثون: قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَصِيرٌ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾، قال الشافعي رضي الله عنه: «لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم»^(٤).

وبيان ذلك: أن المراتب أربعة^(٥)، وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله:

(١) انظر: «زاد المسير» (٣/ ٥١٧)، و«تفسير القرطبي» (٨/ ٢٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٨٦٤) عن ابن عباس.

(٣) (ق): «فإن ذلك».

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨/ ٣٨٥٢).

(٥) كذا في الأصول، في الموضعين، من باب الحمل على المعنى.

أحدها: معرفة الحق.

الثانية: عمله به.

الثالثة: تعليمه من لا يحسنه.

الرابعة: صبره على تعلمه، والعمل به، وتعليمه.

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة:

* فَأَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِالْعَصْرِ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ فِي خُسْرٍ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾،
وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به. فهذه مرتبة.

* ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وهم الذين عملوا بما علموا من الحق. فهذه
مرتبة أخرى.

* ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ وَصَّى بِهِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا؛ تَعْلِيمًا وَإِرْشَادًا. فهذه
مرتبة ثالثة.

* ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ صَبَرُوا عَلَى الْحَقِّ، وَوَصَّى بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالصَّبْرِ
عليه والثبات. فهذه مرتبة رابعة.

وهذا نهاية الكمال؛ فَإِنَّ الْكَمَالَ أَنْ يَكُونَ الشَّخْصُ كَامِلًا فِي نَفْسِهِ،
مَكْمَلًا لِغَيْرِهِ، وَكَمَالُهُ بِإِصْلَاحِ قُوَّتَيْهِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، فَصِلَاحُ الْقُوَّةِ الْعِلْمِيَّةِ
بِالْإِيمَانِ، وَصِلَاحُ الْقُوَّةِ الْعَمَلِيَّةِ بِعَمَلِ الصَّالِحَاتِ، وَتَكْمِيلُهُ غَيْرَهُ بِتَعْلِيمِهِ
إِيَّاهُ، وَصَبْرُهُ عَلَيْهِ، وَتَوْصِيَتُهُ بِالصَّبْرِ عَلَى الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

فهذه السورة – على اختصارها – هي من أجمع سور القرآن للخير
بحذافيره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافيًا من كل ما سواه، شافيًا من كل

داء، هادياً إلى كل خير.

الوجه السابع والثلاثون: أنه سبحانه ذكر فضله وميته على أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده، بما آتاهم من العلم.

فذكر نعمته على خاتم أنبيائه ورسله بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وقد تقدمت هذه الآية.

وقال في يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال في كلمه موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

ولمّا كان الذي آتاه موسى من ذلك أمراً عظيماً خصّه به على غيره، ولا يثبت له إلا الأقوياء أولو العزم = هيأه له بعد أن بلغ أشده واستوى، يعني: تمّ وكملت قوّته.

وقال في حق المسيح: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠].

وقال في حقّه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨]، فجعل تعليمه مما بشر به أمّه، وأقرّ عينها به.

وقال في حقّ داود: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠].

وقال في حقِّ الخَضِرِ صاحبِ موسى وفتاه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا
ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]؛ فذكر من نعمه عليه
تعليمه، وما آتاه من رحمته.

وقال تعالى يذكرُ نعمته على داود وسليمان: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ
يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾
فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩]، فذكر النبيين
الكريمين، وأثنى عليهما بالحكم والعلم، وخصَّ بفهم القضية أحدهما.

وقد ذكرتُ الحكمين الداوديَّ والسليمانِيَّ، ووجهيهما^(١)، ومن صار
من الأئمة إلى هذا ومن صار إلى هذا، وترجيح الحكم السليمانِيَّ من عدَّة
وجوه، وموافقته للقياس وقواعد الشرع، في كتاب «الاجتهاد والتقليد»^(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ
يَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ بُدُونِهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ﴿٣﴾
يعني: الذي أنزله.

جعل سبحانه تعليمهم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلًا على صحة^(٤)

(١) (د، ت، ق، ن): «ووجهيهما».

(٢) لم يذكره مترجمو المصنف ضمن كتبه، وأشار هو إليه في «تهذيب السنن»
(٣٤١/٦). انظر: «ابن القيم» للشيخ بكر (٢٠٠). وفي «إعلام الموقعين» (١/٣٢٦-
٣٣٠) بحثٌ حول الحكمين المذكورين.

(٣) سورة الأنعام [الآية: ٩١].

(٤) (ت): «حجة»، في الموضعين.

النبوة والرسالة؛ إذ لا يُنال هذا العلم إلا من جهة الرسل، فكيف يقولون: ما أنزل الله على بشرٍ من شيء؟! وهذا من فضل العلم وشرفه، أنه دليل على صحة النبوة والرسالة، والله الموفق للرشاد.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [الجمعة: ٢-٤]، يعني: وبَعَثَ في آخرين منهم لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ.

وقد اختلفَ في هذا اللِّحاق المنفي؛ ف قيل: هو اللِّحاق في الزمان، أي: يتأخر زمانهم عنهم. وقيل: هو اللِّحاق في الفضل والسَّبق.

وعلى التقديرين، فامتَنَّ عليهم سبحانه بأن علَّمهم بعد الجهل، وهداهم بعد الضلالة، ويا لها من منَّةٍ عظيمةٍ فاتت المِنَن، وجلَّت أن يقدرَ العبادُ لها على ثمن.

الوجه الثامن والثلاثون: أن أول سورة أنزلها الله في كتابه سورة القلم^(١)؛ فذكر فيها ما مَنَّ به على الإنسان من تعليمه ما لم يعلم، فذكر فيها

(١) كذا في الأصول. وهو من أسماء سورة العلق. انظر: «زاد المسير» (٩/ ١٧٥)، و«الدر المصون» (١١/ ٥٤).

فضله بتعليمه، وتفضيله الإنسان بما علمه إياه، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم.

فقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿[العلق: ١-٥].

فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم.

وذكر خلقه خصوصًا وعمومًا، فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وخص الإنسان من بين المخلوقات؛ لما أودعه من عجائب وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه. وذكر هنا مبدأ خلقه من علق لكون العلقه مبدأ الأطوار التي أنتقلت إليها النطفة، فهي مبدأ تعلق التخليق^(١).

ثم أعاد الأمر بالقراءة، مخبرًا عن نفسه بأنه الأكرم، وهو الأفعل^(٢) من الكرم، وهو كثرة الخير، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه؛ فإن الخير كله بيديه، والخير كله منه، والنعم كلها فهو وليها، والكمال كله والمجد كله له؛ فهو الأكرم حقًا.

ثم ذكر تعليمه عمومًا وخصوصًا، فقال: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس.

ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصًا، فقال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

(١) (د، ت، ق): «تعليق الخلق». وانظر: «تهذيب السنن» (١٢/٣١٣).

(٢) أي أن «الأكرم» على صيغة «أفعل»، التي هي من صيغ المبالغة.

فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطي الموجودات كلها بجميع أقسامها؛ فإنَّ الوجود^(١) له مراتب أربع^(٢):

إحداها: مرتبتها الخارجية، المدلول عليها بقوله: ﴿خَلَقَ﴾.

المرتبة الثانية: الذَّهنية، المدلول عليها بقوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

المرتبة الثالثة والرابعة: اللفظية والخطيَّة، فالخطيَّة مصرَّح بها في قوله: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، واللفظيَّة من لوازم التعليم بالقلم؛ فإنَّ الكتابة فرعُ النطق، والنطق فرعُ التصوُّر.

فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلّها، وأنه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه، فهو الخالقُ المعلِّم؛ فكلُّ شيءٍ في الخارج فبخلقه ووجد، وكلُّ علمٍ في الذَّهن فبتعليمه حصَّل، وكلُّ لفظٍ في اللِّسان أو خطٌّ في البنان فبإقداره وخلقه وتعليمه. وهذا من آيات قدرته، وبراهين حكمته، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

والمقصودُ أنه سبحانه تعرَّف إلى عبادِه بما علَّمهم إياه - بحكمته - من الخطِّ واللفظ والمعنى؛ فكان العلمُ أحدَ الأدلَّة الدَّالة عليه، بل من أعظمها وأظهرها، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً له.

الوجه التاسع والثلاثون: أنه سبحانه سمَّى الحُجَّة العلمية سلطاناً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كلُّ سلطانٍ في القرآن فهو حُجَّة»^(٣)، وهذا

(١) (د، ت، ق): «الموجود».

(٢) (ق، د، ن): «أربعة».

(٣) علقه البخاري في «الصحيح» (٦/ ١٠٤)، ووصله ابن عيينة في «تفسيره»، ومن =

كقوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أُنْقُلُوْا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ [يونس: ٦٨]، يعني: ما عندكم من حجة بما قلتم، إن هو إلا قول على الله بلا علم.

وقال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطٰنٍ﴾ [النجم: ٢٣]، يعني: ما أنزل الله بها حجة ولا برهاناً، بل هي من تلقاء أنفسكم وآبائكم.

وقال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِيْنٌ﴾ (١٥٦) ﴿فَأْتُوا بِكِتٰبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ﴾ [الصافات: ١٥٦ - ١٥٧]، يعني: حجة واضحة، فأتوا بها إن كنتم صادقين في دعواكم.

إلا موضعاً واحداً اختلف فيه، وهو قوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾ (٢٨) ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطٰنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٨ - ٢٩]، فقيل: المراد به القدرة والملك، أي: ذهب عني مالي ومُلْكِي^(١)، فلا مال لي ولا سلطان. وقيل: هو على بابهِ^(٢)، أي:

= طريقه ابن أبي حاتم - كما في «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠٤١) -، والخطيب في «التاريخ» (١٠/ ١٥١)، وإسناده على شرط الصحيح، كما قال ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٣٩١). وصححه ابن كثير.

وروي من وجه آخر عند الطبري (١٩/ ٤٤٤)، والفريابي - كما في «تغليق التعليق» (٤/ ٢٣٩) -.

(١) (ت): «سلطاني ومالي».

(٢) (ح، ن): «من بابهِ».

أَنقَطَعَتْ حُجَّتِي وَبَطَلَتْ، فلا حجة لي.

والمقصودُ أَنَّ الله سبحانه سَمَّى علم الحجة: سلطاناً؛ لأنها تُوجِبُ تسلُّطَ صاحبها واقتداره، فله بها سلطانٌ على الجاهلين.

بل سلطانُ العلم أعظمُ من سلطان اليد، ولهذا ينقادُ الناسُ للحجة ما لا ينقادونَ لليد؛ فإنَّ الحجةَ تنقادُ لها القلوب، وأما اليدُ فإنما ينقادُ لها البدن، فالحجةُ تأسِرُ القلبَ وتَقْوِدُهُ، وتُذِلُّ المخالف، وإن أظهرَ العنادَ والمكابرة فقلبه خاضعٌ لها، ذليلٌ مقهورٌ تحت سلطانها، بل سلطانُ الجاه إن لم يكن معه علمٌ يُسَاسُ به فهو بمنزلة سلطان السُّباع والأُسود ونحوها، قدرةٌ بلا علمٍ ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة، فإنه قدرةٌ بعلمٍ ورحمةٍ وحكمة، ومن لم يكن له اقتدارٌ في علمه فهو إمَّا لضعفِ حجته وسلطانها، وإمَّا لقهر سلطان اليد والسيف له، وإلا فالحجةُ ناصرةٌ نفسها، ظاهرةٌ على الباطل قاهرةٌ له.

الوجه الأربعون: أَنَّ الله سبحانه وتعالى وصفَ أهل النار بالجهل، وأخبرَ أنه سَدَّ عليهم طرقَ العلم، فقال تعالى حكايةً عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (١٠) فَأَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَنَسْحَقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿[الملك: ١٠ - ١١]، فأخبروا (١) أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون. والسمعُ والعقلُ هما أصلُ العلم، وبهما يُنال.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فأخبر سبحانه أنهم لم يحصل

(١) (ت، ح): «فأخبر».

لهم علمٌ من جهةٍ من جهات العلم الثلاث، وهي العقل والسمع والبصر، كما قال في موضعٍ آخر: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا ابْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

فقد وصف أهل الشقاء - كما ترى - يعدم العلم، وشبههم تارةً بالأنعام، وتارةً بالحمار الذي يحمل الأسفار، وتارةً جعلهم أضلَّ من الأنعام، وتارةً جعلهم شرَّ الدوابِّ عنده، وتارةً جعلهم أمواتًا غير أحياء، وتارةً أخبر أنهم في ظلمات الجهل والضلال، وتارةً أخبر أنَّ على قلوبهم أكنة^(١)، وفي آذانهم وقرا، وعلى أبصارهم غشاوة.

وهذا كله يدلُّ على قبح الجهل، وذمُّه أهله^(٢)، وبغضه لهم، كما أنه يُحِبُّ أهل العلم ويمدحهم ويشني عليهم، كما تقدَّم، والله المستعان.

الوجه الحادي والأربعون: ما في «الصحيحين» من حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من يُرد الله به خيرًا يُفَقِّهه في الدين»^(٣)، وهذا يدلُّ على أنَّ من لم يفقهه في دينه لم يُرد به خيرًا، كما أنَّ

(١) (ح، ن): «أكنة أن يفقهوه».

(٢) (ح): «وذم أهله».

(٣) «صحيح البخاري» (٧١)، و«صحيح مسلم» (١٠٣٧).

من أراد به خيراً ففقهه في دينه، ومن فقهه في دينه فقد أراد به خيراً= إذا أريدَ بالفقه العلمُ المستلزمُ للعمل.

وأما إن أريدَ به مجردُ العلم فلا يدلُّ على أن من فقه في الدين فقد أريدَ به خيراً؛ فإنَّ الفقه حينئذٍ يكونُ شرطاً لإرادة الخير، وعلى الأول يكونُ موجِباً، والله أعلم.

الوجه الثاني والأربعون: ما في «الصحيحين» أيضاً من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَثْلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرَبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمَسِّكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»^(١).

شَبَّهَ ﷺ العلمَ والهدى الذي جاء به بالغيث؛ لِمَا يَحْصُلُ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنَ الْحَيَاةِ وَالْمَنَافِعِ وَالْأَغْذِيَةِ وَالْأَدْوِيَةِ وَسَائِرِ مَصَالِحِ الْعِبَادِ، فَإِنَّهَا بِالْعِلْمِ وَالْمَطَرِ.

وشَبَّهَ الْقُلُوبَ بِالْأَرْضِ الَّتِي تَقَعُ عَلَيْهَا الْمَطَرُ؛ لِأَنَّهَا الْمَحَلُّ الَّذِي يَمْسُكُ الْمَاءَ، فَيَنْبِتُ سَائِرَ أَنْوَاعِ النَّبَاتِ النَّافِعِ، كَمَا أَنَّ الْقُلُوبَ تَعْيِي الْعِلْمَ فَيُثْمِرُ فِيهَا وَيَزْكُو، وَتُظْهَرُ بِرُكَّتِهِ^(٢) وَثِمَرْتِهِ.

(١) «صحيح البخاري» (٧٩)، و«صحيح مسلم» (٢٢٨٢).

(٢) (ت): «تزكيتُهُ».

ثُمَّ قَسَمَ النَّاسُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ^(١)، بِحَسَبِ قَبُولِهِمْ وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِحِفْظِهِ، وَفَهُمْ مَعَانِيهِ، وَاسْتِنْبَاطَ أَحْكَامِهِ، وَاسْتِخْرَاجَ حِكْمِهِ وَفَوَائِدِهِ:

أَحَدُهَا: أَهْلُ الْحِفْظِ وَالْفَهْمِ، الَّذِينَ حَفِظُوهُ وَعَقَلُوهُ، وَفَهُمُوا مَعَانِيهِ، وَاسْتِنْبَطُوا وَجُوهَ الْأَحْكَامِ وَالْحِكَمِ وَالفَوَائِدِ مِنْهُ؛ فَهَؤُلَاءِ بِمَنْزِلَةِ الْأَرْضِ الَّتِي قَبِلَتْ الْمَاءَ، وَهَذَا بِمَنْزِلَةِ الْحِفْظِ. فَأَنْبَتَ الْكَلَأُ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَهَذَا هُوَ الْفَهْمُ فِيهِ وَالْمَعْرِفَةُ وَالِاسْتِنْبَاطُ؛ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ إِنْبَاتِ الْكَلَأِ وَالْعُشْبِ بِالْمَاءِ.

فَهَذَا مِثْلُ الْحَفَاطِ الْفُقَهَاءِ، أَهْلِ الرِّوَايَةِ وَالدِّرَايَةِ.

الْقِسْمُ الثَّانِي: أَهْلُ الْحِفْظِ، الَّذِينَ رُزِقُوا حِفْظَهُ وَنَقَلَ وَضَبَطَهُ، وَلَمْ يُرْزَقُوا تَفْقُّهًا فِي مَعَانِيهِ، وَلَا اسْتِنْبَاطًا وَلَا اسْتِخْرَاجًا لَوْجُوهِ الْحِكَمِ وَالفَوَائِدِ مِنْهُ؛ فَهُمْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَحْفَظُهُ، وَيُرَاعِي حُرُوفَهُ وَإِعْرَابَهُ، وَلَمْ يُرْزَقْ فِيهِ فَهْمًا خَاصًّا عَنِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِلَّا فَهْمًا يُؤْتِيهِ اللَّهُ عَبْدًا فِي كِتَابِهِ»^(٢).

وَالنَّاسُ مُتَفَاوِتُونَ فِي الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَعْظَمَ تَفَاوُتًا، فَرُبَّ شَخْصٍ يَفْهَمُ مِنَ النَّصِّ حَكْمًا أَوْ حَكَمِينَ، وَيَفْهَمُ مِنْهُ الْآخِرُ مِثْلًا أَوْ مِثْلَيْنِ.

فَهَؤُلَاءِ بِمَنْزِلَةِ الْأَرْضِ الَّتِي أَمْسَكَتِ الْمَاءَ لِلنَّاسِ، فَانْتَفَعُوا بِهِ؛ هَذَا يَشْرَبُ مِنْهُ، وَهَذَا يَسْقِي، وَهَذَا يَزْرَعُ.

فَهَؤُلَاءِ الْقِسْمَانِ هُمُ السُّعْدَاءُ، وَالْأُولَوْنَ أَرْفَعُ دَرَجَةً وَأَعْلَى قَدَرًا، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

(١) انظر: «الوابل الصيب» (١٣٥ - ١٤١) والتعليق عليه.

(٢) أخرجه البخاري (١١١).

القسم الثالث: الذين لا نصيب لهم منه؛ لا حفظًا ولا فهمًا، ولا روايةً ولا دراية، بل هم بمنزلة الأرض التي هي قيعانٌ لا تنبت ولا تمسك الماء، وهؤلاء هم الأشقياء.

والقسمان الأولان أشتراكا في العلم والتعليم، كلٌ بحسب ما قبله ووصل إليه؛ فهذا يعلمُ ألفاظ القرآن ويحفظها، وهذا يعلمُ معانيه وأحكامه وعلومه. والقسم الثالث لا علم ولا تعليم؛ فهم الذين لم يرفعوا بهدى الله رأسًا، ولم يقبلوه، وهؤلاء شرٌّ من الأنعام، وهم وقود النار.

فقد أتممت هذا الحديث الشريف العظيم على التنبيه على شرف العلم والتعليم، وعظم موقعه، وشقاء من ليس من أهله، وذكر أقسام بني آدم بالنسبة فيه إلى شقيهم وسعيدهم، وتقسيم سعيدهم إلى سابقٍ مُقَرَّبٍ وصاحبٍ يمينٍ مُقْتَصِدٍ.

وفيه دلالة على أنَّ حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر، بل أعظم، وأنهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التي فقدت الغيث.

قال الإمام أحمد: «الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأنَّ الطعام والشراب يُحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يُحتاج إليه بعدد الأنفاس»^(١).

وقد قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرْدٍ كَذَلِكَ يُضَرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ

(١) انظر: «مسائل حرب» (٣٤٣)، و«طبقات الحنابلة» (١/ ٣٩٠)، و«الآداب الشرعية» (٤٤/ ٢).

وَالْبَاطِلُ ﴿[الرعد: ١٧]؛ شَبَّهَ سبحانه العلمَ الذي أنزله على رسوله بالماء الذي أنزله من السماء؛ لِمَا يَحْصُلُ بكلِّ واحدٍ منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم.

ثُمَّ شَبَّهَ القُلُوبَ بالأودية؛ فَقَلْبٌ كَبِيرٌ يَسَعُ عِلْمًا كَثِيرًا، كَوَادٍ عَظِيمٍ يَسَعُ مَاءً كَثِيرًا، وَقَلْبٌ صَغِيرٌ إِنَّمَا يَسَعُ عِلْمًا قَلِيلًا، كَوَادٍ صَغِيرٍ إِنَّمَا يَسَعُ مَاءً قَلِيلًا؛ فَقَالَ: ﴿فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةٌ يَقْدَرُهَا﴾.

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾: هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ تَعَالَى لِلْعِلْمِ حِينَ تَخَالِطُ القُلُوبَ بِشَاشَتِهِ؛ فَإِنَّهُ يَسْتَخْرِجُ مِنْهَا زَبَدَ الشُّبُهَاتِ الْبَاطِلَةِ، فَيَطْفُو (١) عَلَى وَجْهِ الْقَلْبِ، كَمَا يَسْتَخْرِجُ السَّيْلُ مِنَ الْوَادِي زَبَدًا يَعْلُو فَوْقَ الْمَاءِ.

وَأَخْبَرَ سبحانه أَنَّهُ رَابٍ، أَيُّ: يَطْفُو وَيَعْلُو عَلَى الْمَاءِ، لَا يَسْتَقَرُّ فِي أَرْضِ الْوَادِي، كَذَلِكَ الشُّبُهَاتُ الْبَاطِلَةُ إِذَا أَخْرَجَهَا الْعِلْمُ رَبَّتْ فَوْقَ الْقَلْبِ وَطَفَّتْ، فَلَا تَسْتَقَرُّ فِيهِ، بَلْ تَجْفَى وَتُرْمَى، وَيَسْتَقَرُّ فِي الْقَلْبِ مَا يَنْفَعُ صَاحِبَهُ وَالنَّاسَ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، كَمَا يَسْتَقَرُّ فِي الْوَادِي الْمَاءُ الصَّافِي، وَيَذْهَبُ الزَّبَدُ جَفَاءً، وَمَا يَعْقِلُ عَنْ اللَّهِ أَمْثَالَهُ إِلَّا الْعَالِمُونَ (٢).

ثُمَّ ضَرْبَ سبحانه لذلك مثلاً آخر، فَقَالَ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ﴾ يعني: أَنَّ مِمَّا يُوقَدُ عَلَيْهِ بَنُو آدَمَ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنَّحَاسِ وَالْحَدِيدِ يَخْرُجُ مِنْهُ خَبَثُهُ، وَهُوَ الزَّبَدُ الَّذِي تَلْقِيهِ النَّارُ وَتُخْرِجُهُ

(١) (ت): «فتطفوا».

(٢) انظر لهذا المثل المائي، والمثل الناري الذي بعده: «الوابل الصيب» (١٣٣ - ١٣٤)، (١٤٣).

من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها، فإنه يُقَذَّفُ ويلقى به، ويستقرُّ الجوهرُ الخالصُ وحده.

وضربَ سبحانه مثلاً بالماء؛ لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة، ومثلاً بالنار؛ لما فيها من الإضاءة والإشراق والإحراق، فأياتُ القرآن تحيي القلوبَ كما تحيي الأرضُ بالماء، وتُحْرِقُ خبثَها وشبهاتها وشهواتها وسخائمها كما تُحْرِقُ النارُ ما يلقي فيها، وتميِّزُ زَبَدَها من زُبْدِها^(١) كما تميِّزُ النارُ الخبثَ من الذهب والفضَّة والنحاس ونحوه منه.

فهذا بعض ما في المثل العظيم من العبرة والعلم، قال الله تعالى: ﴿وَلِئَلَّا أَلَّا مَثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

الوجه الثالث والأربعون: ما في «الصحيحين» أيضاً من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «لأنَّ يهدي بك الله رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمُرِ النَّعَمِ»^(٢).

وهذا يدلُّ على فضل العلم والتعليم، وشرف منزلة أهله، بحيث إذا أهدى رجلٌ واحداً بالعالم كان ذلك خيراً له من حُمُرِ النَّعَمِ - وهي خيارُها وأشرفُها عند أهلها -، فما الظَّنُّ بمن يهتدي به كلُّ يومٍ طوائفُ من الناس؟!

الوجه الرابع والأربعون: ما روى مسلمٌ في «صحيحه» من حديث أبي

(١) كذا في الأصول. مضبوطة في (د، ح). و«الزُّبْد» جمعُ زُبْدَة، وهي الخالصُ من الشيء. وأصلُها ما خَلَصَ من اللبن إذا مُخِض.

(٢) «صحيح البخاري» (٢٩٤٢)، و«صحيح مسلم» (٢٤٠٦).

هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً»^(١).

أخبر ﷺ أن المتسبب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر من أهدى به، والمتسبب إلى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضلّ به؛ لأنّ هذا بذل قدرته في هداية الناس، وهذا بذل قدرته في ضلالهم، فنزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التام.

وهذه قاعدة الشريعة، كما هو مذكور في غير هذا الموضع^(٢)؛ قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أُنْفُسَهُمْ وَأُنْفَالًا مَعَ أُنْفَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وهذا يدل على أنّ من دعا الأمة إلى غير سنة رسول الله ﷺ فهو عدوه حقاً؛ لأنه قطع وصول أجر من أهدى بسنته إليه^(٣)، وهذا من أعظم معاداته، نعوذ بالله من الخذلان.

الوجه الخامس والأربعون: ما خرّجا في «الصحيحين» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل

(١) «صحيح مسلم» (٢٦٧٤).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠ / ٧٢٤)، و«طريق الهجرتين» (٧٨٥).

(٣) (ح، ن): «بسببه». (ت): «بسنة الله».

آتاه الله مَالاً فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكَّتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيَعْلَمُهَا» (١).

فَأَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْسَدَ أَحَدًا - يَعْنِي: حَسَدَ غِبْطَةً - وَيَتَمَنَّى مِثْلَ حَالِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَمَنَّى زَوَالَ نِعْمَةِ اللَّهِ عَنْهُ = إِلَّا فِي وَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ، وَهِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ بِعِلْمِهِ، أَوْ بِمَالِهِ. وَمَا عَدَا هَذَيْنِ فَلَا يَنْبَغِي غِبْطَتُهُ وَلَا تَمَنَّى مِثْلَ حَالِهِ؛ لِقَلَّةِ مَنْفَعَةِ النَّاسِ بِهِ.

الوجه السادس والأربعون: قال الترمذي: «حدثنا محمد بن عبد الأعلى: حدثنا سلمة بن رجاء: حدثنا الوليد بن جميل: حدثنا القاسم، عن أبي أمامة الباهلي قال: ذَكَرَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَجُلَانِ، أَحَدُهُمَا عَابِدٌ، وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، حَتَّى النَّمْلَةُ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحَوْتُ فِي بَحْرِهِ، لِيَصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ» (٢).

قال الترمذي: «وهذا حديث حسن غريب، سمعتُ أبا عمار الحسين بن

(١) «صحيح البخاري» (٧٣)، و«صحيح مسلم» (٨١٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٣٣/٨)، وغيرهما بإسناد فيه ضعف.

وفي نسخة الكروخي (ق ١٧٧/أ) و«تحفة الأشراف» (٤/١٧٧): «حسن غريب صحيح». وفي المطبوعة: «حسن غريب».

ولأول الحديث شاهد من مرسل مكحول والحسن عند الدارمي (٢٩٤، ٣٤٦)، ولآخره شاهد من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وسيأتي.

حُرَيْثُ الخَزَاعِي، قال: سمعتُ الفضيلَ بنَ عياضٍ يقول: عالمٌ عاملٌ معلَّمٌ يُدعى كبيرًا في ملكوت السموات».

وهذا مرويٌّ عن الصحابة؛ قال ابن عباس: «علماءُ هذه الأُمَّة رجالان، فرجلٌ أعطاه الله علمًا، فبذله للناس ولم يأخذ عليه صَفْدًا^(١)، ولم يَشْتَرِ به ثمنًا، أولئك يصلِّي عليهم طيرُ السماء، وحياتانُ البحر، ودوابُّ الأرض، والكرامُ الكاتبون، ورجلٌ آتاه الله علمًا فضنَّ به عن عبادته، وأخذ به صَفْدًا، واشترى به ثمنًا؛ فذلك يأتي يوم القيامة مُلْجَمًا بلجامٍ من نار». ذكره ابن عبد البرِّ مرفوعًا، وفي رفعه نظر^(٢).

وقوله: «إنَّ اللهَ وملائكته وأهلَ السموات والأرض يصلُّون على معلَّم الناس الخير»؛ لمَّا كان تعليمُه الناسَ الخيرَ سببًا لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم، جازاه الله من جنس عمله، بأنَّ جعلَ عليه مِن صلاته وصلاة ملائكته وأهل الأرض ما يكونُ سببًا لنجاته وسعادته وفلاحه.

وأيضًا؛ فإنَّ معلَّم الناس الخيرَ لمَّا كان مُظْهِرًا لدين الربِّ وأحكامه، ومعرِّفًا لهم بأسمائه وصفاته، جعلَ الله مِن صلاته وصلاة أهل سماواته وأرضه عليه ما يكونُ تنويرًا به، وتشريفًا له، وإظهارًا للثناء عليه بين أهل السماء والأرض.

(١) يعني: عطاءً. وفي «الأوسط»، و«الترغيب والترهيب» للمنذري (١/١٢٩، ١٥٧)، و«مجمع الزوائد»: «طعمًا». وفي «جامع بيان العلم»: «صفراً».

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/١٧٢)، والطبراني في «الأوسط» (٧١٨٧) من طريقين ضعيفين عن ابن عباس به مرفوعًا.

وضَعَّف العراقيُّ في «المغني عن حمل الأسفار» (١/٣٩) إسناد الطبراني. وانظر: «مجمع الزوائد» (١/١٢٤).

الوجه السابع والأربعون: ما رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإنَّ العالمَ ليستغفرُ له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتانُ في الماء، وفضلُ العالمِ على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء، إنَّ الأنبياءَ لم يُورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم؛ فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر» (١).

وقد رواه الوليد بن مسلم، عن خالد بن يزيد، عن عثمان بن أيمن، عن أبي الدرداء، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من غدا لعلَّ يتعلَّمه فتح الله له به طريقاً إلى الجنة، وفرشت له الملائكة أكنافها، وصلَّت عليه ملائكةُ السماء وحيتانُ البحر، وللعالم من الفضل على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، والعلماء ورثةُ الأنبياء، إنَّ الأنبياءَ لم يُورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم؛ فمن أخذ بالعلم أخذ بحظٍّ وافر، وموتُ العالم مصيبةٌ لا تُجبر، وثلمةٌ لا تُسدُّ، ونجمٌ طُمِس، وموتُ قبيلةٍ أيسرُ من موت

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وأحمد (١٩٦/٥)، وغيرهم.

وفي إسناده اضطرابٌ، وجهالة. وروى من أوجهٍ آخر غير محفوظة.
انظر: «العلل» للدارقطني (٢١٦/٦)، و«جامع الترمذي» (٤٨/٥) عقب الحديث، و«جامع بيان العلم» (١٦٢/١)، و«تحفة الأشراف» (٨/٢٣٠)، و«الميزان» (٤/٢).
وصححه ابن حبان (٨٨)، وقال ابن حجر في «الفتح» (١٩٣/١): «له شواهد يتقوى بها».

عالم»، وهذا حديثٌ حسن^(١).

والطريقُ التي يسلكها إلى الجنة جزاءٌ على سلوكه في الدنيا طريق العلم
الموصلة إلى رضا ربّه.

وَوَضَعَ الملائكة أجنتها له تواضعًا وتوقيرًا وإكرامًا لما يحمله من
ميراث النبوة ويطلبه، وهو يدلُّ على المحبة والتعظيم، فمن محبة الملائكة
له وتعظيمه تضعُ أجنتها له؛ لأنه طالبٌ لما به حياةُ العالم ونجاته، ففيه
شبهٌ من الملائكة، وبينه وبينهم تناسب، فإنَّ الملائكة أنصَحُ خلق الله
وأنفعهم لبني آدم، وعلى أيديهم حصلَ لهم كلُّ سعادةٍ وعلمٍ وهدى.

وَمِنْ نفعهم لبني آدم ونُصَحهم أنهم يستغفرون لمسيئتهم، ويُثبَّتون^(٢)
مؤمنيهم، ويعينونهم على أعدائهم من الشياطين، ويحرصون على مصالح
العبد أضعافَ حرصه على مصلحة نفسه، بل يريدون له من خير الدنيا
والآخرة ما لا يريدُ العبدُ ولا يخطرُ له ببال؛ كما قال بعض التابعين: «وجدنا

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده الكبير»، كما في «المطالب العالية» (٣/٣٣٢)،
و«إتحاف الخيرة» (١/٢١٠)، والبيهقي في «الشعب» (٤/٣٣١)، ومن طريقه
الرافعي في «التدوين» (٣/٤٦١).

وخالد بن يزيد ضعيف، واتهمه بعضهم. انظر: «التهذيب» (٣/١٢٧). وعثمان بن
أيمن لم أر من وثقه، وترجمه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٨/٣١٨) وخرَّج له
هذا الحديث، ولم يَحْك فيه جرْحًا ولا تعديلًا. وانظر: «مجمع الزوائد» (١/٢٠٢).
والوليْدُ مشهورٌ بالتدليس ولم يصرِّح بالتحديث. ولعل المصنف أراد بتحسين
الحديث حُسْنَ معناه وسياقته.

(٢) (ق): «ويثنون على».

الملائكة أنصح خلق الله لعباده، ووجدنا الشياطين أغش الخلق للعباد»^(١).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ - ٩].

فأي نصح للعباد مثل هذا إلا نصح الأنبياء!

فإذا طلب العبد العلم فقد سعى في أعظم ما ينصح به عباد الله؛ فلذلك تحبه الملائكة وتعظمه، حتى تضع أجنتها له رضا ومحبة وتعظيمًا.

وقال أبو حاتم الرازي: سمعت ابن أبي أويس يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: معنى قول رسول الله ﷺ: «تضع أجنتها» يعني: تبسطها بالدعاء لطالب العلم، بدلًا من الأيدي^(٢).

وقال أحمد بن مروان المالكي في كتاب «المجالسة» له: حدثنا زكريا بن عبد الرحمن البصري، قال: سمعت أحمد بن شعيب يقول: كنّا عند بعض المحدّثين بالبصرة، فحدّثنا بحديث النبي ﷺ: «إنّ الملائكة لتضع أجنتها لطالب العلم»، وفي المجلس معنا رجل من المعتزلة، فجعل

(١) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٧٨/٢)، والطبري (٣٥٧/٢١)، وغيرهما عن مطرف بن عبد الله بن الشخير.

(٢) انظر: «التمهيد» (٤٣/١٩).

يستَهزىءُ بالحديث، فقال: والله لأَقْطُرَنَّ غَدًا نعلي^(١)، فأطأ بها أجنحة الملائكة. ففعل، ومشى في النَّعلين؛ فجفت رجلاه جميعًا، ووقعت في رجليه الآكلة^(٢).

وقال الطبراني: سمعتُ أبا يحيى زكريا بن يحيى السَّاجي قال: كنَّا نمشي في بعض أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين، فأسرعنا المشي، وكان معنا رجلٌ ماجنٌ متَّهمٌ في دينه، فقال: «أرفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة، لا تكسروها»، كالمستهزىء؛ فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط^(٣).

وفي «السنن» و«المسانيد» من حديث صفوان بن عَسَّال، قال: قلت: يا رسول الله - ﷺ -، إني جئتُ أطلبُ العلم، قال: «مرحبًا بطالب العلم؛ إنَّ طالبَ العلم لتُحَفُّ به الملائكةُ وتُظِلُّه بأجنحتها، فيركبُ بعضها بعضًا حتى تبلغَ السماء الدنيا، مِنْ حُبِّهم لما يطلب»، وذكر حديثَ المسح على

(١) كذا في الأصول، و«المجالسة». لعله مِنْ: قَطَرَتِ البعيرَ، إذا طَلَّته بالقطران. «الصَّحاح» (قطر). وفي (ح): «لأَقْطُرَنَّ نعلي بمسامير»، وفي طُرَّتْهَا إشارةٌ إلى أن في نسخة: «لأَطْرَقَنَّ»، ووردت بمعناها في بعض المصادر.

(٢) «المجالسة» (٢١٥٤). والخبر في «الطيوريات» (١٩٨)، و«بستان العارفين» للنووي (١١٢)، و«مشيخة ابن الحطاب الرازي» (٩)، وفي حاشية الأخير مزيد تخريج.

(٣) أخرجه الطبراني في كتاب «السُّنة»، كما ذكر شيخ الإسلام في «الفتاوى» (٥٣٩/٤)، ومن طريقه الخطيب في «الرحلة» (٨)، والهروي في «ذم الكلام» (٣٦٩/٤)، والنووي في «بستان العارفين» (١١١).

وقال الحافظ عبد القادر الراوي: «إسناد هذه الحكاية كالأخذ باليدين، أو كإي العين؛ لأن رواتها أعلام، وروايتها إمام». انظر: «فيض القدير» (٣٩٣/٢).

الخَفَيْن (١).

قال أبو عبد الله الحاكم: إسناده صحيح. وقال ابن عبد البر: هو حديث صحيح حسن ثابت محفوظ مرفوع، ومثله لا يقال بالرأي.

ففي هذا الحديث حَفَّ الملائكة له بأجنحتها إلى السماء، وفي الأول وضعها أجنحتها له؛ فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل، والحَفُّ بالأجحة حفظٌ وحمايةٌ وصيانة. فتضمنَ الحديثان تعظيمَ الملائكة له، وحبَّها إياه، وحياطته وحفظه؛ فلو لم يكن لطالب العلم إلا هذا الحظُّ الجزيلُ لكفى به شرفاً وفضلاً.

وقوله ﷺ: «إِنَّ الْعَالَمَ لِيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ»؛ فإنه لما كان العالمُ سبباً في حصول العلم الذي به نجاةُ النفوس من أنواع الهلكات، وكان سعيه مقصوداً على هذا، وكانت نجاةُ العباد على يديه = جُوزِي من جنس عمله، وجُعِلَ من في السموات والأرض ساعياً في نجاته من أسباب الهلكات، باستغفارهم له؛ وإذا كانت الملائكة تستغفرُ للمؤمنين، فكيف لا تستغفرُ لخاصَّتهم وخُلاصَتهم؟!

وقد قيل: إِنَّ «مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ» المستغفرين للعالم

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣٥، ٣٥٣٦)، والنسائي (١٥٨)، وابن ماجه (٢٢٦)، وأحمد (٢٣٩/٤)، والطيالسي (١٢٦٢)، وغيرهم.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح». وصححه ابن خزيمة (١٧، ١٩٣)، وابن حبان (٨٥، ١١٠، ١٣١٩)، والحاكم (١/١٠١)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/١٥٩) - ونقل المصنف عبارته -، وخرَّجه الضياء في «المختارة» (٢٣)، (٣٠).

عامٌّ في الحيوانات، ناطقها وبهيومها، طيرها وغيره. ويؤكدُ هذا قوله: «حتى الحيتان في الماء، وحتى النملة في جحرها».

ف قيل: سببُ هذا الاستغفار أنَّ العالمَ يَعْلَمُ الخلقَ مراعاةً هذه الحيوانات، ويعرّفُهم ما يحلُّ منها وما يحرمُ، ويعرّفُهم كيفيةَ تناولها، واستخدامها، وركوبها، والانتفاع بها، وكيفيةَ ذبحها على أحسن الوجوه وأرفقها بالحيوان، والعالمُ أشفقُ الناس على الحيوان، وأقومهم ببيان ما خُلِقَ له^(١).

وبالجملة؛ فالرحمةُ والإحسانُ التي خُلِقَ بهما ولهما الحيوان، وكُتِبَ لهما حظُّهما منه، إنما يُعرَفُ بالعلم، فالعالمُ مُعرِّفٌ لذلك؛ فاستحقَّ أن تستغفر له البهائم، والله أعلم.

وقوله: «وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب» تشبيهٌ مُطابِقٌ لحال القمر والكواكب؛ فإنَّ القمرَ يضيءُ الآفاق، ويمتدُّ نوره في أقطارِ العالم^(٢)، وهذه حالُ العالم. وأما الكوكبُ فنوره لا يجاوزُ نفسه، أو ما قُربَ منه، وهذه حالُ العابد الذي يضيءُ نورَ عبادته عليه دون غيره، وإن جاوز نورَ عبادته غيره فإنما يجاوزُه غير بعيد، كما يجاوزُ ضوءُ الكوكب له مجاوزةً يسيرةً.

ومن هذا الأثر المروي: «إذا كان يومُ القيامة يقولُ الله للعابد: أدخل الجنة، فإنما كانت منفعتك لنفسك، ويقالُ للعالم: أشفعْ تُشفعْ، فإنما كانت

(١) انظر: «الكاشف عن حقائق السنن» للطَّيْبِي (١/ ٣٧٢)، و«الميسر» للتوربشتي (١/ ١٠٤)، و«تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (٣١).

(٢) (ت، ح): «في العالم».

منفعتك للناس»^(١).

وروى ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إذا كان يوم القيامة يؤتى بالعابد والفقير، فيقال للعابد: ادخل الجنة، ويقال للفقير: أشفع»^(٢).

وفي التشبيه المذكور لطيفة أخرى: وهو أن الجهل كالليل في ظلمته وحنديسه، والعلماء والعباد بمنزلة القمر والكواكب الطالعة في تلك الظلمة، وفضل نور العالم فيها على نور العابد كفضل نور القمر على الكواكب.

وأيضاً؛ فالدين قوامه وزينته وأمنته بعلمائه وعباده؛ فإذا ذهب علمائه وعباده ذهب الدين، كما أن السماء أمنتها وزينتها بقمرها وكواكبها؛ فإذا خسف قمرها وانتثرت كواكبها أتاها ما تُوعَد، وفضل علماء الدين على العباد كفضل ما بين القمر والكواكب.

فإن قيل: فكيف وقع تشبيه العالم بالقمر دون الشمس، وهي أعظم نوراً؟

(١) أخرجه الخطيب في «الفتاوى والمتفق» (١/ ١١١) من حديث أنسٍ مرفوعاً بإسنادٍ شديد الضعف.

وبنحوه أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٤١٢، ٦/ ٤٣٨)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٣٤٦)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ١٠٨) عن جابرٍ مرفوعاً بإسنادين شديدي الضعف.

(٢) أخرجه الخطيب في «الفتاوى والمتفق» (١/ ١١٢) بإسنادٍ ضعيفٍ جداً. وأخرجه أبو القاسم التيمي في «الترغيب والترهيب» (٢١٥٧) من حديث أبي أمامة مرفوعاً بإسنادٍ ضعيف.

قيل: فيه فائدتان^(١):

إحداهما: أنَّ نور القمر لما كان مستفادًا من غيره كان تشبيهه العالم الذي نوره مستفاد من شمس الرسالة بالقمر أولى من تشبيهه بالشمس.

الثانية: أنَّ الشمس لا يختلف حالها في نورها، ولا يلحقها محاق^(٢) ولا تفاوت في الإضاءة، وأمَّا القمر فإنه يقلُّ نوره ويكثر ويمتلئ وينقص؛ كما أنَّ العلماء في العلم على مراتبهم من كثرتهم وقلَّتْهم، فيفضل كلُّ منهم في علمه بحسب كثرتهم وقلَّتْهم، وظهوره وخفائه، كما يكون القمر كذلك، فعالم كالبدل ليلة تَمُّه^(٣)، وآخر دونه بليلة ثانية وثالثة وما بعدها إلى آخر مراتبه، وهم درجات عند الله.

فإن قيل: تشبيه العلماء بالنجوم أمرٌ معلوم، كقوله ﷺ: «أصحابي كالنجوم»^(٤)، ولهذا هي في تعبير الرؤيا عبارة عن العلماء^(٥)، فكيف وقع

(١) انظر: «الذخيرة» للقرافي (٤٣/١).

(٢) مثلثة الميم. أي: نقصان ضوء. والمحاق: آخر الشهر إذا انمحق الهلال فلم يُرَ، سُمِّيَ بذلك لأنه طلع مع الشمس فمَحَقَتْه. «اللسان» (محق).

(٣) أي: اكتماله وتمامه. وهذا التركيب كثير الورود في الشعر.

(٤) جاء من حديث جماعة من الصحابة بألفاظ مختلفة. ولا يصحُّ منها شيء. وقد حكم برده الإمام أحمد، والبخاري، وغير واحد من المتأخرين.

انظر: «المنتخب من العلل للخلال» (١٤٣)، و«جامع بيان العلم وفضله» (٩٢٣/٢)، و«تحفة الطالب لابن كثير» (١٦٦)، و«موافقة الخبر الخبر» (١٤٥/١)، و«التلخيص الحبير» (١٩٠/٤)، و«السلسلة الضعيفة» (٥٨).

(٥) انظر: «تعبير الرؤيا» لابن قتيبة (١١٢)، و«البدل المنير» للشهاب العابر المقدسي (٢١٧)، و«حلية الأولياء» (٢٧٧/٢).

تشبيهُهم هنا بالقمر؟

قيل: أما تشبيه العلماء بالنجوم؛ فلأنَّ النجوم يهتدى بها في ظلمات البرِّ والبحر، وكذلك العلماء.

والنجومُ زينةٌ للسماء، وكذلك العلماءُ زينةٌ للأرض.

وهي رجومٌ للشياطين حائلةٌ بينهم وبين استراق السَّمْع؛ لئلا يلبسوا^(١) بما يَسْتَرْقُونَه من^(٢) الوحي الوارد إلى الرسل من الله على أيدي ملائكته، وكذلك العلماء رجومٌ للشياطين الإنس^(٣) الذين يوحى بعضهم إلى بعضٍ زخرفَ القول غرورًا؛ فالعلماء رجومٌ لهذا الصَّنَف من الشياطين، ولولاهم لَطُمِسَتْ معالمُ الدِّين بتلبس المضلِّين، ولكنَّ الله سبحانه أقامهم حُرَّاسًا وحَفَظَةً لدينه، ورجومًا لأعدائه وأعداء رسله.

فهذا وجهُ تشبيهِهم بالنجوم.

وأما تشبيهُهم بالقمر؛ فذلك إنما كان في مقام تفضيلهم على أهل العبادة المجردة، وموازنة ما بينهما من الفضل. والمعنى: أنهم يَفْضُلُونَ الْعِبَادَةَ الَّذِينَ ليسوا بعلماء، كما يَفْضُلُ الْقَمَرُ سَائِرَ الْكَوَاكِبِ.

فكلُّ من التشبيهِين لائقٌ بموضعه، والحمدُ لله.

وقوله: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»، هذا من أعظم المناقب لأهل العلم؛ فإنَّ الْأَنْبِيَاءَ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ، فورثتهم خَيْرُ الْخَلْقِ بعدهم، ولما كان كلُّ

(١) (ت): «يشته».

(٢) «من» ليست في (ح، ن).

(٣) (ق): «الإنس والجن». وهو خطأ وسبق قلم.

موروث^(١) ينتقل ميراثه إلى ورثته؛ إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده، ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم في تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء = كانوا أحق الناس بميراثهم.

وفي هذا تنبيه على أنهم أقرب الناس إليهم؛ فإن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث، وهذا كما أنه ثابت في ميراث الدينار والدرهم، فكذا هو في ميراث النبوة، والله يختص برحمته من يشاء.

وفيه — أيضًا — إرشاد وأمر للأمة بطاعتهم واحترامهم وتعزيرهم وتوقيرهم وإجلالهم؛ فإنهم ورثة من هذه بعض حقوقهم على الأمة، وخلفاؤهم فيهم.

وفيه تنبيه على أن محبتهم من الدين، وبغضهم مناف للدين، كما هو ثابت لموروثهم^(٢). وكذلك معاداتهم ومحاربتهم معادة ومحاربة لله كما هو في موروثهم.

قال علي رضي الله عنه: «محبة العلماء دين يُدان الله به»^(٣).

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة»^(٤)، وورثة الأنبياء سادات أولياء الله عز وجل.

(١) (ت): «مورث». وكلاهما صحيح.

(٢) (ت): «لمورثهم». والوجهان صحيحان كما سبق.

(٣) جزء من وصيته لكميل بن زياد. وسيأتي تخريجها عند سياق المصنف لها (ص: ٣٤٨). ووردت الجملة في بعض المصادر: «محبة العلم...».

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة.

وفيه تنبيهٌ للعلماء على سلوك هدي الأنبياء وطريقتهم في التبليغ؛ من الصَّبر، والاحتمال، ومقابلة إساءة الناس إليهم بالإحسان، والرَّفْق بهم، واستجلابهم إلى الله بأحسن الطرق، وبذل ما يمكن من النصيحة لهم؛ فإنه بذلك يحصل لهم نصيبهم من هذا الميراث العظيم قدره، الجليل خَطَرُه.

وفيه - أيضًا - تنبيهٌ لأهل العلم على تربية الأُمَّة كما يربِّي الوالد وَلَدَه؛ فيربُّونهم بالتدريج والترقي من صغار العلم إلى كباره، وتحميلهم منه ما يطيقون، كما يفعل الأب بولده الطفل في إيصال^(١) الغذاء إليه؛ فإنَّ أرواح البشر بالنسبة إلى الأنبياء والرسل كالأطفال بالنسبة إلى آبائهم، بل دون هذه النسبة بكثير، ولهذا كلُّ روح لم يربِّها الرسول^(٢) لم تُفْلِح ولم تَصْلُح لصالحه؛ كما قيل:

ومن لا يُرَبِّيهِ الرسولُ وَيَسْقِيهِ لِيَأْنْ هُدَى^(٣) قد دَرَّ مِنْ تُدِي قُدْسِهِ
فذاك لَقِيطٌ ماله نِسْبَةُ الْوَلَا ولا يتعدَّى طَوْرَ أَبْنَاءِ جَنْسِهِ

وقوله: «إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ»، هذا من كمال الأنبياء وعِظَم نصحتهم للأمم، وتمام نعمة الله عليهم وعلى أممهم؛ أن أزاح جميع العلل، وحسَم جميع المواد التي تُوهِمُ بعض النفوس أنَّ الأنبياء من جنس الملوك الذين يريدون الدنيا ومُلْكُهَا؛ فحماهم سبحانه وتعالى من ذلك أتمَّ الحماية.

(١) (ن، ح): «إيصاله».

(٢) (ن): «تربها الرسل».

(٣) (ح، ن): «لبأنا له». والبيتان لم أعثر عليهما في مصدر آخر.

ثُمَّ لما كان الغالبُ على الناس أن أحدهم يريد الدنيا لولده من بعده، ويسعى ويتعب ويَحْرِمُ نفسه لولده = سدَّ هذه الدَّريعة عن أنبيائه ورسله، وقطعَ هذا الوهم الذي عساه أن يخالط كثيرًا من النفوس التي تقول: فلعله إن لم ^(١) يطلب الدنيا [لنفسه] فهو يحصِّلها ^(٢) لولده = فقال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث، ما تركنا فهو صدقة» ^(٣).

فلم تُورَث الأنبياءُ دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورَّثوا العلم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ فهو ميراثُ العلم والنبوة، لا غير، وهذا باتفاق أهل العلم من المفسِّرين وغيرهم ^(٤)، وهذا لأنَّ داود عليه السلام كان له أولادٌ كثيرٌ سوى سليمان، فلو كان الموروثُ هو المال لم يكن سليمان يختصُّ به ^(٥).

وأيضًا؛ فإنَّ كلامَ الله يَصانُ عن الإخبار بمثل هذا؛ فإنه بمنزلة أن يقال: «مات فلانٌ وورثه أبْنُه»، ومن المعلوم أنَّ كلَّ أحدٍ يرثه أبْنُه، وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة.

وأيضًا؛ فإنَّ ما قبل الآية وما بعدها يبيِّنُ أنَّ المراد بهذه الورثة وراثَةُ العلم والنبوة، لا وراثَةُ مال، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا

(١) (ت، د، ق): «فلعله لم».

(٢) (ت): «تحصيله». وما بين المعكوفين يقتضيه السياق، وليس في الأصول.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٩٣، ٦٧٢٦)، ومسلم (١٧٥٧ - ١٧٥٩).

(٤) انظر: «تأويل مختلف الحديث» (١٨٨)، و«شرح مشكل الآثار» (١٢/٣)،

و«التمهيد» (٨/١٧٤)، و«فتح الباري» (١٢/١٠)، و«روح المعاني» (١٠/١٦٦).

(٥) (ق): «مختصا به».

وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ ﴿النمل: ١٥ - ١٦﴾، وإنما سبقَ هذا لبيان^(١) فضل سليمان وما خصَّه الله به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب، وهو العلم والنبوة، ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦].

وكذلك قولُ زكريا ﷺ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِن وَرَآئِي وَكَانَتْ أُمْرَاقِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرْثُنِي وَيَرِثْ مِنِّي أَلٍ يَعْقُبُ عَنِّي وَأَجْعَلَ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥ - ٦]، فهذا ميراثُ العلم والنبوة والدعوة إلى الله، وإلا فلا يُظَنُّ بنبيٍّ كريمٍ أنه يخافُ عصبته أن يرثوه ماله، فيسألُ الله العظيمَ ولدًا يمنعهم ميراثه^(٢)، ويكونُ أحقَّ به منهم. وقد نَزَّهَ الله أنبياءه ورسله عن هذا وأمثاله.

فبُعِداً لمن حَرَّفَ كتابَ الله وردَّ على رسولِهِ كَلامَهُ، ونسبَ الأنبياءَ إلى ما هم أبرياءُ منزهون عنه، والحمدُ لله على توفيقه وهدايته.

ويُذَكَّرُ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه مرَّ بالسوق، فوجدَهم في تجاراتهم وبياعاتهم^(٣)، فقال: أنتم هاهنا فيما أنتم فيه وميراثُ رسولِ الله ﷺ يقسَّمُ في مسجده! فقاموا سراعاً إلى المسجد، فلم يجدوا فيه إلا القرآن والذكر ومجالسَ العلم، فقالوا: أين ما قلتَ يا أبا هريرة؟ فقال: هذا ميراثُ مُحَمَّدٍ ﷺ يقسَّمُ بين ورثته، وليس بموارثكم ودنياكم^(٤). أو كما قال.

(١) (ت): «سبق هذا البيان».

(٢) (ت): «يرثهم ميراثهم».

(٣) البياعات: الأشياء التي يُتَبَاعَع بها في التجارة. «اللسان» (بيع).

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٤٢٩) بإسنادٍ فيه من لا يُعْرَف. وحسنه المنذري

في «الترغيب» (١/ ١٣٤)، والهيتمي في «المجمع» (١/ ١٢٤).

وقوله: «فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافر»، أعظمُ الحظوظ وأجداها ما نفع العبدَ ودام نفعه له، وليس هذا إلا حظُّه من العلم والدين؛ فهو الحظُّ الدائمُ النافعُ الذي إذا انقطعت الحظوظُ لأربابها فهو موصولٌ له أبد الآبدين؛ وذلك لأنه موصولٌ بالحيِّ الذي لا يموت، فلذلك لا ينقطع ولا يفوت، وسائرُ الحظوظ تُعَدُّ وتُتَلَّشى وتُتَلَّشى متعلقاتها، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]؛ فَإِنَّ الغَايَةَ لما كانت منقطعةً زائلةً تبعثها أعمالهم، فانقطعت عنهم أحوالُ ما يكونُ العاملُ إلى عمله. وهذه هي المصيبةُ التي لا تُجْبَرُ، عبادًا بالله، واستعانةً به، وافتقارًا إليه، وتوكلًا عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقوله: «موتُ العالم مصيبةٌ لا تُجْبَرُ، وثُلْمَةٌ لا تُسَدُّ، ونَجْمٌ طُمِسَ، وموتٌ قَبِيلَةٌ أيسرُ من موتِ عالمٍ»، لَمَّا كان صلاحُ الوجود بالعلماء، ولولاهم كان الناسُ كالبهائم، بل أسوأَ حالًا؛ كان موتُ العالم مصيبةً لا يَجْبُرُها إلا خلفُ غيره له.

وأيضًا؛ فَإِنَّ العلماءَ هم الذين يَسُوسُونَ العبادَ والبلادَ والممالكَ، فموتُهُم فسادٌ لنظامِ العالم؛ ولهذا لا يزالُ الله يغرُسُ في هذا الدِّينِ منهم خالفًا عن سالف، يحفظُ بهم دينَهُ وكتابَهُ وعبادَهُ.

وتأمل: إذا كان في الوجود رجلٌ قد فاقَ العالمَ في الغنى والكرم، وحاجَّتُهُم إلى ما عنده شديدة، وهو محسنٌ إليهم بكلِّ ممكن، ثمَّ مات وانقطعت عنهم تلك المادَّة؛ فموتُ العالمِ أعظمُ مصيبةً من موتِ مثل هذا بكثير، ومثلُ هذا يموتُ بموته أُمُّ وخلائق، كما قيل:

تَعَلَّمَ مَا الرِّزْيَةُ فَقَدْ مَالٍ وَلَا شَاةٌ تَمُوتُ وَلَا بَعِيرُ
وَلَكِنَّ الرِّزْيَةَ فَقَدْ حُرَّ يَمُوتُ بِمَوْتِهِ بِشَرُّ كَثِيرٍ^(١)

وقال آخر:

فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلُكُهُ هُلُكَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بَنِيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا^(٢)

الوجه الثامن والأربعون: ما روى الترمذي من حديث الوليد بن مسلم حدثنا رَوْحُ بن جناح، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «فقيه»^(٣) أشدُّ على الشيطان من ألف عابد»^(٤).

(١) البيتان لأعرابية في «أمالي القالي» (٢٧٢/١). ولمُكَيْل بن الدهقانة التغلبي في «معجم الشعراء» للمرزباني (٤٤٥)، و«الحماسة البصرية» (٢/٦٣٤). ودون نسبة في «الزهرة» (٥٢٧).

وفي (ت): «يموت لموته خلق كثير». وهو كذلك في بعض المصادر.

(٢) البيت لَعَبْدَةَ بن الطبيب، من أبيات ثلاثة يرثي فيها سيد أهل الوبور قيس بن عاصم المنقري، في «الحماسة» بشرح المرزوقي (٧٩٠)، و«الشعر والشعراء» (٢/٧٢٨)، وغيرهما، وهي في «شعره» المجموع (١٢). وقال أبو عمرو بن العلاء: «هذا أرثي بيتَ قائلة العرب». «ديوان المعاني» (٣/٩٦٦).

(٣) في رواية ابن ماجه والطبراني وابن المنذر: «فقيه واحد».

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٨١)، وابن ماجه (٢٢٢)، والخاري في «التاريخ الكبير» (٣/٣٠٨)، وابن المنذر في «الأوسط» (١/١٣٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/٧٨)، وغيرهم.

ورَوْحُ بن جناح ضعيف، وقد استنكر حديثه هذا ابنُ عدي في «الكامل» (٣/١٤٥)، وابن حبان في «المجروحين» (١/٣٠٠) واستدلَّ به على ضعفه. وقال الساجي =

قال الترمذي: «غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الوليد بن مسلم».

قلت: قد رواه أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي اليقطيني: حدثنا عمر بن سعيد بن سنان: حدثنا هشام بن عمار: حدثنا الوليد بن مسلم: حدثنا رَوْحُ بن جناح، عن الزهري، عن سعيد بن المسيَّب، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ^(١).

قال الخطيب^(٢): «والأوّل هو المحفوظ عن رَوْح، عن مجاهد، عن ابن عباس، وما أرى الوهم وقع في هذا الحديث إلا من أبي جعفر؛ لأنَّ عمر بن سنان عنده: عن هشام بن عمار، عن الوليد، عن رَوْح، عن الزهري، عن سعيد: حديثٌ: «في السماء بيتٌ يقالُ له: البيتُ المعمورُ حيال الكعبة»^(٣)، وحديثُ ابن عباس، [فِيْشِبُهُ أَنْ يَكُونَا]^(٤) كانا في كتاب ابن

= - كما في «التهذيب» (٣/ ٢٩٣) -: «هو حديث منكر».

(١) أخرجه الخطيب في «الفتاوى والمتفق» (١/ ١٢٢). وهو وهمٌ، كما بيّنه الدارقطني في «العلل» (٩/ ١٣٢)، وزاد إيضاحه الخطيب، ونقل المصنّف كلام الأخير.

(٢) (د، ت، ق): «الدارقطني». والنص - بتصرّف - في كتاب الخطيب.

(٣) أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٥٩)، وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٤٤)، وغيرهما بطوله.

وقد استنكر الأئمة على رَوْح هذا الحديث، وحكم بعضهم بوضعه.

انظر: «أحوال الرجال» للجوزجاني (٢٧١)، و«الموضوعات» لابن الجوزي (١/ ٢١٩)، و«تاريخ دمشق» (١٨/ ٢٣٢)، وتعليق المعلمي على «الفوائد المجموعة» (٤٦٥).

(٤) زيادة يقتضيها السياق، وهي في كتاب الخطيب.

سنانٍ عن هشام يتلو أحدهما الآخر؛ فكتب أبو جعفر إسناده حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ثم عارضه سهوًا أو زاغ نظره، فنزل إلى متن حديث ابن عباس، فركب متن هذا على إسناده هذا، وكل واحد منهما ثقة مأمون، بريء من تعمّد الغلط.

وقد رواه أبو أحمد بن عدي عن محمد بن سعيد بن مهران: حدثنا شيبان: حدثنا أبو الربيع السَّمَّان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل شيء دِعامَة، ودِعامَة الإسلام الفقه في الدين، والفقيه أشدُّ على الشيطان من ألف عابد»^(١).

ولهذا الحديث علّة؛ وهو أنه رُوي من كلام أبي هريرة، وهو أشبه: رواه هانئ بن يحيى: حدثنا يزيد به عياض: حدثنا صفوان بن سليم، عن سليمان بن يسار، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين».

قال: وقال أبو هريرة: «لأن أفقه ساعة أحبُّ إليَّ من أن أُحيي ليلةً أصلّيها حتى أضحى، والفقيه أشدُّ على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء دِعامَة، ودِعامَة الدين الفقه»^(٢).

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٣٧٧/١) في ترجمة أبي الربيع، وعدّه من أنكر ما حدّث به.

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١٢٣/١)، و«الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١٥١/٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٩٢/٢) من طريق هانئ بن يحيى، عن يزيد بن عياض، به.

وأخرجه الدارقطني في «السنن» (٧٩/٣)، والطبراني في «الأوسط» (٦١٦٦)، =

وقد رُوِيَ بإسنادٍ فيه من لا يحتجُّ به من حديث عاصم بن أبي النّجود، عن زُرِّ بن حبّيش، عن عمر بن الخطاب يرفعه: «إِنَّ الفقيهَ أشدُّ على الشيطان من ألف ورع، وألف مجتهد، وألف متعبّد»^(١).

وقال المزني: «رُوِيَ عن ابن عباس أنه قال: إِنَّ الشياطين قالوا لإبليس: يا سيّدنا، ما لنا نراك تفرّح بموت العالم ما لا تفرّح بموت العابد والعالم لا نُصيبُ منه والعابد نُصيبُ منه؟!»^(٢)، قال: أنطلقوا. فانطلقوا إلى عابد، فأتوه في عبادته فقالوا: إِنَّا نريدُ أن نسألك. فانصرَف. فقال إبليس: هل يقدرُ ربُّك أن يجعلَ الدنيا في جوف بيضة؟ فقال: لا أدري. فقال: أترونه كَفَر في ساعة؟! ساعه؟!

ثمَّ جاؤوا إلى عالمٍ في حلّفته يُضاحكُ أصحابه ويحدّثهم، فقالوا: إِنَّا نريدُ أن نسألك. فقال: سلّوا. فقالوا: هل يقدرُ ربُّك أن يجعلَ الدنيا في جوف بيضة؟ قال: نعم. قالوا: كيف؟ قال: يقول: كُن فيكون؛ فقال: أترون ذلك لا يَعدُو نفسه، وهذا يُفسدُ عليّ عالمًا كثيرًا؟!»^(٣).

= والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٤٢/٤)، والقضاعى في «مسند الشهاب» (١٥٠/١) من طريق يزيد بن هارون، عن يزيد بن عياض، به، وجعله جميعه مرفوعا.

وعلى الوجهين، فيزيد بن عياض منكر الحديث.

(١) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١٢٤/١). وهو كما قال المصنف.

(٢) في طرّة (ح): «لعله: العالم نصيب منه، والعابد لا نصيب منه».

(٣) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١٢٤/١). وبين المزني وابن عباس مفاوز.

وعلقه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٢٩/١).

ورواها ابن أبي الدنيا عن بعض البصريين. انظر: «آكام المرجان» (٢٠٦).

وقد رُوِيَ هذه الحكايةُ على وجهٍ آخر، وأنهم سألوا العابد فقالوا: هل يقدرُ ربُّكَ أن يخلُقَ مثل نفسه؟ فقال: لا أدري. فقال: أترونه لم تنفعه عبادته مع جهله؟!

وسألوا العالمَ عن ذلك، فقال: هذه المسألةُ مُحالٌ؛ لأنه لو كان مثله لم يكن مخلوقًا، فكونه مخلوقًا وهو مثلُ نفسه مستحيل، فإذا كان مخلوقًا لم يكن مثله، بل كان عبدًا من عبيده، وخلقًا من خلقه. فقال: أترونَ هذا يهدمُ في ساعةٍ ما أبنيه في سنين؟! أو كما قال.

ورُوي عن عبد الله بن عمر^(١): «فضلُ العالمِ على العابدِ سبعين درجة، بين كلِّ درجتين حُضْرُ الفَرَسِ»^(٢) سبعين عامًا؛ وذلك أنَّ الشيطان يضعُ البدعة، فيبصرُها العالمُ فينهي عنها، والعابدُ مقبلٌ على عبادة ربِّه لا يتوجَّه لها ولا يعرفُها»^(٣).

(١) (د، ق، ح، ن) ومطبوعة «المغني» للعراقي: «عمرو». والمثبت من (ت) ومطبوعتي «الترغيب والترهيب» للأصبهاني والمنذري.

(٢) وهو ارتفاعه في عدوه. «اللسان» (حضر).

(٣) أخرجه أبو القاسم التيمي الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» (٢١٤٣) عن ابن عمر مرفوعًا بإسنادٍ شديد الضعف، وضعَّفه العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١٥/١).

وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (١٣٣/١): «وعجزُ الحديث يُشبهُ المُدرَج».

قلت: وهو كما قال، وقد ورد بدونه من حديث أبي هريرة مرفوعًا عند ابن عدي في «الكامل» (١٣٤/٤)، والخطيب في «الموضح» (١٩٦/٢)، وقال ابن عدي: «وهذا بهذا الإسناد منكر».

وهذا معناه صحيح؛ فإنَّ العالمَ يُفسدُ على الشيطان ما يسعى فيه، ويهدمُ ما بينه، فكلما أراد إحياء بدعة وإماتة سنة حال العالم بينه وبين ذلك، فلا شيء أشدُّ عليه من بقاء العالم بين ظهراني الأمة، ولا شيء أحبُّ إليه من زواله من بين أظهرهم؛ ليتمكن من إفساد الدين وإغواء الأمة، وأما العابدُ فغايتُه أن يجاهدَه ليسلِّمَ منه في خاصَّة نفسه، وهيهات له ذلك.

الوجه التاسع والأربعون: ما روى الترمذيُّ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الدنيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها، إلا ذكرُ الله وما والاه وعالمٌ ومتعلِّمٌ»^(١). قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسن»^(٢).

ولمَّا كانت الدنيا حقيرةً عند الله لا تساوي لديه جناح بعوضة، كانت - وما فيها - في غاية البعد منه، وهذا هو حقيقة اللعنة.

= ورُوي من وجه آخر مرسلًا، قال الدارقطني في «العلل» (٩/٢٦٧): «والمرسل أصح».

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، وغيرهما من طريق عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن عطاء بن قره، عن عبد الله بن ضمرة، عن أبي هريرة.

وعبد الرحمن فيه ضعف، وقال العقيلي في «الضعفاء» (٢/٣٢٦): «لا يتابعه إلا من هو دونه أو مثله» وانظر: «العلل المتناهية» (٢/٧٩٦). وأخرجه البيهقي في «شرح السنة» (١٤/٢٢٩) مرسلًا، وهو أصحُّ ورُوي من أوجه أخرى معلولة.

انظر: «مسند البزار» (٥/١٤٥)، و«علل الدارقطني» (٥/٨٩)، و«علل ابن أبي حاتم» (٢/١٢٤)، و«جامع العلوم والحكم» (٥٥٩).

(٢) وفي «تحفة الأشراف» (١٠/١٣٧)، و«تهذيب الكمال» (٢٠/١١٠): «حسن غريب».

وهو سبحانه إنما خلقها مزرعةً للآخرة ومعبراً إليها يتزود منها عباده إليه، فلم يكن يُقَرَّبُ منها إلا ما كان متضمناً لإقامة ذكره ومُقْضِياً إلى محابه، وهو العلم الذي به يُعرَفُ الله ويُعبَد، ويُذكر ويُثنى عليه به ويُمجَّد.

ولهذا خلقها وخلق أهلها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق: ١٢]، فتضمنت هاتان الآيتان أنه سبحانه إنما خلق السموات والأرض وما بينهما ليُعرَفَ بأسمائه وصفاته، وليُعبَد.

فهذا المطلوب^(١) وما كان طريقاً إليه من العلم والتعليم فهو المستثنى من اللعنة، واللَّعْنَةُ واقعةٌ على ما عداه؛ إذ هو بعيدٌ عن الله وعن محابه وعن دينه، وهذا هو متعلِّق العقاب في الآخرة؛ فإنه كما كان متعلِّق اللعنة التي تتضمن الذَّمَّ والبغض فهو متعلِّق العقاب، والله سبحانه إنما يحبُّ من عباده ذكره وعبادته، ومعرفته ومحَبَّته، ولوازم ذلك وما أفضى إليه، وما عداه فهو مبغوضٌ له، مذمومٌ عنده.

الوجه الخمسون: ما رواه الترمذي من حديث أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أنس، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»^(٢). قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ غريب،

(١) (ت): «فهذا هو المطلوب».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤٧)، والطبراني في «الصغير» (١/٢٣٤)، وغيرهما بإسناد ضعيف. وأشار الترمذي إلى إعلاله، ونقل المصنف عبارته. وانظر: «الضعفاء» للعقيلي (١٧/٢)، و«الميزان» (١/٦٤٨)، و«المختارة» للضياء =

رواه بعضهم فلم يرفعه».

وإنما جُعِلَ طلبُ العلم من سبيلِ الله لأنَّ به قِوامَ الإسلام، كما أنَّ قِوامَه
بالجهاد، فقِوامُ الدِّين بالعلم والجهاد.
ولهذا كان الجهادُ نوعين:

* جهادٌ باليد والسَّنان، وهذا المشارُك فيه كثير.

* وجهادٌ بالحجَّة والبيان، وهذا جهادُ الخاصَّة من أتباع الرسل، وهو
جهادُ الأئمَّة، وهو أفضلُ الجهادين؛ لعظم منفعتِه، وشدَّة مؤنتِه، وكثرة
أعدائِه.

قال تعالى في سورة الفرقان - وهي مكيَّة -: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ
قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾، فهذا
جهادٌ لهم بالقرآن، وهو أكبرُ الجهادين^(١)، وهو جهادُ المنافقين أيضًا؛ فإنَّ
المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين، بل كانوا معهم في الظَّاهر، وربَّما
كانوا يقاتلون عدوَّهم معهم، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ
الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]، ومعلومُ أنَّ جهادَ
المنافقين بالحجَّة والقرآن.

والمقصودُ أنَّ سبيلَ الله هي الجهادُ وطلبُ العلم ودعوهُ الخلق به إلى
الله، ولهذا قال معاذُ رضي الله عنه: «عليكم بطلب العلم؛ فإنَّ تعلُّمَه لله خشية،

= (٢١١٩ - ٢١٢١).

(١) (ت): «وهو أكبرُ الجهادين مؤنة».

ومدارسته عبادة، ومذاكرته تسييح، والبحث عنه جهاد^(١).

ولهذا يَقْرُنُ سبحانه بين الكتاب المنزل والحديد الناصر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، فذكر الكتاب والحديد إذ بهما قوام الدين^(٢)، كما قيل:

فما هو إلا الوحي أو حدٌّ مُرْهَفٍ تُمِيلُ ظُبَاهُ أَخْدَعِي كُلَّ مَائِلٍ
فهذا شفاء الداء من كلِّ عاقلٍ وهذا دواء الداء من كلِّ جاهلٍ^(٣)

ولمَّا كان كلُّ من الجهاد بالسيف والحجَّة يسمَّى: «سبيل الله»، فَسَّرَ الصحابة رضي الله عنهم قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] بالأمر والعلماء^(٤)؛ فإنهم المجاهدون في سبيل الله، هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألستهم.

(١) يأتي تخريجه (ص: ٣٣٧) حيث ساقه المصنف بتمامه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/١٣، ١٨، ١٥٨/٢٨، ٢٣٢، ٣٩٦)، و«جامع المسائل» (٦/٣١٤)، و«منهاج السنة» (١/٥٣١)، و«بدائع الفوائد» (٤١٥)، و«هداية الحيارى» (٢١)، و«طريق الهجرتين» (٦٤٣)، و«أحكام أهل الذمة» (١٣٠٥).

(٣) البيتان لأبي تمام في «ديوانه» بشرح التبريزي (٣/٨٦).

(٤) انظر: تفسير القرآن من «الجامع» لابن وهب (١/١٠٠)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٢/٢١٢ - ٢١٥)، و«تفسير الطبري» (٨/٤٩٧ - ٥٠٠)، و«السنة» للخلال (١/١٠٦)، و«مستدرک الحاكم» (١/١٢٣)، وغيرهما. وهذا التفسير يؤخذ من مجموع أقوالهم، لا من أحادها.

فطلبُ العلم وتعليمُهُ من أعظم سبيل الله عز وجل .
قال كعبُ الأحبار: «طالبُ العلم كالغادي»^(١) الرَّائح في سبيل الله عز وجل»^(٢).

وجاء عن بعض الصحابة رضي الله عنهم: «إذا جاء الموتُ طالبَ العلم وهو على هذه الحال مات وهو شهيد»^(٣).

وقال سفيان بن عيينة: «من طلب العلم فقد بايعَ الله عز وجل»^(٤).
وقال أبو الدرداء: «من رأى الغُدَّ والرَّواحَ إلى العلم ليس بجهادٍ فقد نقصَ عقله»^(٥) ورأيه».

(١) في الأصول: «الغازي». وفي طرَّة (ح): «لعله: كالغادي». وهو كذلك في مصادر الأثر، ويدلُّ عليه السياق.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٧٦/٥)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٢٨١/٧). ورُوي مرفوعاً من حديث أبي الردين.

أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده (٤١ - زوائده)، والطبراني في «الكبير» (٣٣٧/٢٢) بإسنادٍ فيه من لم أعرفه. وقال ابنُ منده عن أبي الردين: «له ذُكْرٌ في الصحابة، ولم يَثْبُت». «الإصابة» (١٣٨/٧).

(٣) أخرجه البزار (١٣٨ - كشف الأستار)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٢١/١)، والخطيب في «الفيح والفتحه» (١٠١/١)، و«تاريخ بغداد» (٢٤٧/٩) عن أبي هريرة وأبي ذر مرفوعاً بإسنادٍ ضعيف جداً.

وانظر: «الضعفاء» للعقيلي (٣٥٠/٤)، و«اللسان» (١٤٥/٢).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٨٠/٧)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧٤/٥) بلفظ: «من طلب الحديث...».

(٥) (د، ت، ح، ن): «نقص في عقله». والمثبت من (ق) و«جامع بيان العلم وفضله» (١٥٢/١).

الوجه الحادي والخمسون: ما رواه الترمذي: حدثنا محمود بن غيلان: حدثنا أبو أسامة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة».

قال الترمذي: «هذا حديث حسن»^(١).

قال بعضهم: «ولم يقل في هذا الحديث: صحيح؛ لأنه يقال: دلّس الأعمش في هذا الحديث؛ لأنه رواه بعضهم، فقال: حُدِّثُ عن أبي صالح»^(٢).

والحديث رواه مسلم في «صحيحه»^(٣) من أوجهٍ عن الأعمش عن أبي صالح.

قال الحاكم في «المستدرک»: «هو صحيحٌ على شرط البخاري ومسلم، رواه عن الأعمش جماعة، منهم: زائدة، وأبو معاوية، وابن نمير»^(٤).

(١) «جامع الترمذي» (١٩٣٠، ٢٦٤٦).

(٢) ذكر هذه العلة الترمذي في «الجامع» (٤/٣٤، ٥/١٩٥)، ونقل عنه الحافظ في «الفتح» (١/١٦٠) و«النكت» (١/٤٠٣) العبارة التي نقلها المصنف عن بعضهم، ولم أرها في «جامعه»، ولا رأيت من نقلها عنه سواه. ووافق الترمذي غير واحد من الحفاظ.

انظر: «علل ابن أبي حاتم» (٢/١٦٢)، و«علل أحاديث في كتاب الصحيح لمسلم» لابن عمار الشهيد (١٣٦)، و«جامع العلوم والحكم» (٦٣٢)، و«فتح الباري» لابن حجر (١/١٤١). وأطال الدارقطني في بيان الاختلاف فيه في «العلل» (١٠/١٨٥).

(٣) (٢٦٩٩).

(٤) «المستدرک» (١/٨٩) بنحوه ولم يتعقبه الذهبي. وصححه ابن حبان (٨٤).

وقد تقدّم حديث أبي الدرداء في ذلك؛ فالحديث محفوظ وله أصل.
وقد تظاهر الشرع والقدر على أنّ الجزاء من جنس العمل؛ فكما سلك طريقاً يطلب فيه حياة قلبه ونجاته من الهلاك، سلك الله به طريقاً يحصل له ذلك.
وقد روي من حديث عائشة رضي الله عنها، رواه ابن عدي من حديث محمد بن عبد الملك الأنصاري، عن الزهري، عن عروة، عنها مرفوعاً، ولفظه: «أوحى الله إليّ: إنه من سلك مسلكاً يطلب العلم سهّلت له طريقاً إلى الجنة»^(١).

الوجه الثاني والخمسون: أنّ النبي ﷺ دعا لمن سمع كلامه ووعاه وبلغه بالنصرة، وهي البهجة ونضارة الوجه وتحسينه، ففي الترمذي وغيره من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «نَصَرَ الله امرئاً سمع مقالتي، فوعاها، وحفظها، وبلغها، فربّ حامل فقهٍ إلىّ من هو أفقه منه، ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلبُ مسلم: إخلاصُ العمل لله، ومناصحةُ أئمة المسلمين، ولزومُ جماعتهم؛ فإنّ دعوتهم تحيطُ من ورائهم»^(٢).

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٦٠/٦) مع أحاديث أخرى، ثم قال: «هذه الأحاديث عن الزهري عن عروة عن عائشة بهذا الإسناد منكبراً كلّها، لا يرويه عن الزهري غير محمد بن عبد الملك».

وانظر: «شعب الإيمان» للبيهقي (٣٢٥/١٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٥٧)، وابن ماجه (٢٣٢)، وأحمد (٤٣٧/١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٣١/٧)، وغيرهم بإسناد حسن.

وصححه الترمذي، وابن حبان (٦٦، ٦٨، ٦٩)، وأبو نعيم.

وانظر: «شرف أصحاب الحديث» للخطيب (١٨)، و«موافقة الخبر الخبر» لابن حجر (٣٦٤/١).

وروى هذا الأصل عن النبي ﷺ: أبْنُ مسعود، ومعاذُ بن جبل، وأبو الدرداء، وجبير بن مطعم، وأنس بن مالك، وزيد بن ثابت، والنعمان بن بشير^(١).

قال الترمذي: «حديثُ أبْنِ مسعودٍ حديثٌ حسنٌ، وحديثُ زيد بن ثابتٍ حديثٌ حسنٌ»^(٢).

وأخرج الحاكمُ في «صحيحه» حديثَ جبير بن مطعم والنعمان بن بشير، وقال في حديث جبير: «على شرط البخاري ومسلم»^(٣).

ولو لم يكن في فضل العلم إلا هذا وحده لكفى به شرفاً؛ فإنَّ النبي ﷺ دعا لمن سمعَ كلامه، ووعاه، وحفظه، وبلغه. وهذه هي مراتبُ العلم: * أولها: سماعه.

* فإذا سمعه وعاه بقلبه^(٤)؛ أي: عَقَلَهُ واستقرَّ في قلبه، كما يستقرُّ الشيءُ الذي يُوعَى في وعائه ولا يخرجُ منه، وكذلك عَقَلُهُ هو بمنزلة عَقْلِ البعير والدابة ونحوها حتى لا تَشْرُدَ وتَذْهَبَ، ولهذا كان الوعيُّ والعقلُ قدرًا زائداً على مجرد إدراك المعلوم.

(١) وغيرهم، وعدّه جماعة من المتواتر. انظر: «قطف الأزهار المتناثرة» (٢)، و«مفتاح الجنة» (٩) كلاهما للسيوطي، و«لقط اللآلئ المتناثرة» للزبيدي (٤٨)، و«نظم المتناثر» للكتاني (٣٣).

(٢) «الجامع» (٣٣/٥). إلا أنَّ فيه قوله عن حديث ابن مسعود: «حسن صحيح»، وكذا هو في «تحفة الأشراف» (٧٥/٧).

(٣) «المستدرک» (١/٨٦ - ٨٨)، ولم يتعقبه الذهبي.

(٤) وهذه المرتبة الثانية.

* المرتبة الثالثة: تعاهدُه وحفظُه، حتى لا ينساه فيذهب.

* المرتبة الرابعة: تبليغُه وبثُّه في الأمة؛ ليحصلَ به ثمرته ومقصوده؛ فما لم يُبلِّغْ ويُبثِّ في الأمة فهو بمنزلة الكنز المدفون في الأرض الذي لا يُنفقُ منه، وهو مُعرَّضٌ لذهابه، فإنَّ العلمَ ما لم يُنفقْ منه ويُعلِّمَ فإنه يوشكُ أن يذهب، فإذا أنفقَ منه نما وزكا على الإنفاق.

فمن قام بهذه المراتب الأربع دخلَ تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن، فإنَّ النَّضْرَةَ هي البهجة والحُسْنُ الذي يكساها الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتذاذه به، فتظهرُ هذه البهجة والسرورُ والفرحةُ نضارةً على الوجه.

ولهذا يجمعُ سبحانه بين السرور والنضرة، كما في قوله تعالى: ﴿فَوَقَّهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]؛ فالنضرةُ في وجوههم، والسرورُ في قلوبهم.

فالنعيمُ وطيبُ القلب يظهرُ نضارةً في الوجه، كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

والمقصودُ أنَّ هذه النَّضْرَةَ في وجه من سمعَ سُنَّةَ رسول الله ﷺ، ووعاها، وحفظها، وبلَّغها، هي أثرُ تلك الحلاوة والبهجة والسرور الذي في قلبه وباطنه.

وقوله ﷺ: «رَبَّ حَامِلٍ فَقِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ» تنبيهٌ على فائدة التبليغ، وأنَّ المبلِّغَ قد يكونُ أفهمَ من المبلَّغ؛ فيحصلُ له في تلك المقالة ما لم يحصلُ للمبلَّغ.

أو يكون المعنى: أن المبلِّغ قد يكون أفقه من المبلِّغ، فإذا سمع تلك المقالة حملها على أحسن وجوها، واستنبط فقَّهها، وعَلِمَ المراد منها. وقوله ﷺ: «ثَلَاثٌ لَا يَغْلُ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ...» إلى آخره؛ أي: لا يحمل الغِلَّ ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة؛ فإنها تنفي الغِلَّ والغشَّ، وهو فساد القلب^(١) وسخائمه.

فالمخلصُ لله إخلاصُه يمنعُ غِلَّ قلبه، ويخرجه ويزيله جملةً؛ لأنه قد أنصرفت دواعي قلبه وإرادته إلى مرضاة ربِّه، فلم يبقَ فيه موضعٌ للغِلِّ والغشِّ؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٢) [يوسف: ٢٤]، فلمَّا أخلصَ لربِّه صرفَ عنه دواعي السوء والفحشاء؛ فانصرف عنه السوء والفحشاء.

ولهذا لمَّا علمَ إبليسُ أنه لا سبيلَ له على أهل الإخلاص استثناهم من شُرطته^(٣) التي أشرطها للغواية والإهلاك، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَرْتَدَّنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

(١) (ح، ن): «وفساد القلب».

(٢) كذا قرأ أبو عمرو في المواضع الثلاثة، وهي قراءة المصنف، وبها يستقيم احتجاجه. انظر: «الحجة» لابن خالويه (١٩٤)، و«السبعة» لابن مجاهد (٣٤٨)، و«الحجة» لأبي علي (٤٢١/٤)، و«الكشف عن وجوه القراءات السبع» لمكي (١٠/٢).

(٣) قال الصَّغَانِي في «الْعُبَاب» و«التَّكْمِلَة» (شرط): «وَالشُّرْطَة - بِالضَّمِّ -: مَا اشْتَرَطْتَ، يُقَالُ: خُذْ شُرْطَتَكَ». ولم أر هذا الحرف عند غيره.

سُلْطَنٌ إِلَّا مَنْ آتَبَكَ مِنَ الْعَاوِينَ ﴿٤٢﴾ [الحجر: ٤٢].

فالإخلاص هو سبيل الخلاص، والإسلام مركب السلامة، والإيمان خاتم الأمان.

وقوله: «ومناصحة أئمة المسلمين» هذا أيضًا منافع للغل والغش؛ فإن النصيحة لا تجامع الغل، إذ هي ضده، فمن نصح الأئمة والأمة فقد برىء من الغل.

وقوله: «ولزوم جماعتهم» هذا أيضًا مما يطهر القلب من الغل والغش؛ فإن صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها، ويسوؤه ما يسوؤهم، ويسره ما يسرهم.

وهذا بخلاف من انحاز عنهم، واشتغل بالطعن عليهم، والعيب والذم لهم؛ كفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم؛ فإن قلوبهم ممتلئة غلاً وغشاً، ولهذا تجد الرافضة أبعد الناس من الإخلاص، وأغشهم للأئمة والأمة، وأشدّهم بعداً عن جماعة المسلمين؛ فهؤلاء أشدّ الناس غلاً وغشاً بشهادة الرسول والأمة عليهم، وشهادتهم على أنفسهم بذلك، فإنهم لا يكونون قط إلا أعواناً وظهراً على أهل الإسلام، فأبيعدوا قام للمسلمين كانوا أعوان ذلك العدو وبطانته، وهذا أمر قد شاهدته الأمة منهم، ومن لم يشاهده فقد سمع منه ما يُصم الآذان ويُشجي القلوب^(١).

(١) انظر: «منهاج السنة» (٥/١٥٤، ٦/٣٧٠، ٣٧٤، ٧/٤١٤)، و«مجموع الفتاوى» (٤/٢٢)، و«البداية والنهاية» (١٧/٣٥٧ - ٣٦٠، ٣٧٩)، و«أصول مذهب الشيعة» للقفاري (٣/١٢١٢ - ١٢٤٥).

وقوله: «فإنَّ دعوتهم تحيِّطُ من ورائهم» هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنى؛ شبه دعوة المسلمين بالسُّور والسيَّاج المحيط بهم، المانع من دخول عدوِّهم عليهم، فتلك الدعوة - التي هي دعوة الإسلام، وهم داخلوها - لمَّا كانت سُورًا وسيَّاجًا عليهم أخبر أنَّ من لَزِمَ جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة - التي هي دعوة الإسلام - كما أحاطت بهم، فالدعوة تجمعُ شملَ الأمَّة، وتَلُمُّ شَعَثَهَا، وتحيطُ بها، فمن دخلَ في جماعتها أحاطت به وشملتَه.

الوجه الثالث والخمسون: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمرَ بتبليغ العلم عنه؛ ففي «الصحيح» من حديث عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي ولو آية، وحَدِّثُوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فليتبوَّأ مقعده من النار»^(١).

وقال: «لِيَبْلُغَ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ الْغَائِبَ».

روى ذلك: أبو بكرة، ووابصةُ بن معبد، وعمارُ بن ياسر، وعبدُ الله بن عمر، وعبدُ الله بن عباس، وأسماءُ بنت يزيد بن السَّكَن، وحُجَّير^(٢)، وأبو قُرَيْع^(٣)، وسَرَاءُ بنت نهبان، ومعاويةُ بن حيدة القشيري، وعمُّ أبي حُرَّة^(٤)،

(١) «صحيح البخاري» (٣٤٦١).

(٢) ابن أبي حُجَّير الهلالي. أخرج حديثه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣/٣٠٢)، والحاثر بن أبي أسامة في «مسنده» (٣٨٦ - زوائده)، وغيرهما، وإسناده صالح كما قال ابن حجر في «الإصابة» (٤١/٢).

(٣) اسمه: شريح. أخرج حديثه ابن منده. «الإصابة» (٧/٣٣٢).

(٤) اسمه: حنيفة. وقيل غير ذلك. انظر: «المعجم الكبير» للطبراني (٤/٥٣)، و«الإصابة» (٢/١٤٠). وحديثه عند أحمد (٥/٧٢) وغيره.

وغيرهم (١).

فأمر ﷺ بالتبليغ عنه؛ لما في ذلك من حصول الهدى بالتبليغ، وله ﷺ أجرٌ من بَلَّغَ عنه وأجرٌ من قَبِلَ ذلك البلاغ، وكلما كَثُرَ التبليغُ عنه تضاعفَ له الثواب، فله من الأجر بعدد كلِّ مبلِّغٍ وكلِّ مُهتَدٍ بذلك البلاغ، سوى ما له من أجر عمله المختصِّ به، فكلُّ من هُدِيَ واهتدى بتبليغه فله أجره؛ لأنه هو الداعي إليه.

ولو لم يكن في تبليغ العلم عنه إلا حصول ما يحبه ﷺ لكفى به فضلاً، وعلامة المحبِّ الصادق أن يسعى في حصول محبوب محبوبه، وي بذلَّ جهده وطاقته فيها، ومعلوم أنه لا شيء أحبُّ إلى رسول الله ﷺ من إيصاله الهدى إلى جميع الأمة، فالمبلِّغ عنه ساعٍ في حصول محابِّه، فهو أقربُ الناس منه وأحبُّهم إليه، وهو نائبه وخليفته في أمته، وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للعلم وأهله.

الوجه الرابع والخمسون: أنَّ النبي ﷺ قدَّم بالفضائل العَلَمِيَّة في أعلى الولايات الدينيَّة وأشرفها، وقدَّم بالعلم بالأفضل (٢) على غيره.

فروى مسلمٌ في «صحيحه» (٣) حديثَ أبي مسعود البدرِيِّ عن النبي ﷺ قال: «يَوْمُ الْقَوْمِ أَقْرَوْهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ

(١) وعُدَّ من المتواتر. انظر: «نظم المتناثر» للكتاني (٣٤). وهو في «صحيح البخاري» (٦٧) ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة. وحديث الباقرين مشهورٌ لا نظيلٌ بتخريجه.

(٢) (ت): «بالعلم الأفضل».

(٣) (٦٧٣).

بالسُّنَّة، فإن كانوا في السُّنَّة سواءً فأقدمهم سِلماً أو سناً...» وذكر الحديث.

فقدَّم في الإمامة بفضيلة العلم^(١) على تقدُّم الإسلام والهجرة، ولما كان العلمُ بالقرآن أفضل من العلم بالسُّنَّة - لشرف معلومه على معلوم السُّنَّة - قدَّم العلم به، ثمَّ قدَّم العلم بالسُّنَّة على تقدُّم الهجرة، وفيه من زيادة العمل ما هو متميِّز به، لكن إنما راعى التقديمَ بالعلم ثمَّ بالعمل، وراعى التقديمَ بالعلم بالأفضل على غيره، وهذا يدلُّ على شرف العلم وفضله، وأنَّ أهله هم أهلُ التقدُّم^(٢) إلى المراتب الدينيَّة.

الوجه الخامس والخمسون: ما ثبت في «صحيح البخاري»^(٣) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه».

وتعلَّم القرآن وتعلِّمُه يتناولُ تعلُّم حروفه وتعلِّمها، وتعلُّم معانيه وتعلِّمها، وهو أشرفُ قِسْمَي تعلُّمه وتعلِّمه؛ فإنَّ المعنى هو المقصود، واللفظُ وسيلةٌ إليه، فتعلَّم المعنى وتعلِّمُه تعلُّم الغاية وتعلِّمها، وتعلَّم اللفظ المجرَّد وتعلِّمُه تعلُّم الوسائل وتعلِّمها، وبينهما كما بين الغايات والوسائل.

الوجه السادس والخمسون: ما رواه الترمذي وغيره في نسخة عمرو ابن الحارث، عن درَّاج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «لن يشبع المؤمنُ من خيرٍ يسمعه حتى يكونَ منتهاه الجنة»^(٤).

(١) (ق): «تفضيله العلم». وهو تحريف.

(٢) (ت، ن): «التقديم».

(٣) (٥٠٢٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٨٦)، والبيهقي في «الشعب» (٤٣٠ / ٣)، والقضاعي في «مسند =

قال الترمذي: «هذا حديث حسنٌ غريب».

وهذه نسخةٌ معروفةٌ رواها الناس^(١).

وساق أحمدٌ في «المسند»^(٢) أكثرها أو كثيرًا منها.

ولهذا الحديث شواهد.

فجعلَ النبي ﷺ النِّهْمَةَ في العلمِ وعدمِ الشُّبُعِ منه من لوازمِ الإيمانِ وأوصافِ المؤمنين، وأخبرَ أنَّ هذا لا يزالُ دأبَ المؤمنِ حتى دخوله الجنة. ولهذا كان أئمةُ الإسلامِ إذا قيلَ لأحدهم: إلى متى تطلب العلم؟ فيقول: إلى الممات.

قال نعيمٌ بن حماد: سمعتُ عبدَ الله بن المبارك رضي الله عنه يقول، وقد عابه قومٌ في كثرة طلبه للحديث؛ فقالوا له: إلى متى تسمع؟! قال: إلى الممات^(٣).

= الشهاب» (٨٩٧)، وغيرهم.

وحسنه الترمذي، وصححه ابن حبان (٩٠٣)، والحاكم (١٢٩/٤) ولم يتعقبه الذهبي، وأخرجه ابنُ عدي في «الكامل» (١١٤/٣) في ترجمة دَرَّاجِ ضمن ما قد يُستنكر من حديثه.

(١) واختلِفَ في أحاديثها، تبعًا للاختلاف في روايتها دَرَّاجِ؛ فمن الحفاظ من لم يربها بأسًا: كابن معين، وابن حبان، والحاكم، ومنهم من ضعفها: كأحمد، وأبي داود. انظر: «تاريخ ابن معين» (٤/٤١٣ - رواية الدوري)، و«سؤالات الأجري» (٢/١٦٦)، و«الكامل» لابن عدي (٣/١١٢)، و«جامع الترمذي» (٢٠٣٣، ٢٦١٧، ٣٠٩٣).

(٢) (٨/٣، ٢٨ - ٢٩، ٦٩، ٧٠ - ٧١، ٧٥ - ٧٦، ٨١، ٨٣).

(٣) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١/١٠٣). وانظر: «جامع بيان العلم وفضله» (١/٤٠٦).

وقال الحسنُ بن منصور الجصاص: قلت لأحمد بن حنبل رضي الله عنه: إلى متى يكتبُ الرجلُ الحديث؟ قال: إلى الموت^(١).

وقال عبد الله بن محمد البغوي: سمعت أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول: أنا أطلبُ العلمَ إلى أن أدخلَ القبر^(٢).

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ: كنت أصوغُ مع أبي ببغداد، فمرَّ بنا أحمدُ بن حنبل وهو يعدو، ونعلاه في يده، فأخذ أبي بمجامع ثوبه، فقال: يا أبا عبد الله، ألا تستحي؟! إلى متى تعدو مع هؤلاء؟! قال: إلى الموت^(٣).

وقال عبد الله بن بشر الطالقاني: أرجو أن يأتيني أمرُ ربِّي والمحبرةُ بين يديّ، ولم يفارقني القلمُ والمحبرة^(٤).

وقال حميد بن محمد بن يزيد البصري^(٥): جاء أبْنُ بسطام الحافظُ يسألني عن الحديث، فقلت له: ما أشدَّ حرصك على الحديث! فقال: أو ما أحبُّ أن أكون في قطار آل رسول الله ﷺ؟!^(٦).

(١) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١٤٤).

وانظر: «طبقات الحنابلة» (٣٧٥ / ١)، و«الآداب الشرعية» (٤٥ / ٢)، و«المقصد الأرشد» (٣٣٨ / ١).

(٢) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١٤٥). وانظر: «الآداب الشرعية» (٥٨ / ٢).

(٣) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٣٩ / ٢، ٢٧٤ / ٦).

(٤) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٦٨ / ٢٧).

(٥) (ق، د): «حميد بن يزيد المصري».

(٦) وورد الجواب أيضًا عن الوزير نظام الملك. «وفيات الأعيان» (١٢٩ / ٢).

وقيل لبعض العلماء: إلى متى يَحْسُنُ بالمرء أن يتعلَّم؟ قال: ما حَسُنَتْ به الحياة^(١).

وسئل الحسن عن الرجل له ثمانون سنة: أيحسُن أن يطلب العلم؟ قال: إن كان يَحْسُنُ به أن يعيش^(٢).

الوجه السابع والخمسون: ما رواه الترمذي أيضًا من حديث إبراهيم بن الفضل، عن المَقْبُرِي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الكلمةُ الحكمةُ»^(٣) ضالَّةُ المؤمن، فحيثُ وجدها فهو أحقُّ بها^(٤).

قال الترمذي: «هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإبراهيم بن الفضل المديني المخزومي يُضعِفُ في الحديث من قِبَل حفظه».

(١) رُوي هذا عن أبي عمرو بن العلاء، والمأمون. وحُكي عن المسيح عليه السلام، وأنشوروان. انظر: «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٦٦)، و«جامع بيان العلم» (١/ ٤٠٦)، و«أمالِي ابن السجري» (١/ ٦٣)، و«محاضرات الأدباء» (١/ ١١٢)، و«المحاسن والأضداد» (١٢)، و«الموشى» (٥٠).

(٢) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١٤٦). وانظر: «الجامع» لابن عبد البر (١/ ٤٠٧)، و«الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٦٧).

(٣) كذا في (د، ح، ن) والترمذي وابن ماجه. وفي (ت، ق) و«مسند الشهاب» (٥٢): «كلمة الحكمة». وفي «الضعفاء» للعقيلي، و«الكامل» لابن عدي، و«المجروحين»: «الكلمة الحكيمة ضالة الحكيم».

(٤) أخرجه الترمذي (٢٦٨٧)، وابن ماجه (٤١٦٩)، وغيرهما بإسنادٍ ضعيف. وقد بينَ علته الترمذي وغيره.

انظر: «الضعفاء» للعقيلي (١/ ٦٠)، و«المجروحين» (١/ ١٠٥)، و«الكامل» (١/ ٢٣١)، و«العلل المتناهية» (١/ ٨٨).

وهذا أيضًا شاهدٌ لما تقدّم، وله شواهد^(١).

والحكمة هي العلم؛ فإذا فقدَه المؤمنُ فهو بمنزلة من فقدَ ضالَّةً نفيسةً من نفائسه، فإذا وجدها قرَّ قلبه وفرحت نفسه بوجودها، كذلك المؤمن إذا وجدَ ضالَّةَ قلبه وروحه التي هو دائماً في طلبها ونشدها والتفتيش عليها.

وهذا من أحسن الأمثلة؛ فإنَّ قلبَ المؤمن يطلبُ العلمَ حيث وجده أعظمَ من طلب صاحب الضَّالَّة لها.

الوجه الثامن والخمسون: قال الترمذي: حدثنا أبو كريب: حدثنا خلف بن أيوب، عن عوف، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «خصلتان لا يجتمعان^(٢) في منافق: حُسْنُ سَمْتٍ، وفقهٌ في الدين»^(٣).

(١) مرفوعة، ولا يصحُّ منها شيء، وثبتَ من قول بعض التابعين.

انظر: «مسند الروياني» (١/٧٥)، و«التدوين» للرافعي (٤/٩٥)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٤/٥١، ٦٠)، و«المدخل» للبيهقي (٢/٢٩٣)، و«مسند الشهاب» (١٤٦)، و«حلية الأولياء» (٣/٣٥٤)، و«المقاصد الحسنة» (٤١٥)، و«تبييض الصحيفة» (٢١).

(٢) كذا في الأصول، حملاً على المعنى. وفي كتاب الترمذي وغيره: «تجتمعان».

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٨٤)، والطبراني في «الأوسط» (١٠/٨٠)، وأبو إسماعيل الأنصاري في «ذم الكلام» (١/٣٩٨)، وغيرهم.

قال العقيلي في «الضعفاء» (٢/٢٤): «ليس له أصلٌ من حديث عوف، وإنما يروى هذا عن أنسٍ بإسنادٍ لا يثبت».

وخلف بن أيوب جهَّله الترمذي، وهو فقيهٌ زاهدٌ معروف، وضعَّفه يحيى بن معين. انظر: «التهذيب» (٣/١٤٧).

وروي من مرسل محمد بن حمزة بن عبد الله بن سلام عند ابن المبارك في «الزهد» (٤٥٩). وانظر: «مسند الشهاب» (٣١٨).

=

قال الترمذي: «هذا حديث غريب، ولا يُعرفُ هذا الحديثُ من حديث عوفٍ إلا من حديث هذا الشيخ خلف بن أيوب العامري، ولم أرَ أحدًا يروي عنه غير أبي كُرَيْبٍ محمد بن العلاء، ولا أدري كيف هو».

وهذه شهادةٌ بأنَّ من أَجتمَعَ فيه حُسْنُ السَّمْتِ والفقهُ في الدين فهو مؤمن، وأحرى بهذا الحديث أن يكون حقًّا، وإن كان إسناده فيه جهالة؛ فإنَّ حُسْنَ السَّمْتِ والفقه في الدين من أخصِّ علامات الإيمان، ولن يجمعهما الله في منافق؛ فإنَّ النفاق ينافيهما وينافيانه.

الوجه التاسع والخمسون: قال الترمذي: حدثنا مسلم بن حاتم الأنصاري أبو حاتم البصري^(١): حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري، عن أبيه، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيَّب، قال: قال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يا بني، إن قَدَرْتَ أن تصبَحَ وتمسي وليس في قلبك غِشٌّ لأحدٍ فافعل». ثم قال: «يا بني، وذلك من سِتِّي، ومن أحيا سِتِّي فقد أحبَّنِي، ومن أحبَّنِي كان معي في الجنة»^(٢)، وفي الحديث قصَّةٌ طويلة.

= وانظر لحديث أنس الذي أشار إليه العقيلي: «مِيزَانُ الاعتدال» (٤/ ٤٦١).

(١) (د، ت، ق): «الأنصاري حدثنا أبو حاتم البصري». وهو خطأ.

(٢) جزءٌ من حديث طويل أخرجه الترمذي هنا (٢٦٧٨) مقتصرًا على هذا القدر، وروى طائفةٌ منه مفرقةً في مواضع أخرى، وأخرجه بطوله أبو يعلى (٣٦٢٤)، والطبراني في «الأوسط» (٥٩٩١)، وغيرهما.

وهو حديثٌ معلول، وقد بيَّن الترمذي علته، وله طرقٌ أخرى لا يصحُّ منها شيء، ولا تصلحُ لتقويته.

انظر: «الضعفاء» للعقيلي (١/ ١٤٨، ١١٩، ١٠٦/٢، ٣/ ٢٢٤)، و«علل ابن أبي حاتم» (١/ ٥٢)، و«نتائج الأفكار» (١/ ١٦٨).

قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه، ومحمد بن عبد الله الأنصاري صدوق، وأبوه ثقة، وعلي بن زيد صدوقٌ إلا أنه ربما يرفعُ الشيء الذي يُوقِّفه غيره، سمعت محمد بن بشار يقول: قال أبو الوليد: قال شعبة: حدثنا علي بن زيد وكان رفَّاعاً».

قال الترمذي: «ولا يُعرفُ لسعيد بن المسيَّب عن أنس روايةٌ إلا هذا الحديثُ بطوله، وقد روى عبادُ المُنقري هذا الحديثُ عن علي بن زيد عن أنسٍ ولم يذكر فيه: عن سعيد بن المسيَّب، وذاكرتُ به محمد بن إسماعيل فلم يعرفه، ولم يعرف لسعيد بن المسيَّب عن أنسٍ هذا الحديثُ ولا غيره. ومات أنسُ سنة ثلاثٍ وتسعين، وسعيدُ بن المسيَّب سنة خمسٍ وتسعين بعده بستين».

قلت: ولهذا الحديث شواهد.

منها: ما رواه الدارميُّ عبد الله: حدثنا محمد بن عيينة، عن مروان بن معاوية الفزاري، عن كثير بن عبد الله، عن أبيه، عن جدِّه، أن النبي ﷺ قال لبلال بن الحارث: «أعلم»، قال: ما أعلمُ يا رسول الله؟ قال: «أعلم، يا بلال»، قال: ما أعلمُ يا رسول الله؟ قال: «إنه من أحياءِ سنَّةٍ من سنَّتِي قد أُميت بعدي كان له من الأجر مثلُ من عملَ بها من غير أن ينقصَ من أجورهم شيء، ومن ابتدَعَ بدعةً ضلالةً لا يرضاها الله ورسوله كان عليه من الإثم مثلُ آثام من عملَ بها لا ينقصُ ذلك من أوزار الناس شيئاً»^(١).

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٧٧)، وابن ماجه (٢٠٩)، والبخاري (٣٣٨٥)، وغيرهم. وحسَّنه الترمذيُّ على مذهبه في تحسين حديث كثير بن عبد الله، ومن يضعُّفه - وهم الأكثر - يضعُّفُ الحديثَ به، وهو الصحيح.

رواه الترمذي عنه، وقال: «حديث حسن». قال: «ومحمد بن عينة مِصْصِي شامي، وكثير بن عبد الله هو كثير بن عمرو بن عوف المزني».

وفي حديثه^(١) ثلاثة أقوال لأهل الحديث^(٢): منهم من يصحّحه، ومنهم من يحسنه، وهما للترمذي، ومنهم من يضعّفه ولا يراه حجة، كالإمام أحمد وغيره.

ولكنّ هذا الأصل ثابتٌ من وجوه:

كحديث: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلُ أجور من أتبعه»^(٣)، وهو صحيحٌ من وجوه.

وحديث: «من دلَّ على خيرٍ فله مثلُ أجر فاعله»^(٤)، وهو حديثٌ حسنٌ رواه الترمذي وغيره.

فهذا الأصل^(٥) محفوظٌ عن النبي ﷺ، فالحديث الضعيفُ فيه بمنزلة الشواهد والمتابعات، فلا يضرُّ ذكرُه.

الوجه الستون: أن النبي ﷺ أوصى بطلبة العلم خيراً، وما ذاك إلا لفضل مطلوبهم وشرفه.

(١) أي: حديث كثير بن عبد الله.

(٢) انظر: «التهذيب» (٨/٤٢٢)، و«الميزان» (٣/٤٠٦)، و«جامع الترمذي» (٤٩٠)، ٥٣٦، ١٣٥٢، ٢٦٣٠. وليعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (١/٣٥٠) قولٌ عجيبٌ في من ذهب إلى تضعيفه.

(٣) تقدم تخريجه (ص: ١٦٧).

(٤) أخرجه مسلم (١٨٩٣)، والترمذي (٢٦٧١) من حديث أبي مسعود الأنصاري.

(٥) وهو فضلُ إحياء السنة، والدعوة إليها.

قال الترمذي: حدثنا سفيان بن وكيع: حدثنا أبو داود الحفري، عن سفيان، عن أبي هارون، قال: كنّا نأتي أبا سعيد فيقول: مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ، إنّ النبي ﷺ قال: «إنّ الناس لكم تبع، وإنّ رجالًا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقّهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا».

حدثنا قتيبة: حدثنا رَوْح بن قيس، عن أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «يأتيكم رجالٌ من قِبَل المشرق يتعلّمون، فإذا جاؤوكم فاستوصوا بهم خيرًا».

فكان أبو سعيد إذا رآنا قال: «مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ»^(١).

قال الترمذي: «هذا حديثٌ لا نعرفه إلا من حديث أبي هارون العبدي، عن أبي سعيد».

قال أبو بكر العطّار^(٢): قال علي بن المديني: قال يحيى بن سعيد: كان شعبة يضعّف أبا هارون العبدي. قال يحيى: وما زال ابنُ عونٍ يروي عن أبي هارون حتى مات.

وأبو هارون: اسمه عِمارةُ بن جُوَيْن.

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٥٠، ٢٦٥١)، وابن ماجه (٢٤٩)، وغيرهما بإسنادٍ ضعيف جدًا؛ أبو هارون العبدي متروك.

وروي من أوجهٍ أخرى عن أبي سعيد غيرُ محفوظة، إلا طريق شهر بن حوشب فإن ظاهر كلام ابن معين أنه محفوظ.

انظر: «مستدرک الحاكم» (١/ ٨٨)، و«سؤالات ابن الجنيّد» (١٧)، و«المنتخب من العلل للخلال» (١٣١)، و«السلسلة الصحيحة» (٢٨٠)، و«الروض البسام» (١/ ١٥٠).

(٢) سقطت هذه الوساطة من مطبوعة «جامع الترمذي» في هذا الموضع، وثبتت في مواضع أخرى. انظر: (٤٢٤، ١٩٥٠).

الوجه الحادي والستون: ما رواه الترمذي من حديث أبي داود، عن عبد الله بن سَخْبَرَة، عن سَخْبَرَة، عن النبي ﷺ قال: «من طلب العلم كان كَفَّارَةً لما مضى»^(١).

هذا الأصل لم أجد فيه إلا هذا الحديث، وليس بشيء؛ فإنَّ أبا داود هو نُفَيْع الأعمى غيرُ ثقة، ولكن قد تقدَّم أنَّ العالمَ يستغفرُ له من في السموات ومن في الأرض.

وقد رُوِيَ آثارٌ عديدةٌ عن جماعةٍ من الصحابة في هذا المعنى:

منها: ما رواه الثوري، عن عبد الكريم، عن مجاهد، عن ابن عباس: «أنَّ مَلَكًا موكِّلاً بطالب العلم حتى يردَّه من حيث أبداه مغفوراً له»^(٢).

ومنها: ما رواه فطرُ بن خليفة، عن أبي الطفيل، عن علي: «ما أنتعل عبد قطُّ ولا تخفَّف ولا لبس ثوباً ليغدو في طلب العلم إلا عُفِرَت ذنوبُه حيث يخطو عند باب بيته»^(٣).

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤٨)، والدارمي (٥٦١)، وغيرهما.

قال الترمذي: «هذا حديثٌ ضعيفُ الإسناد؛ أبو داود يُضَعَّف، ولا نعرفُ لعبد الله بن سَخْبَرَة كبيرَ شيء ولا لأبيه، واسمُ أبي داود نُفَيْع الأعمى، تكلم فيه قتادة وغير واحدٍ من أهل العلم».

وقال البخاري عن سَخْبَرَة: «روى عنه ابنُه عبد الله، حديثُه ليس من وجهٍ صحيح». «التاريخ الكبير» (٢١٠ / ٤)، و«الضعفاء الصغير» (١٥٩).

(٢) أخرجه أبو الحسن النعالي في جزء من حديثه (٤١) مرفوعاً، وفي إسناده: الضحاك بن حجة، وهو منكر الحديث متهمٌ بالوضع. وعبد الكريم هو ابن أبي المخارق، ضعيفُ الحديث.

(٣) لم أره موقوفاً. وانظر ما يأتي. وقوله: «تخفَّف» أي: لبس خُفَّه.

وقد رواه أبْنُ عَدِي مَرْفُوعًا^(١)، وقال: «ليس يرويه عن فِطْرِ غير إسماعيل بن يحيى التيمي».

قلت: وقد رواه إسماعيل بن يحيى هذا عن الثوري: حدثنا محمد بن أيوب الجوزجاني، عن مجالد، عن الشعبي، عن الأسود، عن عائشة مرفوعًا: «من أُنْتَعَلَ^(٢) ليتعلَّم خَيْرًا غُفِرَ له قبل أن يخطو»^(٣).

وقد رواه عبد الرحمن بن محمد المحاربي، عن فِطْر، عن أبي الطفيل، عن علي^(٤).

وهذه الأسانيد وإن لم تكن بمفردها حجةً فطلب العلم من أفضل الحسنات، والحسنات يُذْهِبْنَ السيئات، فجديرٌ أن يكون طلب العلم ابتغاء وجه الله يكفّر ما مضى من السيئات، فقد دلّت النصوص أن إتباع السيئة

(١) في «الكامل» (٣٠٧/١)، والطبراني في «الأوسط» (٥٧٢٢)، وتمام في «الفوائد» (٦٦ - الروض)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٨/١٨١).

قال ابن عدي: «وهذا الحديث عن فِطْر بإسناده باطل؛ ليس يرويه...» العبارة التي نقلها المصنف، وأورده ابن حبان في ترجمة إسماعيل بن يحيى من «المجروحين» (١٢٦/١) مستدلًا به على شدة ضعفه وروايته للموضوعات عن الثقات.

(٢) تحرّف في بعض المصادر إلى: «انتقل» بالقاف، وبه شرحه المناوي في «فيض القدير» (١١٥/٦)!

(٣) أخرجه ابن شاهين في «الترغيب في فضائل الأعمال» (٢١٩)، وابن النجار في «التاريخ المجدّد لمدينة السلام» (٥/٢١٦)، وغيرهما من حديث إسماعيل عن الثوري عن مجالد به، ليس فيه ذكر محمد بن أيوب الجوزجاني.

(٤) أخرجه عفيف الدين في «فضل العلم» (٢/١٢٢)، كما في «السلسلة الضعيفة» (٢٦٧٦).

الحسنة تمحوها، فكيف بما هو من أفضل الحسنات وأجل الطاعات؟!
فالعمدة على ذلك لا على حديث أبي داود^(١)، والله أعلم.

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنَّ الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثلُ جبل تهامة، فإذا سمع العلمَ خاف ورجع وتاب؛ فأنصرف إلى منزله وليس عليه ذنب، فلا تفارقوا مجالس العلماء»^(٢).

الوجه الثاني والستون: ما رواه ابن ماجه في «سننه» من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ فإذا في المسجد مجلسان: مجلسٌ يتفقَّهون، ومجلسٌ يدعُونَ الله تعالى ويسألونه؛ فقال: «كلا المجلسين إلى خير؛ أمَّا هؤلاء فيدعُونَ الله، وأمَّا هؤلاء فيتعلَّمون ويفقَّهون الجاهل، هؤلاء أفضل، بالتعليم أُرسلتُ»، ثمَّ قعد معهم^(٣).

الوجه الثالث والستون: أنَّ الله تبارك وتعالى يباهي ملائكته بالقوم الذين يتذكرون العلم، ويذكرون الله ويحمدونه على ما منَّ عليهم به منه.

قال الترمذي: حدثنا محمد بن بشار: حدثنا مرحوم بن عبد العزيز العطار: حدثنا أبو نعمة، عن أبي عثمان، عن أبي سعيد، قال: خرج معاوية

(١) نُفيع الأعمى، المتقدم، وهو: «من طلب العلم كان كفارة لما مضى».

(٢) أورده الغزالي في «الإحياء» (١/٣٤٩). ولم أجده مستنداً.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٢٩)، وابن المبارك في «الزهد» (١٣٨٨)، والطيالسي (٢٣٦٥)، والبزار (٢٤٥٨)، وغيرهم بإسناد فيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، وهو ضعيف الحديث، وقد اضطرب في تسمية شيخه.

إلى المسجد فقال: ما يُجلِّسُكم؟ قالوا: جلسنا نذكرُ الله عز وجل، قال: الله ما أجلسكم إلا ذلك؟ قالوا: الله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: أما إنني لم أستحلفكم تهمةً لكم، وما كان أحدٌ بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقلَّ حديثاً عنه منِّي؛ إنَّ رسول الله ﷺ خرج على حلقةٍ من أصحابه، قال: «ما يُجلِّسُكم؟» قالوا: جلسنا نذكرُ الله ونحمده لِمَا هَدَانَا للإسلام ومنَّ علينا بك. قال: «الله ما أجلسكم إلا ذلك؟» قالوا: الله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: «أما إنني لم أستحلفكم تهمةً لكم؛ إنه أتاني جبريل فأخبرني أنَّ الله تعالى يباهي بكم الملائكة»^(١).

قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وأبو نَعَامَةَ السَّعْدِي أسَمَهُ عمرو بن عيسى، وأبو عثمان النهدي أسَمَهُ عبد الرحمن بن مُلٍّ».

فهؤلاء كانوا قد جلسوا يحمدون الله بذكر أوصافه وآلائه، ويُثْنُونَ عليه بذلك، ويذكرون حُسْنَ الإسلام، ويعترفون لله بالفضل العظيم إذ هداهم له ومنَّ عليهم برسوله.

وهذا أشرفُ علمٍ على الإطلاق، ولا يُعْنَى به إلا الراسخون في العلم؛ فإنه يتضمَّنُ معرفة الله وصفاته وأفعاله ودينه ورسوله، ومحبة ذلك وتعظيمه والفرح به، وأحرى بأصحاب^(٢) هذا العلم أن يباهي الله بهم الملائكة.

وقد بَشَّرَ النَّبِيُّ ﷺ الرجلَ الذي كان يحبُّ سورةَ الإخلاص، وقال:

(١) «جامع الترمذي» (٣٣٧٩). وأخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٧٠١)، وابن حبان في «صحيحه» (٨١٣) بالإسناد نفسه.

(٢) (ن): «وأحر بأصحاب». (ت): «وأجر أصحاب».

أحبُّها لأنها صفةُ الرحمن عز وجل؛ فقال: «حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ»^(١). وفي لفظٍ آخر: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يَحِبُّهُ»^(٢)؛ فدلَّ على أَنَّ من أحبَّ صفات الله أحبَّه الله وأدخله الجنة.

والجهميةُ أشدُّ الناس نفرةً وتنفيرًا عن صفاته ونعوت كماله، يُعاقِبُونَ ويذمُّون من يذكرها ويقرؤها ويجمعُها ويعتني بها، ولهذا لهم المَقْتُ والذَّمُّ عند الأمة، وعلى لسان كلِّ عالمٍ من علماء الإسلام، والله تعالى أشدُّ بغضًا ومقتًا لهم، جزاءً وفاقًا.

الوجه الرابع والستون: أَنَّ أَفْضَلَ منازل الخلق عند الله منزلةُ الرسالة والنبوة؛ فاللهُ يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس.

وكيف لا يكونُ أَفْضَلَ الخلق عند الله من جعلهم وسائطَ بينه وبين عبادِهِ في تبليغ رسالاته، وتعريف أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، ومَراضِيهِ ومَسَاحِطِهِ، وثوابه وعقابه، وخصَّصَهُم بوحيه، واختصَّصَهُم بتفضيله، وارتضاهم لرسالته إلى عبادِهِ، وجعلَهُم أَزْكى العالمين نفوسًا، وأشرفَهُم أخلاقًا، وأكملَهُم علومًا وأعمالًا، وأحسنَهُم^(٣) خَلْقَةً، وأعظمَهُم محبةً وقبولًا في قلوب الناس، وبرًّا لهم من كلِّ وَضْمٍ وكلِّ عيبٍ وكلِّ خُلُقٍ دنيءٍ؟!

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٧٧٤) تعليقًا مجزومًا به، ووصله أحمد (١٤١/٣)، (١٥٠)، والترمذي (٢٩٠١)، وغيرهما من حديث أنس بن مالك.
وصححه الترمذي، وابن خزيمة (٥٣٧)، وابن حبان (٧٩٢)، والحاكم (٢٤٠/١)، وخرَّجه الضياء في «المختارة» (١٧٥٠).

وانظر: «الفتح» (٣٠١/٢)، و«التغليق» (٣١٤/٢).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣) من حديث عائشة.

(٣) (ت): «وأكرمهم».

وجعل أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيابتهم في أممهم؛ فإنهم يخلّفونهم على مناهجهم وطريقتهم: من نصيحتهم الأمانة، وإرشادهم الضال، وتعليمهم الجاهل، ونصرتهم المظلوم، وأخذهم على يد الظالم، وأمرهم بالمعروف وفعله، ونهيهم عن المنكر وتركه، والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين، والموعظة الحسنة للمعرضين الغافلين، والجدال بالتي هي أحسن للمعاندين المعارضين.

فهذه حال أتباع المرسلين وورثة النبيين؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وسواء كان المعنى: أنا ومن اتبعني على بصيرة وأنا أدعو إلى الله، أو المعنى: أدعو إلى الله على بصيرة^(١)؛ فالقولان^(٢) متلازمان؛ فإنه لا يكون من أتباعه حقاً إلا من دعا إلى الله على بصيرة، كما كان متبوعه ﷺ يفعل^(٣).

فهؤلاء خلفاء الرسل حقاً، وورثتهم دون الناس، وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به: علماً وعملاً، وهداية وإرشاداً، وصبراً وجهاداً، وهؤلاء هم الصديقون، وهم أفضل أتباع الأنبياء، ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه.

(١) أي: ومن اتبعني يدعو كذلك.

(٢) (د، ح، ن): «والقولان». وسقطت من (ت، ق) مع ما بعدها إلى كلمة «بصيرة»؛ لانتقال النظر.

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤٨٢)، و«الصواعق المرسلّة» (١/ ١٥٥)، و«جلاء الأفهام» (٥٨١)، و«رسالة ابن القيم إلى بعض إخوانه» (٢٥)، وما سيأتي من الكتاب (ص: ٤٣٤).

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۖ﴾ (النساء: ٦٩-٧٠)، فذكر مراتب السعداء، وهي أربعة، وبدأ بأعلاهم مرتبة، ثم الذين يلونهم، إلى آخر المراتب. وهؤلاء الأربعة هم أهل الجنة الذين هم أهلها، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

الوجه الخامس والستون: أن الإنسان إنما يُمَيِّزُ على غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان، وإلا فغيره من الدوابِّ والسباع أكثر أكلًا منه، وأقوى بطشًا، وأكثر جماعًا وأولادًا، وأطول عمرًا، وإنما مَيِّزَ على الدوابِّ والحيوانات بعلمه وبيانه، فإذا عَدِمَ العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدوابِّ، وهي الحيوانية المحضة، فلا يبقى فيه فضلًا (١) عليهم، بل قد يبقى شرًّا منهم.

كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ ۚ﴾ (البقرة: ١٧١)، ﴿الْبَكْمُ الَّذِي لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الأنفال: ٢٢)، ﴿فَهُؤُلَاءِ هُمُ الْجُهَّالُ﴾ (البقرة: ١٧١)، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمَعَهُمْ﴾ (الأنفال: ٢٣)، أي: ليس عندهم محلُّ قابل للخير، ولو كان محلُّهم قابلاً للخير ﴿لَّاسْمَعَهُمْ﴾ (البقرة: ١٧١)، أي: لأفهمهم. فالسمع هاهنا سَمْعُ فهم، وإلا فسمع الصَّوت حاصل لهم، وبه قامت حجة الله عليهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (الأنفال: ٢١).

وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقِي بِمَاءٍ لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمُّ بُكْمٌ عُمْىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧١).

(١) كذا رُسِمَتْ في الأصول، بالألف. والوجه أن تكون مرفوعة.

وسواءً كان المعنى: ومثلُ داعي الذين كفروا كمثَل الذي يَنْعِقُ بما لا يَسْمَعُ من الدوابِّ إلا أصواتًا مجرّدة، أو كان المعنى: ومثلُ الذين كفروا حين يُنادُونَ كمثَل دوابِّ الذي يَنْعِقُ بها فلا تسمعُ^(١) إلا صوتَ الدعاء والنداء؛ فالقولان متلازمان، بل هما واحد، وإن كان التقديرُ الثاني أقرب إلى اللفظ وأبلغ في المعنى^(٢).

فعلى التقديرين، لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوتُ الحاصل للأنعام؛ فهو لا لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يُميّزُ^(٣) بها صاحبها عن سائر الحيوان.

والسمعُ يرادُ به: إدراكُ الصوت، ويرادُ به: فهمُ المعنى، ويرادُ به: القبولُ والإجابة. والثلاثة في القرآن^(٤).

فمن الأول: قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وهذا أصرحُ ما يكونُ في إثبات صفة السمع لله؛ ذكر الماضي والمضارع واسم الفاعل: ﴿سَمِعَ﴾، و﴿يَسْمَعُ﴾، وهو ﴿سَمِيعٌ﴾، وله السمع؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمدُ لله الذي وَسَّعَ سمعُه الأصوات، لقد جاءت المُجادلة تشكو إلى

(١) (ت): «ينعق به ولا يسمع».

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ١٨٢).

(٣) (ت): «يتمييز».

(٤) انظر: «الوجوه والنظائر» لمقاتل (٢٢٦)، وللدماغاني (٢٤٧)، ولابن الجوزي (٣٤٦)، ومادة (سمع) في «المفردات»، و«بصائر ذوي التمييز»، و«عمدة الحفاظ».

رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت، وإنه ليخفي عليَّ بعضُ كلامها،
فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ (١).

والثاني: سمعُ الفهم؛ كقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، أي: لأفهمهم، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾، لِمَا في قلوبهم من الكِبَر والإعراض عن قبول الحق.

ففيهم آفتان: إحداهما: أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم، ولو فهموه لتولَّوا عنه لكِبَرهم (٢)، وهذا غايةُ النقص والعيب.

والثالث: سمعُ القبول والإجابة؛ كقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَوُا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، أي: قابلون (٣) لهم، مستجيبون.

ومنه قوله: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]، أي: قابلون له، مستجيبون لأهله.

ومنه قول المُصَلِّي: «سمع الله لمن حمده»؛ أي: أجاب الله حمدَ من حمده، ودعاء من دعاه، وقولُ النبي ﷺ: «إذا قال الإمام: سمع الله لمن

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٤٤/٩) تعليقا مجزوما به، ووصله أحمد (٤٦/٦)، والنسائي (٣٤٦٠)، وابن ماجه (١٨٨).

وصححه الحاكم (٤٨١/٢)، وابن حجر في «التغليق» (٣٣٩/٥).

(٢) فالآفة الأولى: الجهل. والثانية: الكِبَر.

(٣) (ت، ق): «قايلون»، بتسهيل الهمز. وفي الموضع الثاني بتحقيقها. وهو خطأ محض.

حمده، فقولوا: ربنا ولك الحمد، يسمع الله لكم»^(١)، أي: يجيبكم.

والمقصودُ أنَّ الإنسانَ إذا لم يكن له علمٌ بما يُصلِحُه في معاشه ومعاده كان الحيوانُ البهيمُ خيراً منه؛ لسلامته في المعاد مما يُهْلِكُه، دون الإنسان الجاهل.

الوجه السادس والستون: أنَّ العلمَ حاكمٌ على ما سواه، ولا يَحْكُمُ عليه شيءٌ، فكلُّ شيءٍ اُخْتَلِفَ في وجوده وعدمه، وصحَّته وفساده، ومنفعته ومضرَّته، ورجحانه ونقصانه، وكماله ونقصه، ومدحه وذمُّه، ومرتبته في الخير، وجودته ورداءته، وقُربُه وبُعده، وإفضائه إلى مطلوب كذا وعدم إفضائه، وحصول المقصود به وعدم حصوله، إلى سائر جهات المعلومات = فَإِنَّ العلمَ حاكمٌ على ذلك كُلِّه، فإذا حَكَمَ العلمُ انْقَطَعَ النزاعُ ووجب الاتِّباع. وهو الحاكمُ على الممالك والسياسات، والأموال والأقلام، فمُلْكٌ لا يتأَيَّدُ بعلمٍ لا يقوم، وسيفٌ بلا علمٍ مِخْرَاقٌ لَاعِبٌ^(٢)، وقلمٌ بلا علمٍ حركةٌ عابثٌ، والعلمُ مسلَّطٌ حاكمٌ على ذلك كُلِّه، ولا يحْكُمُ شيءٌ من ذلك على العلم.

وقد اُخْتَلِفَ في تفضيل مداد العلماء على دم الشهداء وعكسه، وذُكِرَ لكلِّ قولٍ وجوهٌ من التراجيح والأدلة^(٣)، ونفسُ هذا النزاعِ دليلٌ على تفضيل

(١) أخرجه مسلم (٤٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٢) تحرفت في (ت). والمخراق: منديلٌ يلوى فيضرب به أو يُلْفُ فيفزع به، لعبةٌ يلعب بها الصبيان. ووصف السيف به مشهورٌ في كلام العرب. انظر: «اللسان» (خرق)، و«شرح الحماسة» للرمزوقي (١٦٠١).

(٣) انظر: «العلل المتناهية» (١/ ٧١)، و«كشف الخفاء» (٢/ ٢٦٢، ٥٤٣)، و«فيض =

العلم ومرتبته؛ فإنَّ الحاكمَ في هذه المسألة هو العلم، فبه^(١) وإليه وعنده يقع التحاكم والتخاصم، والمُفَضَّلُ منهما من حَكَمَ له بالفضل.

فإن قيل: فكيف يُقْبَلُ حكمه لنفسه؟!

قيل: وهذا أيضًا دليلٌ على تفضيله وعلو مرتبته وشرفه؛ فإنَّ الحاكمَ إنما لم يَسْخُ أن يحكمَ لنفسه لأجل مَظَنَّةِ التُّهْمَةِ، والعلمُ لا تلحقه تهمةٌ في حكمه لنفسه؛ فإنه إذا حكمَ حكمَ بما تشهدُ العقولُ والفطر^(٢) بصحَّته، وتلقَّاه بالقبول.

ويستحيلُ حكمه لتهمة؛ فإنه إذا حَكَمَ بها أنزل عن مرتبته، وانحطَّ عن درجته، فهو الشاهدُ المُزَكَّى المُعَدَّلُ، والحاكمُ الذي لا يجوز ولا يُعْزَل.

فإن قيل: فماذا حكمه في هذه المسألة التي ذكرتموها؟

قيل: هذه المسألةُ كثر فيها الجدلُ، واتسع المجال، وأدلى كلُّ منهما بحجَّته، واستعلى بمرتبته، والذي يفصلُ النزاعَ، ويعيدُ المسألةَ إلى مواقع الإجماع: الكلامُ في أنواع مراتب الكمال، وذكرُ الأفضل منها، والنظرُ في أيِّ هذين الأمرين أولى به وأقرب إليه؛ فهذه الأصولُ الثلاثةُ تبينُ الصوابَ، ويقعُ بها فصلُ الخطاب.

= القدير» (٦/٤٦٩، ٦٠٣)، و«إتحاف السادة المتقين» (١/١١١، ١١٩، ١٣٧).

ولشيخ الإسلام ابن تيمية في المسألة قاعدة مفردة. انظر: «أسماء مؤلفاته» لابن رُشَيْق (٣٠٨ - الجامع لسيرة شيخ الإسلام).

(١) (ق، ت، ن): «فيه»، بالياء آخر الحروف.

(٢) (ت، ق): «والنظر».

فأما مراتب الكمال فأربع: النبوة، والصّدقيّة، والشّهادة، والولاية، وقد ذكرها الله سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصّٰدِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصّٰلِحِينَ^٦ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝٦٦﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿[النساء: ٦٩ - ٧٠].

وذكر تعالى هؤلاء الأربع في سورة الحديد؛ فذكر تعالى الإيمان به وبرسوله، ثم ندب المؤمنين إلى أن تخشع قلوبهم لكتابه ووحيه، ثم ذكر مراتب الخلائق شقيهم وسعيدهم؛ فقال: ﴿إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذِقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصّٰدِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿[الحديد: ١٨ - ١٩]، وذكر المنافقين قبل ذلك؛ فاستوعبت هذه الآية أقسام العباد شقيهم وسعيدهم، والمقصود أنه ذكر فيها المراتب الأربعة: الرسالة، والصّدقيّة، والشّهادة، والولاية.

فأعلى هذه المراتب: النبوة والرسالة.

ويليها: الصّدقيّة؛ فالصّدّيقون هم أئمة أتباع الرسل، ودرجتهم أعلى الدرجات بعد النبوة^(١).

فإن جرى قلم العالم بالصّدقيّة وسال مداده بها كان أفضل من دم الشهيد الذي لم يلحقه في رتبة الصّدقيّة، وإن سال دم الشهيد بالصّدقيّة وقطر عليها كان أفضل من مداد العالم الذي قصر عنها، فأفضلهما

(١) انظر: «منهاج السنة» (٧/ ٣٨٥)، و«جواب الاعتراضات المصرية» (٧٩)، و«طريق الهجرتين» (٧٦٤، ٧٦٥، ٧٦٨)، و«زاد المعاد» (٣/ ٢٢١، ٤/ ٢٧٥).

صِدِّيقُهُمَا، فَإِنْ أَسْتَوِيََا فِي الصَّدِّيقِيَّةِ أَسْتَوِيََا فِي الْمَرْتَبَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَالصَّدِّيقِيَّةُ: هِيَ كَمَالُ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، عِلْمًا وَتَصَدِّيقًا وَقِيَامًا بِهِ^(١)؛ فَهِيَ رَاجِعَةٌ إِلَى نَفْسِ الْعِلْمِ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَعْلَمَ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَأَكْمَلَ تَصَدِّيقًا لَهُ كَانَ أَتَمَّ صَدِّيقِيَّةً؛ فَالصَّدِّيقِيَّةُ شَجَرَةٌ أَصُولُهَا الْعِلْمُ، وَفُرُوعُهَا التَّصَدِّيقُ، وَثَمَرَتُهَا الْعَمَلُ.

فهذه كلمات جامعة في مسألة العالم والشهيد، وأيهما أفضل^(٢).

الوجه السابع والستون: أَنَّ النصوص النبوية قد تواترت بأنَّ أفضل الأعمال إيمان بالله^(٣)، فهو رأس الأمر، والأعمال بعده على مراتبها ومنازلها.

والإيمان له ركنان:

أحدهما: معرفة ما جاء به الرسول، والعلم به.

والثاني: تصديقه بالقول والعمل.

والتصديق بدون العلم والمعرفة مُحَال؛ فإنه فرع العلم بالشيء

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/٤١، ٢٢٦، ٤٤٣، ١٤٨/٢، ٢٧٠، ٢٧٣، ٣٩٧، ٣/٤٢١)، و«الوابل الصيب» (١٦٧)، و«جامع المسائل» (٤/٥٣).

(٢) نقل الزبيدي في «الإتحاف» (١/١٣٧) هذا المبحث كله دون عزو. وهكذا في مواضع أخرى، كما أشرت إلى ذلك في المقدمة.

(٣) أخرج منها البخاري (٢٦، ٢٥١٨)، ومسلم (٨٣، ٨٤) حديثي أبي هريرة وأبي ذر. وفي الباب عن جماعة من الصحابة. انظر: «مجمع الزوائد» (١/٥٩، ٣/٢٠٧، ٨/١٥١).

المُصَدِّقُ به، فإذا العلمُ من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، ولا تقومُ شجرةُ الإيمان إلا على ساق العلم والمعرفة، فالعلمُ إذاً أجلُّ المطالب وأسنَى المواهب.

الوجه الثامن والستون: أنَّ صفات الكمال كلها ترجعُ إلى العلم والقدرة والإرادة، والإرادة فرعُ العلم؛ فإنها تستلزمُ الشعور بالمراد، فهي مفتقرةٌ إلى العلم في ذاتها وحقيقتها، والقدرة لا تؤثرُ إلا بواسطة الإرادة، والعلم لا يفتقر في تعلُّقه بالمعلوم إلى واحدةٍ منهما، وأما القدرة والإرادة فكلُّ منهما يفتقرُ في تعلُّقه بالمراد والمقدور إلى العلم، وذلك يدلُّ على فضيلته وشرف منزلته.

الوجه التاسع والستون: أنَّ العلمَ أعمُّ الصِّفات تعلُّقاً بمتعلِّقه وأوسعُها؛ فإنه يتعلَّقُ بالواجب والممكن، والمستحيل والجائر، والموجود والمعدوم، فذاتُ الربِّ سبحانه وصفاته وأسماءه معلومةٌ له، ويعلمُ العبادُ من ذلك ما علَّمهم العليمُ الخبير.

وأما القدرة والإرادة، فكلُّ منهما خاصٌّ في التعلُّق^(١)؛ أما القدرة فإنما تتعلَّقُ بالممكن خاصَّةً، لا بالمستحيل ولا بالواجب، فهي أخصُّ من العلم من هذا الوجه، وأعمُّ من الإرادة، فإنَّ الإرادة لا تتعلَّقُ إلا ببعض الممكنات، وهو ما أريدَ وجوده.

فالعلمُ أوسعُ وأعمُّ وأشملُ في ذاته ومتعلِّقه.

الوجه السبعون: أنَّ الله سبحانه أخبر عن أهل العلم بأنه جعلهم أئمةً

(١) (ت): «خاص من التعلق». (ح، ن): «خاص التعلق».

يَهْدُونَ بِأَمْرِهِ، وَيَأْتُمُّ بِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً^(١) يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال في موضع آخر: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، أي: أئمة يقتدي بنا من بعدنا.

فأخبر سبحانه أن بالصَّبر واليقين تُنالُ الإمامة في الدين^(٢)، وهي أرفعُ مراتب الصَّديقين. واليقينُ هو كمالُ العلم وغايته، فبتكميل مرتبة العلم تحصلُ إمامة الدين، وهي ولايةُ التَّها العلم، يختصُّ الله بها من يشاء من عباده.

الوجه الحادي والسبعون: أنَّ حاجةَ العباد إلى العلم ضرورةٌ فوق حاجة الجسم إلى الغذاء؛ لأنَّ الجسمَ يحتاجُ إلى الغذاء في اليوم مرةً أو مرتين، وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس؛ لأنَّ كُلَّ نَفْسٍ من أنفاسه فهو محتاجٌ فيه إلى أن يكون مصاحباً للإيمان أو حُكْمِهِ^(٣)، فإن فارقه

(١) في الأصول: «وجعلناهم أئمة». وهي بعض آية من سورة الأنبياء: ٧٣، لكنَّ تَمَّتْهَا غيرُ تَمَّة الآية التي ساقها المصنف.

(٢) هذه العبارة لشيخ الإسلام ابن تيمية، والمصنفُ كثيرُ الاستشهاد بها في كتبه. انظر: «الرد الوافر» (١٢٦)، و«مدارج السالكين» (٢/ ١٥٤)، و«زاد المعاد» (٣/ ١٠)، و«الصواعق المرسلة» (١٠٧٣)، و«إعلام الموقعين» (٤/ ١٣٥)، و«إغاثة اللهفان» (٢/ ١٦٧)، و«الداء والدواء» (٢٢١)، وغيرها.

(٣) حكم الإيمان. وذلك في المجنون والمغمى عليه ونحوهما. وقد اختلف الفقهاء في المكروه، هل يشترط أن يستحضر البقاء على الإيمان حال التلفظ بالكفر، أو يكفي استصحاب الحكم؟ وجهان. انظر: «المنثور» للزركشي (١/ ١٨٨).

الإيمانُ أو حُكْمُهُ في نَفْسٍ من أنفاسه فقد عَطِبَ وَقَرَّبَ هلاكُهُ، وليس إلى حصول ذلك سبيلٌ إلا بالعلم؛ فالحاجةُ إليه فوق الحاجةِ إلى الطَّعام والشراب.

وقد ذكر الإمامُ أحمدُ هذا المعنى بعينه، فقال: «الناسُ أحوَجُ إلى العلم منهم إلى الطَّعام والشراب؛ لأنَّ الطَّعامَ والشرابَ يُحتاجُ إليه في اليوم مرةً أو مرتين، والعلمُ يُحتاجُ إليه في كلِّ وقت»^(١).

الوجه الثاني والسبعون: أنَّ صاحبَ العلم أَقْلُ تَعَبًا وِعَمَلًا، وأكثرُ أَجْرًا. واعتبرَ هذا بالشاهد؛ فإنَّ الصُّنَّاعَ والأَجْرَاءَ يُعانَوْنَ الأَعْمَالَ الشَّاقَّةَ بأنفسهم، والأستاذُ المَعْلَمُ يجلسُ يأمرُهُم وينهاهُم ويُرِيهِم كَيْفِيَّةَ العمل، ويأخذُ أضعافَ ما يأخذونه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى حيث قال: «أَفْضَلُ الأَعْمَالِ إِيْمَانٌ بالله، ثُمَّ الجهاد»^(٢).

فالجهادُ فيه بذلُ النفس وِغَايَةُ المشقَّة، والإيمانُ عِلْمُ القلب وعَمَلُهُ وتصديقُهُ، وهو أَفْضَلُ الأَعْمَالِ، مع أنَّ مشقَّةَ الجهادِ فوق مشقَّتِهِ بأضعافٍ مضاعفة، وهذا لأنَّ العِلْمَ يَعْرِفُ مَقَادِيرَ الأَعْمَالِ ومَراتِبَها، وفاضلُها من مفضولها، وراجحُها من مرجوحها، فصاحبُه لا يختارُ لنفسه إلا أَفْضَلَ الأَعْمَالِ، والعاملُ بلا عِلْمٍ يَظُنُّ أنَّ الفَضِيلَةَ في كثرةِ المشقَّة، فهو يتَحَمَّلُ المشاقَّ وإن كان ما يعانِيهِ مفضولًا، ورُبَّ عَمَلٍ فَاضِلٍ والمفضولُ أَكْثَرُ مشقَّةً منه.

(١) انظر ما مضى (ص: ١٦٤).

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

واعتبر هذا بحال الصديق رضي الله عنه؛ فإنه أفضل الأمة، ومعلوم أن فيهم من هو أكثر عملاً وحباً وصوماً وصلاةً وقراءةً منه، قال أبو بكر بن عياش: «ما سبقهم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن بشيءٍ وقر في قلبه»^(١).

وهذا موضع المثل المشهور^(٢):

مَنْ لِي بِمَثَلِ سَيْرِكَ الْمُدَلِّلِ تمشي رويداً^(٣) وتجي في الأول
الوجه الثالث والسبعون: أن العلم إمام العمل وقائده، والعمل تابع له ومؤتم به، فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه، بل مضرّة عليه، كما قال بعض السلف: «من عبد الله بغير علم كان ما يُفسد»

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوارد الأصول» (ق: ٤١/ب)، و«الصلاة» (٨٠) من قول بكر بن عبد الله المزني بإسناد صحيح.
ولم أقف عليه من قول أبي بكر بن عياش.
ورفعه بعضهم، ولا أصل له، وذكره المصنف فيما وصّعه جهلة المنتسبين إلى السنة في فضائل الصديق رضي الله عنه. انظر: «المنار المنيف» (٩٢)، و«المغني عن حمل الأسفار» (٢٣/١).

(٢) أنشده ابن تيمية، في «مشيخة اليونيني». انظر: «الرد الوافر» (١٥٣)، و«المنهل الصافي» (٥٢/١). وهو في «مدارج السالكين» (٧/٣، ١٤٤)، و«طريق الهجرتين» (٥٠٤)، و«لطائف المعارف» لابن رجب (٤٣٢، ٤٤٩).
وفي مثل مشهور يُضرب للرجل يدرك حاجته في تودة ودعة:
* تمشي رويداً ويكون أولاً *
انظر: «المعاني الكبير» (٧٦/١)، و«مجمع الأمثال» (٢٥٣/٢).
(٣) (ح، ن): «الهوينا».

أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ»^(١).

والأعمال إنما تتفاوت في القبول والردّ بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له، فالعملُ الموافق للعلم هو المقبول، والمخالف له هو المردود؛ فالعلم هو الميزان وهو المحكُّ.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]؛ قال الفضيل بن عياض: «هو أخلصُ العمل وأصوبُهُ»، قالوا: يا أبا عليٍّ، ما أخلصُهُ وأصوبُهُ؟ قال: «إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، فَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ»^(٢).

وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فهذا هو العملُ المقبول الذي لا يقبلُ الله من الأعمالِ سواه؛ وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ﷺ، مراداً به وجهُ الله.

ولا يتمكنُ العاملُ من الإتيانِ بعملٍ يجمعُ هذين الوصفين إلا بالعلم؛

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٣٠١)، وابن أبي شيبة (٤٧٠ / ١٣)، والدارمي (٣٠٥)، والبيهقي في «الشعب» (٤٣١ / ٤)، وغيرهم من طريق عن عمر بن عبد العزيز. وسيأتي من قول الحسن البصري.

وروي مرفوعاً في حديث لا يصح، أخرجه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٨٣٠ - زوائده)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٠٣ / ٣).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الإخلاص والنية» (٢٢)، - ومن طريقه الثعلبي في «الكشف والبيان» (٣٥٦ / ٩) -، وأبو نعيم في «الحلية» (٩٥ / ٨).

فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده، وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده، فلو لا العلم لما كان عمله مقبولاً؛ فالعلم هو الدليل على الإخلاص، وهو الدليل على المتابعة.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، وأحسن ما قيل في تفسير الآية: أنه إنما يتقبل عمل من اتقاه في ذلك العمل، وتقواه فيه أن يكون لوجهه، على موافقة أمره^(١). وهذا إنما يحصل بالعلم.

وإذا كان هذا منزل العلم^(٢) وموقعه علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله، والله أعلم.

الوجه الرابع والسبعون: أن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل، ومعلوم أن عَطَبَ مثل هذا أقرب من سلامته، وإن قُدِّرَ سلامته اتفاقاً نادراً فهو غير محمود، بل مذموم عند العقلاء.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «من فارق الدليل ضلَّ السبيل، ولا دليل إلا ما جاء به الرسول»^(٣).

قال الحسن: «العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم يُفْسِدُ أَكْثَرَ مما يُصْلِحُ، فاطلبوا العلم طلباً لا تُضِرُّوا بالعبادة،

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٢٢/١٠، ٦٦٢/١١، ٤٨٣/١٢)، و«جامع الرسائل» (٢٥٧/١)، و«منهاج السنة» (٢٩٦/٥، ٢١٦/٦).

(٢) (د، ق، ن): «منزلة العلم».

(٣) بنحوه في «الفتاوى» (٣٨٨/٦، ١٣/١٣٦)، و«درء التعارض» (٣٢٩/٧). وانظر: «مدارج السالكين» (٤٦٩/٢)، وعنه الفيروزبادي في «بصائر ذوي التمييز» (٩٠/٤) دون عزو.

واطلبوا العبادة طلبًا لا تُضُرُّوا بالعلم؛ فإنَّ قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيا فهم على أمة محمد ﷺ، ولو طلبوا العلم لم يدلَّهم على ما فعلوا» (١).

والفرق بين هذا الوجه وبين ما قبله: أنَّ العلمَ مرتبته في الوجه الأول مرتبة المطاع المتبوع المقتدى به المتَّبِع حكمه المطاع أمره، ومرتبته في هذا الوجه مرتبة الدليل المرشد إلى المطلوب الموصل إلى الغاية.

الوجه الخامس والسبعون: أنَّ النبي ﷺ ثبت في «الصحيح» عنه أنه كان يقول: «اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشَّهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، أهدني لما آخِـلِفَ فيه من الحقِّ بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم» (٢).

وفي بعض «السنن» أنه كان يكبِّر تكبيرة الإحرام في صلاة الليل، ثمَّ يدعو بهذا الدعاء (٣).

والهداية هي العلمُ بالحقِّ مع قصده وإشاره على غيره، فالمهتدي هو العالمُ بالحقِّ المريدُ له، وهي أعظمُ نعمةٍ لله على العبد، ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصُّراط المستقيم كلَّ يومٍ وليلةٍ في صلواتنا الخمس؛ فإنَّ

(١) علَّقه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/٥٤٥)، وروى بعضه ابنُ أبي شيبة في «المصنف» (١٣/٤٩٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٧٧٠)، بلفظ: «كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللهم رب جبرائيل...».

(٣) أخرجه أبو داود (٧٦٤). وهو مقتضى رواية مسلم.

العبد محتاجٌ إلى معرفة الحق الذي يرضي الله في كل حركة ظاهرة وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاجٌ إلى من يُلهمه قصد الحق فيجعل إرادته في قلبه، ثم إلى من يُقدِّره على فعله.

ومعلومٌ أنَّ ما يجهله العبدُ أضعافُ أضعاف ما يعلمه، وأنَّ كلَّ ما يعلمه أنه حقٌّ لا تطاوعه نفسه على إرادته، ولو أرادته^(١) لعجز عن كثير منه؛ فهو مضطَّرٌّ كلَّ وقتٍ إلى هداية تتعلَّق بالماضي وبالحال والمستقبل.

أما الماضي، فهو محتاجٌ إلى محاسبة نفسه عليه، وهل وقع على السَّداد فيشكر الله عليه ويستدِّيمه، أم خرج فيه عن الحق فيتوب إلى الله تعالى منه ويستغفره، ويعزم على أن لا يعود؟

وأما الهداية في الحال، فهي مطلوبةٌ منه^(٢)؛ فإنه آبن وقته، فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبِّس به من الأفعال، هل هو صوابٌ أم خطأ؟

وأما المستقبل، فحاجته فيه إلى الهداية أظهر؛ ليكون سيره على الطريق.

وإذا كان هذا شأن الهداية عُلِمَ أنَّ العبدَ أشدُّ شيءٍ اضطراباً إليها، وأنَّ ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد، وهو أننا إذا كنَّا مهتدين فأئتي حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا؟! وهل هذا إلا تحصيلُ الحاصل؟! = أفسد سؤال وأبعده عن الصواب، وهو دليلٌ على أنَّ صاحبه لم يحصِّل معنى الهداية، ولا أحاط علماً بحقيقتها ومسمَّها؛ فلذلك تكلَّف من تكلَّفَ الجواب عنه بأنَّ

(١) (ح): «ولولا إرادته». تحريف. (ن): «ولو أرادته».

(٢) (ن، ح): «المطلوبة منه».

المعنى: ثَبَّتْنَا عَلَى الْهَدَايَةِ وَأَدْمَهَا لَنَا^(١).

ومن أحاط علماً بحقيقة الهداية، وحاجة العبد إليها، عَلِمَ أَنَّ الذي لم يحصل له منها أضعافُ ما حصل له، وأنه كَلَّ وقتٍ محتاجٍ إلى هداية متجددة، لا سيَّما والله تعالى خالقُ أفعال القلوب والجوارح، فهو كَلَّ وقتٍ محتاجٍ إلى أن يخلق الله له هدايةً خاصَّة، ثُمَّ إن لم تُصَرَفْ عنه الموانعُ والصوارفُ التي تمنعُ مُوجِبَ الهداية وتَصْرِفُهَا لم ينتفع بالهداية، ولم يتم مقصودُها له؛ فَإِنَّ الحكمَ لا يكفي فيه وجودُ مقتضيه، بل لا بد مع ذلك من عدم مانعه ومُنَافِيهِ.

ومعلومٌ أَنَّ وساوس العبد وخواطره وشهوات الغيِّ في قلبه كُلُّ منها مانعٌ من وصول أثر الهداية إليه، فَإِنْ لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدى تامًّا؛ فحاجتهُ إلى هداية الله له مقرونةٌ بأنفاسه، وهي أعظمُ حاجةٍ للعبد.

وذكر النبي ﷺ في هذا الدعاء العظيم القَدْر من أوصاف الله وربوبيته ما

(١) ذكر هذا المعنى جماعةٌ من المفسرين وشُراح الحديث. انظر: «تفسير الطبري»

(١/١٦٦)، و«تفسير القرطبي» (٧/٢٧)، و«شرح مسلم» للنسوي (٦/٥٧)،

وغيرها. وقد يصحُّ هذا فيمن حصل له الهدى التَّامُّ المتضمَّنُ لأُمُورٍ سبعةٍ ذكرها

المصنِّف في «بدائع الفوائد» (٤٤٩).

وانظر: «الصلاة وحكم تاركها» (٢٠٥)، و«مجموع الفتاوى» (١٠/١٠٦)، و«جامع

الرسائل» (١/٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (١/١٦٢).

وغلا بعض الحنفية في ذلك، فأنكر أن يقول العاطسُ لمن شمَّته من المسلمين:

«يهديك الله»، وزعم أن النبي ﷺ إنما قاله لمن كان بحضرته من اليهود! وردَّ عليهم

ذلك الطحاوي وغيره. انظر: «شرح معاني الآثار» (٤/٣٠١)، و«شرح مشكل

الآثار» (١٠/١٧٤)، و«جامع العلوم والحكم» (٤٢٦).

يناسبُ المطلوب:

* فَإِنَّ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ تَوَسَّلَ إِلَى اللَّهِ بِهَذَا الْوَصْفِ فِي الْهَدَايَةِ^(١) لِلْفِطْرَةِ الَّتِي أَبْتَدَأَ الْخَلْقَ عَلَيْهَا؛ فَذَكَرَ كَوْنَهُ فَاطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

* وَالْمَطْلُوبُ تَعْلِيمُ الْحَقِّ وَالتَّوْفِيقُ لَهُ؛ فَذَكَرَ عِلْمَهُ سُبْحَانَهُ بِالْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَنَّ مَنْ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ جَدِيرٌ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ عَبْدُهُ أَنْ يَعْلَمَهُ وَيُرْشِدَهُ وَيَهْدِيَهُ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ التَّوَسُّلِ إِلَى الْغَنِيِّ بِغِنَاهُ وَسَعَةِ كَرَمِهِ أَنْ يَعْطِيَ عَبْدَهُ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ، وَالتَّوَسُّلِ إِلَى الْغَفُورِ بِسَعَةِ مَغْفِرَتِهِ أَنْ يَغْفِرَ لِعَبْدِهِ، وَبَعْفُوهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُ، وَبِرَحْمَتِهِ أَنْ يَرْحَمَهُ، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ.

* وَذَكَرَ رَبُّوبِيَّتَهُ تَعَالَى لَجَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، وَهَذَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - لِأَنَّ الْمَطْلُوبَ هَدَى يَحْيَا بِهِ الْقَلْبَ، وَهَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ الْأَمْلاَكُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَيْدِيهِمْ أَسْبَابَ حَيَاةِ الْعِبَاد:

أَمَّا جَبْرِيلُ، فَهُوَ صَاحِبُ الْوَحْيِ الَّذِي يُوحِيهِ اللَّهُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ، وَهُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَأَمَّا مِيكَائِيلُ، فَهُوَ الْمَوْكَّلُ بِالْقَطْرِ الَّذِي بِهِ سَبَبُ حَيَاةِ كُلِّ شَيْءٍ.

وَأَمَّا إِسْرَافِيلُ، فَهُوَ الَّذِي يَنْفُخُ فِي الصُّورِ فَيُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى بِنَفْخَتِهِ، فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ^(٢).

(١) (ق): «الهداية».

(٢) انظر: «زاد المعاد» (١/٤٣).

والهداية لها أربع مراتب، وهي مذكورة في القرآن^(١):
المرتبة الأولى: الهداية العامة؛ وهي هداية كل مخلوق من الحيوان
والآدمي لمصالحه التي بها قيام أمره.

قال الله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝﴾
[الأعلى: ١ - ٣]؛ فذكر أموراً أربعة: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية،
فسوى ما خلقه وأتقنه وأحكمه، ثم قدر له أسباب مصالحه في معاشه
وتقلياته وتصرفاته، وهده إلهيا، والهداية تعليم؛ فذكر أنه الذي خلق وعلم،
كما ذكر نظير ذلك في أول سورة أنزلها على رسوله، وقد تقدم ذلك^(٢).

وقال تعالى حكاية عن عدوه فرعون أنه قال لموسى: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا
يَمُوسَى ۝ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى ۝﴾ [طه: ٤٩ - ٥٠].
وهذه المرتبة أسبق مراتب الهداية وأعمها.

المرتبة الثانية: هداية البيان والدلالة التي أقام بها حجته على عباده.
وهذه لا تستلزم الاهتداء التام.

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا نُمُودُ فَبَدَيْتَهُمْ فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ۝﴾ [فصلت:
١٧]، يعني: بينا لهم ودللناهم وعرفناهم، فأثروا الضلالة والعمى.

(١) انظر: «الوجوه والنظائر» لمقاتل (٢٥٦)، وللدماغاني (٤٧٣)، ولابن الجوزي
(٦٢٦)، و«تأويل مشكل القرآن» (٤٤٣)، و«المفردات» (هدى)، و«بصائر ذوي
التمييز» (٣١٢/٥)، و«شفاء العليل» (٢٢٩)، و«البدائع» (٤٤٥).
(٢) (ص: ١٥٧).

وقال الله تعالى: ﴿وَعَادَا وَثُمُودَا وَقَدْ تَبَّيْنَا لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُصْتَبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وهذه المرتبة أخص من الأولي، وأعم من الثالثة، وهي هدى التوفيق والإلهام؛ قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، فعم بالدعوة خلقه، وخص بالهداية من شاء منهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، مع قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فأثبت هداية الدعوة والبيان، ونفى هداية التوفيق والإلهام. وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة: «من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له»^(١).

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، أي: من يضلله الله لا يهتدي أبداً.

وهذه الهداية الثالثة هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء، وأما الثانية فشرط لا موجب، فلا يستحيل تخلف الهدى عنها، بخلاف الثالثة فإن تخلف الهدى عنها مستحيل.

المرتبة الرابعة: الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة والنار.

قال الله تعالى: ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾^(٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧، ٨٦٨) من حديث جابر وابن عباس.

فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿[الصافات: ٢٢ - ٢٣].

وَأَمَّا قَوْلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة، وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم. ولو قيل: إِنَّ كَلَامَ الْأَمْرِينَ مُرَادُّ لَهُمْ، وَأَنَّهُمْ حَمَدُوا اللَّهَ عَلَى هِدَايَتِهِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَهَدَايَتِهِمْ إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ؛ كَانَ أَحْسَنَ وَأَبْلَغَ.

وَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ الْعِلْمُ بِالْحَقِّ وَاتَّبَاعِهِ مَثَلًا مُطَابِقًا لِحَالِهِ؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَدْعُوْا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُوْنَهُ إِلَى الْهُدَى اثْنًا قُلْ إِنِّي هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

الوجه السادس والسبعون: أَنَّ فَضِيلَةَ الشَّيْءِ وَشَرْفَهُ يَظْهَرُ تَارَةً مِنْ عَمُومِ مَنْفَعَتِهِ، وَتَارَةً مِنْ شِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ وَعَدَمِ الْإِسْتِغْنَاءِ عَنْهُ، وَتَارَةً مِنْ ظُهُورِ النِّقْصِ وَالشَّرِّ بِفَقْدِهِ، وَتَارَةً مِنْ حَصُولِ اللَّذَّةِ وَالسُّرُورِ وَبِالْبَهْجَةِ بِوُجُودِهِ - لِكَوْنِهِ مَحْبُوبًا مَلَأْتِمًا، فَإِذَا رَأَى كَيْفَ يُعْقَبُ غَايَةَ اللَّذَّةِ -، وَتَارَةً مِنْ كَمَالِ الثَّمَرَةِ الْمُرْتَبَةِ عَلَيْهِ، وَشَرْفِ عِلَّتِهِ الْغَائِيَّةِ^(١)، وَإِفْضَائِهِ إِلَى أَجَلِّ الْمَطَالِبِ.

وهذه الوجوه ونحوها تنشأ وتظهر من متعلّقه؛ فإذا كان في نفسه كمالًا وشرَفًا - بقطع النظر عن متعلّقاته - جمعَ جهات الشرف والفضل في نفسه ومتعلّقه.

(١) وهي ما يوجد الشيء لأجله. «التعريفات» (١٥٥).

ومعلومٌ أنَّ هذه الجهات بأسرها حاصلةٌ للعلم؛ فإنه أعمُّ شيءٍ نفعًا، وأكثره وأدومُه، والحاجةُ إليه فوق الحاجةِ إلى 'الغذاء، بل فوق الحاجةِ إلى 'التنفس؛ إذ غايةُ ما يُتَصَوَّرُ من فقدهما فقدُ حياةِ الجسم، وأما فقدُ العلمِ ففيه فقدُ حياةِ القلبِ والروح؛ فلا غناءَ للعبدِ عنه طرفةَ عين، ولهذا إذا فُقدَ من الشخصِ كان شرًّا من الحمير، بل كان شرَّ الدوابِّ^(١) عند الله، ولا شيء أنقصُ منه حينئذ.

وأما حصولُ اللذةِ والبهجةِ بوجوده؛ فلأنه كمالٌ في نفسه، وهو ملائمٌ غايةَ الملاءمةِ للنفوس؛ فإنَّ الجهلَ مرضٌ ونقص، وهو في غايةِ الإيذاء والإيلامِ للنفوس، ومن لم يشعر بهذه الملاءمةِ والمنافرةِ فهو لفقْدِ حسِّه وموتِ نفسه، و«ما لجرحٍ بميتٍ إيلامٌ»^(٢).

فحصولُه للنفوس إدراكُ منها لغايةِ محبوبها، واتصالُ به، وذلك في غايةِ لذتها وفرحتها، وهذا بحسبِ المعلومِ في نفسه ومجبةِ النفسِ له ولذاتها بقربه، والعلومُ والمعلوماتُ متفاوتةٌ في ذلك أعظمَ التفاوتِ وأبينه، فليس علمُ النفوسِ بفاطرها وباريها ومبدعها ومحَبَّتِه والتقربُ إليه كعلمها بالطبيعةِ وأحوالها وعوارضها وصحَّتْها وفسادها وحرركاتها.

وهذا يتبيَّنُ بالوجهِ السابعِ والسبعين: وهو أنَّ شرفَ العلمِ تابعٌ لشرفِ معلومه، ولو ثوق النفسُ بأدلةِ وجوده وبراهينه، ولشدةِ الحاجةِ إلى 'معرفة، وعِظَمِ النفعِ بها.

(١) (د، ت، ق): «شر من الدواب».

(٢) عجزُ بيتٍ للمتنبي، في «ديوانه» (١٤٩)، وصدْرُه:

* من يهن يسهل الهوانُ عليه *

ولا ريب أنَّ أجَلَ معلومٍ وأعظمه وأكبره فهو الله الذي لا إله إلا هو، ربُّ العالمين، وقيومُ السموات والأرضين، الملكُ الحقُّ المبين، الموصوفُ بالكمال كلّه، المنزّه عن كلِّ عيبٍ ونقص، وعن كلِّ تمثيلٍ وتشبيهٍ في كماله.

ولا ريب أنَّ العلمَ به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجَلَ العلوم وأفضلها، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات، وكما أنَّ العلمَ به أجَلَ العلوم وأشرفها فهو أصلها كلُّها، كما أنَّ كلَّ موجودٍ فهو مستندٌ في وجوده إلى الملك الحقِّ المبين ومفتقرٌ إليه في تحقُّق ذاته وإنَّيته^(١)، وكلُّ علمٍ فهو تابعٌ للعلم به مفتقرٌ في تحقيق ذاته إليه؛ فالعلمُ به أصلُ كلِّ علم، كما أنه سبحانه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه وموجدُه.

ولا ريب أنَّ كمال العلم بالسبب التامَّ وكونه سبباً يستلزمُ العلمَ بمسببه كما أنَّ العلمَ بالعلة التامة ومعرفة كونها علّة يستلزمُ العلمَ بالمعلول^(٢)، وكلُّ موجودٍ سوى الله فهو مستندٌ في وجوده إليه أستناد المصنوع إلى صانعه، والمفعول إلى فاعله؛ فالعلمُ بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزمُ العلمَ بما سواه، فهو في ذاته ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه، والعلمُ به أصلُ كلِّ علم ومنشؤه؛ فمن عرف الله عرف ما سواه، ومن جهل ربّه فهو لما سواه أجهل.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، فتأمّل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً: أن من نسي ربّه أنساه ذاته

(١) مهملّة في (د، ق). (ت): «وأبنيته». والإنيّة: اصطلاحٌ فلسفيٌّ قديم، يعني تحقُّق الوجود العينيّ من حيث مرتبته الذاتية. «التعريفات» (٣٨)، و«الكليات» (١٩٠)، و«المعجم الفلسفي» (١/ ١٦٩).

(٢) (ق): «بمعلوله». (ح): «بالمعلوم».

ونفسه، فلم يعرف حقيقته ولا مصالحة، بل نسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده، فصار معطلًا مهملاً بمنزلة الأنعام السائمة، بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه؛ لبقائها على هداها التام الذي أعطاها إياه خالقها، وأمّا هذا فخرج عن فطرته التي خلّق عليها، فنسي ربه، فأنساه نفسه وصفاتها، وما تكمل به وتزكو به وتسعد به في معاشها ومعادها.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فغفل عن ذكر ربه، فانفرط عليه أمره وقلبه، فلا آلتفات له إلى مصالحة وكماله وما تزكو به نفسه وقلبه، بل هو مشتت القلب مضيعه، منفرط الأمر حيران لا يهتدي سبيلاً^(١).

والمقصود أن العلم بالله أصل كل علم، وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلاح به، فالعلم به سعادة العبد، والجهل به أصل شقاوته.

ويزيده إيضاحاً:

الوجه الثامن والسبعون: أنه لا شيء أطيب للعبد ولا ألد ولا أهنأ ولا أنعم لقلبه وعيشه من محبة فاطره وباريه، ودوام ذكره، والسعي في مرضاته. وهذا هو الكمال الذي لا كمال للعبد بدونه، وله خلق الخلق، ولأجله أنزل الوحي، وأرسلت الرسل، وقامت السموات والأرض، ووُجدت الجنة والنار، ولأجله شُرعت الشرائع، ووُضع البيت الحرام، ووجب حجّه على

(١) انظر: «الوابل الصيب» (٩٣، ١٠٤، ١٠٥).

الناس؛ إقامةً لذكره الذي هو من توابع محبته والرضا به وعنه، ولأجل هذا أُمرَ بالجهاد وضرب أعناق من أباه وأثر غيره عليه، وجعل له في الآخرة دارُ الهوان خالداً مخلّداً، وعلى هذا الأمر العظيم أُسست الملة، ونصبت القبلة، وهو قطبُ رحي الخلق والأمر الذي مدارهما عليه.

ولا سبيل إلى الدخول إلى ذلك إلا من باب العلم؛ فإن محبة الشيء فرعٌ على الشعور به، وأعرف الخلق بالله أشدهم حباً له، فكل من عرف الله أحبه، ومن عرف الدنيا وأهلها زهد فيهم.

فالعلمُ يفتح هذا الباب العظيم الذي هو سرُّ الخلق والأمر، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

الوجه التاسع والسبعون: أن اللذة بالمحبوب تضعف وتقوى بحسب قوة الحب وضعفه، فكلما كان الحب أقوى كانت اللذة أعظم، ولهذا تعظم لذة الظمان بشرب الماء البارد بحسب شدة طلبه للماء، وكذلك الجائع، وكذلك من أحب شيئاً كانت لذته على قدر حبه إياه، والحب تابعٌ للعلم بالمحبوب ومعرفة جماله الظاهر والباطن، فلذة النظر إلى الله بعد لقائه بحسب قوة حبه وإرادته، وذلك بحسب العلم به وبصفات كماله.

فإذا العلم هو أقرب الطرق إلى أعظم اللذات. وسيأتي تقريرُ هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى.

الوجه الثمانون: أن كل ما سوى الله مفتقرٌ إلى العلم لا قوام له بدونه؛ فإنَّ الوجودَ وجودان: وجودُ الخلق، ووجودُ الأمر.

والخلق والأمر مصدرهما علمُ الربِّ وحكمته، فكل ما ضمَّه الوجود من خلقه وأمره صادرٌ عن علمه وحكمته، فما قامت السموات والأرض وما

بينهما إلا بالعلم، ولا بُعِثَتِ الرسلُ وأُنزِلَتِ الكتبُ إلا بالعلم، ولا عبد اللهٌ وَوَحْدٌ^(١) وَحَمْدٌ وَأُنِّيَّ عليه ومُجَّدٌ إلا بالعلم، ولا عُرِفَ الحلالُ من الحرام إلا بالعلم، ولا عُرِفَ فضلُ الإسلامِ على غيره إلا بالعلم.

واختُلِفَ هنا في مسألة؛ وهي أن العلمَ صفةٌ فعليةٌ أو أنفعالية؟^(٢)

فقال طائفة: هو صفةٌ فعلية؛ لأنه شرطٌ أو جزءٌ سببٌ في وجود المفعول؛ فإنَّ الفعلَ الاختياريَّ يستدعي حياةَ الفاعلِ وعلمه وقدرته وإرادته، ولا يُتَصَوَّرُ وجودُه بدون هذه الصِّفات.

وقالت طائفة: هو أنفعالي؛ فإنه تابعٌ للمعلوم، متعلِّقٌ به على ما هو عليه؛ فإنَّ العالمَ يدركُ المعلومَ على ما هو به، فإدراكُه تابعٌ له، فكيف يكون^(٣) متقدِّماً عليه؟!

والصوابُ أنَّ العلمَ قسمان:

* علمٌ فعليٌّ، وهو علمُ الفاعلِ المختار بما يريدُ أن يفعلَه، فإنه موقوفٌ على إرادته الموقوفة على تصوُّره المراد وعلمه به. فهذا علمٌ قبل الفعل، متقدِّمٌ عليه، مؤثِّرٌ فيه.

* وعلمٌ أنفعاليٌّ، وهو العلمُ التابعُ للمعلوم، الذي لا تأثيرَ له فيه؛ كعلمنا بوجود الأنبياء والأئمِّ والملوك وسائر الموجودات؛ فإنَّ هذا العلمَ لا

(١) (ت، د، ق): «عبد الله وحده».

(٢) انظر: «بيان تلبس الجهمية» (١/ ١٨٣)، و«الهوامل والشوامل» (١٣٧)، و«الكليات» (٦١٦).

(٣) (د، ت، ق): «فيكون».

يؤثّر في المعلوم، ولا هو شرط فيه.

فكلُّ من الطائفتين نظرت جزئياً وحكمت كلياً، وهذا موضعٌ يغلط فيه كثيرٌ من الناس، وكلا القسمين من العلم صفةٌ كمال، وعدمه من أعظم النقص.

يوضحه:

الوجه الحادي والثمانون: أنَّ فضيلة الشيء تُعرفُ بضدّه.

* فالضدُّ يُظهرُ حسنه الضدُّ * (١)

* وبضدّها تتبيّن الأشياء * (٢)

ولا ريب أنَّ الجهل أصلُ كلِّ فساد، وكلُّ ضررٍ يلحقُ العبدَ في دنياه وأخراه فهو نتيجةُ الجهل، وإلا فمع العلم التامُّ بأنَّ هذا الطعام - مثلاً - مسمومٌ مَنْ أكله قطعَ أمعائه في وقتٍ معيّن، لا يُقدّمُ على أكله، وإن قُدِّرَ أنه أقدمَ عليه لغلبة جوعٍ أو استعجالٍ وفاةٍ فهو لعلمه بموافقة أكله لمقصوده

(١) عجزُ بيت، صدره:

* ضدّان لما استجمعا حسناً *

من القصيدة الفائقة المشهورة بـ «اليتيمة». وفي نسبتها تنازعٌ وخلافٌ كثير، وغلبَ عليها شاعران: أبو الشَّيْص الخزاعي، وهي في ديوانه (١٣٦)، وعلي بن جبلة العكوك، وهي في شعره المجموع (١١٦). ونُشِرت مفردة. وانظر: «فهرسة ابن خير» (٤٠١)، و«بحوث وتحقيقات» للميمني (٤٥٥/١)، و«القصيدة اليتيمة» للمنجد.

(٢) عجزُ بيتٍ للمتنبي في ديوانه (١١٧). وصدره:

* ونذّيمهم وبهم عرفنا فضله *

الذي هو أحبُّ إليه من العذاب بالجوع أو غيره.

وهنا اختلفَ في مسألةٍ عظيمة؛ وهي أنَّ العلمَ هل يستلزمُ الاهتداء، ولا يتخلَّف عنه الهدى إلا لعدم العلم أو نقصه، وإلا فمع المعرفة الجازمة لا يُتصوَّر الضلال؟ أو أنه لا يستلزمُ الهدى، فقد يكونُ الرجلُ عالماً وهو ضالٌّ على عَمْدٍ؟

هذا مما اختلف فيه المتكلِّمون وأربابُ السلوك وغيرهم.

* فقالت فرقة: من عرفَ الحقَّ معرفةً لا يشكُّ فيها أستحال أن لا يهتدي، وحيث ضلَّ فلنقصان علمه.

واحتجُّوا من النصوص بقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء: ١٦٢]، فشهدَ تعالى لكلِّ راسخٍ في العلم بالإيمان، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وبقوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبأ: ٦]، وبقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وبقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]، قسمَ الناس قسمين: أحدهما: العلماء بأن ما أُنزلَ إليه من ربِّه هو الحق.

الثاني: العُمي.

فدلَّ على أنه لا واسطةَ بينهما.

وبقوله تعالى في وصف الكفار: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، وبقوله: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣]، وبقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وهذه مدارك العلم الثلاث قد سُدَّتْ عليهم^(١).

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ قال سعيد بن جبير: «على علمه تعالى فيه»^(٢). قال الزجاج^(٣): «أي: على ما سبق في علمه تعالى أنه ضالٌّ قبل أن يخلقه». ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ﴾ أي: طبع عليه فلم يسمع الهدى، وعلى قلبه فلم يعقل الهدى، و﴿عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشْوَةٌ﴾ فهو لا يبصر أسباب الهدى.

وهذا في القرآن كثير، مما يبين فيه منافاة الضلال للعلم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]، فلو كانوا علموا ما قال الرسول ﷺ لم يسألوا أهل العلم ماذا قال، ولما كان مطبوعاً

(١) (ح، ن): «قد فسدت عليهم».

(٢) أخرج اللالكائي في «السنة» (١٠٠٣)، وابن بطة في «الإبانة» (١٦٢٢ - القدر)، والطبري في «التفسير» (٧٦/٢٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٣٠٩/١) نحوه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٣) في «معاني القرآن» (٤/٤٣٣).

على قلوبهم.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُفًّا وَبُكْمًا فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩]،
وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ
يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٨]؛ فهذه شهادة من الله تعالى لأولي العلم بالإيمان به وبكلامه.

وقال الله تعالى عن أهل النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ
السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]؛ فدلّ على أنّ أهل الضلال^(١) لا سمع لهم ولا عقل.

وقال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا
الْعَاقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ أخبر تعالى أنه لا يعقل أمثاله إلا العالمون،
والكفار لا يدخلون في مسمى العالمين؛ فهم لا يعقلونها.

وقال الله تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ
أَضَلَّ اللَّهُ؟﴾ [الروم: ٢٩]، وقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا
يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ؟﴾ [البقرة: ١١٨]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي
الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؟﴾ [الزمر: ٩]، ولو كان الضلال يُجامع العلم لكان
الذين لا يعلمون أحسن حالاً من بعض الذين يعلمون، والنص بخلافه.

والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار؛ فتارة يصفهم بأنهم لا
يعلمون، وتارة بأنهم لا يعقلون، وتارة بأنهم لا يشعرون، وتارة بأنهم لا
يفقهون، وتارة بأنهم لا يسمعون، - والمراد بالسمع المنفي: سمع الفهم،

(١) (ح، ن): «أصحاب الضلال».

وهو سمع القلب، لا إدراك الصوت -، وتارة بأنهم لا يبصرون؛ فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل، منافي للعلم لا يُجامعه.

ولهذا يصف الله سبحانه الكفار بأنهم جاهلون؛ كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال النبي ﷺ لَمَّا بلغ قومه من أذاه ذلك المبلغ: «اللهم أغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون»^(١).

وفي «الصحيحين» عنه: «من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٢)؛ فدل على أن الفقه مستلزم لإرادة الله الخيرة في العبد، ولا يقال: الحديث دل على أن من أراد الله به خيراً ففقه في الدين، ولا يدل على أن كل من فقه في الدين فقد أراد به خيراً، وبينهما فرق، ودليلكم إنما يتم بالتقدير الثاني، والحديث لا يقتضيه = لأننا نقول: النبي ﷺ جعل الفقه في الدين دليلاً وعلامة على إرادة الله بصاحبه خيراً، والدليل يستلزم المدلول ولا يتخلف

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (١٢٣/٤)، ويعقوب بن سفيان في «المعرفة والتاريخ» (٣٣٨/١)، والطبراني في «الكبير» (١٢٠/٦)، وغيرهم من حديث سهل بن سعد بإسناد حسن.

وصححه ابن حبان (٩٧٣). وقال الهيثمي في «المجمع» (١١٧/٦): «ورجاله رجال الصحيح».

(٢) «البخاري» (٧١)، و«مسلم» (١٠٣٧) عن معاوية.

عنه؛ فإنَّ المدلولَ لازمُهُ، ووجودُ الملزوم بدون لازمِهِ محال^(١).

وفي الترمذي وغيره عنه عليه السلام: «خصلتان لا يجتمعان في منافق: حُسْنُ سَمْتٍ، وفقَّةٌ في الدين»^(٢)؛ فجعلَ الفقه في الدين منافياً للنفاق.

بل لم يكن السَّلَفُ يطلقون اسمَ الفقه إلا على العلم الذي يصحُّبه العمل؛ كما سئل سعدُ بن إبراهيم عن أفعه أهل المدينة فقال: أتقاهم^(٣).

وسأل فرقدَ السَّبَخِي الحسنَ البصريَّ عن شيءٍ، فأجابه، فقال: إنَّ الفقهاءَ يخالفونك، فقال الحسن: ثكلتك أمُّك فُرَيْقِدُ! وهل رأيتَ بعينيك فقيهاً؟! إنما الفقيهُ الزاهدُ الراغبُ في الآخرة، البصيرُ بدينه، المداومُ على عبادة ربِّه، الذي لا يهجمُ مَنْ فوقه، ولا يسخرُ مَنْ دونه، ولا يبتغي على علمِ علِّمه الله تعالى أجراً^(٤).

(١) في طرَّة (ح) في هذا الموضع: «[وقع في] كلامه على الحديث خللٌ أظنُّه من الكاتب؛ [فإنَّ] منطوق الحديث يدل على أن من أراد الله به خيراً ففقهه في الدين، ومفهومُه يدل على أن من لم يفقهه في الدين لم يرد الله به خيراً. ولا يدل الحديث [على] أن كل من فقه في الدين قد أريد به خيراً. والله أعلم». خطه.

قلت: كلامُ المصنف ظاهر، ولم يزد كاتبُ الحاشية على أن أعاد الاعتراض الذي أجاب عنه المصنف.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٢٠٦).

(٣) أخرجه الدارمي (٢٩٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٦٩/٣)، وغيرهما.

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٩٨/١٣)، والدارمي (٢٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٤٧/٢، ١٧٨/٦)، والبيهقي في «المدخل» (٥٠٤)، والآجري في «أخلاق العلماء» (٧٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٣٤١/٢)، وغيرهم.

وقال بعضُ السَّلف: «إِنَّ الفَقِيهَ من لم يُقْنِطِ النَّاسَ من رحمة الله، ولم يؤمنهم من مكر الله، ولم يدع القرآن رغبةً عنه إلى ما سواه»^(١).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «كفى بخشية الله علماً، وبالاغترار بالله جهلاً»^(٢).

قالوا: فهذا القرآن والسنة وإطلاق السلف من الصحابة والتابعين يدلُّ على أنَّ العلمَ والمعرفةَ مستلزمٌ للهداية، وأنَّ عدمَ الهداية دليلٌ على الجهل وعدم العلم.

قالوا: ويدلُّ عليه أنَّ الإنسانَ ما دام عقله معه لا يُؤثِّرُ هلاكَ نفسه على نجاتها، وعذابها العظيم الدائم على نعيمها المقيم، والحسُّ شاهدٌ بذلك.

ولهذا وصف الله سبحانه أهل معصيته بالجهل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَوْبُوا مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧].

= والسائل في بعض هذه المصادر هو عمران القصير، وفي بعضها: مطر الوراق. وأُبهِمَ في الباقي. ولم أقف عليه من طريق فرقد السبخي.

(١) أخرجه الدارمي (٢٩٧) عن علي رضي الله عنه موقوفاً بإسنادٍ ضعيف.

وأخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٨١١ / ٢) عنه مرفوعاً بإسنادٍ ضعيف، ثم قال: «لا يأتي هذا الحديث مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وأكثرهم يوقفونه على علي رضي الله عنه». وانظر: «السلسلة الضعيفة» (٧٣٤).

وللحديث طريقان آخران عند أبي نعيم في «الحلية» (٧٧ / ١)، والخطيب في «الفيء» (٣٣٨ / ٢)، وغيرهما.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ١٣٨).

قال سفيان الثوري: «كُلُّ من عمل ذنبًا من خلق الله فهو جاهل، سواءً كان جاهلاً أو عالماً؛ إن كان عالماً فَمَنْ أَجْهَلُ منه؟! وإن كان لا يعلم فمثل ذلك» (١).

وقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ قال: قبل الموت (٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ذنبُ المؤمن جهلٌ منه» (٣).

قال قتادة: «أجمع أصحابُ رسول الله ﷺ أن كلَّ شيءٍ عَصِيَ الله به فهو جهالةٌ» (٤).

وقال السُّدِّي: «كُلُّ من عصَى الله فهو جاهل» (٥).

قالوا: ويدلُّ على صحة هذا أنَّ مع كمال العلم لا تصدرُ المعصيةُ من العبد؛ فإنه لو رأى صبيًّا يتطلَّعُ عليه من كُوءٍ لم تتحرَّك جوارحه لمواقعة الفاحشة، فكيف تقعُ منه حال كمال علمه بنظر الله إليه، ورؤيته له، وعقابه على الذنب، وتحريمه له، وسوء عاقبته؟! فلا بد من غفلة القلب عن هذا العلم، وغيبته عنه، فحينئذٍ يكون وقوعه في المعصية صادراً عن جهلٍ وغفلةٍ ونسيانٍ مضادٍّ للعلم.

(١) ورد مختصراً عن مجاهد، وعطاء، وابن زيد. انظر: تفسير القرآن من «الجامع» لابن وهب (١٨/١)، و«تفسير الطبري» (٨٩/٨)، (٩٠).

(٢) كذا ورد القول في الأصل دون نسبة. وهو قول جمهور المفسرين. انظر: «الدر المنثور» (٤٥٩/٢)، و«مدارج السالكين» (٢٨٤/١)، و«شفاء العليل» (٤٩١).

(٣) أخرجه بنحوه الطبري (٨/٩٠).

(٤) أخرجه عبد الرزاق (١/١٥١)، ومن طريقه الطبري (٨/٨٩).

(٥) أخرجه الطبري (٨/٨٩).

والذنبُ محفوفٌ بجهلين: جهلٌ بحقيقة الأسبابِ الصَّارفةِ عنه، و جهلٌ بحقيقةِ المفسدةِ المترتبةِ عليه. وكلُّ واحدٍ من الجهلين تحتَه جهالاتٌ كثيرة. فما عَصِيَ اللهُ إلا بالجهل، وما أُطِيعَ إلا بالعلم. فهذا بعضُ ما أحتجَّت به هذه الطائفة.

* وقالت الطائفةُ الأخرى: العلمُ لا يستلزمُ الهداية، وكثيرًا ما يكونُ الضلالُ عن عمدٍ وعلمٍ لا يشكُّ صاحبه فيه، بل يُؤثِّرُ الضلالَ والكفرَ وهو عالمٌ بقبحه ومفسدته.

قالوا: وهذا شيخُ الضلال، وداعي الكفر، وإمامُ الفجرة، إبليسُ عدوُّ الله، قد علمَ أمرُ الله له بالسجود لآدم ولم يشكَّ فيه، فخالفه وعاندَ الأمرَ وباءَ بلعنةِ الله وعذابه الدائم، مع علمه بذلك ومعرفته به، وأقسمَ له بعرته أنه يغوي خلقَه أجمعين إلا عباده منهم المخلصين؛ فكان غير شاكٍّ في الله وفي وحدانيَّته، وفي البعث الآخر، وفي الجنة والنار، ومع ذلك اختارَ الخلودَ في النار واحتمالَ لعنةِ الله وغضبه وطرده من سمائه وجنَّته عن علمٍ بذلك ومعرفةٍ لم تحصلَ لكثيرٍ من الناس، ولهذا قال: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦]، وهذا أعتارفٌ منه بالبعث وإقرارٌ به، وقد علِمَ قَسَمَ رَبُّهُ ليمْلَأَنَّ جهنَّمَ منه ومن أتباعه؛ فكان كفرُه كفرَ عنادٍ محضٍ لا كفرَ جهلٍ.

وقال الله تعالى إخبارًا عن قوم صالح (١): ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، يعني: بينَّا لهم وعرفناهم، فعرفوا الحقَّ وتيقَّنوه، وآثروا العمى عليه. أفكان كفرُ هؤلاء عن جهلٍ؟!

(١) ساقطة من (ق). وفي (ت، ح، ن): «ثمود».

وقال تعالى حاكياً عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرْعَوْتُ مُثْبَوًّا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي: هالكا، على قراءة فُتِحَ الناء، وهي قراءة الجمهور. وضمها الكسائي وحده^(١).

وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأفخم معنى، وبها تقوم الدلالة، ويتم الإلزام، ويتحقق كفر فرعون وعناؤه، ويشهد لها قوله تعالى إخباراً عنه وعن قومه: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿[النمل: ١٣ - ١٤]؛ فأخبر سبحانه أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين - وهو أقوى العلم - ظلماً منهم وعلوًّا، لا جهلاً.

وقال تعالى لرسوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، يعني: أنهم قد عرفوا صدقك، وأنت غير كاذب فيما تقول، ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما والمفسرون^(٢).

قال قتادة: «يعلمون أنك رسول الله ولكن يجحدون»^(٣)، كقوله^(٤) عز وجل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾.

(١) انظر: «التبصرة» لمكي (٥٧١)، و«النشر» لابن الجزري (٣٠٩/٢).

(٢) انظر: «الدر المثور» (٩/٣، ١٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢/٢٠٧)، ومن طريقه الطبري (١١/٣٣٣).

(٤) (ت): «لقوله».

وقال تعالى: ﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ

﴿٧٠﴾ يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُتُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠ - ٧١] يعني: تكفرون بالقرآن وبمن جاء به، وأنتم تشهدون بصحته وأنه الحق، فكفركم كفر عناد وجحود عن علم وشهود، لا عن جهل وخفاء.

وقال تعالى عن السحرة من اليهود: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: علموا أن من أخذ السحر وقبّله لا نصيب له في الآخرة، ومع هذا العلم والمعرفة فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلمونه.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ذكر هذه المعرفة عن أهل الكتاب في القبلة، كما في سورة البقرة، وفي التوحيد، كقوله في الأنعام: ﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿١١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾، وفي الكتاب أنه منزل من عند الله، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هم قريظة والنضير ومن دانَ بدينهم، كفروا بالنبي ﷺ بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به وشهدوا له بالنبوة، وإنما كفروا بغيا وحسدا» (١).

(١) أخرجه الطبري (٦/ ٥٧٤) مختصرا بإسناد ضعيف.

قال الزجاج: «أَعْلَمَ اللهُ عز وجل أنه لا جهةً لهدايتهم؛ لأنهم قد استحقُّوا أن يَضَلُّوا بكفرهم؛ لأنهم كفروا بعد البينات»^(١).

ومعنى (كيف يهديهم)^(٢) أي: أنه لا يهديهم؛ لأنَّ القومَ عرفوا الحقَّ، وشهدوا به وتيقَّنوه، وكفروا عمدًا، فمن أين تأتيهم الهداية؟! فإنَّ الذي ترتجى هدايته من كان ضالًّا ولا يدري أنه ضالٌّ، بل يظنُّ أنه على هدى، فإذا عرف الهدى أهتدى، وأما من عرف الحقَّ وتيقَّنَه وشهدَ به قلبه ثمَّ اختار الكفرَ والضلالَ عليه، فكيف يهدي اللهُ مثل هذا؟!

وقال تعالى عن اليهود: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، ثمَّ قال: ﴿بَشِّرْهُمْ بِشَرِّ مَا أَشْرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: ٨٩، ٩٠]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لم يكن كفرهم شكًّا ولا اشتباهًا، ولكن بغيًا منهم، حيث صارت النبوة في ولد إسماعيل»^(٣).

ثمَّ قال بعد ذلك: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ

= والمشهورُ الثابتُ عن ابن عباس أن الآية نزلت في رجلٍ من الأنصار، ارتدَّ بعد إسلامه، ثم عاد إلى الإسلام.

أخرجه النسائي (٤٠٦٨)، وصححه ابن حبان (٤٤٧٧)، والحاكم (١٤٢/٢)، ٣٦٦/٤ ولم يتعقبه الذهبي.

(١) «معاني القرآن» (٤٣٩/١).

(٢) كذا في الأصول، ونصُّ الآية: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا﴾ [آل عمران: ٨٦]، أراد التفسير لا التلاوة، وهو سائغ، وعليه عمل أهل العلم، فلذلك لم أغيِّره.

(٣) «الوسيط» للواحدى (١٧٣/١). وبمعناه مختصرًا أخرجه الطبري (٣٣٤/٢).

نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿البقرة: ١٠١﴾، فلما شبههم في فعلهم هذا بمن لا يعلم دَلَّ على أنهم نبذوه عن علم كفعل من لا يعلم، تقول إذا خاطبت من عصاك عمداً: كأنك لم تعلم ما فعلت، أو: كأنك لم تعلم بنهيي إياك.

ومنه - على أحد القولين - قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿[النحل: ٨٢ - ٨٣]، قال السُّدِّي: «يعني محمداً ﷺ»^(١). واختاره الزجاج، فقال: «يعرفون أن أمر محمد ﷺ حقٌّ ثم ينكرون ذلك»^(٢). وأول الآية يشهد لهذا القول.

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ﴾ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴿[الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦].

قالوا: فهل بعد هذه الآية بيان؟! فإنَّ هذا آتاه الله آياته، فانسلخ منها وآثر الضلال والغَي، وقصَّته معروفة^(٣)، حتى قيل: إنه كان أوتي الاسم الأعظم. ومع هذا فلم ينفعه علمه وكان من الغاوين، فلو استلزم العلم والمعرفة الهداية لاستلزمه في حق هذا.

(١) أخرجه الطبري (١٧/ ٢٧٢).

(٢) «معاني القرآن» (٣/ ٢١٦).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٥١٠)، و«الغوامض والمبهمات» لابن بشكوال (٦٥٧)، وغيرهما.

وقال الله تعالى: ﴿وَعَادَا وَثُمُودَا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكَانِهِمْ وَرَزَقَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وهذا يدلُّ على أنَّ قولهم: ﴿يَهُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣] إمَّا بَهْتٌ مِنْهُمْ وَجُحُودٌ، وَإِمَّا نَفْيٌ لآيَاتِ الْاِقْتِرَاحِ وَالْعَنَتِ، وَلَا يَجِبُ الْإِتْيَانُ بِهَا.

وقد وصف سبحانه ثمودَ بأنها كفرت عن علمٍ وبصيرةٍ بالحقِّ؛ ولهذا قال: ﴿وَأَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩] يعني: بَيِّنَةً مُضِيَّةً، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] أي: مُضِيَّةً، وحقيقة اللفظ أنها تجعلُ من رآها مبصرًا، فهي توجبُ له البصر، فتبصرُهُ، أي: تجعلُهُ ذا بصر، فهي موضحةٌ مبيِّنة، يقال: «بَصُرَ به» إذا رآه؛ كقوله تعالى: ﴿فَبَصَّرْتَهُ بِهِ عَنْ جُنْبٍ﴾ [الفصص: ١١]، وقوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ [طه: ٩٦].

وَأَمَّا «أَبْصَرَهُ»، فله معنيان:

أحدهما: جَعَلَهُ باصِرًا بالشيء، أي: ذا بصرٍ به^(١)؛ كآية النهار وآية ثمود.
والثاني: بمعنى رآه؛ كقولك: أبصرتُ زيدًا، وفي حديث أبي شريح العَدَوِي: «أَحَدْتُكَ قَوْلًا قَالَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفَتْحِ، فَسَمِعْتُهُ أَذْنَايَ، وَوَعَاه قَلْبِي، وَأَبْصَرْتُهُ عَيْنَايَ حِينَ تَكَلَّمَ بِهِ»^(٢).

(١) (ت، د، ق): «جَعَلَهُ باصِرًا بالشيء إذا بصر به».

(٢) أخرجه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَ عَنَّهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۖ﴾ (١٧٤) وَأَبْصَرْتُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴿[الصفات: ١٧٤ - ١٧٥]، قيل: المعنى: أبصروهم وما يقضى عليهم من الأسر والقتل والعذاب في الآخرة، فسوف يُبصرونك وما يقضى لك من النصر والتأييد وحسن العاقبة. والمراد: تقريبُ المُبصرِ من المخاطَب حتى كأنه نصب عينيه ورأى ناظره.

والمقصودُ أنَّ الآية أوجبت لهم البصيرة، فآثروا الضلال والكفر عن علمٍ ويقين، ولهذا - والله أعلم - ذكر قصَّتهم من بين قصص سائر الأمم في سورة ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾؛ لأنه ذكر فيها أنقسام النفوس إلى الزكيَّة الراشدة المهتدية، وإلى الفاجرة الضالَّة الغاوية، وذكر فيها الأصلين: القدر والشرع؛ فقال: ﴿فَالْمَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ فهذا قدره وقضاؤه، ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ۖ﴾ (١) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ﴿ فهذا أمره ودينه. وثمودٌ هداهم، فاستحبوا العمى على الهدى، فذكر قصَّتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور على التقوى، والتدسية على التزكية، والله أعلم بما أراد.

قالوا: يكفي في هذا إخباره تعالى عن الكفار أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب، ووردوا القيامة، ورأوا ما أخبرت به الرسل: ﴿يَلَيِّنَّا نُرْدُّ وَلَا نَكْذِبُ يَأَيَّتَ رَبَّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ (٢٧) بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿ [الأنعام: ٢٧ - ٢٨]، فأبى علم أبين من علم من ورد القيامة ورأى ما فيها، وذاق عذاب الآخرة، ثم لو رُدَّ إلى الدنيا لاختار الضلال على الهدى، ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه؟!

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَّنا إِلَيْهِمُ الْمَلَكُكَّةَ كُلِّمُهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ

كُلَّ شَيْءٍ قُبْلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿[الأنعام: ١١١].

فهل بعد نزول الملائكة عيانًا، وتكليم الموتى لهم، وشهادتهم للرسول بالصدق، وحشر كل شيء في الدنيا عليهم = مِنْ بَيَانٍ وإيضاح للحقّ وهدى؟! ومع هذا فلا يؤمنون، ولا ينقادون للحقّ، ولا يصدقون الرسول!

ومن نظر في سيرة رسول الله ﷺ مع قومه، ومع اليهود، عَلِمَ أنهم كانوا جازمين بصدقه ﷺ، لا يشكّون أنه صادق في قوله: إنه رسول الله، ولكنّ اختاروا الضلال والكفر على الإيمان.

قال المِسْوَرُ بن مَخْرَمَةَ رضي الله عنه لأبي جهل - وكان خاله -: أي خال، هل كنتم تتهمون محمدًا بالكذب قبل أن يقول مقالته التي قالها؟ قال: يا ابن أخي، والله لقد كان محمدٌ فينا وهو شابٌ يُدعى: الأمين، ما جرّبنا عليه كذبًا قطّ، فلمّا وَخَطَهُ الشيبُ لم يكن ليكذب على الله. قال: يا خال فلم لا تتّبعونه؟! قال: يا ابن أخي، تنازعنا نحن وبنو هاشم السّرف؛ فأطعموا وأطعمنا، وسقّوا وسقّينا، وأجاروا وأجرنا، فلمّا تجاثيّا على الرّكب وكنا كفرسي رهان قالوا: منّا نبيّ. فمتى ندركُ هذه؟! (١).

وهذا أُمِيَّةُ بن أبي الصّلّت كان ينتظره يومًا بيوم، وعلمّه عنده قبل مبعثه

(١) لم أقف على الخبر من رواية المِسْوَر، ولا أراه يصحّ عنه؛ فإن أبا جهل قُتِل يوم بدر، والمِسْوَر وُلِد بعد الهجرة بستين، وقيل قبلها، فكيف يسأله؟! وأصل الخبر مشهور، أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (١٩١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٤/ ٩١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٢٠٧) عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه بإسنادٍ منقطع. ورؤي من أوجهٍ أخرى.

وقصَّته مع أبي سفيان لما سافروا معًا معروفة، وإخباره برسول الله ﷺ، ثم لما تيَّنه وعرف صدقه قال: «لا أومنُ بنبيٍّ من غير ثقيفٍ أبدًا»^(١).

وهذا هرقلُ تيَّنُ أنه رسولُ الله ﷺ، ولم يشكَّ فيه، وآثر الضلالَ والكفرَ استبقاءً لمُلْكِهِ^(٢).

ولمَّا سأله اليهودُ عن التسعِ آياتِ البَيِّنَاتِ؛ فأخبرهم بها، قَبَّلُوا يَدَهُ، وقالوا: نشهدُ أنك نبيٌّ. قال: فما يمنعكم أن تتَّبِعُونِي؟ قالوا: إنَّ داودَ عليه السَّلامَ دعا أن لا يزالَ في ذريَّتِهِ نبيٌّ، وإنَّا نخشى أن أتبعناكَ أن تقتلنا يهود^(٣).

فهؤلاء قد تحقَّقوا نبوَّتَهُ، وشهدوا له بها، ومع هذا فآثروا الكفرَ

(١) أخرجها في سياقٍ طويلٍ الطبرانيُّ في «الكبير» (٥/٨)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١١٦/٢)، وأبو القاسم التيمي في «دلائل النبوة» (٢٢٦)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٥٧/٩) من طرق.

(٢) وخبره مشهور، أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٧٣٣، ٣١٤٤)، والنسائي (٤٠٧٨)، وابن ماجه (٣٧٠٥)، وغيرهم من حديث صفوان بن عسال.

وفي إسناده ضعف، وفي متنه نكارة. وقال النسائي في «الكبرى» (٣٥٢٧): «هذا حديثٌ منكر». وانظر: «تهذيب سنن أبي داود» للمصنف (٨٦/١٤)، و«تفسير ابن كثير» (٢١٣٥/٥)، و«البداية والنهاية» (٩٦/٩).

وصححه جماعة، قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسن صحيح». وقال الحاكم في «المستدرک» (٩/١): «هذا حديثٌ صحيحٌ لا نعرف له علَّةٌ بوجهِ من الوجوه، ولم يخرجاه»، ولم يتعقبه الذهبي. وخرَّجه الضياء في «المختارة» (٢٨/٨). وقال ابن حجر في «التلخيص» (٩٣/٤): «إسناده قوي».

والضلال، ولم يصيروا مسلمين بهذه الشهادة.

ف قيل: لا يصيرُ الكافرُ مسلمًا بمجردَ شهادة أن محمدًا رسولُ الله ﷺ حتى يشهدَ الله بالوحدانيَّة.

وقيل: يصيرُ بذلك مسلمًا.

وقيل: إن كان كفرُه بتكذيب الرسول — كاليهود — صار مسلمًا بذلك، وإن كان كفره بالشرك مع ذلك لم يصِرْ مسلمًا إلا بالشهادة بالتوحيد^(١)، كالنصارى والمشركيين.

وهذه الأقوالُ الثلاثةُ في مذهب الإمام أحمد وغيره^(٢).

وعلى هذا، فإنما لم يحكم لهؤلاء اليهود الذين شهدوا له بالرسالة بحكم الإسلام؛ لأنَّ مجردَ الإقرار والإخبار بصحَّة رسالته لا يوجبُ الإسلام، إلا أن يلتزم طاعته ومتابعته، وإلا فلو قال: أنا أعلمُ أنه نبيٌّ، ولكن لا أتبعه ولا أدينُ بدينه؛ كان من أكفر الكفار، كحال هؤلاء المذكورين وغيرهم.

وهذا متفقٌ عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة السُّنة: أنَّ الإيمان لا يكفي فيه قولُ اللسان بمجردَه، ولا معرفة القلب مع ذلك، بل لا بدَّ فيه من عمل القلب، وهو حُبُّه لله ورسوله، وانقيادُه لدينه، والتزامُه طاعته ومتابعة رسوله.

(١) (ق، ت): «بالشهادة». (ح، ن): «بالشهادة به».

(٢) انظر: «العلل» لأحمد (٣/ ٨٣ - رواية عبد الله)، وكتاب أهل الملل والردة والزنادقة من «الجامع» للخلال (٢/ ٣٧٢)، و«الروايتين والوجهين» لأبي يعلى (٢/ ٣١١)، و«المغني» (١٢/ ٢٨٨)، و«شرح الزركشي» (٦/ ٢٦٦)، و«زاد المعاد» (٣/ ٦٣٩).

وهذا خلاف من زعم أنَّ الإيمان هو مجردُ معرفة القلب وإقراره.
وفيما تقدّم كفايةً في إبطال هذه المقالة.

ومن قال: إنَّ الإيمان هو مجردُ اعتقاد صدق الرسول فيما جاء به، وإن لم يلتزم متابعتَه، وعاداه وأبغضه وقاتله؛ لزمه أن يكون هؤلاء كلُّهم مؤمنين.
وهذا إلزامٌ لا محيد عنه، ولهذا اضطرب هؤلاء في الجواب عن ذلك
لمَّا وَرَدَ^(١) عليهم، وأجابوا بما يستحي القائل من قوله؛ كقول بعضهم: إنَّ إبليس كان مستهزئًا ولم يكن يقرُّ بوجود الله، ولا بأنَّ الله ربُّه وخالقُه، ولم يكن يعرف ذلك! وكذلك فرعون وقومه لم يكونوا يعرفون صحَّة نبوَّة موسى، ولا يعتقدون وجود الصَّانع^(٢).

وهذه فضائحُ نعوذُ بالله من الوقوع في أمثالها، ونصرةُ المقالات وتقليدُ
أربابها يحوِّلُ على أكثر من هذا، ونعوذُ بالله من الخذلان.
قالوا: وقد بيَّن القرآن أنَّ الكفر أقسام:

أحدها: كفرٌ صادرٌ عن جهلٍ وضلالٍ وتقليدِ الأسلاف؛ وهو كفرٌ أكثر
الأتباع والعوامِّ.

الثاني: كفرٌ جحودٍ وعنادٍ وقصدٍ مخالفةِ الحقِّ؛ ككفر من تقدّم ذكره.
وغالبُ ما يقعُ هذا النوعُ فيمن له رياسةٌ علميَّةٌ في قومه من الكفار، أو
رياسةٌ سلطانيَّة، أو من له مأكُلٌ وأموالٌ في قومه؛ فيخافُ هذا على رياسته

(١) (ح): «أورد».

(٢) انظر: «الفصل» (٥ / ٧٥)، و«الصَّارم المسلول» (٩٦٧)، و«جامع المسائل»
(٥ / ٢٤٧)، و«هذه مفاهيمنا» (١٠٤، ١٠٧).

وهذا على ماله ومأكله؛ فيؤثّر الكفر على الإيمان عمداً.

الثالث: كفر إعراض محض، لا ينظر فيما جاء به الرسول، ولا يحبه ولا يبغضه، ولا يواليه ولا يعاديه، بل هو معرض عن متابعتة ومعاداته.

وهذان القسمان أكثر المتكلمين ينكرونها، ولا يثبتون من الكفر إلا الأول، ويجعلون الثاني والثالث كفرًا لدلالته على الأول لا لأنه في ذاته كفر؛ فليس عندهم الكفر إلا مجرد الجهل.

ومن تأمل القرآن والسنة، وسير الأنبياء في أممهم ودعوتهم لهم وما جرى لهم معهم جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه، وعلم أن عامة كفر الأمم عن تيقن وعلم ومعرفة بصدق أنبيائهم وصحة دعواهم وما جاءوا به.

وهذا القرآن مملوء من الإخبار عن المشركين عبّاد الأصنام أنهم كانوا يقرّون بالله وأنه هو وحده ربهم وخالقهم، وأن الأرض وما فيها له وحده، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم، وأنه بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وأنه هو الذي سخر الشمس والقمر، وأنزل المطر، وأخرج النبات.

والقرآن منادٍ عليهم بذلك، محتج بما أقرّوا به من ذلك على صحة ما دعتهم إليه رسله، فكيف يقال: إن القوم لم يكونوا مُقرّين قط بأن لهم رباً وخالقاً؟ هذا بهتان عظيم.

فالكفر أمر وراء مجرد الجهل، بل الكفر الأغلظ هو ما أنكره هؤلاء وزعموا أنه ليس بكفر.

قالوا: والقلب عليه واجبان لا يصير مؤمناً إلا بهما جميعاً:

* واجبُ المعرفة والعلم.

* وواجبُ الحبِّ والانقياد والاستسلام.

فكما لا يكونُ مؤمناً إذا لم يأت بواجب العلم والاعتقاد، لا يكونُ مؤمناً إذا لم يأت بواجب الحبِّ والانقياد والاستسلام، بل إذا ترك هذا الواجبَ مع علمه ومعرفته به، كان أعظم كفراً وأبعدَ عن الإيمان من الكافر جهلاً؛ فإنَّ الجاهلَ إذا عرفَ وعِلِمَ فهو قريبٌ إلى الانقياد والاتباع، وأمّا المعاندُ فلا دواء فيه؛ قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ^١ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

[آل عمران: ٨٦].

قالوا: فحبُّ الله ورسوله - بل كونُ الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواه - لا يكونُ العبدُ مسلماً إلا به. ولا ريب أن الحبَّ أمرٌ وراء العلم؛ فما كلُّ من عرف الرسولَ أحبه، كما تقدّم.

قالوا: وهذا الحاسدُ يحمله بغضُ المحسود على معاداته، والسَّعي في أذاه بكلِّ ممكن، مع علمه بفضلِه وعلمه، وأنه لا شيء فيه يوجبُ عداوته إلا محاسنُه وفضائلُه.

ولهذا قيل للحاسد: «عدوُّ النعم والمكارم»^(١).

فالحاسدُ لم يَحْمِلْهُ على معاداة المحسود جهله بفضلِه وكماله، وإنما حمّله على ذلك فسادُ قصده وإرادته، كما هي حالُ الرُّسل وورثتهم مع

(١) انظر: «شعب الإيمان» (٣٥ / ١٢)، و«المجالسة» للدينوري (٦٥٨)، و«بهجة المجالس» (٤٠٧ / ١)، و«التذكرة الحمدونية» (١٨١ / ٢).

الرؤساء الذين سلبهم الرسل ووارثوهم رياستهم الباطلة، فعادَوْهُمْ وصدَّوا النفوسَ عن متابعتهم؛ ظناً أنَّ الرياسة تبقى لهم وينفردون بها، وسُنَّةُ الله في هؤلاء أن يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة، ويصغِّرهم في عيون الخلق؛ مقابلة لهم بنقيض قصدهم، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

فهذا موردٌ أحتجاج الفريقين، وموقفُ أقدام الطائفتين، فاجلس أيها المُنْصِفُ منهما مجلسَ الحكومة، وتوخَّ بعلمك وعدلك فَصْلَ هذه الخصومة، فقد أدلى كلُّ منهما بحجج لا تُعَارِضُ ولا تُمَانَعُ، وجاء ببيِّنات لا تُرَدُّ ولا تُدْفَعُ، فهل عندك شيءٌ غيرُ هذا يحصلُ به فصلُ الخطاب، وينكشفُ به لطالب الحقَّ وجهُ الصواب، فيرضي الطائفتين، ويزولُ به الاختلافُ من البين؟! وإلا فخلَّ المَطْيَّ وحاديها، وأعطِ القوسَ باريها.

دَعِ الهوى لأناسٍ يُعْرِفُونَ به قد كابدوا الحبَّ حتى لَانَ أَصْغَبُهُ (١) ومن عرف قَدْرَهُ، وعرف لذي الفضل فضله، فقد قَرَعَ باب التوفيق، والله الفتح العليم.

فنقول وبالله التوفيق: كلا الطائفتين (٢) ما خرجت عن مُوجِبِ العلم، ولا عدلت عن سَنَنِ الحقِّ، وإنما الاختلافُ والتباينُ بينهما من عدم التَّوارد على محلٍّ واحد، ومن إطلاق ألفاظٍ مجملة، بتفصيل معانيها يزولُ الاختلاف، ويظهرُ أنَّ كلَّ طائفةٍ موافقةٌ للآخرى على نفس قولها.

(١) من أبياتِ لأبي القاسم الكاتب علي بن أفلح العبسي (ت: ٥٣٢) في ترجمته من «المنتظم» (٨٢/١٠). وفيه: «قد مارسوا».

(٢) كذا. والجماعة: «كلتا الطائفتين».

وبيانُ هذا: أنَّ المقتضي قسمان:

* مقتضي لا يتخلفُ عنه مُوجِبُه ومقتضاه^(١)، بل يستلزمُه استلزامُ العلةِ التامةُ لمعلولها.

* ومقتضي غيرُ تامٍّ، بل قد يتخلفُ^(٢) عنه مقتضاه؛ لقصوره في نفسه عن التمام^(٣)، أو لفوات شرطِ اقتضائه، أو قيامِ مانعٍ منعٍ تأثيره.

فإن أريدَ بكون العلمِ مقتضياً للاهتداءِ الاقتضاءُ التامُّ^(٤) الذي لا يتخلفُ عنه أثرُه بل يلزمُه الاهتداءُ بالفعل؛ فالصوابُ قولُ الطائفةِ الثانيةِ، وأنه لا يلزمُ من العلمِ حصولُ الاهتداءِ المطلوبِ.

وإن أريدَ بكونه مُوجِباً أنه صالحٌ للاهتداءِ، مقتضي له، وقد يتخلفُ عنه مقتضاه لقصوره، أو لفوات شرطٍ، أو قيامِ مانعٍ؛ فالصوابُ قولُ الطائفةِ الأولى.

وتفصيلُ هذه الجملة: أنَّ العلمَ بكون الشيء سبباً لمصلحة العبد ولذَّته وسروره قد يتخلفُ عنه عمله بمقتضاه، لأسبابٍ عديدة^(٥):

السببُ الأول: ضعفُ معرفته بذلك.

السببُ الثاني: عدمُ الأهلية. وقد تكونُ معرفته به تامة، لكن يكونُ

(١) (ق، ن): «موجبه ومقتضاه لقصوره في نفسه».

(٢) «بل قد» ليست في (د، ت، ق). (ق): «لا يتخلف». (ت): «لا يختلف».

(٣) (ت): «القيام».

(٤) (ت، ق): «والاقتضاء التام». وهو خطأ، اشتبهت الهمزة بالواو.

(٥) انظر: «هداية الحيارى» (٣٩، ٢٦٩).

مشروطاً بزكاة^(١) المحلّ وقبوله للتزكية، فإذا كان المحلّ غير زكيٍّ ولا قابِلٍ للتزكية كان كالأرض الصلدة التي يخالطها الماء، فإنه يمتنعُ النباتُ منها؛ لعدم أهليتها وقبولها.

فإذا كان القلبُ قاسياً حَجَرِيّاً، لا يقبلُ تزكيةً ولا تُؤثّرُ فيه النصائح، لم ينتفع بكلِّ علمٍ يعلمه، كما لا تنبتُ الأرضُ الصلبة ولو أصابها كلُّ مطر، وبُذِرَ فيها كلُّ بذَر.

كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلَلْنَا إِلَهُمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]. وهذا في القرآن كثير.

فإذا كان القلبُ قاسياً غليظاً جافياً لا يعملُ فيه العلمُ شيئاً، وكذلك إذا كان مريضاً مهيناً مائئاً لا صلابةً فيه ولا قوةً ولا عزيمة لم يؤثّر فيه العلم.

السببُ الثالث: قيامُ مانع؛ وهو إمّا حسدٌ أو كِبَر، وذلك مانعٌ إبليس من الانقياد للأمر، وهو داءُ الأولين والآخرين إلا من عصم الله، وبه تخلف الإيمانُ عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوا صحة نبوته ومن جرى مجراهم، وهو الذي منع عبد الله بن أبيٍّ من الإيمان، وبه تخلف الإيمانُ عن أبي جهلٍ وسائر المشركين؛ فإنهم لم يكونوا يرتابون في صدقه

(١) (ق): «بزكاة».

وَأَنَّ الْحَقَّ مَعَهُ، وَلَكِنْ حَمَلَهُمُ الْكِبَرُ وَالْحَسَدُ عَلَى الْكُفْرِ، وَبِهِ تَخَلَّفَ
الْإِيمَانُ عَنْ أُمِّيَّة^(١) وَأَصْرَابُهُ مِمَّنْ كَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِنَبْوَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

السبب الرابع: مانع الرياسة والمُلْك، وإن لم يَقُمْ بصاحبه حسدٌ ولا
تَكَبُّرٌ عَنِ الانْقِيَادِ لِلْحَقِّ، لَكِنْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْتَمَعَ لَهُ الْانْقِيَادُ وَمُلْكُهُ وَرِيَاسَتُهُ،
فَيُضِنُّ بِمُلْكِهِ وَرِيَاسَتِهِ؛ كَحَالِ هِرَقْلٍ وَأَصْرَابِهِ مِنْ مَلُوكِ الْكُفَرَاءِ الَّذِينَ عَلِمُوا
بِنَبْوَتِهِ وَصِدْقِهِ، وَأَقْرَبُوا بِهَا بَاطِنًا، وَأَحْبَبُوا الدُّخُولَ فِي دِينِهِ، لَكِنْ خَافُوا عَلَى
مُلْكِهِمْ.

وهذا داءُ أرباب المُلْك والولاية والرياسة، وَقَلَّ مِنْ نَجَا مِنْهُ إِلَّا مِنْ
عَصَمَ اللَّهُ، وَهُوَ داءُ فرعون وقومه، ولهذا قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِشَرِّينَ وَمِثْلِكَ وَقَوْمُهُمَا
لَنَا عَدِيدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]؛ أَنْفَوْا أَنْ يُؤْمِنُوا وَيَتَّبِعُوا مُوسَى وَهَارُونَ وَيَنْقَادُوا
لَهُمَا وَبَنُو إِسْرَائِيلَ عبيدٌ لَهُمْ.

ولهذا قيل: إِنَّ فرعون لما أراد متابعة موسى وتصيدقه شاورَ هامان
وزيره، فقال: بَيْنَا أَنْتَ إِلَهٌ تُعْبَدُ تَصِيرُ عَبْدًا تَعْبُدُ غَيْرَكَ! ^(٢)؛ فَأَبَى الْعَبُودِيَّةَ
وَاخْتَارَ الرِّيَاسَةَ وَالْإِلَهِيَّةَ الْمُحَالِ ^(٣).

السبب الخامس: مانع الشهوة والمال؛ وهو الذي منع كثيرًا من أهل
الكتاب من الإيمان، خوفًا من بطلان مآكلهم وأموالهم التي تصيرُ إليهم من

(١) أمية بن أبي الصلت.

(٢) انظر: «تفسير يحيى بن سلام» (٢٦٣/١)، و«المتفق والمفترق» (١١٢٦)، و«تاريخ
دمشق» (٦٤/٦١)، و«الدر المنثور» (٤١٠/٨)، و«سراج الملوك» (٢٨٨).

(٣) (ت): «واللهية المحال». ولستُ منها على ثقة.

قومهم^(١).

وقد كانت كفارٌ قريش يصدُّون الرجلَ عن الإيمان بحسب شهوته،
فيدخلون عليه منها؛ فكانوا يقولون لمن يحبُّ الزَّنا والفواحش: إنَّ محمدًا
يحرِّم الزَّنا، ويحرِّم الخمر؛ وبه صدُّوا الأعشى الشاعر عن الإسلام^(٢).

وقد فاوضتُ غير واحدٍ من أهل الكتاب في الإسلام وصحَّته، فكان
آخر ما كلَّمني به أحدهم: أنا لا أتركُ الخمر، وأشربُها آمنًا^(٣)، فإذا أسلمتُ
حلَّتُم بيني وبينها وجلدتموني على شربها.

وقال آخر منهم - بعد أن عرف ما قلتُ له -: لي أقاربُ أربابُ أموالٍ
وإني إن أسلمتُ لم يصل إليَّ منها شيء، وأنا أوْمُلُ أن أرثهم. أو كما قال^(٤).

ولا ريب أن هذا القَدَر في نفوس خلقٍ كثيرٍ من الكفار، فتتفَقُّ قوةُ داعي
الشهوة والمال، وضعفُ داعي الإيمان، فيجيبُ داعي الشهوة والمال،

(١) انظر: «هداية الحيارى» (٢٧، ٣٨، ٣٩).

(٢) أورد القصة ابنُ هشام في «السيرة» (٣٩٧/١) ضمن الأحداث التي وقعت بمكة قبل
الهجرة، فتعقَّبهُ السُّهيلي في «الروض الأنف» (٣/٣٧٨)، وابنُ كثير في «البداية
والنهاية» (٤/٢٥٤) بأنَّ تحريم الخمر إنما كان بالمدينة. فالظاهرُ أن قدوم الأعشى
كان بعد الهجرة، وفي قصيدته التي مدح فيها النبي ﷺ ما يدلُّ على ذلك. وانظر
تعليق د. محمد محمد حسين في تحقيقه لديوانه (١٣٤)، ومقال «قصيدة الأعشى
في مدح الرسول الكريم وأخبارها» لياسين يوسف عايش في مجلة مجمع اللغة
العربية الأردني (٥٦/٢٣/٧٣)، ومقال «وفادة الأعشى على الرسول أهي صحيحة»
لعبد العزيز المانع في مجلة معهد المخطوطات (٢٨/١/٢٤١).

(٣) كذا في الأصول. أي: أشربها الآن وأنا آمنٌ من العقوبة.

(٤) انظر: «أحكام أهل الذمة» (٨٥٥).

ويقول: لا أرغبُ بنفسِي عن آبائي وسلفي.

السببُ السادس: محبةُ الأهل والأقارب والعشيرة؛ يرى أنه إذا اتبعَ الحقَّ وخالفهم أبعدوه وطردوه عنهم وأخرجوه من بين أظهرهم. وهذا سببٌ بقاء خلقٍ كثيرٍ على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم.

السببُ السابع: محبةُ الدار والوطن، وإن لم يكن له بها عشيرةٌ ولا أقارب، لكن يرى أنَّ في متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه إلى دار الغربة والنوى، فيضنُّ بوطنه وداره.

السببُ الثامن: تخيُّله أنَّ في الإسلام ومتابعة الرسول إزراءً وطعنًا منه على آبائه وأجداده وذمًّا لهم، وهذا هو الذي منع أبا طالبٍ وأمثاله عن الإسلام؛ استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال وأن يختاروا خلافَ ما اختار أولئك لأنفسهم، ورأوا أنهم إن أسلموا سفَّهوا أحلامَ أولئك، وضلَّلوا عقولهم، ورموهم بأقبح القبائح وهو الكفر والشرك.

ولهذا قال أعداء الله لأبي طالبٍ عند الموت: أترغبُ عن ملَّة عبد المطلب؟! فكان آخرَ ما كلَّمهم به: «هو على ملَّة عبد المطلب»^(١). فلم يدَّعه^(٢) أعداءُ الله إلا من هذا الباب؛ لعلمهم بتعظيمه أباه عبد المطلب، وأنه إنما حاز الفخرَ والشرفَ به، فكيف يأتي أمرًا يلزم منه غايةُ تنقيصه وذمِّه؟! ولهذا قال: «لولا أن تكونَ سُبَّةً على بني عبد المطلب لأقررتُ بها عينك»^(٣)، أو كما قال.

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

(٢) الضبط من (د، ق). وفي (ت): «تدعه».

(٣) أخرجه مسلم (٢٥).

وهذا شعره يصرِّح فيه بأنه قد علمَ وتحقَّق نبوَّة محمدٍ ﷺ وصدقَه؛
كقوله:

ولقد علمتُ بأنَّ دينَ محمدٍ من خَيْرِ أديان البريَّة ديننا
لولا الملامةُ أو حِذارُ مَسَبَّةٍ لوجدتني سَمَحًا بذاك مُبيناً^(١)
وفي قصيدته اللامية^(٢):

فوالله لولا أن تكونَ مَسَبَّةٌ تُجَرُّ على أشياخنا في المحافلِ
لكنَّا اتَّبَعْنَاهُ على كُلِّ حالَةٍ من الدَّهرِ جدًّا غير قولِ التَّهَاضِلِ
لقد عَلِمُوا أنَّ أبْنَانَا لا مُكْذَبٌ لدينا ولا يُعْنَى بقولِ الأباطِلِ
والمَسَبَّةُ التي زعم أنها تُجَرُّ على أشياخه شهادته عليهم بالكفر
والضلال وتسفيه الأحلام وتضليل العقول؛ فهذا هو الذي منعه من الإسلام
بعد تيقُّنه.

السببُ التاسع: متابعة من يعاديه من الناس للرسول، وسبقه إلى
الدخول في دينه، وتخصُّصه^(٣) وقربه منه.

(١) «ديوان أبي طالب» صنعة أبي هفان وعلي بن حمزة (٨٧، ١٨٩)، و«سيرة ابن
إسحاق» (١٣٦)، و«خزانة الأدب» (٢٩٦/٣)، وغيرها.

(٢) «ديوان أبي طالب» (٨٤، ١٩٨). وهي قصيدةٌ باذخةٌ نبيلة، إلا أنَّ الناس زادوا فيها،
وبعض أهل العلم بالشعر ينكرُ أكثرها. انظر: «السيرة» لابن هشام (٢٨٣/١)،
و«طبقات فحول الشعراء» (٢٤٤)، و«شرح نهج البلاغة» (٧٨/١٤)، و«البداية
والنهاية» (١٤٢/٤).

(٣) (ح): «وتخصيصه».

وهذا القَدْرُ منع خلقًا كثيرًا من اتباع الهدى؛ يكون للرجل عدوٌّ يُبْغِضُ مكانه، ولا يحبُّ أرضًا يمشي عليها، ويقصدُ مخالفتَه ومناقضتَه، فيراه قد أتبع الحقَّ، فيحملُه قصدُ مناقضته ومعاداته على معاداة الحقِّ وأهله، وإن كان لا عداوةَ بينه وبينهم.

وهذا كما جرى لليهود مع الأنصار؛ فإنهم كانوا أعداءهم، وكانوا يتواعدونهم^(١) بخروج النبي ﷺ، وأنهم يتبعونه ويقاتلونهم معه^(٢)، فلمَّا بدَرهم إليه الأنصارُ وأسلموا حملهم معاداتهم على البقاء على كفرهم ويهوديتهم.

السببُ العاشر: مانعُ الإلفِ والعادة والمنشأ؛ فإنَّ العادةَ قد تقوى حتى تغلبَ حكمَ الطبيعة، ولهذا قيل: «هي طبيعةٌ ثانية»^(٣)؛ فيزبى الرجلُ على المقالة ويُنشأ عليها صغيرًا، فيتربى قلبه ونفسه عليها كما يتربى لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد، ولا يعقلُ نفسه إلا عليها، ثم يأتيه العلمُ وهلةٌ واحدةٌ يريدُ إزالتها وإخراجها من قلبه وأن يسكنَ موضعها، فيعسرُ عليه الانتقال، ويصعبُ عليه الزوال.

وهذا السببُ وإن كان أضعفَ الأسبابِ منعًا^(٤) فهو أغلبُها على الأمم وأرباب المقالات والنحل، ليس مع أكثرهم - بل جميعهم، إلا ما عسى أن

(١) (ح): «يتواعدونهم». وسيأتي التعليق على استعمال «تواعد» بمعنى «توعد».

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٣٣٢ - ٣٣٧).

(٣) من مقالات الحكماء. وتُنسَبُ لبقراط. انظر: «عيون الأخبار» (٣/ ١٥٧)، و«الهوامل والشوامل» (١٧١)، و«العقد» (٦/ ٣١٣).

(٤) (ق، ن): «معنا». تحريف.

يشدّ - إلا عادةً ومَرْبًى تربّى عليها طفلًا، لا يعرف غيرها ولا يحسّ به؛ فدينُ العوائد هو الغالبُ على أكثر الناس، فالانتقالُ عنه كالانتقال عن الطبيعة إلى طبيعة ثانية.

فصلواتُ الله وسلامه على أنبيائه ورسله، خصوصًا على خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ؛ كيف غيروا عوائد الأمم الباطلة، ونقلوهم إلى الإيمان، حتى استحدثوا به طبيعة ثانية خرجوا بها عن عاداتهم وطبيعتهم الفاسدة. ولا يعلم مشقة هذا على النفوس إلا من زاوَل نقلَ رجلٍ واحدٍ عن دينه ومقاتلته إلى الحق؛ فجزى الله المرسلين أفضل ما جازى به أحدًا من العالمين.

إذا عُرِفَ أن المقتضي نوعان؛ فالهدى المقتضي وحده لا يوجب الاهتداء، والهدى التامُّ يوجب الاهتداء.

فالأول: هدى البيان والدلالة والتعليم، ولهذا يقال: هُديَ فما أهتدى.
والثاني: هدى البيان والدلالة، مع إعطاء التوفيق، وخلق الإرادة؛ فهذا الهدى الذي يستلزم الاهتداء، ولا يتخلّف عنه موجب، فمتى وُجد السبب وأنفتحت الموانع لزم وجود حكمه.

وها هنا دقيقةٌ بها يفصل النزاع؛ وهو أنه: هل ينعطف من قيام المانع وعدم الشرط على المقتضي أمرٌ يُضعفه في نفسه ويسلبه اقتضاءه وقوّته، أو اقتضاؤه بحاله وإنما غلب المانع فكان التأثير له؟

ومثال ذلك في مسألتنا: أنه بوجود هذه الموانع المذكورة أو بعضها، هل يَضَعُفُ العلمُ أو يُعَدُّمُ حتى لا يصير مؤثّرًا البتة، أو العلمُ بحاله ولكن المانع بقوّته غلب فكان الحكم له؟

هذا سرُّ المسألة وفقهها.

فأمَّا الأول فلا شك فيه، ولكنَّ الشأن في القسم الثاني - وهو بقاء العلم بحاله -، والتحقيق أنَّ الموانع تحجبُه وتُعمِّيهِ، وربما قلبت حقيقته من القلب.

والقرآن قد دلَّ على هذا؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِلَمْ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]؛ فعاقبهم سبحانه بإزاغة قلوبهم عن الحقِّ لمَّا زاغوا عنه ابتداءً.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَنذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ولهذا قيل: «من عُرِضَ عليه حقُّ فردّه ولم يقبله عُوِّبَ بفساد قلبه وعقله ورأيه».

ومن هنا قيل: «لا رأي لصاحب هوى»^(١)؛ فإنَّ هواه يحمله على ردِّ الحقِّ، فيُفسدُ الله عليه رأيه وعقله.

وقال الله تعالى: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مَيِّشَقُهُمْ وَكُفِّرِهِمْ بَيَّأَتِ اللَّهُ وَقَلْبُهُمُ الْآلِئَاءُ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]؛ أخبر سبحانه أنَّ كفرهم بالحقِّ بعد أن علموه كان سببًا لطبع الله على قلوبهم حتى صارت غُلْفًا، والغُلْفُ: جمعُ أغْلَفٍ، وهو القلبُ الذي قد غَشِيَهُ غِلافٌ،

(١) انظر: «الفاضل» للمبرد (١٢٣).

كالسَّيف الذي في غِلافه، وكلُّ شيءٍ في غِلافٍ فهو أغلف، وجمعه غُلْف، يقال: سيفٌ أغلف، وقوسٌ غُلْفاء، ورجلٌ أغلف وأقلَف: إذا لم يَخْتَن. والمعنى: قلوبنا عليها غشاوةٌ وغطاء، فلا تفقه ما تقولُ يا محمد - ﷺ -.

ولم يصنع شيئاً من قال: «إنَّ المعنى» أنها غُلْفٌ للعلم والحكمة، أي: أوعيةٌ لها، فلا نحتاجُ إلى قولك ولا نقبله، أستغناء بما عندهم^(١)؛ لوجهه^(٢).

أحدها: أَنَّ «غُلْفٌ» جمعُ أغلف، كقُلْف وأقلَف، وحُمُر وأحمر، وجُرْد وأجرَد، وغُلْب وأغْلَب، ونظائره. والأغلفُ من القلوب هو الداخلُ في الغلاف. هذا هو المعروف من اللغة.

الثاني: أنه ليس من الاستعمال السائغ المشهور أن يقال: «قلبُ فلانٍ غلافٌ لكذا»، وهذا لا يكادُ يوجدُ في شيءٍ من نثر كلامهم ولا نظمهم، ولا نظيرَ له في القرآن فيُحْمَلُ عليه، ولا هو من التشبيه البديع المُسْتَحْسَن؛ فلا يجوزُ حملُ الآية عليه.

الثالث: أَنَّ نظيرَ قول هؤلاء قولُ الآخرين من الكفار: «قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ» [فصلت: ٥]، والأكنةُ هنا: هي الغُلْفُ التي قلوبُ هؤلاء فيها، والأكنةُ كالأوعية والأغطية التي تغطِّي المتاع، ومنه «الكِنانة» لغلاف السَّهام.

(١) رُوي هذا عن ابن عباس من وجهٍ لا يثبت، وعن عطية العوفي. انظر: «تفسير الطبري» (٣٧٣/٢).

(٢) انظر: «شفاء العليل» (٢٩٥ - ٢٩٦).

الرابع: أن سياق الآية لا يحسن مع المعنى الذي ذكروه، ولا يحسن مقابله بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾، وإنما يحسن مع هذا المعنى أن يُسلَب عنهم العلم والحكمة التي أدّعوها؛ كما قيل لهم لما أدّعوا ذلك: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، وأما هنا فلما أدّعوا أن قلوبهم في أغشية وأغشية لا تفقه قوله، قوبلوا بأن عرفهم أن كفرهم ونقضهم ميثاقهم وقتلهم الأنبياء كان سبباً لأن طُبِعَ على قلوبهم.

ولا ريب أن القلب إذا طُبِعَ عليه أظلمت صورة العلم فيه وانطمست، وربما ذهب أثرها، حتى يصير السبب الذي يهتدي به المهتدون سبباً لضلال هذا؛ كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (١٦) الَّذِينَ يَفْضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿[البقرة: ٢٦ - ٢٧]؛ فأخبر تعالى أن القرآن سبب لضلال هذا الصنف من الناس، وهو هُداة الذي هدى به رسوله وعباده المؤمنين.

ولهذا أخبر سبحانه أنه إنما يهدي به من أتبع رضوان الله (١).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ آتَيْنَاكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿[التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

(١) كما في سورة المائدة، الآية: ١٦.

ولا شيء أعظمُ فسادًا لمحلِّ العلم من صيرورته بحيث يضلُّ بما
يُهدى به، فنسبته إلى الهدى والعلم نسبة الفم الذي قد استحكمت فيه
المرارة إلى الماء العذب؛ كما قيل:

ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ يَجِدُ مُرَّابه الماءَ الزُّلالاً^(١)
فإذا فسد القلبُ فسد إدراكُه، وإذا فسد الفمُ فسد إدراكُه، وكذلك إذا
فسدت العين.

وأهل المعرفة من الصَّيارفة يقولون: «إنَّ من خانَ في نقده نسي النَّقدَ
وسُلبه، فاشتبه عليه الخالصُ بالزَّغل»^(٢).

ومن كلام بعض السلف: «العلمُ يَهْتَفُ بالعمل، فإن أجابه حلَّ وإلا
أرتحل»^(٣).

وقال بعضُ السلف: «كنَّا نستعينُ على حفظ العلم بالعمل به»^(٤).

فترك العمل بالعلم من أقوى الأسباب في ذهابه ونسيانه.

وأيضًا؛ فإنَّ العلمَ يراؤدُّ للعمل؛ فإنه بمنزلة الدليل للسائر، فإذا لم يسرْ

(١) البيت للمتنبي في ديوانه (١٣٠).

(٢) انظر: «روضة المحبين» (٥٣١).

(٣) أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (٤٠، ٤١) عن علي رضي الله عنه،
ومحمد بن المنكدر.

(٤) أخرجه أبو زرعة الدمشقي في «التاريخ» (١/٣١١)، والبيهقي في «شعب الإيمان»
(٤/٤٢١، ٤٥٩)، والخطيب في «الجامع» (٢/٣٨٨)، و«اقتضاء العلم العمل»
(١٤٩)، وغيرهم عن إبراهيم بن إسماعيل بن مجمع الأنصاري.

خلف الدليل لم ينتفع بدلالته، فنزل منزلة من لم يعلم شيئاً؛ لأن من علم ولم يعمل بمنزلة الجاهل الذي لا يعلم، كما أن من ملك ذهباً وفضةً وجاع وعري ولم يشتتر منها ما يأكل ويلبس فهو بمنزلة الفقير العادم؛ كما قيل:

ومن ترك الإنفاق عند احتياجه مخافةً فقيرٍ فالذي فعل الفقر^(١)

والعربُ تسمي الفُحْشَ والبذاء: جهلاً؛ إما لكونه ثمرة الجهل فيسمى باسم سببه وموجه، وإما لأن الجهل يقال في جانب العلم والعمل؛ قال الشاعر^(٢):

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومن هذا قول موسى لقومه وقد قالوا: ﴿أَتُخَذُ نَاهِرُؤَا﴾: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]؛ فجعل الاستهزاء بالمؤمنين جهلاً.

ومنه قوله تعالى حكايةً عن يوسف أنه قال: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْنَ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، ليس المراد به إعراضه عمن لا علم عنده فلا يعلمه ولا يرشده، وإنما المراد إعراضه عن جهل من جهل عليه منهم فلا يقابله ولا يعاتبه.

(١) لم أجده. وهو محوّر عن بيت المتنبي المشهور:

ومن يُنفق الساعاتِ في جمع ماله مخافةً فقيرٍ، فالذي فعل الفقر

(٢) عمرو بن كلثوم، في «ديوانه» (٣٣٠)، من معلقته. وهذا البيت أخرها في رواية أكثر الناس. انظر: «شرح القصائد السبع الطوال» لابن الأنباري (٤٢٦).

قال مقاتل وعروة والضَّحَاك وغيرهم: «صُنْ نَفْسَكَ عَنْ مَقَابِلَتِهِمْ عَلَى سَفَهِهِمْ»^(١).

وهذا كثيرٌ في كلامهم.

ومنه الحديث: «إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَصْحَبْ وَلَا يَجْهَلْ»^(٢).

ومن هذا تسميةُ المعصية: جهلاً؛ قال قتادة: «أَجْمَعَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنَّ كُلَّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَهُوَ جَاهِلٌ»^(٣)، وليس المرادُ أنه جاهلٌ بالتحريم؛ إذ لو كان جاهلاً به لم يكن عاصياً، ولا يترتبُ الحدُّ في الدنيا والعقوبةُ في الآخرة على جاهلٍ بالتحريم، بل نفسُ الذنبِ يسمَّى جهلاً وإنْ علمَ مرتكبُه بتحريمه؛ إما لأنه لا يصدرُ إلا عن ضعف العلم ونقصانه، وذلك جهلٌ؛ فسميَ باسمِ سببه، وإما تنزيلاً لفاعله منزلةَ الجاهل به.

الثاني^(٤): أنهم لمَّا ردُّوا الحقَّ ورغبوا عنه عُوِّبُوا بالطَّبع والرَّين وسلبَ العقل والفهم؛ كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَغِيَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

الثالث: أنَّ العلمَ الذي يُنتَفَعُ به ويستلزمُ النجاةَ والفلاحَ لم يكن حاصلاً

(١) وهذا أولى من تفسير «الجاهلين» بالمشرِّكين، ثم دعوى أن الآية منسوخةُ بآية

السيف. انظر: «نواسخ القرآن» لمكي (٢٥٣)، ولابن الجوزي (٤٠٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٩٤)، ومسلم (١١٥١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تقدم تخريجه (ص: ٢٤٩).

(٤) هذا استئنافٌ لذكر الأدلة على أن الموانع تحجبُ العلمَ وتُعَمِّيهِ. وقد ابتدأها

المصنف (ص: ٢٧٢).

لهم، فسَلَبَ عنهم حقيقته، والشَّيْءُ قد ينتفي لنفي ثمرته والمراد منه؛ قال تعالى في ساكن النار: ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤]، نفى الحياة لاتنفاء فائدتها والمراد منها. ويقولون: «لا مال إلا ما أنفق، ولا علم إلا ما نفع»^(١).

ولهذا نفى سبحانه عن الكفار الأسماع والأبصار والعقول لما لم ينتفعوا بها؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولمَّا لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الحواس كانوا بمنزلة فاقيدها؛ قال تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

فالقلب يوصف بالبصر والعمى، والسمع والصمم، والنطق والبكم، بل هذه له أصلاً وللعين والأذن واللسان تبعاً، فإذا عَدِمَهَا القلبُ^(٢) فصاحبه أعمى مفتوح العين، أصم ولا آفة بأذنه، أبكم وإن كان فصيح اللسان؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فلا تنافي بين قيام الحجّة بالعلم، وبين سلبه ونفيه بالطبع^(٣) والختم والقفل على قلوب من لم يعمل بموجب الحجّة وينقاد لها.

(١) انظر: «المستصفى» (٢/ ٣٢).

(٢) (ح): «فقدتها القلب».

(٣) (د، ت، ح، ن): «والطبع».

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بَآخِرَةَ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (١٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوَّا عَلَى أَذْنَبِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥ - ٤٦]؛ فأخبر سبحانه بأنه مَنَعَهُمْ فقهَ كلامه، وهو الإدراك الذي ينتفع به من فقهه، ولم يكن ذلك مانعاً لهم من الإدراك الذي تقوم به الحجّة عليهم؛ فإنهم لو لم يفهموه جملةً ما وَلَّوْا على أدبارهم نفوراً عند ذكر توحيد الله، فلما وَلَّوْا عند ذكر التوحيد دَلَّ على أنهم كانوا يفهمون الخطاب، وأنَّ الذي غَشِيَ قُلُوبَهُمْ كالذي غَشِيَ آذَانَهُمْ.

ومعلومٌ أنهم لم يَعْدَمُوا السمعَ جملةً ويصيروا كالأصمِّ، ولذلك ينفي سبحانه عنهم السمع تارةً، ويثبتُه أخرى:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، ومعلومٌ أنهم قد سمعوا القرآن، وأَمَرَ الرسولُ بإسماعهم إياه. وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]؛ فهذا السمعُ المنفيُّ عنهم سمعُ الفهم والفقه، والمعنى: ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم سمعاً ينتفعون به، وهو فقهُ المعنى وعَقْلُهُ، وإلا فقد سمعوه سمعاً تقوم به عليهم الحجّة، ولكن لما سمعوه مع شدّة بغضه وكرهته ونُفَرَّتْهُمْ عنه لم يفهموه ولم يعقلوه.

والرجلُ إذا أَشْتَدَّتْ كراهتُهُ للكلام ونُفَرَّتْ عَنْهُ لم يفهم ما يراذبه، فَيَنْزِلُ منزلة من لم يسمعه، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، نفى عنهم أَسْطَاعَةَ السمع مع صحّة حواسِّهم

وسلامتها، وإنما لَقَرَطِ بُغْضِهِمْ ونُفَرَّتْهُمْ عنه وعن كلامه صاروا بمنزلة من لا يستطيع أن يسمعه ولا يراه، وهذا استعمالٌ معروفٌ للخاصة والعامة، يقولون: «لا أطيعُ أنظرُ إلى فلان، ولا أستطيعُ أسمعُ كلامه» مِنْ بُغْضِهِ ونُفَرَّتْهُ عنه.

وبعضُ الجبرية يحتجُّ بهذه الآية وشبهها على مذهبهم، ولا دلالة فيها؛ إذ ليس المرادُ سلبُهم السمعَ والبصرَ الذي تقومُ به الحجةُ قطعاً، وإنما المرادُ سلبُ السمع الذي يترتبُ عليه فائدته وثمرته. والقدرُ حقٌّ، ولكن الواجبُ تنزيلُ القرآنِ منازلَه، ووضعُ الآياتِ مواضعها^(١)، وأتباعُ الحقِّ حيث كان.

ومثلُ هذا إذا لم يحصل له فهمُ الخطاب لا يُعذَرُ بذلك؛ فإنَّ الآفةَ منه، وهو بمنزلة من سَدَّ أذنيه عند^(٢) الخطاب فلم يسمعه، فلا يكونُ ذلك عذراً له.

ومن هذا قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءِ أَذَانِنَا وَقُرُّ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]، يعنون أنهم في تركِ القبولِ منه ومحبة الاستماع لما جاء به، وإيثار الإعراض عنه، وشدة النِّفار عنه، بمنزلة من لا يعقله ولا يسمعه، ولا يُبْصِرُ المخاطَبَ لهم به؛ فهذا هو الذي يقولون لأجله في النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، ولهذا جعل ذلك مقدوراً لهم وذنباً اكتسبوه، فقال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

(١) (ت، د، ح، ن): «على مواضعها».

(٢) (ح): «عن».

والله تعالى تارة ينفي عن هؤلاء العقل والسمع والبصر — فإنها مدارك العلم وأسباب حصوله —، وتارة ينفي عنهم السمع والعقل، وتارة ينفي عنهم السمع والبصر، وتارة ينفي عنهم العقل والبصر، وتارة ينفي عنهم السمع وحده (١).

فنفي الثلاثة نفى لمدارك العلم بطريق المطابقة، ونفي بعضها نفى له بالمطابقة وللآخر باللزوم؛ فإن القلب إذا فسد فسد السمع والبصر، بل أصل فسادهما من فساد، وإذا فسد السمع والبصر فسد القلب، فإذا أعرض عن سماع الحق وأبغض قائله بحيث لا يحب رؤيته أمتنع وصول الهدى إلى القلب، ففسد، وإذا فسد السمع والعقل تبعهما فساد البصر، فكل مدرك (٢) من هذه يصح بصحة الآخر، ويفسد بفساده؛ فلهذا يجيء في القرآن نفى ذلك صريحاً ولزوماً.

وبهذا التفصيل يُعلم اتفاق الأدلة من الجانبين.

وفي استدلال الطائفة الثانية بقوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ ونظائرها نظر؛ فإن الله تعالى حيث قال: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ لم يكونوا إلا ممدوحين مؤمنين، وإذا أراد ذمهم والإخبار عنهم بالعناد وإيثار الضلال أتى بلفظ: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ مبنياً للمفعول (٣).

* فالأول، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (٤)

(١) اضطربت الأصول في ذكر التارات، والمثبت من (د).

(٢) بضم الميم. انظر تحرير ذلك في «المصباح المنير» (درك).

(٣) (ح): «المجهول». وانظر لهذا المعنى: «بدائع الفوائد» (٧٢٥).

وَإِذَا يُنْزَلُ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ؕ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٢﴾ أَوَلَيْكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴿٥٤﴾ الْآيَات [القصص: ٥٢ - ٥٤].

وكقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٤]، فهذا في سياق مدحهم والاستشهاد بهم، ليس في سياق ذمهم والإخبار بعنادهم وجحودهم، كما أستشهد بهم^(١) في قوله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٤٣]، وفي قوله: ﴿ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ؕ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ؕ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ ؕ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢١].

واختلف في الضمير في قوله: ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾:

فقليل: هو ضمير للكتاب^(٢) الذي أوتوه.

قال ابن مسعود^(٣): «يُحِلُّونَ حلاله، ويحرِّمونَ حرامه، ويقرؤونه كما أنزل، ولا يحرفونه عن مواضعه»^(٤).

(١) (ح): «استشهدهم».

(٢) (ت، ن): «ضمير الكتاب».

(٣) (ت): «ابن عباس». وأخرجه عنه الطبري (٢/٥٦٦)، وصححه الحاكم (٢/٢٦٦) ولم يتعقبه الذهبي.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (١/٥٦)، ومن طريقه الطبري (٢/٥٦٧).

قالوا: ونزلت في مؤمني أهل الكتاب.

وقيل: هذا وصفٌ للمسلمين، والضميرُ في ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ للكتاب الذي هو القرآن^(١).

وهذا بعيد؛ إذ عُرِفَ القرآنُ ياباه.

ولا يَرُدُّ على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، بل هذا حجةٌ لنا أيضًا، لِمَا ذكرنا، فإنه أخبر في الأول عن معرفتهم برسوله ﷺ، ودينه وقبلته كما يعرفون أبناءهم، استشهادًا بهم على من كفر، وثناءً عليهم، ولهذا ذكر المفسِّرون أنهم عبد الله بن سلام وأصحابه^(٢)، وخَصَّ في آخر الآية بالذِّمِّ طائفةً منهم؛ فدلَّ على أنَّ الأولين غيرُ مذمومين، وكونُهُم دخلوا في جملة الأولين بلفظِ المضمر لا يوجبُ أن يقال: ﴿ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ عند الإطلاق، فإنهم دخلوا في هذا اللفظِ ضَمَنًا وتبعًا، فلا يلزمُ تناوُلُهُ لهم قصدًا واختيارًا.

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿أَيُّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾^(٣) الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ.

قيل^(٣): الرسولُ وصِدْقُهُ.

(١) أخرجه الطبري (٢/ ٥٦٤) عن قتادة.

(٢) انظر: «الدر المشثور» (١/ ١٤٧).

(٣) أي في ضمير ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾.

وقيل: المذكور، وهو التوحيد.

والقولان متلازمان؛ إذ ذلك في معرض الاستشهاد والاحتجاج على المشركين، لا في معرض ذم الذين آتاهم الكتاب؛ فإن السورة مكية، والاحتجاج كان فيها مع أهل الشرك، والسياق يدل على الاحتجاج لا ذم المذكورين من أهل الكتاب.

* وأما الثاني، فكقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٤) وَلَيْنَ آتَيْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴿[البقرة: ١٤٤ - ١٤٥]؛ فهذا شهادته سبحانه للذين أوتوا الكتاب، والأول شهادته للذين آتاهم الكتاب بأنهم مؤمنون.

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ [النساء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وهذا خطاب لمن لم يسلم منهم، وإلا فلم يؤمر ﷺ أن يقول هذا لمن أسلم منهم وصدق به.

ولهذا لا يذكر سبحانه الذين أوتوا نصيباً من الكتاب إلا بالذم أيضاً، كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] الآية، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: ٢٣].

فالأقسام أربعة:

* ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾، وهذا لا يذكره سبحانه إلا في معرض المدح.

* ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ لا يكون قط إلا في معرض الذم.

* ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أعم منه، فإنه قد يتناولهما، ولكن لا يُفرد به الممدوحون قط^(١).

* ﴿يَتَّاهِلَ الْكَتِبِ﴾ يَعُمُّ الجنس كله، ويتناول الممدوح منه والمذموم، كقوله: ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿ الآية [آل عمران: ١١٣-١١٤]، وقال في الذم: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١].

وهذا الفصل يُنتَفَعُ به جدًا في أكثر^(٢) مسائل أصول الإسلام، وهي مسألة الإيمان واختلاف أهل القبلة فيه، وقد ذكرنا فيه نُكْتًا حَسَنًا يتضح بها الحق في المسألة، والله أعلم.

الوجه الثاني والثمانون: أن الله سبحانه وتعالى فَاوَتْ بين النوع الإنسانيَّ أعظمَ تفاوتٍ يكونُ بين المخلوقين، فلا يُعرَفُ أَثنان من نوعٍ واحدٍ بينهما من التفاوت ما بين خير البشر وشرهم.

(١) (ح، ن): «فقط». وهي قط، والفاء زائدة.

(٢) كذا في الأصول. ولعل الصواب: «أكبر».

والله سبحانه خَلَقَ الملائكةَ عقولاً بلا شهوات، وَخَلَقَ الحيوانات ذوات شهواتٍ بلا عقول، وَخَلَقَ الإنسانَ مركَّباً من عقلٍ وشهوة؛ فمن غلبَ عقلُه شهوته كان خيراً من الملائكة، ومن غلبَتْ شهوته عقله كان شراً من الحيوانات^(١).

وفاوت سبحانه بينهم في العلم؛ فجعلَ عالمهم معلّم الملائكة، كما قال تعالى: ﴿يَتَكَادُمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، وتلك مرتبةٌ لا مرتبةً فوقها، وجعلَ جاهلهم بحيث لا يرضى الشيطانُ به ولا يَصْلُحُ له، كما قال الشيطانُ لجاهلهم الذي أطاعه في الكفر: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ [الحشر: ١٦]، وقال لجهلهم الذين عصوا رسوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فَلِلَّهِ ما أشدَّ هذا التفاوت بين شخصين، أحدهما: تسجدُ له الملائكةُ ويعلمها مما علّمه الله، والآخر: لا يرضى الشيطانُ به ولياً!

وهذا التفاوتُ العظيمُ إنما حصلَ بالعلم وثمرته، ولو لم يكن في العلم إلا القربُ من ربِّ العالمين، والالتحاقُ بعالم الملائكة، وصحبةُ الملائكة الأعلى؛ لكفى به فضلاً وشرفاً، فكيف وعزُّ الدنيا والآخرة منوطٌ به ومشروطٌ بحصوله؟!

الوجه الثالث والثمانون: أنَّ أشرفَ ما في الإنسان محلُّ العلم منه، وهو قلبُه وسمعه وبصرُه.

(١) انظر: «التمثيل والمحاضرة» (١٧٢)، و«أدب الدنيا والدين» (٢٨)، و«سراج الملوك» (٢٧٥)، و«البدء والتاريخ» (١/ ١٨٠)، و«مجموع الفتاوى» (٤/ ٣٥١، ١٥/ ٤٢٨)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٣٥٢)، و«عدة الصابرين» (٣٧).

ولمّا كان القلبُ هو محلُّ العلم، والسمعُ رسولُه الذي يأتيه به، والعينُ طليعته؛ كان مَلِكًا على سائر الأعضاء، يأمرُها فتأتمرُ لأمره، ويصرُفُها فتتقأُ له طائعة، بما خَصَّ به من العلم دونها، فلذلك كان مَلِكُها والمطاع فيها. وهكذا العالمُ في الناس كالقلب في الأعضاء.

ولمّا كان صلاحُ الأعضاء بصلاح مَلِكِها ومطاعها، وفسادُها بفسادها؛ كانت هذه حال الناس مع علمائهم وملوكهم، كما قال بعض السلف: «صنفان إذا صلحا صلحَ الناس^(١)، وإذا فسدا فسدَ الناس: العلماء والأمراء»^(٢).

قال عبد الله بن المبارك:

وهل أفسدَ الدِّينَ إلا المُلوكُ وأجبارُ سوءٍ ورهبائُها^(٣)

ولمّا كان للسمع والبصر من الإدراك ما ليس لغيرهما من الأعضاء كانا في أشرف جزءٍ من الإنسان وهو وجهه، وكانا من أفضل ما في الإنسان من الأجزاء والأعضاء والمنافع.

(١) (ق): «سائر الناس». في الموضعين.

(٢) أخرجه بنحوه أبو نعيم في «الحلية» (٥ / ٧) عن سفيان الثوري.

ورُوي بلفظه مرفوعاً من حديث ابن عباس، أخرجه تمام في «الفوائد» (٣ / ١٠٢ - الروض)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤ / ٩٦)، وابن عبد البر في «الجامع» (١ / ٦٤١) بإسنادٍ شديد الضعف.

وانظر: «المغني عن حمل الأسفار» (١ / ١٣)، و«الضعيفة» (١٦).

(٣) من أبياتٍ مشهورة تروى عنه، في «الحلية» (٨ / ٢٧٩)، و«شعب الإيمان» (٦٩١٨)، ومعجم ابن المقرئ (١٢٠٥)، و«جامع بيان العلم» (١ / ٦٣٨)، وغيرها.

واختلفَ الناسُ في الأفضلَ منهما^(١):

* فقالت طائفة، منهم أبو المعالي^(٢) وغيره: السمعُ أفضل.

قالوا: لأنَّ به تنالُ سعادةُ الدنيا والآخرة، فإنها إنما تحصلُ بمتابعة الرسل، وقبول رسالاتهم، وبالسمع عُرِفَ ذلك؛ فإنَّ من لا سمعَ له لا يعلمُ ما جاءوا به.

وأيضاً؛ فإنَّ السمعَ يُدركُ به أجلُّ شيءٍ وأفضله، وهو كلامُ الله تعالى الذي فضله على الكلام كفضل الله على خلقه.

وأيضاً؛ فإنَّ العلومَ إنما تنالُ بالتفاهم والتخاطب، ولا يحصلُ ذلك إلا بالسمع.

وأيضاً؛ فإنَّ مُدركه أعمُّ من مُدركِ البصر؛ فإنَّه يدركُ الكلِّيات والجزئيات والشاهدَ والغائبَ والموجودَ والمعدومَ، والبصرُ لا يدركُ إلا بعض المشاهدات، والسمعُ يسمعُ كلَّ علم؛ فأين أحدهما من الآخر؟!

(١) انظر: «الصواعق المرسلة» (٨٧٣)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٤٠٩)، و«الصناعتين» لأبي هلال (٤٢٣)، و«تفسير الرازي» (١/ ٥٣، ١٧/ ١٠١)، و«تفسير القرطبي» (١/ ١٨٩)، و«اللباب» لابن عادل (١/ ٣٢٦)، و«روح المعاني» (١/ ١٣٨)، و«الحاوي» (١٢/ ٢٤٤)، و«حاشية البجيرمي على الخطيب» (٤/ ٥٣٧)، و«الذخيرة» للقرافي (٣/ ٣٧٨)، و«حاشية قرة عيون الأخبار» تكملة «رد المحتار» (٧/ ١٢٨)، و«نكت الهميان» (١٧)، و«تسلياة الأعمى عن بلية العمى» للقاري (٥٧)، والمصادر الآتية في التعليقات.

ولكمال الدين البكري (ت: ١١٩٦): «تشنيف السمع في تفضيل البصر على السمع» كما في ترجمته من «سلك الدرر» (٤/ ١٩).

(٢) الجويني. انظر: «البرهان» (١/ ١٣٤).

ولو فرضنا شخصين: أحدهما يسمعُ كلام الرسول ولا يرى شخصه،
والآخر بصيرٌ يراه ولا يسمعُ كلامه لصممه، هل كانا سواء؟!

وأيضاً؛ ففاقدُ البصر إنما يفقدُ إدراكَ بعض الأمور الجزئية المشاهدة،
ويمكنه معرفتها بالصفة ولو تقريباً، وأمّا فاقدُ السمع فالذي فاتته من العلم لا
يمكنُ حصوله بحاسة البصر ولا قريباً.

وأيضاً؛ فإنَّ ذمَّ الله تعالى للكفار بعدم السمع في القرآن أكثرُ من ذمِّهم
بعدم البصر، بل إنما يذمُّهم بعدم البصر تبعاً لعدم العقل والسمع.

وأيضاً؛ فإنَّ الذي يُورده السمعُ على القلب من العلوم لا يلحقه فيه كلالٌ
ولا سامةٌ ولا تعبٌ مع كثرته^(١) وعظمه، والذي يُورده البصرُ عليه يلحقه فيه
الكلالُ والضعفُ والنقص، وربما خشي صاحبه على ذهابه مع قلته ونزارته
بالنسبة إلى السمع.

* وقالت طائفة، منهم ابن قتيبة: بل البصرُ أفضل^(٢)؛ فإنَّ أعلى النعيم
وأفضله وأعظمه لذّة هو النظرُ إلى الله في الدار الآخرة، وهذا إنما ينالُ
بالبصر، وهذه وحدها كافيةٌ في تفضيله.

قالوا: وهو مقدّمُ القلب وطليعته ورائده، فمزلته منه أقربُ من منزلة
السمع؛ ولهذا كثيراً ما يُقرَنُ بينهما في الذكر؛ كقوله تعالى: ﴿فَاعْبَرُوا بِتَأْوِيلِ

(١) (ح): «من كثرته».

(٢) كذا ذكر المصنفُ قول ابن قتيبة، ونقله في «بدائع الفوائد» (١٢٤) عن الجويني عنه.
وهو وهم. والذي في «تأويل مشكل القرآن» (٧) - ونقله الجويني وابن تيمية
وغيرهما - هو القولُ بتفضيل السمع. ووقعت حكايته على الصواب في «بدائع
الفوائد» (١١٠٦).

الْأَبْصَرِ ﴿الحشر: ٢﴾؛ فالاعتبارُ بالقلب والبصرُ بالعين.

وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَدَّتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ولم يقل: وأسماعهم، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَرُ﴾ [النور: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ [النازعات: ٨ - ٩]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

وقال في حقِّ رسوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]، ثم قال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]، وهذا يدلُّ على شِدَّةِ الوُصْلَةِ والارتباط بين القلب والبصر، ولهذا يقرأ الإنسانُ ما في قلب الآخر مِنْ عَيْنِهِ، وهذا كثيرٌ في كلام الناس نَظْمُهُ ونثره، وهو أكثرُ من أن نذكره هنا^(١). ولَمَّا كان القلبُ أشرفَ الأعضاء كان أشدَّها ارتباطًا به أشرفُ^(٢) من غيره.

قالوا: ولهذا يَأْتِمُنُهُ القلبُ ما لا يَأْتِمُنُ السَّمْعُ عليه، بل إذا أرتاب من جهته^(٣) عَرَضَ ما يَأْتِيهِ به على البصر ليزِغِيه أم يردّه، فالبصرُ حاكمٌ عليه

(١) انظر: «روضة العقلاء» (١٩٩)، و«الوساطة بين المتنبي وخصومه» (٢٩٨)، و«الزهرة» (٤٢٢، ٤٢٥)، و«معاهد التنصيص» (١/ ١٢٩)، و«غرر الخصائص» (١/ ١٠٨).

(٢) (ق): «وأشرف». وهو تحريف.

(٣) (ح، ن): «جهة السمع».

مؤتمنٌ عليه.

قالوا: ومن هذا: الحديثُ الذي رواه أحمد في «مسنده» مرفوعاً: «ليس المُخْبِرُ كالمُعَايِن»^(١).

قالوا: ولهذا أخبر الله سبحانه موسى أن قومه أفتتنوا من بعده، وعبدوا العجل، فلم يلحقه في ذلك ما لحقه عند رؤية ذلك ومعاينته من إلقاء الألواح وكسرها؛ لقوة المعاينة^(٢) على الخبر.

قالوا: وهذا إبراهيم خليلُ الله يسألُ ربَّه أن يُريه كيف يحيي الموتى، وقد عَلِمَ ذلك بخبر الله له ولكنَّ طَلَبَ أفضلَ المنازل وهي طمأنينةُ القلب.

قالوا: ولليقين ثلاثُ مراتب:

* أولها: للسمع.

* وثانيها: للعين^(٣). وهي المسمَّاة بعين اليقين، وهي أفضلُ من المرتبة الأولى وأكمل^(٤).

(١) أخرجه أحمد (١/٢١٥، ٢٧١)، والبزار (٥٠٦٢، ٥٠٦٣، ٥١٥٥)، وغيرهما من حديث ابن عباس.

وصححه ابن حبان (٦٢١٣، ٦٢١٤)، والحاكم (٢/٣٢١) ولم يتعقبه الذهبي.
وانظر: «علل الترمذي الكبير» (٣٨٧)، و«الكامل» لابن عدي (٧/١٣٦)، و«موافقة الخبر الخبر» (٢/١٣٨)، و«المقاصد الحسنة» (٤١٥).
وروي من أوجهٍ أخرى لا تثبت.

(٢) (ق): «لفوت المعاينة».

(٣) (ح): «أولها السمع، والثاني العين».

(٤) والمرتبة الثالثة هي طمأنينة القلب الحاصلة عن مباشرة المعلوم وإدراكه إدراكاً تاماً، =

قالوا: وأيضا؛ فالبصرُ يؤدِّي إلى القلب، ويؤدِّي عنه؛ فإنَّ العينَ مرآةُ القلب، يظهرُ فيها ما يُجَنُّه من المحبة والبغض، والموالة والمعاداة، والسُّرور والحزن، وغيرها.

وأما الأذن، فلا تؤدِّي عن القلب شيئا البتَّة، وإنما مرتبُها الإيصالُ إليه حَسْب؛ فالعينُ أشدُّ تعلُّقا به.

* والصوابُ^(١) أنَّ كلاً منهما له خاصِّيَّةٌ فُضِّلَ بها على الآخر؛ فالمُدْرَكُ بالسمعِ أعمُّ وأشمل، والمُدْرَكُ بالبصرِ أتمُّ وأكمل؛ فالسمعُ له العمومُ والشمول، والبصرُ له الظهورُ والتمامُ وكمالُ الإدراك.

وأما نعيمُ أهل الجنة فشيئان:

أحدهما: النظرُ إلى الله.

والثاني: سماعُ خطابه وكلامه؛ كما رواه عبد الله بن أحمد في «السُّنَّة»^(٢) وغيره: «كَانَ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يَسْمَعُوا الْقُرْآنَ إِذَا سَمِعُوهُ مِنْ

= وهي حقُّ اليقين، والمرتبةُ الثانيةُ تؤدِّي إليها، وقد طواها المصنِّفُ لتقدُّم ذكرها. وانظر ما سيأتي (ص: ٤١٩).

(١) هذا جوابُ شيخ الإسلام ابن تيمية، كما ذكر المصنِّفُ في «مدارج السالكين» (٢/ ٤١٠)، و«بدائع الفوائد» (١٢٦، ١١٠٧). وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٦٨)، و«درء التعارض» (٧/ ٣٢٥)، و«الرد على المنطقيين» (٩٦). وذكر الصفيُّ في «نكت الهميان» (١٨) أن لشيخ الإسلام كراسةً في هذه المسألة.

(٢) (١٢٣)، والخلال في «السنة» (٦/ ٨٤، ٨٥) كلاهما عن محمد بن كعب القرظيِّ قوله.

وأخرجه الرافعي في «التدوين» (٤/ ٤٠٣) عنه عن أبي هريرة مرفوعاً بإسنادٍ ضعيف، ورفعه منكر.

الرحمن عز وجل».

ومعلوم أن سلامه عليهم وخطابه لهم ومحاضرتهم إياهم - كما في الترمذي^(١) وغيره - لا يُشبهها شيء قط، ولا يكون أطيب عندهم منها، ولهذا يذكر سبحانه في وعيد أعدائه أنه لا يكلمهم، كما يذكر احتجابه عنهم وأنهم لا يرونه، فكلامه ورؤيته أعلى نعيم أهل الجنة، والله أعلم.

الوجه الرابع والثمانون: أن الله سبحانه في القرآن يعدد على عباده من نعمه عليهم أن أعطاهم آلات العلم، فيذكر الفؤاد والسمع والأبصار، ومرة يذكر اللسان الذي يترجم عن القلب.

فقال تعالى في سورة النعم - وهي سورة النحل - التي ذكر فيها أصول النعم وفروعها ومتمماتها ومكملاتها، فعدّد نعمه فيها على عباده، وتعرّف بها إليهم، واقتضاهم شكرها^(٢)، وأخبر أنه يتمها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها، فأولها في أصول النعم، وآخرها في مكملاتها، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]؛ فذكر سبحانه نعمته عليهم بأن أخرجهم لا علم لهم، ثم أعطاهم الأسماع والأبصار والأفئدة التي نالوا بها من العلم ما نالوه، وأنه فعل بهم ذلك ليذكروها.

(١) (٢٥٤٩)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه...».

وصححه ابن حبان (٧٤٣٨)، وابن تيمية في «الفتاوى» (٤١٩/٦).

وروي من وجه آخر فيه انقطاع، وهو أصح، وبه أعلمه الدارقطني في «العلل» (٢٧٥/٧)، والحنائي في «الفوائد» (ق: ١٢/أ).

(٢) (ت): «وأوصاهم شكرها».

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا ابْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨ - ١٠]، فذكر هنا العينين اللتين ^(١) يُبْصَرُ بهما فيعلم المشاهدات، وذكر هداية النجدين، وهما طريقا الخير والشر، وفي ذلك حديث مرفوع مرسل ^(٢)، وهو قول أكثر المفسرين، ويدل عليه الآية الأخرى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

والهداية تكون بالقلب والسمع؛ فقد دخل السمع في ذلك لزوماً، وذكر اللسان والشفَتَيْنِ اللتين هما آلة التعليم، فذكر آلات العلم والتعليم، وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته ووحدانيته ونعمته التي تعرف بها إلى عباده. ولما كانت هذه الأعضاء الثلاثة هي أشرف الأعضاء وملوكها والمتصرفة فيها والحاكمة عليها، خصّها سبحانه وتعالى بالذكر في السؤال عنها؛ فقال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، فسعادة

(١) (ق، ن، ت، د): «التي». والمثبت من (ح)، وأخشى أن يكون من إصلاح الناسخ.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «التفسير» (٣/ ٣٧٤)، والطبري (٢٤/ ٤٣٨) من مرسل الحسن. وأخرجه الطبري (٢٤/ ٤٣٩) من مرسل قتادة.

وأخرجه عبد الرزاق (٣/ ٣٧٤)، والطبري (٢٤/ ٤٣٧)، والطبراني في «الكبير» (٩/ ٢٢٥)، واللالكائي في «السنة» (٩٥٦)، وغيرهم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفاً، وصححه الحاكم (٢/ ٥٢٣)، وحسنه ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٤١).

وروي من وجوه أخرى مرفوعاً وموقوفاً، فانظر: «الدر المنثور» (٦/ ٣٥٣).

الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة، وشقاوته بفسادها.

قال ابن عباس: «يسأل الله العباد فيما استعملوا هذه الثلاثة: السمع والبصر والفؤاد»^(١).

والله تعالى أعطى العبد السمع لسمع به أوامر ربه ونواهيه وعهوده، والقلب ليعقلها ويفقهها، والبصر ليرى آياته فيستدل بها على وحدانيته وربوبيته؛ فالمقصود بإعطائه هذه الآلات العلم وثمرته ومقتضاه.

الوجه الخامس والثمانون: أن أنواع السعادات التي تؤثرها النفوس ثلاثة:

* سعادة خارجية عن ذات الإنسان، بل هي مستعارة له من غيره، تزول باسترداد العارية، وهي سعادة المال والجاه وتوابعهما، فيينا المرء بها سعيد ملحوظ بالناية مرموق بالأبصار، إذ أصبح في اليوم الواحد أذل من وتد بقاع يشجج رأسه بالفهر واجي^(٢).

(١) أخرجه الطبري (٥٨٢/٢٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤٩٢/٨) من طريق علي بن أبي طلحة عنه.

(٢) هذا مثل سائر. انظر: «المستقصى» (١٩٩/١)، و«جمهرة الأمثال» (٤٦٨/١). وأصله بيت لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت، من كلمة يهجو فيها عبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص، في «الكامل» (٣٤١، ٦٢٧). قال:

وكنْتَ أَذْلَ مَنْ وَتَدَ بَقَاعٍ يَشْجُجُ رَأْسَهُ بِالْفَهْرِ وَاجِي

وهو من شواهد «الكتاب» (٥٥٥/٣)، و«شرح المفصل» (١١٤/٩)، و«شرح الشافية» (٤٩/٣)، وغيرها.

والقاع: المستوي من الأرض. ويَشْجُجُ: مبالغة من يشج. والفهر: الحجر ملء الكف. و«واجي» أصلها: «واجي»، اسم فاعل من وجأ، خفف الهمز اضطراراً.

فالسعادة والفرح بهذه كفرح الأقرع بجُمَّة أبْنِ عَمَّه، والجمالُ بها
كجمال المرء بثيابه وبزَّته، فإذا جاوز بصرك كسوته فليس وراء عبَّادان
قرية^(١).

ويحكى عن بعض العلماء أنه ركب مع تجَّارٍ في مركب، فانكسرت بهم
السفينة، فأصبحوا بعد عزِّ الغنى في ذلِّ الفقر، ووصل العالمُ إلى البلد،
فأكْرِمَ وقُصِدَ بأنواع الثُّحف والكرامات، فلمَّا أرادوا الرجوع إلى بلادهم
قالوا له: هل لك إلى قومك كتابٌ أو حاجة؟ فقال: نعم، تقولون لهم: إذا
أخذتم مالاً فاتخذوا مالاً لا يغرق إذا أنكسرت السفينة^(٢).

واجتمع رجلٌ ذو هيئةٍ حسنةٍ ولباسٍ جميلٍ ورؤاءٍ^(٣) برجلٍ عالمٍ،

(١) عبَّادان: بلدةٌ على الضَّفة الغربية لدجلة، تحت البصرة، ليس وراءها قريةٌ غير البحر
(الخليج العربي)، وهي الآن ميناءٌ كبيرٌ تنتهي فيه أنابيب النفط الإيراني. انظر:
«معجم البلدان» (عبادان)، و«الروض المعطار» (٤٠٧)، و«بلدان الخلافة الشرقية»
(٧٠).

والعبارةٌ مثلُ سائر. وتطلُّقُ كنايةٌ عن الرجل الحسن الصورة وليس وراءه حاصل.
انظر: «مجمع الأمثال» (٢٥٧/٢)، و«الكناية والتعريض» (١١٥)، و«تمة يتيمة
الدهر» (٢٣٥/٥).

وسياقُ المصنف مأخوذٌ من قول الخوارزمي أو غيره:

أبو سعيدٍ له ثوبٌ نفيسٌ ولكن تحت ذاك الثوب عرية
فإن جاوزت كسوته إليه فليس وراء عبَّادان قرية

انظر: «محاضرات الأدباء» (١٦/٤)، و«رسائل الثعالبي» (١٣٧).

(٢) انظر: «الكلم الروحانية» لابن هندو (٩٠)، و«مختار الحكم» للمبشر بن فاتك (٣٢)،
ومتخب «صوان الحكمة» (٢١٧)، و«نزهة الأرواح» للشهرزوري (٣٠٦/١).

(٣) بضمِّ الراء. وهو المنظر الحسن. «اللسان» (روي).

فَجَسَّ الْمَخَاصِصَ^(١) فلم ير شيئاً، فقالوا: كيف رأيته؟ فقال: رأيتُ داراً حسنةً مزخرفةً ولكن ليس بها ساكن!

* السعادة الثانية: سعادةٌ في جسمه وبدنه؛ كصحته واعتدال مزاجه، وتناسب أعضائه، وحُسن تركيبه، وصفاء لونه، وقوَّة أعصابه^(٢).

فهذه الصِّقُّ به من الأولى، ولكن هي في الحقيقة خارجةٌ عن ذاته وحقيقته؛ فإنَّ الإنسانَ إنسانٌ بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه، كما قيل:

يا خادِمَ الجِسمِ كم تشقىٰ بخدمته فأنت بالروح لا بالجِسمِ إنسانٌ^(٣)

فنسبةُ هذه إلى 'روحه وقلبه كنسبة ثيابه ولباسه إلى 'بدنه؛ فإنَّ البدنَ أيضًا عاريةٌ للروح وآلةٌ لها ومركبٌ من مراكبها، فسعادتها بصحَّته، وجماله وحُسْنُه سعادةٌ خارجةٌ عن ذاتها وحقيقتها.

* السعادة الثالثة: هي السعادةُ الحقيقية، وهي سعادةٌ نفسانيةٌ روحيةٌ قلبية، وهي سعادةُ العلم النافع وثمرته؛ فإنها هي الباقيةُ على تقلُّب الأحوال،

(١) كنايةٌ عن اختبار المرء لكشف دخليته. ويرادفه: سَبَرُ القَوَرِ. انظر: «المعجم الكبير» لتيমور (٣٢٢/٥)، و«التصوف الإسلامي» لزكي مبارك (٢٨٦).

(٢) (ت، د، ق): «أعضائه».

(٣) البيت لأبي الفتح البستي في «ديوانه» (٣١١)، وهو في بعض المصادر ضمن نونيته المشهورة، وورد مع آخر في نسخ الديوان منفردين عنها.

وفي (ح، ن) بعد البيت زيادة: «وفي رواية:

يا خادِمَ الجِسمِ كم تشقىٰ بخدمته لتطلب الربح مما فيه خسران

أقبل على النفس فاستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجِسمِ إنسانٌ

وهي رواية الديوان، وأظنها كانت تعليقاً لأحد القراء، فأدخله الناسخ في الأصل.

والمُصاحِبَةُ للعبد في جميع أسفاره، وفي دُوره الثلاثة – أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار –، وبها يترقَّى في معارج الفضل ودرجات الكمال.

أَمَّا الْأُولَى، فإنما (١) تصحُّبُهُ في البقعة التي فيها ماله وجاهه.

والثانية، فَعُرْضَةُ للزوال والتبدُّل بِنَكْسِ الخَلْق والردِّ إِلَى الضَّعْف.

فلا سعادة في الحقيقة إلا هذه الثالثة، التي كلما طال عليها الأمدُ ازدادت قوَّةً وعلوًّا، وإذا عُدِمَ المَالُ والجاهُ فهي مَالُ العبد وجاهه، وتظهر قوتها وأثرها بعد مفارقة البدن (٢) إذا انقطعت السعدتان الأولتان (٣).

وهذه السعادة لا يعرف قَدْرُها ويبعثُ على طلبها إلا العلمُ بها؛ فعادت السعادة كُلُّها إِلَى العلم وما يقتضيه، والله يوفِّقُ من يشاء، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

وإنما رَغِبَ أكثرُ الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها لوعورة طريقها، ومرارة مبادئها، وتعب تحصيلها، وأنها لا تنالُ إلا على جسرٍ من التعب (٤)؛ فإنها لا تُحْصَلُ إلا بالجدِّ المحض، بخلاف الأولتين (٥)، فإنهما حظٌّ قد يَحْوزُهُ

(١) (ت، د، ق، ح): «فإنها».

(٢) أي: مفارقة الروح البدن.

(٣) كذا في الأصول، مثنى: الأولى. لغةً حكاهما ثعلب، وعدّها طائفةً من لحن العوام. والمشهور الفصحى: الأوليان، مثنى: الأولى. انظر: «اللسان» (وأل)، و«تصحیح التصحيف» (١٣٩)، و«المصباح المنير» (آل). وتقع في مواضع من كتب المصنف بالتاء، وفي مواضع بالياء، ويصعب تمييز قلمه من اجتهادات النساخ في مثل هذا مما لم يصلنا بخطه.

(٤) (ن): «التعب والمشقة».

(٥) مهملة في (د). (ق): «الأولين».

غير طالبه، وبَخْتُ قد يحرزُه^(١) غيرُ جالبِه من ميراثٍ أو هبةٍ أو غير ذلك، وأمَّا سعادةُ العلم فلا يورثُك إياها إلا بذلُ الوسع، وصدقُ الطلب، وصحةُ النية.

وقد أحسنَ القائلُ في ذلك^(٢):

فَقُلْ لِمُرْجِي معالي الأمور بغيرِ أَجْتِهَادٍ رَجَوْتَ المُحالا

وقال الآخر^(٣):

لولا المشقةُ سادَ الناسُ كُلُّهم الجُودُ يُفْقِرُ والإقدامُ قَتالُ

ومن طمَحَت همَّتُه إلى الأمورِ العَلِيَّةِ، فواجبٌ عليه أن يسُدَّ على همَّتِه الطُّرُقَ الدُّنْيِيَّةَ.

وهذه السعادةُ وإن كانت في أبتدائها لا تنفكُ عن ضربٍ من المشقةِ والكُرِّ والتأذي، فإنها متى أُكْرِهَت النفسُ عليها، وسيقت طائعةً وكارهةً إليها، وصبرت على لأوائها وشدَّتها، أفضت منها إلى رياضٍ مُونِقةٍ، ومقاعِدِ صدقٍ ومقامِ كريمٍ، تجدُ كُلَّ لَذَّةٍ دونها كلِّدَةٌ لعبِ الصَّبِيِّ بالعصفور بالنسبة إلى لَذَّةِ الملوك؛ فحينئذٍ حالُ صاحبها كما قيل:

وكنْتُ أرى أن قد تناهى بي الهوى إلى غايةٍ ما بعدها لي مذهبُ

(١) (ت، ق، د، ح): «يحوزه». والبَخْتُ: فارسية، بمعنى الحِظُّ.

(٢) وهو الخُبْرُ أُرْزِي (ت: ٣٢٧)، في مستدرک دیوانه المنشور بمجلة المجمع العلمي العراقي (١٤١/٤٢/٣)، وشعره المجموع في مجلة معهد المخطوطات (١٣٥/٣٩/٢)، كلاهما عن «محاضرات الأدباء» (١٥٦/١، ٤٤٦/٢).

(٣) وهو المتنبي، في ديوانه (٥٠٥)، من كلمة يمدح فيها فاتكًا، هي عندي من أصدق مدائحه.

فلَمَّا تلاقينا وعَايَنْتُ حُسْنَهَا تَيَقَّنْتُ أَنِي إِنَّمَا كُنْتُ الْعَبُّ^(١)
فالمكارمُ مَسْئُوطَةٌ بالمكاره، والسعادةُ لَا يُعْبَرُ إِلَيْهَا إِلَّا عَلَى جَسَرِ
المَشَقَّةِ، وَلَا تُقَطَّعُ مَسَافَتُهَا إِلَّا فِي سَفِينَةِ الْجَدِّ وَالْاجْتِهَادِ.
قال مسلمٌ في «صحيحه»^(٢): «قال يحيى بن أبي كثير: لَا يُنَالُ الْعِلْمُ
بِرَاحَةِ الْجِسْمِ».

وقد قيل: «من طلبَ الراحةَ تركَ الراحةَ»^(٣).
فيا وَضَلَ الحبيبَ أَمَّا إِلَيْهِ بغيرِ مَشَقَّةٍ أَبَدًا طَرِيقُ^(٤)
ولولا جهْلُ الأكثرين بحلاوة هذه اللَّذَّةِ وَعِظَمَ قدرها لَتَجَالَدُوا عَلَيْهَا
بِالسُّيُوفِ، وَلَكِنْ حُفَّتْ بِحِجَابٍ مِنَ الْمَكَارِهِ، وَحُجِّبُوا عَنْهَا بِحِجَابٍ مِنَ
الْجَهْلِ؛ لِيَخْتَصَّ اللَّهُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.
الوجه السادس والثمانون: أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ خَلَقَ الْمَوْجُودَاتِ، وَجَعَلَ

(١) نسبهما محمد بن داود في «الزهرة» (٢٧٤) لبعض أهل العصر، على عادته في عزو شعره لبعض أهل عصره، كما ذكر المسعودي في «مروج الذهب» (١٩٦/٥)، وتصديقه فيما كتب نوري القيسي في «أوراق من ديوان محمد بن داود» (١٠ - ١٢).

(٢) (٦١٢). ولإيراد مسلم له في صحيحه في هذا الموضع منه نكتة لطيفة، انظر: «إكمال المعلم» (٥٧٧/٢)، و«شرح النووي» (١١٣/٥).

(٣) انظر: «الزهد» للبيهقي (٨٣)، و«أدب الدنيا والدين» (٦٥).
وقال مَهْيَار، ديوانه (٨٠/١):

أَتَعَبَهُ تَغْلِيصُهُ فِي الْعُلَا مِنْ طَلَبِ الرَّاحَةِ فَلْيَتَعَبِ
(٤) لم أجده، ويشبه نظم المصنف.

لكل شيء منها كما لا يختص به هو غاية شرفه، فإذا عَدِمَ كماله أُنْقِلَ إلى الرتبة التي دونه واستعمل فيها، فكان استعماله فيها كمال أمثاله، فإذا عَدِمَ تلك أيضًا نُقِلَ إلى ما دونها، ولا يُعْطَلُ^(١)، وهكذا أبدًا، حتى إذا عَدِمَ كل فضيلة صار كالشوك وكالحطب الذي لا يصلح إلا للوقود.

فالفرس إذا كانت فيه فروسيته التامة أُعِدَّ لمراكب الملوك، وأُكْرِمَ إكرام مثله، فإذا نزل عنها قليلًا أُعِدَّ لمن دون المليك، فإن أزداد تقصيره فيها أُعِدَّ لآحاد الأجناد، فإن تقاصر عنها جملة استعمل استعمال الحمار، إمَّا حول المَدَارِ، وإمَّا لنقل الزُّبُل ونحوه، فإن عَدِمَ ذلك استعمل استعمال الأغنام للذبح والإعدام.

كما يقال في المثل^(٢): إن فرسين ألتقيا؛ أحدهما تحت مليك والآخر تحت الرّوايا^(٣)، فقال فرس الملك: أمّا أنت صاحبي وكنت أنا وأنت في مكان واحد، فما الذي نزل بك إلى هذه المرتبة؟! فقال: ما ذاك إلا أنك هَمَلَجْتَ قليلًا وتكسعت^(٤) أنا!

وهكذا السيف إذا نبا عما هُيئ له ولم يصلح له، ضُربَ منه فأس أو

(١) (ق، د): «ولا تعطل».

(٢) انظر هذا المعنى في: «البيان والتبيين» (١٠٣/٢)، و«عيون الأخبار» (١/٢٣٥)، و«المدحش» (٣٠٠).

(٣) جمع راوية، وهي المزادة فيها الماء. «اللسان» (روي).

(٤) تكسّع في ضلاله: ذهب، كسكّع. وربما أراد: شابهت الحمير، سُميت الحمير كُسْعَةً لأنها تُكسّع في أدبارها، أي: تُضرب. «اللسان» (كسع). وفي (ت): «وأينعت». (د): «تلسعت»، وفوقها بخط دقيق: كذا.

منشاراً أو نحوه^(١)، وهكذا الدُّورُ العِظامُ الحِسانُ إذا خَرِبَتْ وتهدّمت
أَتَّخَذَتْ حظائرَ للغنم أو الإبل وغيرها.

وهكذا الآدميُّ إذا كان صالحاً لا صطفاء الله له برسالته ونبوّته أّخذ
رسولاً ونبياً، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فإذا كان جوهره قاصراً عن هذه الدرجة صالحاً لخلافة النبوة وميراثها
رُشّحه لذلك وبلغه إياه، فإذا كان قاصراً عن ذلك قابلاً لدرجة الولاية رُشّح
لها، وإن كان ممّن يصلح للعمل والعبادة دون المعرفة والعلم جُعِلَ من
أهله، حتّى ينتهي إلى درجة عموم المؤمنين، فإن نقص عن هذه الدرجة ولم
تكن نفسه قابلةً لشيء من الخير أصلاً أَسْتُعْمِلَ خطباً ووقوداً للنار.

وفي أثرٍ إسرائيلي: أنّ موسى سأل ربّه عن شأن من يعدّ بهم من خلقه؛
فقال: يا موسى، أزرع زرعاً، فزرعه، فأوحى الله إليه أن أحصده، ثمّ أوحى
إليه أن أنسفه وأذّره^(٢)، ففعل، وخلص الحبّ وحده والتبنّ والعيدان
والعصف وحده، فأوحى الله إليه: إني لا أجعل في النار من العباد إلا من لا
خير فيه، بمنزلة العيدان والشوك التي لا تصلح إلا للنار^(٣).

وهكذا الإنسان يترقى في درجات الكمال درجة بعد درجة، حتّى يبلُغَ

(١) انظر: «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٩١).

(٢) النَّسْفُ والذَّرْو: تنقية الحبّ.

(٣) أخرجه ابن المبارك (٣٥١)، وأحمد (٨٨) كلاهما في «الزهد»، وأبو نعيم في
«الحلية» (٩١/٥) عن عمار بن ياسر بإسناد فيه ضعف.

وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٨٦/٤) عن
سعيد بن جبير. وقال الهيثمي في «المجمع» (٢٠١/٧): «رجال رجال الصحيح».

نهاية ما يناله أمثاله منها، فكم بين حاله في أول كونه نطفة وبين حاله والربُّ يُسَلِّمُ عليه في داره، وينظرُ إلى وجهه بكرةً وعشيًّا؟!

والنبيُّ ﷺ في أول أمره لمَّا جاءه الملك فقال له: اقرأ، فقال: «ما أنا بقارىء»^(١)، وفي آخر أمره يقول الله له^(٢): ﴿أَلَيْسَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]، ويقول له خاصَّة: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ويحكى أنَّ جماعةً من النصارى تحدَّثوا بينهم، فقال قائلٌ منهم: ما أقلَّ عقولَ المسلمين! يزعمون أنَّ نبيَّهم كان راعي الغنم، فكيف يصلح راعي الغنم للنبوَّة؟! فقال له آخرٌ من بينهم: أمَّا هم فوالله أعقلُ منَّا؛ فإنَّ الله بحكمته يسترعي النبيَّ الحيوانَ البهيم، فإذا أحسنَ رعايته والقيامَ عليه نقله منه إلى رعاية الحيوان الناطق؛ حكمةً من الله وتدريجاً لعبده^(٣)، ولكن نحن جئنا إلى مولودٍ خرج من امرأة، يأكلُ ويشربُ ويبولُ ويبكي، فقلنا: هذا إلهنا الذي خلقَ السموات والأرض! فأمسك القومُ عنه.

فكيف يحسُنُ بذِي هَمَّةٍ قد أزاح اللهُ عنه عِلَّه، وعَرَفَه السعادة والشقاوة، أن يرضى بأن يكون حيواناً وقد أمكنه أن يصير إنساناً، وبأن يكون إنساناً وقد أمكنه أن يصير ملكاً^(٤) في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، فتقومُ

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة.

(٢) (ق): «وفي آخره أمره بقول الله له». وهو تحريف.

(٣) انظر: «فتح الباري» (٤ / ٤٤١)، و«الرد على الإخنائي» (٧٢).

(٤) وذلك أن أهل الجنة لا تقع منهم معصية، فأشبهوا الملائكة من هذا الوجه.

الملائكة بخدمته، وتدخل عليهم من كل باب، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾؟! (١).

وهذا الكمال إنما ينال بالعلم ورعايته، والقيام بموجبه؛ فعاد الأمر إلى العلم وثمرته، والله الموفق.

وأعظم النقص وأشد الحسرة: نقص القادر على التمام، وحسرتة على تفويته، كما قال بعض السلف: «إِذَا كَثُرَتْ طُرُقُ الْخَيْرِ كَانَ الْخَارِجُ مِنْهَا» (٢) أَشَدَّ حَسْرَةً» (٣).

وصدق القائل (٤):

ولم أرَ في عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام
فنبت أنه لا شيء أقبح بالإنسان من أن يكون غافلاً عن الفضائل الدينية
والعلوم النافعة والأعمال الصالحة، فمن كان كذلك فهو من الهَمَجِ الرَّعَاعِ
الذين يُكَدِّرون الماءَ ويُغْلَوْنَ الأسعارَ، إن عاش عاشَ غيرَ حَمِيدٍ، وإن مات
ماتَ غيرَ فَقِيدٍ، ففقدَهم راحةً للبلاد والعباد، ولا تبكي عليهم السماء، ولا
تستوحش لهم الغبراء.

الوجه السابع والثمانون: أن القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه، إذا

(١) انظر: «تفصيل الشاطئ» (٥٦)، و«الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٦١)، و«شرح نهج البلاغة» (٣٠٦/٢٠).

(٢) أي: دون اغتنام لها.

(٣) انظر: «سراج الملوك» (٢٠٠).

(٤) وهو المتنبي، في ديوانه (٤٧٦).

أستحكما فيه كان هلاكه وموته، وهما: مرض الشهوات، ومرض الشبهات؛
وهذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله.

وقد ذكر الله تعالى هذين المرضين في كتابه:

* أمّا مرض الشبهات، وهو أصعبُهما وأقتلُهما للقلب، ففي قوله تعالى
في حق المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله:
﴿ وَلَيَقُولَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ [المذثر: ٣١]، وقال
تعالى: ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ
قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٣].

فهذه ثلاثة مواضع، المرادُ بمرض القلب فيها مرضُ الجهل والشُّبهة.

* وأمّا مرض الشهوة، ففي قوله: ﴿ يَلْسَأَنَّ النَّبِيَّ لَسَنَةً كَاحِرَةً مِنَ اللَّسَاءِ
إِنْ أَتَقَيَّنَتْ فَلَا تَخْضَعَنَّ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، أي: لا
تَلَنَنَّ بالكلام فيطمع الذي في قلبه فجورٌ وزنا.

قالوا: والمرأة ينبغي لها إذا خاطبت الأجانب أن تُغْلِظَ كلامها وتقويه
ولا تُليِّنه وتكسِّره؛ فإنَّ ذلك أبعدُ من الرِّية والطمع فيها.

وللقلب أمراضٌ آخر من: الرِّياء، والكِبَر، والعُجب، والحسد، والفخر،
والخيلاء، وحبُّ الرِّياسة والعلوُّ في الأرض.

وهذا المرض ^(١) مركَّبٌ من مرض الشبهة والشهوة؛ فإنه لا بدَّ فيه من
تخيُّلٍ فاسد، وإرادة باطلة، كالعُجب والفخر والخيلاء والكِبَر المركَّب من

(١) يعني المذكور آخرًا.

تَخْيُلُ عَظَمَتَهُ وَفَضْلَهُ وَإِرَادَةَ تَعْظِيمِ الْخَلْقِ لَهُ وَمَحَمَّدَتِهِمْ^(١).

فلا يخرجُ مرضه عن شهوة، أو شبهة، أو مركبٍ منهما.

وهذه الأمراضُ كُلُّها متولِّدةٌ عن الجهل، ودواؤها العلم، كما قال النبي ﷺ في حديث صاحب الشَّجَّة الذي أفتوه بالغسل، فمات: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ، أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟! إِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ»^(٢)؛ فجعلَ العيَّ - وهو عيُّ القلب عن العلم، واللسان عن النطق به - مرضًا، وشفاءهُ سؤَالُ العلماء.

فأمراضُ القلوب أصعبُ من أمراض الأبدان؛ لأنَّ غايةَ مرضِ البدن أن يُفْضِيَ بِصَاحِبِهِ إِلَى الْمَوْتِ، وَأَمَّا مَرَضُ الْقَلْبِ فَيُفْضِي بِصَاحِبِهِ إِلَى الشَّقَاءِ الْأَبَدِيِّ، وَلَا شِفَاءَ لِهَذَا الْمَرَضِ إِلَّا بِالْعِلْمِ.

ولهذا سَمَّى اللهُ تَعَالَى كِتَابَهُ شِفَاءً لَأَمْرَاضِ الصُّدُورِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكُفُّهُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ولهذا السبب نسبةُ العلماء إلى القلوب كنسبة الأطباء إلى الأبدان، وما

(١) (ح): «ومدحتهم».

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٣٠)، وأبو داود (٥٧٢)، وغيرهما من حديث ابن عباس. وفيه اختلافٌ كثير، والأشبه صحة القدر الذي أورده المصنف وهو أصل الحديث، أما آخره فمعلول.

انظر: «الأوسط» لابن المنذر (٢/ ٢٢)، و«علل ابن أبي حاتم» (١/ ٣٧)، و«سنن الدارقطني» (١/ ١٨٩)، و«الخلافات» (٢/ ٤٩٠)، و«بيان الوهم والإيهام» (٢/ ٢٣٦).

يقال للعلماء: «أطبَّاءُ القلوب»^(١) فهو لَقْدَرٍ ما جامع بينهما، وإلا فالأمرُ أعظمُ من ذلك؛ فإنَّ كثيرًا من الأمم يستغنون عن الأطباء، ولا يوجدُ الأطباء إلا في اليسير من البلاد، وقد يعيشُ الرجلُ عمره أو برهةً منه لا يحتاجُ إلى طبيب، وأما العلماءُ بالله وأمره فهم حياةُ الوجود وروحه، ولا يستغنى عنهم طرفة عين.

فحاجةُ القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفُّس في الهواء، بل أعظم.

وبالجملة؛ فالعلمُ للقلب مثلُ الماء للسمك، إذا فقدَه مات، فنسبةُ العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها، وكنسبة سمع الأذن إليها، وكنسبة كلام اللسان إليه؛ فإذا عَدِمَه كان كالعين العمياء، والأذن الصمَّاء، واللسان الأخرس.

ولهذا يصفُ سبحانه أهلَ الجَهْلِ بالعمى والصَّمَمِ والبَكَمِ، وذلك صفةُ قلوبهم، فَقَدَتِ العلمَ النَّافِعَ فَبَقِيَتْ على عماها وصَمَمَها وبَكَمَها، قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]، والمراد: عمى القلب في الدنيا، وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [الإسراء: ٩٧]؛ لأنهم هكذا كانوا في الدنيا، والعبدُ يُبْعَثُ على ما مات عليه.

واختلَفَ في هذا العمى في الآخرة^(٢).

(١) انظر: «الإحياء» (١/ ٣١)، و«مجموع الفتاوى» (٣٤/ ٢١٠)، و«زاد المعاد» (٤/ ٣١)، و«إغاثة اللهفان» (١/ ٢٤٨)، و«مدارج السالكين» (١/ ٤٢٦، ٤٣٩، ٣١٥/ ٢).

(٢) انظر ما مضى (ص: ١٢٠).

فقيل: هو عمى البصيرة؛ بدليل إخباره تعالى عن رؤية الكفار ما في القيامة ورؤية الملائكة ورؤية النار.

وقيل: هو عمى البصر؛ ورُجِّحَ هذا بأن الإِطلاقَ ينصرفُ إليه، وبقوله ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥]، وهذا عمى العين؛ فإنَّ الكافرَ لم يكن بصيرًا بحجَّته.

وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفار في القيامة بأنَّ الله يخرجهم من قبورهم إلى موقف القيامة بُصْرَاءَ، ويُحْشَرُونَ من الموقف إلى النار عُمَيَّا. قاله الفراء وغيره^(١).

الوجه الثامن والثمانون: أنَّ الله سبحانه بحكمته سلَّط على العبد عدوًّا عالمًا بطرق هلاكه وأسباب الشرِّ الذي يلقيه فيه، متفَنِّئًا فيها، خبيرًا بها، حريصًا عليها، لا يَفْتُرُ عنه يقظةً ولا منامًا، ولا بدَّ له من واحدةٍ من ستِّ ينالها منه^(٢):

* أحُدُّها^(٣) — وهي غايةُ مراده منه —: أن يحُولَ بينه وبين العلم والإيمان، فيلقيه في الكفر. فإذا ظفر بذلك فرغ منه واستراح.

* فإن فاتته هذه وهُدِيَ للإسلام حرصَ على تَلْوِ الكفر، وهي البدعة، وهي أحبُّ إليه من المعصية؛ فإنَّ المعصية يُتَابُ منها والبدعة لا يُتَابُ منها؛ لأنَّ صاحبها يرى أنه على هدى.

(١) انظر: «معاني القرآن» (٢/ ١٩٤)، و«زاد المسير» (٥/ ٣٣٢).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (٧٩٩ - ٨٠٢).

(٣) كذا في الأصول.

وفي بعض الآثار: «يقول إبليس: أهلكْتُ بني آدم بالذنوب، وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله إلا الله، فلمَّا رأيتُ ذلك بثتُ فيهم الأهواء فهم يُذنبون ولا يتوبون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا»^(١).

فإذا ظفر منه بهذه صيرته من دعائه وأمرائه.

* فإن أعجزته ألقاه في الثالثة، وهي الكبائر.

* فإن أعجزته ألقاه في اللّم، وهي الرابعة، وهي الصغائر.

* فإن أعجزته شغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه، ليربح عليه الفضل الذي بينهما؛ وهي الخامسة.

* فإن أعجزه ذلك صار إلى السادسة، وهي تسليط حزبه عليه يؤذونه ويشتمونه ويهتونه ويرمونه بالعظائم؛ ليحزنه ويشغل قلبه عن العلم والإرادة وسائر أعماله.

فكيف يمكن أن يحترز منه من لا علم له بهذه الأمور، ولا بعدوه، ولا بما يحصنه منه؟! فإنه لا ينجو من عدوه إلا من عرفه وعرف طرقه التي يأتيه منها وجيشه الذي يستعين به عليه، وعرف مداخله ومخارجة، وكيفية محاربته، وبأي شيء يحاربه، وبماذا يداوي جراحته^(٢)، وبأي شيء يستمد

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٤٠ / ١)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٢٣ / ١) - ومن طريقه تاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية» (٢٨ / ١) -، والطبراني في «الدعاء» (١٧٨٠) من حديث أبي بكر الصديق مرفوعاً بإسناد شديد الضعف. وانظر: «تفسير ابن كثير» (٧٧٥ / ٢)، و«مجمع الزوائد» (٢٠٧ / ١٠)، و«إتحاف الخيرة» للبوصيري (٤٢٢ / ٧).

(٢) (ح، ن): «جراحاته».

القوة لقتاله ودفعه. وهذا كله لا يحصل إلا بالعلم. فالجاهل في غفلة وعمى عن هذا الأمر العظيم والخطب الجسيم.

ولهذا جاء ذكر هذا العدو وشأنه وجنوده ومكايدته في القرآن كثيراً جداً؛ لحاجة النفوس إلى معرفة عدوها، وطرق محاربتها ومجاهدته، فلو لا العلم يكشف عن هذا لما نجا من نجا منه؛ فالعلم وثمرته^(١) هو الذي تحصل به النجاة منه.

الوجه التاسع والثمانون: أن أعظم الأسباب التي يُحرّم بها العبد خیر الدنيا والآخرة ولذة النعيم في الدارين، ويدخل عليه عدوه منها، هو:

* الغفلة المضادة للعلم.

* والكسل المضاد للإرادة والعزيمة.

هذان أصل بلاء العبد وجرّماته منازل السعداء، وهما من عدم العلم.

* أمّا الغفلة، فمضادة للعلم منافية له.

وقد ذمّ سبحانه أهلها، ونهى عن الكون منهم^(٢)، وعن طاعتهم والقبول منهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِع مَن أَعَفَلَنا قَلْبُهُ، عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

(١) «وثمرته» ليست في (ق).

(٢) (ن): «معهم». والمثبت موافق للفظ الآية.

وقال النبي ﷺ في وصيته لنساء المؤمنين: «ولا تَغْفُلْنَ فَتَنْسِينَ الرَّحْمَةَ» (١).

وسئل بعض العلماء عن عشق الصُّور، فقال: «قلوبٌ غَفَلت عن ذكر الله، فابتلاها بعبودية غيره» (٢).

فالقلبُ الغافل مأوى الشيطان؛ فإنه وسواسٌ خناس، قد أَلْتَمَقَ قلبَ الغافل (٣) يقرأ عليه أنواع الوسواس والخيالات الباطلة، فإذا تذكَّر وذكر الله أَنْجَمَعَ (٤) وانضمَّ وخَسَّ وتضاءلَ لذكر الله، فهو دائماً بين الوسوسة والخَسِّ.

وقال عروة بن رُوَيْم: «إِنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَام سَأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُرِيَهُ مَوْضِعَ الشَّيْطَانِ مِنْ أَيْنِ آدَمَ، فَجَلَّى لَهُ، فَإِذَا رَأْسُهُ رَأْسُ الْحَيَّةِ، وَاضِعٌ رَأْسُهُ عَلَى ثَمَرَةِ الْقَلْبِ، فَإِذَا ذَكَرَ الْعَبْدُ رَبَّهُ خَسَّ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ وَضَعَ رَأْسُهُ عَلَى ثَمَرَةِ قَلْبِهِ فَمَتَّاهٌ وَحَدَّثَهُ» (٥).

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٨٣)، وأبو دود (١٥٠١)، وأحمد (٣٧٠ / ٦)، وغيرهم. قال الترمذي - كما في المطبوعة، ولم يرد في «تحفة الأشراف» (٦٧ / ١٣) -: «هذا حديث غريب».

وصححه ابن حبان (٨٤٢)، والحاكم (٥٤٧ / ١) ولم يتعقبه الذهبي - وانظر: «إتحاف المهرة» (٢٢٩ / ١٨) -، وحسنه النووي في «الأذكار»، وابن حجر في «نتائج الأفكار» (٨٧ / ١).

(٢) انظر: «جامع المسائل» (١٧٨ / ١) رسالة العشق المنسوبة لابن تيمية.

(٣) (ن): «القلب الغافل».

(٤) في طرّة (ح) إشارة إلى أن في نسخة: «انقمع».

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٢٣ / ٦)، وغيره. وانظر: «فتح الباري» (٥٦٣ / ٦)، (٧٤٢ / ٨)، و«الدر المشور» (٤٢٠ / ٦).

وقد روي في هذا المعنى حديث مرفوع^(١).

فهو دائماً يترقب غفلة العبد، فيبذر في قلبه بذراً الأمانى والشهوات والخيالات الباطلة، فيثمر كل حنظلة وكل شوك وكل بلاء، ولا يزال يمدّه بسقيه حتى يغطي القلب ويغيميه.

* وأمّا الكسل، فيتولد عنه الإضاعة والتفريط والحرمان وأشدّ الندامة وهو منافٍ للإرادة والعزيمة التي هي ثمرة العلم؛ فإنّ من علم أنّ كماله ونعيمه في شيء طلبه بجهد وعزم عليه بقلبه كلّ، فإنّ كلّ أحد يسعى في تكميل نفسه ولذته، ولكن أكثرهم أخطأ الطريق لعدم علمه بما ينبغي أن يطلبه.

فالإرادة مسبقة بالعلم والتصور، فتخلّفها في الغالب إنما يكون لتخلّف العلم والإدراك، وإلا فمع العلم التام بأنّ سعادة العبد في هذا المطلب ونجاته وفوزه كيف يلحقه كسل في النهوض إليه؟!

ولهذا استعاذ النبي ﷺ من الكسل؛ ففي «الصحيح»^(٢) عنه أنه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين وغلبة الرجال».

(١) أخرجه أبو يعلى (٤٣٠١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٦٨/٦)، وابن عدي في «الكامل» (١٨٦/٣)، والبيهقي في «الشعب» (٤٣٥/٢)، وغيرهم من حديث أنس بإسناد ضعيف.

وضعه ابن حجر في «الفتح» (٧٤٢/٨).

وانظر: «مجمع الزوائد» (١٤٩/٧)، و«إتحاف الخيرة» (٣١٥، ٣٨٤).

(٢) «البخاري» (٢٨٩٣)، واللفظ له، و«مسلم» (٢٧٠٦) من حديث أنس.

فاستعاذ من ثمانية أشياء^(١)، كلُّ شيءٍ منها قرينان:

* فالهَمُّ والحزنُ قرينان.

والفرقُ بينهما: أنَّ المكروه الوارد على القلبِ إمَّا أن يكون على ما مضى أو لما يُستقبل؛ فالأول هو الحزن، والثاني الهَمُّ.

وإن شئتَ قلت: الحزنُ على المكروه الذي فات ولا يُتَوَقَّعُ دفعه، والهَمُّ على المكروه المنتظر الذي يُتَوَقَّعُ دفعه. فتأملْه.

* والعجزُ والكسلُ قرينان.

فإنَّ تخلفَ مصلحة العبد وكمالَه ولذَّته وسروره عنه، إمَّا أن يكون مصدره عدم القدرة، فهو العجز، أو يكون قادرًا عليه لكن تخلفَ لعدم إرادته، فهو الكسل، وصاحبه يلامُ عليه ما لا يلامُ على العجز.

وقد يكونُ العجزُ ثمرةَ الكسل، فيلامُ عليه أيضًا؛ فكثيرًا ما يكسلُ المرءُ عن الشيء الذي هو قادرٌ عليه، وتَضَعُفُ عنه إرادته؛ فيفضي به إلى العجز عنه. وهذا هو العجزُ الذي يلوِّمُ الله عليه في قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ»^(٢)، وإلا فالعجزُ الذي لم تُخْلَقْ له قدرةٌ على دفعه ولا يدخلُ

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٦٠٦)، و«بدائع الفوائد» (٧١٤)، و«زاد المعاد» (٣٥٨/٢)، و«روضة المحبين» (٦١).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤/٦)، وأبو داود (٣٦٢٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٢٦)، وغيرهم من حديث سيف الشامي عن عوف بن مالك رضي الله عنه. قال النسائي: «سيفٌ لا أعرفه». وعرفه العجليُّ، فقال في «الثقات» (٦٤٤/١): «شاميٌّ تابعيٌّ ثقة». وذكره ابنُ حبان في «الثقات» (٣٣٩/٤)، وابنُ خَلْفُون في «الثقات»، كما في «إكمال تهذيب الكمال» (١٩٨/٦).

مَعْجُوزُهُ تحت القدرة لا يلامُ عليه.

قال بعض الحكماء في وصيته: «إياك والكسل والضَّجْر؛ فإنَّ الكسل لا ينهض لمَكْرُمَةٍ، والضَّجْر إذا نهض إليها لا يصبرُ عليها»^(١).

والضَّجْر متولِّدٌ عن الكسل والعجز، فلم يُفْرده في الحديث بلفظ.

* ثمَّ ذكر الجُبْنَ والبخل.

فإنَّ الإحسانَ المتوقعَ من العبدِ إمَّا بماله وإمَّا ببدنه، فالبخيلُ مانعٌ لنفع ماله، والجبانُ مانعٌ لنفع بدنه.

والمشهورُ عند الناس أنَّ البخلَ يستلزم الجُبْنَ، من غير عكس؛ لأنَّ من بَخَلَ بماله فهو بنفسه أبخل، والشجاعةُ تستلزمُ الكرمَ، من غير عكس؛ لأنَّ من جاد بنفسه فهو بماله أسمحُ وأجود.

وهذا الذي قالوه ليس بلازم وإن كان أكثرًا؛ فإنَّ الشجاعةَ والكرمَ وأضدادها أخلاقٌ وغرائزُ قد تجتمعُ في الرجل، وقد يعطى بعضها دون بعض^(٢).

وقد شاهدَ الناسُ من أهل الإقدام والشجاعة والبأس من هو أبخلُ الناس، وهذا كثيرًا ما يوجدُ في أمة التُّرك؛ يكونُ أشجعَ من لَيْثٍ وأبخلَ من كلب^(٣).

فالرجلُ قد يسمحُ بنفسه ويَضِنُّ بماله، ولهذا يقاتِلُ عليه حتى يُقتَلَ،

(١) انظر: «البيان والتبيين» (٢/ ٢٥٢)، و«محاضرات الأدباء» (١/ ٢٧٥).

(٢) انظر: «الجليس والأنيس» (٢/ ٤٥٠).

(٣) انظر: «جمهرة الأمثال» (١/ ٢٤٧، ٥٣٨).

فَيَبْذُلُ نَفْسَهُ (١) دُونَهُ.

فَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَسْمَحُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَمَنْهُمْ مَنْ يَبْخُلُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْمَحُ بِمَالِهِ وَيَبْخُلُ بِنَفْسِهِ، وَعَكْسُهُ. وَالْأَقْسَامُ الْأَرْبَعَةُ مَوْجُودَةٌ فِي النَّاسِ.

* ثُمَّ ذَكَرَ ضِلْعَ الدِّينِ وَغَلْبَةَ الرِّجَالِ.

فَإِنَّ الْقَهْرَ الَّذِي يَنَالُ الْعَبْدَ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: قَهْرٌ بِحَقٍّ؛ وَهُوَ ضِلْعُ الدِّينِ.

وَالثَّانِي: قَهْرٌ بِبَاطِلٍ؛ وَهُوَ غَلْبَةُ الرِّجَالِ.

فَصَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَى مَنْ أُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَاقْتَبَسَتْ كُنُوزُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ مِنْ أَلْفَاظِهِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْغَفْلَةَ وَالْكَسَلَ – اللَّذَيْنِ هُمَا أَصْلُ الْحَرَمَانِ – سَبَبُهُمَا عَدَمُ الْعِلْمِ؛ فَعَادَ النِّقْصُ كُلُّهُ إِلَى عَدَمِ الْعِلْمِ وَالْعَزِيمَةِ، وَالْكَمَالُ كُلُّهُ إِلَى الْعِلْمِ وَالْعَزِيمَةِ.

وَالنَّاسُ فِي هَذَا عَلَى أَرْبَعَةِ أَضْرُبٍ:

الضَّرْبُ الْأَوَّلُ: مَنْ رُزِقَ عِلْمًا، وَأُعِينَ مَعَ ذَلِكَ (٢) بِقُوَّةِ الْعَزِيمَةِ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ؛ وَهَذَا الضَّرْبُ هُمْ خُلَاصَةُ الْخَلْقِ، وَهُمْ الْمَوْصُوفُونَ فِي الْقُرْآنِ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]، وَبِقَوْلِهِ: ﴿أَوْمَن كَانَ مِيسًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي

(١) فِي الْأَصُولِ: «فَيَبْدَأُ بِنَفْسِهِ». وَفِي طَرَّةٍ (ح): «لَعَلَهُ: فَيَفْدَا». وَالْمَثْبُتُ أَشْبَهُ.

(٢) (ت، ق، ح): «عَلَى ذَلِكَ».

النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴿[الأنعام: ١٢٢]﴾؛ فبالحياة نال العزيمة، وبالنُّور نال العلم.

وأئمة هذا الضرب هم أولو العزم من الرسل.

الضرب الثاني: من حُرِمَ هذا وهذا؛ وهم الموصوفون بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، وبقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وبقوله: ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الضُّمَّةَ الدُّعَاءَ﴾ [الروم: ٥٢]، وقوله: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

وهذا الضرب شرُّ البرية، يضيِّقون الدِّيار، ويُغْلَوْنَ الأسعار.

وعند أنفسهم أنهم يعلمون، ولكن ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون.

ويتعلَّمون، ولكن ما يضرُّهم ولا ينفعهم.

وينطقون، ولكن عن الهوى ينطقون.

ويتكلَّمون، ولكن بالجهل يتكلَّمون.

ويؤمنون، ولكن بالجِبْت والطاغوت يؤمنون.

ويعبدون، ولكن يعبدون من دون الله ما لا يضرُّهم ولا ينفعهم.

ويجادِلون، ولكن بالباطل ليدحضوا به الحقَّ.

ويتفكرون ويبتِّنون^(١)، ولكن ما لا يرضى من القول يبتِّنون.

(١) «ويتفكرون» ليست في (ن).

وَيَدْعُونَ، ولكن مع الله إلهًا آخر يَدْعُونَ.
وَيَذْكُرُونَ، ولكن إذا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ.
وَيَصَلُّونَ، ولكنهم من المصلِّين الذين هم عن صلاتهم ساهون، الذين هم يراؤونَ، ويمنعون الماعون.
وَيَحْكُمُونَ، ولكن حُكْمَ الجاهلية يبيغون.
ويكتبون، ولكن يكتبون الكتاب بأيديهم، ثمَّ يقولون: هذا من عند الله؛ ليشترُوا به ثمنًا قليلًا، فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون.
ويقولون: إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء؟! ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون! (١).
فهذا الضربُ ناسٌ بالصُّورة وشياطينٌ بالحقيقة (٢).
وَجُلُّهُمْ إِذَا فَكَّرَتْ فِيهِمْ حَمِيرٌ أَوْ كِلَابٌ أَوْ ذَنَابٌ (٣)
وَصَدَقَ الْبَحْرِيُّ فِي قَوْلِهِ (٤):
لَمْ يَبْقَ مِنْ جُلِّ هَذَا النَّاسِ بَاقِيَةٌ يَنَالُهَا الْوَهْمُ إِلَّا هَذِهِ الصُّورُ

(١) اقتبس المصنّف هاهنا بعض الآيات، فلم أرسمها برسم المصحف.

(٢) انظر: «تفصيل الشّائتين» (٥١).

(٣) البيت لصالح بن عبد القدوس في «تاريخ دمشق» (٢٣/٣٥٣). وفي «تفصيل الشّائتين» (٥٣)، و«معارج القدس» (١٦) دون نسبة.

(٤) في ديوانه (٢/٩٥٤)، و«الموازنة» (٢/٢٥٩).

وقال آخر^(١):

لَا تَخْذَعْنَكَ اللَّحْيُ وَلَا الصُّوْرُ تِسْعَةُ أَعْشَارٍ مِنْ تَرَى بَقَرُ
فِي شَجَرِ السَّرْوِ مِنْهُمْ مَثَلٌ لَهَا رُوءَاءُ وَمَا لَهَا ثَمَرُ

وأحسن من هذا كله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ^ط وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمِعْ لِقَوْلِهِمْ^ط كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤].

عالمهم كما قيل فيه:

زَوَامِلٌ لِلْأَسْفَارِ^(٢) لَا عِلْمَ عَنْدهُمْ بِجَيِّدِهَا إِلَّا كَعِلْمِ الْأَبَاعِرِ
لَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي الْبَعِيرُ إِذَا غَدَا بِأَوْسَاقِهِ أَوْ رَاحَ مَا فِي الْغَرَائِرِ^(٣)

وأحسن من هذا وأبلغ وأوجز وأفصح قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْإِحْمَارِ
يَحْمِلُ أَثْقَارًا^ط يَتَسَّمَلُ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ^ط وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾
[الجمعة: ٥].

(١) وهو ابن لَنَكْكَ. والبيتان في «اليتيمة» (٢/ ٤١٠) ومعهما ثالث. والثاني وحده في «أسرار البلاغة» (١١٧)، و«ثمار القلوب» (٨٤٦)، وغيرهما. وهما في شعره المجموع (٢٧).

(٢) جمع «سفر»، وهو الكتاب. وفي المصادر الآتية: «للأشعار». والزوامل: الإبل يحمل عليها الرجل زاده ومتاعه. والأباعر: جمع بعير. والأوساق: الأحمال. والغرائر: أوعية من خيش ونحوه.

(٣) البيتان لمروان بن أبي حفصة في «الكامل» (١٠٣٧)، و«العقد» (٢/ ٤٨٤)، وفي شعره المجموع (٥٨)، يهجو قومًا من رُواة الشعر لا يَعْلَمُونَ ما هو، على أستاذهم من روايته.

الضربُ الثالث: من فُتِحَ له بابُ العلم وأُغْلِقَ عنه بابُ العزم والعمل؛ فهذا في رتبة الجاهل أو شرُّ منه.

وفي الحديث المرفوع: «أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه الله بعلمه»^(١)، ثبتته أبو نعيم وغيره.

فهذا جهله كان خيرًا له وأخفَّ لعذابه من علمه، فما زاده العلم إلا وبالًا وعذابًا، ومع هذا^(٢) لا مطمع في صلاحه، فإنَّ الثائِه عن الطريق يُرجى له العودُ إليها إذا أبصرها، فإذا عرفها وحاد عنها عمدًا فمتى تُرجى هدايته؟! قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦].

الضربُ الرابع: من رُزِقَ حظًا من العزيمة والإرادة، ولكن قلَّ نصيبه من العلم والمعرفة؛ فهذا إذا وُقِّقَ له الاقتداءُ بداعٍ من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ ﴿١١﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩ - ٧٠].

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (٣٠٥/١)، والبيهقي في «الشعب» (٤/٤٠٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة بإسنادٍ ضعيف.

قال ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/٦٢٨): «هو حديثٌ انفرد به عثمان البرِّي، لم يرفعه غيره، وهو ضعيف الحديث». وأخرجه ابنُ عدي في ترجمته من «الكامل» (٥/١٥٨)، وقال في (٣/٤٠): «هو معروفٌ به، والبلاء منه». وضعفه العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١/١١).

(٢) (ح، ن): «وهذا».

رزقنا الله من فضله، ولا حَرَمنا بسوء أعمالنا، إنه غفورٌ رحيم.

الوجه التسعون: أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ مَدَحَ اللهُ بِهَا الْعَبْدَ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ وَنَتِيجَتُهُ، وَكُلَّ ذَمٍّ ذَمَّهُ فَهُوَ ثَمَرَةُ الْجَهْلِ وَنَتِيجَتُهُ.

فمَدَحَهُ بِالْإِيمَانِ وَهُوَ رَأْسُ الْعِلْمِ وَلُئْبُهُ، وَمَدَحَهُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي هُوَ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ النَّافِعِ، وَمَدَحَهُ بِالشُّكْرِ، وَالصَّبْرِ، وَالْمَسَارَعَةِ فِي الْخَيْرَاتِ، وَالْحَبِّ لَهُ، وَالْخَوْفِ مِنْهُ، وَالرَّجَاءِ، وَالْإِنَابَةِ، وَالْحِلْمِ، وَالْوَقَارِ، وَاللُّبِّ، وَالْعَقْلِ، وَالْعَفَّةِ، وَالْكَرَمِ، وَالْإِيثَارَ عَلَى النَّفْسِ، وَالنَّصِيحَةَ لِعِبَادِهِ، وَالرَّحْمَةَ بِهِمْ، وَالرَّأْفَةَ، وَخَفَضَ الْجَنَاحَ، وَالْعَفْوَ عَنْ مَسِيئَتِهِمْ، وَالصَّفْحَ عَنْ جَانِبِهِمْ^(١)، وَبَذَلَ الْإِحْسَانَ لِكَافَّتِهِمْ، وَدَفَعَ السَّيِّئَةَ بِالْحَسَنَةِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالصَّبْرَ فِي مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَالرِّضَا بِالْقَضَاءِ، وَاللِّينَ لِلْأَوْلِيَاءِ، وَالشَّدَّةَ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَالصَّدْقَ فِي الْوَعْدِ، وَالْوَفَاءَ بِالْعَهْدِ، وَالْإِعْرَاضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ، وَالْقَبُولَ مِنَ النَّاصِحِينَ، وَالْيَقِينَ، وَالتَّوَكُّلَ، وَالطَّمَأْنِينَةَ، وَالسَّكِينَةَ، وَالتَّوَاصُلَ، وَالتَّعَاطُفَ، وَالْعَدْلَ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، وَالْأَخْلَاقَ، وَالْقُوَّةَ فِي أَمْرِهِ، وَالْبَصِيرَةَ فِي دِينِهِ، وَالْقِيَامَ بِأَدَاءِ حَقِّهِ، وَاسْتِخْرَاجَهُ مِنَ الْمَانِعِينَ لَهُ، وَالدَّعْوَةَ إِلَيْهِ وَإِلَى مَرْضَاتِهِ وَجَنَّتِهِ، وَالتَّحْذِيرَ عَنْ سُبُلِ^(٢) أَهْلِ الضَّلَالِ، وَتَبْيِينَ طُرُقِ الْغَيِّ وَحَالَ سَالِكِيهَا، وَالتَّوَاصِي بِالْحَقِّ وَالتَّوَاصِي بِالصَّبْرِ، وَالْحِصْنَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ، وَبِرِّ الْوَالِدِينَ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَبَذَلَ السَّلَامَ لِكَافَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، إِلَى سَائِرِ الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ، وَالْأَفْعَالِ الْمَرْضِيَّةِ، الَّتِي أَقْسَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى عِظَمِهَا، فَقَالَ

(١) (ت): «خاطيهم».

(٢) (ت، ح): «سبيل».

تعالى: ﴿تَ وَالْقَلِيرَ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ [القلم: ١ - ٤].

وقالت عائشة رضي الله عنها، وقد سئلت عن خلق الرسول ﷺ، فقالت: «كان خلقه القرآن»، فاكتمى بذلك السائل، وقال: «فهمت أن أقوم ولا أسأل عن شيء بعدها» (١).

فهذه الأخلاق ونحوها هي ثمرة شجرة العلم.

أما شجرة الجهل، فتثمر كل ثمرة قبيحة، من الكفر، والفساد، والشرك، والظلم، والبغي، والعدوان، والجزع، والهلع، والكُنود، والعجلة، والطيش، والحدة، والفحش، والبذاء، والشح، والبخل.

ولهذا قيل في حدّ البخل: «جهلٌ مقرونٌ بسوء الظن» (٢).

ومن ثمرته: الغش للخلق، والكبر عليهم، والفخر، والخيلاء، والعُجب، والرياء، والسُّمعة، والنفاق، والكذب، وإخلاف الوعد، والغِلظة على الناس، والانتقام، ومقابلة الحسنة بالسيئة، والأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، وترك القبول من الناصحين، وحبُّ غير الله ورجاؤه والتوكل عليه وإيثار رضاه على رضا الله وتقديم أمره على أمر الله، والتماوت عند حقِّ الله، والثوب عند حقِّ نفسه والغضب لها والانتصار لها؛ فإذا أنتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم بأكثر من حقه، وإذا أنتهكت محارم الله

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦)، والسائل هو سعد بن هشام بن عامر.

(٢) سوء الظن بالله عز وجل. انظر: «شعب الإيمان» (١٩/٢٠)، و«تاريخ بغداد» (٣٣٨/١٢)، و«شرح نهج البلاغة» (٤١/١٧).

لم يَنْبِضْ له عِرْقُ غَضَبًا لله، فلا قوَّة في أمره ولا بصيرة في دينه.

ومن ثمرتها: الدعوةُ إلى 'سبيل الشيطان، وإلى 'سلوك طريق الغي' (١) واتباع الهوى، وإيثار الشهوات على الطاعات، وقيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، ووادِ البنات، وعقوق الأمهات، وقطيعة الأرحام، وإساءة الجوار، وركوب مراكب الخزي والعار.

وبالجملة؛ فالخيرُ بمجموعه ثمارٌ تُجْتَنَى من شجرة العلم، والشرُّ بمجموعه شوكٌ يُجْتَنَى من شجرة الجهل، فلو ظهرت صورةُ العلم للأبصار لزاد حُسْنُها على صورة الشمس والقمر، ولو ظهرت صورةُ الجهل للأبصار لكان منظرُها أقبحَ منظر.

بل كلُّ خيرٍ في العالم فهو من آثار العلم الذي جاءت به الرسلُ ومسبَّبٌ عنه، وكذلك كلُّ خيرٍ يكونُ إلى قيام الساعة وبعدها في القيامة، وكلُّ شرٍّ وفسادٍ حصل في العالم ويحصلُ إلى قيام الساعة وبعدها في القيامة فسببُه مخالفةُ ما جاءت به الرسلُ في العلم والعمل.

ولو لم يكن للعلم أبٌ ومُربٌّ وسائسٌ ووزيرٌ إلا العقل الذي به عمارةُ الدارين، وهو الذي أرشدَ إلى طاعة الرسل، وسلَّم القلبَ والجوارحَ ونفسَه إليهم، وانقاد لحكمهم، وعزَّل نفسه، وسلَّم الأمرُ إلى أهله = لكفى به شرفًا وفضلًا.

وقد مدَحَ الله سبحانه العقلَ وأهله في كتابه في مواضع كثيرةٍ منه، وذمَّ من لا عقلَ له، وأخبر أنهم أهلُ النار الذين لا سمعَ لهم ولا عقلَ، فهو آلةُ كلِّ علم وميزانه الذي يُعرَفُ به صحيحُه من سقيمِه وراجحُه من مرجوحِه،

(١) (د، ت، ق، ن): «البغي». والمثبت من (ح)، وهو أشبه.

والمرأة التي يُعَرَفُ بها الحسنُ من القبيح.

وقد قيل: «العقلُ مَلِكٌ، والبدنُ روحُه، وحواشيه وأفعاله»^(١) وحركاته كلها رعيّةٌ له؛ فإذا ضَعُفَ عن القيام عليها وتعهدّها وصلَ الخللُ إليها كلّها»^(٢).

ولهذا قيل: «من لم يكن عقله أغلبَ خصال الخير عليه كان حتفه في أغلب خصال الشرِّ عليه»^(٣).

وروي أنه لما هبط آدم من الجنة أتاه جبريل، فقال: إن الله أحضرك العقلَ والدِّينَ والحياةَ لتختارَ واحدًا منها؛ فقال: أخذتُ العقلَ^(٤)، فقال الدِّينُ والحياة: أمرنا أن لا نفارق العقلَ حيثُ كان. فانحازا إليه^(٥).
والعقلُ عقلان:

* عقلٌ غريزيٌّ^(٦)؛ وهو أبُ العلم ومربيّه ومُثْمِرُه.

(١) ليست في (ق).

(٢) قاله علي بن عبيدة الريحاني (ت: ٢١٩). انظر: «البصائر والذخائر» (١/ ٢٨)، و«نثر الدر» (٤/ ٥٦)، و«شرح النهج» (٢٠/ ٤٢).

(٣) تُسَبَّبُ لبعض العرب في «الجلس والأُنيس» (٤/ ١٨٢)، و«المصُون» (١٤١)، وغيرهما. ولأردشير في «التذكرة الحمدونية» (٣/ ٢٣٣)، و«ربيع الأبرار» (٣/ ١٤١). ولبعض الأولين في «البيان والتبيين» (١/ ٨٦).

(٤) (ت): «اخترت العقل».

(٥) أخرجه ابن الدنيا في «العقل» (٢٧، ٢٨)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧/ ٤٤٤) عن رجلٍ من أهل مكة.

وأخرجه ابن حبان في «روضة العقلاء» (٢٠) من وجهٍ آخر لا يصح.

(٦) (د، ح، ق، ن): «عقل غريزة».

* وعقلٌ مُكْتَسَبٌ مستفاد؛ وهو ولدُ العلم وثمرته ونتيجته.

فإذا اجتمعَا في العبد فذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء، واستقامَ له أمره، وأقبلت عليه جيوشُ السعادة من كلِّ جانب، وإذا فقدهما فالحيوانُ البهيمُ أحسنُ حالاً منه، وإذا انفردا نقصَ الرجلُ بنقصانِ أحدهما.

ومن الناس من يرجِّحُ صاحبَ العقلِ الغريزيَّ، ومنهم من يرجِّحُ صاحبَ العقلِ المكتسبِ.

والتحقيقُ أنَّ صاحبَ العقلِ الغريزيَّ الذي لا علم ولا تجربة عنده آفته التي يؤتى منها الإحجامُ وتركُ أنتهازِ الفرصة؛ لأنَّ عقله يَعْقِلُهُ عن أنتهازِ الفرصة لعدم علمه بها، وصاحبُ العقلِ المكتسبِ المستفاد يؤتى من الإقدام؛ فإنَّ علمه بالفُرصِ وطرقها يلقيه على المبادرة إليها، وعقله الغريزيُّ لا يطيقُ ردَّه عنها؛ فهو غالباً يؤتى من إقدامه؛ والأول من إحجامه.

فإذا رُزِقَ العقلُ الغريزيُّ عقلاً إيمانياً مستفاداً من مشكاة النبوة^(١)، لا عقلاً معيشياً نفاقياً يظنُّ أربابُه أنهم على شيء، ألا إنهم هم الكاذبون، فإنهم يرون العقلَ أن يُرْضُوا الناسَ على طبقاتهم، ويسالِمُوهم، ويستجلبون^(٢) مودَّتَهم ومحبتَّهم.

وهذا مع أنه لا سبيلَ إليه، فهو إثارٌ للراحة والدَّعة على مُؤنة^(٣) الأذى في الله والموالاة فيه والمعاداة فيه، وهو وإن كان أسلمَ في العاجلة فهو

(١) استطرد المصنف فلم يذكر جواب الشرط، وهو مفهومٌ من السياق.

(٢) كذا في الأصول، على الاستئناف.

(٣) في الأصول: «ومؤنة». وبما أثبت يستقيم السياق.

الهَلْكَ في الآجلة، فإنه ما ذاق طعمَ الإيمان من لم يوالِ في الله ويعادِ فيه؛
فالعقلُ كلُّ العقل ما أوصلَ إلى رضا الله ورسوله. والله الموفقُ المعين.

وفي حديثٍ مرفوعٍ ذكره ابن عبد البر وغيره: «أوحى الله إلى نبيٍّ من
أنبياء بني إسرائيل: قل لفلانِ العابد: أمّا زهدك في الدنيا فقد تعجّلتَ به
الراحة، وأمّا أنقطاعك إليّ فقد اكتسبتَ به العزَّ، فما عملتَ فيما لي عليك؟
قال: وما لك عليّ؟ قال: هل واليتَ فيّ وليّاً أو عاديتَ فيّ عدوّاً؟»^(١).

وذكر أيضاً: «أنه أوحى الله إلى جبريل: أن أخسفَ بقرية كذا وكذا، قال:
يا ربّ إنّ فيهم فلاناً العابد. قال: به فابدأ، إنه لم يتمعّر وجهه في يومٍ
قطُّ»^(٢).

(١) أخرجه ابن عبد البر في «التمهيد» (١٧/٤٣٢)، والخطيب في «تاريخ بغداد»
(٣/٢٠٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/٣١٦)، والقاضي عياض في «الغنية»
(٢٠٨)، وغيرهم من حديث ابن مسعود بإسنادٍ ضعيفٍ جداً؛ فيه علل:
الأولى: أنه من رواية حميد الأعرج، وهو ضعيف، وأحاديثه عن عبد الله بن الحارث
عن ابن مسعود خاصةٌ منكّرة، كما قال الإمام أحمد وجماعة (انظر: «المنتخب من
العلل للخلال»: ١٦٥، و«التهذيب»: ٣/٥٣)، وهذا الحديث منها. وقد أعللَ
الحديث بهذه العلة ابنُ عبد البر.

الثانية: أن محمد بن محمد بن أبي الورد (ولم يرد فيه توثيقٌ معتبر) انفرد برفع
الحديث، والناس يوقفونه على ابن مسعود. قاله عبد الله بن عبد الرحمن الأزدي (له
ترجمة في «تاريخ دمشق»: ٢٩/٣٢٠). رواه عنه ابن عبد البر.

الثالثة: أن الخبر قد رُوِيَ مقطوعاً من قول الفضيل بن عياض، وعبد الله بن المبارك.
أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٩٦٢، ٣٠٤٤). وهو أشبه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٦٦١)، والبيهقي في «الشعب» (١٣/٢٧٤) من
حديث ابن مسعود مرفوعاً بإسنادٍ ضعيف.

الوجه الحادي والتسعون: حديث ابن عمر عن النبي ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»، قالوا: يا رسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: «حَلَقُ الذِّكْرِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَيَّارَاتٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَطْلُبُونَ حَلَقَ الذِّكْرِ، فإذا أنوا عليهم حَفُّوا بهم»^(١).

قال عطاء: «مجالس الذكر: مجالس الحلال والحرام؛ كيف تشتري^(٢) وتبيع وتصوم وتصلّي وتتصدق وتنكح وتطلق وتحج». ذكره الخطيب في كتاب «الفقيه والمتفقه»^(٣)، وقد تقدّم بيانه.

الوجه الثاني والتسعون: ما رواه أيضًا عن ابن عمر يرفعه: «مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة»^(٤). وفي رفعه نظر.

= وضعفه البيهقي. وانظر: «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٧٠). وأخرجه البيهقي (١٣/ ٢٧٤) من قول مالك بن دينار، وقال: «هذا هو المحفوظ من قول مالك بن دينار».

وروي من أوجه أخرى عن بعض السلف. انظر: «العقوبات» لابن أبي الدنيا (١٤، ١٦)، و«الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لعبد الغني المقدسي (٤٢).
(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٥٤)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩٣) بإسناد شديد الضعف.

وروي من وجه آخر أضعف منه. انظر: «اللسان» (٥/ ٧٣). وللحديث شواهد من رواية جماعة من الصحابة، لا أعلم يصح منها شيء.
(٢) الأفعال في (ت، د، ق) بياء الغيبة. وهي كذلك في بعض المصادر.
(٣) (١/ ٩٤)، والطبراني في «مستند الشاميين» (٣/ ٢٩٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٩٥)، كلهم من طريق أبي زرعة الدمشقي في «التاريخ» (١/ ٣٥٩).
(٤) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٩٧) بإسناد ضعيف جدًا.

الوجه الثالث والتسعون: ما رواه أيضًا من حديث عبد الرحمن بن عوفٍ يرفعه: «يسيرُ الفقه خيرٌ من كثيرِ العبادة»^(١)»^(٢). ولا يثبت رفعه.

الوجه الرابع والتسعون: ما رواه أيضًا من حديث أنسٍ يرفعه: «فقيهٌ أفضلُ عند الله من ألف عابد»^(٣).

وهو في الترمذي من حديث رَوْح بن جناح، عن مجاهد، عن ابن عباسٍ مرفوعاً^(٤).

وفي ثبوتهما مرفوعين نظر، والظاهرُ أنَّ هذا وما أشبهه^(٥) من كلام الصَّحابة فمن دونهم.

الوجه الخامس والتسعون: ما رواه أيضًا عن ابن عمر يرفعه: «أفضلُ العبادة الفقه»^(٦).

(١) (د، ق): «كثير من العبادة».

(٢) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٩٨/١)، والطبراني في «الكبير» (١٣٥/١) بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا، فيه خارجة بن مصعب، وهو متروك، وبه أعلَّ الحديث الهيثمي في «المجمع» (١٢٠/١)، وقد اضطرب في حديثه هذا على ألوان. انظر: «الكامل» (٥٣/٣).

(٣) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١٠٦/١) بإسنادٍ موضوع. انظر: «اللسان» (١١٤/٣).

(٤) تقدم الكلام عليه (ص: ١٨٤).

(٥) «وما أشبهه» ليست في (ت، د، ق).

(٦) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١١٤/١)، والطبراني في «الأوسط» (٩٢٦٤)، و«الصغير» (٢٥١/٢)، وغيرهما بإسنادٍ ضعيف. وضعَّفه العراقيُّ في «المغني عن حمل الأسفار» (١٤/١).

الوجه السادس والتسعون: ما رواه أيضًا من حديث نافع عن ابن عمر يرفعه: «ما عبد الله بشيء أفضل من فقهه في دين»^(١).

الوجه السابع والتسعون: ما رواه عن علي أنه قال: «العالم أعظم أجرًا من الصائم القائم الغازي في سبيل الله»^(٢).

الوجه الثامن والتسعون: ما رواه المخلص، عن ابن صاعد: حدثنا القاسم بن الفضل بن بزيع: حدثنا حجاج بن نصير: حدثنا هلال بن عبد الرحمن الحنفي، عن عطاء بن أبي ميمونة، عن أبي هريرة وأبي ذرّ أنهما قالوا: «باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعًا، وباب من العلم نتعلمه - عَمِلَ به أو لم يُعْمَلْ به - أحب إلينا من مئة ركعة تطوعًا». وقالوا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إذا جاء الموت طالب العلم وهو على هذه الحال مات شهيدًا»^(٣).

(١) أخرجه الخطيب في «الفيح والمفتقه» (١/١١٣)، والحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (ق: ٢٨/أ)، والبيهقي في «الشعب» (٤/٣٤١)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/٧٩) بإسناد فيه ضعف.

قال البيهقي: «وروي من وجه آخر ضعيف [انظر: «اللسان» ٦/٢٣]، والمحفوظ هذا اللفظ من قول الزهري».

وسذكره المصنف قريبًا من قول الزهري.

(٢) أخرجه الخطيب في «الفيح والمفتقه» (٢/١٩٨)، و«الجامع» (١/٣٠٠)، والمعافى بن زكريا في «الجلس والأنيس» (٣/٧٧)، وغيرهما في سياق طويل، بإسنادين منقطعين.

وأخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/٥١٩) من وجه آخر ضعيف جدًا، وليس فيه موضع الشاهد.

(٣) تقدم تخريجه (ص: ١٩٣).

ورواه ابن أبي داود، عن شاذان، عن حجاج به.

قلت: شاهدُهُ ما مرَّ^(١) من حديث الترمذي عن أنسٍ يرفعه: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع».

الوجه التاسع والتسعون: ما رواه الخطيبُ أيضًا عن أبي هريرة قال: «لأنَّ أَعْلَمَ بابًا من العلم في أمرٍ أو نهْيٍ أحبُّ إليَّ من سبعين غزوةً في سبيل الله»^(٢).

وهذا إن صحَّ فمعناه: أحبُّ إليَّ من سبعين غزوةً بلا علم؛ لأنَّ العملَ بلا علم فسادُهُ أكثرُ من صلاحه.

أو يريد: علمًا يتعلَّمه ويعلِّمه؛ فيكونُ له أجرٌ من عمل به إلى يوم القيامة، وهذا لا يحصلُ في الغزو المجرد.

الوجه المئة: ما رواه الخطيبُ أيضًا عن أبي الدرداء أنه قال: «مذاكرةُ العلم ساعةً خيرٌ من قيام ليلة»^(٣).

الوجه الحادي والمئة: ما رواه عن الحسن، قال: «لأنَّ أتعلمُ بابًا من العلم فأعلمُه مسلمًا أحبُّ إليَّ من أن تكون لي الدنيا كلُّها فأنفقها في سبيل الله»^(٤).

(١) (ص: ١٩٠). وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الخطيب في «الفتية والمتفق» (١/١٠٢). وفي سنده من لم أعرفه.

(٣) أخرجه الخطيب في «الفتية والمتفق» (١/١٠٢). وفي إسناده انقطاع.

وأخرجه معمر في «الجامع» (١١/٣٦) - ومن طريقه البيهقي في «المدخل إلى السنن» (٤٥٩) -، والدارمي (١/٨٢) عن ابن عباسٍ من وجهين أحدهما صحيح.

(٤) أخرجه الخطيب في «الفتية والمتفق» (١/١٠٢) بإسنادٍ حسن.

الوجه الثاني والمئة: قال مكحول: «ما عُبِدَ الله بأفضل من الفقه»^(١).
 الوجه الثالث والمئة: قال سعيد بن المسيَّب: «ليست عبادةُ الله بالصوم والصلاة، ولكن بالفقه في دينه»^(٢).
 وهذا الكلامُ يرادُ به أمران:
 أحدهما: أنها ليست بالصوم والصلاة الخاليَيْن عن العلم، ولكن بالفقه في الدين الذي يُعَلَّم به كيف الصومُ والصلاة.
 والثاني: أنها ليست الصومُ والصلاة فقط، بل الفقه في دينه من أعظم عباداته.

الوجه الرابع والمئة: قال إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة: «أقربُ الناس من درجة النبوة العلماء وأهلُ الجهاد؛ والعلماءُ ذُكِّوا الناسُ على ما جاءت به الرسل، وأهلُ الجهاد جاهدوا على ما جاءت به الرسل»^(٣).
 وقد تقدَّم الكلامُ في تفضيل العالم على الشَّهيد وعكسه.
 الوجه الخامس والمئة: قال سفيانُ بن عيينة: «أرفعُ الناس عند الله منزلةً من كان بين الله وبين عبادته، وهم الرسلُ والعلماء»^(٤).

(١) أخرجه الخطيب في «الفييه والمتفقه» (١١٩/١) بإسنادٍ شديد الضعف. وروي عنه مرفوعاً مرسلًا، ولا يصح.

(٢) أخرجه الخطيب في «الفييه والمتفقه» (١١٨/١)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٦٢/٢). والراوي عن سعيد ضعيف.

(٣) أخرجه الخطيب في «الفييه والمتفقه» (١٤٨/١).
 وأخرجه الذهبي في «السير» (٥٢٤/١٨) من حديث ابن عباس مرفوعاً بإسنادٍ ضعيف.

(٤) أخرجه الخطيب في «الفييه والمتفقه» (١٤٨/١).

الوجه السادس والمئة: قال محمد بن شهاب الزُّهري: «ما عُبِدَ اللهُ بمثل الفقه»^(١).

وهذا الكلام ونحوه يرادُ به: أنه ما يُعْبَدُ اللهُ بمثل أن يُتَعَبَّدَ بالفقه في الدين، فيكونُ نفسُ التفقه عبادة؛ كما قال معاذُ بن جبل: «عليكم بالعلم؛ فإنَّ طلبه لله عبادة». وسيأتي إن شاء الله ذكرُ كلامه بتمامه^(٢).

وقد يرادُ به: أنه ما عُبِدَ اللهُ بعبادةٍ أفضلَ من عبادةٍ يصحبُها الفقه في الدين؛ لعلم الفقيه في دينه بمراتب العبادات، ومفسداً لها، وواجباتها، وسُننها، وما يكملُها، وما يُنقصُها.

وكلا المعنيين صحيح.

الوجه السابع والمئة: قال سهلُ بن عبد الله التُّستري: «من أراد النظرَ إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء»^(٣).

وهذا لأنَّ العلماءَ خلفاءُ الرسل في أممهم، ووارثوهم في علمهم، فمجالسُهم مجالسُ خلافة النبوة.

الوجه الثامن والمئة: أنَّ كثيراً من الأئمة صرَّحوا بأنَّ أفضلَ الأعمال بعد الفرائض طلبُ العلم.

(١) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/١١٩)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن» (٤٦٧)، كلاهما من طريق معمر في «الجامع» (١١/٢٥٦).

وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/٣٦٥)، والبيهقي في «الشعب» (٨/٥٥١)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/٢٢٥) عنه بلفظ: «العلم» بدل «الفقه».

(٢) في الوجه العاشر بعد المئة.

(٣) أخرجه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/١٤٩).

فقال الشافعي: «ليس شيءٌ بعد الفرائض أفضل من طلب العلم»^(١).
وهذا الذي ذكره أصحابه عنه أنه مذهبه.

وكذلك قال سفيان الثوري^(٢).

وحكاؤه الحنفية عن أبي حنيفة^(٣).

وأما الإمام أحمد فحكى عنه ثلاث روايات:

إحداهن: أنه العلم^(٤). فإنه قيل له: أي شيء أحب إليك؛ أجلس بالليل
أنسخ أو أصلي تطوعاً؟ قال: «نسختك تعلم به أمر دينك فهو أحب إلي»^(٥).

وذكر الخلل عنه في كتاب «العلم» نصوصاً كثيرة في تفضيل العلم.
ومن كلامه فيه: «الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب». وقد
تقدم^(٦).

(١) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (١٣٨/٢)، و«المدخل» (٤٧٥، ٤٧٦).
وانظر: «آداب الشافعي ومناقبه» لابن أبي حاتم (٩٧)، و«الحلية» (١١٩/٩)،
و«جامع بيان العلم» (١٢٣/١).

(٢) أخرجه أبو القاسم البغوي في «الجعديات» (٤٠/١)، وأبو نعيم في «الحلية»
(٣٦٣، ٣٦٦)، والرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (١٨٢)، والبيهقي في
«المدخل» (٤٧٠، ٤٧١)، وابن عبد البر في «الجامع» (١٢٤/١).

(٣) انظر: «الكسب لمحمد بن الحسن» بشرحه للسرخسي (١٠٢، ١٤٨، ١٥٤)،
و«حاشية ابن عابدين» (٤٠/١، ٤٣٢).

(٤) انظر: «مسائل ابن هانئ» (١٦٨/٢)، و«مسائل الكوسج» (٣٣٠٩، ٣٣١٠)،
و«الآداب الشرعية» (٣٨، ٤٣)، و«الإنصاف» (١١٦/٢).

(٥) أخرجه الخطيب في «الفيح والتمتق» (١٠٤/١).

(٦) (ص: ١٦٤).

والرواية الثانية: أن أفضل الأعمال بعد الفرائض صلاة التطوع^(١).

واحتج لهذه الرواية بقوله ﷺ: «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة»^(٢)،
وبقوله في حديث أبي ذرٍّ وقد سأله عن الصلاة، فقال: «خير موضوع»^(٣)،
وبأنه أوصى من سأله مرافقته في الجنة بكثرة السجود^(٤)، وهو الصلاة،
وكذلك قوله في الحديث الآخر: «عليك بكثرة السجود؛ فإنك لا تسجد لله
سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحطَّ عنك بها خطيئة»^(٥)، وبالأحاديث
الدالة على تفضيل الصلاة.

والرواية الثالثة: أنه الجهاد^(٦). فإنه^(٧) قال: «لا أعِدُّ بالجهاد شيئاً،
ومن ذا يطيقه؟!».

-
- (١) انظر: «الفروع» (١/٥٢٢)، و«المبدع» (٢/١، ٢).
(٢) أخرجه أحمد (٥/٢٧٦، ٢٨٢)، وابن ماجه (٢٧٧)، وغيرهما من طرق عن ثوبان.
وصححه ابن حبان (١٠٣٧)، والحاكم (١/١٣٠) ولم يتعقبه الذهبي.
وانظر: «الضعفاء» للعقيلي (٤/١٦٨).
(٣) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد (٥/١٧٨، ١٧٩)، والنسائي (٥٥٢٢)،
وغيرهما من طرق لا تخلو من ضعف عن أبي ذر.
وصححه ابن حبان (٣٦١)، والحاكم (٢/٥٩٧) وتعقبه الذهبي.
(٤) أخرجه مسلم (٤٨٩) من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي.
(٥) أخرجه مسلم (٤٨٨) من حديث ثوبان.
(٦) وهذا هو المشهور عنه. وأطلقه الأصحاب. انظر: «مسائل عبد الله» (٢/٨١٩)،
(٨٣٦)، و«مسائل أبي داود» (٣١٠)، و«مسائل ابن هانئ» (٢/١٠٩)، و«المغني»
(١٣/١٠)، و«المبدع» (١/٢)، و«الإنصاف» (٢/١١٥).
(٧) أي الإمام أحمد.

ولا ريب أن أكثر الأحاديث في الصلاة والجهاد.

وأما مالك؛ فقال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: «إن أقواما أبتغوا العبادة وأضاعوا العلم، فخرجوا على أمة محمد ﷺ بأسيا فهم، ولو أبتغوا^(١) العلم لحجزهم عن ذلك»^(٢).

قال مالك: «وكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب أنه قد قرأ القرآن عندنا عدد كذا وكذا، فكتب إليه عمر: أن أفرض لهم من بيت المال، فلما كان في العام الثاني كتب إليه أنه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير، لأكثر من ذلك؛ فكتب إليه عمر: أن أمحهم من الديوان؛ فإني أخاف إن يسرع الناس في القرآن أن يتفقهوا في الدين فيتأولوه على غير تأويله»^(٣).

وقال ابن وهب: «كنت بين يدي مالك بن أنس، فوضعت ألواحي وقمت إلى الصلاة، فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي تركته»^(٤).

(١) (ق، ت، ن، ح): «اتبعوا».

(٢) مضى (ص: ٢٣٠) من قول الحسن.

(٣) أخرج أصل الخبر ابن سعد في «الطبقات» (٩/ ١٣٠) مختصرا.

وانظر: «الجامع» لمعمر (١١/ ٢١٧)، و«المعرفة والتاريخ» (١/ ٥١٦)، و«المستدرک» (٣/ ٥٤٠)، و«السنة» لعبد الله بن أحمد (١/ ١٣٥).

(٤) أخرجه ابن شاهين في «مذهب أهل السنة» (٦٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ١٢٢).

والصلاة التي قام إليها ابن وهب كانت صلاة فريضة، كما هو بيّن في رواية ابن شاهين، وفي هذا إشكال؛ فكيف يكون طلب العلم أفضل من صلاة الفريضة؟ ويمكن أن يحمل هذا على أن الإمام مالكا أراد أن الصلاة لا تجب في أول الوقت إلا وجوباً موسعاً، فلا اشتغال بتقييد ما يخشى فوائده من العلم أفضل من البدار إلى =

قال شيخنا: وهذه الأمور الثلاثة التي فضّل كلّ واحدٍ من الأئمة بعضَها - وهي الصلاةُ والعلمُ والجهادُ - هي التي قال فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لولا ثلاثٌ في الدنيا لما أحببتُ البقاءَ فيها؛ لولا أن أحملَ أو أجَهِّزَ جيشًا في سبيل الله، ولولا مكابدةُ هذا الليل، ولولا مجالسةُ أقوامٍ يتقَوْنَ أطايِبَ الكلام كما يُتَقَى أطايِبُ الثمر = لما أحببتُ البقاء»^(١)، فالأوّل: الجهاد، والثاني: قيام الليل، والثالث: مذاكرة العلم^(٢).

فاجتمعت في الصحابة لكمالهم^(٣)، وتفرّقت فيمن بعدهم.

الوجه التاسع والمئة: ما ذكره أبو نعيم وغيره عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ أنه قال: «فضّل العلم خيرٌ من [فضل] العمل، وخيرٌ دينكم الوَرَع»^(٤).

= الصلاة في أول الوقت. انظر: «المقدمات والممهّدات» لابن رشد (٤٣/١، ٥١)، وخطبة «الكتاب المؤمل للرّدّ إلى الأمر الأوّل» لأبي شامة (٥٥). أو يحمل على أن الاشتغال بطلب العلم أفضل من البدار لإدراك الصف الأوّل أو تكبيرة الإحرام، كما تفيد رواية ابن شاهين.

(١) أخرجه ابن المبارك في «الجهاد» (٢٢٢)، وعبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» (١١٧)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٥١/١).

وروي عن أبي الدرداء. أخرجه أحمد (١٣٥)، وابن المبارك (٢٧٧) كلاهما في «الزهد»، وابن معين في «التاريخ» (٤/٣٤٠ - رواية الدوري).

(٢) انظر: «منهاج السنة» (٦/٧٥)، و«مدارج السالكين» (٢/٢٨١).

(٣) (ت، د، ق): «بكمالهم».

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢١١ - ٢١٢)، والبزار (٢٩٦٩)، وغيرهما عن حذيفة بن اليمان.

=

وقد رُوي هذا مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها^(١)؛ وفي رفعه نظر.

وهذا الكلام هو فصل الخطاب في هذه المسألة:

فإنه إذا كان كلٌّ من العلم والعمل فرضاً، فلا بدَّ منهما، كالصوم والصلاة.
فإذا كانا فضليْن - وهما النَّفْلَانِ الْمُتَطَوُّعُ بهما -، ففضل العلم ونفله
خيرٌ من فضل العبادة ونفلها؛ لأنَّ العلم يعمُّ نفعه صاحبه والناس معه،
والعبادة يختصُّ نفعها بصاحبها؛ ولأنَّ العلم تبقى فائدته وثمرته بعد موته،
والعبادة تنقطع عنه؛ ولما مرَّ من الوجوه السابقة.

الوجه العاشر بعد المئة: ما رواه الخطيبُ وأبو نعيم وغيرهما عن
معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «تعلَّموا العلم؛ فإنَّ تعلُّمه لله خشية^(٢)،
وطلبه عبادة، ومدارسه تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يُحسِنه
صدقة، وبذله لأهله قربة، به يُعرفُ الله ويُعبَد، وبه يُوحَد، وبه يُعرفُ الحلالُ

= قال الترمذي في «العلل الكبير» (٣٤١): «سألت محمداً عن هذا الحديث، فلم يُعَدِّ هذا الحديث محفوظاً، ولم يعرف هذا عن حذيفة عن النبي ﷺ». وقال البزار: «وهذا الكلام لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه، وإنما يُعرفُ هذا الكلام من كلام مطرّف».

وروي من حديث سعد بن أبي وقاص، وثوبان، وأبي هريرة، وغيرهم، ولا يصحُّ منها شيء، والصوابُ أنه من قول مطرّف بن عبد الله بن الشخير، وأخرجه عنه جماعة.

انظر: «علل الدارقطني» (٣١٨/٤، ١٠/١٤٥)، و«المدخل» للبيهقي (٣٤/٢).

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٦٠/٦) بإسنادٍ ضعيفٍ جداً.

(٢) (ح، ن) وبعض المصادر: «حسنة».

من الحرام، وتوصل الأرحام، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على السراء، والمعين على الضراء، والوزير عند الأخلاء، والقريب عند الغرباء، ومنازل سبيل الجنة، يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم في الخير قادة وسادة يقتدى بهم، أدلة في الخير تقتص آثارهم، وترمق أفعالهم، وترغب الملائكة في خلّتهم، وبأجنتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه، والسماء ونجومها، والعلم حياة القلوب من العمى، ونور للأبصار من الظلم، وقوة للأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، التفكر فيه يعدل بالصيام، ومدارسته بالقيام، وهو إمام للعمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرّمه الأشقياء»^(١).

هذا الأثر معروف عن معاذ. ورواه أبو نعيم في «المعجم»^(٢) من حديث معاذ مرفوعًا إلى النبي ﷺ^(٣)، ولا يثبت، وحسبه أن يصل إلى

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/٢٣٨)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/٢٤٠) بإسناد شديد الضعف.

(٢) لعله: معجم شيوخه. ذكره الذهبي في «السير» (١٧/٤٥٥)، والسخاوي في «فتح المغيث» (١/١١٩)، وغيرهما. ولعله أخرجه — أيضًا — في كتابيه: «رياضة المتعلمين»، و«فضل العالم العفيف».

(٣) وأخرجه كذلك ابن عبد البر في «الجامع» (١/٢٣٩)، والخطيب في «المتفق والمفترق» (١/٣٢٦) بإسنادين، أحدهما شديد الضعف، والآخر معضل. قال ابن عبد البر: «هو حديث حسن جدًا، ولكن ليس له إسناد قوي». أراد حسن المعنى، لا الحسن الاصطلاحي، كما هو ظاهر، ونص عليه العراقي في «التقييد والإيضاح» (٦٠).

الوجه الحادي عشر بعد المئة: ما رواه يونس بن عبد الأعلى، عن ابن أبي فُدَيْك: حدثني عمرو بن كثير، عن أبي العلاء، عن الحسن، عن رسول الله ﷺ قال: «من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام فينبه وبين الأنبياء في الجنة درجة النبوة» (٢).

وقد رُوي من حديث علي بن زيد بن جدعان، عن سعيد بن المسيب، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ (٣).

وهذا وإن كان لا يثبت إسناده فلا يبعد معناه من الصحة؛ فإنَّ أفضل الدرجات: النبوة، وبعدها الصِّدِّيقية، وبعدها الشهادة، وبعدها الصَّلاح، وهذه الدرجات الأربع التي ذكرها الله تعالى في كتابه في قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فمن طلب العلم ليحيي به الإسلام فهو من الصِّدِّيقين، ودرجته بعد

= ورُوي الحديث من وجوه أخرى لا يثبت منها شيء. انظر: «تكميل النفع» للشيخ محمد عمرو عبد اللطيف (٥٩ - ٦٤).

- (١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ١٠٩)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٢٦٣).
- (٢) أخرجه الدارمي (٣٦٠)، وأبو إسماعيل الهروي في «ذم الكلام» (٧٠٨)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٢٠٦) مرسلًا بإسناد فيه من لا يُعرف.
- (٣) أخرجه الخطيب في «الفيح والفتوة» (٢/ ١٦٥)، و«تاريخ بغداد» (٣/ ٧٨)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٤٠٣) بإسناد شديد الضعف. وهو مع ذلك مضطرب الإسناد جدًا، كما قال ابن عبد البر.

درجة النبوة.

الوجه الثاني عشر بعد المئة: قال الحسنُ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: «هي العلمُ والعبادة»، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾: «هي الجنة»^(١).

وهذا من أحسن التفسير؛ فإنَّ أجَلَ حسنات الدنيا العلمُ النافعُ والعملُ الصالح.

الوجه الثالث عشر بعد المئة: قال أبْن مسعود: «عليكم بالعلم قبل أن يُرْفَعَ، ورفعه هلاكُ العلماء، فوالذي نفسي بيده ليوَدَّنَ رجالٌ قُتِلُوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء؛ لما يرون من كرامتهم، وإنَّ أحدًا لم يولد عالمًا، وإنما العلمُ بالتعلُّم»^(٢).

الوجه الرابع عشر بعد المئة: قال أبْن عباس، وأبو هريرة، وبعدهما أحمد بن حنبل: «تذاكر العلم بعض ليلة أحبُّ إلينا من إحيائها»^(٣).

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (٢٠٥/٤)، وابن عبد البر في «الجامع» (٢٢٩/١)، وغيرهما. والآيتان في سورة البقرة: ٢٠١، ٢٠٢.

(٢) أخرج صدره معمر في «الجامع» (٢٥٢/١١) — ومن طريقه الطبراني في «الكبير» (١٧٠/٩)، والبيهقي في «المدخل» (٣٨٧) —، وغيره. وفي إسناده انقطاع، كما أشار إلى ذلك البيهقي، إلا أنه أخرجه بعد ذلك (٣٨٨) من وجه آخر موصولاً.

وأخرج آخره ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧٣٠/٨)، ووكيع في «الزهد» (٥١٨)، ومن طريقه أحمد في «الزهد» (١٦٢).

(٣) أخرجه معمر في «الجامع» (٢٥٣/١١)، والدارمي (٦١٤) عن ابن عباس. وإسناده =

الوجه الخامس عشر بعد المئة: قال عمر رضي الله عنه: «أيها الناس عليكم بالعلم؛ فإنَّ الله سبحانه رداءً يحبُّه، فمن طلب باباً من العلم رَدَّاهُ اللهُ بردائه، فإن أذنب ذنباً استعْتَبَه؛ لئلاً يَسْلُبَه رداءه ذلك حتى يموت به»^(١).

قلت: ومعنى استعتاب الله عبده أن يطلب منه أن يُعْتَبَه؛ أي: يزيل عتبه عليه بالتوبة والاستغفار والإنابة، فإذا أناب إليه رفع عنه عتبه؛ فيكون قد أَعْتَبَ رَبَّهُ، أي: أزال عتبه عليه، والربُّ تعالى قد استعْتَبَه؛ أي: طلب منه أن يُعْتَبَه.

ومن هذا قولُ ابن مسعود — وقد وقعت زلزلة بالكوفة —: «إنَّ ربكم يستعْتَبُكم فَأَعْتَبُوهُ»^(٢).

وهذا هو الاستعتاب الذي نفاه سبحانه في الآخرة في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥]، أي: لا يُطَلَّبُ منهم إزالة عتبتنا عليهم؛ فإنَّ إزالته إنما تكون بالتوبة، وهي لا تنفع في الآخرة.

= الأول صحيح. وقولُ أبي هريرة تقدم تخريجه (ص: ١٨٦). وقولُ أحمد في «مسائل إسحاق بن منصور الكوسج» (٣٣٠٩)، ومن طريقه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/١١٨).

(١) علَّقه ابن عبد البر في «الجامع» (١/٢٥٣)، وعزاه الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» (١/١٤٠) إلى «مناقب عمر» للإسماعيلي والذهبي.

(٢) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٧/٤٧٨)، وفي إسناده انقطاع.

وأخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/٤٧٢) عن شهر بن حوشب عن النبي ﷺ مرسلًا. قال ابن رجب في «فتح الباري» (٩/٢٤٦): «هذا مرسلٌ ضعيف».

وأخرجه ابن أبي الدنيا في «العقوبات» (١٨) معضلاً من وجه آخر.

وهذا غير استعتاب العبد ربّه، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا﴾^(١) فالتَّائِبُ مَتَّوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَغْفِرُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿فصلت: ٢٤﴾، فهذا معناه أن يطلبوا إزالة عتْبنا عليهم والعفو، ﴿فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ أي: ما هم ممن يُزال العتْبُ عليه، وهذا الاستعتابُ ينفعُ في الدنيا دون الآخرة^(٢).

الوجه السادس عشر بعد المئة: قال عمر رضي الله عنه: «موتُ ألف عابدٍ أهونُ من موتِ عالمٍ بصيرٍ بحلال الله وحرامه»^(٣).

ووجه قول عمر: أن هذا العالم يَهْدُمُ على إبليس كل ما بينه، بعلمه وإرشاده، وأما العابدُ فنفعه مقصورٌ على نفسه.

الوجه السابع عشر بعد المئة: قول بعض السلف: «إذا أتى عليَّ يومٌ لا أزدادُ فيه علماً يقرّبني إلى الله تعالى، فلا بُورِكَ لي في طلوع شمس ذلك اليوم»^(٤).

وقد رُفِعَ هذا إلى رسول الله ﷺ^(٥)، ورفعهُ إليه باطل، وحسبه أن يصلَّ

(١) انظر لهذا البحث فصلاً نافعا في «بدائع الفوائد» (١٦٢٢).

(٢) علّقهُ ابن عبد البر في «الجامع» (١٢٨/١).

(٣) لم أجده. وأحسبُ المصنف قدّر نسبته إلى بعض السلف تقديراً، كما يشير إلى ذلك آخر كلامه.

(٤) أخرجه إسحاق في «مسنده» (٥٥٣/٢)، وابن عدي في «الكامل» (٧٩/٢)، (٢٩٤/٣)، والطبراني في «الأوسط» (٦٦٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٨٨/٨)، وغيرهم عن عائشة.

قال ابن عدي: «هذا حديثٌ منكر المتن، وهو عن الزهري منكر، لا يرويه عنه غير الحكم». وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (٤٦٠).

إلى واحدٍ من الصحابة أو التابعين.

وفي مثله قال القائل^(١):

إذا مرَّ بي يومٌ ولم أَسْتَفِدْ هَدًى ولم أَكْتَسِبْ علماً فما ذاك من عُمرِي
الوجه الثامن عشر بعد المئة: قال بعض السلف: «الإيمانُ عُريان،
ولباسُهُ التقوى، وزينتهُ الحياء، وثمرتهُ العلم»^(٢).

وقد رُفِعَ هذا أيضاً^(٣)، ورفعهُ باطل.

الوجه التاسع عشر بعد المئة: أنه في بعض الآثار: «بين العالم والعابد

(١) وهو أبو الفتح البستي، في ديوانه (٢٥٤)، و«اليتيمة» (٣٨٢ / ٤)، و«التمثيل
والمحاضرة» (١٢٧)، والرواية فيها:

* إذا مرَّ بي يومٌ ولم أصطنع يدًا *

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥١٠ / ١٣)، وابن أبي الدنيا (٩٧)، والخرائطي
(٢٧٣) كلاهما في «مكارم الأخلاق»، واللالكائي في «السنة» (١٥٧١)، وابن
عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٨٩ / ٦٣) عن وهب بن منبه.
وأخرجه ابن أبي الدنيا (١٠٣) عن ابن مسعود.

(٣) أخرجه يحيى بن الحسين الشجري في «أماله» (١٥ / ١)، (٣٦) من حديث ابن مسعود
بإسنادٍ ضعيفٍ جداً.

وروي من وجهٍ آخر ضعيف. انظر: «المغني عن حمل الأسفار» للعراقي (١٢ / ١).
ومن وجهٍ آخر باطل، أخرجه ابن عساكر (٢٤١ / ٤٣) من حديث علي.
وانظر: «كشف الخفا» (٢٢ / ١)، و«الجد الحثيث فيما ليس بحديث» للغزّي
(٢٥).

وفي بعض هذه المصادر: «وماله العفّة»، وفي بعضها: «الفقه»، ولعله تحريف، بدل:
«وثمرته العلم».

مئة درجة، بين كلّ درجتين حُضِرَ الجواد المُصَمَّر سبعين سنة»^(١).

وقد رُفِعَ هذا أيضًا^(٢)، وفي رفعه نظر.

الوجه العشرون بعد المئة: ما رواه حربٌ في «مسائله»^(٣) مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «يجمعُ الله تعالى العلماء يوم القيامة، ثم يقول: يا معشر العلماء، إني لم أضع علمي فيكم إلا لعلمي بكم، ولم أضع علمي فيكم لأعدبكم، أذهبوا فقد غفرتُ لكم».

وهذا وإن كان غريباً فله شواهدُ حسان.

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٦٥) عن الزهري.

وحُضِرَ الجواد: ارتفاعه في عدّوه. وتضمير الخيل: أن تُغلف حتى تسمن، ثم تردّ إلى القوت. وقيل: أن تُشدّ عليها سروجها وتجلّل بالأجلّة حتى تعرق تحتها، فيذهب رهلها ويشتدّ لحمها، ويحمل عليها غلمانٌ خفافٌ يجرونها ولا يَغتفون بها، فإذا فعل ذلك بها أُمنَ عليها البُهرُ الشديد عند حُضرها. «اللسان».

(٢) انظر ما تقدم (ص: ١٨٨).

(٣) (٣٤٣) من مرسل الحسن البصري بنحو لفظه.

وأخرجه الطبراني في «الصغير» (١/ ٣٥٤)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ١١١) - ومن طريقه البيهقي في «المدخل» (٥٦٧)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (٥١١) -، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٢١٥، ٢١٧)، وغيرهم من حديث أبي موسى الأشعري.

قال ابن عدي: «هذا الحديث بهذا الإسناد باطل».

وروي من حديث أبي هريرة، وابن عمر، وجابر، وثعلبة بن الحكم، وأبي أمامة أو واثلة بن الأسقع، رضي الله عنهم، بأسانيد ضعيفة جداً لا يصلحُ شيءٌ منها لتقوية الحديث. انظر: «السلسلة الضعيفة» (٨٦٧، ٨٦٨).

الوجه الحادي والعشرون بعد المئة: قولُ ابنِ المبارك، وقد سئل: مَنْ الناس؟ قال: العلماء، قيل: فَمَنْ الملوك؟ قال: الزُّهَّاد، قيل: فَمَنْ السُّفلة^(١)؟ قال: الذي يأكلُ بدينه^(٢).

الوجه الثاني والعشرون بعد المئة: أنَّ من أدرك العلمَ لم يضرَّه ما فاتَه بعد إدراكه؛ إذ هو أفضلُ الحظوظ والعطايا، ومن فاتَه العلمُ لم ينفعه ما حصل له من الحظوظ، بل يكونُ وبالاً عليه وسبباً لهلاكه.

وفي هذا قال بعض السلف: «أَيَّ شيءٍ أدرك من فاتَه العلمُ؟! وأيَّ شيءٍ فات من أدرك العلمُ؟!»^(٣).

الوجه الثالث والعشرون بعد المئة: قال بعضُ العارفين^(٤): «أليس المريضُ إذا مُنِعَ الطعامَ والشرابَ والدواءَ يموت؟ قالوا: بلى، قال: فكذلك القلبُ إذا مُنِعَ عنه العلمُ والحكمةُ ثلاثة أيام يموت».

وصدَق؛ فإنَّ العلمَ طعامُ القلبِ وشرابه ودواؤه، وحياته موقوفةٌ على ذلك، فإذا فقد القلبُ العلمَ فهو ميت، ولكن لا يشعر بموته، كما أنَّ السَّكران الذي قد زال عقله، والخائف الذي قد أنتهى خوفه إلى غايته، والمُحِبُّ

(١) وهم أراذلُ الناس. «اللسان» (سفل).

(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٦٧/١٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٦٨)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (١٩٢/٧)، وغيرهم.

(٣) تُسببُ لعلِّي رضي الله عنه في «شرح النهج» (٢٨٩/٢٠)، ولأرسطاطاليس في «إرشاد الأريب» (٢٢)، ولبزرجمهر في «المحاسن والمساوى» (٣).

(٤) هو ففتح بن سعيد الموصلي، كما في «الإحياء» (٨/١). والتعليق الذي يلي قوله هنا للغزالي.

والمفكر، قد يَظُلُّ إحساسهم بألم الجراحات في تلك الحال، فإذا صَحَوْا وعادوا إلى حال الاعتدال أدركوا آلامها.

هكذا العبدُ إذا حَطَّ عنه الموتُ أحمالَ الدنيا وشواغلها أحسَّ بهلاكه وخسرانه.

فَحَتَّامٌ لا تصحو وقد قَرُبَ المَدَى وَحَتَّامٌ لا يَنجَابُ عن قلبك السُّكْرُ بلى! سوف تصحو حين ينكشِفُ الغِطَاءُ وتَذْكُرُ قولي حين لا يَنفَعُ الذِّكْرُ^(١)

فإذا كُشِفَ الغِطَاءُ، وَبَرِحَ الخفاءُ، وبُلِيَّتِ السرائرُ، وَبَدَّتِ الضمائرُ، وَبُعْثِرَ ما في القبورِ، وَحُصِّلَ ما في الصدورِ؛ فحينئذٍ يكونُ الجهلُ ظلمةً على الجاهلين، والعلمُ حسرةً على البطَّالين.

الوجه الرابع والعشرون بعد المئة: قال أبو الدرداء: «من رأى أنَّ الغُدَّوْ إلى العلم ليس بجهدٍ فقد نقصَ في رأيه وعقله»^(٢).

وشاهدُ هذا قولُ معاذ، وقد تقدَّم.

الوجه الخامس والعشرون بعد المئة: قولُ أبي الدرداء — أيضًا —: «لأنَّ أتعلَّم مسألة أحبُّ إليَّ من قيام ليلة»^(٣).

الوجه السادس والعشرون بعد المئة: قوله أيضًا: «العالمُ والمتعلِّمُ

(١) البيتان في «المدھش» (٣٥٤)، و«شرح النهج» (٧٠ / ١٨) دون نسبة.

(٢) تقدم تخريجه (ص: ١٩٣). وأثر معاذ تقدم قريبًا.

(٣) أخرجه الخطيب في «الفيھ والمفھ» (١ / ١٠٢، ١٠٣) بنحوه من وجهين فيهما انقطاع.

شريكان في الأجر، وسائر الناس هَمَجٌ لا خير فيهم»^(١).

الوجه السابع والعشرون بعد المئة: ما رواه أبو حاتم ابن حبان في «صحيحه»^(٢) من حديث أبي هريرة: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من دخل مسجدنا هذا ليتعلمَ خيراً أو ليعلمَه كان كالمجاهد في سبيل الله، ومن دخله لغير ذلك كان كالناظر إلى ما ليس له».

الوجه الثامن والعشرون بعد المئة: ما رواه أيضاً في «صحيحه»^(٣) من حديث الثلاثة الذين انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو جالسٌ في حلقة، فأعرضَ أحدهم، واستحى الآخر فجلس خلفهم، وجلس الثالث في فُرْجَةٍ في الحلقة؛ فقال النبي ﷺ: «أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله، وأما الآخر فاستحى فاستحى الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه». فلو لم يكن لطالب العلم إلا أن الله يؤويه إليه، ولا يُعْرِض عنه، لكفى به فضلاً.

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥٤٣)، وعبد الله بن أحمد في زوائد «الزهد» (١٣٦)، والبيهقي في «المدخل» (٣٨٣)، وغيرهم.

وانظر: «الزهد» لوكيع (٣/ ٨٣٦ - ٨٣٨)

(٢) (٣٦٨)، وأحمد (٢/ ٣٥٠، ٥٢٦)، وابن ماجه (٢٢٧)، وغيرهم.

وصححه الحاكم (١/ ٩١)، ولم يتعقبه الذهبي.

وهو معلول؛ فقد روي من وجهٍ أصح عن كعب الأبحار قوله. قال الدارقطني في «العلل» (١٠/ ٣٨١): إنه «أشبه بالصواب».

وانظر: «الكامل» لابن عدي (٢/ ٢٧٥).

وروي من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه بإسنادٍ فيه ضعف. أخرجه الطبراني في «الكبير» (٦/ ١٧٥).

(٣) (٨٦)، والبخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦) من حديث أبي واقد الليثي.

الوجه التاسع والعشرون بعد المئة: ما رواه كَمَيْلُ بن زياد النخعي، قال: «أَخَذَ عَلِيُّ بن أَبِي طالب رضي الله عنه بيدي، فأخرجني ناحيةَ الْجَبَّانة^(١)، فلما أَضْحَرَ جعلَ يَتَنَفَّسُ، ثُمَّ قال: يا كَمَيْلُ بن زياد، القلوبُ أوعية، فَخَيْرُها أوعاها للخير، أَحْفَظْ عَنِّي ما أَقول: الناسُ ثلاثة؛ فعالمٌ رَبَّاني، ومتعلِّمٌ على سبيل نجاة، وهَمَجٌ رعا عِ أتباعُ كُلِّ ناعق، يميلون مع كُلِّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركنٍ وثيق.

العلم خيرٌ من المال، العلمُ يحرسُك وأنت تحرسُ المال، العلمُ يزكو على الإنفاق - وفي رواية: على العمل - والمالُ تَنَقُّصُهُ النفقة، العلمُ حاكمُ والمالُ محكومٌ عليه، ومحبةُ العلم^(٢) دينٌ يُدَانُ بها، العلمُ يُكْسِبُ العالمَ الطاعةَ في حياته، وجميلَ الأُحدوثِ بعد وفاته، وصنعةُ المالِ تزولُ بزواله، مات خُزَّانُ الأموال وهم أحياء، والعلماءُ باقون ما بقي الدهر، أعيانُهم مفقودة، وأمثالُهم في القلوب موجودة.

هاه.. هاه.. إِنَّ ههنا علمًا - وأشار بيده إلى صدره - لو أَصَبْتُ له حَمَلَةٌ! بل^(٣).. أَصَبْتُ لِقِنًا^(٤) غير مأمونٍ عليه، يستعملُ آلَةَ الدين للدين، يستظهرُ بِحُجَجِ الله على كتابه، وبنعمه على عباده، أو منقادًا لأهل الحقِّ، لا بصيرة له في أحنائه^(٥)، ينقدحُ الشكُّ في قلبه بأول عارضٍ من شبهة، [ألا] لا ذا ولا

(١) الصحراء. وفي (د، ق، ن): «الْجَبَّان». وهما بمعنى.

(٢) (ق): «العالم». وفي طرة (ح) إشارة إلى أنه كذلك في نسخة.

(٣) (ح، ن): «بل».

(٤) سريع الفهم. «اللسان» (لقن).

(٥) جوانبُ الحقِّ ومُسْتَبْهاتُه وغوامضُه. «اللسان» (حنا). وسيأتي شرحُها. وفي بعض

المصادر: «إحيائه»، وفي بعضها: «إجابة»، وفي بعضها: «خيانة». وكلُّه تحريف.

ذاك، أو منهومًا للذات، سَلِسَ القياد للشهوات، أو مُغَرَّى بجمع الأموال والادِّخار، ليسا من دعاة الدِّين، أقربُ شَبَهاً بهم الأنعامُ السَّائمة.

كذلك^(١) يموتُ العلمُ بموتِ حامله، اللهمَّ بلى.. لن تخلو الأرضُ من قائمٍ لله بحجَّتِه، لكيلا تَبْطُلَ حججُ الله وبيِّناتُه، أولئك الأقلُّون عدداً، الأعظمون عند الله قدرًا، بهم يدفعُ الله عن حُجَجِه، حتى يؤدُّوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هَجَمَ بهم العلمُ على حقيقة الأمر، فاستلنوا ما استوعرَ منه المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها^(٢) معلقةٌ بالملاء الأعلى، أولئك خلفاءُ الله في أرضه^(٣)، ودعائهُ إلى دينه، هاه.. هاه.. شوقاً إلى رؤيتهم، وأستغفرُ الله لي ولك، إذا شئتَ فقم.

ذكره أبو نعيم في «الحلية»^(٤) وغيره.

(١) (ق): «لذلك».

(٢) (ق): «بأبدانهم وأرواحهم».

(٣) (ح): «وأماؤه على عباده».

(٤) (١/٧٩) - ومن طريقه الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/١٨٢) -، والرافعي في «التدوين» (٣/٢٠٨)، وأبو بكر الأبهري في «الفوائد» (١٦)، والشجري في «الأمالي» (١/٦٦)، والمعافى في «الجليس والأنيس» (٤/١٣٥)، والسُّلَفي في «الطيوريات» (٥٣٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٤/١٧، ٥٠/٢٥٢)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٢٤/٢٢٠)، والذهبي في «تذكرة الحفاظ» (١/١١) بإسنادٍ ضعيف. وقال الذهبي: «إسناده لين».

وروي من وجهٍ آخر:

أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/٣٧٩) - ومن طريقه ابن عساكر (٥٠/٢٥١) -، =

قال أبو بكر الخطيب: «هذا حديثٌ حسن، من أحسن الأحاديث معنًى، وأشرفها لفظاً، وتقسيمُ أمير المؤمنين الناس في أوله تقسيمٌ في غاية الصَّحَّة ونهاية السَّداد؛ لأنَّ الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام التي ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العِلَل؛ إمَّا أن يكون عالمًا، أو متعلِّمًا، أو مُغفلاً للعلم وطلبه ليس بعالمٍ ولا طالبٍ له.

فالعالمُ الربانيُّ هو الذي لا زيادةَ على فضله لفاضل، ولا منزلةَ فوق منزلته لمجتهد، وقد دخل في الوصف له بأنه ربَّانيٌّ وصفه بالصفَّات التي يقتضيها العلمُ لأهله، ويمنعُ وصفه بما خالفها.

ومعنى الرِّبَّاني في اللغة: الرفيعُ الدرجة في العلمِ العالي المنزلة فيه،

= وابن عبد ربه في «العقد» (٢/ ٢١٢) بإسنادٍ شديد الضعف. وقال ابن عساكر: «هذا طريق غريب».

ومن وجهٍ آخر:

أخرجه المعافى في «الجليس والأنيس» (٣/ ٣٣١)، ومن طريقه ابن عساكر (٥٠/ ٢٥٤)، وإسناده مظلم.

ومن وجهٍ آخر:

أخرجه أبو هلال العسكري في «ديوان المعاني» (١/ ٣٢٨)، وإسناده مظلم كذلك.

ومن وجهٍ آخر:

أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٨٢٤) بإسنادٍ منقطع، وأخشى أن يكون مركَّباً؛ والدينوريُّ متَّهمٌ بالكذب.

وهو مرويٌّ في كتب الشيعة وأمالهم من وجوهٍ أخرى مظلمة.

وقد قال ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٢/ ٩٨٤) - وأقرَّه المصنِّفُ في «إعلام

الموقعين» (٢/ ١٩٥) -: «وهو حديثٌ مشهورٌ عند أهل العلم، يستغني عن الإسناد؛ لشهرته عندهم».

وعلى ذلك حملوا قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: ٦٣]، وقوله: ﴿كُونُوا رَبَّانِيَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

قال [سعيد بن جبير]^(١): «حكماء فقهاء».

وقال أبو رزين^(٢): «فقهاء علماء»^(٣).

وقال أبو عمر الزاهد: سألت ثعلباً عن هذا الحرف - وهو الربّاني - فقال: سألت ابن الأعرابي فقال: إذا كان الرجل عالماً عاملاً معلماً قيل له: هذا ربّاني، فإن حَرَمَ^(٤) عن خصلةٍ منها لم يُقَلَّ له: ربّاني.

وقال ابنُ الأنباري عن النحويين: إنّ الربّانيّ منسوبون إلى الربِّ، وإنَّ الألف والنون زيدتا للمبالغة في النسب، كما تقول: لِحَيَانِي وَجُمَانِي إذا كان عظيمَ اللّحية والجُمّة^(٥).

وأما المتعلّم على سبيل النجاة فهو الطالب بتعلّمه والقاصدُ به نجاته من التفريط في تضييع الفروض الواجبة عليه، والرغبة بنفسه عن إهمالها واطّراحها، والأنفة من مجانسة البهائم^(٦).

(١) سقط من الأصول، سوى (ح)، ففيه: «علي وابن عباس». والمثبت من «الفقيه والمتفقه». وقد أخرجه الطبري (٥٤٢/٦) عن ابن عباس.

(٢) (ق): «الواقدي».

(٣) في (ح) زيادة: «وقال قتادة: حكماء علماء». وليست في «الفقيه والمتفقه».

(٤) مهمله في (د، ق). وفي «تهذيب اللغة» (٣١٦/١٤): «حرم خصلة». والمثبت من (ح، ت) و«الفقيه والمتفقه». وخَرَمَ عن الشيء: حاد وعدل عنه. «اللسان» (خرم).

(٥) «الزاهر» (١٧٨/١). وانظر: «المحكم» (٢٣٥/١٠).

(٦) «الفقيه والمتفقه» (١٨٤/١ - ١٨٦). والنصوصُ المنقولةُ مسندةٌ فيه.

ثُمَّ قَالَ: «وقد نفى بعض المتقدمين عن الناس من لم يكن من أهل العلم.

وأما القسم الثالث: فهم المُهْمِلُونَ لأنفسهم، الرَّاضُونَ بالمنزلة الدنيئة والحال الخسيسة، التي هي في الحضيض الأوْهَدِ والهبوط الأسفل، التي لا منزلة بعدها في الجهل ولا دونها في السقوط.

وما أحسن ما شبههم بالهَمَجِ الرَّعَاعِ! وبه يُشَبَّه دُناةُ الناس وأراذلهم.

والرَّعَاع: المُتَبَدِّدُ المتفرِّق، والنَّاعِق: الصَّائِح، وهو في هذا الموضع الراعي، يقال: نَعَقَ الراعي بالغنم يَنْعَق، إذا صاح بها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُنَىٰ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] ^(١).

ونحن نشيرُ إلى بعض ما في هذا الحديث من الفوائد:

* فقولُه رضي الله عنه: «القلوبُ أوعية»؛ القلبُ يُشَبَّه بالوعاء والإناء والوادي؛ لأنه وعاءٌ للخير والشرِّ.

وفي بعض الآثار: «إنَّ لله في أرضه آنية، وهي القلوب، فخيرُها أرقُّها وأصلبُها وأصفأها» ^(٢).

(١) «الفقيه والمتفقه» (١/١٨٦).

(٢) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٢/١٩) من حديث أبي عنبه الخولاني مرفوعاً بإسناد جيد، كما قال العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١/٤٧٤). وانظر: «السلسلة الصحيحة» (١٦٩١).

وفي صُحبة أبي عنبه خلافٌ ستأتي الإشارةُ إليه.
وروي الحديث من وجوه أخرى مرفوعاً وموقوفاً.

فهي أواني مملوءة من الخير، وأواني مملوءة من الشر؛ كما قال بعض السلف: «قلوب الأبرار تغلي بالبر، وقلوب الفجار تغلي بالفجور»^(١).

وفي مثل هذا قيل في المثل: «وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضح»^(٢).

وقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]؛ شبه العلم بالماء النازل من السماء، والقلوب في سعتها وضيقها بالأودية؛ فقلب كبير واسع يسعُ علمًا كثيرًا كوادٍ كبير واسع يسعُ ماءً كثيرًا، وقلب صغير ضيق يسعُ علمًا قليلًا كوادٍ صغير ضيق يسعُ ماءً قليلًا^(٣).

ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تسمُوا العنب: الكرم؛ فإنَّ الكرم قلبُ المؤمن»^(٤)، فإنهم كانوا يسمون شجرَ العنب: «الكرم»؛ لكثرة منافعه وخيره، والكرم كثرةُ الخير والمنافع^(٥)، فأخبرهم أنَّ قلبَ المؤمن أولى بهذه التسمية؛ لكثرة ما فيه من الخير والبرِّ والمنافع^(٦).

* وقوله: «فخيرها أوعاها»؛ يرادُّ به أسرعها وعيًا، وأكثرها وعيًا، وأثبتها وعيًا، ويرادُّ به أيضًا أحسنها وعيًا. فيكونُ حُسنُ الوعي – الذي هو إيعاء^(٧)

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (٣٢٣)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢٨٨/٦) عن مالك بن دينار.

(٢) «مجمع الأمثال» (١٦٢/٢).

(٣) انظر: «إعلام الموقعين» (١٥٢/١)، و«الوابل الصيب» (١٣٣)، وما تقدم (ص: ١٦٥).

(٤) أخرجه البخاري (٦١٨٣)، ومسلم (٢٢٤٧) عن أبي هريرة.

(٥) (ق): «والكروم كثيرة الخير والمنافع». قراءة محتملة. والمثبت أشبه.

(٦) انظر: «زاد المعاد» (٢/٣٤٨، ٤٦٨، ٣٦٩/٤)، و«تهذيب السنن» (٢١٧/١٣).

(٧) أوعى الشيء إيعاء: حَفِظَهُ. «اللسان» (وعى).

لما يقال له في قلبه - هو سرعته وكثرته وثباته.

والوعاء من مادة الوعي؛ فإنه آله ما يُوعى فيه، كالغطاء والفراس والبساط ونحوها، ويوصف بذلك القلب والأذن؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُمُ الْجَارِيَةُ﴾ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أذَنٌ وَعِيَةً ﴿[الحاقة: ١١ - ١٢]، قال قتادة: «أذُنٌ سَمِعَتْ وَعَقَلَتْ عن الله ما سَمِعَتْ» (١)، وقال الفراء: «لتحفظها كلُّ أذن، فتكون عظةً لمن يأتي بعدُ» (٢).

فالوعي توصف به الأذن كما يوصف به القلب، يقال: «قلبٌ واع، وأذنٌ واعية»؛ لما بين الأذن والقلب من الارتباط، فالعلمُ يدخلُ من الأذن إلى القلب، فهي بابه والرسولُ الموصولُ إليه العلم، كما أن اللسانَ رسوله المؤدّي عنه (٣).

ومن عرفَ ارتباط الجوارح بالقلب علمَ أن الأذن أحقُّها بأن توصفَ بالوعي؛ فإنها (٤) إذا وَعَت وَعَى القلبُ.

وفي حديث جابرٍ في المثل الذي ضربته الملائكة للنبي ﷺ ولأُمته، وقول الملك له: «أَسْمَعُ سَمِعْتَ أذُنُكَ، وَأَعْقِلُ عَقَلَ قَلْبُكَ» (٥).

(١) أخرجه الطبري (٥٧٩/٢٣).

(٢) «معاني القرآن» (٣/١٨١).

(٣) (ت): «الذي يؤدي عنه».

(٤) (د، ح، ن): «وأنها».

(٥) أخرجه الترمذي (٢٨٦٠)، وابن سعد (١/١٤٥)، وغيرهما من حديث جابر.

قال الترمذي: «هذا حديثٌ مرسل؛ سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر». وصححه الحاكم (٢/٣٣٨، ٤/٣٩٣) من وجهين فيهما إثباتٌ واسطةٌ بين سعيد وجابر. ولم =

فلَمَّا كَانَ الْقَلْبُ وَعَاءً، وَالْأُذُنُ مَدْخَلَ ذَلِكَ الْوَعَاءِ وَبَابَهُ، كَانَ حَصُولُ الْعِلْمِ مَوْقُوفًا عَلَى حَسَنِ الْاسْتِمَاعِ وَعَقْلِ الْقَلْبِ.

والعقل: هو ضَبْطُ مَا وَصَلَ إِلَى الْقَلْبِ وَإِمْسَاكُهُ حَتَّى لَا يَتَفَلَّتَ مِنْهُ. وَمِنْهُ: عَقْلُ الْبَعِيرِ وَالِدَابَّةِ، وَالْعِقَالُ لِمَا يُعْقَلُ بِهِ، وَعَقْلُ الْإِنْسَانِ سُمِّيَ عَقْلًا لِأَنَّهُ يَعْقِلُهُ عَنْ أَتْبَاعِ الْغَيِّ وَالْهَلَاكِ، وَلِهَذَا يَسْمَى: حَجَرًا، لِأَنَّهُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ كَمَا يَمْنَعُ الْحَجَرُ مَا حَوَاهُ.

فعَقْلُ الشَّيْءِ أَخْصَصُ مِنْ عِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ يَعْقِلُ مَا عَلِمَهُ فَلَا يَدْعُهُ يَذْهَبُ، كَمَا يَعْقِلُ الدَابَّةُ الَّتِي يَخَافُ شُرُودَهَا.

ولِلإِدْرَاكِ مَرَاتِبُ بَعْضُهَا أَقْوَى مِنْ بَعْضٍ؛ فَأَوَّلُهَا: الشُّعُورُ، ثُمَّ الْفَهْمُ، ثُمَّ الْمَعْرِفَةُ، ثُمَّ الْعِلْمُ، ثُمَّ الْعَقْلُ، وَمَرَادُنَا هُنَا بِالْعَقْلِ: الْمَصْدَرُ، لَا الْقُوَّةَ الْغَرِيزِيَّةَ الَّتِي رَكَّبَهَا اللَّهُ فِي الْإِنْسَانِ.

فخَيْرُ الْقُلُوبِ مَا كَانَ وَاعِيًا لِلْخَيْرِ ضَابِطًا لَهُ، وَلَيْسَ كَالْقَلْبِ الْقَاسِيِ الَّذِي لَا يَقْبَلُهُ، فَهَذَا قَلْبٌ حَجَرِيٌّ، وَلَا كَالْمَائِعِ الْأَخْرَقِ الَّذِي يَقْبَلُ وَلَكِنْ لَا يَحْفَظُ وَلَا يَضْبِطُ. فَتَفْهِيمُ الْأَوَّلِ كَالرَّسْمِ فِي الْحَجَرِ، وَتَفْهِيمُ الثَّانِي كَالرَّسْمِ عَلَى الْمَاءِ. بَلْ خَيْرُ الْقُلُوبِ مَا كَانَ لَيْسًا صَلْبًا؛ يَقْبَلُ بَلِينَهُ مَا يَنْطَبِعُ فِيهِ، وَيَحْفَظُ صَوْرَتَهُ بِصَلَابَتِهِ، فَهَذَا تَفْهِيمُهُ كَالرَّسْمِ فِي الشَّمْعِ وَشَبْهِهِ.

= يتعقبه الذهبي. والمرسل أشبه.

وله شاهد من حديث ربيعة الجرشي رضي الله عنه، عند الطبراني في «الكبير» (٥/ ٦٥)، وجوّد إسناده الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٢٥٦). وانظر: «تغليق التعليق» (٥/ ٣٢٠). وأخرجه الطبري (١٥/ ٦٠) عن أبي قلابة مرسلًا، بإسقاط ربيعة، وهو أصح.

* وقوله: «الناس ثلاثة: فعالم ربّاني، ومتعلّم على سبيل النجاة، وهمج رعا»؛ هذا تقسيمٌ حاصرٌ للناس^(١)، وهو الواقع؛ فإنَّ العبدَ إمّا أن يكون قد حصّل كماله من العلم والعمل أو لا؛ فالأول: العالمُ الرَّبّاني، والثاني: إمّا أن تكون نفسه متحرّكة في طلب ذلك الكمال ساعةً في إدراكه أو لا، والثاني: هو المتعلّم على سبيل النجاة، والثالث: هو الهمجُ الرعا. فالأول: هو الواصل، والثاني: هو الطالب، والثالث: هو المحروم.

والمعالمُ الرَّبّاني، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هو المعلم»^(٢)، أخذه من التربية؛ أي: يُربُّ الناسَ بالعلم^(٣)، ويربيهم به كما يربي الطفل أبوه. وقال سعيد بن جبير: «هو الفقيه العليم الحكيم»^(٤).

قال سيبويه: «زادوا ألفاً ونوناً في الرَّبّاني إذا أرادوا تخصيصاً بعلم الربّ تبارك وتعالى، كما قالوا: شُعْراني ولِخْياني»^(٥).

معنى قول سيبويه - رحمه الله -: أن هذا العالمَ لمّا نُسبَ إلى علم الربّ تعالى الذي بعث به رسوله، وتخصّصَ به، نُسبَ إليه دون سائر من علِمَ علماً ما.

(١) (د، ح، ت، ن): «خاص للناس». وهو تحريف. وفي طرّة (د): «لعله: حاصر». وأثبت ناسخ (ق) في المتن: «لعله حاصر للناس»، كأنه رأى التعليق في الطرّة فأدخله في المتن بتمامه!

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٢/ ٦٩١).

(٣) أي: يجمعهم ويُضِلُّهم. «اللسان» (رب).

(٤) انظر: «الفقيه والمتفقه» (١/ ١٨٥)، و«تفسير الطبري» (٦/ ٥٤٢).

(٥) لم أره في «الكتاب»، وهو مشهورٌ عنه، نقله جماعة، والنقل هنا عن الواحدي. وانظر: «الكتاب» (٣/ ٣٨٠)، و«تهذيب اللغة» (١٥/ ١٧٨).

قال الواحدي^(١): «فَالرَّبَّانِي - على قوله - منسوبٌ إلى الربِّ، على معنى التخصيص بعلم الربِّ، أي: بعلم الشريعة وصفات الربِّ تبارك وتعالى». قال المبرد: الرَّبَّانِي الذي يَرْبُّ العلمَ وَيَرْبُّ النَّاسَ به، أي: يعلمهم وَيُضِلُّهُمْ.

وعلى قوله، فالرَّبَّانِي مَنْ: رَبَّ يَرْبُّ رَبًّا، أي: تربيةً، فهو منسوبٌ إلى التربية، يربي علمه ليكمل ويقيم بقيامه عليه وتعاذه إياه، كما يربي صاحب المال ماله، ويربي الناس به كما يربي الأطفال أوليائهم.

وليس من هذا قوله^(٢): ﴿وَكَايْنٍ مِّن نِّبْيٍ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، فالرَّبَّيُّونَ هنا: الجماعات، ياجماع المفسرين^(٣)، قيل: إنه من الرِّبَّة - بكسر الراء -، وهي الجماعة.

قال الجوهري: «الرَّبِّيُّ واحدُ الرَّبَّيِّينَ؛ وهم الألوْفُ من الناس، قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن نِّبْيٍ قَتَلَ مَعَهُ رِيتُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ﴾»^(٤). ولا يوصفُ العالمُ بكونه رَبَّانِيًّا حتى يكون عاملاً بعلمه معلماً له. فهذا قِسْم.

(١) في «الوسيط» (٤٥٦/١)، و«السيط» (٣٨٢/٥).

(٢) (ت، د، ق): «وليس هذا من قوله».

(٣) هو قول الأكثرين. وجاء عن ابن عباس والحسن وغيرهما تفسيرها بالعلماء. انظر: «سنن سعيد بن منصور» (١٠٩٦)، و«تفسير الطبري» (٢٦٧/٧)، و«جامع المسائل» (٦٢/٣).

(٤) «الصحيح» (١٣٢/١) (ربب).

والقسم الثاني: متعلِّمٌ على سبيل نجاة؛ أي: قاصداً بعلمه النجاة، وهو المخلصُ في تعلُّمه، المتعلِّمُ ما ينفعُه، العاملُ بما علَّمَه، فلا يكون المتعلِّمُ على سبيل نجاةٍ إلا بهذه الأمور الثلاثة؛ فإنه إن تعلَّم ما يضرُّه ولا ينفعُه لم يكن على سبيل نجاة، وإن تعلَّم ما ينتفعُ به لا للنجاة فكذلك، وإن تعلَّمه ولم يعمل به لم يحصل له النجاة، ولهذا وصفَه بكونه على السبيل، أي: على الطريق التي تنجيه.

وليس حرفُ «على» وما عمِلَ فيه متعلِّقاً بـ «متعلِّم» إلا على وجه التضمن، أي: مفتشٌ متطلِّعٌ على سبيل نجاته ليسلكه؛ فتعلَّمه تفتيشٌ على سبيل نجاته.

فهذا في الدرجة الثانية، وليس ممَّن تعلَّمه ليماري به الشُّفهاء، أو يجاري به العلماء، أو يصرفَ وجوهَ الناس إليه، فإنَّ هذا من أهل النار، كما جاء في الحديث^(١)، وثبَّت أبو نعيم وأبو عمرو بن الصلاح وغيرهما.

قال أبْنُ الصلاح: وثبَّت أبو نعيم - أيضاً - قوله ﷺ: «من تعلَّم علماً مما يتنغى به وجهُ الله، لا يتعلَّمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجدْ رائحةَ الجنة»^(٢).

(١) ورد من رواية جماعةٍ من الصحابة، ولا أعلمُ يصحُّ منها شيء، وقد صحَّح بعضها بعض أهل العلم.

وقال العقيلي في «الضعفاء» (٢/ ١٣٠): «في هذا الباب أحاديثٌ عن جماعةٍ من أصحاب النبي ﷺ، ليئةُ الأسانيد، عن النبي ﷺ». وانظر: «الكامل» لابن عدي (١/ ٣٣٢، ٧/ ٢١٦). ورؤي من كلام بعض السلف، وهو أشبه.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٨)، وأبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وغيرهم من =

قال: وثبتت - أيضًا - قوله ﷺ: «أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه الله بعلمه» (١).

فهؤلاء ليس فيهم من هو على سبيل نجاة، بل على سبيل الهلكة، نعوذ بالله من الخذلان.

القسم الثالث: المحرومُ المُعرَّض؛ فلا عالمٌ ولا متعلِّمٌ، بل همجٌ رَعاع.

والهمجُ من الناس: حَمَقَاهُمْ وَجَهَلَتَهُمْ، وأصله من الهمَج، جمع هَمَجَةٍ، وهو ذبابٌ صغيرٌ كالبعوض يسقطُ على وجوه الغنم والدوابِّ وأعينها؛ فشبهَ همَجُ الناس به.

والهمَجُ أيضًا مصدر؛ قال الرازي (٢):

= حديث أبي هريرة بإسنادٍ فيه ضعف.

وصححه ابن حبان (٧٨)، والحاكم (١/ ٨٥) ولم يتعقبه الذهبي. وروى مرسلًا من وجهٍ أصح. قال الدارقطني في «العلل» (١١/ ٩): «والمرسل أشبه بالصواب».

وأعله أبو زرعة بعليةٍ أخرى. انظر: «علل ابن أبي حاتم» (٢/ ٤٣٨). وقال العقيلي (٣/ ٤٦٦) بعد أن أخرجه: «الرواية في هذا الباب لينة». وقد ذكر المعلِّمي في تعليقاته على «الفوائد المجموعة» (٣٣٠) أن أبا نُعيم قد يطلق الثبوت ويريد أن الحديث ثابتٌ في كتابه، لا أنه ثابتٌ عن النبي ﷺ. (١) تقدم تخريجُه وبيانُ ضعفه (ص: ٣١٩).

(٢) وهو أبو مُحَرِّز المحاربي. والرجز في «مجالس ثعلب» (٥٨٥)، و«الأضداد» لابن الأنباري (٢٧٩)، و«اللسان» (بذج)، وغيرها. قال الفراء: «البَدَجُ من أولاد الضأن، بمنزلة العتود من أولاد المعز».

قَدْ هَلَكَتْ جَارُتُنَا مِنَ الْهَمَجِ وَإِنْ تَجُوعُ تَأْكُلُ عَتُودًا أَوْ بَدَجَ

وَالْهَمَجُ هُنَا مَصْدَرٌ، وَمَعْنَاهُ: سُوءُ التَّدْبِيرِ فِي أَمْرِ الْمَعِيشَةِ.

وَقَوْلُهُمْ: «هَمَجٌ هَامِجٌ» مِثْلُ: «لَيْلٌ لَائِلٌ»^(١).

وَالرَّاعِغُ مِنَ النَّاسِ: الْحَقِيقِيُّ الَّذِينَ لَا يُعْتَدُّ بِهِمْ.

* وَقَوْلُهُ: «أَتَبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ»؛ أَي: مَنْ صَاحَ بِهِمْ وَدَعَاهُمْ تَبَعُوهُ، سِوَاءٍ دَعَاهُمْ إِلَى هَدًى أَوْ إِلَى ضَلَالٍ، فَإِنَّهُمْ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِالَّذِي يُدْعَوْنَ إِلَيْهِ أَحَقُّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ، فَهُمْ مُسْتَجِيبُونَ لِدَعْوَتِهِ.

وَهَؤُلَاءِ مِنْ أَضَرَّ الْخَلْقِ^(٢) عَلَى الْأَدْيَانِ؛ فَإِنَّهُمْ الْأَكْثَرُونَ عَدَدًا، الْأَقْلُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا، وَهُمْ حَطَبُ كُلِّ فِتْنَةٍ، بِهِمْ تُوقَدُ وَيُسَبَّبُ ضِرَامُهَا؛ فَإِنَّهَا يَعْتَزُّلُهَا أَوْلُو الدِّينِ، وَيَتَوَلَّاهَا الْهَمَجُ الرَّاعِغُ.

وَسُمِّيَ دَاعِيهِمْ: نَاعِقًا؛ تَشْبِيهًا لَهُمْ بِالْأَنْعَامِ الَّتِي يَنْعِقُ بِهَا الرَّاعِي فَتَذْهَبُ مَعَهُ أَيْنَ ذَهَبَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الْإِذَى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُنًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وَهَذَا الَّذِي وَصَفَهُمْ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ مَنْ عَدِمَ عِلْمَهُمْ وَظُلْمَةُ قُلُوبِهِمْ، فَلَيْسَ لَهُمْ نُورٌ وَلَا بَصِيرَةٌ يَفَرِّقُونَ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ الْبَاطِلِ، بَلِ الْكُلُّ عِنْدَهُمْ سِوَاءٌ.

* وَقَوْلُهُ: «يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ»، وَفِي لَفْظٍ: «مَعَ كُلِّ صَائِحٍ»؛ شَبَّهَ

(١) أَي: عَلَى جِهَةِ التَّوَكُّيدِ أَوْ الْمُبَالَغَةِ. انْظُرْ: «الصَّحَاحُ» (هَمَج).

(٢) (ت): «هُمْ أَضَرُّ الْخَلْقِ».

عقولهم الضعيفة بالعُصْن الضعيف، وشَبَّه الأُهوِيَّة والآراء بالرياح، والغصنُ يميلُ مع الريح حيث مالت، وعقول هؤلاء تميلُ مع كلِّ هوى وكلِّ داع، ولو كانت عقولاً كاملةً كانت كالشجرة الكبيرة التي لا تتلاعبُ بها الرياح.

وهذا بخلاف المثل الذي ضربه النبي ﷺ للمؤمنين بالخامة من الزرع تُفِيئُهُ الريحُ مرةً وتقيمُهُ أخرى، والمنافقُ كشجرة الأرز التي لا تُقَطَّعُ حتَّى تَسْتَحْصِدَ^(١)؛ فَإِنَّ هذا المثلَّ ضَرِبَ للمؤمن وما يلقاه من عواصف البلاء والأوجاع والأوجال وغيرها، فلا يزالُ بين عافيةٍ وبلاء، ومحنةٍ ومنحةٍ، وصحةٍ وسقم، وأمنٍ وخوف، وغير ذلك، فيقعُ مرةً ويقومُ أخرى، ويميلُ تارةً ويعتدلُ أخرى، فيُكفَى بالبلاء ويُمَحَّصُ به ويُخَلَّصُ من كَدَرِهِ، والكافرُ كلُّه خبثٌ ولا يصلحُ إلا للوقود، فليس في إصابته في الدنيا بأنواع البلاء من الحكمة والرحمة ما في إصابة المؤمن.

فهذه حالُ المؤمن في البلاء^(٢)، وأمَّا مع الأهواء ودعاة الفتن والضلال والبدع فكما قيل:

تَزُولُ الجبالُ الراسياتُ وقلْبُهُ على العهدِ لا يلوي ولا يَتَغَيَّرُ^(٣)

* وقوله: «لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق»؛ بيَّن السببَ الذي جعلهم بتلك المثابة؛ وهو أنه لم يحصل لهم من العلم نورٌ

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٣، ٥٦٤٤)، ومسلم (٢٨٠٩، ٢٨١٠) من حديث أبي هريرة وأبي بن كعب.

(٢) (ق): «الابتلاء».

(٣) أنشده المصنف في «بدائع الفوائد» (٥٢٧)، و«طريق الهجرتين» (٦٨١). والرواية في الثاني: على الود.

يفرّقون به بين الحقّ والباطل؛ كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد:
٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ
كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقوله تعالى:
﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ [المائدة: ١٦]، وقوله: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا
نَهْدِي بِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. فإذا عَدِمَ القلبُ هذا النورَ صارَ
بمنزلة الحيران الذي لا يدري أين يذهب، فهو لحيرته وجهله بطريق
مقصوده يؤمُّ كلَّ صوتٍ يسمعه.

= ولم يَسْكُنْ قلوبَهُم^(١) من العلم ما تمتنعُ به من دعاة الباطل؛ فإنَّ
الحقَّ متى أَسْتَقَرَّ في القلبِ قَوِيٌّ به وامتنعَ مما يضرُّه ويُهْلِكُه، ولهذا سَمَّى
اللهُ الحجةَ العلميَّةَ: سلطانًا، وقد تقدَّم ذلك.

فالعبدُ يُؤْتَى من ظُلْمَةٍ بصيرته ومن ضَعْفِ قلبه، فإذا أَسْتَقَرَّ فيه العلمُ
النافعُ أَسْتَنَارَتْ بصيرته وقَوِيَ قلبه.

وهذان الأصلان هما قُطْبَا السعادة، أعني: العلم، والقوَّة.

وقد وصفَ بهما سبحانه المعلِّمَ الأوَّلَ جبريلَ صلواتُ الله وسلامُه
عليه، فقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْوَحِيُّ يُوحَىٰ ۖ عَلَيْهِ سَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٤ - ٥]، وقال في
سورة التكويد: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، فوصفه

(١) معطوف على قوله: «لم يحصل لهم من العلم نور...».

بالعلم والقوّة.

وفيه معنى أحسن من هذا؛ وهو الأشبهُ بمراد عليّ رضي الله عنه؛ وهو أن هؤلاء ليسوا من أهل البصائر الذين استضاءوا بنور العلم، ولا لجؤوا إلى عالم مستبصرٍ فقلّدوه، فلا مستبصرين ولا متّبعين لمستبصر؛ فإنَّ الرجلَ إمّا أن يكون بصيرًا، أو أعمى متمسِّكًا ببصيرٍ يقوده، أو أعمى يسيرُ بلا قائد.

* قوله رضي الله عنه: «العلمُ خيرٌ من المال، العلمُ يحرسُك وأنت تحرسُ المال»؛ يعني: أنَّ العلمَ يحفظُ صاحبه ويحميه من موارد الهلكة ومواقع العطب؛ فإنَّ الإنسان لا يلقي نفسه في هلكةٍ إذا كان عقله معه، ولا يعرضها لتلافٍ^(١) إلا إذا كان جاهلاً بذلك لا علم له به^(٢)، فهو كمن يأكل طعامًا مسمومًا، فالعالمُ بالسُّمِّ وضرره يحرسه علمه، ويمتنعُ به من أكله، والجاهلُ به يقتله جهله.

فهذا مثلُ حراسة العلم للعالم.

وكذا الطبيبُ الحاذقُ يمتنعُ بعلمه من كثيرٍ مما يجلبُ له الأمراض والأسقام، وكذا العالمُ بمخاوف طريق سلوكه ومعاطبها يأخذُ حذرَه منها، فيحرسه علمه من الهلاك.

(١) كذا في الأصول، سوى (ت): «الملاف»، تحريف. وهو بكسر التاء مصدرٌ محدثٌ لتلف. أو بفتحها والألف إشباعٌ لفتحة اللام في التلف، ولم تذكره كتب اللغة. انظر: «تكملة المعاجم» لدوزي (٢/ ٥٩)، و«حاشية ابن عابدين» (١/ ٢٢)، و«دراسات في العربية وتاريخها» لمحمد الخضر حسين (١٢٦). وهو كثير الوقوع في كلام المتأخرين، ومن أفصحهم: أبو العلاء في «اللزوميات» (٣/ ٣٨٧، ٤٠٧)، و«رسالة الغفران» (٣٩٣). وانظر: «الداء والدواء» (٥٠٧) والتعليق عليه.

(٢) (ت): «لا علم لديه».

وهكذا العالمُ بالله وأمره وبعده ومكايده^(١) ومداخله على العبد، يحرسه علمه من وساوس الشيطان وخطراته وإلقاء الشك والريب والكفر في قلبه، فهو بعلمه يمتنع من قبول ذلك، فعلمه يحرسه من الشيطان، فكلما جاءه ليأخذه صاح به حرس العلم والإيمان، فيرجع خاسئًا خائبًا.

وأعظم ما يحرسه من هذا العدو المبين: العلم والإيمان، فهذا السبب الذي من العبد، والله من وراء حفظه وحراسته وكلاءته، فمتى وكله إلى نفسه طرفة عين تخطفه عدوه.

قال بعض العارفين: «أجمع العارفون على أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلي بينك وبين نفسك»^(٢).

وقوله: «العلم يزكو على الإنفاق، والمال تنقصه النفقة»؛ العالم كلما بذل علمه للناس وأنفق منه تفجرت ينابيعه وازداد كثرة وقوة وظهورًا فيكتسب بتعليمه حفظ ما علمه، ويحصل له به علم ما لم يكن عنده، وربما تكون المسألة في نفسه غير مكشوفة ولا خارجة من حيز الإشكال، فإذا تكلم بها وعلمها أتضحت له وأضاءت وانفتح له منها علوم آخر.

وأيضًا؛ فإنَّ الجزاء من جنس العمل، فكما علم الخلق من جهالتهم، جزاه الله بأن علمه من جهالته؛ كما في «صحيح مسلم»^(٣) من حديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ أنه قال في حديث طويل: «وأن الله قال لي: أنفق أنفق عليك»، وهذا يتناول نفقة العلم؛ إمَّا بلفظه، وإمَّا بتنبهه وإشارته

(١) (ح، ن): «ومصايده».

(٢) انظر: «الوابل الصيب» (١٠)، و«الفوائد» (٩٧)، وما سيأتي (ص: ٨١٨).

(٣) (٢٨٦٥).

وفحواه.

ولزكاء العلم ونموه^(١) طريقان:

أحدهما: تعليمه.

والثاني: العمل به؛ فإنَّ العملَ به أيضًا ينمِّيهِ ويكثِّره، ويفتُحُ لصاحبه أبوابه وخباياه، وهذا لأنَّ تعليمه والعملَ به هو التجارة فيه، فكما ينمو المالُ بالتجارة فيه كذلك العلم.

وقوله: «وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النِّفْقَةُ» لا ينافي قول النبي ﷺ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ»^(٢)؛ فَإِنَّ الْمَالَ إِذَا تَصَدَّقَتْ مِنْهُ وَأُنْفَقَتْ ذَهَبَ ذَلِكَ الْقَدْرُ وَخَلَفَهُ غَيْرُهُ، وَأَمَّا الْعِلْمُ فَكَالْقَبَسِ مِنَ النَّارِ لَوْ أَقْتَبَسَ مِنْهَا الْعَالِمُ^(٣) لَمْ يَذْهَبْ مِنْهَا شَيْءٌ، بَلْ يَزِيدُ الْعِلْمُ بِالْإِقْتِبَاسِ مِنْهُ، فَهُوَ كَالْعَيْنِ الَّتِي كَلَّمَا أُخِذَ مِنْهَا قُوَى يَنْبُوْعُهَا وَجَاشَ مَعِينُهَا.

وفضل العلم على المال يُعَلِّمُ من وجوه:

أحدها: أَنَّ الْعِلْمَ مِيرَاثُ الْأَنْبِيَاءِ، وَالْمَالُ مِيرَاثُ الْمُلُوكِ وَالْأَغْنِيَاءِ.

الثاني: أَنَّ الْعِلْمَ يَحْرُسُ صَاحِبَهُ، وَصَاحِبُ الْمَالِ يَحْرُسُ مَالَهُ.

والثالث: أَنَّ الْمَالَ تُذْهِبُهُ النِّفَقَاتُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى النِّفْقَةِ.

(١) في الأصول: «ونحوه». تحريف. وانظر: «طريق الهجرتين» (٨٠٢، ٨٠٥)، و«إغاثة اللفهان» (٤٦/١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة.

(٣) (ح): «أهل الأرض». وفي طرَّتها: «في الأصل: أهل العلم». وفي (ن): «أهل العلم». وفي طرَّتها: «لعله أهل الأرض».

الرابع: أنَّ صاحبَ المال إذا مات فارقه ماله، والعلمُ يدخلُ معه قبره.

الخامس: أنَّ العلمَ حاكمٌ على المال، والمالُ لا يحكمُ على العلم.

السادس: أنَّ المالَ يحصلُ للمؤمن والكافر والبرِّ والفاجر، والعلمُ النافعُ لا يحصلُ إلا للمؤمن.

السابع: أنَّ العالمَ يحتاجُ إليه الملوكُ فمن دونهم، وصاحبُ المال إنما يحتاجُ إليه أهلُ العُدْم والفاقة.

الثامن: أنَّ النفسَ تَشْرُفُ وتزكو بجمع العلم وتحصيله، وذلك من كمالها وشرفها، والمالُ لا يزيكُّها ولا يكملُّها ولا يزيدها صفةً كمال، بل النفسُ تنقصُ وتَشُحُّ وتبخلُ بجمعه والحرص عليه؛ فحرصُها على العلم عينُ كمالها، وحرصُها على المال عينُ نقصها.

التاسع: أنَّ المالَ يدعوها إلى الطغيان والفخر والخيلاء، والعلمُ يدعوها إلى التواضع والقيام بالعبودية؛ فالمالُ يدعوها إلى صفات الملوك والعلمُ يدعوها إلى صفات العبيد.

العاشر: أنَّ العلمَ حاجبٌ^(١) موصلٌ لها إلى سعادتها التي خُلِقَتْ لها والمال حاجبٌ عنها وبينها^(٢).

الحادي عشر: أنَّ غنى العلم أجْلٌ من غنى المال؛ فإنَّ غنى المال غنى

(١) (ح، ن): «جاذب». (ق، ت، د): «صاحب». وفي طرة (د): «حاجب» وفوقه (خ) إشارة إلى نسخة. وهو الصواب. انظر: «الفوائد» (١٦١)، و«طريق الهجرتين» (٧٣٧).

(٢) (ح، ت، ن): «بينها وبينها».

بأمرٍ خارجيٍّ عن حقيقة الإنسان، لو ذهبَ في ليلةٍ أصبحَ فقيرًا مُعْدِمًا، وغنى العلم لا يُخشى عليه الفقر، بل هو في زيادةٍ أبدًا، فهو الغنى العالِي (١) حقيقة؛ كما قيل:

غَنَيْتُ بِلا مالٍ عن الناس كلِّهم وإنَّ الغنى العالِي عن الشَّيء لا به (٢)

الثاني عشر: أنَّ المالَ يَسْتَعِيدُ مُجَبَّهَ وصاحبه، فيجعلُه عبدًا له، كما قال النبي ﷺ: «تَعَسَّ عبد الدينار والدرهم...» الحديث (٣)، والعلمُ يَسْتَعِيدُه لرَبِّه وخالقه، فهو لا يدعوه إلا إلى عبوديةِ الله وحده.

الثالث عشر: أنَّ حبَّ العلم وطلبه أصلُ كلِّ طاعة، وحبُّ الدنيا والمال وطلبه أصلُ كلِّ سيئة (٤).

الرابع عشر: أنَّ قيمةَ الغنيِّ ماله، وقيمةَ العالمِ علمُه، فهذا متقوِّمٌ بماله، فإذا عُدِمَ ماله عُدِمَت قيمتهُ فبقي بلا قيمة، والعالمُ لا تزولُ قيمتهُ، بل هي في تضاعفٍ وزيادةٍ دائمًا.

الخامس عشر: أنَّ جوهرَ المال من جنسِ جوهرِ البدن، وجوهرُ العلم من جنسِ جوهرِ الروح، كما قال يونس بن حبيب: «علمُك من روحك،

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٦٥، ٦٧).

(٢) مِنْ أَيْبَاتٍ تَنْسَبُ لِلشَّافِعِيِّ فِي «المستطرف» (٣٠٣/٢)، و«غذاء الألباب» (٥٤٣/٢)، وعنهما في ديوانه المجموع (١٣١). والبيتُ في «ربيع الأبرار» (٣٨٣/٤) منسوبٌ للقَهْشْتَانِي.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة.

(٤) (ح، ن): «خطيئة».

ومألك من بدنك»^(١)، والفرق بين الأمرين كالفرق بين الروح والبدن.

السادس عشر: أن العالم لو عُرِضَ عليه بحظه من العلم الدنيا بما فيها لم يَرَضْها عَوْضًا من علمه، والغني العاقل إذا رأى شرف العالم وفضله وابتهاجه بالعلم وكماله به يودُّ لو أن له علمه بغناه أجمع.

السابع عشر: أن ما أطاع الله أحدٌ قطُّ إلا بالعلم، وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال.

الثامن عشر: أن العالم يدعو الناس إلى الله بعلمه وحاله، وجامع المال يدعوهم إلى الدنيا بحاله وماله.

التاسع عشر: أن غنى المال قد يكون سببَ هلاك صاحبه كثيرًا؛ فإنه معشوقُ النفوس، فإذا رأت من يستأثرُ بمعشوقها عليها سعت في هلاكه، كما هو الواقع. وأمَّا غنى العلم فسببُ حياة الرجل وحياة غيره به، والناس إذا رأوا من يستأثرُ عليهم به ويطلبه أحبُّوه وخدموه وأكرموه.

العشرون: أن اللذة الحاصلة من غنى المال إما لذَّةٌ وهميةٌ وإما لذَّةٌ بهيميةٌ. فإن صاحبه إن ألتذَّ بنفس جمعه وتحصيله فتلك لذَّةٌ وهميةٌ خياليةٌ وإن ألتذَّ بإنفاقه في شهواته فهي لذَّةٌ بهيميةٌ. وأمَّا لذَّةُ العلم فلذَّةٌ عقليةٌ روحانيةٌ، وهي تشبه^(٢) لذَّةُ الملائكة وبهجتها. وفرقٌ ما بين اللذتين.

الحادي والعشرون: أن عقلاء الأمم مطبقون على ذمِّ الشره في جمع

(١) أخرجه القالي في «الأمالي» (١/ ٢٢٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٠٣/ ٣٤)، وغيرهما.

(٢) (ت): «شبه». «وهي» ليست في (ح، ن).

المال الحريص عليه، وتنقُصه والإزراء به، ومطبقون على تعظيم الشره في جمع العلم وتحصيله، ومدحه ومحَبته ورؤيته بعين الكمال.

الثاني والعشرون: أنهم مطبقون على تعظيم الزاهد في المال، المُعرض عن جمعه، الذي لا يَلْتَفِتُ إليه ولا يجعل قلبه عبدًا له، ومطبقون على ذم الزاهد في العلم، الذي لا يَلْتَفِتُ إليه ولا يحرص عليه.

الثالث والعشرون: أن المال إنما يُمدَحُ صاحبه بتخليه منه وإخراجه، والعلمُ إنما يُمدَحُ بتحليّه به واتّصافه به.

الرابع والعشرون: أن غنى المال مقرون بالخوف والحزن، فهو حزينٌ قبل حصوله، خائفٌ بعد حصوله، وكلّما كان أكثر كان الخوف أقوى، وغنى العلم مقرون بالأمن والفرح والسرور.

الخامس والعشرون: أن الغنى بماله لا بدّ أن يفارقه غناه، فيتعذّب ويتألم بمفارقتها، والغنى بالعلم لا يزول، فلا يتعذّب صاحبه ولا يتألم؛ فلذّة الغنى بالمال لذّة زائلة منقطعة يعقبها الألم، ولذّة الغنى بالعلم لذّة باقية مستمرة لا يلحقها ألم.

السادس والعشرون: أن استلذاذ^(١) النفس وكمالها بالغنى استكمالٌ بعاريّة مؤدّة، فتجمّلها بالمال تجمّلٌ بثوبٍ مستعار لا بدّ أن يرجع إلى مالكه يومًا ما، وأما تجمّلها بالعلم وكمالها به فتجمّلٌ بصفة ثابتة لها راسخة فيها لا تفارقها.

السابع والعشرون: أن الغنى بالمال هو عين فقر النفس، والغنى بالعلم

(١) ليست في (ح). وفي (ن): «التذاذ».

هو غناها الحقيقي؛ فغناها بعلمها هو الغنى، وغناها بمالها هو الفقر.

الثامن والعشرون: أن من قُدِّم وأُكْرِم لماله إذا زال ماله ذهب^(١) تقديمه وإكرامه، ومن قُدِّم وأُكْرِم لعلمه فإنه لا يزداد إلا تقديمًا وإكرامًا.

التاسع والعشرون: أن تقديم الرجل لماله هو عينُ ذمِّه؛ فإنه نداءٌ عليه بنقصه، وأنه لو لا ماله لكان مستحقًّا للتأخير والإهانة^(٢)، وأما تقديمه وإكرامه لعلمه فإنه عينُ كماله؛ إذ هو تقديمٌ له بنفسه وبصفته القائمة به، لا بأميرٍ خارجٍ عن ذاته.

الوجه الثلاثون: أن طالبَ الكمال بغنى المال كالجامع بين الضدين؛ فهو طالبٌ ما لا سبيل له إليه.

وبيان ذلك: أن القدرةَ صفةُ كمال، وصفةُ الكمال محبوبةٌ بالذات، والاستغناء عن الغير - أيضًا - صفةُ كمالٍ محبوبةٌ بالذات، فإذا مال الرجل بطبعه إلى السَّخَاوة والجُود وفعل المَكْرُمات، فهذا كمالٌ مطلوبٌ للعقلاء، محبوبٌ للنفوس، وإذا ألْتَفَت إلى أن ذلك يقتضي خروجَ المال من يده، وذلك يُوجبُ نقصَه واحتياجه إلى غيره وزوالَ قدرته = نَقَرَت نفسه عن السَّخَاء والكرم والجُود واصطناع المعروف، وظنَّ أن كماله في إمساك المال.

وهذه البليَّةُ أمرٌ ثابتٌ لعامةِ الخلق، لا ينفكُّون عنها^(٣).

(١) (ح، ن): «زال».

(٢) (ح، ن): «للتأخير والإبعاد».

(٣) (ق، د): «لا ينفكرون».

فلأجل مَيْلِ الطَّبَعِ إِلَى حصول المدح والثناء والتعظيم = يَحِبُّ الجود^(١)
والسَّخَاءَ والمكارم، ولأجل قُوَّةِ القدرة الحاصلة بسبب إخراجِه والحاجة
المنافية لكَمال الغنى = يَحِبُّ إيقاءَ ماله، ويكره السَّخَاءَ والكرمَ والجود.

فيبقى قلبه واقفاً بين هذين الدَّاعِيَيْنِ يتجاذبانه، وَيَعْتَوِرَانِ عليه، فيبقى
القلبُ في مقام المعارضة بينهما، فمن الناس من يترجَّحُ عنده جانبُ البذل
والجود والكرم، فيؤثِّره على الجانب الآخر، ومنهم من يترجَّحُ عنده جانبُ
الإمساك وبقاء القدرة والغنى، فيؤثِّره.

فهذان نَظْرَانِ للعقلاء.

ومنهم من يبلغُ به الجهلُ والحماقةُ إِلَى حيث يريدُ الجمعَ بين
الوجهين، فيَعِدُّ الناسَ بالجود والسَّخَاءِ والمكارم؛ طمعاً منه في فوزه
بالمدح والثناء على ذلك، وعند حضور الوقت لا يَفي بما قال؛ فيَسْخُو
ويبذلُ بلسانه، ويُمْسِكُ بقلبه ويده؛ فيقعُ في أنواعٍ من القبائح والفضائح!

وإذا تَأَمَّلْتَ أحوال أهل الدنيا من الأغنياء رأيتهم تحت أسر هذه البلية
وهم غالباً يَشْكُونُ وَيَبْكُونُ.

وأما غنيُّ العلم، فلا يَعْرِضُ له شيءٌ من ذلك، بل كلما بَدَلَه أزداد يبذله
فرحاً وسروراً وابتهاجاً، والعالمُ^(٢) وإن فاتته لَذَّةُ أهل الغنى وتمتُّعهم
بأموالهم فهم أيضاً قد فاتتهم لَذَّةُ أهل العلم وتمتُّعهم بعلومهم وابتهاجهم
بها.

(١) (ق، ن): «يحب الجود». وهو تحريف.

(٢) ليست في (ت، ق، د).

فمع صاحب العلم من أسباب اللذة ما هو أعظم وأقوى وأدوم من لذة الغني، وتعبه في تحصيله وجمعه وضبطه أقل من تعب جامع المال بجمعه^(١)، وألمه دون ألمه؛ كما قال تعالى للمؤمنين - تسلياً لهم بما ينالهم من الألم والتعب في طاعته ومرضاته -: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

الحادي والثلاثون: أن اللذة الحاصلة من المال والغنى إنما هي حال تجدد فقط، وأما حال دوامه: فإما أن تذهب تلك اللذة، وإما أن تنقُص. ويدل عليه أن الطبع يبقى طالباً لغنى آخر، حريصاً عليه، فهو يحاول تحصيل الزيادة دائماً، فهو في فقر مستمر غير مُنقُص^(٢)، ولو ملك خزانة الأرض فققره وطلبه وحرصه باقٍ عليه؛ فإنه أحد المنهزمين اللذين لا يشبعان^(٣)، فهو لا يفارقه ألم الحرص والطلب.

وهذا بخلاف غنى العلم والإيمان؛ فإن لذته في حال بقاءه مثلها في حال تجدده، بل أزيد، وصاحبها وإن كان لا يزال طالباً للمزيد حريصاً عليه، فطلبه وحرصه مُستصحِبٌ للذة الحاصل، ولذة المرجو المطلوب، ولذة

(١) (ت، ح، ن): «فجمعه». خطأ.

(٢) (ت): «منتقص». «ق»: «منتقص».

(٣) والآخر هو طالب العلم؛ كما ورد في الحديث المشهور الذي صححه الحاكم (٩٢/١) من حديث أنس مرفوعاً، ولم يتعبه الذهبي. وهو أحسنُ طريقة. وجاء من حديث أنس وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم من طريق معلولة. وروي موقوفاً، وهو أشبه.

الطلب وابتهاجه وفرحه به.

الثاني والثلاثون: أَنَّ غِنَى المال يستدعي الإنعام على الناس والإحسان إليهم؛ فصاحبُه إما أن يسُدَّ على نفسه هذا الباب، وإما أن يفتحه عليه.

فإن سدَّه على نفسه أَشْتَهَرَ عند الناس بالبعد من الخير والنفع؛ فأبغضوه وذمُّوه واحتقروه، وكلُّ من كان بغيضًا عند الناس حقيرًا لديهم كان وصول الآفات والمضرات إليه أسرع من النار في الحطب اليابس، ومن السَّيل في مُنَحْدَره، وإذا عرف من الخلق أنهم يمقتونه ويبغضونه ولا يقيمون له وزنًا تألَّم قلبه غاية التألم، وأُحْضِرَ الهمومَ والغمومَ والأحزان.

وإن فتح باب الإحسان والعطاء فإنه لا يمكنه إيصال الخير والإحسان إلى كلِّ أحد، فلا بدَّ من إيصاله إلى البعض وإمساكه عن البعض، وهذا يفتح عليه باب العداوة والمذمة من المحروم والمرحوم.

أمَّا المحرومُ فيقول: كيف جادَ على غيري وبَخِلَ عليَّ؟!

وأمَّا المرحومُ فإنه يلتذ ويفرحُ بما حصلَ له من الخير والنفع، فيبقى طامعًا مُسْتَشْرِفًا لنظيره على الدوام، وهذا قد يتعدَّزُ غالبًا؛ فيفضي ذلك إلى العداوة الشديدة والمذمة، ولهذا قيل: «أتقِ شرَّ من أحسنتَ إليه»^(١).

وهذه الآفات لا تعرض في غِنَى العلم؛ فإنَّ صاحبه يمكنه بذلُّه للعالم واشترائهم فيه^(٢)، والقدرُ المبذولُ منه باقٍ لا أخذه لا يزول، بل يتجرَّبُه، فهو

(١) وهو مثلُ سائر. انظر: «مجمع الأمثال» (١/ ١٤٥). ويذكره بعضهم حديثًا، ولا أصل له. انظر: «المقاصد الحسنة» (٣٩).

(٢) (ت، د، ق): «بذله للعالم كلهم وأشباههم» ولعلها: «وإشراهم فيه».

كالغنيّ إذا أعطى الفقير رأس مالٍ ^(١) يتجرّ به حتى يصير غنيًّا مثله.

الوجه الثالث والثلاثون: أن جمع المال مقرون بثلاثة أنواع من الآفات والمحن: نوعٌ قبله، ونوعٌ عند حصوله، ونوعٌ بعد مفارقتة.
* فأما النوع الأول: فهو المشاقُّ والأنكادُ والآلامُ التي لا يحصلُ إلا بها.

* وأما النوع الثاني: فمشقةُ حفظه وحراسته وتعلُّق القلب به، فلا يُصْبِحُ إلا مهمومًا، ولا يُمسي إلا مغمومًا.

فهو بمنزلة عاشقٍ مُفْرِطِ المحبّة قد ظَفِرَ بمعشوقه، والعيونُ من كلّ جانبٍ ترمقه، والألسنُ والقلوبُ ترشقه، فأَيُّ عَيْشٍ وأَيُّ لَذَّةٍ لمن هذه حاله؟! وقد عَلِمَ أَنَّ أعداءه وحسّاده لا يفترون عن سعيهم في التفريق بينه وبين معشوقه وإن لم يظفروا هم به، ولكنَّ مقصودهم أن يزيلوا اختصاصه به دونهم، فإن فازوا به وإلا آستوا في الحرمان، فزال الاختصاصُ المؤلِّمُ للنفس.

ولو قدروا على مثل ذلك مع العالمِ لفعلوه، ولكنهم لما علموا أنه لا سبيل إلى سلبه علمه ^(٢) عمدوا إلى جحده وإنكاره؛ ليزيلوا من القلوب محبته وتقديمه والثناء عليه، فإن بهرَ علمه وامتنع عن مكابرة الجحود والإنكار رَمَوْه بالعظائم، ونسبوه إلى كلّ قبيح؛ ليزيلوا من القلوب محبته ويُسْكِنُوا موضعها النفرة عنه وبغضه. وهذا شغلُ السّحرة بعينه؛ فهو لاء سحرةٌ بالسّتهم.

(١) (ح): «رأس ماله». وهو تحريف.

(٢) (ق): «إلى سلبه». (ح): «إلى سلب علمه». (ت): «إلى سلبه وعلمه».

فإن عجزوا له عن شيء من القبائح الظاهرة بعينه رَمَوْه بالتلبس والتدليس، والزُّوْكَرَةَ^(١) والرِّياء، وحبُّ التُّرُفِ وطلب الجاه.

وهذا القَدْرُ من معاداة أهل الجهل والظُّلم للعلماء مثل الحرِّ والبرد لا بدَّ منه، فلا ينبغي لمن له مُسْكَةٌ عقل أن يتأذَّى به؛ إذ لا سبيل له إلى دفعه بحال، فليوطن نفسه عليه كما يوطنها على برد الشتاء وحرِّ الصَّيف.

* والنوع الثالث من آفات الغنى: ما يحصل للعبد بعد مفارقتة من تعلق قلبه به، وكونه قد حيل بينه وبينه، والمطالبة بحقوقه، والمحاسبة على مقبوضه ومصرفه: من أين أكتسبه وفي ماذا أنفقه؟

وغنى العلم والإيمان مع سلامته من هذه الآفات فهو كفيْلٌ بكلِّ لَذَّةٍ وفرحةٍ وسرور، ولكن لا يُنالُ إلا على جسرٍ من التعب والصبر والمشقة.

الرابع والثلاثون: أن لَذَّةَ الغنى بالمال مقرونةٌ بخُلْطَةِ الناس، ولو لم يكن إلا خَدْمُهُ وأزواجه وسراريه وأتباعه؛ إذ لو انفرد الغنى بماله وحده من غير أن يتعلَّق بخادمٍ أو زوجةٍ أو أحدٍ من الناس لم يكْمُلْ انتفاعه بماله، ولا التذاذه به.

وإذا كان كمالُ لذَّته بغناه موقوفًا على اتِّصاله بالغير، فذلك الاتصالُ

(١) قال المقري في «نفع الطيب» (١٢/٦): «الزواكرة [جمع زوكر]: لفظٌ يستعمله المغاربة، ومعناه عندهم المتلبس الذي يُظهِرُ النُّسكَ والعبادة، ويُبْطِنُ الفسق والفساد». وانظر: «طريق الهجرتين» (٨٨٩)، و«السير» (١٤/٣١٤، ٢١/١٩٣)، و«إنباء الغمر» (١/٣٧، ٣/٣٥٩)، و«الطالع السعيد» (٥٨٣)، و«أعيان العصر» (٤/٥٩٨). ومن رسائل ابن شيخ الحزامين: «الفرق بين كرامة الولي وزوكرة المزوكر». انظر: مقدمة تحقيق رحلته (١٠).

منشأ^(١) الآفات والآلام وأنواع النكد، ولو لم يكن إلا أختلاف أخلاق الناس وطبائعهم وإراداتهم؛ فقبیح هذا حسن ذاك، ومصلحة ذاك مفسدة هذا، ومنفعة هذا مضرّة الآخر، وبالعكس؛ فهو مبتلى بهم، فلا بدّ من وقوع الثّقرة والتباغض والتعادي بينهم وبينه؛ فإنّ إرضاءهم كلّهم محال، وهو جمع بين الضدّين، وإرضاء بعضهم وإسخاط غيره سبب الشرّ والمعاداة.

وكلما طالت المخالطة ازدادت أسباب الشرّ والعداوة وقويت؛ وبهذا السّبب كان الشرّ الحاصل من الأقارب والعُشراء أضعاف الشرّ الحاصل من الأجانب والبُعداء.

وهذه المخالطة إنما حصلت من جانب الغنى بالمال، أما إذا لم يكن فيه فضيلة^(٢) لهم فإنهم يتجنّبون مخالطته ومعاشرته، فيستريح من أذى الخلطة والعشرة.

وهذه الآفات معدومة في الغنى بالعلم.

الخامس والثلاثون: أنّ المال لا يراذ لذاته وعينه؛ فإنه لا يحصل بذاته شيء من المنافع أصلاً؛ فإنه لا يُشبع ولا يُزوي، ولا يُدفيء ولا يُمتنع^(٣)، وإنما يراذ لهذه الأشياء؛ فإنه لما كان طريقاً إليها أريد إرادة الوسائل، ومعلوم أنّ الغايات أشرف من الوسائل؛ فهذه الغايات إذا أشرف منه، وهي مع شرفها بالنسبة إليه ناقصة دنيّة.

(١) (د، ق، ت): «فذلك منشأ».

(٢) (ح، ن): «فضلة».

(٣) (ق، ن، ت، ح): «يمنع».

وقد ذهب كثيرٌ من العقلاء إلى أنها لا حقيقة لها، وإنما هي دفعُ آلامٍ فقط^(١)؛ فإنَّ لبسَ الثَّياب - مثلاً - إنما فائدته دفعُ التَّألمِ بالحرِّ والبرد والريح، وليس فيها لذَّةٌ زائدةٌ على ذلك، وكذلك الأكلُ إنما فائدته دفعُ ألمِ الجوع، ولهذا لو لم يجد ألمُ الجوع لم يَسْتَطِبْ الأكل، وكذلك الشربُ مع العطش، والراحةُ مع التعب.

ومعلومٌ أنَّ في مزاولة ذلك وتحصيله ألمٌ وضرر^(٢)، ولكنَّ ضرره وألمه أقلُّ من ضرر ما يُدْفَعُ به وألمه، فيحتملُ الإنسانُ أخفَّ الضَّرينِ دفعاً لأعظمهما.

وحُكي عن بعض العقلاء^(٣) أنه قيل له - وقد تناول قدحاً كريهاً جدًّا من الدواء -: كيف حالك معه؟ قال:

أَصْبَحْتُ فِي دَارِ بِلْيَاتٍ أَدْفَعُ آفَاتِ بَآفَاتٍ

وفي الحقيقة؛ فلذَّاتُ الدنيا من المأكَلِ والمشاربِ والملبسِ والمسكنِ والمَنَكحِ من هذا الجنس، واللذَّةُ التي يباشرها الحِسُّ ويتحرَّكُ لها الحيُّ^(٤) - وهي الغايةُ المطلوبةُ له من لذَّةِ المَنَكحِ والمأكَلِ - شهوةُ البطنِ والفَرْجِ، ليس لهما ثالثُ البتَّةِ، إلا ما كان وسيلةً إليهما وطريقاً إلى تحصيلهما.

(١) انظر ما سيأتي (ص: ٧٨٢).

(٢) كذا في الأصول. والجادةُ النصب.

(٣) هو أبو إسحاق النِّظام، تمثَّل بيت أبي العتاهية. انظر: «خاص الخاص» (١١٠)، و«محاضرات الأدباء» (٤ / ٥٤)، وعن الأول: «ديوان أبي العتاهية وأخباره» (٥١١).

(٤) (ق): «الجسد».

وهذه اللذة منغصةٌ من وجوهٍ عديدة:

منها: أنَّ تصوّرَ زوالها وانقضائها وفنائها يوجبُ تنغصّها^(١).

ومنّها: أنها ممزوجةٌ بالآفات، معجونةٌ بالآلام، مختلطةٌ بالمخاوف، وفي الغالب لا يفي ألها بطبيها، كما قيل:

قَايَسْتُ بَيْنَ جَمَالِهَا وَفَعَالِهَا فَإِذَا الْمَلَا حَةُ بِالْقَبَاحَةِ لَا تَقْيِي^(٢)

ومنّها: أنَّ الأراذلَ من الناس وسَقَطَهم يشاركون فيها كبراءهم وعقلاءهم، بل يزيدون عليهم فيها أعظمَ زيادةٍ وأفحشها، فنسبتهم فيها إلى الأفاضل كنسبة الحيوانات البهيمة إليهم، فمشاركةُ الأراذل وأهل الخسة والدناءة فيها وزيادتهم على العقلاء فيها مما يوجبُ النفرة والإعراض عنها، وكثيرٌ من الناس حصل له الزهدُ في المحبوب والمعشوق منها بهذه الطريق.

وهذا كثيرٌ في أشعار الناس ونثرهم، كما قيل:

سَأْتَرُكَ حُبَّهَا مِنْ غَيْرِ بُغْضٍ وَلَكِنْ كَثْرَةُ الشُّرَكَاءِ فِيهِ
إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ عَلَى طَعَامٍ رَفَعْتُ يَدِي وَنَفْسِي تَشْتَهِيهِ
وَتَجْتَنِبُ الْأَسْوَدُ وَرُودَ مَاءٍ إِذَا كَانَ الْكَلَابُ يَلْغَنُ فِيهِ^(٣)

(١) (ح، ن): «تنغصها». (د، ق): «موجب تنغصها».

(٢) البيت لأبي بكر بن السراج، من ثلاثة أبياتٍ حسنة، نُسِبَتْ خطأ لابن المعتز، وهي في ديوانه (٣٨٦/١)، وقبض جائزتها عبيدُ الله بن طاهر! الخبر في «الديارات» للشابستي (١١٨)، و«إنباه الرواة» (١٤٧/٣)، و«إرشاد الأريب» (٢٥٣٥)، وغيرها.

(٣) الأبيات في «المستطرف» (١٦٣/١، ٤٣٤/٢) دون نسبة.

وقيل لزاهد: ما الذي زهّدت في الدنيا؟ فقال: «خِسَّةٌ»^(١) شركائها، وقَلَّةٌ وفائها، وكثرةُ جفائها».

وقيل لآخر في ذلك؛ فقال: «ما مددتُ يدي إلى شيءٍ منها إلا وجدتُ غيري قد سبقني إليه، فأترّكه له».

ومنها: أن الالتذّادَ بموقعها إنما هو بقدر شدّة الحاجة إليها، والتألمُ بمطالبة النفس لتناولها، وكلّما كانت شهوةُ الظفر بالشيء أقوى كانت اللذّةُ الحاصلةُ بوجوده أكمل، فما لم تحضُل تلك الشهوةُ لم تحضُل تلك اللذّةُ؛ فمقدارُ اللذّةِ الحاصلةِ في الحال مساوٍ لمقدار الحاجة والألم والمضرة في الماضي؛ وحينئذٍ تتقابل اللذّةُ الحاصلةُ والألمُ المتقدّم، فيتساقطان، فتصيرُ اللذّةُ كأنها لم توجد، ويصيرُ بمنزلة من شقّ بطنَ رجلٍ ثمّ خاطه ودأوه بالمراهم، أو بمنزلة من ضربه عشرة أسواطٍ وأعطاه عشرة دراهم! ولا تخرجُ لذاتُ الدنيا غالبًا عن ذلك.

ومثلُ هذا لا يُعدُّ لذّةً ولا سعادةً ولا كمالًا، بل هو بمنزلة قضاء الحاجة من البول والغائط؛ فإنّ الإنسان يتضرّرُ بثقله، فإذا قضى حاجته استراح منه، فأما أن يعدّ ذلك سعادةً وبهجةً ولذّةً مطلوبةً فلا.

ومنها: أنّ هاتين اللذّتين اللّتين هما أثرُ اللذّات عند الناس لا سبيل^(٢) إلى نيلهما إلا بما يقترنُ بهما قبلهما وبعدهما من مباشرة القاذورات والتألمُ الحاصل عقيبهما.

(١) (ت): «خشية». وانظر: «جامع العلوم والحكم» (٥٥٧).

(٢) (ت، د، ق): «ولا سبيل». خطأ.

مثاله^(١): لَذَّةُ الأَكْلِ؛ فَإِنَّ العَاقِلَ لو نَظَرَ إلى طَعَامِهِ حال مَخَالِطَتِهِ رِيقَهُ وَعَجَنِهِ به لَنَفَرَت نَفْسُهُ مِنْهُ، وَلَوْ سَقَطَت تِلْكَ اللِّقْمَةُ مِنْ فِيهِ لَنَفَرَ طَبْعُهُ مِنْ إِعَادَتِهَا إِلَيْهِ.

ثُمَّ إِنَّ لَذَّتَهُ به إِنَّمَا تَحْصُلُ فِي مَجْرَى نَحْوِ الأَرْبَعِ الأَصَابِعِ^(٢)، فَإِذَا فُصِّلَ عَنِ ذَلِكَ المَجْرَى زَالَ تِلْذُّذُهُ به، فَإِذَا اسْتَقَرَّ فِي مَعِدَتِهِ وَخَالَطَهُ الشَّرَابُ وَمَا فِي المَعِدَةِ مِنَ الأَجْزَاءِ الفَضْلِيَّةِ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَصِيرُ فِي غَايَةِ الخِسَّةِ^(٣)، فَإِنْ زَادَ عَلَى مَقْدَارِ الحَاجَةِ أَوْرَثَ الأَدْوَاءَ المِخْتَلِفَةَ عَلَى تَنَوُّعِهَا، وَلَوْ أَنَّ بَقَاءَهُ مَوْقُوفٌ عَلَى تَنَاوُلِ^(٤) الغِذَاءِ لَكَانَ تَرْكُهُ - وَالحَالَةُ هَذِهِ - أَلْيَقَ بِهِ، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ:

لَوْ لَا قِضَاءُ جَرَى نَزَهْتُ أَنْمَلْتِي عَنْ أَنْ تُلِمَّ بِمَأْكُولٍ وَمَشْرُوبٍ^(٥)
وَأَمَّا لَذَّةُ الْوِقَاعِ، فَقَدَرُهَا أَبِينُ مِنْ أَنْ تُذَكَّرَ آفَاتُهُ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ أَعْضَاءَ هَذِهِ اللَّذَّةِ هِيَ عَوْرَةُ الْإِنْسَانِ الَّتِي يَسْتَحْيِي مِنْ رُؤْيَيْهَا وَذِكْرِهَا، وَسَتْرُهَا أَمْرٌ فَطَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ عِبَادَهُ، وَلَا تَتِمُّ لَذَّةُ المَوَاقِعَةِ إِلَّا بِالاطَّلَاعِ عَلَيْهَا وَإِبْرَازِهَا،

(١) (ت، د، ق): «مثال».

(٢) (ق): «نحو الأربع أصابع». وهو المريء، وإنما سمي بذلك لمروء الطعام فيه، وهو انسياغه، كما في «الكشاف» (١/ ٥٠٢). وفسر قوله: ﴿فَكُلُّوْهُ هَيِّئًا مَرِئًا﴾ في أحد القولين بأنه: أسرع أنحداراً عن المريء؛ لسهولة وخفته عليه. انظر: «زاد المعاد» (٢٣١/ ٤).

(٣) (ن، ح): «الخساسة».

(٤) (ق): «تناوله».

(٥) البيت لعبد القاهر الجرجاني شيخ العربية، في «ربيع الأبرار» (٢/ ٦٧٥).

والتلُّخُ بالِرطوباتِ المُستَقْدَرَةِ المتولِّدة منها، ثُمَّ إِنَّ تَمَامَهَا إِنَّمَا يَحْصُلُ
بِانْفِصَالِ النُّقْطَةِ، وَهِيَ اللَّذَّةُ الْمُقْصُودَةُ مِنَ الْوِقَاعِ، وَزَمْنُهَا يَشْبَهُ الْآنَ الَّذِي لَا
يَنْقَسِمُ ^(١)؛ فَصُعُوبَةُ تِلْكَ الْمُزَاوَلَةِ وَالْمُحَاوَلَةِ وَالْمُطَاوَلَةِ وَالْمُرَاوَضَةِ ^(٢)
وَالْتَعَبَ لِأَجْلِ لَذَّةٍ لِحِظَةٍ كَمَرَّ الطَّرْفِ! فَأَيُّ مَقَاسَةٍ بَيْنَ هَذِهِ اللَّذَّةِ وَبَيْنَ التَّعَبِ
فِي طَرِيقِ تَحْصِيلِهَا؟!

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ اللَّذَّةَ لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ الْخَيْرَاتِ وَالسَّعَادَاتِ
وَالْكَمَالِ الَّذِي خُلِقَ لَهُ الْعَبْدُ، وَلَا كَمَالٍ لَهُ بِدُونِهِ.

بَلْ ثَمَّ أَمْرٌ وَرَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ قَدْ هَمَّى لَهُ الْعَبْدُ وَهُوَ لَا يَفْطِنُ لَهُ، فَهُوَ لَغَفْلَتِهِ
عَنْهُ، وَإِعْرَاضِهِ عَنِ التَّفْتِيشِ عَلَيْهِ حَتَّى يَظْفَرَ بِمَعْرِفَتِهِ، وَعَنِ التَّفْتِيشِ عَلَى
طَرِيقِهِ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهِ = يَسُومُ نَفْسَهُ مَعَ الْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ.

قَدْ هَيَّوْكَ لِأَمْرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ فَارْبَأُ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرَعَى مَعَ الْهَمَلِ ^(٣)

وَمَوْقِعُ هَذِهِ اللَّذَّةِ مِنَ النَّفْسِ كَمَوْقِعِ لَذَّةِ الْبِرَازِ ^(٤) مِنْ رَجُلٍ أَحْتَبَسَ فِي
مَوْضِعٍ لَا يُمْكِنُ الْقِيَامُ إِلَى الْخَلَاءِ، وَصَارَ مُضْطَرًّا إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ يَجِدُ مَشَقَّةً
شَدِيدَةً وَبَلَاءً عَظِيمًا، فَإِذَا تَمَكَّنَ مِنَ الذَّهَابِ إِلَى الْخَلَاءِ وَقَدَّرَ عَلَى دَفْعِ ذَلِكَ

(١) وَهُوَ الْحَدُّ الَّذِي يَتَّصِلُ بِهِ آخِرُ الزَّمَانِ الْمَاضِي بِأَوَّلِ الزَّمَانِ الْمُسْتَقْبَلِ، بِمَنْزِلَةِ النُّقْطَةِ
الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا الْخَطُّانُ حَتَّى يَصِيرَا وَاحِدًا، فَتَكُونُ النُّقْطَةُ مَبْدَأَ لِأَحَدِ الْخَطِّينِ وَمُنْتَهَى
لِلْآخَرِ. انْظُرْ: «شرح أدب الكاتب» للجوابيقي (٥٧)، و«الكليات» (٨٢٧)،
و«المعجم الفلسفي» (٢٨ / ١).

(٢) (ت): «والمراوحة».

(٣) آخِرُ بَيْتٍ مِنْ لَامِيَةِ الطُّغْرَايِي الْمَشْهُورَةِ بِلَامِيَةِ الْعَجَمِ، فِي دِيَوَانِهِ (٣٠٩).

(٤) الْبِرَازُ: الْقَضَاءُ الْوَاسِعُ. وَبِالْكَسْرِ: كُنَايَةٌ عَنِ الْغَائِطِ. «الصَّحَاحُ» (بِرَز).

الخبِيث المؤذي، وجدَ لَذَّةً عظيمةً عند دفعه وإرساله^(١)، ولا لَذَّةً هناك إلا راحتُه من حمل ما يؤذيه حملُه.

فَعُلِمَ أَنَّ هذه اللذَّاتِ إمَّا أن تكونَ دفعَ آلامٍ، وإمَّا أن تكونَ لذَّاتٍ ضعيفةً خسيصةً مقترنةً بأفاتٍ تُربِّي مضرَّتُها عليها^(٢).

وهذا كما يَعْقُبُ لَذَّةَ الوقاع من ضعف القلب، وخَفَقانِ الفؤاد، وضعف القوى البدنيَّة والقلبيَّة، وضعف الأرواح، واستيلاء العفونة على كلِّ البدن، وإسراع الضعف والخور إليه، واستيلاء الأخلاط عليه لضعف القوة عن دفعها وقهرها.

ومما يدلُّ على أن هذه اللذَّاتِ ليست خيراتٍ وسعاداتٍ وكمالاً: أَنَّ العقلاء من جميع الأمم مطبقونَ على ذمِّ من كانت نَهْمَتُه وشغلُه ومَصْرِفُ هِمَّتِه وإرادته، والإضرار به، وتحقير شأنه، وإلحاقه بالبهائم، ولا يقيمون له وزناً، ولو كانت خيراتٍ وكمالاً لكان من صَرَفَ إليها هِمَّتَه أكملَ الناس.

وممَّا يدلُّ على ذلك: أن القلبَ الذي قد وَجَّهَ قِصْدَه وإرادته إلى هذه اللذَّاتِ لا يزالُ مستغرقاً في الهموم والغموم والأحزان، وما يناله من اللذَّاتِ في جنب هذه الآلام كقطرةٍ في بحر، كما قيل:

سُرُورُهُ وَزَنُ حَبَبِهِ وَحُزْنُهُ قِنْطَارُ^(٣)

(١) بل قال ابنُ حزم في «المحلى» (٦/٢): «اللذَّةُ في خروج البول والغائط والريح أشدُّ عند الحاجة إلى خروجها منها في خروج المني»! وذكر الرازي في «السر المكتوم» (ص: ٣) أن لذة إخراج الطعام أعظم من لذة آجتماعه!

(٢) (ت، ق): «ترى مضرَّتُها عليها».

(٣) لم أره في مصدرٍ آخر. وهو من «كان وكان».

فإنَّ القلبَ يجري مجرى مرآةٍ منصوبةٍ على جدار، وذلك الجدارُ ممرٌّ لأنواع المُشْتَهَاتِ^(١) والملذوذات والمكروهات، فكلُّما مرَّ به شيءٌ من ذلك ظهرَ فيه أثرُه.

فإن كان محبوبًا مُشْتَهَى مال طبعه إليه، فإن لم يقدر على تحصيله تألم وتعذَّب بفَقْدِه، وإن قدرَ على تحصيله تألم في طريق الحصول بالتعب والمشقة ومنازعة الغير له، ويتألم حال حصوله خوفًا من فراقه^(٢)، وبعد فراقه حزنًا على ذهابه.

وإن كان مكروهًا له ولم يقدر على دفعه تألم بوجوده، وإن قدرَ على دفعه أشتغل بدفعه، ففاته مصلحةٌ راجحةٌ الحصول، فيتألم لفواتها.

فعلِمَ أنَّ هذا القلبَ أبدًا مستغرقٌ في بحار الهموم والغموم والأحزان، وأنَّ نفسه تضحكُ عليه وتُرضيه بوزن ذرَّةٍ من لذَّته^(٣)، فيغيَّبُ بها عن شهوده القناطيرَ من ألمه وعذابه.

فإذا حِيلَ بينه وبين تلك اللذة ولم يبقَ له إليها سبيل، تجرَّد ذلك الألمُ وأحاطَ به واستولى عليه من كلِّ جهاته، فقلَّ ما شئتَ في حال عبدٍ قد غُيِّبَ عنه سَعْدُه وحظوظُه وأفراحُه، وأُحْضِرَ شِقْوَتَه وهمومَه وغمومَه وأحزانه. وبين العبد وبين هذه الحال أن يُكشَفَ^(٤) الغطاء، ويُرفعَ الستر، وينجلي الغبار، ويحصلَ ما في الصدور.

(١) (ت): «الشبهات». (ن): «المشبهات».

(٢) (ن): «فواته».

(٣) (ح): «من لذة من لذته».

(٤) (ق، د): «ينكشف».

فإذا كانت هذه غاية اللذات الحيوانية، التي هي غاية جمع الأموال وطلبها، فما الظنُّ بقدر الوسيلة؟!

وأما غنى العلم والإيمان، فدائم اللذة، متَّصلُ الفرحه، مُقتَضٍ لأنواع المسرة والبهجة، لا يزولُ فيُحْزَن، ولا يُفَارَقُ فيُؤْلَم، بل أصحابه كما قال الله تعالى فيهم: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

السادس والثلاثون: أن غني المال يبغض الموت ولقاء الله؛ فإنه لحبه ماله يكره مفارقتَه ويحبُّ بقاءه^(١) ليتمتع به، كما يشهد به الواقع.

وأما العلم، فإنه يحبُّ للعبد لقاء ربه، ويزهده في هذه الحياة النكدة الفانية.

السابع والثلاثون: أن الأغنياء يموتُ ذكرهم بموتهم، والعلماء يموتون ويحيا ذكرهم؛ كما قال أمير المؤمنين في هذا الحديث: «مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر»؛ فخزان الأموال أحياء كأموال، والعلماء بعد موتهم أموات كأحياء.

الثامن والثلاثون: أن نسبة العلم إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن؛ فالروح ميتة حياتها بالعلم، كما أن الجسد ميت حياته بالروح، فالغنى بالمال^(٢) غايته أن يزيد في حياة البدن، وأما العلم فهو حياة القلوب والأرواح، كما تقدم تقريره.

التاسع والثلاثون: أن القلب ملك البدن، والعلم زيتته وعُدته وماله، وبه

(١) (ق): «مقامه».

(٢) (ق، ح، د، ن): «الغنى والمال».

قِوَامُ مُلْكِهِ، وَالْمَلِكُ لَا يَدَّ لَهُ مِنْ عَدَدٍ وَعُدَّةٍ وَمَالٍ وَزِينَةٍ؛ فَالْعِلْمُ هُوَ مَرْكَبُهُ وَعُدَّتُهُ وَجَمَالُهُ^(١).

وَأَمَّا الْمَالُ فغَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ زِينَةً وَجَمَالًا لِلْبَدَنِ إِذَا أَنْفَقَهُ فِي ذَلِكَ، فَإِذَا خَزَنَهُ وَلَمْ يَنْفِقْهُ لَمْ يَكُنْ زِينَةً وَلَا جَمَالًا، بَلْ نَقْصًا وَوَبَالًا.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ زِينَةَ الْمَلِكِ وَمَا بِهِ قِوَامُ مُلْكِهِ أَجَلٌ وَأَفْضَلُ مِنْ زِينَةِ رَعِيَّتِهِ وَجَمَالِهِمْ، فَقِوَامُ الْقَلْبِ بِالْعِلْمِ، كَمَا أَنَّ قِوَامَ الْجِسْمِ بِالْغِذَاءِ.

الوجه الأربعون: أَنَّ الْقَدَرَ الْمَقْصُودَ مِنَ الْمَالِ هُوَ مَا يَكْفِي الْعَبْدَ وَيُقِيمُهُ وَيُدْفَعُ ضَرُورَتَهُ حَتَّى يَتِمَّكَنَ مِنْ قِضَاءِ جِهَازِهِ^(٢)، وَمِنَ التَّرْزُودِ لِسَفَرِهِ^(٣) إِلَى رَبِّهِ عِزٍّ وَجَلٍّ، فَإِذَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ شَغْلَهُ وَقَطَعَهُ عَنِ السَّفَرِ إِلَى رَبِّهِ وَعَنِ قِضَاءِ جِهَازِهِ وَتَعْيِيَةِ زَادِهِ؛ فَكَانَ ضَرُّرُهُ عَلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ مَصْلَحَتِهِ، وَكَلَّمَآ أَزْدَادَ غِنَاهُ بِهِ أَزْدَادَ تَثَبُّطًا وَتَخَلُّفًا عَنِ التَّجَهُّزِ لِمَا أَمَامَهُ.

وَأَمَّا الْعِلْمُ النَّافِعُ، فَكَلَّمَآ أَزْدَادَ مِنْهُ أَزْدَادَ فِي تَعْيِيَةِ الزَّادِ، وَقِضَاءِ الْجِهَازِ، وَإِعْدَادِ عُدَّةِ الْمَسِيرِ، وَاللَّهُ الْمَوْفَّقُ وَبِهِ الْإِسْتِعَانَةُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ.

فَعُدَّةُ هَذَا السَّفَرِ هُوَ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ، وَعُدَّةُ الْإِقَامَةِ جَمْعُ الْأَمْوَالِ وَالْإِدْخَارِ، وَمَنْ أَرَادَ شَيْئًا هَيَّأْ لَهُ عُدَّتَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْفَاعِلِينَ﴾ [التوبة: ٤٦].

(١) (د، ق): «وكماله».

(٢) جهاز كل شيء: ما يحتاج إليه.

(٣) (ق): «المستقره».

* قوله: «محبّة العلم – أو العالم – دينٌ يَدَانُ بها»؛ لأنَّ العلمَ ميراثُ الأنبياء، والعلماءُ ورَثَتُهُم، فمحبّةُ العلمِ وأهله محبةٌ لميراثِ الأنبياء وورثتهم، وبغضِ العلمِ وأهله بغضٌ لميراثِ الأنبياء وورثتهم.

فمحبّةُ العلمِ من علاماتِ السعادةِ وبغضُ العلمِ من علاماتِ الشقاوةِ، وهذا كُلُّهُ إنما هو في علمِ الرُّسلِ الذي جاؤوا به، وورثوه للأُمَّةِ، لا في كُلِّ ما يسمّى علمًا.

وأيضًا؛ فإنَّ محبةَ العلمِ تحمِلُ على تعلُّمه واتِّباعه، وذلك هو الدِّينُ، وبغضُه ينهَى عن تعلُّمه واتِّباعه، وذلك هو الشَّقَاءُ والضلال.

وأيضًا؛ فإنَّ اللهَ سبحانه عليمٌ يحبُّ كُلَّ عليمٍ، وإنما يضعُ علمه عند من يحبه، فمن أحبَّ العلمَ وأهله فقد أحبَّ ما أحبَّ اللهُ، وذلك مما يُدَانُ به.

* قوله: «العلمُ يُكْسِبُ العالمَ الطَّاعَةَ في حياته، وجميلُ الأُحدوثِ بعد مماته»؛ يُكْسِبُهُ ذلك، أي: يجعلُه كسبًا له، ويورثُه إياه. ويقال: كَسَبَهُ ذلك عَزًّا وطاعةً، وأكْسَبَهُ. لغتان.

ومنه حديثُ خديجة رضي الله عنها: «إنك لتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتَحْمِلُ الكُلَّ، وتُكْسِبُ المعدومَ»^(١)، رُوِيَ بفتح التاء وضمِّها، ومعناه: تُكْسِبُ المَالَ والغِنَى. هذا هو الصواب.

وقالت طائفة: من رواه بضمِّها فذلك من: أكْسَبَهُ^(٢) مَالًا وعَزًّا، ومن رواه بفتحها فمعناه: تُكْسِبُ أنت المَالَ المعدومَ بمعرفتك وحِذْقِكَ

(١) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة.

(٢) (ق، د): «أكسبته».

بالتجارة^(١).

ومعاذَ الله من هذا الفهم، وخديجةٌ أجلُّ قدرًا من تكلمها بهذا في هذا المقام العظيم، أن تقولَ لرسول الله ﷺ: أبشِر، فوالله لا يخزيك الله؛ إنك تَكْسِبُ الدرهمَ والدينارَ وتُحَسِّنُ التجارة!

ومثل هذه التحريفات إنما تُذَكَّرُ لئلا يُغْتَرَّ بها في تفسير كلام الله ورسوله.

والمقصودُ أنَّ قوله: «العلمُ يُكْسِبُ العالمَ الطَّاعَةَ في حياته»؛ أي: يجعله مطاعًا؛ لأنَّ الحاجةَ إلى العلمِ عامَّةٌ لكلِّ أحدٍ، الملوكُ فمن دونهم، فكلُّ أحدٍ محتاجٌ إلى طاعة العالم، فإنه يأمرُ بطاعة الله ورسوله، فيجبُ على الخلق طاعته، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وفُسِّرَ «وَأُولِيَ الْأَمْرِ» بالعلماء. قال ابن عباس: «هم الفقهاء والعلماء أهلُ الدِّين، الذين يعلمون الناسَ دينهم، أوجبَ الله تعالى طاعتهم». وهذا قولُ مجاهد والحسن والضحاك وإحدى الروایتين عن الإمام أحمد.

وفُسِّرُوا بالأمراء. وهو قولُ ابن زيد، وإحدى الروایتين عن ابن عباس وأحمد^(٢).

(١) ذكر هذا المعنى - على رواية الفتح - السَّرْقَسْطِيُّ في «الدلائل في غريب الحديث» (٣٣٣/١)، وضعفه وغلطه النووي في «شرح مسلم» (٢/٢٠١)، وانظر: «المفهم» (٣٧٩/١)، و«فتح الباري» (٣٤/١).

(٢) انظر التعليق المتقدم (ص: ١٩٢).

والآيةُ تتناولهما جميعاً؛ فطاعةُ ولاةِ الأمر واجبَةٌ إذا أمروا بطاعة الله ورسوله، وطاعةُ العلماء كذلك.

فالعالمُ بما جاء به الرسولُ العاملُ به أطوعُ في أهل الأرض من كلِّ أحد، فإذا مات أحيا اللهُ ذكره، ونشر له في العالمين أحسنَ الثناء.

فالعالمُ بعد وفاته ميتٌ وهو حيٌّ بين الناس، والجاهلُ في حياته حيٌّ وهو ميتٌ بين الناس، كما قيل:

وفي الجهلِ قبل الموتِ موتٌ لأهله وأجسامُهم قبل القبور قبورٌ
وأرواحُهم في وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِمْ وليس لهم حتى النُشُورِ نُشُورٌ^(١)

وقال آخر:

قد مات قومٌ وما ماتت مَكَارِمُهُمْ وعاش قومٌ وهم في الناس أمواتٌ^(٢)

وقال آخر:

وما دام ذِكرُ العبد بالفضل باقياً فذلك حيٌّ وهو في التُّرْبِ هالكٌ^(٣)

ومن تأمل أحوال أئمة الإسلام – كأئمة الحديث والفقه – كيف هم تحت التراب وهم في العالمين كأنهم أحياءٌ بينهم، لم يَفْقِدُوا منهم إلا صُورَهُمْ، وإلا فذكرُهم وحديثُهم والثناءُ عليهم غير منقطع، وهذه هي الحياةُ

(١) مَضَى الْقَوْلُ فِي تَخْرِيجِ الْبَيْتَيْنِ (ص: ١٣٠).

(٢) البيت للشافعي في «المنهج الأحمد» (١/ ٧١)، وعنه في ديوانه (٥٨)، ودون نسبة في «السلوك» للجندي (١/ ٤٢٠)، و«زهر الأكم» (١/ ٣٣٢).

(٣) لم أعثر عليه.

حقًا، حتى عُدَّ ذلك حياةً ثانية، كما قال المتنبي^(١):

ذَكَرُ الْفَتَى عَيْشُهُ الثَّانِي وَحَاجَّتُهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ الْعَيْشِ أَشْغَالُ
* قَوْلُهُ: «وَصَنِيعَةُ الْمَالِ تَزُولُ بِزَوَالِهِ»؛ يَعْنِي: أَنَّ كُلَّ صَنِيعَةٍ صُنِعَتْ
لِلرَّجُلِ مِنْ أَجْلِ مَالِهِ؛ مِنْ إِكْرَامٍ وَمَحَبَّةٍ وَخِدْمَةٍ وَقَضَاءِ حَوَائِجٍ وَتَقْدِيمِ
وَاحْتِرَامٍ وَتَوَلِيَّةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَإِنَّمَا إِنَّمَا هِيَ مِرَاعَاةٌ لِمَالِهِ، فَإِذَا زَالَ مَالُهُ وَفَارَقَهُ
زَالَتْ تِلْكَ الصَّنَائِعُ كُلُّهَا، حَتَّى إِنَّهُ رَبِّمَا لَا يُسَلِّمُ عَلَيْهِ مِنْ كَانَ يَدَأُبُّ فِي
خِدْمَتِهِ وَيَسْعَى فِي مَصَالِحِهِ.

وقد أكثر الناس من هذا المعنى في أشعارهم وكلامهم.

وفي مثل قولهم: «مَنْ وَدَّكَ لِأَمْرِ مَلِكٍ عِنْدَ أَنْقِضَائِهِ»^(٢) قال بعض
العرب:

وكان بنو عمِّي يقولون: مرجبًا فلما رأوني مُعْسِرًا ماتَ مَرْحَبُ^(٣)

(١) في ديوانه (٥٠٥). وتحرف في (ت، ح، ن) وكثير من المصادر: «قاته» إلى: «فاته»
بالفاء. والرواية في الديوان: «عمره الثاني».

(٢) تُسَبِّبُ الْقَوْلَ إِلَى الْحَسَنِ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُوسَى فِي «التذكرة الحمدونية»
(١/ ٢٧٦). وإلى بعض الحكماء في «العزلة» للخطابي (٦٠)، و«ربيع الأبرار»
(١/ ٤٣١). وإلى بعض ملوك الهند في «الإيجاز والإعجاز» (١١)، و«البصائر
والذخائر» (١/ ١٢٧)، و«التذكرة الحمدونية» (١/ ٢٧٧).

(٣) من أبيات تنسب لرجل يكنى أبا كثير، في «إصلاح المال» لابن أبي الدنيا (٤٩٥)،
وبعضها في «روضة العقلاء» (٢٢٦)، و«عيون الأخبار» (١/ ٢٤١)، و«المحاسن
والمساوي» (٢٧٣)، و«المستطرف» (٢/ ٩٦)، دون نسبة. وفي «العقد» (٣/ ٣٥)
أن هذا البيت وآخر وجدًا مكتوبين بالذهب في جدار من جُدُر بيت المقدس. وليس
في «أدب الغرباء».

ومن هذا ما قيل: «إذا أكرمك الناس لِمَالٍ أو سلطانٍ فلا يُعْجِبَنَّكَ ذلك؛ فإنَّ زوالَ الكرامة بزوالهما، ولكن يُعْجِبُكَ»^(١) إن أكرموك لعلم أو دين»^(٢).

وهذا أمرٌ لا يُنْكَرُ في الناس؛ حتى إنهم ليُكْرِمُونَ الرجلَ لثيابه، فإذا نزعها لم ير منهم تلك الكرامة وهو هو!

قال مالك: «بلغني أنَّ أبا هريرة دُعِيَ إلى وليمة فأتى، فحُجِبَ، فرجع فلبس غير تلك الثياب، فأُدْخِلَ، فلَمَّا وُضِعَ الطعامُ أُدْخِلَ كَمَّهُ في الطعام، فعُوْتِبَ في ذلك، فقال: إنَّ هذه الثياب هي التي أُدْخِلْتَ، فهي تأْكُلُ». حكاه ابنُ مُزَيْنٍ الطُّلَيْطَلِي في «كتابه»^(٣).

وهذا بخلاف صنعة العلم، فإنها لا تزولُ أبدًا، بل كَلَمَّا لَهَا^(٤) في زيادة، ما لم يُسَلَبْ ذلك العالمُ علمه.

وصنعة العلم والدِّين أعظمُ من صنعة المال؛ لأنها تكونُ بالقلب واللسان والجوارح، فهي صادرةٌ عن حبٍّ وإكرامٍ لأجل ما أودعه الله تعالى

(١) (د، ت، ق، ن): «ليعجبك».

(٢) قاله ابنُ المقفع في «الأدب الكبير» (١١٠). وعنه في «عيون الأخبار» (١٢١/٢)، و«الجامع» لابن عبد البر (٢٦٥/١)، وغيرها.

(٣) انظر ما تقدم (ص: ٨٢) بشأن ابن مزين. والخبر لم أقف عليه. وأصلُ القصة مشهور، وقد وردت من حديث ابن عباس مرفوعًا، أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧١٠٧)، ولا يثبت، وأخرجه معمر في «الجامع» (٤٣٧/١١)، (٤٣٨)، وهو الصواب.

(٤) (ت، ح، ن): «كل مالها». وهو تركيبٌ محدثٌ يفيد معنى الاستمرار. واستعمله المصنف في «إعلام الموقعين» (٢٥٧/٢)، والذهبي في «تاريخ الإسلام» (٤٢٦/١٥)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (٥٢٢/٩)، وغيرهم، ولا زال مستعملًا. ويمكن أن تكون (ما) موصولة.

إياه من علمه وفَضَّلَه به على غيره.

وأيضاً؛ فصنِعةُ العلمِ تابعةٌ لنفسِ العالمِ وذاته، وصنِعةُ المالِ تابعةٌ لماله المنفصل عنه.

وأيضاً؛ فصنِعةُ المالِ صنِعةٌ معاوَضةٌ، وصنِعةُ العلمِ والدينِ صنِعةٌ حبٌّ وتقريبٌ وديانةٌ.

وأيضاً؛ فصنِعةُ المالِ تكونُ مع البرِّ والفاجر، والمؤمن والكافر، وأمَّا صنِعةُ العلمِ والدينِ فلا تكونُ إلا مع أهل ذلك.

وقد يرادُ من هذا أيضاً معنى آخر؛ وهو أنَّ من أصطنعتَ عنده صنِعةً بمالك، إذا زال ذلك المالُ وفارقه عَدِمَت صنِعتك عنده، وأمَّا من أصطنعتَ إليه صنِعةً علمٍ وهدى فإنَّ تلك الصنِعةَ لا تفارقه أبداً، بل تُرى في كلِّ وقتٍ كأنك أَسَدَيْتَها إليه حينئذٍ.

* قوله: «مات خُزَّانُ الأموال وهم أحياء»؛ قد تقدَّم بيَّأنه.

* وكذلك قوله: «والعلماء باقون ما بقي الدهر».

* وقوله: «أعيانُهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة»؛ المرادُ بـ «أمثالهم» صُورَهم العلميَّة، ووجودُهم المثاليُّ، أي: وإنْ فُقِدَت ذواتُهم فُصُورُهم وأمثالُهم في القلوب لا تفارقُها، وهذا هو الوجودُ الذَّهْنِيُّ العلمي؛ لأنَّ محبةَ الناسِ لهم، واقتداءَهم بهم، وانتفاعَهم بعلمِهم، يوجبُ أن لا يزالوا نُصَبَ عيونهم، وقبلة قلوبهم، فهم موجودون معهم، وحاضرون عندهم، وإنْ غابت عنهم أعيانُهم، كما قيل:

وَمِنْ عَجَبٍ أَنِّي أَحْنُ إِلَيْهِمْ وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيتُ وَهُمْ مَعِي
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا وَيَشْتَاقُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلَعِي^(١)

وقال آخر:

وَمِنْ عَجَبٍ أَنْ يَشْكُوَ الْبَعْدَ عَاشِقٌ وَهَلْ غَابَ عَنْ قَلْبِ الْمُحِبِّ حَيْبُ
خِيَالِكَ فِي عَيْنِي وَذِكْرُكَ فِي فَمِي وَمِثْوَاكَ فِي قَلْبِي فَأَيْنَ تَغِيبُ^(٢)

قوله: «آه؛ إِنَّ هَاهُنَا عِلْمًا - وَأُشَارُ إِلَى صَدْرِهِ -»؛ يدلُّ على جواز إخبار
الرجل بما عنده من العلم والخير لِيُقْتَبَسَ منه، وَلِيُتَفَعَّ به، ومنه قول يوسف
الصِّدِّيق عليه السلام: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [يوسف:
.٥٥].

فمن أَخْبَرَ عن نفسه بمثل ذلك لِيُكْثَرَ به ما يَحِبُّهُ الله ورسولُهُ من الخير
فهو محمود، وهذا غير من أَخْبَرَ بذلك لِيَتَكَثَّرَ به عند الناس وَيَتَعَظَّم، وهذا
يجازيه الله بِمَقَاتِ الناس له، وَصِغَرِهِ في أَعْيُنِهِمْ، والأوَّلُ يُكَبِّرُهُ في قلوبهم
وعيونهم، وإنما الأعمَالُ بالنيات.

وكذلك إِذَا أَثْنَى الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ لِيَخْلُصَ بِذَلِكَ مِنْ مَظْلَمَةٍ وَشَرٍّ، أَوْ

(١) البیتان للقاضي الفاضل (ت: ٥٩٦) في «ديوانه» (٤٩٢). ونُسباً لمُهيَّار - وليساً في
ديوانه - في «الحلة السيرة» (١/ ٢٠٤)، و«نفح الطيب» (٥/ ٤٧٦)، وفي الأول
حكاية خلافٍ في ذلك. وهما في «الحماسة المغربية» (١٠٦٨) ومصادر أخرى
كثيرة دون نسبة.

(٢) الثاني لابن غلندو الإشبيلي (ت: ٥٨٧) في «إرشاد الأريب» (١١٩٤). ودون نسبة
في «البديع» لابن منقذ (١١٤).

ليستوفي بذلك حقاً له يحتاج فيه إلى التعريف بحاله، أو ليقطع عنه أطماع السفلة فيه، أو عند خطبته إلى من لا يعرف حاله.

والأحسن في هذا أن يوكل من يُعرف به وبحاله؛ فإن لسان ثناء المرء على نفسه قصير^(١)، وهو في الغالب مذموم؛ لما يقترب به من الفخر والتعاضم.

ثم ذكر أصناف حملة العلم الذين لا يصلحون لحمله، وهم أربعة:

أحدهم: من ليس هو بمأمونٍ عليه، وهو الذي أوتي ذكاءً وحفظاً، ولكن مع ذلك لم يؤت زكاء؛ فهو يتخذ العلم الذي هو آلة الدين آلة الدنيا، يستجلبها به، ويتوسل بالعلم إليها، ويجعل البضاعة التي هي متجّر الآخرة متجّر الدنيا، وهذا غير أمينٍ على ما حمّله من العلم، ولا يجعله الله إماماً فيه قط؛ فإن الأمين هو الذي لا غرض له ولا إرادة لنفسه إلا اتباع الحق وموافقته، فلا يدعو إلى قيام رياسته ولا دنياه.

وهذا الذي قد اتخذ بضاعة الآخرة ومتجّرها متجّراً للدنيا قد خان الله وخان عباده وخان دينه، فلهذا كان^(٢) غير مأمونٍ عليه.

* وقوله: «يَسْتَظْهَرُ بِحُجَجِ اللَّهِ عَلَى كِتَابِهِ، وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ عِبَادَهُ»؛ هذه صفة هذا الخائن؛ إذا أنعم الله عليه أستظهر بتلك النعمة على الناس، وإذا تعلّم علماً أستظهر به على كتاب الله.

ومعنى أستظهاره بالعلم على كتاب الله: تحكيّمه عليه وتقديمه وإقامته

(١) انظر السّر في ذلك في «الهوامل والشوامل» (٦٨، ١١٧، ٣٠٨).

(٢) (ق، د، ح، ن): «قال». أي: رضي الله عنه.

دونه.

وهذه حال كثير ممن يحصل له علم؛ فإنه يستغني به ويستظهر به ويحكمه ويجعل كتاب الله تبعاً له، يقال: أَسْتَظْهَرُ فلانٌ على كذا بكذا، أي: ظَهَرَ عليه به، وتقدّم فجعله وراء ظهره.

وليست هذه حال العلماء؛ فإنّ العالم حقّاً يستظهر بكتاب الله على كلّ ما سواه، فيقدّمه ويحكمه، ويجعله إمامه، ويجعله عياراً على غيره مهيمناً عليه، كما جعله الله تعالى كذلك.

فالمُسْتَظْهَرُ به موفّق سعيد، والمُسْتَظْهَرُ عليه مخذولٌ شقيّ، فمن أَسْتَظْهَرَ على الشيء فقد جعله خلف ظهره مقدّماً عليه ما أَسْتَظْهَرَ به، وهذا حال من أشتغل بغير كتاب الله عنه، واكتفى بغيره منه، وقدّم غيره وأخّره.

الصنف الثاني من حملة العلم: المنقّادُ له، الذي لم يُلْجِ له صدره، ولم يطمئنّ به قلبه، بل هو ضعيف البصيرة فيه، لكنه منقادٌ لأهله.

وهذه حال أتباع الحقّ من مقلّديهم، وهؤلاء وإن كانوا على سبيل نجاة فليسوا من دعاة الدّين، وإنما هم من مكثري سواد الجيش، لا من أمرائه وفرسانه.

والمنقاد: مُنْفَعِلٌ مِنْ قاده يَقُودُهُ، وهو مُطَاوِعُ الثَّلَاثِي^(١)، وأصله: مُنْقِدٌ؛ كَمُكْتَسِبٍ، ثُمَّ أَعْلَتِ الْيَاءُ أَلْفًا^(٢) لحركتها بعد فتحة، فصار: مُنْقَادٌ؛

(١) (ح): «الثاني». وهو تحريف.

(٢) (ت): «ثم أقلب الياء ألفاً». والإعلال: تغيير حرف العلة للتخفيف، بالقلب كما في هذا المثال، أو التسكين، أو الحذف.

تقول: قُدُّهُ فانقادَ، أي: لم يَمْتَنِع.

والأحناء: جمعُ حَنُوٍّ، بوزن عِلْمٍ، وهي الجوانبُ والنواحي، والعربُ تقول: أَرَجُرُ أحناءَ طَيْرِكَ، أي: أُمِسِّكَ نواحي خِفَّتِكَ وطَيْشِكَ يمينًا وشمالًا وأمامًا وخلفًا^(١).

قال لبيد^(٢):

فقلتُ أَرَدَجِرُ أحناءَ طَيْرِكَ وَأَعْلَمَنْ
بأنَّكَ إِنْ قَدَمْتَ رَجَلَكَ عَائِرُ
والطيرُ هنا: الخِفَّةُ والطَيْشُ.

* وقوله: «ينقدحُ الشكُّ في قلبه بأوَّلِ عارضٍ من شبهةٍ»؛ هذا لضعفِ علمه وقلةِ بصيرته، إذا وردت على قلبه أدنى شبهةٍ قدحت فيه الشكَّ والريب، بخلاف الراسخ في العلم، لو وردت عليه من الشُّبه بعدد أمواج البحر ما أزلت يقينه، ولا قدحت فيه شكًّا؛ لأنه قد رسَخَ في العلم فلا تستفزُّه الشبهات، بل إذا وردت عليه ردَّها حرسُ العلم وجيشُه مغلوبةً مغلوبةً.

والشبهةُ وارِدٌ يَرُدُّ على القلب يحولُ بينه وبين أنْ يكشف الحقَّ له، فمتى باشر القلبُ حقيقةَ العلم لم تؤثر تلك الشبهةُ فيه، بل يقوى علمُه ويقينه برَدِّها ومعرفة بطلانها، ومتى لم يباشر حقيقةَ العلم بالحقِّ قلبه قدحت فيه الشكُّ بأول وهلة، فإن تداركها وإلا تتابعت على قلبه أمثالها، حتى يصيرَ شاكًّا مرتابًا.

(١) انظر: «الصحاح» (حني).

(٢) في ديوانه (٢٢٠).

والقلبُ يتواردهُ جيشان من الباطل: جيشُ شهوات الغيِّ، وجيشُ شبهات الباطل. فأَيُّما قلبٍ صغَا إليها وركنَ إليها تَشَرَّبَهَا وامتَلَأَ بِهَا، فيَنْضَحُ لسانُهُ وجوارحُهُ بِمُوجِبِهَا، فَإِنْ أَشْرَبَ شبهات الباطل تَفَجَّرَتْ على لسانه الشكوكُ والشبهاتُ والإيرادات، فيظنُّ الجاهلُ أَنَّ ذلك لسعة علمه، وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه!

وقال لي شيخُ الإسلام رضي الله عنه - وقد جعلتُ أوردُ عليه إيرادًا بعد إيراد -: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السِّفْنَجَةِ، فيتشَرَّبَهَا، فلا ينضح إلا بها، ولكن أجعله كالزجاجة المضمَّمة، تمرُّ الشبهاتُ بظاهرها ولا تستقرُّ فيها، فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أَشْرَبَتْ قلبك كلَّ شبهةٍ تمرُّ عليك صار مقرًّا للشبهات»^(١)، أو كما قال؛ فما أعلمُ أَنِّي أَنتفعتُ بوصيَّةٍ في دفع الشبهات كانتفاعي بذلك.

وإنما سُمِّيت الشبهةُ شبهةً لاشتباه الحقِّ بالباطل فيها؛ فإنها تلبسُ ثوبَ الحقِّ على جسم الباطل، وأكثرُ الناسُ أصحابُ حُسنٍ ظاهر، فينظرُ الناظرُ فيما ألبسته من اللباس فيعتقدُ صحتها، وأما صاحبُ العلم واليقين فإنه لا يغترُّ بذلك، بل يجاوزُ نظره إلى باطنها وما تحت لباسها، فينكشفُ له حقيقتها.

(١) انظر هذا المعنى في: «شفاء العليل» (٣٢٣، ٥٤٢)، و«الوابل الصيب» (١٢٠ - ١٢٢)، و«الروح» (٥٩٩).

وذكر الصفدي في «الوافي» (١٦/٧) أن ابن تيمية كان إذا رآه قال له: «أيش حسَّ الإيرادات؟ أيش حسَّ الأجوبة؟ أيش حسَّ الشكوك؟، أنا أعلم أنك مثل القدر التي تغلي تقول: بق بق بق، أعلاها أسفلها وأسفلها أعلاها، لازمني تنتفع».

ومثال هذا: الدرهمُ الزائف؛ فإنه يغترُّ به الجاهلُ بالنقد، نظرًا إلى ما عليه من لباسِ الفضة، والناقدُ البصيرُ يجاوزُ نظره إلى ما وراء ذلك فيطلُّ على زيغه.

فاللفظُ الحسنُ الفصيحُ هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف، والمعنى كالنحاس الذي تحته^(١).

وكم قد قتلَ هذا الاغترارُ من خلقٍ لا يحصيهم إلا الله!
وإذا تأملَ العاقلُ القطنُ هذا القدرَ وتدبَّره رأى أكثر الناس يقبلُ المذهبَ والمقالة بلفظٍ، ويردُّها بعينها بلفظٍ آخر!، وقد رأيتُ أنا من هذا في كتب الناس ما شاء الله.

وكم قد رُدَّ من الحقِّ بتشييعه بلباسٍ من اللفظ قبيح!
وفي مثل هذا قال أئمةُ السُّنة - منهم الإمامُ أحمد وغيره -: «لا نُزيلُ عن الله صفةً من صفاته لأجلِ شناعةِ شُنَّعتِ»^(٢). فهؤلاء الجهميةُ يسمُّون إثباتَ صفات الكمالِ لله - من حياته، وعلمه، وكلامه، وسمعه، وبصره، وسائر ما وصف به نفسه - تشبيهاً وتجسيماً، ومن أثبتَ ذلك مشبَّهاً؛ فلا يَنفِرُ من هذا المعنى الحقِّ لأجلِ هذه التسمية الباطلة إلا العقولُ الصغيرةُ القاصرةُ

(١) قال ابن تيمية في تائية ابن الفارض المشهورة: «نظَّم فيها الاتحاد نظماً رائق اللفظ، فهو أحبُّ من لحم خنزيرٍ في صينيةٍ من ذهبٍ!». «مجموع الفتاوى» (٧٣/٤). وانظر: «الصواعق المرسلَة» (٤٣٦)، و«البيان والتبيين» (١/٢٥٤).

(٢) انظر: «الإبانة» لابن بطة (٣/٣٢٦ - تنمة الرد على الجهمية)، و«إبطال التأويلات» (١/٤٤)، و«ذم التأويل» لابن قدامة (٢٢)، و«بيان تلبيس الجهمية» (١/٤٣١)، و«درء التعارض» (٢/٣١).

خفافيش البصائر.

وكلُّ أهلِ نِحْلَةٍ ومقالةٍ يَكْسُونُ نِحْلَتَهُمْ ومقاتلَهُمْ أحسنُ ما يقدرون عليه من الألفاظ، ومقالةٌ مخالفيهِمْ أقبحُ ما يقدرون عليه من الألفاظ^(١)، ومن رزقه الله بصيرةً فهو يكشفُ بها حقيقةً ما تحت تلك الألفاظ من الحقِّ والباطل، ولا يغترُّ باللفظ، كما قيل في هذا المعنى:

تقولُ هذا جَنَى النِّحْلِ^(٢) تمدُّهُ وإن تشأْ قلتَ ذاقيُّ الزَّنابيرِ
مدحاً وذمّاً وما جاوزتَ وَصَفَهُمَا والحقُّ قد يعتريه سوءٌ تعبيري^(٣)

فإذا أردتَ الاطلاعَ على كُنْهِ المعنى: هل هو حقٌّ أو باطل؟ فجرِّدْهُ من لباس العبارة، وجرِّدْ قلبك من الثُّغرةِ والميلِ، ثمَّ أعْطِ النظرَ حقَّه، ناظرًا بعين الإنصاف، ولا تكن ممن ينظرُ في مقالة أصحابه ومن يحسِّنُ ظَنَّهُ به نظرًا تامًّا بكلِّ قلبه، ثمَّ ينظرُ في مقالة خصومه ومن يسيءُ ظَنَّهُ به كنظر السَّزْر والملاحظة.

فالناظرُ بعين العداوة يرى المحاسنَ مساوياً، والناظرُ بعين المحبة عكسه، وما سَلِمَ من هذا إلا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحقِّ، وقد قيل^(٤):

(١) انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٢/ ٣٤٤).

(٢) كذا في الأصول. ورواية الديوان وكثير من المصادر: «مُجَاجِج النحل».

(٣) البيتان لابن الرومي في «ديوانه» (١١٤٤)، ولهما ثالث.

(٤) البيت لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، في «الأغاني»

(٢١٢/ ١٢)، و«الكامل» (٢٧٧)، و«عيون الأخبار» (٣/ ٧٦)، و«زهر الآداب»

(١/ ٨٥)، وغيرها. وفي نسبته خلاف. انظر: «الواضح المبين» (٤٤).

وعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْذِرُ الْمَسَاوِيَا
وقال آخر (١):

نظروا بعينِ عداوةٍ ولو أنها عينُ الرِّضَا لا ستَحْسِنُوا ما أَسْتَقْبَحُوا
فإذا كان هذا في نظر العين الذي يُدْرِكُ المحسوسات، ولا يتمكن من
المكابرة فيها، فما الظنُّ بنظر القلب الذي يُدْرِكُ المعاني التي هي عُرضَةُ
المكابرة؟!

والله المستعان على معرفة الحق وقبوله، وردّ الباطل وعدم الاغترار به.
* وقوله: «بأول عارض من شبهة»، هذا دليلٌ على ضعف عقله
ومعرفته، إذ تؤثر فيه البدّوات (٢)، وتستفزّه أوائلُ الأمور، بخلاف الثابت
التامّ العقل (٣)، فإنه لا تستفزّه البدّوات ولا تُزعِجه وتُقلِّقه؛ فإنّ الباطل له
دهشةٌ وروعةٌ في أوّله، فإذا ثبت له القلبُ ردّدٌ على عقبيه.

والله يحبُّ من عبده الحِلْمَ والأناة، فلا يَعْجَلْ، بل يثبتُ حتى يعلمَ
ويستيقنَ ما وردَ عليه، ولا يَعْجَلْ بأمرٍ من قبل استحكامه، فالعجلة والطيشُ
من الشيطان.

فمن ثبت عند صدمة البدّوات استقبل أمره بعلم وحزم، ومن لم يثبت
لها استقبله بعجلةٍ وطيش، وعاقبته الندامة، وعاقبة الأول حمْدُ أمره، ولكنَّ
للأول آفةً متى فُرِنت بالحزم والعزم نجا منها، وهي القوّة، فإنه لا يُخافُ

(١) وهو الشريف الرضي، في ديوانه (١/ ٢٦٠).

(٢) الآراء الطارئة. واحدها: بداءة.

(٣) (د، ق، ح، ن): «العاقل». تحريف.

من التثبُّت إلا الفَوْتُ، فإذا اقترنَ به العزمُ والحزمُ تمَّ أمرُه.

ولهذا في الدعاء الذي رواه الإمام أحمد والنسائي عن النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك الثباتَ في الأمر، والعزيمةَ على الرُّشد»^(١).

وهاتان الكلمتان هما جِماعُ الفلاح، وما أُتِيَ العبدُ إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما، فما أُتِيَ أحدُهما إلا من باب العجلة والطَّيش واستفزاز البدوات له، أو من باب التهاون والتماؤت وتضييع الفرصة بعد مُواتاتها، فإذا حصل الثبات أولاً والعزم ثانياً أفلح كلُّ الفلاح، والله وليُّ التوفيق.

الصنف الثالث: رجلٌ نَهَمَتْهُ في نيل لذَّته، فهو منقادٌ لداعي الشهوة أين كان، ولا ينالُ درجةَ وراثة النبوة مع ذلك، ولا ينالُ العلم إلا بهجر اللذات وتطبيق الراحة.

قال مسلم في «صحيحه»^(٢): «قال يحيى بن أبي كثير: لا يُنالُ العلمُ براحة الجسم».

وقال إبراهيم الحربي: «أجمع عقلاء كلِّ أمةٍ أنَّ النعيمَ لا يُدركُ بالنعيم، ومن أثر الراحة فاتته الراحة»^(٣).

(١) أخرجه أحمد (١٢٣/٤)، والترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي (١٣٠٣)، وغيرهما من طرقٍ يقوِّي بعضها بعضاً عن شداد بن أوسٍ.
وصححه ابن حبان (٩٣٥، ١٩٧٤)، والحاكم (٥٠٨/١) ولم يتعقبه الذهبي. وانظر: «نتائج الأفكار» (٧٧/٣).

(٢) (٦١٢). وانظر ما تقدم (ص: ٣٠٠).

(٣) انظر: «قاعدة في المحبة» لابن تيمية (٢٠٧). ولعلَّ أصله ما في «تاريخ بغداد» (٣٠/٦).
ولابن الجوزي كلامٌ في هذا المعنى. انظر: «الأدب الشرعية» (٢٤٢/١).

فما لصاحب اللذات وما لدرجة وراثه الأنبياء!

فَدَعَّ عَنْكَ الْكَتَابَةَ لَسْتَ مِنْهَا وَلَوْ سَوَّدْتَ وَجْهَكَ بِالْمِدَادِ^(١)
فَإِنَّ الْعِلْمَ صِنَاعَةُ الْقَلْبِ وَشُغْلُهُ؛ فَمَا لَمْ يَتَفَرَّغْ لَصِنَاعَتِهِ وَشُغْلِهِ لَمْ يَنْلُهَا،
وَلَهُ وَجْهَةٌ وَاحِدَةٌ؛ فَإِذَا وُجِّهَتْ وَجْهَتُهُ إِلَى اللذات والشهوات أَنْصَرَفَتْ عَنِ
الْعِلْمِ.

وَمِنْ^(٢) لَمْ تَغْلِبْ^(٣) لَذَّةُ إدراكه للعلم وشهوته على لَذَّةِ جسمه وشهوة
نفسه لَمْ يَنْلِ دَرَجَةَ الْعِلْمِ أَبَدًا، إِذَا صَارَتْ شَهُوتُهُ فِي الْعِلْمِ وَلَذَّتُهُ فِي إدراكه
رُجِيَّ لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ جَمَلَةِ أَهْلِهِ.

وَلَذَّةُ الْعِلْمِ لَذَّةٌ عَقْلِيَّةٌ رُوحَانِيَّةٌ مِنْ جِنْسِ لَذَّةِ الْمَلَائِكَةِ، وَلَذَّةُ شَهَوَاتِ
الْأَكْلِ وَالشَّرَابِ وَالنِّكَاحِ لَذَّةٌ حَيَوَانِيَّةٌ يَشَارِكُ الْإِنْسَانَ فِيهَا الْحَيَوَانُ، وَلَذَّةُ
الشَّرِّ وَالظُّلْمِ وَالْفَسَادِ وَالْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ شَيْطَانِيَّةٌ يَشَارِكُ صَاحِبَهَا فِيهَا إِبْلِيسُ
وَجُنُودُهُ.

وَسَائِرُ اللذات تبطل بمفارقة الروح البدن، إِلَّا لَذَّةُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ، فَإِنَّهَا
تَكْمُلُ بَعْدَ الْمَفَارِقَةِ؛ لِأَنَّ الْبَدْنَ وَشَوَاغِلَهُ كَانَ يَنْقُصُهَا وَيَقْلِّلُهَا وَيَحْجُبُهَا، فَإِذَا
أَنْطَوَتْ الرُّوحُ عَنِ الْبَدَنِ أَلْتَذَّتْ لَذَّةً كَامِلَةً بِمَا حَصَلَتْهُ مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ
وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ فَمَنْ طَلَبَ اللذَّةَ الْعَظِيمَةَ، وَآثَرَ النِّعَمَ الْمُقِيمَ، فَهُوَ فِي الْعِلْمِ
وَالْإِيمَانِ اللَّذَيْنِ بِهِمَا كَمَالُ سَعَادَةِ الْإِنْسَانِ.

(١) ثَانِي بَيْتَيْنِ فِي «أَدَبِ الْكِتَابِ» لِلصُّوْلِيِّ (١٧١)، وَ«حِمَاسَةُ الظُّرَفَاءِ» (١٠٨/٢)،
وَالْعَقْدُ (١٧١/٤، ١٣٣/٦)، وَغَيْرَهَا، دُونَ نِسْبَةٍ.

(٢) (ح): «وَمَا». وَهِيَ سَاقِطَةٌ مِنْ (ت).

(٣) (د): «يَغْلِبُ». وَهِيَ بِتَشْدِيدِ اللَّامِ وَنَصْبِ «لَذَّةٍ» قِرَاءَةٌ جَيِّدَةٌ.

وأيضاً؛ فَإِنَّ تلكَ اللذاتِ سريعةُ الزوالِ، وإذا أنقضتْ أعقبتْ همًّا وغمًّا
والمَّا يحتاجُ صاحبُها أن يداويه بمثلها دفعًا لألمه، وربَّما كان معاودته لها
مؤلمًا له كريهاً إليه، لكن يَحْمِلُهُ عليه مداواةُ ذلك الغمِّ والهمِّ.

فأين هذا من لذة العلم، ولذَّة الإيمان بالله، ومحبتِّه، والإقبال عليه،
والتنعمُ بذكره؟! فهذه هي اللذة الحقيقية.

الصنفُ الرابع: مَنْ حرصه وهِمُّته في جمع الأموال وتثميرها
وإدخارها، فقد صارت لذته في ذلك، وفَنِيَ بها عمًّا سواه، فلا يرى شيئاً
أطيبَ له ممَّا هو فيه، فأين هذا ودرجةُ العلم؟!!

فهؤلاء الأصنافُ الأربعةُ ليسوا من دعاة الدِّين، ولا من أئمة العلم، ولا
من طلبته الصادقين في طلبه، ومن تعلَّق منهم بشيء منه فهو من المتسلِّقين
عليه، المتشبهين بحمَلته وأهله، المدَّعين لوصاله، المبتوتين من حِباله.

وفتنة هؤلاء فتنةٌ لكلِّ مفتون؛ فَإِنَّ النَّاسَ يتشَبَّهون بهم؛ لِمَا يظنون
عندهم من العلم، ويقولون: «لسنا خيراً منهم، ولا نرغبُ بأنفسنا عنهم»؛
فهم حجةٌ لكلِّ مفتون، ولهذا قال فيهم بعضُ الصحابة الكرام: «أحذروا فتنةَ
العالمِ الفاجرِ والعابدِ الجاهل؛ فَإِنَّ فتنتهما فتنةٌ لكلِّ مفتون»^(١).

* وقوله: «أقربُ شبهًا بهم الأنعامُ السائمة»؛ هذا التشبيه مأخوذٌ من قوله
تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّاكَا لَا نَعْلَمُ بَلْ هُمْ أَصْلُ سَيْيِلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، فما أقتصر سبحانه

(١) أخرجه نعيم بن حماد في زوائد على «الزهد» لابن المبارك (٧٥)، وأحمد في
«العلل» (١١٨/٣) - رواية عبد الله، وابن أبي حاتم في «تقدمة الجرح والتعديل»
(٨٨)، وغيرهم عن سفيان الثوري قال: «كان يقال...» فذكره.
وأخرجه البيهقي في «المدخل» (٤٤٣) عن الشعبي.

على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضلَّ سبيلاً منهم.
والسائمة: الراعية، وشبه أمير المؤمنين هؤلاء بها؛ لأنَّ هِمَّتَهُمْ في رَعْيِ
الدنيا وحطامها.

والله تعالى يشبه أهل الجهل والغيِّ تارة بالأنعام، وتارة بالحُمُر، وهذا
تشبيهٌ لمن تعلَّم علماً ولم يَغْلُقه ولم يعمل به، فهو كالحمار الذي يحمل
أسفاراً، وتارة بالكلب، وهذا لمن أنسلخ عن العلم وأخلد إلى الشهوات
والهوى.

* وقوله: «كذلك يموت العلم بموت حامله»؛ هذا من قول النبي ﷺ
في حديث عبد الله بن عمرو وعائشة وغيرهما: «إنَّ الله لا يقبض العلم
أنزاعاً ينتزعه من صدور الرجال، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء؛ فإذا لم
يَبْقَ عالِمٌ آخذ الناس رؤساءً جهاًلاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا
وأضلوا»، رواه البخاري في «صحيحه»^(١).

فذهاب العلم إنما هو بذهاب العلماء.

قال ابن مسعود يوم مات عمر رضي الله عنه: «إني لأحسبُ تسعة أعشار
العلم اليوم قد ذهب»^(٢).

وقد تقدَّم قولُ عمر رضي الله عنه: «موتُ ألف عابدٍ أهونُ من موت عالمٍ
بصيرٍ بحلال الله وحرامه»^(٣).

(١) (١٠٠، ٧٠٣٧).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/١٦٣)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٤/٦٠) من
طريق بعضها صحيح.

(٣) (ص: ٣٤١).

* وقوله: «اللهم بلى! لن تخلو الأرض من مجتهدٍ قائم بحجج الله»؛
ويدلُّ عليه الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «لا تزال طائفةٌ من أمتي على
الحق، لا يضرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمرُ الله وهم على
ذلك»^(١).

ويدلُّ عليه أيضًا ما رواه الترمذي عن قتيبة: حدثنا حماد بن يحيى
الأبج، عن ثابت، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلُ أمتي مثلُ المطر لا
يُدرى أولُهُ خيرٌ أم آخِرُهُ»^(٢).

قال: «هذا حديثٌ حسنٌ غريب، ويروى عن عبد الرحمن بن مهدي أنه
كان يثبت حماد بن يحيى الأبج، وكان يقول: هو من شيوخوا. وفي الباب
عن عمار وعبد الله بن عمرو».

فلو لم يكن في أواخر الأُمَّة قائمٌ بحجج الله، مجتهد، لم يكونوا
موصوفين بهذه الخيرية.

(١) ورد من حديث جماعة من الصحابة في الصحيحين وغيرهما، وهو متواتر، كما ذكر
ابن تيمية في «الافتضاء» (٦٩/١)، وانظر: «نظم المتناثر» (١٤١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٦٩)، وأحمد (١٣٠/٣، ١٤٣)، وغيرهما.
قال الإمام أحمد: «هو خطأ، إنما يروى هذا الحديث عن الحسن». انظر: «العلل»
(٣/٣١٤ - رواية عبد الله)، و«المنتخب من العلل للخلال» (٦٠)، و«شرح علل
الترمذي» لابن رجب (٥٠١/٢).

وأخرجه من مُرسل الحسن أحمد في «العلل» في الموضع السابق.
وروي من وجوه أخرى صحَّحه بها بعضُ أهل العلم. انظر: «فتح الباري» (٦/٧)،
و«الصحيحة» (٢٢٨٦).

واستشكل متنه العلائي في «تحقيق منيف الرتبة» (٩٠).

وأيضاً؛ فإنَّ هذه الأمة أكمل الأمم، وخيرُ أمةٍ أُخرجت للناس، ونبيُّها خاتمُ النبيين لا نبيَّ بعده، فجعلَ اللهُ العلماءَ فيها كلِّما هلك عالمٌ خَلَفَهُ عالمٌ؛ لئلاً تُطمَسَ معالمُ الدين وتُخفى أعلامُه، وكان بنو إسرائيل كلما هلك فيهم نبيٌّ خَلَفَهُ نبيٌّ، فكانت تُسوُسُهُم الأنبياء^(١)، والعلماءُ لهذه الأمة كالأنبياء في بني إسرائيل^(٢).

وأيضاً؛ ففي الحديث الآخر: «يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عدوُّه، ينفون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين»^(٣)، وهذا يدلُّ على أنه لا يزالُ محمولاً في القرون قرناً بعد قرن.

وفي «صحيح أبي حاتم» من حديث الخولاني: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يزالُ اللهُ يغرُسُ في هذا الدِّينِ غرساً يستعملُهُم في طاعته»^(٤)، وعرُسُ الله هم

(١) كما أخبر النبي ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة.

(٢) ورد هذا في خبرٍ لا أصل له. انظر: «كشف الخفاء» (٨٣/٢).

(٣) سيأتي تخريجه (ص: ٤٦٣).

(٤) أخرجه أحمد (٢٠٠/٤)، وابن ماجه (٨)، وابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٢٤٩٧)، وغيرهم من حديث أبي عنبه الخولاني.

وصححه أبو حاتم ابن حبان (٣٢٦)، وقال الذهبي في «المعجم المختص بالمحدثين» (١٣٤): «إسناده صالح». وانظر: «الكامل» لابن عدي (١٦٢/١). وقال العلائي في «جامع التحصيل» (٣١٤): «ضعيفٌ من جهة الجراح بن مليح، قال الدارقطني: ليس بشيء. وأحاديث أبي عنبه مرسله».

قلت: إنما قال ذلك الدارقطني في الجراح بن مليح الرؤاسي، لا هذا البهراني، وهو شاميٌّ ليس به بأس، إلا أنه خولف في حديثه هذا، انظر: «شرح مذاهب أهل السنة» =

أهل العلم والعمل، فلو خلت الأرض من عالم خلت من غرس الله.
ولهذا القول^(١) حجج كثيرة لها موضع آخر.

وزاد الكذابون في حديث علي: «... إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا، وَإِمَّا خَفِيًّا
مُسْتَوْرًا»^(٢)، وظنوا أَنَّ ذلك دليل لهم على القول بالْمُسْتَعْتَرِ، ولكن هذه
الزيادة مِنْ وَضْعِ بَعْضِ كَذَّابِهِمْ^(٣)، والحديث مشهور عن عليٍّ لم يَقُلْ^(٤)
أحدٌ عنه هذه المقالة^(٥) إلا كَذَّابٌ.

وحججُ الله لا تقومُ بخفيٍّ مستورٍ لا يقعُ العالمُ له على خبر، ولا
يتفكرون به في شيءٍ أصلاً؛ فلا جاهلٌ يتعلَّمُ منه، ولا ضالٌّ يهتدي به، ولا
خائفٌ يأمنُ به، ولا ذليلٌ يتعزَّزُ به، فأَيُّ حِجَّةٍ لله قامت بمن لا يرى له
شخص، ولا يُسمَعُ منه كلمة، ولا يُعلَمُ له مكان؟! ولا سيما على أصول
القائلين به، فإنَّ الذي دعاهم إلى ذلك أنهم قالوا: لا بدَّ منه في اللُّطفِ

= لابن شاهين (٤٢).

وفي صحبة أبي عتبة الخولاني خلافٌ قويٌّ، والأشبه أن ليست له صحبة. انظر:
«المراسيل» لابن أبي حاتم (٢٥١)، و«تهذيب الكمال» (٣٤/١٥٠)، و«الإصابة»
(٢٩٣/٧).

(١) أي: عدم خلوّ الأرض من مجتهد.

(٢) لم أر هذه الزيادة إلا في كتب الرافضة. أخرجها إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي في
«الغارات» (١٥٣/١)، والطوسي في أماليه (٢٣)، والمفيد في أماليه (٣)، بأسانيد
مظلمة. وهي في «نهج البلاغة» (٣٧/٤).

(٣) انظر: «جواب الاعتراضات المصرية» لابن تيمية (٣٢).

(٤) كذا في الأصول، على تضمين معنى: ينقل.

(٥) (ح، ن): «هذه الزيادة».

بالمكلفين وانقطاع حجّتهم عن الله^(١).

فيا الله العجب! أيُّ لُطْفٍ حصل بهذا المعدوم، لا المعصوم؟! (٢) وأيُّ حُجَّةٍ أثبتُّم للخلق على ربهم بأصلكم الباطل؟! فإنَّ هذا المعدوم إذا لم يكن لهم سبيلٌ قطُّ إلى لقائه والاهتداء به، فهل في تكليف ما لا يطاقُ أبلغُ من هذا؟! وهل في العذر والحجّة أبلغُ من هذا؟!

فالذي فررتُم منه وقعتم في شرٍّ منه، وكنتم في ذلك كما قيل:

المستجيرُ بعمرٍو عند كُربته كالمستجير من الرَّمضاءِ بالنارِ^(٣)

ولكن أبى الله إلا أن يفضَحَ من تنقَّصَ بالصحابة الأخيار وبسادة هذه الأمة، وأن يُريَ النَّاسَ عورته ويُغريه بكشفها. ونعوذُ بالله من الخذلان.

ولقد أحسن القائل:

ما آنَ للسُّرداب أن يَلِدَ الذي حمَلْتُموه^(٤) بزعمكم ما أنا
فعلى عقولكم العَفَاءُ فإنَّكم ثلَّثْتُم العَنَقَاء والغيلانا^(٥)

(١) انظر: «النكت الاعتقادية» للمفيد (٤٤ - ٤٥). وراجع: «أصول مذهب الشيعة» للقفاري (٧٨٩/٢).

(٢) (ح): «بهذا المعدوم المعصوم».

(٣) بيتٌ سائرٌ مشهور، في عامة كتب الأمثال، تمثِّل به أبو نجدة لُجَيم بن سعد، في «الأغاني» (٢٣/٢١٩)، فنسب إليه بعضهم، وهو وهم، وورد في كثير من المصادر دون نسبة، وقال العباسي في «معاهد التنصيص» (٤/٢٠١): «لا أعرف قائله».

(٤) كذا في الأصول. وفي بعض المصادر: «كلمتموه».

(٥) تنسبُ الشيعةُ البيهقي لابن حجر الهيثمي (ت: ٩٧٣)، ولهم عليه ردود. انظر: «الكنى والألقاب» للقمي (١/٢٦٢)، و«الذريعة إلى تصانيف الشيعة» (١٠/١٧٧)، =

ولقد بطلت حججُ آستودِعَها مثلُ هذا الغائب، وضاعت أعظمُ ضياع،
فأنتم أبطلتم حججَ الله من حيث زعمتم حفظَها!

وهذا تصريحٌ من أمير المؤمنين رضي الله عنه بأنَّ حاملَ حججِ الله لا بدَّ
أن يكون في الأرض، بحيث يؤدِّيها عن الله، ويبلِّغها إلى عبادِه، مثله رضي
الله عنه، ومثلُ إخوانه من الخلفاء الراشدين ومن أتبعهم إلى يوم القيامة.

* وقوله: «لكيلا تبطل حججُ الله وبيِّناته»؛ أي: لكيلا تذهب من بين
أيدي الناس، وتبطل من صدورهم، وإلا فالبطلانُ محالٌ عليها؛ لأنها ملزومٌ
ما يستحيلُ عليه البطلان.

فإن قيل: فما الفرقُ بين الحجج والبيِّنات؟

قيل: الفرقُ بينهما أنَّ الحججَ هي الأدلَّةُ العلميَّةُ التي يَعْقِلُها القلب،
وتَسْمِعُها الأذن^(١).

قال تعالى في مناظرة إبراهيم لقومه، وتبينه بطلانَ ما هم عليه بالدليل
العلمي: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾
[الأنعام: ٨٣]، قال ابن زيد^(٢): «بعلم الحجَّة».

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠]،

= (٢٠/١١٠). وذلك أنه استشهد بهما في «الصواعق المحرقة» (٢/٤٨٣)، وقد
اكتوى به القوم، واستشهد بهما المصنف هنا وفي «المنار المنيف» (١١٩)، وهو قبل
الهيتمي بدر.

(١) (د، ح): «وتسمع بالأذن». (ق، ن): «وتسمع بالأذان».

(٢) كذا في الأصول. وتقدم (ص: ١٣٩) عن أبيه زيد بن أسلم.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ، جُنُودُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦].

والحجة هي اسم لما يُحتج به من حق وباطل؛ قال تعالى: ﴿لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾، يعني: فإنهم يحتجون عليكم بحجة باطلة، ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَىٰ تِلْكَ ابْنَتُنَا بِمَنْتَرٍ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتُونَا بِبَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥].
والحجة المضافة إلى الله تعالى: هي الحق.

وقد تكون الحجة بمعنى المخاصمة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْلِكِ قَادِحٌ وَأَسْتَقِمَ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَبْغِ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلَكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: ١٥]، أي: قد وضح الحق واستبان وظهر، فلا خصومة بيننا بعد ظهوره ولا مجادلة؛ فإنَّ الجدل شريعة موضوعة للتعاون على إظهار الحق، فإذا ظهر الحق ولم يبق به خفاء فلا فائدة في الخصومة والجدال على بصيرة، [فإن] مخاصمة المتكبر^(١) ومجادلته عناء لا غناء فيه^(٢).

(١) رسمها في الأصول: «المنكر». والمثبت أشبه. انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٤٥)، و«الصواعق المرسله» (٣٧٢، ٩٠١، ١٠٨٨).

(٢) ما بين المعكوفين أضفته ليستقيم السياق، ويمكن أن يقرأ بدونه: «فإذا ظهر الحق ولم يبق به خفاء فلا فائدة في الخصومة. والجدال على بصيرة مخاصمة (المتكبر)، ومجادلته عناء لا غناء فيه». وانظر ما سيأتي (ص ١٠٠٨).

هذا معنى هذه الآية.

وقد يقع في وهم كثير من الجهال أن الشريعة لا احتجاج فيها، وأن المرسل بها ﷺ لم يكن يحتج على خصومه ولا يجادلهم، ويظن جهال المنطقيين وفروخ اليونان أن الشريعة خطاب للجمهور ولا احتجاج فيها، وأن الأنبياء دعوا الجمهور بطريق الخطابة، والحجج للخواص، وهم أهل البرهان، يعنون نفوسهم ومن سلك طريقتهم.

وكل هذا من جهلهم بالشريعة والقرآن؛ فإن القرآن مملوء من الحجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمعاد وإرسال الرسل وحدوث العالم^(١)، فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلاً صحيحاً على ذلك إلا وهو في القرآن بأحسن عبارة، وأوضح بيان، وأتم معنى، وأبعده عن الإيرادات والأسئلة.

وقد اعترف بهذا حذائق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين.

قال أبو حامد في أول «الإحياء»^(٢): «فإن قلت: فلم لم تُورد في أقسام العلم الكلام والفلسفة، وتبين أنهما مذمومان أو ممدوحان؟

فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه الكلام من الأدلة التي يُنتفع بها بالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة، وهي من البدع كما سيأتي بيانه، وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق، وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ثر هات وهذياناً تزدريها الطباع وتمجها الأسماع،

(١) انظر بسطها في «الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد» لسعود العريفي (١٩١) -

وبعضها خوُصٌ فيما لا يتعلَّقُ بالدين، ولم يكن شيءٌ منه مألوفاً في العصر الأول^(١)، ولكن تغيَّرَ الآن حكمه إذ حدثت البدعُ الصارفةُ عن مقتضى القرآن والسنة، فلفَقَتْ لها شبهاً، وربَّتْ لها كلاماً مؤلفاً^(٢)، فصار ذلك المحظورُ بحكم الضرورة مأذوناً فيه.

وقال الرازي في كتابه «أقسام اللذات»^(٣): «لقد تأملتُ الكتبَ الكلاميةَ، والمناهجَ الفلسفيةَ؛ فما رأيتها تروي غليلاً ولا تشفي عليلاً، ورأيتُ أقربَ الطرقَ طريقةَ القرآن، أقرأ^(٤) في الإثبات: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ومن جَرَّبَ مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»^(٥).

وهذا الذي أشار إليه بحسب ما فُتِحَ له من دلالة القرآن بطريق الخبر، وإلا فدلالته البرهانية العقلية التي يشير إليها ويرشد إليها، فتكونُ دليلاً سمعياً عقلياً = أمرٌ تميَّز به القرآن وصار العالمُ به من الراسخين في العلم، وهو العلمُ الذي يطمئنُّ إليه القلب، وتَسْكُنُ عنده النفس، ويزكو به العقل، وتستنيرُ به البصيرة، وتقوى به الحجَّة، ولا سبيلَ لأحدٍ من العالمين إلى قطع

(١) في «الإحياء» زيادة: «وكان الخوض فيه بالكلية من البدع».

(٢) في «الإحياء»: «ونبعت جماعةٌ فلفقوا لها شبهاً ورتبوا فيها كلاماً مؤلفاً».

(٣) انظر لنسخه الخطية: «فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية» للزركان (٧٨).

(٤) وتصح قراءتها: «أقرأ». للمتكلم.

(٥) انظر: «تاريخ الإسلام» (١٣/١٤٢، ١٤٤)، و«السير» (٢١/٥٠١)، و«طبقات

الشافعية» للسبكي (٨/٩١)، ولابن قاضي شهبة (٢/٨٢).

من حاجَّ به، بل من خاصَمَ به فَلَجَتْ حَجَّتُهُ^(١)، وكسَرَ شبهةَ خصمه، وبه
فُتِحَت القلوب، واستُجِيبَ لله ورسوله، ولكنَّ أهل هذا العلم لا تكادُ
الأعصارُ تَسْمَحُ منهم إلا بالواحد بعد الواحد.

فدلالة القرآن سمعيةٌ عقلية، قطعيةٌ يقينية، لا تعترضُها الشبهات، ولا
تداولُها الاحتمالات، ولا ينصرفُ القلبُ عنها بعد فهمها أبدًا.

وقال بعضُ المتكلِّمين: أفنيتُ عمري في الكلام أطلبُ الدليل، وإذا أنا
لا أزدادُ إلا بعدًا عن الدليل، فرجعتُ إلى القرآن أتدبِّره وأتفكَّر فيه، وإذا أنا
بالدليل حقًّا معي وأنا لا أشعرُ به، فقلت: والله ما مثلي إلا كما قال القائل:

ومن العجائب والعجائبُ جمَّةٌ قُرْبُ الحبيب وما إليه وصولُ
كالعيس في البيداء يقتلها الظَّما والماءُ فوق ظهورها محمولُ^(٢)

قال: فلمَّا رجعتُ إلى القرآن إذا هو الحكمُ والدليل، ورأيتُ فيه من أدلَّة
الله وحججه وبراهينه وبَيِّناته ما لو جُمِعَ كُلُّ حقِّ قاله المتكلِّمون في كتبهم
لكانت سورةً من سور القرآن وافيةً بمضمونه، مع حُسْنِ البيان، وفصاحة
اللفظ، وتطبيقِ المَفْصِلِ^(٣)، وحُسْنِ الاحتراز، والتنبيه على مواقع الشُّبه،
والإرشاد إلى جوابها، وإذا هو كما قيل - بل فوق ما قيل -:

(١) انتَصَرَتْ وَغَلَبَتْ. وَالْفَلَجُ: الظَّفَرُ والفوز. «اللسان» (فلج).

(٢) البيت الثاني لأبي العلاء في «سقط الزند» (٨٧٨/٢، ٨٨٠) باختلافٍ يسير. وضمَّنه
القاضي الفاضل (ت: ٥٩٦). انظر: «الروضتين» (٣٥٧/٢). ودون نسبة في مصادر
كثيرة.

(٣) أي: إصابة الحجَّة. وأصله من: طَبَّقَ السيفُ، إذا أصاب المَفْصِلَ، فأبان العضو.
«الصحاح» (طبق).

كفى' وشفى' ما في الفؤاد فلم يدعْ لذي أربٍ في القول جدًّا ولا هزلًا^(١)
وجعلتْ جيوشُ الكلام بعد ذلك تفدُّ إليَّ^(٢) كما كانت، وتتزاحمُ في
صدري، ولا يأذنُ لها القلبُ بالدخول فيه، ولا تلقى منه إقبالًا ولا قبولًا،
فترجعُ على أدبارها.

والمقصودُ أنَّ القرآنَ مملوءٌ بالاحتجاج، وفيه جميعُ أنواع الأدلَّة
والأقيسة الصحيحة.

وأمر الله تعالى رسوله ﷺ فيه بإقامة الحجَّة والمجادلة؛ فقال تعالى:
﴿وَجَدِلْ لَهُم بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال: ﴿وَلَا تَجِدِلُوا أَهْلَ
الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وهذه مناظراتُ القرآن مع الكفار موجودةٌ فيه، وهذه مناظراتُ رسول
الله ﷺ وأصحابه لخصومهم، وإقامة الحجج عليهم، لا ينكرُ ذلك إلا جاهلٌ
مُفرطٌ في الجهل.

والمقصودُ الفرقُ بين الحجج والبيِّنات^(٣)، فنقول: الحجج: الأدلَّة
العلمية، والبيِّنات: جمعُ بيِّنة، وهي صفةٌ في الأصل، يقال: آيةٌ بيِّنة، وحجةٌ
بيِّنة.

والبيِّنة: أسمٌ لكل ما يبيِّن الحقَّ، من علامةٍ منصوبةٍ أو أمارَةٍ أو دليلٍ

(١) البيت لحسان بن ثابت يمدحُ عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، من كلمةٍ في ديوانه
(١/ ٣٣١). وانظر: «المنتقى من أخبار الأصمعي» (٦٩).

(٢) (ت، د، ق): «تفدُّ إليَّ».

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٣٦).

علمي^(١)، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ فالبيّنات: الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات، والكتاب: هو الدعوة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (١١) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴿[آل عمران: ٩٦ - ٩٧]، ومقام إبراهيم آية جزئية مرئية بالأبصار، وهو من آيات الله الموجودة في العالم.

ومنه قول موسى لفرعون وقومه: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿(١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ [الأعراف: ١٠٥ - ١٠٧]، وكان إلقاء العصا وانقلابها حية هو البيّنة.

وقال قوم هود: ﴿يَهُودُ مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]، يريدون آية الاقتراح، وإلا فهو قد جاءهم بما يعرفون به أنه رسول الله إليهم، فطلب الآية بعد ذلك تعنت واقتراح لا يكون لهم عذر في عدم الإجابة إليه.

وهذه هي الآيات التي قال الله تعالى فيها: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]، فعدم إجابته سبحانه إليها إذ طلبها الكفار [كان] رحمة منه وإحساناً؛ فإنه جرت سُنَّتُهُ التي لا تبدل لها أنهم إذا طلبوا الآية واقتربوها وأجيبوا ولم يؤمنوا عُوِّجِلُوا بعذاب الاستئصال^(٢)،

(١) انظر: «الطرق الحكمية» (٢٥، ٦٤)، و«إعلام الموقعين» (١/ ٩٠).

(٢) انظر: «الجواب الصحيح» (٦/ ٤٣٠ - ٤٥١).

فلَمَّا علم سبحانه أَنَّ هؤلاء لا يؤمنون ولو جاءتهم كُلُّ آيَةٍ لم يُجِبهُم إلى ما طلبوا، فلم يعمهم بعذاب، لِمَا أخرج من بينهم ومن أصلاهم من عباده المؤمنين، وأن أكثرهم آمن بعد ذلك بغير الآية التي اقترحوها.

فكان عدم إنزال الآيات المطلوبة من تمام حكمة الرب ورحمته وإحسانه، بخلاف الحجج فإنها لم تزل متتابعةً يتلو بعضها بعضاً، وهي كل يوم في مزيد، وتوفي رسول الله ﷺ وهي أكثر ما كانت، وهي باقية إلى يوم القيامة.

* وقوله: «أولئك الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً»؛ يعني: هذا الصنف من الناس أقل الخلق عدداً، وهذا سبب غربتهم^(١)؛ فإنهم قليلون في الناس، والناس على خلاف طريقتهم، فلهم نبأ وللناس نبأ، قال النبي ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ؛ فطوبى للغرباء»^(٢)، فالؤمنون قليل^(٣) في الناس، والعلماء قليل في المؤمنين، وهؤلاء قليل في العلماء.

وإياك أن تغتر بما يغتر به الجاهلون، فإنهم يقولون: لو كان هؤلاء على حق لم يكونوا أقل الناس عدداً، والناس على خلافهم؛ فاعلم أن هؤلاء هم الناس، ومن خالفهم فمشبهون بالناس، ليسوا بناس، فما الناس إلا أهل الحق وإن كانوا أقلهم عدداً.

قال ابن مسعود: «لا يكن أحدكم إمعة - يعني يقول: أنا مع الناس -،

(١) (ت): «عزتهم».

(٢) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) (ت): «قليلون».

لِيُؤْطَنَ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ عَلَى أَنْ يُؤْمِنَ وَلَوْ كَفَرَ النَّاسُ»^(١).

وقد ذمَّ سبحانه الأكثرين في غير موضع، كقوله: ﴿وَلَنْ تَقْطَعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَصِلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤].

وقال بعض العارفين: «أنفردك في طريق طلبك دليل على صدق الطلب»^(٢).

ولقد أحسن القائل^(٣):

مُتَّ بَدَاءَ الْهَوَىٰ وَإِلَّا فَخَاطِرُ وَأَطْرُقَ الْحَيِّ وَالْعَيُونَ نَوَاطِرُ
لَا تَخَفْ وَخَشَةَ الطَّرِيقِ إِذَا سِرَ تَ وَكُنْ فِي خَفَارَةِ الْحَقِّ^(٤) سَائِرُ

(١) أخرجه ابن حزم في «الإحكام» (١٤٧/٦) بإسناد صحيح.

وأخرجه الطبراني في «الكبير» (١٥٣/٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٣٧/١) بإسناد آخر فيه ضعف.

وروي نحوه مرفوعاً في حديث حسنه الترمذي (٢٠٠٧).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٥/٢).

(٣) الجملة من (ت). والبيتان في «المدارج» (٥٥/٢) في نظم كآئه للمصنف. ولعل البيتين لغيره، وما بعدهما له.

(٤) كذا في الأصول. وفي «المدارج»: «الحب». وهو أنسب. والخفارة (مثلثة الخاء): الأمان والإجارة. «اللسان» (خفر).

* وقوله: «بهم يدفع الله عن حججه، حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم»؛ وهذا لأنَّ الله سبحانه ضَمِنَ حفظَ حججه وبيئاته، وأخبر رسوله ﷺ أنه لا تزال طائفة من أُمَّته على الحق، لا يضُرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة^(١).

فلا يزال غَرْسُ الله الذين غَرَسَهم في دينه يَغْرِسونَ العلمَ في قلوب من أَهْلَهم الله لذلك وارتضاهم؛ فيكونوا^(٢) ورثة لهم كما كانوا هم ورثة لمن قبلهم، فلا تنقطع حججُ الله والقائمُ بها^(٣) من الأرض.

وفي الأثر^(٤) المشهور: «لا يزال الله يَغْرِسُ في هذا الدِّينِ غَرْسًا يستعملُهم بطاعته»^(٥).

وكان من دعاء بعض من تقدَّم: «اللهمَّ أجعلني من غَرْسِكَ الذين تستعملُهم بطاعتك».

ولهذا ما أقامَ الله لهذا الدِّينِ من يحفظُه ثم قبضه إليه إلا وقد زرع عِلْمَه من العلم والحكمة؛ إمَّا في قلوب أمثاله، وإمَّا في كتبٍ ينتفعُ بها الناسُ بعده.

وبهذا وغيره فَضَّلَ العلماءُ العُبَادَ؛ فَإِنَّ العَالِمَ إذا زرع عِلْمَه عند غيره ثمَّ مات جرى عليه أجرُه، وبقي له ذِكْرُه، وهو عمرٌ ثانٍ وحياةٌ أخرى، وذلك

(١) حديث متواتر، تقدم الكلام عليه (ص: ٤٠٣).

(٢) كذا في الأصول، بلا ناصب أو جازم.

(٣) (ت، ق): «والقيام بها». (د): «القائم»، وفي طرتها: «لعله: القيام».

(٤) (ت): «الخبر».

(٥) تقدم تخريجه (ص: ٤٠٤).

أَحَقُّ ما تَنافَسَ فِيهِ الْمُتَنافِسُونَ وَرَغِبَ فِيهِ الرَّاغِبُونَ.

* وَقَوْلُهُ: «هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، فَاسْتَلَانُوا مَا أَسْتَوْعَرَهُ الْمُتَرَفُونَ وَأَنَسُوا بِمَا أَسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ».

الْهَجُومُ عَلَى الرَّجُلِ: الدَّخُولُ عَلَيْهِ بِلَا أَسْتِثْذَانٍ.

وَلَمَّا كَانَتْ طَرِيقُ الْآخِرَةِ وَعَرَّةً عَلَى أَكْثَرِ الْخَلْقِ؛ لِمُخَالَفَتِهَا لَشَهَوَاتِهِمْ وَمُبَايَنَتِهَا لِإِرَادَاتِهِمْ وَمَأْلُوفَاتِهِمْ = قَلَّ سَالِكُوهَا، وَزَهَّدَهُمْ فِيهَا^(١) قَلَّةُ عِلْمِهِمْ - أَوْ عَدَمُهُ - بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ وَعَاقِبَةِ الْعِبَادِ^(٢) وَمَصِيرِهِمْ وَمَا هَيَّئَوا لَهُ وَهَيَّئَ لَهُمْ؛ فَقَلَّ عِلْمُهُمْ بِذَلِكَ، وَاسْتَلَانُوا مَرْكَبَ الشَّهْوَةِ وَالْهَوَى عَلَى مَرْكَبِ الْإِخْلَاصِ وَالتَّقْوَى، وَتَوَعَّرَتْ عَلَيْهِمُ الطَّرِيقُ، وَبَعُدَتِ الشُّقَّةُ، وَصَعِبَ عَلَيْهِمْ مَرْتَقَى عِقَابِهَا وَهَبُوطُ أَوْدِيَّتِهَا وَسُلُوكُ شُعَابِهَا، فَأَخْلَدُوا إِلَى الدَّعَةِ وَالرَّاحَةِ، وَآثَرُوا الْعَاجِلَ عَلَى الْآجِلِ، وَقَالُوا: عَيْشُنَا الْيَوْمَ نَقْدُ وَمَوْعِدُنَا^(٣) نَسِيئَةٌ^(٤).

فَنَظَرُوا إِلَى عَاجِلِ الدُّنْيَا، وَأَغْمَضُوا الْعْيُونَ عَنْ آجِلِهَا، وَوَقَفُوا مَعَ ظَاهِرِ مِنْهَا، وَلَمْ يَتَأَمَّلُوا بَاطِنَهَا، وَذَاقُوا حَلَاوَةَ مَبَادِيهَا، وَغَابَ عَنْهُمْ مَرَارَةُ عَوَاقِبِهَا، وَدَرَّ لَهُمْ تَذْيُهَا فَطَابَ لَهُمُ الْارْتِضَاعُ، وَاشْتَغَلُوا بِهِ عَنِ التَّفَكُّرِ فِي الْفُطَامِ وَمَرَارَةِ الْانْقِطَاعِ، وَقَالَ مَغْتَرُّهُمْ بِاللَّهِ وَجَاحِدُهُمْ لِعَظَمَتِهِ وَرَبُوبِيَّتِهِ - مَتَمَثِّلًا فِي ذَلِكَ -:

(١) ساقطة من (ت).

(٢) (ت): «المعاد».

(٣) (ح، ت): «وموعدنا».

(٤) انظر: «تلبیس إبلیس» (٣٤٥)، و«الداء والدواء» (٧٩).

* خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ * (١)

وَأَمَّا الْقَائِمُونَ لِلَّهِ بِحُجَّتِهِ، خُلَفَاءُ نَبِيِّهِ فِي أُمَّتِهِ، فَإِنَّهُمْ لَكُمْ أَلَمٌ وَلَهُمْ قُوَّةٌ
نَفَذَ بِهِمْ إِلَى حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، وَهَجَمَ بِهِمْ عَلَيْهِ، فَعَايَنُوا بِبَصَائِرِهِمْ مَا عَشَتْ
عَنْهُ (٢) بَصَائِرُ الْجَاهِلِينَ، فَاطْمَأْنَنْتْ قُلُوبُهُمْ بِهِ، وَعَمَلُوا عَلَى الْوَصُولِ إِلَيْهِ؛
لِمَا بَاشَرَهَا مِنْ رُوحِ الْيَقِينِ (٣).

رُفِعَ لَهُمْ عِلْمُ السَّعَادَةِ فَشَمَّرُوا إِلَيْهِ، وَأَسْمَعَهُمْ مَنَادِي الْإِيمَانِ النَّدَاءَ
فَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَاسْتَيْقَنْتْ أَنْفُسُهُمْ مَا وَعَدَهُمْ بِهِ رَبُّهُمْ فَزَهَّدُوا فِي مَا سِوَاهُ
وَرَغَبُوا فِي مَا لَدَيْهِ.

عَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا دَارٌ مَمَرٌّ لَا دَارٌ مَقَرٌّ، وَمَنْزِلٌ عُبُورٌ لَا مَقْعَدٌ حَبُورٌ، وَأَنَّهَا
خَيَالٌ طَيْفٌ أَوْ سَحَابَةٌ صَيْفٌ، وَأَنَّ مَنْ فِيهَا كَرَاكِبٌ قَالَ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ
رَاحَ عَنْهَا وَتَرَكَهَا، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهَا:

أَحْلَامٌ نَوْمٍ أَوْ كَظْلٌ زَائِلٍ إِنَّ اللَّيْبَ بِمِثْلِهَا لَا يُخْذَعُ (٤)
وَأَنَّ وَاصِفَهَا صَدَقَ فِي وَصْفِهَا إِذْ يَقُولُ:

أَرَى أَشْقِيَاءَ النَّاسِ لَا يَسْأَمُونَهَا عَلَى أَنَّهُمْ فِيهَا عَرَاءٌ وَجُوعٌ

(١) صدرُ بيتٍ للممتنبي، في ديوانه (٣٣٠)، وعجزه:

* فِي طَلْعَةِ الْبَدْرِ مَا يَغْنِيكَ عَنْ رُحْلِ *

(٢) الْعَشَى: سُوءُ الْبَصَرِ. وَخَصَّهُ بَعْضُهُمْ بِاللَّيْلِ. «اللسان» (عش).

(٣) (ت): «عين اليقين».

(٤) البيت لعمران بن حطان، في «روضة العقلاء» (٣٠١)، و«تاريخ دمشق»

(٤٣/٤٩٨)، و«الخزانة» (٥/٣٦١)، وغيرها.

أراها وإن كانت تُحَبُّ فإنها سحابة صَيْفٍ عن قليلٍ تَقْشَعُ^(١)

فترَحَّلت عن قلوبهم مدبرةً كما ترَحَّلت عن أهلها مُوَلِّيةً، وأقبلت
الآخرةُ إلى قلوبهم مسرعةً كما أَسْرَعَت إلى الخلق مقبلةً، فامتطوا ظهورَ
العزائم، وهجروا لذة المنام، وما ليلُ المحبِّ بنائم.

عَلِمُوا طَوْلَ الطريق وقَلَّةَ المُقام في منزل التزوُّد فسارعوا في الجَهَّاز،
وجَدَّ بهم السيرُ إلى منازل الأحياب فقطعوا المراحل وطووا المفاوز^(٢).

وهذا كُلُّه من ثمرات اليقين؛ فَإِنَّ القلب إذا أَسْتَيْقَنَ ما أمامه من كرامة الله
وما أعدَّ لأوليائه - بحيث كأنه ينظرُ إليه من وراء حجاب الدنيا، ويعلمُ أنه إذا
زال الحجاب رأى ذلك عيانًا - زالت عنه الوحشة التي يجدها المتخلِّفون،
ولأن له ما أَسْتَوْعَره المترفون.

وهذه المرتبةُ هي أوَّلُ مراتب اليقين؛ وهي علمُه وتيقُّنه، وهي أنْكَشافُ
المعلوم للقلب، بحيث يشاهده ولا يشكُّ فيه، كانْكَشاف المرئي للبصر.

ثمَّ تليها المرتبةُ الثانية؛ وهي مرتبةُ عين اليقين، ونسبُها إلى العين كنسبة
الأول إلى القلب.

ثمَّ تليها المرتبةُ الثالثة؛ وهي حقُّ اليقين، وهي مباشرةُ المعلوم وإدراكه
الإدراك التام.

فالأولى كعلمك بأنَّ في هذا الوادي ماءً، والثانيةُ كرويته، والثالثةُ

(١) البيتان لعمران بن حطان - أيضًا -، من مقطعةٍ أخرى في «الزهد» لابن أبي الدنيا
(٢١٩)، وفي «ديوان شعر الخوارج» (١٧٣) مزيد تخريج.

(٢) كذا في الأصول. ولعلها محرفة عن: المفاز. وهو المفازة. ليستقيم السجع.

كالشرب منه^(١).

ومن هذا ما يروى في حديث حارثة وقول النبي ﷺ: «كيف أصبحت يا حارثة؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: «إنَّ لكلِّ قولٍ حقيقة، فما حقيقةُ إيمانك؟» قال: عزفت نفسي عن الدنيا وشهواتها، فأسهرت ليلي وأظمأتُ نهاري، وكأني أنظرُ إلى عرش ربِّي بارزاً، وكأني أنظرُ إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وإلى أهل النار يتعاوون فيها، فقال: «عبدُ نور الله قلبه»^(٢).

فهذا هو هجومُ العلم بصاحبه على حقيقة الأمر، ومن وصل إلى هذا أستان ما يستوعره المترفون، وأنس بما يستوحش منه الجاهلون، ومن لم يثبت قدمُ إيمانه على هذه الدرجة فهو إيمانٌ ضعيف.

وعلاوةً هذا: أنشراحُ الصدر لمنازل الإيمان، وانفساحه، وطمأنينةُ القلب لأمر الله، والإنابةُ إلى ذكر الله، ومحَبَّته، والفرح بلاقائه، والتجافي عن

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٦٤٥)، و«مدارج السالكين» (٢/٤٠٣)، و«إيمان القرآن» (٢٨٤).

(٢) أخرجه عبد بن حميد في «المسند» (٤٤٥ - منتخبه)، والطبراني في «الكبير» (٣/٢٦٦)، وغيرهما من حديث الحارث بن مالك الأنصاري بإسنادٍ ضعيف.

ورُوي من وجوه أخرى معضلاً ومرسلاً وموصولاً. قال العقيلي: «ليس لهذا الحديث إسنادٌ يثبت»، وقال ابن صاعد: «هذا الحديث لا يثبتُ موصولاً»، وقال ابن تيمية: «رُوي مسنداً من وجهٍ ضعيفٍ لا يثبت»، وقال ابن رجب: «والمرسلُ أصح».

انظر: «الضعفاء» (٤/٤٥٥)، و«الإصابة» (١/٥٩٧)، و«الاستقامة» (١/١٩٤)، و«مجموع الفتاوى» (٧/٦٦٩)، و«جامع العلوم والحكم» (٧٩)، و«التخويف من النار» (٣٣).

دار الغرور؛ كما في الأثر المشهور: «إذا دخل النور القلب أنفسح وانشرح»، قيل: وما علامة ذلك؟ قال: «التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»^(١).

وهذه هي الحال التي كانت تحصل للصحابة رضي الله عنهم عند النبي ﷺ إذا ذكّرهم الجنة والنار؛ كما في الترمذي وغيره من حديث الجبري، عن أبي عثمان النهدي، عن حنظلة الأسدي - وكان من كتّاب النبي ﷺ - أنه مرّ بأبي بكر رضي الله عنه وهو يبكي، فقال: ما لك يا حنظلة؟ فقال: نافق حنظلة يا أبا بكر، نكون عند رسول الله ﷺ يذكّرنا بالجنة والنار كأننا رأي عين، فإذا رجعنا إلى الأزواج والضّيعة نسينا كثيرًا، قال: فوالله إنّا لكذلك، أنطلق بنا إلى رسول الله ﷺ، فانطلقنا، فلمّا رآه رسول الله ﷺ قال: ما لك يا حنظلة؟ قال: نافق حنظلة يا رسول الله، نكون عندك تذكّرنا بالنار والجنة كأننا رأي عين، فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضّيعة ونسينا كثيرًا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم وعلى فرشكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة». قال الترمذي: «حديث حسن صحيح»^(٢).

-
- (١) أخرجه وكيع (١٥)، وابن المبارك (٣١٥) كلاهما في «الزهد»، والحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» (ق: ١١٥/ب)، وغيرهم.
وفي إسناده اختلاف، والصواب أنه مرسل، ولا يثبت رفعه.
انظر: «علل الدارقطني» (١٨٩/٥)، و«شرح علل الترمذي» لابن رجب (٧٧٣/٢).
وراجع التعليق على «الوابل الصيب» (١٤٤).
(٢) «جامع الترمذي» (٢٥١٤). وهو في «صحيح مسلم» (٢٧٥٠).

وفي الترمذي أيضًا نحوه من حديث أبي هريرة^(١).

والمقصود أن الذي يهجم بالقلب على حقيقة الإيمان، ويلين له ما يستوعره غيره، ويؤنسّه بما يستوحش منه سواه: العلم التام، والحب الخالص. والحب تبع للعلم، يقوى بقوّته، ويضعف بضعفه، والمحبة لا يستوعر طريقًا توصله إلى محبوبه، ولا يستوحش فيها.

* وقوله: «صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلقةٌ بالملا الأعلى»، وفي رواية: «بالمحل الأعلى»؛ الروح في هذا الجسد بدار غربة، ولها وطنٌ غيره فلا تستقر إلا في وطنها، وهي جوهرٌ علويٌّ مخلوقٌ من مادةٍ علويةٍ، وقد اضطرت إلى مساكنة هذا البدن الكثيف، فهي دائماً تطلب وطنها في المحل الأعلى، وتحن إليه حنين الطير إلى أوكارها.

وكلُّ روحٍ ففيها ذلك، ولكن لفرط اشتغالها بالبدن وبالمحسوسات المألوفة أخذت إلى الأرض، ونسيت محلّها^(٢) ووطنها الذي لا راحة لها في غيره؛ فإنه لا راحة للمؤمن دون لقاء ربّه، والدنيا سجنه حقًا، فلهذا تجد المؤمن بدنه في الدنيا وروحه في المحل الأعلى.

وفي الحديث المرفوع: «إذا نام العبد وهو ساجدٌ باهى الله به الملائكة، فيقول: أنظروا إلى عبدي، بدنه في الأرض وروحه عندي» رواه تَمَامٌ^(٣)

(١) (٢٥٢٦)، وقال: «هذا حديثٌ ليس إسناده بذلك القوي وليس هو عندي بمتصل».

(٢) (ت، ق، ن، ح): «معلمها». تحريف. والمثبت من (د)، وهو الصواب. انظر ما سيأتي (ص:). ويحتمل أن تكون: معهدا. انظر: «مدارج السالكين» (١/٤٩٨).

(٣) في «الفوائد» (٣٤٣ - الروض)، والبيهقي في «الخلافات» (٢/١٤٣) من حديث أنسٍ بإسنادٍ ضعيف جدًا.

وغيره.

وهذا معنى قول بعض السلف: «القلوبُ جَوَّالَةٌ؛ فقلبٌ حول الحُشِّ»^(١)،
وقلبٌ يطوفُ مع الملائكة حول العرش»^(٢).

فأعظمُ عذاب الروح أنغماسُها وتدسيسُها في أعماق البدن، واشتغالُها
بملاذَّه، وانقطاعُها عن ملاحظة ما خُلِقَتْ له وهُيِّئَتْ له، وعن وطنها ومحلِّ
أنسها ومنزل كرامتها، ولكنَّ سُكْرَ الشهوات يحجبُها عن مطالعة هذا الألم
والعذاب.

فإذا صَحَّتْ من سُكْرها، وأفادت من غمرتها، أقبلت عليها جيوشُ
الحشرات من كلِّ جانب؛ فحينئذٍ تتقطَّعُ حشراتٍ على ما فاتها من كرامة الله
وقربه والأنس به، والوصول إلى وطنها الذي لا راحة لها إلا فيه، كما قيل:

= وَرُوي من حديث الحسن، عن أبي هريرة. أخرجه ابن شاهين في «الناسخ
والمنسوخ» (١٩٩). والحسنُ لم يسمع من أبي هريرة. وبذا أعلَّه الدارقطني في
«العلل» (٢٤٩/٨).

وَرُوي عن الحسن قال: «أُنْبِئْتُ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا نَامَ...». أخرجه ابن المبارك في «الزهد»
(١٢١٣). وهو أشبه.

وَرُوي عن الحسن قوله. أخرجه أحمد في «الزهد» (٢٨٠)، وابن أبي شيبة
(٢٨/١٤)، ومحمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (٣١٩/١).

وانظر: «المجموع» (١٤/٢)، و«التلخيص الحبير» (١٢٠/١).

(١) موضعُ قضاء الحاجة. «اللسان» (حشش).

(٢) أخرجه أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقات الصوفية» (١٠٣) عن أحمد بن
خضرويه البلخي (ت: ٢٤٠). وهو في ترجمته من «السير» (٤٨٨/١١).

صَحْبْتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غَشَاوَةٌ فَلَمَّا أَنْجَلْتَ قَطَعْتَ نَفْسِي أَلَوْمَهَا^(١)

ولو تنقَّلت الروحُ في المواطنِ كُلِّها والمنازلِ، لم تستقرَّ ولم تطمئنَّ إلا في وطنها ومحلِّها الذي خُلِقَتْ له، كما قيل:

نَقْلُ فَوَادِكٍ حَيْثُ شَتَّ مِنَ الْهَوَى مَا الْحَبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلُفُهُ الْفَتَى وَحَيْنُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنْزِلٍ^(٢)

وإذا كانت الروحُ تَحِنُّ أَبَدًا إِلَى وطنها من الأرض مع قيام غيره مقامه في السُّكْنَى، وكثيرًا ما يكونُ غيرُ وطنها أحسنَ وأطيبَ منه، وهي إنما^(٣) تَحِنُّ إِلَيْهِ، مع أنه لا ضررَ عليها ولا عذابَ في مفارقتها إِلَى مثله، فكيف بحنينها إِلَى الوطن الذي في فراقها له عذابها وألمها وحسرتها التي لا تنقضي؟!

فالعبدُ المؤمنُ في هذه الدارِ سُبِيٍّ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى دارِ التعبِ والعناء، ثُمَّ ضُرِبَ عَلَيْهِ الرُّقُّ فِيهَا، فكيف يلامُ عَلَى حنينه إِلَى دارِهِ الَّتِي سُبِيَ مِنْهَا، وَفُرِّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ يُحِبُّ، وَجُمِعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ؟!
فروحُه دَائِمًا مَعْلَقَةٌ بِذَلِكَ الْوَطَنِ، وَبَدَنُهُ فِي الدُّنْيَا.

ولي من أبياتٍ في ذلك^(٤):

(١) البيت للحارث بن خالد المخزومي، يخاطبُ عبد الملك بن مروان، في «الكامل» (١٠٥١). وفي مجموع شعره (١٠١) مزيدُ تخريج.

(٢) البيتان لأبي تمام، في ديوانه (٢٥٣/٤).

(٣) (ن، ح): «وهي دائمة».

(٤) من ميمية طويلة، في «طريق الهجرتين» (١٠٨)، و«حادي الأرواح» (١٤).

فَحَيَّ عَلَى جَنَاتٍ عَدَنٍ فَإِنَّهَا منازلُكَ الأولى وفيها الْمُحَيَّمُ
وَلَكِنَّا سَبَّيَ الْعَدُوَّ فَهَلْ تُرَى نَعُوذُ إِلَى أَوْطَانِنَا وَنُسَلِّمُ

وكلُّما أراد منه العدوُّ نسيانَ وطنه، وصُزِبَ الذِّكرُ عنه صفحًا، وإيلافه
وطناً غيره، أبت ذلك روحُه وقلْبُه، كما قيل:

يَرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نَسْيَانُكُمْ وَتَأْبَى الطَّبَاعُ عَلَى النَّاqِلِ^(١)

ولهذا كان المؤمنُ غريبًا في هذه الدار، أين حلَّ منها فهو في دار غربة،
كما قال النبي ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل»^(٢)، ولكنها
غربةٌ تنقضي ويصيرُ إلى وطنه ومنزله، وأما الغربةُ التي لا يُرجى أنقطاعُها
فهِيَ غربةٌ في دار الهوان، ومفارقةُ وطنه الذي كان قد هيَّءَ له وأُعدَّ له وأُمِرَ
بالتجهُّزِ إليه والقدوم عليه، فأبى إلا أغترابه عنه ومفارقته له، فتلك غربةٌ لا
يُرجى إيابُها ولا يُجبرُ مصابُها.

ولا تبادِرْ إلى إنكار كون البدن في الدنيا والروح في الملأ الأعلى؛
فللروح شأنٌ وللبدن شأنٌ، والنبي ﷺ كان بين أظهر أصحابه وهو عند ربِّه
يطعمُه ويسقيه^(٣)، فبدنه بينهم وروحُه وقلبه عند ربِّه.

وقال أبو الدرداء: «إذا نام العبدُ عُرِجَ بروحه إلى تحت العرش، فإن كان

(١) البيت للمتنبي، في ديوانه (٢٥٩). والرواية الصحيحة: ويأبى، بالياء. انظر كلام ابن

القطاع بحاشية الديوان (تحقيق عبد الوهاب عزام).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦) من حديث ابن عمر.

(٣) انظر ما مضى (ص: ٩٧).

طاهراً أُذِنَ لها بالسجود وإن لم يكن طاهراً لم يؤذن لها بالسجود»^(١).
فهذه - والله أعلم - هي العلة التي أُمِرَ الجنبُ لأجلها أن يتوضأ إذا أراد النوم^(٢).

وهذا الصُّعُودُ إنما كان لتجرُّد الروح عن البدن بالنوم، فإذا تجرَّدت بسببٍ آخر حصل لها من الترقِّي والصُّعُود بحسب ذلك التجرُّد.
وقد يقوى الحبُّ بالمحبِّ حتى لا يُشاهد منه بين الناس إلا جسمه، وروحه في موضعٍ آخر عند محبوبه، وفي هذا من أشعار الناس وحكاياتهم

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٢٤٥) - ومن طريقه ابن قتيبة في «غريب الحديث» (١١ / ١)، و«تعبير الرؤيا» (٢٧) -، والحكيم الترمذي في «نوارد الأصول» (ق: ٢٧٤ / أ) بإسنادٍ ضعيف.

(٢) الأثر في المصادر السابقة بلفظ: «... وإن كان جنباً لم يؤذن لها بالسجود»، والوضوء لا ينفي عن الجنب اسم الجنابة، ولذا كان ابن قتيبة أسعد بهذا الأثر من المصنف، إذ قال: «لا أرى الطهارة التي نختار للنائم أن يبيت عليها إلا الاغتسال من الجنابة»، ثم استدلَّ بالأثر، ثم قال: «فجعل طهارة النائم في نومه أن يكون على غير جنابة. وأكثرُ الناس على أنه التوضؤ للصلاة. والنوم ناقض للوضوء وليس بناقض للغسل».

وهذا الاختيار من ابن قتيبة على سبيل الأفضلية، وقد صرَّح في «تأويل مختلف الحديث» (٣٠٦) بعدم وجوب الغسل.

والغرض هنا الإشارةُ إلى 'مجانبة الأثر بهذا اللفظ لما استنبطه المصنف منه. وقد ورد باللفظ الذي ذكره المصنف أثر آخر عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان ممن يأخذ عن أهل الكتاب.

أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٢٩٢ / ٦)، والحكيم الترمذي في «نوارد الأصول» (ق: ٢٧٤ / أ)، والبيهقي في «الشعب» (٦ / ٧٥، ٩ / ١٣) بإسنادين يقوِّيهما الآخر.

ما هو معروف^(١).

* وقوله: «أولئك خلفاء الله في أرضه ودعائه إلى دينه»؛ هذا حجة أحد القولين في أنه يجوز أن يقال: «فلان خليفة الله في أرضه»^(٢).

واحتج أصحابه أيضًا بقوله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وهذا خطابٌ لنوع الإنسان.

وبقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

وبقول موسى لقومه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وبقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ مَمْكُنٌ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَمَسْتَخْلَفُكُمْ فِيهَا، فَنَظَرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؛ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ»^(٣).

واحتجوا بقول الراعي يخاطبُ أبا بكر الصديق^(٤) رضي الله عنه:

(١) انظر: «زهر الآداب» (٣٢٨/١)، و«التدوين» للرافعي (٧٨/٤).

(٢) انظر: «نقض التأسيس» (٥٨٩ - ٦١١)، و«معجم المناهي اللفظية» (٢٥٢).

(٣) أخرجه بنحوه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٤) «الصديق» ليست في (د). وهذا وهمٌ غريب. فالبيتان من لاميةٍ طويلة للراعي النيمري (ت: ٩٢) يمدحُ فيها عبد الملك بن مروان، ويشكو من السُّعاة (الذين =

أخليفة الرحمن إنا معشرُ حنفاء نسجدُ بُكْرَةً وأصيلاً
عربٌ نرى الله في أموالنا حقَّ الزكاة منزلاً تنزيلاً
ومنعت طائفة هذا الإطلاق، وقالت: لا يقال لأحد: إنه خليفة الله؛ فإنَّ
الخليفة إنما يكونُ عمن يغيبُ ويخلفه غيره، والله تعالى شاهدٌ غير غائب،
قريبٌ غير بعيد، راءٍ وسامع، فمحالٌ أن يخلفه غيره، بل هو سبحانه الذي
يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته؛ كما قال النبي ﷺ في حديث الدجال:
«إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ
حَاجِبٌ نَفْسِهِ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ»، والحديث في «الصحيح»^(١).

وفي «صحيح مسلم»^(٢) أيضاً من حديث عبد الله بن عمر أنَّ رسول الله
ﷺ كان يقولُ إذا سافر: «اللهم أنت الصاحبُ في السفر، والخليفةُ في
الأهل...» الحديث.

وفي «الصحيح»^(٣) أنَّ النبي ﷺ قال: «اللهمَّ أغفر لأبي سلمة، وارفع

= يأخذون الزكاة من قِبَلِ السُّلْطَانِ)، وهي من مشهور شعره وجيده، وكان يعتزُّ بها، وقد
حَفِظَتْهَا مجاميعُ الشُّعْر بتمامها. انظر: «منتهى الطلب» (٥/٦)، و«أمالِي المرزوقي»
(٤٧٠)، وديوانه المجموع (٥٨).

والراعي يَصْغُرُ عن إدراكِ زمن أبي بكرٍ شاعراً، وإنما هو من شعراء دولة بني أمية.
ولعلَّ ذِكْرَ الزكاة في الأبيات هو سبب الوهم؛ لمنع المرتدِّين لها على عهد الصديق
رضي الله عنه.

(١) «صحيح مسلم» (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان.

(٢) (١٣٤٢).

(٣) (ت، د، ق): «وفي الحديث». وهو في «صحيح مسلم» (٩٢٠).

درجته في المهديين، وأخلفه في أهله».

فالله تعالى هو خليفة العبد؛ لأنَّ العبد يموت فيحتاج إلى من يخلفه في أهله.

قالوا: ولهذا أنكر الصديق رضي الله عنه على من قال له: «يا خليفة الله»، قال: «لست بخليفة الله، ولكن خليفة رسول الله، وحسبي ذلك»^(١).

قالوا: وأمّا قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، فلا خلاف أنَّ المراد به آدم وذريته. وجمهور أهل التفسير من السلف والخلف على أنه جعله خليفة عمن كان قبله^(٢) في الأرض. قيل: عن الجن الذين كانوا سُكَّانها. وقيل: عن الملائكة الذين سكنوها بعد الجن، وقصَّتهم المذكورة في التفاسير^(٣).

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، فليس المراد به خلافة عن الله، وإنما المراد به أنه جعلكم يخلف بعضكم بعضاً، فكلما هلك قرنٌ خلفه قرنٌ إلى آخر الدهر.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٠/١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٥٦٨/١٤)، والخلال في «السنة» (٢٧٤/١)، وغيرهم بإسنادٍ منقطع.
وقد كان الصحابة رضي الله عنهم ينادونه: «يا خليفة رسول الله»، عقد الحاكم للروايات في ذلك فصلاً في «المستدرک» (٧٩/٣)، وصحَّح بعضها ولم يتعقبه الذهبي.

(٢) (ت): «فمن كان قبله». (ن): «ممن كان قبله». (د، ق): «خليفته ممن كان قبله». والمثبت أشبه.

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٤٥٠/١)، و«الدر المنثور» (٤٤/١).

ثُمَّ قِيلَ: إِنَّ هَذَا خَطَابٌ لَأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاصَّةً؛ أَي: جعلكم خلائفَ من الأمم الماضية، فهلكوا وورثتم أنتم الأرض من بعدهم.

ولا ريب أَنَّ هَذَا الْخَطَابَ لِلْأُمَّةِ، وَالْمَرَادُ نَوْعُ الْإِنْسَانِ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ آبَاهُمْ خَلِيفَةً عَمَّنْ قَبْلَهُ، وَجَعَلَ ذَرِيَّتَهُ يَخْلُفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَلِهَذَا جَعَلَ هَذَا آيَةً مِنْ آيَاتِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

وَأَمَّا قَوْلُ مُوسَى لِقَوْمِهِ: ﴿وَيَسْتَخْلَفُكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، فَلَيْسَ ذَلِكَ اسْتِخْلَافًا عَنْهُ، وَإِنَّمَا هُوَ اسْتِخْلَافٌ عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ؛ أَهْلَكَهُمْ وَجَعَلَ قَوْمَ مُوسَى خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ.

وَكَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ مَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ»، أَي: مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي تَهْلِكُ وَتَكُونُونَ أَنْتُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ.

قَالُوا: وَأَمَّا قَوْلُ الرَّاعِي؛ فَقَوْلُ شَاعِرٍ قَالَ قَصِيدَةً فِي غِيَةِ الصَّدِيقِ لَا يُدْرَى أَبْلَغْتَ أَبَا بَكْرٍ أَمْ لَا؟ وَلَوْ بَلَغْتَهُ فَلَا يُعْلَمُ أَنَّهُ أَقَرَّهُ عَلَى هَذِهِ اللَّفْظَةِ^(١).
قُلْتُ: إِنْ أُرِيدَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى اللَّهِ أَنَّهُ خَلِيفَةٌ عَنْهُ، فَالْصَّوَابُ قَوْلُ الطَّائِفَةِ الْمَانِعَةِ مِنْهَا.

وَإِنْ أُرِيدَ بِالْإِضَافَةِ أَنَّ اللَّهَ اسْتَخْلَفَهُ عَنْ غَيْرِهِ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَهُ، فَهَذَا لَا يَمْتَنِعُ فِيهِ الْإِضَافَةُ، وَحَقِيقَتُهَا: خَلِيفَةُ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ خَلَفًا عَنْ غَيْرِهِ. وَبِهَذَا يَخْرُجُ الْجَوَابُ عَنْ قَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: «أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ».

(١) راجع ما قدَّمناه قريبًا في شأن أبيات الراعي.

فإن قيل: هذا لا مدح فيه؛ لأنَّ هذا الاستخلافَ عامٌّ في الأُمَّة، وخلافَةُ الله التي ذكرها أميرُ المؤمنين خاصَّةٌ بخواصِّ الخلق.

فالجواب: أنَّ الاختصاصَ المذكورَ أفادَ اختصاصَ الإضافة، فالإضافةُ هنا للتشريف والتخصيص، كما يضافُ إليه ^(١) عبادُه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ونظائرها.

ومعلومٌ أنَّ كلَّ الخلق عبادٌ له، فخلفاءُ الأرض كالعباد في قوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، وخلفاءُ الله كعباد الله في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ونظائره.

وحقيقةُ اللفظة: أنَّ الخليفةَ هو الذي يَخْلُفُ الذاهب، أي: يجيء بعده؛ يقال: خَلَفَ فلانٌ فلانًا.

وأصلُها: «خليفة» بغير هاء؛ لأنها فَعِيلٌ بمعنى فاعل، كالعليم والقدير، فدخلت التاءُ للمبالغة في الوصف، كراوية وعَلَّامة؛ ولهذا جُمِعَ جمعُ فَعِيل، فقيل: خُلفاء، كَشُرفاء وظُرفاء وكرُماء ^(٢). ومن راعى لفظَه بعد دخول التاء عليه جمعه على فَعائل، فقال: خلائف، كعَقِيلَة وعقائل، وطَريفَة وطرائف ^(٣). وكلاهما ورد به القرآن.

(١) (ت): «يضاف لله».

(٢) (ت، ق، د): «كشريف وشرفاء وكرماء».

(٣) (ت): «وطريقة وطرائق». (ح، ن): «وظريقة وطرائف».

هذا قولُ جماعةٍ من النحاة^(١).

والصوابُ أنَّ التاء إنما دخلت فيها للعدل عن الوصف إلى الاسم؛ فإنَّ الكلمةَ صفةٌ في الأصل، ثمَّ أُجريت مجرى الأسماء، فألحقت التاء لذلك، كما قالوا: «نَطِيحَة» بالتاء، فإذا أجروها صفةً قالوا: «شاةٌ نَطِيح» كما يقولون: «كفٌ خَضِيب»، وإلا فلا معنى للمبالغة في «خليفة» حتى تلحقها تاء المبالغة، والله أعلم.

* وقوله: «ودعائه إلى دينه»؛ الدعاء: جمعُ داعٍ، كقاضٍ وقضاةٍ، ورامٍ ورماةٍ، وإضافتهم إلى الله للاختصاص، أي الدعاءُ المخصوصون به الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبته، وهؤلاء هم خواصُّ خلق الله وأفضلهم عند الله منزلةً وأعلامهم قدرًا.

يدلُّ على ذلك الوجه الثلاثون بعد المئة: وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

قال الحسن: «هو المؤمن»؛ أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته؛ فهذا حبيبُ الله، هذا وليُّ الله^(٢).

فمقامُ الدعوة إلى الله أفضلُ مقامات العبد، قال تعالى: ﴿وَأَنْتَ، لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا أَنْ يَكُونُوا عَلَيْهِ لِدًّا﴾ [الجن: ١٩].

(١) انظر: «التيان» للعكبري (٤٧/١)، و«النهاية» (خلف).

(٢) أخرجه الطبري (٤٦٨/٢١).

وقال تعالى: ﴿ اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُم بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، جَعَلَ سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق:

* فالمستجيبُ القابلُ الرَّكِي^(١) الذي لا يعاندُ الحقَّ ولا يأباه، يُدعى بطريق الحكمة.

* والقابلُ الذي عنده نوعُ غفلةٍ وتأخُّر، يُدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمرُ والنهيُّ المقرونُ بالرغبة والرغبة.

* والمعاندُ الجاحدُ، يجادلُ بالتي هي أحسن.

هذا هو الصحيحُ في معنى هذه الآية، لا ما يزعمُ أسيرُ منطق اليونان أن الحكمةَ قياسُ البرهان وهو دعوةُ الخواصِّ، والموعظةُ الحسنةُ قياسُ الخطابة وهو دعوةُ العوامِّ، والمجادلةُ بالتي هي أحسنُ القياسُ الجدلي وهو ردُّ شَغَبِ المشاغِبِ بقياسٍ جدليٍّ مسلَّم المقدمات!

وهذا باطل، وهو مبنيٌّ على أصول الفلسفة، وهو منافيٌّ لأصول المسلمين وقواعد الدِّين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها^(٢).

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨]. قال الفراء^(٣) وجماعة: ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ معطوفٌ على الضمير

(١) كذا في الأصول، عدا (ت) فهي ساقطة منها. وزكاء نفسه هو الذي جعله لا يعاند الحق. ولعلها بالذال، لمقابلة الذي عنده نوع غفلةٍ وتأخُّر.

(٢) انظر ما سيأتي (ص: ٤٩١).

(٣) في «معاني القرآن» (٢/ ٥٥).

في ﴿ادْعُوا﴾، يعني: ومن أتبعني يدعو إلى الله كما أدعو.
وهذا قول الكلبي^(١)، قال: حق على كل من أتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكر بالقرآن والموعظة^(٢).
ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة.

قال ابن الأنباري: ويجوز أن يتم الكلام عند قوله: ﴿ادْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾، ثم يبدأ: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾^(٣). فيكون الكلام على قوله جملتين، أخبر في أولهما أنه يدعو إلى الله، وفي الثانية بأنه وأتباعه على بصيرة.
والقولان متلازمان؛ فلا يكون الرجل من أتباعه حقاً حتى يدعو إلى ما دعا إليه. وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة^(٤).

وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها، فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي^(٥).

ويكفي هذا في شرف العلم، أن صاحبه يحوز به هذا المقام، والله يؤتي فضله من يشاء.

(١) محمد بن السائب بن بشر، أبو النضر، الإخباري النسابة المفسر (ت: ١٤٦). انظر: «السير» (٢٤٨/٦).

(٢) انظر: «الكشف والبيان» (٥/٢٦٣)، و«البسيط» (١٢/٢٦٣). وأخرجه الطبري (٢٩٢/١٦) عن ابن زيد.

(٣) انظر: «زاد المسير» (٤/٢٩٥).

(٤) راجع ما مضى (ص: ٢١٦).

(٥) كذا في الأصول. أي: إلى آخر حد يصل إليه السعي.

الوجه الحادي والثلاثون بعد المئة: أنه لو لم يكن من فوائد العلم إلا أنه يُثْمِرُ اليقينَ الذي هو أعظمُ حياة القلب، وبه طمأنينته وقوته ونشاطه وسائرُ لوازم الحياة لكفاه شرفاً وفضلاً^(١).

ولهذا مدح الله سبحانه أهله في كتابه، وأثنى عليهم بقوله: ﴿وَيَا آخِرَةَ مَرْيَمُ يُوقِنُ﴾ [البقرة: ٤]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ١١٨]^(٢)، وقوله في حقِّ خليله إبراهيم: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِىْ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، وذمَّ من لا يقين عنده، فقال: ﴿إِنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

وفي الحديث المرفوع من حديث سفيان الثوري، عن سليمان التيمي^(٤)، عن خيثمة، عن عبد الله بن مسعود يرفعه: «لا تُرضينَّ أحداً بسخط الله، ولا تحمدنَّ أحداً على فضله، ولا تذمَّنَّ أحداً على ما لم يؤتكَ الله؛ فإنَّ رزقَ الله لا يسوقه [إليك] حرصُ حريص، ولا يردُّه عنك كراهيةُ كاره، وإنَّ الله بعدله وقسطه جعل الرُّوحَ والراحةَ والفرحَ في الرضا واليقين،

(١) الجوابُ مستدرَكٌ في طرة (د)، وليس في باقي الأصول.

(٢) في الأصول: (كذلك) فصل الآيات لقوم يوقنون) وهو وهم؛ فليس ثمَّ آيةٌ كذلك، وأنا متأمِّلٌ من إثباتها في المتن. وفي القرآن: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]، ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].
ويصلح للاستشهاد لما أرادَه المصنف ما أثبتَّه.

(٣) كذا قرأ أبو عمرو، وهي قراءة المصنف وأهل الشام لعهدَه.

(٤) كذا في الأصول و«الرسالة القشيرية»، وهي مصدر المصنف. وهو سليمان الأعمش، كما في المصادر التالية.

وجعل الهمَّ والحزن في الشكِّ والسخط»^(١).

فإذا باشر القلب اليقينُ امتلاً نوراً، وانتفى عنه كلُّ ريبٍ وشكٍّ، وعوفي من أمراضه القاتلة، وامتلاً شكرًا لله وذكرًا ومحبةً وخوفًا، فحيَّ عن بيئته.

واليقينُ والمحبةُ هما ركنا الإيمان، وعليهما ينبني، وبهما قوامه، وهما يُمِدَّان سائرَ الأعمالِ القلبية والبدنية، وعنهما تَصُدَّر، وبضعفهما يكونُ ضعفُ الأعمال، وبقوَّتهما قوتها. وجميعُ منازل السائرين ومقامات العارفين إنما تصحُّ بهما^(٢)، وهما يُثَمِّران كلَّ عملٍ صالحٍ وعلمٍ نافعٍ وهديٍّ مستقيمٍ.

قال شيخُ العارفين الجُنيد^(٣): «اليقينُ هو استقراؤُ العلم الذي لا يَنْقَلِبُ ولا يتحوَّل ولا يتغيَّر في القلب»^(٤).

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠/٢١٥)، والقشيري في «الرسالة» (٣١٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/١٢١، ٧/١٣٠)، والبيهقي في «الأربعين الصغرى» (٥١)، وغيرهم، بإسنادٍ شديد الضعف.

ورُوي من وجهٍ آخر أحسن منه، إلا أنَّ فيه انقطاعاً. أخرجه البيهقي في «الشعب» (١/٥٢٧)، و«الأربعين» (٥٠).

ورُوي موقوفاً على ابن مسعود، وهو أشبه، وإليه مال البيهقي، وإن كان في إسناده انقطاع. أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (٣٢)، ومن طريقه البيهقي في «الشعب» (١/٥٢٨)، و«الأربعين» (٥٢).

(٢) (ت، ق): «تفتح بهما». ولم تحرر في (د).

(٣) الجُنيد بن محمد البغدادي، شيخ الصُّوفية، صاحبُ علمٍ وتعبُد (ت: ٢٩٧). انظر: «طبقات الصوفية» (١٥٥)، و«السير» (١٤/٦٦).

(٤) «الرسالة القشيرية» (٣٢٠).

وقال سهل^(١): «حرامٌ على قلبٍ أن يشمَّ رائحة اليقين وفيه سكونٌ إلى غير الله»^(٢).

وقيل: «من علاماته: الالتفاتُ إلى الله في كلِّ نازلة، والرجوعُ إليه في كلِّ أمر، والاستعانةُ به في كلِّ حال، وإرادةُ وجهه بكلِّ حركةٍ وسكون»^(٣).

وقال السَّري^(٤): «اليقينُ: سكونُك^(٥) عند جَوَلانِ الموارد^(٦) في صدرك؛ لتيقُّنك^(٧) أنَّ حركتك فيها لا تنفعُك ولا تردُّ عنك مقضيًّا»^(٨).

قلت: هذا إذا لم تكن الحركةُ مأمورًا بها، فأما إذا كانت مأمورًا بها فاليقينُ في بذل الجهد فيها واستفراغ الوسع.

وقيل: «إذا استكمل العبدُ حقيقةَ اليقين صار البلاءُ عنده نعمة، والمحنةُ منحةً»^(٩).

(١) سهل بن عبد الله التُّستري، أبو محمد، الزاهد، له كلماتٌ نافعة (ت: ٢٨٣). انظر: «طبقات الصوفية» (٢٠٦)، و«السير» (١٣ / ٣٣٠).

(٢) «الرسالة القشيرية» (٣١٩).

(٣) «الرسالة القشيرية» (٣٢٠).

(٤) السَّريُّ بن المغلِّس السَّقَطي، أبو الحسن، الإمام القُدوة (ت: ٢٥٣). انظر: «طبقات الصوفية» (٤٨)، و«السير» (١٢ / ١٨٥).

(٥) (ت، ح، د، ق): «السكون». والمثبت من (ن) و«الرسالة».

(٦) (ق): «المواد».

(٧) (ح): «ليقينك». «الرسالة»: «لتيبنك».

(٨) «الرسالة القشيرية» (٣٢١).

(٩) أخرجه القشيري في «الرسالة» (٣٢٢) عن النهرجوري. وفيه: «والرخاء مصيبةٌ بدل: «والمحنة منحة».

فالعِلْمُ أَوْلُ درجاتِ اليقين؛ ولهذا قيل: «العِلْمُ يستعملُك، واليقينُ يَحْمِلُك»^(١).

فاليقينُ أَفْضَلُ مواهبِ الربِّ لعبده، ولا تثبُتُ قَدَمُ الرضا إلا على درجة اليقين.

قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]. قال ابنُ مسعود: «هو العبدُ تصيُّهُ المصيبة، فيعلمُ أنها من عند الله، فيرضى ويسلِّم»^(٢).

فلهذا لم تحصل له هدايةُ القلب والرضا والتسليمُ إلا بيقينه.

قال في «الصحيح»^(٣): «اليقين: العلمُ وزوالُ الشك، يقال منه: يَقيَنُ الأمرَ - بالكسر - يَقيَنًا، واستيقنْتُ وأيقنْتُ وتيقَّنتُ، كلُّهُ بمعنَى واحد. وأنا على يقينٍ منه.

وإنما صارت الياءُ واوًا في «مُوقِنٌ» للضمَّة قبلها، وإذا صغرته رددته إلى الأصل، فقلت: مُيَيِّقِنٌ.

وربَّما عبَّروا عن الظنِّ باليقين، وعن اليقين بالظن^(٤).

(١) قاله أبو سعيد الخراز. أخرجه القشيري في «الرسالة» (٣٢٢)، والبيهقي في «الشعب» (٤/٤٥٥)، والخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (٣٦).

(٢) علَّقه البخاري في «الصحيح» (٦/١٩٣). ووصله سعيد بن منصور، كما في «الدر المنثور». (٦/٢٢٧). وهو مشهورٌ عن علقمة. انظر: «الفتح» (٨/٥٢٠)، و«تغليق التعليق» (٤/٣٤٢).

(٣) (٦/٢٢١٩) (يقن).

(٤) (د): «وبالظن عن اليقين»، وصحَّحت في الطرَّة إلى: «وباليقين عن الظن».

قال (١):

تَحَسَّبَ هَوَّاسٌ وَأَيَّقَنَ أَنَّنِي بِهَا مُتَّقِدٌ مِنْ وَاحِدٍ لَا أَغَامِرُهُ
يقول: تَشَمَّمَ الأسدُ ناقتي، يظنُّ أَنَّنِي أَفتدي بها منه، وأستحيي نفسي
فأتركها له، ولا أَفتَحِمُ المهالكَ بمقاتلته (٢).

قلت: هذا موضعٌ اختلف فيه أهلُ اللغة والتفسير؛ هل يستعملُ اليقينُ
في موضع الظنِّ، والظنُّ في موضع اليقين؟ (٣).

فرأى ذلك طائفة، منهم الجوهرِيُّ وغيره، واحتجُّوا سوى ما ذُكر بقوله
تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦]، ولو شكُّوا
في ذلك لم يكونوا مؤمنين (٤)، فضلاً عن أن يُمدِّحوا بهذا المدح، ويقوله
تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقُوا اللَّهَ كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ فَلَئِنَّ غَلَبَتِ
فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ويقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ
فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]، ويقول الشاعر (٥):

(١) أبو سُدرة الأسدي، ويقال: الهُجَيْمِيُّ. انظر: «النوادر» لأبي زيد (١٨٩)، و«اللاّلي»
(٥٣٩/١)، و«الخزانة» (١١٩/٢).

(٢) (ق، د، ت): «لمقاتلته».

(٣) انظر: «الأضداد» لابن الأنباري (١٢)، و«تفسير الطبري» (١٧/٢)، و«الخزانة»
(٢٨٢/١١، ٣١٤/٩).

(٤) (ق): «موقنين».

(٥) هو دريدُ بن الصَّمَّة، من حماسية أصمعية. انظر: «الحماسة» بشرح المرزوقي
(٨١٢)، و«الأصمعيات» (٢٨)، وديوانه (٤٧). والمدجج: الكامل السلاح.
وسراتهم: أشرافهم ورؤساؤهم. والفارسيُّ المسرَّد: الدُّرْعُ الفارسيُّ المحكم النَّسج.

فقلتُ لهم: ظنُّوا بألْفِي مقاتِلٍ سَرائِهِمُ في الفارسيِّ المُسرِّدِ
أي: أَسْتَيَقِنُوا بهذا العدد.

وأبى ذلك طائفة، وقالوا: لا يكونُ اليقِينُ إلا للعلم.

وأما الظن، فمنهم من وافق على أنه يكونُ بمعنَى العلم.

ومنهم من قال: لا يكونُ^(١) الظنُّ في موضع اليقين. وأجابوا عما أحتجَّ به من جَوَز ذلك بأن قالوا: هذه المواضع التي زعمتم أنَّ الظنَّ وقع فيها موقعَ اليقين كُلِّها على بابها؛ فإنَّا لم نجد ذلك إلا في علمٍ بمُغَيَّب، ولم نجدهم يقولون لمن رأى الشيء: «أظنُّه»، ولمن ذاقه: «أظنُّه»، وإنما يقالُ لغائبٍ قد عُرِفَ بالسمع والعقل^(٢)، فإذا صار إلى المشاهدة أمتنع إطلاقُ الظنِّ عليه.

قالوا: وبين العيان والخبر مرتبةٌ متوسِّطةٌ باعتبارها أوقع على العلم بالغائبِ الظنُّ؛ لفقد الحال التي تحصل لِمُدْرِكِهِ بالمشاهدة.

وعلى هذا أُخْرِجَتِ^(٣) سائرُ الأدلَّة التي ذكرتموها.

ولا يَرِدُ على هذا قوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ لأنَّ الظنَّ إنما وقع على مُوَاقَعَتِهَا^(٤)، وهي غيبٌ حال الرؤية، فإذا واقعوها لم يكن ذلك ظنًّا، بل حقٌّ يقين.

(١) من قوله: «بمعنى العلم» إلى هنا، ساقط من (ح، ن).

(٢) في الأصول: «بالسمع والعلم». تحريف. انظر: «الصواعق» (٨٧٠).

(٣) (ت، د): «خرجت».

(٤) (ت، ن): «مواقعها». (ق): «مواقعوها».

قالوا: وأما قول الشاعر: «وَأَيُّقَنَ أَنِّي بِهَا مُفْتَدٍ» فعلى بابهِ؛ لأنَّه ظَنَّ أَنَّ الأسدَ لَتَيَّقُنَه شجاعَتَه وجِراءَتَه موقنٌ بأنَّ الرجلَ يدعُ له ناقَتَه يفتدي بها من نفسه.

قالوا: وعلى هذا يخرجُ معنى الحديث: «نحن أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم»^(١)، وفيه أجوبة^(٢)، لكنَّ بين العيان والخبر رتبةٌ طلب إبراهيمُ زوالها بقوله: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فعبرَ عن تلك الرتبة بالشكِّ، والله أعلم^(٣).

الوجه الثاني والثلاثون بعد المئة: ما رواه أبو يعلى الموصلي في «مسنده»^(٤) من حديث أنس بن مالكٍ يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «طلبُ العلم

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) عن أبي هريرة.

(٢) (ت): «وعنه أجوبة». وانظر: «فتح الباري» (٦/ ٤٧٤).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٧١).

(٤) (٢٨٣٧)، وابن ماجه (٢٢٤)، وغيرهما بإسنادٍ ضعيفٍ جداً؛ حفص بن سليمان متروك، وقد أنكروا عليه حديثه هذا.

وللحديث طرقٌ أخرى معلولةٌ من حديث أنس، وابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وأبي سعيد، وجابر، رضي الله عنهم.

وقد حكم برّد الحديث من جهة الإسناد جماعةٌ من أئمة النقد: أحمد - كما في «المنتخب من العلل للخلال» (١٢٨) -، وإسحاق بن راهويه - كما في «مسائل الكوسج» (٣٣١١) -، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ٥٨، ٢٣٨)، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٢٣)، وابن عبد الهادي في «جزء في الأحاديث الضعيفة...» (٣١). وهو الحق. وانظر: «مسند البزار» (٩٤).

وقوّاه بعض المتأخرين. انظر: «اللالء المشورة» للزركشي (٤٣)، و«المقاصد الحسنة» (٦٦٠)، وللسيوطي فيه جزءٌ مفرد.

فريضة على كل مسلم».

وهذا وإن كان في سنده حفص بن سليمان، وقد ضَعُف، فمعناه صحيح؛ فإنَّ الإيمان فرض على كل واحد، وهو ماهية مركبة من علم وعمل، فلا يتصور وجود الإيمان إلا بالعلم والعمل.

ثمَّ شرائع الإسلام واجبة على كل مسلم، ولا يمكن أدائها إلا بعد معرفتها والعلم بها، والله تعالى أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، فطلب العلم فريضة على كل مسلم.

وهل تمكن عبادة الله التي هي حقُّه على العباد كلهم إلا بالعلم؟! وهل يُنال العلم إلا بطلبه؟!

ثمَّ إنَّ العلم المفروض تعلُّمه ضربان:

* ضرب منه فرض عين لا يسع مسلماً جهله. وهو أنواع:

النوع الأول: علم أصول الإيمان الخمسة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر؛ فإنَّ من لم يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل في باب الإيمان، ولا يستحقُّ اسمَ المؤمن؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

ولمَّا سأل جبريلُ رسولَ الله ﷺ عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر»، قال: صدقت (١).

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة. ومسلم (٨) من حديث عمر.

فالإيمان بهذه الأصول فرغ معرفتها والعلم بها.

النوع الثاني: علم شرائع الإسلام، واللازم منها^(١) علم ما يخص العبد من فعلها؛ كعلم الوضوء والصلاة والصيام والحجّ والزكاة، وتوابعها وشروطها ومبطلاتها.

النوع الثالث: علم المحرّمات الخمس؛ التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهية؛ وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فهذه محرّمات على كلّ أحد، في كلّ حال، على لسان كلّ رسول، لا تُباح قطُّ؛ ولهذا أتى فيها بـ ﴿إِنَّمَا﴾ المفيدة للحصر مطلقاً، وغيرها محرّم في وقتٍ مباح في غيره، كالميته والدم ولحم الخنزير ونحوه، فهذه ليست محرّمة على الإطلاق والدوام، فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق.

النوع الرابع: علم أحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصاً وعموماً، والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم، فليس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته، وليس الواجب على من نصّب نفسه لأنواع التجارات من تعلّم أحكام البيّعات كالواجب على من لا يبيع ولا يشتري إلا ما تدعو الحاجة إليه^(٢).

(١) (ت): «وما يلزم منها».

(٢) (ن، ح): «تدعو حاجته إليه».

وتفصيل هذه الجملة لا ينضبط بحدٍّ؛ لاختلاف الناس في أسباب العلم
الواجب. وذلك يرجع إلى ثلاثة أصول: اعتقاد، وفعل، وترك.

* فالواجب في الاعتقاد: مطابقتها للحق في نفسه.

* والواجب في العمل: معرفة موافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة
الاختيارية للشرع أمراً أو إباحة.

* والواجب في الترك: معرفة موافقة الكفِّ والسُّكون لمرضاة الله، وأنَّ
المطلوب منه إبقاء هذا الفعل على عدمه المُستَصْحَب^(١) فلا يتحرك في
طلبه، أو كف النفس عن فعله، على الطريقتين^(٢).

وقد دخل في هذه الجملة علم حركات القلوب والأبدان.

* وأما فرض الكفاية فلا أعلم فيه ضابطاً صحيحاً؛ فإنَّ كلَّ أحدٍ يُدْخِلُ
في ذلك ما يظنُّه فرضاً، فيُدْخِلُ بعضُ الناس في ذلك علمَ الطبِّ وعلمَ
الحساب وعلمَ الهندسة والمساحات، وبعضهم يزيد على ذلك علمَ أصول
الصِّناعات، كالفلّاحة والحياكة والحِجْدَادَة والخِياطة ونحوها^(٣)، وبعضهم
يزيد على ذلك علمَ المنطق^(٤)، وربما جعله فرض عين، وبناء على عدم

(١) (ق): «اتقاء هذا الفعل على عدمه المستعمل».

(٢) الأولى: أن الترك أمرٌ عديمي، والثانية: أنه وجودي. انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٢٣)،
و«شفاء العليل» (٤٨٨)، و«الداء والدواء» (٤٤٩).

(٣) انظر: «الإحياء» (١٦/ ١)، وهو مصدر المصنف هنا، و«الوسيط» (٦/ ٧)،
و«روضة الطالبين» (١٠/ ٢٢٢، ٢٢٣)، و«مجموع الفتاوى» (٢٩/ ١٩٤)، و«الطرق
الحكمية» (٦٤٥).

(٤) انظر: «المستصفى» (١/ ٤٥)، و«معيان العلم» (٦٠)، و«الرد على المنطقيين» (١٧٩).

صحة إيمان المقلد.

وكلُّ هذا هَوَسٌ وَخَبْطٌ، فلا فرض إلا ما فرضه (١) الله ورسوله.

فيا سبحان الله! هل فرض الله على كلِّ مسلم أن يكون طبيبًا حجاجًا حاسبًا مهندسًا، أو حائكًا أو فلاّحًا (٢) أو نجّارًا أو خياطًا؟! فإنَّ فرض الكفاية كفرض العين في تعلُّقه بعموم المكلفين، وإنما يخالفه في سقوطه بفعل البعض (٣).

ثمَّ على قول هذا القائل يكونُ الله قد فرض على كلِّ أحد جملة هذه الصنائع والعلوم؛ فإنه ليس واحدٌ منها فرضًا على معيّن والآخرُ على مُعيّن آخر، بل عمومٌ فرضيّتها مشتركة بين العموم، فيجبُ على كلِّ أحدٍ أن يكون حاسبًا حائكًا (٤) خياطًا نجّارًا فلاّحًا طبيبًا مهندسًا!

فإن قال: «المجموع فرضٌ على المجموع» لم يكن قولك: «إنَّ كلَّ واحدٍ منها فرض كفاية» صحيحًا؛ لأنَّ فرض الكفاية يجبُ على العموم.

وأما المنطق، فلو كان علمًا صحيحًا كان غايته أن يكون كالْمِسَاحَةِ والهندسة ونحوها، فكيف وباطله أضعافُ حقّه، وفساده وتناقضُ أصوله واختلافُ مبانيه توجبُ مراعاتها للذهن أن يزيغَ في فكره؟!

(١) (ت): «افترضه». (ح): «فرض».

(٢) (ت): «فلاحًا أو حدادًا».

(٣) على أحد القولين في تعلُّق فرض الكفاية بعموم المكلفين أو ببعضهم، وهو خلافٌ مشهور، وما اختاره المصنّف هو رأي الجمهور. انظر: «زاد المعاد» (١/ ٣٩٨)، و«الصلاة وحكم تاركها» (٤٥)، و«المحصول» (٢/ ١٨٦)، و«البحر المحيط» (١/ ٢٤٣).

(٤) في الأصول: «أو حائكًا». ولا يستقيم المعنى بإثبات «أو» هنا.

ولا يؤمن بهذا إلا من قد عرفه وعرفَ فساده وتناقضه ومناقضة كثيرٍ منه للعقل الصريح.

وأخبر بعض من كان قد قرأه وعُنِيَ به^(١) أنه لم يزل متعجبًا من فساد أصوله وقواعده، ومباينتها للصريح المعقول، وتضمُّنها لدعاوٍ محضةٍ غير مدلولٍ عليها، وتفريقه بين متساويين، وجمعه بين مختلفين؛ فيحكمُ على الشيء بحكمٍ وعلى نظيره بضدِّ ذلك الحكم، أو يحكمُ على الشيء بحكمٍ ثمَّ يحكمُ على مضاده أو مناقضه به!

قال: إلى أن سألتُ بعض رؤسائه وشيوخ أهله عن شيءٍ من ذلك، فأفكَّرَ فيه^(٢)، ثمَّ قال: «هذا علمٌ قد صقلته الأذهان، ومَرَّت عليه من عهد القرون الأوائل - أو كما قال -، فينبغي أن نتسلَّمه من أهله»، وكان هذا أفضلَ من رأيِّ في المنطق.

قال: إلى أن وقفتُ على ردِّ متكلمي الإسلام عليه وتبيين فساده وتناقضه، فوقفتُ على مصنَّفٍ لأبي سعيد السِّيرافي النحوي^(٣) في ذلك^(٤)،

(١) أحسب المصنف يريد نفسه. انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ٢٦٠)، و«الصواعق المرسلة» (٩٩٥).

(٢) كذا في الأصول. فكَّرَ في الشيء وأفكَّرَ فيه وتفكَّرَ، بمعنى. «اللسان».

(٣) الحسن بن عبد الله، إمامٌ في العربية، صاحبُ تصانيف، وفيه دينٌ وورع (ت: ٣٦٨). انظر: «إنباه الرواة» (١/ ٣٤٨)، و«السير» (١٦/ ٢٤٧).

(٤) لعلَّه يقصد المناظرة التي جرت بينه وبين أبي بشر متَّى بن يونس صاحب كتب المنطق، وقد دوَّنها أبو حيان التوحيدي في «الإمتاع والمؤانسة» (١/ ١٠٨ - ١٢٨). وانظر: «الرد على المنطقيين» (١٧٨).

وعلى ردّ كثير من أهل الكلام والعربية عليهم، كالقاضي أبي بكر بن الطيّب^(١)، والقاضي عبد الجبار^(٢)، والجُبَّائي^(٣)، وابنه^(٤)، وأبي المعالي^(٥)، وأبي القاسم الأنصاري^(٦)، وخلق لا يُحْصَوْنَ كثرة^(٧).

ورأيتُ [من] أسْتَشْكَالات فضلائهم ورؤسائهم لمواضع الإشكال، ومخالفتها [للعقل]^(٨)، ما كان ينقذُ لي كثيرٌ منه.

(١) الباقلاني، المتكلم، الأصولي، انتهت إليه رئاسة المالكية في وقته (ت: ٤٠٣). انظر: «ترتيب المدارك» (٧/ ٤٤)، و«السير» (١٧/ ١٩٠).

(٢) عبد الجبار بن أحمد الهمداني، شيخ المعتزلة، صاحب التصانيف (ت: ٤١٥). انظر: «السير» (١٧/ ٢٤٤)، و«لسان الميزان» (٣/ ٣٨٦).

(٣) أبو علي، محمد بن عبد الوهاب البصري، المعتزلي، له تصانيف (ت: ٣٠٣). انظر: «طبقات المعتزلة» (٨٠)، و«السير» (١٤/ ١٨٣).

(٤) أبو هاشم، عبد السلام بن محمد، المعتزلي، له تصانيف (ت: ٣٢١). انظر: «طبقات المعتزلة» (٩٤)، و«السير» (١٥/ ٦٣).

(٥) عبد الملك بن عبد الله الجويني، إمام الحرمين، الشافعي، المتكلم (ت: ٤٧٨). انظر: «السير» (١٨/ ٤٦٨)، و«طبقات الشافعية» (٥/ ١٦٥).

(٦) سلمان بن ناصر النيسابوري، الصوفي، الشافعي، المتكلم، تلميذُ إمام الحرمين، وشارحُ كتابه «الإرشاد» (ت: ٥١١). انظر: «السير» (١٩/ ٤١٢).

(٧) انظر: «الرد على المنطقيين» (١٥ - ١٩، ١٩٤)، و«نقض المنطق» (١٨٧)، و«صون المنطق والكلام» للسيوطي (٢٠٦)، و«الحاوي للفتاوي» (١/ ٢٥٥)، و«فتاوى ابن الصلاح» (١/ ٢٠٩)، و«زغل العلم» للذهبي (٤٣).

والخلافُ بين المتكلمين والمناطقة هو في الفائدة من «الحَدِّ»، وهي أهمُّ مسائل التصوّرات؛ فالحدُّ عند المتكلمين: ما يُمَيِّزُ المحدود عن غيره، بينما هو عند المناطقة: المعرُفُ للماهية والموصلُ للحقيقة.

(٨) ما بين المعكوفات يقتضيه السياق، وليس في الأصول.

ورأيتُ آخر من تجرّد للرّد عليهم شيخ الإسلام - قدّس الله روحه - ،
فإنه أتى في كتابيه الكبير والصغير^(١) بالعجب العُجاب، وكشف أسرارهم
وهتك أستارهم، فقلتُ في ذلك:

واعجباً لمنطقِ اليونانِ
كم فيه من إفكٍ ومن بهتانِ
مُخَبَّطٌ لجيّدِ الأذهانِ
ومُفْسِدٌ لفطرة الإنسانِ
ومُبَكِّمٌ للقلبِ واللّسانِ
مضطربُ الأصولِ والمباني
على شفاهاٍ بناه الباني
أحوجُ ما كان إليه العاني
يخُونُهُ في السّرِّ والإعلانِ
يمشي به اللّسانُ في الميدانِ
مَشْيٌ مُقَيَّدٌ على صَفْوَانِ
متّصلِ العِثَارِ والتّواني
كأنه السّرابُ بالقيعانِ
بدا لِعَيْنِ الظّامِءِ الحَرَّانِ^(٢)
فأمّهُ بِالظَّنِّ والحُسبانِ
يرجو شفاءَ غُلّةِ الظّمانِ

(١) «الرد على المنطقيين»، و«نقض المنطق». وكلاهما مطبوع.

(٢) العطشان . وفي (ت ، ق): «الحيران» . (د): «الظم الحيران» .

فلم يجد ثَمَّ سوى الحِرْمانِ
فَعَادَ بالخَيْبَةِ والخِسرانِ
يَقْرَعُ سِنَّ نَادِمٍ حيرانِ
قد ضاعَ منه العمرُ في الأمانِ
وعاينَ الخِفَّةَ في الميزانِ

وما كان مِنْ هَوَسِ النفوسِ بهذه المنزلة فهو بأن يكونَ جهلاً أولى منه
بأن يكونَ علماً تعلَّمَهُ فرضٌ كفايةٍ أو فرضٌ عين.

وهذا الشَّافعيُّ وأحمدُ وسائرُ أئمةِ الإسلامِ وتصانيفُهم، وأئمةُ العربية^(١)
وتصانيفُهم، وأئمةُ التفسيرِ وتصانيفُهم، لمن نظرَ فيها؛ هل راعوا فيها حدودَ
المنطقِ وأوضاعه؟ وهل صحَّ لهم علمُهم بدونه أم لا؟! بل هم كانوا أجلاً
قدرًا وأعظمَ عقولاً من أن يشغلوا أفكارَهم بهذيانِ المنطقيين.

وما دخلَ المنطقُ على علمٍ إلا أفسده، وغيرَ أوضاعه، وشوَّشَ
قواعده^(٢).

ومن الناس من يقول: إنَّ علومَ العربية من التصريف والنحو واللغة
والمعاني والبيان ونحوها تعلَّمُها فرضٌ كفاية؛ لتوقُّفِ فهمِ كلامِ الله ورسوله
عليها.

(١) (ت، ق، د): «وسائر أئمة العربية». والمثبت من (ح، ن) أصح؛ فالسائر: الباقي، لا
الجميع، من السُّور. انظر: «تصحیح التصحیف» (٣٠٢)، و«خير الكلام في التقصي
عن أغلاط العوام» (٣٤).

(٢) انظر: «الصواعق المرسله» (٨١٩)، و«بدائع الفوائد» (٨٩١)، و«إغاثة اللهفان»
(٢/٢٦٠).

ومن الناس من يقول: تعلّم أصول الفقه فرضٌ كفاية؛ لأنه العلم الذي يُعرف به الدليل ومرتبته، وكيفية الاستدلال.

وهذه الأقوال وإن كانت أقرب إلى الصواب من القول الأول، فليس وجوبها عامًّا على كلِّ أحد، ولا في كلِّ وقت، وإنما تجب وجوب الوسائل في بعض الأزمان وعلى بعض الأشخاص، بخلاف الفرض الذي يعمُّ وجوبه كلِّ أحد؛ وهو علم الإيمان وشرائع الإسلام، فهذا هو الواجب، وأما ما عداه فإن توقفت معرفته عليه فهو من باب ما لا يتم الواجب إلا به، ويكون الواجب منه القدر الموصول إليه، دون المسائل التي هي فضلة لا يفتقر معرفته الخطاب وفهمه عليها.

فلا يُطلق القول بأنَّ علم العربية واجبٌ على الإطلاق؛ إذ الكثير منه ومن مسائله وبحوثه لا يتوقّف فهمُ كلام الله ورسوله عليها^(١).

وكذلك أصول الفقه، القدر الذي يتوقّف فهمُ الخطاب عليه منه تجب معرفته، دون المسائل المُقدّرة والأبحاث التي هي فضلة، فكيف يقال: إنَّ تعلّمها واجب؟!

وبالجملة؛ فالمطلوب الواجب من العبد من العلوم والأعمال إذا توقّف على شيء منها كان ذلك الشيء واجبًا وجوب الوسائل، ومعلوم أن ذلك التوقّف^(٢) يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والألسنة والأذهان؛

(١) لكنّ ما يتوقّف فهمُ الكلام عليه لا يوصل إليه إلا بتعلّم كثير مما لا يحتاج إليه، فصار الثاني مما لا يتم الواجب إلا به. وللخليل بن أحمد عبارة مشهورة في هذا. انظر: «بهجة المجالس» (٦٧/١)، و«نصرة الثائر» للصفدي (٦٧).

(٢) (ت): «المتوقف».

فليس لذلك حدٌ مقدَّر^(١)، والله أعلم.

الوجه الثالث والثلاثون بعد المئة: ما رواه ابنُ حبان في «صحيحه»^(٢) من حديث أبي هريرة يرفعه إلى النبي ﷺ قال: «سأل موسى ربه عن ستّ خصالٍ كان يظنُّ أنها له خالصة، والسابعة لم يكن موسى يحبُّها، قال: يا ربِّ، أيُّ عبادك أتقى؟ قال: الذي يذكُر ولا ينسى، قال: فأَيُّ عبادك أهدى؟ قال: الذي يتبع الهدى، قال: فأَيُّ عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم للناس ما يحكم لنفسه، قال: أيُّ عبادك أعلم؟ قال: عالمٌ لا يشبع من العلم، يجمع علمَ الناس إلى علمه، قال: فأَيُّ عبادك أعزُّ؟ قال: الذي إذا قَدَرَ غفر، قال: فأَيُّ عبادك أغنى؟ قال: الذي يرضى بما أوتي، قال: فأَيُّ عبادك أفقر؟ قال: صاحبٌ منقوص»^(٣).

(١) (ن، ح): «حد مقدور».

(٢) (٦٢١٧)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» (٣٦٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٣٤/٦١، ١٣٥، ١٣٦)، وغيرهم.

وفي إسناده دراج بن سمعان، وهو مختلفٌ فيه، كما تقدم (ص: ٢٠٣)، وليس حديثه هذا بالمحفوظ، وقد اضطرب في تسمية شيخه عليّ وجهين، وأصل الحديث مشهورٌ مرويًا من وجوه كثيرة عن جماعة من التابعين: عطاء، ومجاهد، وأبي عمرو الشيباني، ووهب بن منبه، وكعب الأحمار، وميثم (شيخ لأبي إسحاق السبيعي، يروي أخبار بني إسرائيل. انظر: «الثقات» لابن حبان: ٤٦٣/٥، و«الزهد» لهناد: ١٣٠١، و«الدعاء» للضبي: ١٠٣) وغيرهم، مقطوعًا، وعن ابن عباس موقوفًا، من أخبار أهل الكتاب، وهو الأشبه.

(٣) قال ابن حبان عقب الحديث: «صاحبٌ منقوص: يريد به منقوصٌ حالته، يستقلُّ ما أوتي ويطلبُ الفضل».

فأخبر في هذا الحديث أَنَّ أَعْلَمَ عباده الذي لا يشبُّعُ من العلم، فهو يجمعُ علمَ الناسِ إلى علمه؛ لِنَهْمَتِهِ في العلم، وحرصه عليه.

ولا ريب أنَّ كونَ العبدِ أَعْلَمَ عبادِ الله^(١) من أعظم أوصاف كماله، وهذا هو الذي حمل موسى على الرِّحلة إلى عالم الأرض ليعلمه مما علَّمه الله. هذا وهو كليمُ الرحمن، وأكرمُ الخلق على الله في زمانه، وأعلمُ الخلق، فحملة حرصه ونَهْمَتُهُ في العلم على الرِّحلة إلى العالم الذي وُصِفَ له.

فلولا أنَّ العلمَ أشرفُ ما بُذِلَتْ فيه المُهْج، وأنْفَقَتْ فيه الأنفاس، لاشتغل موسى عن الرِّحلة إلى الخضر بما هو بصده من أمر الأُمَّة، وعن مقاساة النَّصبِ والتعب في رحلته وتلطفه للخضر في قوله: ﴿هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، فلم ير أتباعه حتى استأذنه في ذلك وأخبره أنه جاء متعلِّماً مستفيداً.

فهذا النبيُّ الكريمُ كان عالماً بقدر العلم وأهله، صلواتُ الله وسلامه عليه.

الوجه الرابع والثلاثون بعد المئة: أنَّ الله سبحانه وتعالى خلقَ الخلقَ لعبادته الجامعة لمحَبَّتِهِ وإيثار مرضاته، المستلزمة لمعرفته، ونَصَبَ للعباد عِلْماً لا كمالَ لهم إلا به؛ وهو أن تكونَ حركاتُهُم كُلُّها واقعةً على وفقِ مرضاته ومحَبَّتِهِ، ولذلك أرسلَ رسله، وأنزلَ كتبه، وشرعَ شرائعه.

فكمالُ العبدِ الذي لا كمالَ له إلا به أن تكونَ حركاتُهُ موافقةً لما يحبُّه الله منه ويرضاه له.

(١) (ق): «أعظم عباد الله». وهو تحريف.

ولهذا جعل أتباع رسولہ دليلاً على محبته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

فالمحب الصادق يرى خيانة منه لمحبوبه أن يتحرك بحركة اختيارية في غير مرضاته، وإذا فعل فعلاً مما أبيع له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه كما يتوب من الذنب، ولا يزال هذا الأمر يقوى عنده حتى تنقلب مباحاته^(١) كلها طاعات، فيحتسب نومته^(٢) وفطره وراحته كما يحتسب قومه وصومه واجتهاده، وهو دائماً بين سراء يشكر الله عليها وضراء يصبر عليها؛ فهو سائر إلى الله دائماً في نومه ويقظته.

قال بعض العلماء: «الأكياس عاداتهم عبادات، والحمقى عباداتهم عادات»^(٣).

وقال بعض السلف: «حبذا نوم الأكياس وفطرهم، يغبنون»^(٤) به سهر الحمقى وصومهم»^(٥).

فالمحب الصادق إن نطق نطق الله وبالله، وإن سكت سكت الله، وإن

(١) (ح): «مباحاته عنده».

(٢) (ق، د، ت): «نومه».

(٣) انظر: «طريق الهجرتين» (٤٦٦، ٤٦٧).

(٤) كذا في الأصول، وهو مستقيم. وفي طرة (د): «لعله: يسبقون». وتحرفت في بعض المصادر إلى: يعييون.

(٥) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٣٧)، - ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٢١٢/١)، - وابن أبي الدنيا في «اليقين» (٨)، - ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/١٧٥) - عن أبي الدرداء بإسناد منقطع.

تَحَرَّكَ فَبَأَمَرَ اللَّهُ، وَإِنْ سَكَنَ فَسَكُونُهُ أَسْتَعَانَةُ عَلَىٰ مَرْضَاةِ اللَّهِ؛ فَهُوَ اللَّهُ وَبِاللَّهِ وَمَعَ اللَّهِ.

ومعلومٌ أنَّ صاحبَ هذا المقام أحوجُّ خلقِ الله إلى العلم؛ فإنه لا تتميز له الحركةُ المحبوبةُ لله من غيرها ولا السُّكُونُ المحبوبُ له من غيره إلا بالعلم، فليست حاجتهُ إلى العلم كحاجة من طلب العلم لذاته ولأنه في نفسه صفةُ كمال، بل حاجتهُ إليه كحاجته إلى ما به قوامُ نفسه وذاته.

ولهذا أَشَدَّتْ وَصَاةُ شيوخ العارفين لمُرِيدِيهِم بِالْعِلْمِ وَطَلْبِهِ ^(١)، وأنه من لم يطلب العلم لم يُفْلِح، حتى كانوا يَعُدُّونَ من لا علم له من السُّفْلَةِ ^(٢). قال ذو النون ^(٣)، وقد سئل: من السُّفْلَةُ؟، فقال: «من لا يعرفُ الطريقَ إلى الله تعالى ولا يتعرَّفُه» ^(٤).

وقال أبو يزيد ^(٥): «لو نظرتم إلى الرجل وقد أُعْطِيَ من الكرامات حتى يترَبَّع ^(٦) في الهواء، فلا تغتربوا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود ومعرفة الشريعة» ^(٧).

(١) عقد القشيري في «الرسالة» بابًا في ذكر مشايخ الطريقة وما يدلُّ من سيرهم وأقوالهم على تعظيم الشريعة. وهو مصدر المصنف في الأقوال التالية.

(٢) السُّفْلَةُ والسُّفْلَةُ: أراذل الناس. «اللسان» (سفل).

(٣) ثوبان بن إبراهيم المصري، زاهد، واعظ (ت: ٢٤٥). «السير» (١١/ ٥٣٢).

(٤) «الرسالة القشيرية» (٤٦). وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٧٢).

(٥) طيفور بن عيسى البسطامي، زاهدٌ يروى عنه كلامٌ نافع وكلماتٌ مشككة (ت: ٢٦١).

«السير» (٨٦/ ١٣).

(٦) (ن): «يرتفع». وفي بعض المصادر: «يرتفع»، «يرفع»، «يرتقى».

(٧) «الرسالة القشيرية» (٦٤). وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٤٠)، والبيهقي في =

وقال أبو حمزة البزاز^(١): «من عَلِمَ طريقَ الحقِّ سَهَّلَ عليه سلوكُهُ، ولا دليل على الطريق إلا متابعةُ الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله»^(٢).

وقال محمد بن الفضل الصوفي الزاهد^(٣): «ذهبُ الإسلام على يدي أربعة أصنافٍ من الناس: صنفٍ لا يعملون بما يعلمون، وصنفٍ يعملون بما لا يعلمون، وصنفٍ لا يتعلَّمون ولا يعملون»^(٤)، وصنفٍ يمنعونَ الناسَ من التعلُّم»^(٥).

قلتُ: الصنفُ الأول: من له علمٌ بلا عمل؛ فهو أضُرُّ شيءٍ على العامة، فإنه حَجَّةٌ لهم في كلِّ نقيصةٍ ومَبْخَسةٍ^(٦).
والصنفُ الثاني: العابدُ الجاهل؛ فإنَّ الناسَ يحسِّنونَ الظنَّ به؛ لعبادته وصلاحه، فيقتدون به على جهله.

وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعضُ السلف في قوله: «أحذروا

= «الشعب» (٤/٤٤٩)، وغيرهم.

(١) محمد بن إبراهيم البغدادي، صوفي، عنده انحرافٌ وسَطُوح، قال الذهبي: «له تأويل» (ت: ٢٦٠). انظر: «السير» (١٣/١٦٥).

(٢) «الرسالة القشيرية» (١٠٠). وأخرجه السلمي في «طبقات الصوفية» (٢٩٨).

(٣) أبو عبد الله، العلامة، واعظٌ بَلَّغ (ت: ٣١٧). «السير» (١٤/٥٢٣).

(٤) (ت: «لا يعملون ولا يعلمون». وفي «الرسالة» ومصادر التخريج: «لا يتعلمون ما لا يعلمون». وهو من تصرُّف المصنف.

(٥) «الرسالة القشيرية» (٨٨). وأخرجه السلمي في «طبقات الصوفية» (٢١٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/٢٣٣)، والبيهقي في «الشعب» (٤/٤٣٠).

(٦) البَخْس: النقص. وفي (ت، ق، ن): «ومنحسة»، والنحس: ضدُّ السعد.

فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون»^(١)؛ فإنَّ الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبّادهم، فإذا كان العلماء فجرةً والعبّاد جهلةً عمّت المصيبةُ بهما وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة.

والصنف الثالث: الذين لا علم لهم ولا عمل؛ وإنما هم كالأنعام السائمة.

والصنف الرابع: نواب إبليس في الأرض؛ وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه في الدين، فهؤلاء أضُرَّ عليهم من شياطين الجن، فإنهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه.

فهؤلاء الأربعة أصناف^(٢) هم الذين ذكرهم هذا العارف رحمة الله عليه^(٣)، وهؤلاء كلُّهم على شفا جُرفِ هار، وعلى سبيلِ هلكة، وما يلقى العالمُ الداعي إلى الله ورسوله ما يلقاه من الأذى والمحاربة إلا على أيديهم، والله يستعمل من يشاء في سخطه كما يستعمل من يحب^(٤) في مرضاته، إنه بعباده خبيرٌ بصير.

ولا ينكشف سرُّ^(٥) هذه الطوائف وطريقتهم إلا بالعلم؛ فعاد الخيرُ بحذافيره إلى العلم وموجبهِ، والشرُّ بحذافيره إلى الجهل وموجبهِ.

(١) تقدم تخريجه (ص: ٤٠١).

(٢) (ح): «الأربعة الأصناف».

(٣) للذهبي في «السير» (٥٢٥/١٤) تعليقٌ لطيفٌ على كلام هذا العارف.

(٤) (ت): «من يشاء».

(٥) (ق، ن): «شر»، بالمعجمة. والتعبير بانكشاف السرِّ مألوفٌ في كتب المصنف، وهو الأليق هنا.

الوجه الخامس والثلاثون بعد المئة: أَنَّ الله سبحانه جعل العلماء وكلاء وأمناء على دينه ووحيه، وارتضاهم لحفظه والقيام به والذب عنه، وناهيك بها منزلة شريفة ومنقبة عظيمة، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوْا بِهَا بِكَفْرِينَ ﴿٨٩﴾ [الأنعام: ٨٨ - ٨٩].

وقد قيل: إن هؤلاء القوم هم الأنبياء. وقيل: أصحاب رسول الله ﷺ. وقيل: كل مؤمن.

هذه أمهات الأقوال، بعد أقوال متفرعة عن هذه، كقول من قال: هم الأنصار، أو: المهاجرون والأنصار، أو: قوم^(١) من أبناء فارس. وقال آخرون: هم الملائكة^(٢).

قال ابن جرير^(٣): «وأولى هذه الأقوال بالصواب: أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين سمّاهم في الآيات قبل هذه الآية».

قال: «وذلك أنَّ الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى، وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما بينها^(٤) بأن يكون خبراً عنهم أولى وأحق من أن يكون^(٥)».

(١) (ن): «أو هم».

(٢) انظر: «زاد المسير» (٨١/٣)، و«الدر المنثور» (٢٨/٣).

(٣) (٥١٨/١١).

(٤) في الأصول: «فما يليها». تحريف. والمثبت من كتاب ابن جرير.

(٥) في الأصول: «بأن يكون». وهو تحريف كذلك.

خبراً عن غيرهم. فالتأويل: فإن يكفر قومك من قريش يا محمدُ بآياتنا، وكذبوا بها، وجحدوا حقيقتها، فقد أستحفظناها وأسترعينا القيامَ بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك، الذين لا يجحدون حقيقتها ولا يكذبون بها، ولكنهم يصدّقون بها ويؤمنون بصحتها».

قلت: السّورة مكيّة، والإشارة بقوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إلى من كفر به من قومه أصلاً، ومن عداهم تبعاً، فيدخل فيها من كفر بما جاء به من هذه الأُمَّة.

والقومُ الموكّلون بها هم الأنبياءُ أصلاً، والمؤمنون بهم تبعاً، فيدخل فيها كلُّ من قام بحفظها والذبُّ عنها والدعوة إليها، ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلاً وللمؤمنين بهم تبعاً، وأحقُّ من دخل فيهم من أتباع الرسول خلفاؤه في أمته وورثته، فهم الموكّلون بها.

وهذا ينتظم الأقوال التي قيلت في الآية.

وأما قول من قال: إنهم الملائكة؛ فضعيفٌ جدًّا لا يدلُّ عليه السّياق، وتأباه لفظة «قوم»؛ إذا الغالب في القرآن - بل المطرّد - تخصيصُ القوم ببني آدم دون الملائكة. وأما قول إبراهيم لهم: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]، فإنما قاله لما ظنَّهم من الإنس.

وأيضاً؛ فلا يقتضيه فخامة المعنى ومقصوده، ولهذا لو ظهر ذلك وقيل: «فإن يكفر بها كفار قومك فقد وكنّا بها الملائكة فإنهم لا يكفرون بها»، لم يجد منه من التسلية وتحقير شأن الكفرة بها، وبيان عدم تأهّلهم لها^(١) والإنعام عليهم، وإيثار غيرهم من أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنی

(١) (ح، ن): «تأهيلهم لها».

عليهم لكونهم أحقَّ بها وأهلها، والله أعلم حيث يضع هُدايه^(١) ويختصُّ به من يشاء.

وأيضًا؛ فإنَّ تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها، وأنه لا ضيعة عليها، وأنَّ هؤلاء وإن ضيَعوها ولم يقبلوها فإنَّ لها قومًا غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويَرعونها ويذُبُّون عنها، فكفر هؤلاء بها لا يضيّعها ولا يُذْهبُها ولا يضرُّها شيئًا؛ فإنَّ لها أهلًا ومستحقًّا سواهم.

فتأمل شرف هذا المعنى وجلالته وما تضمَّنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها والمسارة إلى قبولها، وما تحته من تنبيههم على محبته لهم وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين، وما تحته من احتقارهم وازدرائهم وعدم المبالاة والاحتفال^(٢) بهم، وأنكم وإن لم تؤمنوا بها فعبادي المؤمنون بها الموكِّلون بها سواكم كثير، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۖ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۖ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وإذا كان للملك عبيدٌ قد عصوه وخالفوا أمره ولم يلتفتوا إلى عهده، وله عبيدٌ آخرون سامعون له مطيعون قابلون مستجيبون لأمره، فنظر إليهم وقال: «إنَّ يكفر هؤلاء نعمتي ويعصوا أمري ويضيّعوا عهدي، فإنَّ لي عبيدًا سواهم وهم أنتم، تطيعون أمري، وتحفظون عهدي، وتؤدُّون حقِّي؛ فإنَّ عبيده

(١) (ت): «رسالاته وهدايه».

(٢) (ح): «والاهتبال».

المطيعين يَجِدُون في أنفسهم من الفرح والسُّرور والنشاط وقوة العزيمة ما يكون مُوجِباً لهم المزيد من القيام بحقِّ العبودية، والمزيد من كرامة سيِّدهم ومالكهم. وهذا أمرٌ يشهدُ به الحِسُّ والعِيان.

وأما توكيلهم بها، فهو يتضمَّنُ توفيقهم للإيمان بها والقيام بحقوقها ومراعاتها والذبُّ عنها والنصيحة لها، كما يوكلُ الرجلُ غيره بالشيء ليقوم به ويتعهَّده ويحافظ عليه. و﴿بِهَا﴾ الأولى متعلِّقةٌ بـ ﴿وَكَلَّنَا﴾، و﴿بِهَا﴾ الثانية متعلِّقةٌ بـ ﴿بِكُفْرِيْنَ﴾، والباءُ في ﴿بِكُفْرِيْنَ﴾ لتأكيد النفي.

فإن قلت: فهل يصحُّ أن يقال لأحد هؤلاء الموكَّلين: إنه «وكيلُ الله» بهذا المعنى، كما يقال: «وليُّ الله»؟

قلت: لا يلزمُ من إطلاق فعل التوكيل ^(١) المقيّد بأمرٍ ما أن يُصاغ منه اسمُ فاعلٍ مطلق، كما أنه لا يلزمُ من إطلاق فعل الاستخلاف المقيّد أن يقال: «خليفة»، كقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]، فلا يُوجبُ هذا الاستخلاف ^(٢) أن يقال لكلٍّ منهم: إنه «خليفةُ الله»؛ لأنه استخلافٌ مقيّد.

ولمَّا قيل للصديق: يا خليفة الله، قال: «لستُ بخليفةِ الله، ولكنِّي خليفةُ رسول الله، وحسبي ذلك» ^(٣).

(١) (ح، ن): «التوكل».

(٢) (ت): «الاستخلاف المقيّد».

(٣) تقدم تخريجه (ص: ٤٢٩).

ولكن يسوغُ أن يقال: هو وكيلٌ بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّنَا بِهَا قَوْمًا﴾. والمقصودُ أنَّ هذا التوكيلَ خاصٌّ بمن قام بها علمًا وعملاً، وجهادًا لأعدائها، وذنبًا عنها، ونفيًا لتحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

وأيضًا؛ فهو توكيلٌ رحمةً وإحسانٍ وتوفيقٍ واختصاص، لا توكيل حاجةٍ كما يوكلُ الرجلُ من يتصرفُ عنه في غيبته لحاجته إليه.

ولهذا قال بعض السلف: ﴿فَقَدْ وَكَلَّنَا بِهَا قَوْمًا﴾ يقول: «رزقناها قوماً»^(١)؛ فلهذا لا يقالُ لمن رزقها^(٢) ورُحِمَ بها: إنه «وكيلُ الله».

وهذا بخلاف اشتقاق «وليِّ الله» من الموالاة؛ فإنها المحبةُ والقرب، فكما يقال: عبد الله وحيبُهُ، يقال: وليُّه، والله تعالى يوالي عبده إحسانًا إليه وجبرًا له ورحمة، بخلاف المخلوق فإنه يوالي المخلوق لتعزُّزه به وتكثُّره بموالاته؛ لذَّلَّ العبد وحاجته، وأمَّا العزيزُ الغنيُّ - سبحانه - فلا يوالي أحدًا من ذلٍّ ولا من حاجة.

قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، فلم يَنْفِ الوليَّ نفيًا عامًا مطلقًا، بل نفى أن يكون له وليٌّ من الذلِّ، وأثبت في موضع آخر أن له أولياء، بقوله: ﴿إِلَّا إِبْرَاهِيمَ أَوْلِيَائِهِ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، وقوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فهذه موالاةٌ رحمةً

(١) قاله أبو عبيدة في «مجاز القرآن» (١/ ٢٠٠).

(٢) (ح، ن): «رزق بها».

وإحسانٍ وجَبْرٍ، والموالاةُ المنفيةُ موالاةُ حاجةٍ وذُلِّ.

يُوضَّحُ هذا الوجهُ السادسُ والثلاثونُ بعد المئة: وهو ما رُوي عن النبي ﷺ من وجوهٍ متعدِّدة أنه قال: «يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خلفٍ عدولُهُ، ينفون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين»^(١).

فهذا الحملُ المشارُ إليه في هذا الحديث هو التوكُّلُ المذكورُ في الآية، فأخبر ﷺ أن العلمَ الذي جاء به يحملُهُ عدولُ أُمَّته من كلِّ خلفٍ، حتى لا يضيعَ ويذهب.

وهذا يتضمَّنُ تعديله ﷺ لحملة العلم الذي بُعثَ به، وهو المشارُ إليه في قوله: «هذا العلم»، فكلُّ من حمَلَ العلمَ المشارَ إليه لا بدَّ وأن يكونَ عدلاً^(٢)، ولهذا اشتهر عند الأُمَّة عدالةُ نَقْلته وحملته اشتهاراً لا يقبلُ شكاً ولا أمراء^(٣).

ولا ريب أنَّ من عدَّله رسولُ الله ﷺ لا يُسمَعُ فيه جرح؛ فالأئمةُ الذين اشتهروا عند الأُمَّة بنقل العلم النبويِّ وميراثه كلُّهم عدولٌ بتعديل رسول الله ﷺ، ولهذا لا يُقبلُ قَدْحُ بعضهم في بعض، وهذا بخلاف من اشتهر عند

(١) سيأتي تخريجه مفصلاً قريباً.

(٢) فيكتفى فيهم بالعدالة الظاهرة حتى يأتي ما ينقضها. وإلى هذا ذهب ابن عبد البر، وابن المواق، والذهبي، وابن سيد الناس، وابن الوزير، وغيرهم. وعليه العمل عند أهل الحديث فيمن تعدَّر العلم بعدالته الباطنة من الرواة. انظر: «فتح المغيث» (١٨/٢)، و«التمهيد» (٢٨/١)، و«جامع بيان العلم» (١٠٩٣/٢)، و«العواصم والقواصم» (٣٠٧/١)، وما مضى (ص: ١٣١).

(٣) (ت): «مرء».

الأمّة جرحه والقدح فيه، كأثمة البدع ومن جرى مجراهم من المتهمين في الدين، فإنهم ليسوا عند الأمّة من حملة العلم.

فما حمل علم رسول الله ﷺ إلا عدل، ولكن قد يُغلط في مسمّى العدالة، فيُظنُّ أنّ المراد بالعدل من لا ذنب له، وليس كذلك، بل هو عدل مؤتمن على الدين، وإن كان منه ما يتوب إلى الله منه، فإنّ هذا لا ينافي العدالة كما لا ينافي الإيمان والولاية.

فصل

وهذا الحديث له طرق عديدة:

* منها: ما رواه ابن عدي^(١)، عن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جدّه جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي، عن النبي ﷺ.

* ومنها: ما رواه العوّام بن حوشب، عن شهر بن حوشب، عن معاذ، عن النبي ﷺ. ذكره الخطيب^(٢) وغيره.

* ومنها: ما رواه ابن عدي^(٣) من حديث الليث بن سعد، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سالم، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ.

(١) في «الكامل» (١/ ١٤٥). وإسناده شديد الضعف، والآفة فيه من الراوي عن موسى، كما بين ذلك ابن عدي في (٦/ ٣٠١).

(٢) في «شرف أصحاب الحديث» (١٤). وإسناده شديد الضعف، مسلسل بالعلل، بدءاً بشيخ الخطيب المتهم بالكذب، إلى الانقطاع بين شهر ومعاذ.

(٣) في «الكامل» (١/ ١٤٥)، وتمام في «الفوائد» (٨٠ - الروض). وإسناده موضوع، كما شرحه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣١).

* ومنها: ما رواه محمد بن جرير الطبري^(١) من حديث أبني كريمة، عن مُعان بن رفاعة السَّلامي، عن أبي عثمان النهدي، عن أسامة بن زيد، عن النبي ﷺ.

* ومنها: ما رواه حماد بن زيد، عن بقية بن الوليد، عن مُعان بن رفاعة، عن إبراهيم بن عبد الرحمن العُدري، قال: قال رسولُ الله ﷺ^(٢).

قال الدارقطني: حدثنا أحمد بن الحسن: حدثنا هاشم بن القاسم: حدثنا مثنى بن بكر ومُبَشَّرٌ وغيرهما من أهل العلم، كلُّهم يقولون: حدثنا مُعان بن رفاعة، عن إبراهيم بن عبد الرحمن، عن النبي ﷺ^(٣).

يعني أنَّ المحفوظ من هذا الطَّرِيق مرسل؛ لأنَّ إبراهيم هذا لا صحبة له^(٤).

(١) ومن طريقه الخطيبُ في «شرف أصحاب الحديث» (٥٣)، والعلائي في «بغية الملتبس» (٣٤). وإسناده منكر؛ ابنُ أبي كريمة ضعيف، وقد خالف جماعةً من الثقات رَوَوْه عن معان بن رفاعة عن إبراهيم العذري مرسلًا، كما سيأتي. واشتبهُ ابنُ أبي كريمة على العلائي براو آخر ثقة؛ فصَحَّ الحديث.

(٢) أخرجه ابن حبان في «الثقات» (١٠/٤)، وابن عدي في «الكامل» (١١٨/١)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٥٥)، وغيرهم.

ومُعان بن رفاعة مختلفٌ فيه، وقد خولف في حديثه هذا، فرواه الوليد بن مسلم - وهو ثقةٌ، وقد صرَّح بالسماع - عن إبراهيم العذري، عن الثقة من أشياخنا، عن النبي ﷺ. أخرجه ابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (٢)، وابن عدي في «الكامل» (١٤٧/١).

(٣) أخرجه من هذا الوجه ابن عساكر (٣٨/٧). وانظر: «الجرح والتعديل» (١٧/٢).

(٤) وهذا هو الصواب، فالحديث إنما يحفظُ من هذا الطريق مرسلًا، وسائر الروايات المرفوعة معلولةٌ منكراً لا تصلحُ لتقويته. وإلى هذا ذهب جماعةٌ من الحفاظ، =

وقال الخلال في كتاب «العلل»^(١): «قرأتُ على زهير بن صالح بن أحمد: حدثنا مهنا، قال: سألتُ أحمد عن حديث مُعان بن رفاعه، عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يحملُ هذا العلمُ من كلِّ خلفٍ عدولُهُ، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»، فقلتُ لأحمد: كأنه كلامٌ موضوع؟^(٢) قال: لا، هو صحيح. فقلت: ممَّن سمعته أنت؟ فقال: من غير واحد. قلت: من هم؟ قال: حدثني به مسكين، إلا أنه يقول: عن مُعان، عن القاسم بن عبد الرحمن. قال أحمد: ومُعان بن رفاعه لا بأس به».

* ومنها: ما رواه أبو صالح: حدثنا الليث بن سعد، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيَّب، عن عبد الله بن مسعود، قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «يَرِثُ هذا العلمُ من كلِّ خلفٍ عدولُهُ»^(٣).

= كالدارقطني، والعقيلي، وابن كثير، والعراقي، وغيرهم. انظر: «المقنع» لابن الملقن (١/٢٤٦)، و«الضعفاء» (٤/٢٥٦)، و«مختصر علوم الحديث» (١/٢٨٣ - الباعث الحثيث)، و«التقييد والإيضاح» (١١٦)، و«محاسن الاصطلاح» (٢٨٩). وكلامُ الإمام أحمد الآتي لا يعارضُ هذا؛ لأنه إنما صحَّحه عن إبراهيم العذري، لا عن النبي ﷺ.

ومع إرسال هذه الرواية، فإبراهيمُ العذري لا يُدرى من هو، كما قال الذهبي في «الميزان» (١/٤٥)، ولا يُعرَف في غير هذا الحديث. انظر: «بيان الوهم والإيهام» (٣/٤٠). وأشياؤه - على رواية الوليد بن مسلم السالفة، وهي أصح - مجهولون.

- (١) وأخرج النصُّ من طريقه الخطيبُ في «شرف أصحاب الحديث» (٥٦).
- (٢) (ح، ن): «كأنه موضوع». والمثبت من (ت، د، ق) و«شرف أصحاب الحديث».
- (٣) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٥٤). وإسناده ضعيفٌ مسلسلٌ بالعلل؛ فيه ثلاثة ضعفاء في نسق.

* ومنها: ما رواه أبو أحمد ابن عدي^(١) من حديث رُزَيْق أبي عبد الله^(٢) الألهاني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبي أمامة الباهلي، قال: «قال رسول الله ﷺ». رواه عنه بقية.

* ومنها: ما رواه ابن عدي^(٣) أيضًا من طريق مروان الفزاري، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ.

* ومنها: ما رواه تَمَّام في «فوائده»^(٤) من حديث الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير، عن أبي قَيْل، عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة. رواه عنه خالد بن عمرو.

* ومنها: ما رواه القاضي إسماعيل^(٥) من حديث علي بن مسلم

(١) في «الكامل» (١/١٤٦)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/٩). وإسناده ضعيف، وفيه اضطراب. انظر: «مشكل الآثار» للطحاوي (١٠/١٧).

(٢) (ح، ن): «رزيق بن عبد الله». وهو تحريف.

(٣) في «الكامل» (١/١٤٦). وإسناده ضعيف، وفي روايته من لم أعرفه، وقد أشار ابن عدي إلى غرابته. وأبو حازم هو سلمان الأشجعي صاحب أبي هريرة.

(٤) والبزار (١٤٣ - كشف الاستار)، والعقيلي في «الضعفاء» (١/١٠). وإسناده موضوع. انظر: «الكامل» لابن عدي (٣/٣١). وقد تقدم هذا الإسناد من رواية ابن عمر، وهي التي أخرجها تَمَّام في «الفوائد» (٨٠).

(٥) والطبراني في «مسند الشاميين» (١/٣٤٤) - ومن طريقه الخطيب في «الجامع» (١/١٩٣) -، وابن عدي في «الكامل» (١/١٤٦) - ومن طريقه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٥٢) -، والهروي في «ذم الكلام» (٧٠٥)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣/٢٣٦). وإسناده ضعيف جدًا؛ فيه راوٍ متروك، وآخر لم أقف فيه على توثيق. وانظر: «ذخيرة الحفاظ» (٢٧٧٨).

البكري^(١)، عن أبي صالح الأشعري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.
 الوجه السابع والثلاثون بعد المئة: أن بقاء الدِّين والدنيا في بقاء العلم،
 وبذهاب العلم تذهب الدنيا والدِّين، فقوامُ الدِّين والدنيا إنما هو بالعلم.
 قال الأوزاعي: قال ابن شهاب الزهري: «الاعتصامُ بالسُّنة نجاة، والعلمُ
 يُقبَضُ قبْضًا سريعًا، فنَعُشُ العلم^(٢) ثباتُ الدِّين والدنيا، وذهابُ العلم
 ذهابُ ذلك كلِّه»^(٣).

وقال ابن وهب: أخبرني ابن يزيد^(٤)، عن ابن شهاب قال: «بلغنا عن
 رجالٍ من أهل العلم أنهم كانوا يقولون: الاعتصامُ بالسُّنة نجاة، والعلمُ
 يُقبَضُ قبْضًا سريعًا، فنَعُشُ العلم ثباتُ الدِّين والدنيا، وذهابُ العلم ذهابُ
 ذلك كلِّه»^(٥).

الوجه الثامن والثلاثون بعد المئة: أن العلمَ يرفعُ صاحبه في الدنيا
 والآخرة ما لا يرفعه المُلْكُ ولا المالُ ولا غيرهما، فالعلمُ يزيدُ الشريفَ

(١) في الأصول: «البلوي». تحريف. ترجمته في «تاريخ دمشق» (٤٣ / ٢٣٥)، ولم
 يحك فيه جرحًا أو تعديلاً.

(٢) أي: بقاءه ورفعة شأنه. «اللسان» (نعش).

(٣) أخرجه الدارمي (٩٦)، واللالكائي في «السنة» (١٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية»
 (٣ / ٣٦٩)، وغيرهم.

(٤) (د، ت، ق): «أخبرني يزيد». خطأ. وهو يونس بن يزيد الأيلي صاحبُ الزهري، وقد
 ورد مصرَّحًا به في مصادر التخريج.

(٥) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (٥٤٦)، والذهبي في «السير» (١٨ / ٣٤٣). وتابع
 ابن وهب: ابنُ المبارك في «الزهد» (٨١٧)، والليثُ بن سعد في «السنة» لللالكائي
 (١٣٧)، و«المعرفة والتاريخ» (٣ / ٣٧٣).

شرفاً، ويرفعُ العبدَ المملوكَ حتَّى يُجْلِسَهُ مجالسَ الملوك، كما ثبت في «الصحيح»^(١) من حديث الزهري، عن أبي الطفيل، أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعُسفان - وكان عمر أستمه على أهل مكة - فقال له عمر: من أستخلفت على أهل الوادي؟ قال: أستخلفت عليهم ابن أبزى، فقال: ومن ابن أبزى؟ فقال: رجلٌ من موالي، فقال عمر: أستخلفت عليهم مولى؟! فقال: إنه قارىءٌ لكتاب الله عالمٌ بالفرائض، فقال عمر: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفعُ بهذا الكتابِ أقوامًا ويضعُ به آخرين».

قال أبو العالية: كنتُ آتي ابنَ عباس وهو على سريرهِ^(٢) وحوله قريش، فيأخذُ بيدي فيجلسني معه على السرير، فتغامزُ بي^(٣) قريش، ففطنَ لهم ابنُ عباس فقال: كذا هذا العلم، يزيدُ الشريفَ شرفاً ويجلسُ المملوكَ على الأُسرة^(٤).

وقال إبراهيم الحربي: كان عطاءُ بن أبي رباح عبداً أسودَ لامرأةٍ من أهل مكة، وكان أنفه كأنه باقلاة.

قال: وجاء سليمانُ بن عبد الملك أميرُ المؤمنين إلى عطاء هو وابناه، فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما صلى أنفتل إليهم، فما زالوا يسألونه عن

(١) «صحيح مسلم» (٨١٧).

(٢) قال الذهبي في «السير» (٢٠٨/٤): «هذا كان سرير دار الإمرة، لما كان ابنُ عباس متولياً لعلِّي رضي الله عنهما». يعني: إمارة البصرة.

(٣) (ت): «فتغامز». وفي (ن): «فتغامزني».

(٤) أخرجه البيهقي في «المدخل» (٣٩٨)، وغيره. وفي (ن): «ويجلس المملوك على أسرة الملوك».

مناسك الحجّ وقد حَوَّلَ قفاه إليهم، ثمّ قال سليمان لابنيه: قُوما، فقاما، فقال: يا بَنِيَّ، لا تَنِيّا في طلب العلم؛ فإني لا أنسى دُلّنا بين يدي هذا العبد الأسود.

قال الحربي: وكان محمد بن عبد الرحمن الأوقص^(١) عنقه داخل في بدنه، وكان منكبه خارجين كأنهما رُجَّان^(٢)، فقالت له أمّه: يا بنيّ، لا تكون في مجلس قوم إلا كنت المضحوك منه المسخور به، فعليك بطلب العلم فإنه يرفعك. فولّي قضاء مكة عشرين سنة.

قال: وكان الخصم إذا جلس إليه بين يديه يرُعد حتى يقوم.

قال: ومَرَّت به امرأةٌ يومًا وهو يقول: اللهم أعتق رقبتني من النار، فقالت له: يا أبن أخي، وأيُّ رقية لك؟! (٣).

وقال يحيى بن أكثم: قال الرشيد: ما أنبل المراتب؟ قلت: ما أنت فيه يا أمير المؤمنين. قال: فتعرف أجَلَ مني؟ قلت: لا. قال: لكنني أعرفه؛ رجل في حلقة يقول: حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله ﷺ. قال: قلت: يا أمير المؤمنين، أهذا خيرٌ منك وأنت ابن عمّ رسول الله ﷺ ووليّ عهد المسلمين؟! قال: نعم، ويليّك، هذا خيرٌ مني؛ لأنّ أسَمه مقترنٌ باسم رسول الله، لا يموت أبدًا، ونحن نموت ونفنى، والعلماء باقون ما بقي الدهر (٤).

(١) المخزومي القرشي (ت: ١٦٩). ترجمته في «تاريخ دمشق» (١٠٢/٥٤)، و«أخبار القضاة» لوكيع (١/٢٦٤)، وغيرهما.

(٢) الرُّج: الحديدة التي في أسفل الرمح. «اللسان» (زجج).

(٣) أخرج النصّ بطوله (خبر عطاء، والأوقص) عن الحربي الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/١٤٠).

(٤) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٢١٩).

وقال خيثمة بن سليمان: سمعت أبن أبي الخناجر يقول: كنّا في مجلس يزيد بن هارون، والناس قد اجتمعوا، فمرّ أمير المؤمنين فوقف علينا في المجلس، وفي المجلس ألوف، فالتفت إلى أصحابه، وقال: هذا المُلْكُ^(١).

وفي «تاريخ بغداد»^(٢) للخطيب: حدثني أبو النجيب عبد الغفار بن عبد الواحد، قال: سمعت الحسن بن علي المقرئ يقول: سمعت أبا الحسين بن فارس يقول: سمعت الأستاذ أبن العميد يقول: ما كنت أظن أن في الدنيا حلاوة ألذ من الرئاسة والوزارة التي أنا فيها، حتى شهدت مذاكرة سليمان بن أيوب بن أحمد الطبراني وأبي بكر الجعابي بحضرتي، فكان الطبراني يغلب الجعابي بكثرة حفظه، وكان الجعابي يغلب الطبراني بفطنته وذكاء أهل بغداد، حتى ارتفعت أصواتهما ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه، فقال الجعابي: عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي، فقال: هاته، فقال: حدثنا أبو خليفة: حدثنا سليمان بن أيوب، وحدث بالحديث، فقال الطبراني: أنا سليمان^(٣) بن أيوب ومنّي سمع أبو خليفة، فاسمع منّي حتى يعلو إسنادك، فإنك تروي عن أبي خليفة عنّي! فحجل الجعابي وعَلَبَ الطبراني.

قال أبن العميد: فوددت في مكاني أن الوزارة والرئاسة ليتها لم تكن لي

(١) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٢٢٠).

(٢) لم أره في مطبوعته. وهو في «الجامع» للخطيب (٤١٣/٢)، ومن طريقه رواه جماعة. والقصة في «التدوين في أخبار قزوين» (٨١/٢) في سياق ممتع.

(٣) في «سير أعلام النبلاء» (١٢٤/١٦)، و«طبقات الحنابلة» (٩٤/٣): «أخبرنا سليمان»، وهو من تصرّف النسخ أو المحققين، ظنوا «أنا» في هذا الموضع اختصاراً لـ «أخبرنا». وهو مفسدٌ للمعنى كما ترى.

وكنْتُ الطبراني، وفرحتُ مثل الفرخ الذي فرح به الطبراني لأجل الحديث.
أو كما قال.

وقال المزني: سمعتُ الشافعيَّ يقول: «من تعلَّم القرآنَ عَظُمَت قيمَتُهُ،
ومن نظر في الفقه نَبَلَ مقداره، ومن تعلَّم اللغة رَقَّ طبعه، ومن تعلَّم
الحساب جَزُل رأيه، ومن كتب الحديث قَوِيَت حُجَّتُهُ، ومن لم يَصُنْ نفسه
لم ينفعه علمه»^(١).

وقد رُوي هذا الكلامُ عن الشافعيِّ من وجوه متعدِّدة^(٢).

وقال سفيان الثوري: «من أراد الدنيا والآخرة فعليه بطلب العلم».

وقال عبد الله بن داود: سمعت سفيان الثوري يقول: «إنَّ هذا الحديثَ
عِزٌّ، فمن أراد به الدنيا وجدها، ومن أراد به الآخرة وجدها»^(٣).

وقال النضر بن شُمَيْل: «من أراد أن يَشْرُفَ في الدنيا والآخرة فليَتعلَّم
العلم، وكفى بالمرء سعادةً أن يوثقَ به في دين الله، ويكونَ بين الله وبين
عباده»^(٤).

(١) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (٢٨٢/١)، و«المدخل» (٥١١)، والخطيب
في «تاريخ بغداد» (٢٧٦/٧)، و«الفقيه والمتفقه» (١٥١/١)، وابن عساكر في
«تاريخ دمشق» (٣/١٣).

(٢) من رواية الربيع بن سليمان، ويونس بن عبد الأعلى، وغيرهما. انظر: «تاريخ بغداد»
(٦/١١)، و«تاريخ دمشق» (٩٥/١٣، ٥١/٤٠٩).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٥٨/١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٦٦/٦)،
والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١٣١).

(٤) «تاريخ الإسلام» (٢٠٨/٥). ورُوي آخره مرفوعاً في حديث لا يصح. انظر:
«الميزان» (٦٠٥/٢).

وقال حمزة بن سعيد المصري: لَمَّا حَدَّثَ أَبُو مُسْلِمٍ الْكَجِّيَّ (١) أَوَّلَ يَوْمٍ حَدَّثَ قَالَ لِابْنِهِ: كَمْ فَضَّلَ عِنْدَنَا مِنْ أَثْمَانٍ غَلَّاتِنَا؟ قَالَ: ثَلَاثُ مِائَةِ دِينَارٍ (٢)، قَالَ: فَرَّقَهَا عَلَى أَصْحَابِ الْحَدِيثِ وَالْفُقَرَاءِ شُكْرًا أَنَّ أَبَاكَ الْيَوْمَ شَهِدَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَبِلْتَ شَهَادَتَهُ (٣).

وفي كتاب «الجليس والأنيس» (٤) لأبي الفرج المعافى بن زكريا الجريري: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ (٥) بَنُ دُرَيْدٍ: حَدَّثَنَا أَبُو حَاتِمٍ، عَنِ الْعُتْبِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَبْتَنِي مُعَاوِيَةَ بِالْأَبْطَحِ مَجْلِسًا، فَجَلَسَ عَلَيْهِ وَمَعَهُ ابْنَةُ قَرْظَةَ (٦)، فَإِذَا هُوَ بِجَمَاعَةٍ عَلَى رَحَالٍ لَهُمْ، وَإِذَا شَابٌّ مِنْهُمْ قَدْ رَفَعَ عَقِيرَتَهُ يَتَغَنَّى:

مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَاجِدًا يَمْلَأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ (٧)
قال: من هذا؟ قالوا: عبد الله بن جعفر، قال: خلُّوا له الطريق.

(١) (ت، ح): «اللخمي». وهو تحريف. وهو الإمام الحافظ، إبراهيم بن عبد الله، صاحب «السنن» (ت: ٢٩٢). انظر: «السير» (١٣ / ٤٢٣).

(٢) في «السير»، و«تاريخ بغداد» (٦ / ١٢٢) أنه تصدَّق بعشرة آلاف درهم.

(٣) أخرجه ابنُ عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٣ / ٢٨٠). وفي «السير» (١٩ / ٢٧٧) خبرٌ آخر في هذا المعنى.

(٤) «الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي» (٣ / ١٨١). وهو في «جمهرة نسب قريش» (٢ / ٧٨٨) بإسنادٍ آخر.

(٥) (ت، ح، ن): «الحسين». تحريف.

(٦) فاختة بنت قرظة بن عبد عمرو بن نوفل بن عبد مناف، زوج معاوية.

(٧) الْكَرْبُ: الْجَبَلُ الَّذِي يُشَدُّ عَلَى الدَّلْوِ. «اللسان» (كرب). والبيت للفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب.

ثُمَّ إِذَا هُوَ بِجَمَاعَةٍ فِيهِمْ غَلَامٌ يَتَغَنَّى:

بَيْنَمَا يَذْكُرُنِي أَبْصَرْنِي عِنْدَ قَيْدِ الْمِيلِ يَسْعَى بِي الْأَعْرَ
قَلَنْ: تَعْرِفَنَّ الْفَتَى؟ قَلَنْ: نَعَمْ قَدْ عَرَفْنَاهُ، وَهَلْ يَخْفَى الْقَمْرُ
قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، قَالَ: خَلُّوْا لَهُ الطَّرِيقَ، فَلْيَذْهَبْ.

قَالَ: ثُمَّ إِذَا هُوَ بِجَمَاعَةٍ، وَإِذَا فِيهِمْ رَجُلٌ يُسْأَلُ، يُقَالُ [لَهُ]: رَمِيتُ قَبْلَ أَنْ
أَحْلُقَ؟ وَحَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ؟ فِي أَشْيَاءَ أَشْكَلْتُ عَلَيْهِمْ مِنْ مَنَاسِكَ الْحَجِّ
فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، فَالْتَفَتَ إِلَى ابْنَةِ قَرْظَةَ، وَقَالَ: هَذَا
وَأَبِيكَ الشَّرَفُ، هَذَا وَاللَّهِ شَرَفُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَقَالَ سَفِيَانُ بْنُ عَيِّنَةَ: «أَرْفَعُ النَّاسَ مَنَزَلَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ كَانَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ
عِبَادِهِ؛ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالْعُلَمَاءُ»^(١).

وَقَالَ سَهْلُ التُّسْتَرِيِّ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَجَالِسِ الْأَنْبِيَاءِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى
مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ، يَجِيءُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، أَيَشِيْ تَقُولُ فِي رَجُلٍ حَلَفَ
عَلَى أَمْرَاتِهِ بِكَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: طَلَّقْتُ أَمْرَاتِهِ، وَيَجِيءُ آخَرُ فَيَقُولُ: حَلَفْتُ
بِكَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: لَيْسَ تَحْتُ بِهَذَا الْقَوْلِ. وَلَيْسَ هَذَا إِلَّا لِنَبِيِّ أَوْ عَالِمٍ،
فَاعْرِفُوا لَهُمْ ذَلِكَ»^(٢).

الْوَجْهُ التَّاسِعُ وَالثَّلَاثُونَ بَعْدَ الْمِئَةِ: أَنَّ النُّفُوسَ الْجَاهِلَةَ الَّتِي لَا عِلْمَ
عِنْدَهَا قَدْ أَلْبَسَتْ ثَوْبَ الذَّلِّ، وَالْإِزْرَاءُ عَلَيْهَا وَالتَّنْقِصُ بِهَا أَسْرَعُ مِنْهُ إِلَى
غَيْرِهَا، وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ.

(١) تقدم تخريجه (ص: ٣٣٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٣٣١).

قال الأعمش: «إني لأرى الشيخ لا يروي شيئاً من الحديث فأشتهي أن ألطمه»^(١).

وقال أبو معاوية: سمعتُ الأعمش يقول: «من لم يطلب الحديث أشتهي أن أصفّعه بنعلي»^(٢).

وقال عثام بن علي: سمعتُ الأعمش يقول: إذا رأيتَ الشيخَ لم يقرأ القرآنَ ولم يكتب الحديثَ فاصفّعه له^(٣)، فإنه من شيوخ القمراء. قال أبو صالح^(٤): قلت لأبي جعفر: ما شيوخ القمراء؟ قال: شيوخُ دُهرِيون^(٥)، يجتمعون في ليالي القمر يتذكرون أيام الناس، ولا يُحسِنُ أحدُهم أن يتوضَّأ للصلاة^(٦).

وكان سفيانُ الثوري إذا رأى الشيخَ لم يكتب الحديثَ قال: «لا جزاك الله خيراً عن الإسلام»^(٧).

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/٩).

(٢) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٣١٩).

(٣) (ت): «فاصفعه». وكلاهما جائز. والصفّعُ كلمةٌ مؤلّدة، وهو ضربُ القفا بالكفِّ مبسوطةً. انظر بحثاً طريفاً حوله في «موسوعة العذاب» للشالحي (٢/١٥٩ - ٢١٦)، وتعليقه على «الفرج بعد الشدة» للتنوخي (٣/١٨٩).

(٤) الطرسوسي. وشيخه أبو جعفر محمد بن عقبة. من رجال إسناده هذا الخبر.

(٥) الدُهرِيُّ - بضمّ الدال - : الرجلُ المُسنُّ. ويفتحها: المُلجِد. «الصحاح».

(٦) أخرجه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (٢٠٤)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١٤٢).

(٧) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/٣٦٥)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١٤١)، والهروي في «ذم الكلام» (٩٠٧)، وغيرهم. والخبر ليس في (د، ق، ت).

وقال المزني: «كان الشافعيُّ إذا رأى شيخاً سألَهُ عن الحديث والفقه، فإن كان عنده شيء، وإلا قال له: لا جزاك الله خيراً عن نفسك ولا عن الإسلام؛ قد ضيّعتَ نفسك وضيّعتَ الإسلام».

وكان بعضُ خلفاء بني العباس يلعبُ بالشطرنج، فاستأذن عليه عمُّه، فأذن له وغطَّى الرُّقعة، فلما جلس قال له: يا عم، هل قرأت القرآن؟ قال: لا، قال: فهل كتبت شيئاً من السُّنة؟ قال: لا، قال: فهل نظرت في الفقه واختلاف الناس؟ قال: لا، قال: فهل نظرت في العربية وأيام الناس؟ قال: لا، فقال الخليفة: أكشف الرُّقعة. ثم أتمَّ اللعب، وزال احتشامُه وحياءُه منه، فقال له مُلاعِبُه: يا أمير المؤمنين تكشفها ومعنا من تحتشُمُ منه^(١)؟! قال: أسكت، فما معنا أحداً^(٢).

وهذا لأنَّ الإنسان إنما يتميَّز عن سائر الحيوان بما خُصَّ به من العلم والعقل والفهم، فإذا عَدِمَ ذلك لم يَبْقَ فيه إلا القَدْرُ المشتركُ بينه وبين سائر الحيوانات، وهو الحيوانيةُ البهيمة، ومثلُ هذا لا يستحيي منه الناس ولا يمتنعون بحضرته وشهوده مما يُستحيي منه من^(٣) أولي الفضل والعلم.

الوجه الأربعون بعد المئة: أنَّ كلَّ صاحب بضاعةٍ سوى العلم إذا عَلِمَ

(١) (ق): «نحتشم منه». والحرف الأول مهمل في (ن، ت، ح).

(٢) القصة في أمالي يحيى بن الحسين الشجري (٣١٢/٢)، والخليفة فيها سليمان بن عبد الملك. ونسبت للوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان ولي عهد خلافة هشام، في «الجلسيس والأنيس» (٨٧/٤)، و«عيون الأخبار» (١٢٠/٢)، و«التذكرة الحمدونية» (٢٩٣/٣)، و«تاريخ دمشق» (٢٠٤/٦٨)، و«محاضرات الأدباء» (٦٥/١)، وغيرها.

(٣) «من» ليست في (ت، ق).

أَنَّ غَيْرَ بضاعته خَيْرٌ مِنْهَا زَهْدًا فِي بضاعته وَرَغَبٌ فِي الْآخِرَىٰ وَوَدَّ أَنَّهُ لَا
عَوَضَ بِبضاعته، إِلَّا صَاحِبَ بضاعَةِ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ يَحِبُّ أَنْ لَهُ بِحِظُهُ مِنْهَا
خَطَرًا أَصْلًا^(١).

قال أبو جعفر الطحاوي: كنت عند أحمد بن أبي عمران^(٢)، فمرَّ بنا
رجُلٌ من بني الدنيا، فنظرتُ إليه وشُغِلْتُ به عما كنتُ فيه من المذاكرة، فقال
لي: كأنني بك قد فكَّرتَ فيما أُعْطِيَ هذا الرجلُ من الدنيا. قلتُ له: نعم. قال:
هل أدلُّك على خَلَّةٍ؟ هل لك أن يحوِّلَ اللهُ إليك ما عنده من المال ويحوِّلَ
إليه ما عندك من العلم، فتعيش أنت غنيًّا جاهلًا ويعيش هو عالمًا فقيرًا؟
فقلت: ما أختارُ أن يحوِّلَ اللهُ ما عندي من العلم إلى ما عنده.
فالعِلْمُ غَنَىٌ بِلَا مَالٍ، وَعِزٌّ بِلَا عَشِيرَةٍ، وَسُلْطَانٌ بِلَا رِجَالٍ.

وفي ذلك قيل:

الْعِلْمُ كَنْزٌ وَذُخْرٌ لَا نَفَادَ لَهُ	نَعَمْ الْقَرِينُ إِذَا مَا صَاحِبٌ صَحِيبًا
قَدْ يَجْمَعُ الْمَرْءُ مَا لَا تَمَّ يُحَرِّمُهُ	عَمَّا قَلِيلٍ فَيَلْقَى الدَّلَّ وَالْحَرَبَا
وَجَامِعُ الْعِلْمِ مَغْبُوطٌ بِهِ أَبَدًا	وَلَا يُحَاذِرُ مِنْهُ الْقَوْتُ وَالسَّلْبَا
يَا جَامِعَ الْعِلْمِ نَعَمْ الذُّخْرُ تَجْمَعُهُ	لَا تَعْدِلَنَّ بِهِ دُرًّا وَلَا ذَهَبًا ^(٣)

(١) أي: عَوَضًا ومثيلاً. «اللسان» (خطر). واستعمال الخطر بهذا المعنى كثير الورود في

كتب المصنف. وانظر التعليق على «طريق الهجرتين» (٨٦).

(٢) شيخ الحنفية، كان من بحور العلم، لازمه الطحاوي وتفقه به (ت: ٢٨٠). انظر:
«السير» (١٣/ ٣٣٤).

(٣) الأبيات لأبي الأسود الدؤلي، في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٧٥)، و«نور القبس» (١٢)،
و«تاريخ دمشق» (٢٥/ ٢١٠)، وغيرها. وهي في مستدرک دیوانه (٣٨٣). وتنسب
لغيره.

الوجه الحادي والأربعون بعد المئة: أن الله سبحانه أخبر أنه يجزي المحسنين أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، وأخبر سبحانه أنه يجزي على الإحسان بالعلم؛ وهذا يدل على أنه من أحسن الجزاء.

* أما المقام الأول؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِٗٓ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٣٣) ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥]، وهذا يتناول الجزاءين الدنيوي والأخروي.

* وأما المقام الثاني؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

قال الحسن: «من أحسن عبادة الله في شبابه لقاء الله الحكمة في شبابه» (١)، وذلك قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢).

ومن هذا قول بعض العلماء: «تقول الحكمة: من ألتمسني فلم يجدني فليعمل بأحسن ما يعلم، وليترك أقبح ما يعلم، فإذا فعل ذلك فأنا معه وإن لم يعرفني» (٣).

(١) (د): «شبه». «عيون الأخبار»: «سنه»، تحريف. (ح، ن) و«المجالسة»: «عند كبر سنه». «الموضح»: «في بلوغ أشده». والأثر ساقط من (ت).

(٢) «عيون الأخبار» (١٢٢/٢). وهو مصدر المصنف. وأخرجه الخطيب في «الموضح» (٢٥٣/٢)، والدينوري في «المجالسة» (٣١٥، ٢٥٩٧).

(٣) «عيون الأخبار» (١٢٢/٢). وأخرج نحوه أبو نعيم في «الحلية» (٢٥١/٥) عن يونس بن ميسرة.

الوجه الثاني والأربعون بعد المئة: أنَّ الله سبحانه جعل العلم للقلوب
كالمطر للأرض، فكما أنه لا حياة للأرض إلا بالمطر، فكذلك لا حياة
للقلب إلا بالعلم.

وفي «الموطأ»^(١): «قال لقمان لابنه: يا بني، جالس العلماء وزاحمهم
بركبتك؛ فإنَّ الله تعالى يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيي^(٢)
الأرض بوابل المطر».

ولهذا، الأرض إنما تحتاج إلى المطر في بعض الأوقات، فإذا تتابع
عليها أحتاجت إلى أنقطاعه، وأما العلم فيحتاج إليه القلب بعدد الأنفاس،
ولا يزيده كثرتُه إلا صلاحًا ونفعًا.

الوجه الثالث والأربعون بعد المئة: أنَّ كثيرًا من الأخلاق التي لا تُحَمَدُ
في الشخص، بل يُدَّمُّ عليها، تُحَمَدُ في طلب العلم؛ كالمَلَقِ^(٣)، وترك
الاستحياء، والدُّل، والتردد إلى أبواب العلماء، ونحوها.

قال ابن قتيبة^(٤): جاء في الحديث: «ليس المَلَقُ من أخلاق المؤمنين

(١) «موطأ مالك» (٢٨٥٩) بلاغًا. وأخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٣٨٧)، والبيهقي
في «المدخل» (٤٤٥)، وابن عبد البر في «الجامع» (٤٣٨/١، ٤٣٩) من طرق عن
جماعة من السلف.

ورؤي مرفوعًا عند الطبراني في «الكبير» (٢٣٥/٨) من حديث أبي أمامة بإسنادٍ
ضعيف جدًا.

(٢) مهملة في (د). (ت، ن) وبعض المصادر: «تحيى».

(٣) وهو الزيادة في التودُّد والتلطُّف فوق ما ينبغي. «اللسان» (ملق).

(٤) «عيون الأخبار» (١٢٢/٢).

إلا في طلب العلم»^(١).

وهذا أثر عن بعض السلف.

وقال ابن عباس: «ذلت طالبا فعزتُ مطلوباً»^(٢).

وقال: «وجدتُ عامة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحي من الأنصار، إن كنتُ لأقيل عند باب أحدهم، ولو شئتُ أذن لي، ولكن أبتغي بذلك طيب نفسه»^(٣).

وقال أبو إسحاق: قال علي: «كلماتٌ لو رَحَلْتُ المَطِيَّ فيهنَّ لأنْصَيْتُموهنَّ»^(٤) قبل أن تدركوا مثلهنَّ: لا يرجونَّ عبد إلا ربَّه، ولا يخافنَّ إلا ذنبه، ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلَّم، ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم^(٥)، واعلموا أنَّ منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، وإذا ذهب الصبر ذهب

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢/ ٢٩٨)، والبيهقي في «الشعب» (٨/ ١٥٩)، وغيرهما من حديث معاذ بن جبل بإسنادٍ ضعيفٍ جداً.

وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات» (٤٣٦).

وروي من وجوه أخرى لا يصحُّ منها شيء. انظر: «السلسلة الضعيفة» (٣٨٠، ٣٨١).

(٢) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٢). وأخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٦٣٥). وهو في «الجامع» لابن عبد البر (١/ ٤٧٤)، وغيره.

(٣) «عيون الأخبار» (٢/ ١٢٢). وأخرجه أبو خيثمة في «العلم» (١٣٣)، والدارمي (٥٦٧)، والبيهقي في «المدخل» (٦٧٤)، وغيرهم بإسنادٍ حسن.

(٤) أتعبتموهنَّ وأهزَلتموهنَّ. وتحرَّفت على أنحاء. «ح»: «لأنقيتموهنَّ». (ت): «لأنطيتموهنَّ». (ط): «لأنفيتموهنَّ». «عيون الأخبار»: «لا تصيبوهنَّ».

(٥) (ت، ن، ح): «لا أعلم». والمثبت من (د، ق) و«عيون الأخبار».

الإيمان»^(١).

ومن كلام بعض العلماء: «لا ينال العلم مستحي ولا متكبر»^(٢)؛ هذا يمنعه حياؤه من التعلم، وهذا يمنعه كبره.

وإنما حُمدت هذه الأخلاق في طلب العلم لأنها طريقٌ إلى تحصيله، فكانت من كمال الرجل ومُفضيةً إلى كماله.

ومن كلام الحسن: «من أستر عن طلب العلم بالحياء كبس للجهل سره، فقطعوا سرايل الحياء؛ فإنه من رَقَّ وجهه رَقَّ علمه»^(٣).

وقال الخليل: «منزلة الجهل بين الحياء والأنفة»^(٤).

ومن كلام علي رضي الله تعالى عنه: «فُرنت الهيبة بالخيبة، والحياء بالحرمان»^(٥).

(١) «عيون الأخبار» (١١٩/٢). وأخرجه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (١٣٠)،

والمصنف» (٢٨٣/١٣)، ومعمر في «الجامع» (٤٦٩/١١)، وابن أبي عمير في

«الإيمان» (١٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧٥/١)، وغيرهم من طرق بعضها حسن.

(٢) علَّقه البخاري في «الصحيح» (٤٣/١) عن مجاهد، ووصله أبو نعيم في «الحلية»

(٢٨٧/٣)، والبيهقي في «المدخل» (٤١٠)، وغيرهم.

وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٢٠/٢) عن أبي العالية.

(٣) «عيون الأخبار» (١٢٣/٢). وأخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٦٣٦). وهو في

«العقد» (٤١٥/٢)، وغيره.

(٤) «عيون الأخبار» (١٢٣/٢).

(٥) «عيون الأخبار» (١٢٣/٢). وهو في «نهج البلاغة» (٦/٤)، و«أمالى القالي»

(٩٤/٢)، و«تاريخ دمشق» (٢٦٤/٥١)، وغيرها.

وقال إبراهيم لمنصور^(١): «سل مسألة الحمقى، وأحفظ حفظ الأكياس»^(٢).

وكذلك سؤال الناس هو عيبٌ ونقصٌ في الرجل وذلةٌ تنافي المروءة، إلا في العلم، فإنه عينُ كماله ومروءته وعزّه، كما قال بعض أهل العلم: «خيرُ خصال الرجل السؤال عن العلم»^(٣).

وقيل: «إذا جلستَ إلى عالمٍ فسَلْ تفقُّها لا تعنُّها»^(٤).

وقال روبة بن العجاج: أتيتُ النسابةَ البكري^(٥)، فقال: من أنت؟ قلت: أنا ابنُ العجاج، قال: قصرتَ وعرفتَ، لعلك كقومٍ إن سكتُ لم يسألوني، وإن تكلمتُ لم يعوا عني؟ قلت: أرجو أن لا أكون كذلك، قال: ما أعداء المروءة؟ قلت: تُخبرُني، قال: بنو عمِّ الشَّوء؛ إن رأوا حسنًا ستروه، وإن رأوا سيئًا أذاعوه. ثم قال: إنَّ للعلم آفةً ونكدًا وهُجْنَةً؛ فأفْتُهُ نسيانه، ونكده الكذبُ فيه، وهُجْنَتُهُ نشره عند غير أهله^(٦).

(١) إبراهيم هو النخعي، ومنصور ابن المعتمر.

(٢) «عيون الأخبار» (١٢٢/٢). وهو في «جمهرة الأمثال» (٧٩/١)، وغيره.

(٣) «عيون الأخبار» (١٢٣/٢).

(٤) «عيون الأخبار» (١٢٣/٢). وهو في «العقد» (٢٢٤/٢)، وغيره.

(٥) دَغْفَلُ بن حنظلة بن زيد، عالمٌ بالنسب، يقال: له صحبة (ت: ٧٠). انظر: «الإصابة» (٣٨٠/٢)، و«تهذيب الكمال» (٤٨٦/٨).

(٦) «عيون الأخبار» (١١٨/٢). وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (١٨٠/٣)، والبيهقي في «الشعب» (٣٨٦/٤)، وابن عبد البر في «الجامع» (٤٤٩/١)، وغيرهم.

وَأُنْشَدَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ (١):

مَا أَقْرَبَ الْأَشْيَاءَ حِينَ يَسْؤُوهَا قَدَرٌ وَأَبْعَدَهَا إِذَا لَمْ تُقَدَّرِ
فَسَلَّ الْفَقِيهَ تَكُنْ فَقِيهًا مِثْلَهُ مَنْ يَسْعَ فِي عِلْمٍ بِذُلٍّ يَمْهَرِ
فَتَدَبَّرَ الْعِلْمَ الَّذِي تُعْنَى (٢) بِهِ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ بِغَيْرِ تَدَبُّرٍ
وَلَقَدْ يَجِدُ الْمَرْءُ (٣) وَهُوَ مُقَصِّرٌ وَيَخِيبُ جَدُّ الْمَرْءِ غَيْرَ مُقَصِّرٍ
ذَهَبَ الرِّجَالُ الْمُقْتَدِي بِفَعَالِهِمْ وَالْمُنْكَرُونَ لِكُلِّ أَمْرٍ مُنْكَرٍ
وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ يُزَيَّنُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا لِيَذْفَعَ مُعَوِّرٌ (٤) عَنْ مُعَوِّرٍ

وَلِلْعِلْمِ سِتُّ مَرَاتِبٍ (٥):

أُولَاهَا: حُسْنُ السُّؤَالِ.

الثَّانِيَةُ: حُسْنُ الْإِنْصَاتِ وَالِاسْتِمَاعِ.

-
- (١) «عيون الأخبار» (١٢٣/٢). والأبيات الأربعة الأولى في «لباب الآداب» (٣٦١) دون نسبة. والأول والأخيران في «بهجة المجالس» (١٨٢/١، ٨٠١) لعبدالله بن المبارك، وللحسن الأصفهاني في «إرشاد الأريب» (٨٧٥). والأخيران لأبي الأسود الدؤلي في «إرشاد الأريب» (١٤٧٣)، ومستدرک ديوانه (٣٩٧)، ولمرة بن عمرو الخزاعي في «معجم الشعراء» (٢٩٥)، وللحكم بن عبدل الأسدي في «المؤتلف والمختلف» (١٦١)، وللمرار بن حمويه الهمداني في «التدوين» (٨٣/٤). والأول - وحده - لعبدالله بن يزيد الهلالي في «حماسة البحرى» (٢٤٦).
- (٢) في الأصول: «تفتي». والمثبت من «عيون الأخبار» و«لباب الآداب»، وهو أشبه بالصواب.

(٣) أي: يكون ذا حظوة ورزق. من الجد.

(٤) قبيح السيرة، كأنه بادي العورة.

(٥) أصلها في «عيون الأخبار» (١٢٢/٢). وتصرف فيها المصنف.

الثالثة: حُسْنُ الفهم.

الرابعة: الحفظ.

الخامسة: التعليم.

السادسة - وهي ثمرته -: وهي العملُ به ومراعاةُ حدوده.

فمن الناس من يُحَرِّمُهُ لعدم حُسْنِ سؤاله؛ إمَّا أنه لا يسأل بحال، أو يسأل عن شيءٍ وغيره أهمُّ إليه منه؛ كمن يسأل عن فضوله التي لا يضرُّ جهله بها، ويدعُ ما لا غنى له عن معرفته. وهذه حال كثير من الجهَّال المتعلِّمين^(١).

ومن الناس من يُحَرِّمُهُ لسوء إنصاته، فيكونُ الكلامُ والممارسةُ آثَرَ عنده من حُسْنِ الاستماع^(٢). وهذه آفةٌ كامنةٌ^(٣) في أكثر النفوس الطالبة للعلم، وهي تمنعهم علمًا ولو كان حَسَنَ الفهم.

ذكر أبو عبد البر^(٤) عن بعض السلف أنه قال: «من كان حسنَ الفهم رديءَ الاستماع لم يَقُمْ خيره بشيء».

وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب «العلل» له^(٥) قال: «كان عروة بن

(١) (ح، ن): «المتعلمين».

(٢) (ح، ن): «آثر عنده وأحب إليه من الإنصات».

(٣) (ق، د): «كائنة».

(٤) في «جامع بيان العلم» (٤٤٨/١) عن أنس بن أبي شريح. وهو بليغٌ كاتب، قتله الرشيد سنة ١٨٧ على الزندقة. انظر: «لسان الميزان» (٤٦٨/١).

(٥) (١٨٦/١)، والأشبه أنه للإمام أحمد من رواية ابنه عبد الله. وأخرجه أحمد أيضًا في «فضائل الصحابة» (١٨٦٩)، وأخرجه عنه - من غير طريق عبد الله - الخطيب في «الجامع» (٣١٧/١).

الزبير^(١) يحبُّ مُمَارَاةَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَكَانَ يَخْزُنُ عِلْمَهُ عَنْهُ، وَكَانَ عَبِيدُ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَتْبَةَ يَلْطَفُ لَهُ فِي السُّؤَالِ فَيَعْرِثُهُ بِالْعِلْمِ غَرًّا^(٢)».

وقال ابن جريج: «لم أستخرج العلم الذي أستخرجت من عطاء إلا برفقي به»^(٣).

وقال بعض السلف: «إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول»^(٤).

وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتحُ مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم

(١) كذا في الأصول. وهو وهم. وإنما هو أبو سلمة بن عبد الرحمن، كما في «العلل» والمصادر السابقة. وقد كان يماري ابن عباس، فحُرِمَ بذلك علمًا كثيرًا. انظر: «الطبقات» لابن سعد (٥/ ٢٥٠)، و«التمهيد» (٦٠/ ٦١)، و«تهذيب الكمال» (١٩/ ٧٥)، وغيرها. وصح عنه أنه كان يقول: «لو رَفَقْتُ بابن عباس لأصبتُ منه علمًا كثيرًا». أخرجه الدارمي (٤١٢، ٥٦٨) وغيره.

(٢) غَرَّ الطائرُ فرخه: أطعمه بغمه. «اللسان» (غرر) و(زقق). والعبرة مهملة في (ق، ت، د)، وتحرفت في (ط) وكثير من المصادر، وهي مقبسة من حديث مرفوع لا يصح إسناده أنه ﷺ كان يغرُّ عليًّا بالعلم غرًّا، أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١١٥٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٢/ ١٧٠).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٤٢٣، ٥١٩).

(٤) «الجامع» لابن عبد البر (١/ ٥٢١)، و«الأمالى» للقالبي (٢/ ١٨٨).

مراعاتها؛ فإنه سبحانه ذكر أن آياته المتلوّة المسموعة والمرئيّة المشهودة إنما تكونُ تذكّرةً لمن كان له قلب؛ فإنّ من عَدِمَ القلبَ الواعي عن الله لم ينتفع بكلّ آيةٍ تمرُّ عليه ولو مرّت به كلّ آية، ومرورُ الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها على من لا بصر له، فإذا كان له قلبٌ كان بمنزلة البصير إذا مرّت به المرئيّات فإنه يراها.

ولكنّ صاحبَ القلب لا ينتفعُ بقلبه إلا بأمرين:

* أحدهما: أن يُحْضِرَهُ ويُشْهَدَهُ لما يُلْقَى إليه؛ فإذا كان غائباً عنه مسافراً في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفعُ به.

* فإذا أَحْضَرَهُ وَأَشْهَدَهُ لم ينتفع إلا بأن يلقي سمعه ويصغي بكلّيته إلى ما يُوعَظُ به ويُرْشَدُ إليه.

وها هنا ثلاثة أمور:

أحدها: سلامة القلب وصحّته وقبوله.

الثاني: إحضاره وجمّعه ومنعه من الشُّرود والتفرُّق.

الثالث: إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذكر^(١).

فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية.

قال ابن عطية^(٢): «القلبُ هنا عبارةٌ عن العقل؛ إذ هو محلُّه، والمعنى:

لمن كان له قلبٌ واعٍ ينتفعُ به».

قال: «وقال السُّبلي: قلبٌ حاضرٌ مع الله لا يغفلُ عنه طرفة عين.

(١) (ح، ن): «المذكر». وهي محتملة.

(٢) في «المحرر الوجيز» (١٣/٥٦٨).

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَأْتِ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ معناه: صَرَفَ سَمْعَهُ إِلَىٰ هَذِهِ الْأَنْبَاءِ الْوَاعِظَةِ، وَأَثَبَتْهُ فِي سَمْعِهِ^(١)، فَذَلِكَ إِلْقَاءُ لَهُ عَلَيْهَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]، أَي: أَثَبْتُهَا عَلَيْكَ.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قَالَ بَعْضُ الْمُتَأَوِّلِينَ: معناه: وَهُوَ شَاهِدٌ^(٢) مُقْبِلٌ عَلَى الْأَمْرِ غَيْرِ مُعْرِضٍ عَنْهُ وَلَا مُفَكِّرٍ فِي غَيْرِ مَا يَسْمَعُ.

قَالَ: «وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَهْلِ الْكِتَابِ. فَكَأَنَّهُ قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْعِبَرُ لِتَذَكُّرٍ لِمَنْ لَهُ فَهْمٌ فَتَدَبَّرَ الْأَمْرَ، أَوْ لِمَنْ سَمِعَهَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَشَهِدَ بِصَحَّتِهَا لَعَلَّمَهُ بِهَا مِنْ كِتَابِ التَّوْرَةِ»^(٣) وَسَائِرُ كُتُبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

قَالَ: «فَ» شَهِيدٌ عَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ مِنَ الْمَشَاهِدَةِ، وَعَلَى التَّأْوِيلِ الثَّانِي مِنَ الشَّهَادَةِ.

وَقَالَ الزَّجَّاجُ^(٤): «مَعْنَى ﴿لَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ مِنْ صَرَفَ قَلْبَهُ إِلَى التَّفْهَمِ، أَلَا تَرَىٰ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾ [البقرة: ١٨] أَنَّهُمْ لَمْ يَسْتَمِعُوا أَسْتِمَاعَ مُتَفَهِّمٍ مُسْتَرَشِدٍ، فَجُعِلُوا بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

* أَصَمُّ عَمَّا سَاءَ سَمِيعٌ *^(٥)

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ. وَفِي مَطْبُوعَةِ التَّفْسِيرِ: «وَأَثَبَتْهُ فِي سَمَاعِهَا»، تَحْرِيفٌ. وَفِي الطَّبْعَةِ الْمَغْرِبِيَّةِ (١٨٩/١٥): «وَأَثَبَتْهُ فِي سَمَاعِهَا».

(٢) فِي مَطْبُوعَتِي التَّفْسِيرِ: «وَهُوَ مُشَاهِدٌ». وَهُوَ أَصَوَّبٌ؛ لِمَا سَيَأْتِي.

(٣) (ت، د، ح، ن): «كِتَابُهُ التَّوْرَةِ».

(٤) فِي «مَعَانِي الْقُرْآنِ» (٥/٤٨).

(٥) شَطْرٌ يَجْرِي مَجْرَى الْأَمْثَالِ، فِي «أَسْرَارِ الْبَلَاغَةِ» (٧٩)، وَ«شَرْحِ الْحِمَاسَةِ» =

ومعنى «أَوَّ أَلْقَى السَّمْعَ»: أَسْتَمَعَ ولم يَشْغَلْ قلبه بغير ما يستمع،
والعربُ تقول: أَلْقَى إِلَيَّ سَمْعَكَ، أي: أَسْتَمِعْ مِنِّي.

«وَهُوَ شَهِيدٌ» أي: قلبه فيما يسمع.

قال: «وجاء في التفسير^(١) أنه يعني به أهل الكتاب الذين عندهم صفةُ
النبيِّ ﷺ. فالمعنى: أو ألقى السمع وهو شهيدٌ أن صفةَ النبيِّ ﷺ في كتابه». وهذا هو الذي حكاه ابن عطية عن قتادة، وذكر أن شهيداً فيه بمعنى
شاهد، أي: مُخْبِر.

وقال صاحب «الكشاف»^(٢): «لَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ» واع؛ لأن من لا يعي
قلبه فكأنه لا قلب له. وإلقاء السمع: الإصغاء.

«وَهُوَ شَهِيدٌ» أي: حاضرٌ بفطنته؛ لأن من لا يُحْضِرُ ذهنَه فكأنه
غائب. أو هو مؤمنٌ شاهدٌ على صحته وأنه حيٌّ من الله. أو هو^(٣) بعضُ
الشهداء في قوله: «لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» [البقرة: ١٤٣]. وعن قتادة:
وهو شاهدٌ على صدقه من أهل الكتاب؛ لوجود نعته عنده.

= للمرزوقي (١٤٥٠)، و«جمهرة الأمثال» (١/ ١٤٠)، وغيرها دون نسبة. وتحرفت
في (د، ت، ق) «ساء» إلى «شاء».

(١) أي: التفسير المأثور. ولعله يريد أثر قتادة. وقد روى الزجاج تفسير الإمام أحمد عن
ابنه عبد الله إجازةً، كما في «معاني القرآن» (٨/ ٤)، وذكر في (٤/ ١٦٦) أن أكثر ما
روى في كتابه من التفسير فهو من كتاب التفسير للإمام أحمد.

(٢) (٤/ ٣٩١).

(٣) في الأصول: «وهو». والمثبت من «الكشاف»، وهو الصواب.

فلم يُخْتَلَفْ في أنَّ المراد بالقلب القلب الواعي، وأنَّ المراد بإلقاء السمع إصغاؤه وإقباله على الذكر^(١)، وتفريغ سمعه له.

واختلف في الشهيد على أربعة أقوال:

أحدها: أنه من المشاهدة، وهي الحضور. وهذا أصحُّ الأقوال، ولا يليقُ بالآية غيره.

الثاني: أنه شهيدٌ من الشهادة^(٢).

وفيه على هذا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه شاهدٌ على صحَّته بما معه من الإيمان.

الثاني: أنه شاهدٌ من الشهداء على الناس يوم القيامة.

الثالث: أنها شهادةٌ من الله عنده على صحَّة نبوة رسول الله ﷺ بما علَّمه من الكتب المنزلة.

والصوابُ القول الأول؛ فإنَّ قوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ جملةٌ حاليَّة، والواو فيها واو الحال، أي: ألقى السمع في هذه الحال. وهذا يقتضي أن يكون حالُ إلقائه السمعَ شهيدًا، وهذا من^(٣) المشاهدة والحضور.

ولو كان المرادُ به الشهادة في الآخرة أو في الدنيا لما كان لتقييدها بإلقاء السمع معنى؛ إذ يصيرُ الكلام: إنَّ في ذلك لآيةً لمن كان له قلبٌ أو

(١) (د، ح، ن): «المذكر».

(٢) (ق): «من المشاهدة». وهو تحريف.

(٣) (د، ن): «وهذا هو من». (ق): «وهذا أهون».

ألقى السمعَ حال كونه شاهداً بما معه في التوراة، أو حال كونه شهيداً يوم القيامة. ولا ريب أن هذا ليس هو المراد بالآية.

وأيضاً؛ فالآية عامة في كلِّ من له قلبٌ أو ألقى السمع، فكيف يُدعى تخصيصُها بمؤمني أهل الكتاب الذين عندهم شهادةٌ من كتبهم على صفة النبي ﷺ؟!

وأيضاً؛ فالسورة مكيّة، والخطابُ فيها لا يجوزُ أن يختصَّ بأهل الكتاب، ولا سيما مثل هذا الخطاب الذي علّق فيه حصولُ مضمون الآية ومقصودها بالقلب الواعي وإلقاء السمع، فكيف يقال: هي في أهل الكتاب؟!

فإن قيل: المختصُّ بهم قوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ فهذا أفسدُ وأفسد؛ لأنَّ قوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ يرجعُ الضميرُ فيه إلى جملة من تقدّم، وهو: من له قلبٌ أو ألقى السمع، فكيف يُدعى عَوْدُهُ إلى شيء غايته أن يكون بعض المذكور أولاً، ولا دلالة في اللفظ عليه؟! فهذا في غاية الفساد^(١).

وأيضاً؛ فإنَّ المشهودَ به محذوف، ولا دلالة في اللفظ عليه، فلو كان المرادُ به: وهو شاهدٌ بكذا، لذكر المشهودُ به؛ إذ ليس في اللفظ ما يدلُّ عليه، وهذا بخلاف ما إذا جُعِلَ من الشُّهود - وهو الحضور - فإنه لا يقتضي مفعولاً مشهوداً به، فيتّم الكلامُ بذكره وحده.

وأيضاً؛ فإنَّ الآيةَ تضمَّنَت تقسيماً وترديداً بين قسمين:
أحدهما: من كان له قلب.

(١) «فهذا في غاية الفساد» ليست في (ت، ح، ن).

والثاني: من ألقى السمعَ وحَضَرَ بقلبه ولم يَغِب، فهو حاضر القلب شاهِدُه لا غائبُه.

وهذا - والله أعلم - سرُّ الإتيان بـ ﴿أَوْ﴾ دون الواو؛ لأنَّ المتفِيعَ بالآيات من الناس نوعان:

أحدهما: ذو القلب الواعي الزَكِيّ الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه، ولا يحتاج أن يَسْتَجْلِبَ قلبه ويَحْضِرَه ويجمعه من مواضع شتاته، بل قلبه واع زكيٌّ قابلٌ للهدى غير معرض عنه؛ فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط؛ لكمال أستعداده وصحّة فطرته، فإذا جاء الهدى سارع قلبه إلى قبوله، كأنه كان مكتوباً فيه، فهو قد أدركه مجملاً ثمَّ جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحّته مجملاً. وهذه حال أكمل الخلق استجابةً لدعوة الرسل، كما هي حال الصّديق الأكبر رضي الله عنه.

النوع الثاني: من ليس له هذا الاستعداد والقبول؛ فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه، وأحضر قلبه وجمّع فكرته عليه، وعلم صحّته وحُسْنَه بنظره واستدلّاه. وهذه طريقة أكثر المستجيبين، ولهم نُوعٌ ضربُ الأمثال، وإقامة الحُجَج، وذكُرُ المعارضات والأجوبة عنها.

والأولون: هم الذين يُدْعَوْنَ بالحكمة، وهؤلاء: يُدْعَوْنَ بالموعظة الحسنة. فهؤلاء نوعا المُستجيبين.

وأما المعارضون الدافعون للحقّ^(١)، فنوعان: نوعٌ يُدْعَوْنَ بالمجادلة بالتي هي أحسن، فإن استجابوا وإلا فالمُجَالِدَة؛ فهؤلاء لا بدّ لهم من جدالٍ

(١) (ح، ن): «المدعون للحق».

أو جِلَاد^(١).

ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهؤلاء الأقسام، متناولة لها كلها؛ كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ فهؤلاء المدعوون بالكلام.

وأما أهل الجِلَاد، فهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

وأما من فسر الآية بأن المراد بـ ﴿لَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ هو المستغني بفطرته عن علم المنطق، وهو المؤيد بقوة قدسية ينال بها الحد الأوسط بسرعة؛ فهو لكمال فطرته مُستغني عن مراعاة أوضاع المنطق، والمراد بمن ﴿الَّتِي السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ من ليست له هذه القوة؛ فهو محتاج إلى تعلم المنطق ليجب له مراعاته وإصغاؤه إليه أن لا يزيغ في فكره، وفسر قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ﴾ أنها القياس البرهاني، و﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ القياس الخطابي، ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ القياس الجدلي = فهذا ليس من تفاسير الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة التفسير، بل ولا من تفاسير المسلمين، وهو تحريف لكلام الله تعالى، وحمل له على اصطلاح المنطقية المبخوسة الحظ من العقل والإيمان^(٢).

(١) فالنوع الأول: أهل الجدال. والثاني: أهل الجِلَاد. وانظر: «الصواعق المرسلة» (١٢٧٦)، و«الفروسية» (٨٣، ٨٤)، و«هداية الحيارى» (٢١).

(٢) ذكر هذا التفسير ابن رشد في «فصل المقال» (١٧).

وهذا من جنس تفاسير القرامطة والباطنية وغلاة الإسماعيلية لِمَا يفسرونه من القرآن وينزلونه على مذاهبهم الباطلة، وكذلك تفسيرُ الجهمية والمعتزلة والرافضة للآيات التي ينزلونها على أقوالهم الباطلة^(١) والقرآن بريء من ذلك كله، منزّه عن هذه الأباطيل والهديانات.

وقد ذكرنا بطلان ما فسر به المنطقيون هذه الآية التي نحن فيها والآية الأخرى في موضع آخر من وجوه متعدّدة، وبَيَّنَّا بطلانَه عقلاً وشرعاً ولغةً وعُرفاً، وأنه يتعالى كلامُ الله عن حملِه على ذلك^(٢). وبالله التوفيق.

والمقصودُ ببيان حرمان العلم من هذه الوجوه الستة:

أحدها: تركُ السؤال.

الثاني: سوءُ الإنصات وعدمُ إلقاء السمع.

الثالث: سوءُ الفهم.

الرابع: عدمُ الحفظ.

الخامس: عدمُ نشره وتعليمه؛ فَإِنَّ مَنْ خَزَنَ عِلْمَهُ ولم ينشره ولم يعلمه أبتلاه الله بنسيانه وذهابه منه؛ جزاءً من جنس عمله، وهذا أمرٌ يشهدُ به الحسُّ والوجود.

(١) من قوله: «وكذلك تفسير الجهمية» إلى هنا ليس في (ح، ن).

(٢) انظر: «الرد على المنطقيين» (٤٤١، ٤٤٤ - ٤٤٧، ٤٦٧ - ٤٦٩)، و«مجموع الفتاوى» (٤٢/٢، ٤٤ - ٤٦، ١٩/١٦٤).

ولم أجد الموضع الذي أشار إليه المصنف هنا في كتبه، وقد أشار إليه كذلك في «مدارج السالكين» (٤٤٦/١).

السادس: عدم العمل به؛ فإنَّ العملَ به يوجبُ تذكُّره وتدبُّره ومراعاته والنظرَ فيه، فإذا أهملَ العملَ به نسيه.

قال بعضُ السلف: «كنا نستعينُ على حفظ العلم بالعمل به»^(١).

وقال بعضُ السلف أيضًا: «العلم يهتفُ بالعمل، فإن أجابه حلَّ وإلاَّ أرتحل».

فالعملُ به من أعظم أسباب حفظه وثباته، وتضييعُ العمل به إضاعةٌ له؛ فما أَسَدَّرَ العلمُ ولا أَسْتَجَلَبَ بمثل العمل، قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرِسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

وأما قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فليس من هذا الباب، بل هما جملتان مستقلتان: طلبيةٌ؛ وهي الأمرُ بالتقوى، وخبريةٌ؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾، أي: والله يعلمكم ما تتقون. وليست جوابًا للأمر، ولو أريد بها الجزاء لأُتي بها مجزومةً مجرَّدةً عن الواو، فكان يقول: «واتقوا الله يعلمكم»، أو: «إن تتقوه يعلمكم»، كما قال: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، فتدبره^(٢).

الوجه الرابع والأربعون بعد المئة: أنَّ الله سبحانه نفى التسوية بين العالم وغيره، كما نفى التسوية بين الخبيث والطيب، وبين الأعمى والبصير،

(١) تقدم تخريجه والذي يليه (ص: ٢٧٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٨/١٧٧)، و«الموافقات» (٥/٢٨٣)، و«البرهان» للزركشي (٤/١٤٣).

وبين النُّور والظُّلْمَة، وبين الظِّلِّ والحُرُور، وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار، وبين الأَبْكَم العاجز الذي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ومن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وهو عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وبين المؤمنين والكفار، وبين الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ والمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، وبين الْمُتَّقِينَ والفَجَّارِ.

فهذه عشرةُ مواضع في القرآن^(١) نفى فيها التسويةَ بين هؤلاء الأصناف، وهذا يدلُّ عَلَى أَنَّ منزلة العالم من الجاهل كمنزلة النُّور من الظُّلْمَة، والظِّلِّ من الحُرُور، والطَّيِّب من الخبيث، ومنزلة كُلِّ واحدٍ من هذه الأصناف مع مُقَابِلِهِ.

وهذا كافٍ في شرف العلم وأهله.

بل إِذَا تَأَمَّلْتَ هذه الأصنافَ كُلَّهَا وجدتَ نَفْيَ التسوية بينها راجعاً إِلَى العلم ومُوجِبِهِ؛ فبه وقع التفضيل^(٢) وانتفت المساواة.

الوجه الخامس والأربعون بعد المئة: أَنَّ سليمان لما تَوَاعَدَ^(٣) الهدهدَ بأن يَعَذِّبَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أو يَذْبَحَهُ، إِنَّمَا نَجَا مِنْهُ بِالْعِلْمِ، وَأَقْدَمَ عَلَيْهِ فِي خُطَابِهِ

(١) وهي - عَلَى التَّوَالِي -: الزمر: ٩، المائدة: ١٠٠، فاطر: ١٩، ٢٠، ٢١، الحشر: ٢٠، النحل: ٧٦، السجدة: ١٨، ص: ٢٨.

(٢) (ح، ن): «التفصيل».

(٣) (ق، ح، ن): «تواعد». والمثبت من (د، ت). أَي: تَهَدَّدَهُ. وهي لُغَةٌ فُصِيحَةٌ أُخِلَّتْ بِهَا المعاجم، ووردت كثيرًا في كلام الصدر الأول فمن بعدهم. انظر: «موطأ مالك» (١٠٠٩)، و«مصنف عبد الرزاق» (١٠٧٨٨، ١٧١٠٣)، و«أخبار مكة» للفاكهي (٢١٦٢، ١٦٥٩)، و«سنن البيهقي» (٢٠٩/٧)، و«عون المعبود» (٩٩/٣) - الطبعة الهندية، وغيرها. وكذلك وقعت بخط المصنف في «طريق الهجرتين» (٦٣٠).

له بقوله: ﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢]، وهذا الخطاب إنما جرّاه عليه العلم، وإلا فالهدد مع ضعفه لا يتمكّن في خطابه لسليمان مع قوّته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم.

ومن هذا الحكاية المشهورة أنّ بعض أهل العلم سئل عن مسألة، فقال: لا أعلمها، فقال أحدُ تلامذته: أنا أعلم هذه المسألة، فغضب الأستاذ وهمّ به، فقال له: أيها الأستاذ، لست أعلم من سليمان بن داود ولو بلغت في العلم ما بلغت، ولست أنا أجهل من الهدد، وقد قال لسليمان: ﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾؛ فلم يعتب عليه ولم يعتقه^(١).

الوجه السادس والأربعون بعد المئة: أنّ من نال شيئاً من شرف الدنيا والآخرة فإنما ناله بالعلم.

وتأمّل ما حصل لآدم من تمييزه^(٢) على الملائكة واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلّها، ثمّ ما حصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكنى الجنة بما هو خيرٌ له منها = بعلم الكلمات التي تلقّاها من ربّه.

وما حصل ليوسف من التمكين في الأرض والعزة والعظمة بعلمه بعبارة تلك الرؤيا، ثمّ علّمه بوجوه أستخراج أخيه من إخوته بما يقرّون به ويحكمون هم به، حتّى آل الأمر إلى ما آل إليه من العزّ والعاقبة الحميدة وكمال الحال التي توصّل إليها بالعلم، كما أشار إليه سبحانه في قوله: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ

(١) انظر: «البصائر والذخائر» (٥/ ١٣٤)، و«ثمار القلوب» (٢/ ٧٠٦).

(٢) (د، ت، ح، ن): «تمييزه».

كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ﴿[يوسف: ٧٦]، جاء في تفسيرها: «نرفع درجات من نشأ بالعلم، كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بالعلم»^(١).

وقال في إبراهيم ﷺ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]؛ فهذه رفعة بعلم الحجّة، والأول رفعة بعلم السياسة.

وكذلك ما حصل للخضر بسبب علمه من تَلَمَذَةِ كليم الرحمن له^(٢)، وتلطّفه معه في السؤال، حتى قال: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُسَدًا﴾ [الكهف: ٦٦].

وكذلك ما حصل لسليمان من عِلْمِ منطق الطير حتى وصل إلى ملك سبأ، وقهر ملكهم، واحتوى على سرير ملكها، ودخولها^(٣) تحت طاعته، ولذلك قال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مِنْ طَيْرٍ وَأَوْتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦].

وكذلك ما حصل لداود من عِلْمِ نَسْجِ الدُّرُوعِ من الوقاية من سلاح الأعداء، وعدّد سبحانه هذه النعمة بهذا العلم على عباده^(٤)، فقال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

(١) انظر: «الدر المثور» (٢٧/٤)، و«فتح القدير» (٤٣/٣).

(٢) (ت، ح، ن): «تلميذه كليم الرحمن له».

(٣) (ن): «وأدخلها». وفي (د، ت، ق): «ودخلهم». وهي محتملة.

(٤) أي: أحصاها وعرفهم قدرها. واستعمال (عدّد) للمفرد في مثل هذا السياق يقع في كتب المصنف. انظر: «الصواعق المرسلّة» (٧٧٦).

وكذلك ما حصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ما رفعه الله به إليه وفصله وكرّمه.

وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم ﷺ من العلم الذي ذكره^(١) الله به نعمه عليه^(٢)؛ فقال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

الوجه السابع والأربعون بعد المئة: أن الله سبحانه أثنى على إبراهيم خليله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢١].

فهذه أربعة أنواع من الثناء:

أفتتحها بأنه أمة. والأمة هو القدوة الذي يؤتم به؛ قال ابن مسعود: «والأمة المعلم للخير»^(٣)، وهي فُعْلَةٌ من الائتِمام، كقُدوة، وهو الذي يقتدى به.

والفرق بين الأمة والإمام من وجهين:

أحدهما: أن «الإمام» كل ما يؤتم به، سواء كان بقصدته وشعوره أو لا، ومنه سمي الطريق: إمامًا، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ﴾ (٧٨).

(١) (ت): «وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم ﷺ الذي ذكر».

(٢) (ق): «نعمة عليه».

(٣) علقه البخاري في «الصحیح» (٥/٢٢٣)، ووصله الطبراني في «الكبير» (١٠/٥٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٣٠)، وغيرهم من طرق. وصححه الحاكم في «المستدرک» (٣/٢٧٢)، وابن حجر في «تغليق التعليق» (٤/٢٣٨).

فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَلَئِنْهُمْ لَإِيَّامًا مَّيِّينَ ﴿٧٨﴾ [الحجر: ٧٨ - ٧٩]، أي: بطريق واضح لا يخفى على السالك. ولا يسمّى الطريق: أمة.

الثاني: أن «الأمة» فيه زيادة معنى؛ وهو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل بحيث بقي فيها فردًا وحده، فهو الجامع لخصالٍ تفرقت في غيره، فكانه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها في غيره.

ولفظ «الأمة» يُشعرُ بهذا المعنى؛ لِمَا فيه من الميم المُضَعَّفَةُ الدَّالَّةُ على الضمِّ بمخرجها وتكريرها، وكذلك ضَمُّ أوله؛ فَإِنَّ الضَّمة من الواو، ومخرجها ينضمُّ عند النطق بها، وأتى بالتاء الدَّالَّةُ على الوَحْدَةِ كَالْغُرْفَةِ وَاللَّقْمَةِ، ومنه الحديث: «إِنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو بْنَ نَفِيلٍ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحِدَةً»^(١).

فالضمُّ والاجتماعُ لازمٌ لمعنى «الأمة»، ومنه سُمِّيَتْ «الأمة» التي هي آحادُ الأمم؛ لأنهم الناسُ المجتمعون على دينٍ واحدٍ أو في عصرٍ واحدٍ^(٢).

الثاني: قوله: ﴿فَإِنَّا لِلَّهِ﴾، قال ابن مسعود: «القانت المطيع»^(٣). والقنوتُ يفسرُ بأشياء كلها ترجعُ إلى دوام الطاعة.

(١) روي من وجوه كثيرة. من أحسنها ما أخرجه أبو يعلى في «المسند» (٩٧٣)، وحسنه الهيثمي في «المجمع» (٤١٧/٩) عن سعيد بن زيد رضي الله عنه.
وانظر: مسانيد أحمد (١/١٨٩)، والبخاري (١٣٣١)، والطبراني (٢٣١)، و«البدایة والنهایة» (٣/٣٢٦).

(٢) (ق، د): «على دين واحد وفي عصر واحد أو على دين واحد».

(٣) جزء من الأثر السابق في تفسير «الأمة».

الثالث: قوله: ﴿حَنِيفًا﴾، والحَنِيفُ الْمُقْبِلُ عَلَى اللَّهِ. ويلزمُ هذا المعنى ميله عمدًا سواه، فالمَيْلُ لازمُ معنى الحَنْفِ، لا أنه موضوعه لغة^(١).

الرابع: قوله: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾، والشكرُ للنعمِ مبنيٌّ على ثلاثة أركان:

* الإقرارُ بالنعمة.

* وإضافتها إلى المُنْعِمِ بها.

* وصرفها في مرضاته، والعملُ فيها بما يُحِبُّ.

فلا يكونُ العبدُ شاكرًا إلا بهذه الأشياء الثلاثة^(٢).

والمقصودُ أنه مدحُ خليله بأربعِ صفاتٍ كلها ترجعُ إلى العلم، والعمل بمُوجِبِهِ، وتعليمه ونشره؛ فعاد الكمالُ كُلُّهُ إلى العلم والعمل بمُوجِبِهِ ودعوة الخلق إليه.

الوجه الثامن والأربعون بعد المئة: قوله سبحانه عن المسيح أنه قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣٠-٣١].

قال سفيانُ بن عيينة: «﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ قال: معلّمًا للخير»^(٣).

(١) انظر: «جلاء الأفهام» (٣٠٦).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢٥٤/٢)، و«الوابل الصيب» (٥، ٦).

(٣) أخرجه الطبري (١٨/١٩١).

وهذا يدلُّ على أنَّ تعليمَ الرجلِ الخيرِ هو البركةُ التي جعلها اللهُ فيه^(١)؛ فإنَّ البركةَ حصولُ الخيرِ ونماؤه ودوامه. وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء، وتعليمه.

ولهذا يسمِّي سبحانه كتابه: مباركًا، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: ٢٩]، ووصف رسوله بأنه مبارك، كما في قول المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١]؛ فبركةُ كتابه ورسوله هي سببُ ما يحصلُ بهما^(٢) من العلم والهدى والدعوة إلى الله.

الوجه التاسع والأربعون بعد المئة: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا مات ابنُ آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٌ جارية، أو علمٌ يُنتفعُ به، أو ولدٌ صالحٌ يدعو له»، رواه مسلم في «الصحيح»^(٣).

وهذا من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته؛ فإنَّ ثوابه يصلُ إلى الرجل بعد موته ما دام يُنتفعُ به، فكأنه حيٌّ لم ينقطع عمله، مع ما له من حياة الذكر والثناء؛ فجريانُ أجره عليه إذا انقطع عن الناس ثوابُ أعمالهم حياةٌ ثانية.

وخصَّ النبي ﷺ هذه الأشياء الثلاثة بوصول الثواب منها إلى الميت

(١) انظر: «الوابل الصيب» (٩٩، ١٧٧)، و«جلاء الأفهام» (١٧٩)، و«رسالة ابن القيم إلى بعض إخوانه»^(٣).

(٢) (ح): «هي بسبب ما يحصل بهما».

(٣) (١٦٣١).

لأنه سببٌ لحصولها، والعبدُ إذا باشر السببَ الذي يتعلَّقُ به الأمرُ والنهيُ ترتَّبَ^(١) عليه مسبِّهٌ وإن كان خارجًا عن سعيه وكسبه؛ فلما كان هو السببُ في حصول هذا الولد الصالح والصدقة الجارية والعلم النافع جرى عليه ثوابه وأجره لتسبُّبه فيه؛ فالعبدُ إنما يثابُ على ما باشره أو على ما تولَّد منه^(٢).

وقد ذكر تعالى هذين الأصلين في كتابه في سورة براءة، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ فهذه الأمورُ كُلُّها متولِّداتٌ عن أفعالهم، غير مقدورةٍ لهم، وإنما المقدورُ لهم أسبابُها التي باشروها.

ثم قال: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ فالنفقةُ وقَطْعُ الوادي أفعالٌ مقدورةٌ لهم.

وقال في القسم الأول: ﴿كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾؛ لأن المتولَّدَ حاصلٌ عن شيئين: أفعالهم وغيرها، فليست أفعالهم سببًا مستقلًّا في حصول المتولَّد، بل هي جزءٌ من أجزاء السبب، فيكتبُ لهم من ذلك ما كان مقابلاً لأفعالهم.

وأيضًا؛ فإنَّ الظَّمأَ والنَّصَبَ وغيظَ العدوِّ ليس من أفعالهم، فلا يُكْتَبُ

(١) (ح، ن): «يترتب».

(٢) انظر: «التقريب لعلوم ابن القيم» (١٧٢).

لهم نفسه، ولكن لما تولد عن أفعالهم كُتِبَ لهم به عملٌ صالح.
وأما القسم الآخر، وهو الأفعال المقدورة نفسها، كالإنفاق وقَطْع
الوادي، فهو عملٌ صالح، فيكتبُ^(١) لهم نفسه؛ إذ هو مقدورٌ لهم حاصلٌ
بإرادتهم وقدرتهم.

فعاد الثوابُ إلى الأسباب المقدورة والمتولد عنها، وبالله التوفيق.
الوجه الخمسون بعد المئة: ما ذكره ابن عبد البر^(٢) عن عبد الله بن
داود^(٣)، قال: «إذا كان يوم القيامة عَزَلَ اللهُ تبارك وتعالى العلماء عن
الحساب، فيقول: أدخلوا الجنة على ما كان فيكم، إني لم أجعل علمي فيكم
إلا لخيرٍ أَرَدْتُهُ بكم».

قال ابن عبد البر: وزاد غيره في هذا الخبر: «إن الله يحبس العلماء يوم
القيامة في رُمَّةٍ واحدة حتى يقضي بين الناس ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل
النار النار، ثم يدعو العلماء فيقول: يا معشر العلماء، إني لم أضع حكمتي
فيكم وأنا أريد أن أعدبكم، قد علمت أنكم تَخْلِطُونَ من المعاصي ما يَخْلِطُ
غيركم، فسترتها عليكم وغفرتها لكم، وإنما كنْتُ أَعْبُدُ بِفُتْيَاكُمْ وتعليمكم
عبادي، أدخلوا الجنة بغير حساب». ثم قال: «لا معطي لما منع الله ولا مانع
لما أعطى».

قال: ورُوي نحو هذا المعنى بإسنادٍ متصلٍ مرفوع^(٤).

(١) (ت، ق): «فكتب».

(٢) في «جامع بيان العلم وفضله» (٢١٤/١).

(٣) الخَزِينِي الهَمْدَانِي، الحافظ الزاهد (ت: ٢١٣). «السير» (٣٤٦/٩).

(٤) ثم ذكر حديث أبي موسى الأشعري، وتقدم تخريجُه وبيانُ ضعفه (ص: ٣٤٣).

وقد روى حرب الكرمانى فى «مسائله» نحوه مرفوعاً^(١).

وقال إبراهيم: بلغنى أنه إذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل فى كفة وسيئاته فى الكفة الأخرى، فتشيل حسناته^(٢)، فإذا يئس فظن أنها النار جاء شيء مثل السحاب حتى يقع مع حسناته، فتشيل سيئاته. قال: فيقال له: أتعرف هذا من عملك؟ فيقول: لا. فيقال: هذا ما علمت الناس من الخير فعمل به من بعدك^(٣).

فإن قيل: فقواعد الشرع تقتضى أن يسامح الجاهل بما لا يسامح به العالم، وأنه يغفر له ما لا يغفر للعالم؛ فإن حجة الله عليه أقوم منها على الجاهل، وعلمه بقبح المعصية وبغض الله لها وعقوبته عليها أعظم من علم الجاهل، ونعمة الله عليه بما أودعه من العلم أعظم من نعمته على الجاهل.

وقد دلت الشريعة وحكم الله على أن من حبي بالإنعام، وخص بالفضل والإكرام، ثم أساء نفسه مع همل الشهوات، فأرتعها فى مراتع الهلكات، وتجراً على أنتهاك الحرمات، واستخف بالتبغات والسيئات = أنه يقابل من الانتقام والعتب بما لا يقابل به من ليس فى مرتبته.

وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿يُنْسَاءُ النَّبِيُّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠].

ولهذا كان حدُّ الحرِّ ضعفي حدِّ العبد فى الزنا والقذف وشرب الخمر؛

(١) تقدم (ص: ٣٤٣).

(٢) أى ترتفع كفتها، لخصتها.

(٣) أخرجه ابن عبد البر (١/٢٠٩، ٢١١). وإبراهيم هو النخعي.

لكمال النعمة على الحر.

ومما يدلُّ على هذا الحديث المشهور الذي ثبَّته أبو نعيم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه الله بعلمه»^(١). وقال بعض السلف: «يُغْفَرُ للجاهل سبعون ذنبًا قبل أن يُغْفَرَ للعالم ذنب»^(٢).

وقال بعضهم أيضًا: «إنَّ الله يعافي الجهَّال ما لا يعافي العلماء»^(٣). فالجواب: أنَّ هذا الذي ذكرتموه حقٌّ لا ريب فيه، ولكنَّ من قواعد الشرع والحكمة أيضًا أنَّ من كُثِرَتْ حسناته وعظُمَتْ، وكان له في الإسلام تأثيرٌ ظاهر، فإنه يُحْتَمَلُ له ما لا يُحْتَمَلُ لغيره، ويُعْفَى عنه ما لا يُعْفَى عن غيره؛ فإنَّ المعصية خَبَث، والماء إذا بلغ قَلَّتَيْنِ لم يحمل الخَبَث^(٤)، بخلاف الماء القليل فإنه يَحْمِلُ أدنى خَبَثٍ يقع فيه.

(١) تقدم تخريجه وبيان ضعفه (ص: ٣١٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٠٠)، والبيهقي في «المدخل» (٥٦٣) عن الفضيل بن عياض.

(٣) أخرجه الرامهرمزي في «المحدث الفاصل» (٦٠٥)، والخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (٨٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٢٢)، والبيهقي في «المدخل» (٥٦٥)، والضياء في «المختارة» (١٦٠٩)، وغيرهم من حديث أنس بن مالك مرفوعًا. قال عبد الله بن أحمد - في رواية أبي نعيم والبيهقي والضياء -: «قال أبي: هو حديث منكر. ما حدَّثني به إلا مرَّة».

(٤) كما في الحديث المشهور الذي أخرجه أصحاب السنن، وفي سنده خلافٌ كثير، والأشبهُ صحته مرفوعًا، وعليه جمهور المحدثين. انظر: «البدر المنير» (١/ ٤٠٤)، و«الإحسان» للحويني (٢/ ١٣). وللعلائي جزءٌ في تصحيحه والكلام عليه.

ومن هذا قولُ النبي ﷺ لعمر: «وما يدريك لعلَّ الله أطلعَ على أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»^(١).

وهذا هو المانعُ له ﷺ من قتل من جَسَّ عليه وعلى المسلمين وارتكبَ مثل ذلك الذَّنْبِ العظيم^(٢)، فأخبر ﷺ أنه شهدَ بدرًا؛ فدَلَّ على أنَّ مقتضي عقوبته قائمٌ لكنْ منع من ترتُّب أثره^(٣) عليه ما له من المشهد العظيم، فوقعت تلك السَّقْطَةُ العظيمةُ مغفرةً في جنب ما له من الحسنات^(٤).

ولمَّا حَضَّ النبي ﷺ على الصدقة، فأخرج عثمانُ رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة، قال: «ما ضَرَّ عثمانَ ما عَمِلَ بعدها»^(٥).

وقال لطلحة لَمَّا تَطَاطَأَ للنبي ﷺ حتَّى صعدَ على ظهره إلى الصخرة: «أَوْجَبَ طَلْحَةُ»^(٦).

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤) من حديث علي.

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (١٥٣٦)، و«زاد المعاد» (٣/ ١١٥، ٤٢٢، ٤٢٦، ٤٢٧).

(٣) (ت): «من ترتبه».

(٤) (ق، د، ت): «الصدقات».

(٥) أخرجه الترمذي (٣٧٠١)، وأحمد (٦٣/ ٥)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٨٧/ ٢)، وغيرهم من حديث عبد الرحمن بن سمرة.

قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه»، وصححه الحاكم (١٠٢/ ٣) ولم يتعقبه الذهبي.

ورُوي من وجوهٍ أخرى تزيدُه قوَّةً.

(٦) أخرجه الترمذي (٣٧٣٨)، وأحمد (١٦٥/ ١)، والبخاري (٩٧٢)، وغيرهما من حديث الزبير بن العوام.

قال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ»، وصححه ابن حبان (٦٩٧٩)، =

وهذا موسى كليمُ الرحمن عز وجل: ألقى الألواح التي فيها كلامُ الله الذي كتبه له، ألقاها على الأرض^(١) حتى تكسرت، ولطمَ عينَ ملك الموت ففقاها^(٢)، وعاتبَ ربُّه ليلة الإسراء في النبي ﷺ، وقال: «شابُّ بُعثَ بعدي يدخلُ الجنةَ من أُمَّته أكثرُ ممن يدخلُها من أُمَّتي»^(٣)، وأخذَ بلحية هارون وجَرَّه إليه^(٤) وهو نبيُّ الله، وكلُّ هذا لم يُنقص من قدره شيئاً عند ربِّه، وربُّه تعالى يُكرِّمه ويحبُّه؛ فإنَّ الأمر الذي قام به موسى، والعدو الذي برز له، والصبر الذي صَبَّره، والأذى الذي أُوذِيَ به في الله = أمرٌ لا تؤثِّرُ [فيه] أمثال هذه الأمور، ولا يُغَيِّرُ به في وجهه^(٥)، ولا يخفُضُ منزلته^(٦).

وهذا أمرٌ معلومٌ عند الناس مستقرٌّ في فطرهم: أن من له ألوفٌ من الحسنات فإنه يُسامحُ بالسيئة والسيئتين ونحوها، حتى إنه ليُختلجُ داعي عقوبته على إساءته، وداعي شكره على إحسانه، فيغلبُ داعي الشكر لداعي

= والحاكم (٣/ ٣٧٣) ولم يتعقبه الذهبي.

(١) كما في سورة الأعراف: ١٥٠.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٤)، ومسلم (٢٣٧٢).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٤) كما في سورة طه: ٩٤.

(٥) «به» ليست في (ت، ح، ن)، فيكون الفعل للمعلوم، أي: لا يعبيه ولا ينقص من قدره. كما قال البديع في «المقامات» (١٢٣): «غَبَّرَ في وجهه الفقر»، أي: أثَّر فيه. ويجوز أن يكون من قولهم: «غَبَّرَ في وجه فلان» إذا سبقه. «الأساس» و«التاج» (غبر). أي: أن هذا الأمر ليس مما يؤخِّر رتبة موسى ومنزلته من ربه.

(٦) انظر: «الرد على البكري» (٢/ ٧١٨)، و«مدارج السالكين» (٢/ ٤٥٦)، وما سيأتي (ص: ٨٥١).

العقوبة، كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنُه بألفِ شفيع^(١)

وقال آخر^(٢):

فإن يكنِ الفعلُ الذي ساءَ واحدًا فأفعاله اللَّائِي سَرَزْنَ كثيرُ

والله سبحانه يوازنُ يومُ القيامة بين حسنات العبد وسيئاته فأيهما غلبَ كان التأثيرُ له، فيفعلُ مع أهل^(٣) الحسنات الكثيرة الذين آثروا محابَّه ومراضيه وغلبَتْهم دواعي طبعهم أحيانًا من العفو والمسامحة ما لا يفعله مع غيرهم.

وأيضًا؛ فإنَّ العالمَ إذا زلَّ فإنه يُحسِنُ إِسْرَاعَ الفِئَةِ^(٤) وتداركَ الفارِطِ ومداوأةَ الجرح، فهو كالطبيب الحاذق البصير بالمرض وأسبابه وعلاجه، فإنَّ زواله على يده أسرعُ من زواله على يد الجاهل.

وأيضًا؛ فإنَّ معه من معرفته بأمر الله، وتصديقه بوعدده ووعيدده، وخشيته

(١) كثير الورود في المصادر دون نسبة، وأقدمها: «لطائف الإشارات» للقسري (ت: ٤٦٥) (٣٤/١)، وضمَّنه أبو البركات التكريتي (ت: ٥٩٩) في أبيات، في ترجمته من «المستفاد من ذيل تاريخ بغداد» (٧).

(٢) وهو المتنبي في ديوانه (٢٤١) من أبياتٍ فائِيةٍ رقيقة. والروايةُ فيه وفي جمهرة المصادر: «ألف».

(٣) (ن، ح): «بأهل».

(٤) كُتِبَ في (ق) بخطٌ دقيق بين السطرين - تفسيرًا للكلمة -: «الرجوع».

منه، وإزرائه على نفسه بارتكابه^(١)، وإيمانه^(٢) بأن الله حرّمه، وأنّ له ربًّا يغفرُ الذنبَ ويأخذُ به، إلى غير ذلك من الأمور المحبوبة للربّ = ما يَغْمُرُ الذنبَ، ويُضَعِفُ اقْتِضَاءَهُ، ويزيلُ أثره، بخلاف الجاهل بذلك أو أكثره، فإنه ليس معه إلا ظلمة الخطيئة وقُبْحُها وآثَارُها المُردية، فلا سواء^(٣) هذا وهذا.

وهذا فصلُ الخطاب في هذا الموضع، وبه يتبيّن أن الأمرين حق، وأنه لا منافاة بينهما، وأن كلّ واحدٍ من العالم والجاهل إنما زاد قبحُ الذنب منه على الآخر بسبب جهله، وتجرد خطيئته عمّا يقاومها، ويضعفُ تأثيرها، ويزيلُ أثرها؛ فعاد القبحُ في الموضعين إلى الجهل وما يستلزمه، وقلّته وضعفه إلى العلم وما يستلزمه؛ وهذا دليلٌ ظاهرٌ على شرف العلم وفضله، وبالله التوفيق.

الوجه الحادي والخمسون بعد المئة: أن العالم المشتغل بالعلم والتعليم لا يزال في عبادة، فنفسُ تعلّمه وتعليمه عبادة.

قال ابن مسعود: «لا يزال الفقيه يصلي». قالوا: وكيف يصلي؟ قال: «ذكرُ الله على قلبه ولسانه». ذكره ابن عبد البر^(٤).

وفي حديث معاذٍ مرفوعاً وموقوفاً: «تعلّموا العلم؛ فإنّ تعلّمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح»، وقد تقدّم^(٥)، والصواب أنه موقوف.

(١) أي: الذنب.

(٢) (ت): «وعلمه».

(٣) كذا في الأصول، وهو فصيح. وغيّرت في (ط) إلى: «فلا يستوي».

(٤) في «جامع بيان العلم وفضله» (٢٣٣/١) معلقاً.

(٥) (ص: ٣٣٧).

وذكر ابنُ عبد البر^(١) عن معاذٍ مرفوعاً: «لأنَّ تَعْدُو فتتعلَّم باباً من أبواب العلم خيرٌ لك من أن تصليَ مئة ركعة»، وهذا لا يثبتُ رفعه.

وقال ابنُ وهب: كنتُ عند مالك بن أنس، فحانت صلاةُ الظهر أو العصر وأنا أقرأ عليه وأنظرُ في العلم بين يديه، فجمعتُ كتيبي وقمتُ لأركع، فقال لي مالك: ما هذا؟ فقلت: أقومُ إلى الصلاة، فقال: إنَّ هذا لعجب! ما الذي قمتَ إليه أفضلَ من الذي كنتَ فيه إذا صَحَّت في النية^(٢).

وقال الربيع: سمعتُ الشافعيَّ يقول: «طلبُ العلم أفضلُ من الصلاة النافلة»^(٣).

وقال سفيانُ الثوري: «ما مِنْ عملٍ أفضلُ من طلب العلم إذا صَحَّت فيه النية».

وقال رجلٌ للمعافي بن عمران^(٤): أيما أحبُّ إليك؛ أقومُ أصلي الليلَ كلَّه أو أكتبُ الحديث؟ فقال: «حديثٌ تكتبه أحبُّ إليَّ من قيامك من أول الليل إلى آخره»^(٥).

(١) في «الجامع» (١/ ١٢٠)، وابن ماجه (٢١٩)، وابن شاهين في «شرح مذاهب أهل السنة» (٥٤) - كلُّهم عن أبي ذر، ولم أجده عن معاذ - بإسنادٍ فيه ضعف. وضعفه العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (١/ ١٦).

(٢) تقدم الكلام عليه (ص: ٣٣٤).

(٣) تقدم تخريج قول الشافعي والثوري (ص: ٣٣٢).

(٤) أبو مسعود الأزدي، الحافظ، ياقوتة العلماء، من أئمة العلم والعمل (ت: ١٨٥). انظر: «السير» (٩/ ٨٠).

(٥) أخرجه ابن شاهين في «شرح مذاهب أهل السنة» (٢٦)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (١٨٤)، وغيرهما.

وقال أيضًا: «كتابة حديث واحد أحب إليّ من قيام ليلة»^(١).

وقال ابن عباس: «تذاكر العلم بعض ليلة أحب إليّ من إحيائها»^(٢).

وفي «مسائل إسحاق بن منصور»^(٣): قلت لأحمد بن حنبل: قوله: «تذاكر بعض ليلة أحب إليّ من إحيائها»، أي علم أراد؟ قال: هو العلم الذي يتفَعُّ به الناس في أمر دينهم. قلت: في الوضوء والصلاة والصوم والحج والطلاق ونحو هذا؟ قال: نعم.

قال إسحاق: وقال لي إسحاق بن راهويه: هو كما قال أحمد.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «لأن أجلس ساعة فأفقه في ديني أحب إليّ من إحياء ليلة إلى الصباح»^(٤).

وذكر ابن عبد البر^(٥) من حديث أبي هريرة يرفعه: «لكل شيء عماد، وعماد هذا الدين الفقه، وما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين» الحديث، وقد تقدم.

وقال محمد بن علي الباقر: «عالم يُتَفَعُّ بعلمه أفضل من ألف عابد»^(٦).

(١) أخرجه ابن عبد البر في «الجامع» (١/ ١٢٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٣٣٩).

(٣) (٣٣٠٩، ٣٣١٠)، وتقدم طرف منه (ص: ٣٣٩).

(٤) تقدم تخريجه (ص: ١٨٦).

(٥) في «الجامع» (١/ ١٢٧) معلقًا. وتقدم تخريجه (ص: ١٨٦).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٨٣)، وعلقه ابن عبد البر في «الجامع» (١/ ١٣١).

وقال أيضًا: «رواية الحديث وبُثّه في الناس أفضل من عبادة ألف عابد»^(١).

ولمّا كان طلبُ العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه من عمل القلب والجوارح كان من أفضل الأعمال، ومنزلته من عمل الجوارح كمنزلة أعمال القلب من الإخلاص والتوكل والمحبة والإنابة والخشية والرضا ونحوها من الأعمال الظاهرة.

فإن قيل: فالعلم إنما هو وسيلة إلى العمل ومراد له، والعمل هو الغاية، ومعلوم أن الغاية أشرف من الوسيلة، فكيف تُفَضَّل الوسائل على غاياتها؟ قيل: كل من العلم والعمل ينقسم قسمين: منه ما يكون وسيلة، ومنه ما يكون غاية.

فليس العلم كله وسيلة مرادة لغيرها؛ فإن العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الإطلاق، وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]؛ فقد أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ونزل الأمر بينهما ليَعْلَم عباده أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير؛ فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة.

وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]؛ فالعلم بوحديته تعالى وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته، وإن كان لا يُكفَى به وحده، بل لا بدّ معه من عبادته وحده لا شريك له؛ فهما أمران مطلوبان لأنفسهما: أن يُعْرَف

(١) علّقه ابن عبد البر في «الجامع» (١/ ١٣٢) عن جعفر بن محمد.

الربُّ تعالى' بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن يُعبدَ بمُوجِبِها ومقتضاها؛ فكما أنَّ عبادته مطلوبةٌ مرادةٌ لذاتها، فكذلك العلمُ به ومعرفته.

وأيضاً؛ فإنَّ العلمَ من أفضل أنواع العبادات - كما تقدّم تقريره -؛ فهو متضمّنٌ للغاية والوسيلة.

وقولكم: «إنَّ العمل غاية»، إمّا أن تريدوا به العملَ الذي يدخلُ فيه عملُ القلب والجوارح، أو العملَ المختصَّ بالجوارح فقط.

فإن أريدَ الأول، فهو حق، وهو يدلُّ على أنَّ العلمَ غايةٌ مطلوبة؛ لأنه من أعمال القلب - كما تقدم -.

وإن أريدَ به الثاني - وهو عملُ الجوارح فقط -، فليس بصحيح؛ فإنَّ أعمالَ القلوب مقصودةٌ ومرادةٌ لذاتها، بل في الحقيقة أعمالُ الجوارح وسيلةٌ مرادةٌ لغيرها؛ فإنَّ الثواب والعقاب والمدح والذم وتوابعها هو للقلب أصلاً وللجوارح تبعاً، وكذلك الأعمالُ المقصودُ بها أولاً صلاحُ القلب واستقامته وعبوديته لربه ومليكه، وجُعِلَت أعمالُ الجوارح تابعةً لهذا المقصود مرادةً له، وإن كان كثيراً^(١) منها يراذ^(٢) لأجل المصلحة المترتبة عليه، فمن أجلها: صلاحُ القلب وزكاؤه وطهارته واستقامته.

فعِلِمَ أنَّ الأعمال منها غايةٌ ومنها وسيلة، وأنَّ العلمَ كذلك.

وأيضاً؛ فالعلمُ الذي هو وسيلةٌ إلى العمل فقط إذا تجرّدَ عن العمل لم ينتفع به صاحبه؛ فالعملُ أشرفُ منه.

(١) كذا في الأصول، بالنصب.

(٢) (ن): «مراداً».

وأما العلمُ المقصودُ الذي تنشأ ثمرتهُ المطلوبةُ منه من نفسه فهذا لا يقال: إنَّ العملَ المجرَّدَ أشرفُ منه.

فكيف يكونُ مجرَّدُ العبادة البدنيَّة أفضلَ من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه في خلقه وأمره، ومن العلم بأعمال القلوب، وآفاتِ النفوس، والطريق التي تُفسدُ الأعمالَ وتمنعُ وصولها من القلب إلى الله، والمسافات التي بين الأعمال والقلب وبين القلب والربِّ تعالى وبِم تُقَطَّعُ تلك المسافات، إلى غير ذلك من علم الإيمان وما يقوِّيه وما يُضَعِّفه؟!

فكيف يقال: إنَّ مجرَّدَ التعبُّد الظاهر بالجوارح أفضلُ من هذا العلم؟! بل من قام بالأمرين فهو أكمل، وإذا كان في أحدهما فضلٌ ففضلُ هذا العلم خيرٌ من فضل العبادة، فإذا كان في العبد فَضْلَةٌ عن الواجب كان صرفُها إلى العلم الموروث عن الأنبياء أفضلَ من صرفها إلى مجرَّد العبادة. فهذا فصلُ الخطاب في هذه المسألة والله أعلم.

الوجه الثاني والخمسون بعد المئة: ما رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنما الدنيا لأربعة نفر:

* عبد رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتقي^(١) في ماله ربَّه، ويَصِلُ فيه رَحِمَه، ويعلمُ الله فيه حقًّا؛ فهذا بأحسن المنازل عند الله.

* ورجلٍ آتاه الله علماً ولم يُؤتِه مالاً، فهو يقول: لو أنَّ لي مالاً لعملتُ بعمل فلان؛ فهو بنيته، فهما^(٢) في الأجر سواء.

(١) (ت): «يبغي».

(٢) (ن، ح): «وهما».

* ورجل آتاه الله مالا ولم يؤتِه علما، فهو يَخْطِطُ في ماله، ولا يتقي فيه ربه، ولا يَصِلُ فيه رَحِمَه، ولا يعلمُ الله فيه حقًا؛ فهذا بأسوأ المنازل عند الله.

* ورجل لم يؤتِه الله مالا ولا علما، فهو يقول: لو أَنَّ لي مالا لعملتُ فيه بعمل فلان؛ فهو بنيتُه، وهما في الوزر سواء»^(١)، حديثٌ صحيح؛ صحَّحه الترمذيُّ والحاكمُ وغيرهما.

فقسَّم النبي ﷺ أهل الدنيا أربعة أقسام:

* خيرُهم من أوتي علما ومالا؛ فهو محسنٌ إلى الناس وإلى نفسه بعلمه وماله.

* يليه في المرتبة من أوتي علما ولم يؤت مالا، وإن كان أجرُهما سواءً فذلك إنما كان بالنية، وإلا فالمنفقُ المتصدقُ فوقه بدرجة الإنفاق والصدقة، والعالمُ الذي لا مال له إنما ساواه في الأجر بالنية الجازمة المقترنِ بها مقدورها، وهو القولُ المجرد.

* الثالث: من أوتي مالا ولم يَصْرِفْه في مصارف الخير^(٢)، ولم يؤت علما؛ فهذا أسوأ الناس منزلةً عند الله؛ لأنَّ ماله طريقٌ إلى هلاكه، فلو عَدِمَه لكان خيرا له، فإنه أُعْطِيَ ما يتزوَّدُ به إلى الجنة فجعله زادًا له إلى النار.

* الرابع: من لم يؤت مالا ولا علما، ومن نيَّته أنه لو كان له مالٌ لعمل

(١) أخرجه أحمد (٢٣٠/٤)، والترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وغيرهم من طريقٍ وقع فيها بعض الاختلاف. وقال الترمذي: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيح». ولم أقف عليه في «مستدرك الحاكم».

(٢) قوله: «ولم يصرفه في مصارف الخير» من (ت).

فيه بمعصية الله؛ فهذا يلي الغنيّ الجاهل في المرتبة ويساويه في الوزر بنيته الجازمة المقترن بها مقدورها، وهو القول الذي لم يقدر على غيره.

فقسّم السعداء قسمين، وجعل العلم والعمل بموجبه سبب سعادتهما، وقسّم الأشقياء قسمين، وجعل الجهل وما يترتب عليه سبب شقاوتهما؛ فعادت السعادة بجملتها إلى العلم وموجبه، والشقاوة بجملتها إلى الجهل وثمرته.

الوجه الثالث والخمسون بعد المئة: ما ثبت عن بعض السلف أنه قال: «تفكّر ساعة خير من عبادة ستين سنة»^(١).

وسأل رجل أمّ الدرداء عن أبي الدرداء - بعد موته - عن عبادته؟ فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية يتفكّر^(٢).

(١) أخرجه أبو الشيخ الأصفهاني في «العظمة» (٤٣)، - ومن طريقه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١٦٢٧) - من حديث أبي هريرة مرفوعاً بإسناد شديد الضعف. وانظر: «السلسلة الضعيفة» (١٧٣).

وأخرج أبو الشيخ (٤٨) عن عمرو بن قيس الملائي قال: «بلغني أن تفكّر ساعة خير من عمل دهر من الدهر».

(٢) في الأصول: «بادية التفكر». والكلمة الأولى مهملة في (د، ق). وهو تحريف عن المثبت. وفي «الإحياء» (٤ / ٤٢٤) وهو مصدر المصنف هنا: «في ناحية البيت يتفكر». وأخرج أبو نعيم في «الحلية» (١ / ١٦٤) عن أم ذر أنها سئلت السؤال نفسه عن أبي ذر؛ فقالت: «كان النهار أجمع خالياً يتفكر»، وفي مختصره «صفة الصفة» (١ / ٥٩١): «في ناحية يتفكر».

وأخرج ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣ / ٧٠٣)، وهناد (٩٥٨)، وابن المبارك (٢٨٦، ٨٧٢)، وأحمد (١٣٥) جميعهم في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» =

وقال الحسن: «تفكر ساعة خيرٌ من قيام ليلة»^(١).
 وقال الفضيل: «التفكر مرأة تريك حسناتك وسيئاتك»^(٢).
 وقيل لإبراهيم: إنك تطيل الفكرة؟ فقال: «الفكرة مخ العقل»^(٣).
 وكان سفيان بن عيينة^(٤) كثيراً ما يتمثل:
 إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة^(٥)
 وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿سَاصِرُونَ﴾: «سَاصِرُونَ عَنِ الْإِنِّ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي
 الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» [الأعراف: ١٤٦]، قال: «أمنعهم التفكر فيها»^(٦).

= (١/٢٠٨، ٤/٣٥٢)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤٥، ٤٦)، وغيرهم من طرق عن أم
 الدرداء أنها سئلت: ما كان أفضل عمل أبي الدرداء؟ فقالت: «التفكر». زاد بعضهم:
 «والاعتبار».

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٣/٥٠٧)، وأحمد في «الزهد» (٢٧٢)، وأبو نعيم في
 «الحلية» (٦/٢٧١). وورد كذلك عن أبي الدرداء.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/١٠٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١٣) عن
 الفضيل عن الحسن البصري.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/١٠٩) بلفظ: «مخ العمل». والمذكور هنا لفظ
 «الإحياء» (٤/٤٢٤). وإبراهيم هو ابن أدهم، الإمام الزاهد الثقة (ت: ١٦٢).

ترجمته في «تاريخ دمشق» (٦/٢٧٧)، و«السير» (٧/٣٨٧).

(٤) (ح، ن): «سفيان الثوري». وهو خطأ.

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/٣٠٦). والبيت في «المدحش» (٣٦٨) دون نسبة.
 وانظر: «البصائر والذخائر» (٩/٨٠).

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٥/١٥٦٧)، وأبو الشيخ في «العظمة» (١١) عن
 السدي. وورد نحوه عن ابن عيينة وغيره. وعزو المصنف القول للحسن سهو سببه
 سياق الكلام في «الإحياء».

وقال بعض العارفين^(١): «لو طالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قَدَّر^(٢) في حُجُب الغيب من خير الآخرة، لم يَصِفْ لهم في الدنيا عَيْش، ولم تَقَرَّ لهم فيها عين».

وقال الحسن^(٣): «طوُل الوحدة أتمُّ^(٤) للفكرة، وطوُل الفكرة دليلٌ على طريق الجنة».

وقال وهب^(٥): «ما طالت فكرة أحد قطُّ إلا عَلِمَ، وما عَلِمَ أمرٌ قطُّ إلا عَمِلَ^(٦)».

وقال عمر بن عبد العزيز: «الفكرة في نِعَم الله من أعظم^(٧) العبادة»^(٨).

وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه^(٩)، وقد رآه مفكِّراً: أين

(١) امرأة كانت تسكن البادية قريباً من مكة، كما في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٢٤)، وقال الزبيدي في شرحه (٣١١/ ١٣): «رواه ابن أبي الدنيا». ولعله في كتاب «التفكير»، ولم يعثر عليه بعد.

(٢) «الإحياء»: «قد أدَّخِر لها».

(٣) كذا في الأصول. وفي «الإحياء» (٤/ ٤٢٥)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٨٢٥): «لقمان».

(٤) «الإحياء»: «أفهم». «تفسير ابن كثير»: «ألهم».

(٥) وهب بن منبه الصنعاني؛ تابعي ثقة، كثير الرواية عن بني إسرائيل (ت: ١١٤). انظر: «السير» (٤/ ٥٤٤).

(٦) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٥٦).

(٧) «الإحياء»، و«الحلية»: «أفضل».

(٨) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣١٤).

(٩) «الإحياء»: «لسهل بن علي».

بَلَّغْتَ؟ قال: الصُّرَاطُ^(١).

وقال بِشْر^(٢): «لو فُكِّرَ النَّاسُ فِي عِظْمَةِ اللَّهِ مَا عَصَوْهُ»^(٣).

وقال أَبُو عَبَّاسٍ: «رَكْعَتَانِ مُقْتَصِدَتَانِ فِي تَفَكُّرٍ خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ بِلَا قَلْبٍ»^(٤).

وقال أَبُو سُلَيْمَانَ^(٥): «الْفَكْرُ فِي الدُّنْيَا حِجَابٌ عَنِ الْآخِرَةِ، وَعَقُوبَةٌ لِأَهْلِ الْوَلَايَةِ، وَالْفَكْرُ فِي الْآخِرَةِ يُوْرِثُ الْحِكْمَةَ وَيُحْيِي الْقُلُوبَ»^(٦).

وقال أَبُو عَبَّاسٍ: «التَّفَكُّرُ فِي الْخَيْرِ يَدْعُو إِلَى الْعَمَلِ بِهِ»^(٧).

وقال الْحَسَنُ: «إِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ^(٨) لَمْ يَزَالُوا يَعُودُونَ بِالذِّكْرِ عَلَى الْفِكْرِ وَبِالْفِكْرِ عَلَى الذِّكْرِ، وَيُنَاطِقُونَ الْقُلُوبَ، حَتَّى تَطْقَتْ^(٩) بِالْحِكْمَةِ»^(١٠).

(١) عزاه الزبيدي في شرحه (٣١٢/١٣) إلى «الحلية»، ولم أره فيه.

(٢) بشر بن الحارث الحافي، الإمام الرباني، العابد الزاهد (ت: ٢٢٧). انظر: «السير» (٤٦٩/١٠).

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٣٧/٨).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٢٨٨، ١١٤٧)، ومحمد بن نصر في «قيام الليل» (١٤٩ - مختصره)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤٤).

(٥) الداراني، الإمام الزاهد (ت: ٢١٥). انظر: «السير» (١٨٢/١٠).

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢٧٨/٩).

(٧) عزاه في شرح الإحياء (٣١٣/١٣) إلى «التفكير» لابن أبي الدنيا. وانظر: «البصائر والذخائر» (٢٢١/١).

(٨) «الإحياء»: «أهل العقل».

(٩) «الإحياء»: «حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت».

(١٠) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٩/١٠)، وابن أبي الدنيا في «التفكير» كما في شرح =

ومن كلام الشافعي: «أستعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة»^(١).

وهذا^(٢) لأنَّ الفكر عمل القلب، والعبادة عمل الجوارح، والقلب أشرف من الجوارح؛ فكان عمله أشرف من عمل الجوارح.

وأيضًا؛ فالتفكير يُوقِعُ صاحبه من الإيمان على ما لا يُوقِعُهُ عليه^(٣) العمل المجرد؛ فإنَّ التفكير يوجب له من أنْ يكشف حقائق الأمور وظهورها له، وتمييزها^(٤) في الخير والشر، ومعرفة مفضولها من فاضلها وأقبحها من قبيحها، ومعرفة أسبابها الموصلة إليها، وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع مُوجِبَها، والتمييز بين ما ينبغي السعي في تحصيله وما ينبغي السعي في دفع أسبابه، والفرق بين الوهم والخيال المانع لأكثر النفوس من أنتهاز الفرص بعد إمكانها وبين السبب المانع حقيقة^(٥) فيشتغل به دون الأول، فما قطع العبد عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم من الوهم الغالب على النفس والخيال الذي هو مركبها، بل بحرّها الذي لا تنفكُ

= الإحياء (١٣/٣١٣). وينحوه في «المجالسة» (٢٦٧٢).

(١) «الإحياء» (٤/٤٢٥)، و«صفة الصفوة» (٢/٢٥٣). ونسبه الجاحظ في «البيان والتبيين» (١/٣٢٧) إلى قسامة بن زهير.

(٢) أي: كون تفكير ساعة خيرًا من عبادة ستين سنة. وهو الوجه الثالث والخمسون بعد المئة من أوجه تفضيل العلم وأهله.

(٣) (د، ت، ق): «ما لا يوقع».

(٤) (ن، ح): «وتمييز مراتبها».

(٥) (ت، ح، ن): «حقيقته».

سابقة فيه، وإنما يُقَطَّعُ هذا العارضُ بفكرةٍ صحيحةٍ وعزمٍ صادقٍ يميِّزُ به^(١) بين الوهم والحقيقة.

وكذلك إذا فكَّرَ في عواقب الأمور وتجاوزَ فكره مَبَادِيها؛ وَضَعها^(٢) مواضعها، وعلم مراتبها.

فإذا وردَ عليه وارِدُ الذنب والشهوة، فتجاوزَ فكره لذَّته^(٣) وفرَّحَ النفس به إلى سوء عاقبته وما يترتبُ عليه من الألم والحزن الذي لا يقاومُ تلك اللذة والفرحة؛ ومن فكَّرَ في ذلك فإنه لا يكادُ يُقَدِّمُ عليه.

وكذلك إذا وردَ على قلبه وارِدُ الراحة والدَّعة والكسل والتقاعد عن مشقَّة الطَّاعات وتعبها، حتى عَبرَ بفكره إلى ما يترتبُ عليها من اللذات والخيرات والأفراح التي تنغمُرُ^(٤) تلك الآلام التي في مَبَادِيها بالنسبة إلى كمال عواقبها، وكلَّما غاص فكره في ذلك أَشَدَّ طلبُها لها، وسَهَّلَ عليه معاناتها، واستقبلها بنشاطٍ وقوَّةٍ وعزيمة.

وكذلك إذا فكَّرَ في منتهى ما يستعِده من المال والجاه والصُّور، ونظرَ إلى غاية ذلك بعين فكره، أَسْتَحْيَى من عقله ونفسه أن يكون عبداً لذلك، كما قيل:

لَوْ فَكَّرَ الْعَاشِقُ فِي مَتْنَهِي حُسْنِ الَّذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ^(٥)

(١) (د، ق): «فيه».

(٢) (ت): «ووضعها».

(٣) (ق، د): «فكرة لذته». وهو تحريف.

(٤) (ح، ن): «تغمر».

(٥) البيت للمتنبي، في ديوانه (٥٧٣).

وكذلك إذا فكّر في آخر الأطعمة المُفْتَحَرَةِ^(١) التي تَفَانَت عليها نفوسُ أشباه الأنعام، وما يصيرُ أمرُها إليه عند خروجهَا؛ أرتفعت همّته عن صرفها إلى الاعتناء بها، وجعلها معبودَ قلبه^(٢) الذي إليه يتوجّه، وله يرضى ويغضب، ويسعى ويكدح، ويوالي ويعادي؛ كما جاء في «المسند»^(٣) عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ طَعَامَ ابْنِ آدَمَ مَثَلِ الدُّنْيَا وَإِنْ قَرَحَهُ^(٤) وَمَلَّحَهُ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ إِلَى مَا يَصِيرُ» أو كما قال ﷺ؛ فإذا وقع فكره على عاقبة ذلك وآخر أمره، وكانت نفسه حُرَّةً أَيْبَةً، رباً بها أن يجعلها عبداً لما آخره أنتنُ شيءٍ وأخبثه وأفحشه.

فصل^(٥)

إذا عُرِفَ هذا، فالفكرُ هو إحضارُ معرفتين في القلب، ليستثمر^(٦) منهما معرفةً ثالثة.

ومثال ذلك: إذا أَحْضَرَ في قلبه العاجلةَ وعيشَهَا ونعيمَهَا وما يقرنُ به من الآفات وانقطاعه وزواله، ثُمَّ أَحْضَرَ في قلبه الآخرةَ ونعيمَهَا ولذَّتْهَا

(١) أي: الفاخرة، من الاختيار. تعبيرٌ مولّد.

(٢) (ت): «معبودة قلبه».

(٣) (٥/ ١٣٦) من زوائد عبد الله، و«الحلية» لأبي نعيم (١/ ٢٥٤)، وغيرهما من حديث أبي بن كعب.

وصححه ابن حبان (٧٠٢)، وخَرَجَ الضياء في «المختارة» (١٢٤٥).

وَرُوي موقوفاً من وجهٍ أصح. انظر: «المرسل الخفي» (٢/ ٦٣٢).

(٤) أي: جعل فيه الأقرح (جمع قِرْح)، وهي التوابل والأبازير. «اللسان».

(٥) مستفاد من «الإحياء» (٤/ ٤٢٥).

(٦) (ت): «تستثمر».

ودوامه وفضله على نعيم الدنيا، وجَزَمَ بهذين العلمين = أثمر له ذلك علماً ثالثاً، وهو أنَّ الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كلِّ عاقلٍ بإيثاره من العاجلة المنقطعة المنغصة.

ثمَّ له في معرفة الآخرة حالتان:

إحداهما: أن يكون قد سمع ذلك من غيره، من غير أن يُباشِرَ قلبه برؤ اليقين به، ولم يُفَضِّ قلبه إلى 'مُكَافَحة' (١) حقيقة الآخرة. وهذا حال أكثر الناس.

فيتجاذبه داعيان:

* أحدهما: داعي العاجلة وإيثارها، وهو أقوى الداعيين؛ لأنه مُشَاهِدٌ له محسوس.

* وداعي الآخرة، وهو أضعفُ الداعيين عنده؛ لأنه داعٍ عن سماع، لم يُباشِرَ قلبه اليقين به، ولا كافحه حقيقة العلمية.

فإذا ترك العاجلةَ للآخرة تُريه نفسه بأنه قد ترك معلوماً لمظنون، أو متحققاً لموهوم، فلسانُ الحال ينادي عليه: لا أدعُ ذرَّةً منقودةً لدُرَّةٍ موعودة (٢).

وهذه الآفةُ هي التي منعت النفوسَ من الاستعداد للآخرة وأن تسعى لها سعيها، وهي من ضعف العلم بها وثيقنُها، وإلّا فمع الجزم التام الذي لا

(١) كافحه مكافحةً وكفاحاً: لقيه مواجهةً. «اللسان» (كفح).

(٢) انظر: «شرح مقامات الحريري» (٣٣٨/٥)، و«الداء والدواء» (٧٩)، و«مدارج السالكين» (٣/٣٥٠)، و«عدة الصابرين» (٤٦٦).

يتخالج القلب فيه شك لا يقع التهاون بها وعدم الرغبة فيها.

ولهذا لو قُدِّمَ لرجلٍ طعامٌ في غاية الطيبة^(١) واللذة، وهو شديد الحاجة، ثم قيل له: إنه مسموم؛ فإنه لا يُقَدِّمُ عليه؛ لعلمه بأنَّ سوء ما تجني عاقبة تناوله^(٢) تُرَبِّي في المضرة على لذة أكله^(٣)، فما بال الإيمان بالآخرة لا يكون في قلبه بهذه المنزلة؟! ما ذاك إلا لضعف شجرة العلم والإيمان بها في القلب، وعدم استقرارها فيه.

وكذلك إذا كان سائرًا في طريق، فقليل له: إنَّ بها قُطَاعًا ولصوصًا يقتلون من وجدوه ويأخذون متاعه؛ فإنه لا يسلكها إلا على أحد وجهين: إمَّا أن لا يصدِّق المُخْبِر، وإمَّا أن يثق من نفسه بغلبتهم وقهرهم والانتصار عليهم؛ وإلا فمع تصديقه للمُخْبِر تصديقًا لا يتمارى فيه، وعلمه من نفسه بضعفه وعجزه عن مقاومتهم، فإنه لا يسلكها.

ولو حصل له هذان العلمان فيما يرتكبه من إيثار الدنيا وشهواتها لم يُقدِّم على ذلك؛ فعلم أنَّ إيثاره للعاجلة^(٤) وترك استعداده للآخرة لا يكون قطُّ مع كمال تصديقه وإيمانه أبدًا.

الحالة الثانية: أن يتيقنَ ويجزَمَ جزمًا لا شكَّ فيه بأنَّ له دارًا غير هذه الدار، ومعادًا له خُلِقَ، وأنَّ هذه الدار طريقٌ إلى ذلك المعاد ومنزلٌ من منازل السائرين إليه، ويعلمُ مع ذلك أنها باقية، ونعيمها وعذابها لا يزول، ولا نسبة

(١) كذا في الأصول. وهو صحيح. طاب الشيء يطيب طيبًا وطيبة. «اللسان».

(٢) (ت): «عاقبته بتناوله».

(٣) انظر ما مضى (ص: ٢٤٢).

(٤) (ت، ق): «للدنيا». (د): «للآخرة»، وفي الطرّة: «لعله: الدنيا».

لهذا النعيم والعذاب العاجل إليه إلا كما يُدْخِلُ الرجلُ إصبعَه في اليمِّ ثمَّ ينزِعُها، فالذي يعلّق بها منه هو كالدنيا بالنسبة إلى الآخرة؛ فيثمر له هذا العلمُ إيثارَ الآخرة وطلبها، والاستعدادَ التامَّ لها، وأن يسعى لها سعيها.

وهذا يسمّى: تفكُّراً، وتذكُّراً، ونظراً، وتأمُّلاً، واعتباراً، وتدبُّراً، واستبصاراً. وهذه معاني متقاربة تجتمع في شيء وتفرق في آخر.

* فيسمّى: تفكُّراً؛ لأنه استعملَ الفكرة^(١) في ذلك وإحضاره^(٢) عنده.

* ويسمّى: تذكُّراً؛ لأنه إحضارٌ للعلم الذي يجبُ مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

* ويسمّى: نظراً؛ لأنه ألتفتَ بالقلب إلى المنظور فيه.

* ويسمّى: تأمُّلاً؛ لأنه مراجعةٌ للنظر^(٣) كرّة بعد كرّة، حتى يتجلى له وينكشف لقلبه.

* ويسمّى: اعتباراً، وهو أفعالٌ من العبور؛ لأنه يعبرُ منه إلى غيره، فيعبرُ من ذلك الذي قد فكّر فيه إلى معرفةٍ ثالثة، وهي المقصودُ من الاعتبار.

ولهذا يسمّى: عبّرة؛ وهي على بناء الحالات، كالجلّسة والرّكبة والقنّلة، أيّذاناً بأنّ هذا العلم والمعرفة قد صار حالاً لصاحبه يعبرُ منه إلى المقصود به، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]،

(١) (ت): «استعمل الفكر».

(٢) كذا في الأصول. أي: الفكر.

(٣) (ت): «النظر». (ح): «إلى النظر».

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣، النور: ٤٤].

* ويسمى: تدبُّراً؛ لأنه نظرٌ في أدبار الأمور وهي أواخرها وعواقبها. ومنه: تدبُّر القول، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وتدبُّر الكلام أن ينظر في أوَّله وآخره، ثمَّ يعيدَ نظره مرَّةً بعد مرَّة؛ ولهذا جاء على بناء التفعُّل، كالتجرُّع والتفهُّم والتبيُّن.

* ويسمى: استبصاراً؛ وهو استفعالٌ من التبصُّر، وهو تبيُّن الأمر (١) وانكشافه وتجليه للبصيرة.

وكلُّ من التذكُّر والتفكُّر له فائدةٌ غيرُ فائدة الآخر؛ فالتذكُّر يفيدُ تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت، ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملةً، والتفكُّر يفيدُ تكثير العلم واستجلاب ما ليس حاصلًا عند القلب؛ فالتفكُّر يحصِّله والتذكُّر يحفظه (٢).

ولهذا قال الحسن: «ما زال أهلُ العلم يعودون بالتذكُّر على التفكُّر، وبالتفكُّر على التذكُّر، ويُناطِقون القلوب، حتى نَطَقَتْ بالحكمة» (٣).

فالتفكُّر والتذكُّر بذار العلم، وسقَّيه مطارحُته، ومذاكرُته تلقِيحُه، كما

(١) (ق، ح): «تبيين الأمر». خطأ.

(٢) (ق، د): «فالتفكر تحصيله والتذكر تحفظه».

(٣) تقدَّم تخريجُه قريباً.

قال بعض السلف: «ملاقاء الرجال تلقيح لألبابها»^(١)؛ فالمذاكرة به لِقَاح العقل.

فالخيرُ والسعادةُ في خزانة مفتاحها التفكرُ؛ فإنه لا بد من تفكيرٍ وعلمٍ يكونُ نتيجة الفكر^(٢)، وحالٍ يحدثُ للقلب من ذلك العلم؛ فإنَّ كلَّ من علِمَ شيئاً من المحبوب أو المكروه لا بدَّ أن يبقى لقلبه حالة^(٣) وينصبغ^(٤) بصبغة من علمه، وتلك الحالُ توجبُ له إرادة، وتلك الإرادةُ توجبُ وقوعَ العمل.

فها هنا خمسةُ أمور: الفكر، وثمرته العلم، وثمرتهما الحالة التي تحدثُ للقلب، وثمره ذلك الإرادة، وثمرتها العمل.

فالفكرُ إذاً هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها.

وهذا يكشفُ لك^(٥) عن فضل التفكرِ وشرفه، وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له، حتى قيل: «تفكرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادة سنة»^(٦).

فالفكرُ هو الذي ينقلُ من موت الغفلة إلى حياة اليقظة، ومن المكاره

(١) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٩٢٤) عن الأحنف بن قيس. وهو في «بهجة المجالس» (٥٤/١)، وغيره.

(٢) (ق): «التفكر».

(٣) (د): «حاله».

(٤) (ت): «لا بد أن يبقى بقلبه وينطبع».

(٥) ليست في (ق، ت).

(٦) من كلام السري السقطي. ويروى مرفوعاً، ولا يصح. انظر: «المغني عن حمل الأسفار» (١١٩٣)، و«المصنوع» (٨٢)، و«السلسلة الضعيفة» (١٧٣).

إلى المحابِّ، ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة، ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة، ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورخبه، ومن مرض الشهوة والإخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله والتجافي عن دار الغرور، ومن مصيبة العمى والصَّمَم والبَكَم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه، ومن أمراض الشبهات إلى بَرْد اليقين وتَلَج الصدر.

وبالجملة؛ فأصل كل طاعة إنما هو الفكر.

وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة؛ فإنَّ الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة، فيَبْذُرُ فيها حَبَّ الأفكار الرديَّة، فيتولَّدُ منه الإرادات والعزوم^(١)، فيتولَّدُ منها العمل. فإذا صادف أرض القلب مشغولة بَبْذُر الأفكار النافعة فيما خُلِقَ له وفيما أُمِرَ به وفيما هُيِّئَ له وأُعِدَّ له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم لم يجد لبْذُرَه موضعًا، وهذا كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبًا فارغًا فتمكَّنَا^(٢)

فإن قيل: فقد ذكرتم الفكرَ ومنفعته وعِظَمَ تأثيره في الخير والشر، فما متعلِّقه الذي ينبغي أن يُوقَعَ عليه ويجري فيه؟ فإنه لا يتم المقصودُ منه إلا بذكر متعلِّقه الذي يقع الفكرُ فيه، وإلا ففكرٌ في غير^(٣) متفكِّرٍ فيه محال.

(١) جمع عزم. محدثة.

(٢) البيت ليزيد بن الطثرية في «أخبار أبي تمام» (٢٦٤)، و«الموازنة» (١/٦٩)، وترجمته من «وفيات الأعيان» (٦/٣٧٠). ولمجنون بني عامر في ديوانه (٢١٩) عن «البيان والتبيين» (٢/٤٢)، و«الحيوان» (١/١٦٩، ٤/١٦٧)، وغيرهما. ولعمر بن أبي ربيعة في «عيون الأخبار» (٣/٩).

(٣) (ن): «ففكر بغير».

قيل: مجرى الفكر ومتعلّقه أربعة أمور:

أحدها: غايةٌ محبوبةٌ مرادةُ الحصول.

الثاني: طريقٌ موصلةٌ إلى تلك الغاية.

الثالث: مضرّةٌ مطلوبةُ الإعدام مكرهةُ الحصول.

الرابع: الطريقُ المفضي إليها المُوقَّع عليها.

فلا تتجاوزُ أفكارُ العقلاء هذه الأمورَ الأربعة، وأيُّ فكرٍ تخطّاها فهو من الأفكارِ الرديّةِ والخيالات والأمانى الباطلة، كما يُمثّلُ الفقيرُ المُعْدِمُ نفسه من أغنى البشر وهو يأخذُ ويعطي ويُنعِمُ ويحرِمُ، وكما يُمثّلُ العاجزُ نفسه من أقوى الملوك وهو يتصرّفُ في البلاد والرعيّة، ونظائرُ ذلك من أفكار القلوب الباطوليّة^(١) التي من جنس أفكار السّكران والمَحْشُوش^(٢) والضعيف العقل.

فالأفكارُ الرديّةُ هي قُوتُ الأنفس الخسيسة^(٣) التي هي في غاية الدناءة؛ فإنّها قد قَنَعَتْ بالخيال ورَضِيت بالمُحال، ثمَّ لا تزالُ هذه الأفكارُ تقوى بها وتزايِدُ حتّى تُوجِبَ لها آثاراً رديّةً ووساوسَ وأمراضاً بطيئةَ الزوال.

وإذا كان الفكرُ النافعُ لا يخرجُ عن الأقسام الأربعة التي ذكرناها، فله

(١) راجع ما تقدم (ص: ١١٠).

(٢) من الحشيش (وهو نباتٌ مخدّر)، كقولهم: «مخمور» من الخمر. انظر: «المعجم الكبير» لتيমور (٢/ ١١٠). ووقع مثله في «الداء والدواء» (٣٥٩).

(٣) (ت): «الخبیثة».

أيضاً محلّان ومنزلان: أحدهما: هذه الدار، والآخر: دار القرار.

* فأبناء الدنيا الذين ليس لهم في الآخرة مِنْ خَلَاقٍ عَمَّروا بيوتَ أفكارهم بتلك الأقسام الأربعة في هذه الدار، فأثمرت لهم أفكارهم فيها ما أثمرت، ولكن إذا حَقَّتِ الحقائق، وبطلت الدنيا، وقامت الآخرة؛ تبيّن الرابعُ من المَغْبُون، وخسر هنالك المبطلون.

* وأبناء الآخرة الذين خَلِقُوا لها عَمَّروا بيوتَ أفكارهم على تلك الأقسام الأربعة فيها.

ونحن نفضِّلُ ذلك بعون الله وفضله، فنقول: كُلُّ طالبٍ لشيءٍ فهو محبٌّ له، مُؤَثِّرٌ لقرْبه، ساعٍ في طريق تحصيله، متوصِّلٌ إليه بجهده، وهذا يوجبُ له تعلُّقُ أفكاره بجمال محبوبه وكماله وصفاته^(١) التي يُحِبُّ لأجلها، وتعلُّقها بما ينالُه به من الخير والفرحة والسرور.

ففكرُه في حال محبوبه دائرٌ بين الجمال والإجمال^(٢)، والحُسن والإحسان، فكلُّما قويت محبَّتُه له أزدادَ هذا الفكرُ وقويَ وتضاعف، حتَّى يستغرقَ أجزاءَ القلب فلا يبقى فيه فضلٌ لغيره، بل يصيرُ بين الناس بقالبه، وقلْبُه كلُّه في حضرة محبوبه.

فإن كان هذا المحبوبُ هو المحبوبَ الحقَّ الذي لا تنبغي المحبةُ إلا له، ولا يُحِبُّ غيرُه إلا تبعاً لمحبَّتِه، فهو أسعدُ المحبِّين به، وقد وضعَ الحبَّ موضعه، وتهيَّأت نفسه لجمالها الذي خَلَقَتْ له الذي لا كمال لها بدونه

(١) (ت): «وكمال صفاته».

(٢) انظر: «المدارج» (٣/٢٨٨)، و«القوانين الفقهية» لابن جزي (٢٨٥).

بوجه.

وإن كانت تلك المحبة لغيره من المحبوبات الباطلة المتلاشية التي
تفنى وتبقى حزازات النفوس^(١) بها على حالها، فقد وضع المحبة في غير
موضعها، وظلم نفسه أعظم ظلم وأقبحه، وتهيأت بذلك نفسه لغاية شقائها
وآلمها.

وإذا عُرِفَ هذا عُرِفَ أَنَّ تعلقَ المحبة بغير الإله الحق هو عينُ شقاء
العبد وخسرانه، فأفكاره المتعلقة بها كلها باطلة، وهي مضرّة عليه في حياته
وبعد موته.

والمحبُّ الذي قد ملكَ المحبوبُ أفكارَ قلبه لا يخرجُ فكره عن تعلقه
بمحبوبه أو بنفسه.

ثمَّ فكره في محبوبه لا يخرجُ عن حالتين:
إحداهما: فكرته في جماله وأوصافه.

الثانية: فكرته في أفعاله وإحسانه وبرّه ولطفه الدالة على كمال صفاته.

وإن تعلقَ فكره بنفسه لم يخرج - أيضًا - عن حالتين:

* إمّا أن يفكر في أوصافه المسخوطة التي يبغضها محبوبه ويمقته
عليها ويُسقطه من عينه، فهو دائماً يتوقّع بفكره عليها ليجتنبها ويبعدَ منها.

* والثانية: أن يفكر في الصفات والأخلاق والأفعال التي تقربّه منه
وتحبّبه إليه حتى يتصف بها.

(١) (ح، ن): «القلوب».

فالفكرتان الأولتان^(١) توجبُ له زيادةً محبَّته وقوَّتها وتضاعفُها،
والفكرتان الآخرتان^(٢) توجبُ محبةً محبوبه له، وإقباله عليه، وقربه منه،
وعطفه عليه، وإيثاره على غيره.

فالمحبةُ التامةُ مستلزِمةٌ لهذه الأفكار الأربعة.

فالفكرةُ الأولى والثانية: تتعلَّقُ بعلم التوحيد وصفات الإله المعبود -
سبحانه - وأفعاله، والثالثة والرابعة: تتعلَّقُ بالطريق الموصلة إليه وقواطعها
وآفاتُها وما يمنعُ من السير فيها إليه.

فتفكره في صفات نفسه يميِّزُ له المحبوبَ لربه منها من المكروه له.

وهذه الفكرةُ توجبُ ثلاثةَ أمور:

أحدها: أن هذا الوصفَ هل هو مكروهٌ مبغوضٌ لله أم لا؟

والثاني: إذا كان مكروهاً، فهل العبدُ متصفٌ به أم لا؟

والثالث: إذا كان متصفاً به، فما طريقُ رفعه^(٣) والعافية منه؟ وإن لم

يكن متصفاً به فما طريقُ حفظ الصِّحة وبقائه على العافية والاحتراز منه؟

وكذلك الفكرةُ في الصفة المحبوبة تستدعي ثلاثةَ أمور:

هل هي محبوبَةٌ لله مرضيَّةٌ له أم لا؟

الثاني: هل العبدُ متصفٌ بها أم لا؟

(١) (ت): «الاوليتان». وتقدم التعليق عليها (ص: ٢٩٨).

(٢) كذا في الأصول، مشى آخره. انظر: «بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٨٩).

(٣) (ح، ن): «دفعه».

الثالث: أنه إذا كان متصفاً بها، فما طريقُ حفظها ودوامها؟ وإن لم يكن متصفاً بها فما طريقُ اجتلابها والتخلُّق بها؟

ثم فكرته في الأفعال على هذين الوجهين أيضاً سواء.

ومجاري هذه الأفكار ومواقفها كثيرة جداً لا تكادُ تنضبط، وإنما يحصرها ستة أجناس: الطاعاتُ الظاهرةُ والباطنة، والمعاصي الظاهرةُ والباطنة، والصفاتُ والأخلاقُ الحميدة، والأخلاقُ والصفاتُ الذميمة. فهذه مجاري الفكرة في صفات نفسه وأفعالها^(١).

وأما الفكرة في صفات المعبود وأفعاله وأحكامه، فتوجبُ له التمييز بين الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والإقرار والتعطيل، وتنزيه الربِّ عمَّا لا يليقُ به، ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام.

ومجاري هذه الفكرة: تدبُّرُ كلامه، وما تعرَّف به سبحانه إلى عبادته على ألسنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزَّه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليقُ به سبحانه، وتدبُّرُ أفعاله وأيامه في أوليائه وأعدائه التي قصَّها على عبادِهِ وأشهدهم إيَّاهَا؛ ليستدلُّوا بها على أنه إلههم الحقُّ المبينُ الذي لا تنبغي العبادةُ إلا له، ويستدلُّوا بها على أنه على كلِّ شيءٍ قدير، وأنه بكلِّ شيءٍ عليم، وأنه شديدُ العقاب، وأنه غفورٌ رحيم، وأنه العزيزُ الحكيم، وأنه الفعَّالُ لما يريد، وأنه الذي وَسِعَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً، وأنَّ أفعالهَ كلَّها دائرةٌ بين الحكمة والرحمة، والعدل والمصلحة، لا يخرجُ شيءٌ منها عن ذلك.

وهذه الثمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبُّر كلامه والنظر في آثار أفعاله.

(١) (ت): «وأفعاله».

وإلى هذين الأصلين^(١) ندب عباده في القرآن:

* فقال في الأصل الأول: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿أَفَلَمْ يَذْكُرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذَّبُوا عَائِنَتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿كَتَبَ فَصَلَّتْ عَائِنَتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

* وقال في الأصل الثاني: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [١١٠] الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١]، وقال: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢] وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [٤] وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الباقية: ٣ - ٥]، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: ٢١]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢]، ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [٢٠] وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ [إلى قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٠ - ٢٥].

(١) تدبر كلامه، والنظر في آثار أفعاله.

ونَوَّعَ سبحانه الآيات في هذه السورة^(١):

* فجَعَلَ خَلَقَ السموات والأرض واختلافَ لغات الأمم وألوانهم آياتٍ للعالمين كُلِّهِمْ؛ لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالته.

* وجعل خَلَقَ الأزواج التي يسكنُ إليها الرجالُ وإلقاءَ المودَّةِ والرحمةِ بينهم آياتٍ لقومٍ يتفكرون؛ فَإِنَّ سَكُونَ الرجلِ إلى أَمْرَاتِهِ وما يكونُ بينهما من المودَّةِ والتعاطفِ والتراحمِ أَمْرٌ باطنٌ مشهودٌ بعينِ الفكرة والبصيرة، فمتى نظر بهذه العينِ إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدرَ عنها ذلك، ذَلَّ فكرُهُ على أَنه الإله الحقُّ المبين الذي أَقَرَّتْ الفِطْرُ بربوبيته وإلهيته وحكمته ورحمته.

* وجعل المنامَ بالليل والنهار والتَصَرُّفَ^(٢) في المعاشِ وابتغاءَ فضلِهِ آياتٍ لقومٍ يسمعون، وهو سَمْعُ الفهمِ وتدبُّرُ هذه الآياتِ وارتباطها^(٣) بما جُعِلَتْ آيَةٌ لَهُ مما أَخْبِرَتْ به الرسلُ من حياةِ العبادِ بعد موتهم وقيامهم من قبورهم، كما أَحْيَاهُمْ سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتَصَرُّفِ في معاشهم؛ فهذه الآيةُ إِنما يَتَنَفَّعُ بها من سَمِعَ ما جاءت به الرسل، وَأَصْغَى إِلَيْهِ، واستدلَّ بهذه الآية عليه.

* وجعل إِرَاءَ تَهَمِ البرقِ^(٤) وإنزالَ الماءِ من السماء وإحياءَ الأرضِ به آياتٍ لقومٍ يعقلون؛ فَإِنَّ هذه أُمُورٌ مرئيةٌ بالأبصارِ مشاهدةٌ بالحسِّ، فإذا نظر فيها ببصرِ قلبه - وهو عقلُهُ - استدلَّ بها على وجودِ الربِّ تعالى وقدرته

(١) سورة الروم.

(٢) (ح، ن): «للتصرف». وهو تحريفٌ ظاهرٌ من سياق الآية.

(٣) (ح): «ارتباطها».

(٤) قال ابن الأعرابي: «أَرَيْتُهُ الشَّيْءَ إِرَاءَةً وَإِرَائَةً وَإِرَاءَةً». «اللسان».

وعلمه ورحمته وحكمته وإمكان ما أخبر به من إحياء الخلائق بعد موتهم
كما أحيا هذه الأرض بعد موتها.

وهذه أمورٌ لا تُدرَكُ إلا ببصر القلب - وهو العقل -؛ فإنَّ الحِسَّ دَلَّ على
الآية، والعقل دَلَّ على ما جُعِلَتْ آيَةٌ له، فذكر سبحانه الآية المشهودة
بالبصر، والمدلول عليه المشهود بالعقل، فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ
الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

فتبارك الذي جعل كلامه حياةً للقلوب وشفاءً لما في الصدور.
وبالجملة؛ فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّر والتفكُّر؛ فإنه
جامعٌ لجميع منازل السائرين، وأحوال العاملين، ومقامات العارفين، وهو الذي
يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض
والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن
جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه.

فلو عَلِمَ النَّاسُ ما في قراءة القرآن بالتدبُّر لاشتغلوا بها عن كلِّ ما
سواها، فإذا قرأه بتفكُّرٍ حتى مرَّ بآيةٍ هو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه كرَّرها ولو
مئة مرَّة، ولو ليلة؛ فقراءة آيةٍ بتفكُّرٍ وتفهُُّمٍ خيرٌ من قراءة ختمةٍ بغير تدبُّرٍ
وتفهُُّمٍ، وأنفع للقلب، وأدعى إلى حصول الإيمان ودَوْقِ حلاوة القرآن.

وهذه كانت عادة السلف، يردُّد أحدهم الآية إلى الصباح^(١)، وقد ثبت

(١) انظر: مختصر «قيام الليل لمحمد بن نصر» (١٤٨ - ١٥١)، و«نتائج الأفكار» لابن حجر (٣/ ١٩١ - ١٩٥).

عن النبي ﷺ أنه قام بآية يردّها حتى الصباح^(١)؛ وهي قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

فقراءة القرآن بالتفكير هي أصل صلاح القلب.

ولهذا قال ابن مسعود: «لَا تَهْذُوا الْقُرْآنَ هَذَا الشَّعْرَ، وَلَا تَنْشُرُوهُ نَشْرَ الدَّقْلِ، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ»^(٢).

وقال ابن مسعود - أيضًا -: «أَقْرَأُوا الْقُرْآنَ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، لَا يَكُنْ هُمْ أَحَدُكُمْ آخِرَ السُّورَةِ»^(٣).

وروى أيوب، عن أبي جمرة، قال: قلت لابن عباس: إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث. قال: «لأن أقرأ سورة من القرآن في ليلة فأتدبرها وأرتلها أحب إلي من أن أقرأ القرآن كما تقرأ»^(٤).

والتفكير في القرآن نوعان:

* تفكير فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه.

(١) أخرجه أحمد (١٤٩/٥)، والنسائي (١٠١٠)، وابن ماجه (١٣٥٠)، وغيرهم من حديث أبي ذر.

وصححه الحاكم (٢٤١/١) ولم يتعقبه الذهبي. وانظر: «صحيح ابن خزيمة» (٢٧١/١)، و«مسند البزار» (٤٥١/٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥٢١/٢)، (٥٢٥/١٠). والدَّقْل: رديء التمر ويابسُه. «اللسان».

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨/٥).

(٤) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٩٣)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٤٨٩/٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٣٩٦/٢).

* وتفكّر في معاني ما دعا عباده إلى التفكّر فيه.

فالأول: تفكّر في الدليل القرآني، والثاني: تفكّر في الدليل العياني.
الأول: تفكّر في آياته المسموعة، والثاني: تفكّر في آياته المشهودة.

ولهذا أنزل الله القرآن لِيَتَذَكَّرَ وَيَتَفَكَّرَ فِيهِ وَيُعْمَلَ بِهِ، لا لمجرد تلاوته
مع الإعراض عنه.

قال الحسن البصري: «أُنزِلَ القرآن لِيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخَذُوا تِلَاوَتَهُ
عَمَلًا»^(١).

(١) «تلبس إبليس» (١٣٧)، و«تفسير السمعاني» (١١٩/٤). وأخرجه الخطيب في
«اقتضاء العلم بالعمل» (١١٦) عن الفضيل. وأورده مكي في «القوت» (١/١٢٢)،
والغزالي في «الإحياء» (١/٦٤، ٢٧٥) عن ابن مسعود.